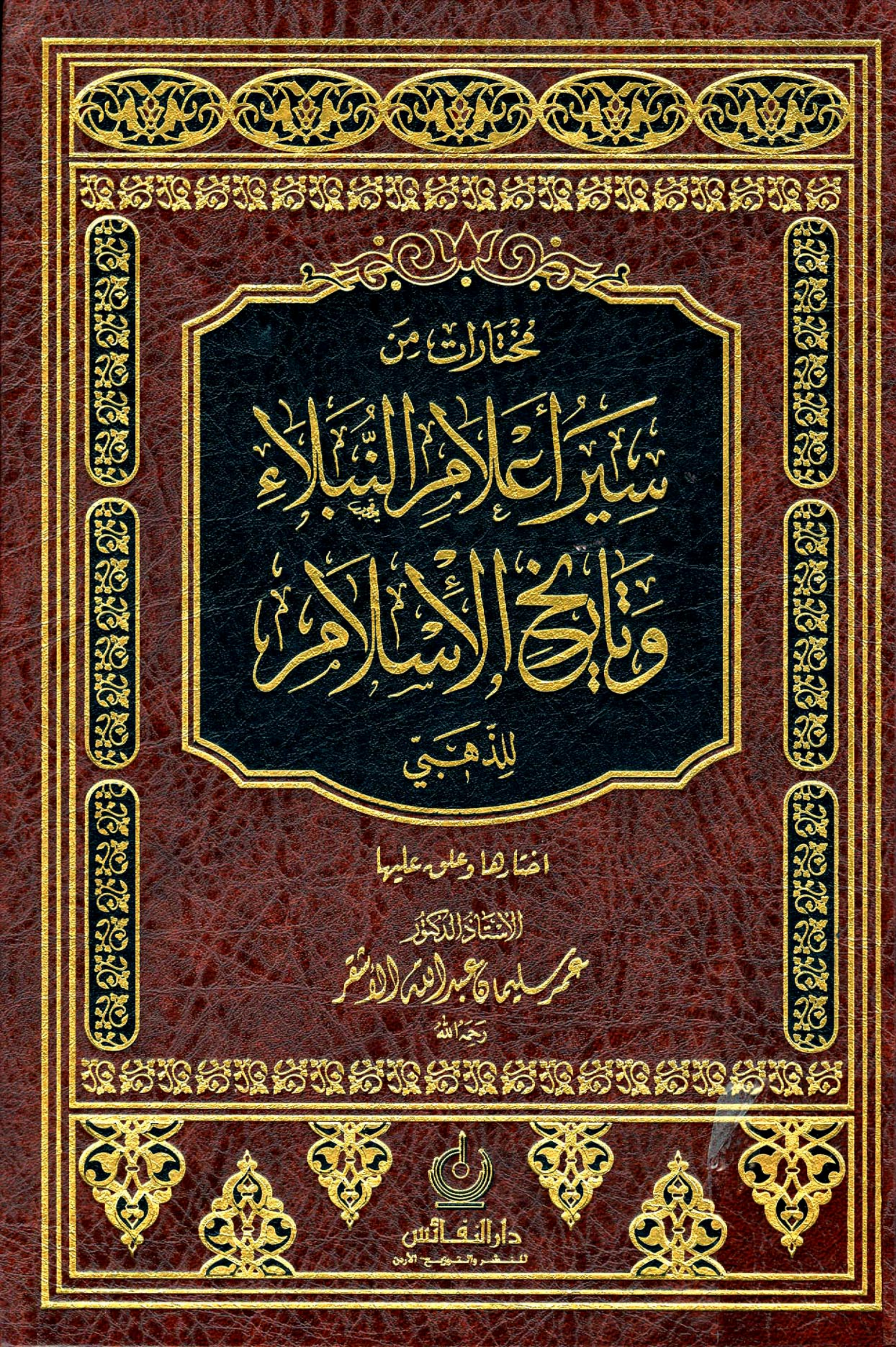
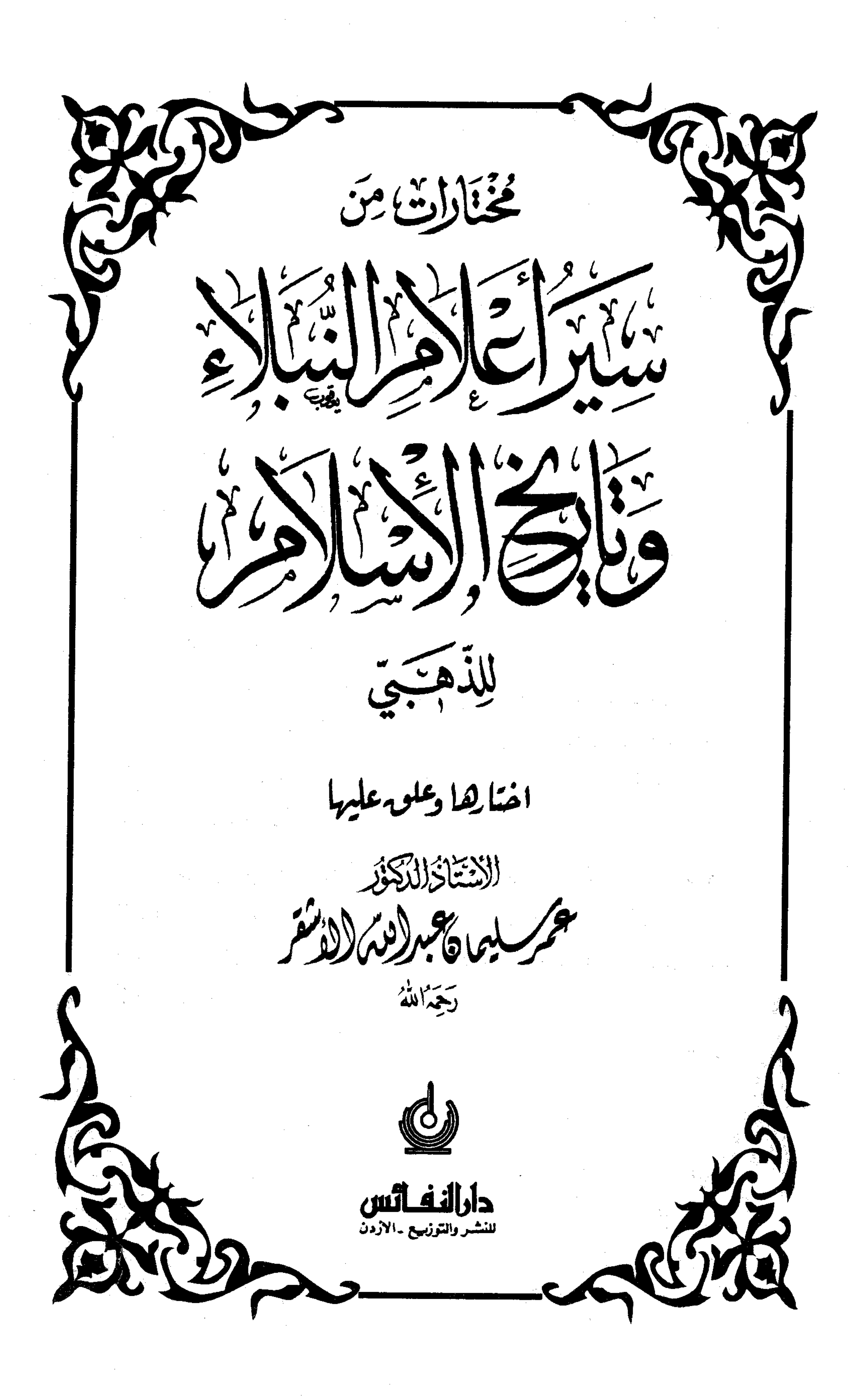

مختارات من
سير أعلام النبلاء
وتاريخ الإسلام
للذهبي
اختارها وعلق عليها
الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله
دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن



مختارات من

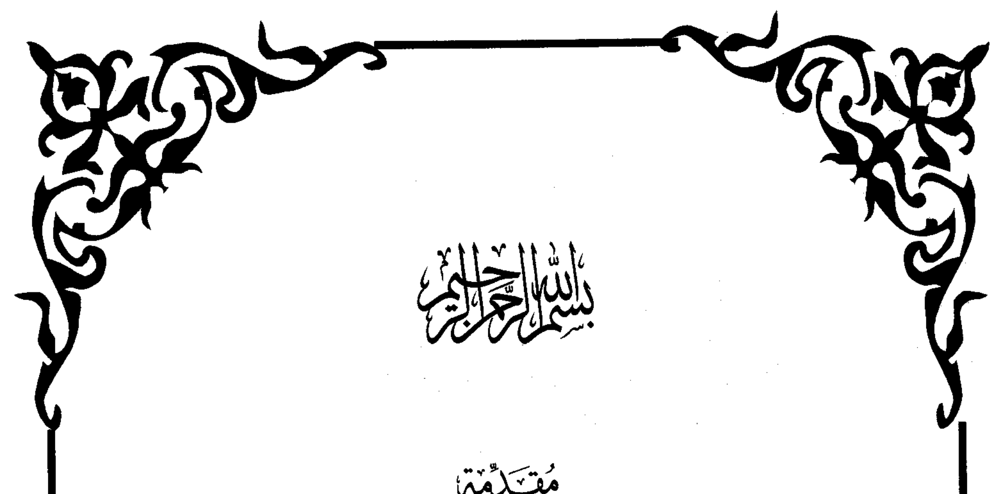
سير أعلام النبلاء وتاريخ الإسلام

للذهبي

اختارها وعلق عليها

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن



مُقدِّمة

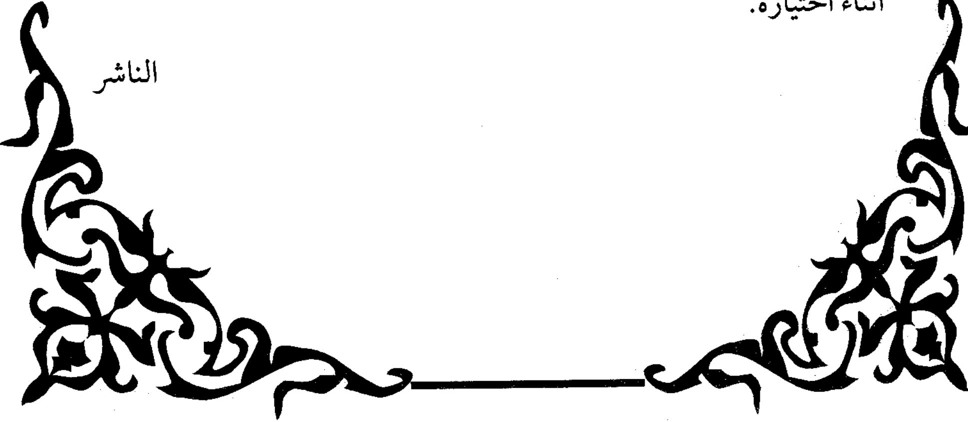
هذه التراجم اختارها الدكتور عمر سليمان الأشقر رحمه الله، وذكر أن «الهدف من الاختيارات بيان ما كانت تتميز به الأمة من العلماء والأبطال والقواد والقضاة».

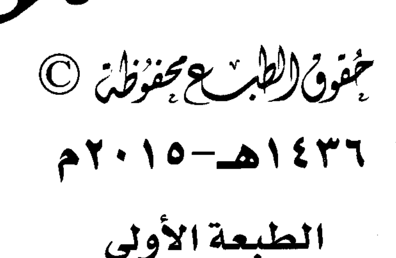
وذكر خطة عمله فقال:

«أقرأ كل جزء، وأصطفي ما يحوز إعجابي وأعنون له، وأضف لكل عنوان ما يشبهه، مثلاً: السلفيون أذكر تحته أعلامهم باختصار، وكيف يكون الموت، أذكر تحته كيف مات الصالحون، وكيف مات الطالحون، الخاتمة الحسنة والخاتمة السيئة».

ولكن وافته المنية، قبل تنفيذ وإتمام ما أراد، ومن الأمانة إخراج هذه المختارات كما وجدناها، وعدم التدخل والترتيب لأننا لا نستطيع أن ننسب إليه عملاً لم يقم به، بل نقدم هذه المختارات مع العناوين التي أضافها بخطة أثناء اختياره.

الناشر





١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٤/٤/١٥٠٦

٩٢٠,٧١

الأشقر، عمر سليمان

مختارات من سير أعلام النبلاء/ عمر سليمان الأشقر -عمان-دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.

( ) ص.

ر. إ.: ٢٠١٤/٤/١٥٠٦

الواصفات: /التراجم/ /الرجال/ / التاريخ الاسلامي/



العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس

ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن

هاتف: 5693940 6 00962

فاكس: 5693941 6 00962

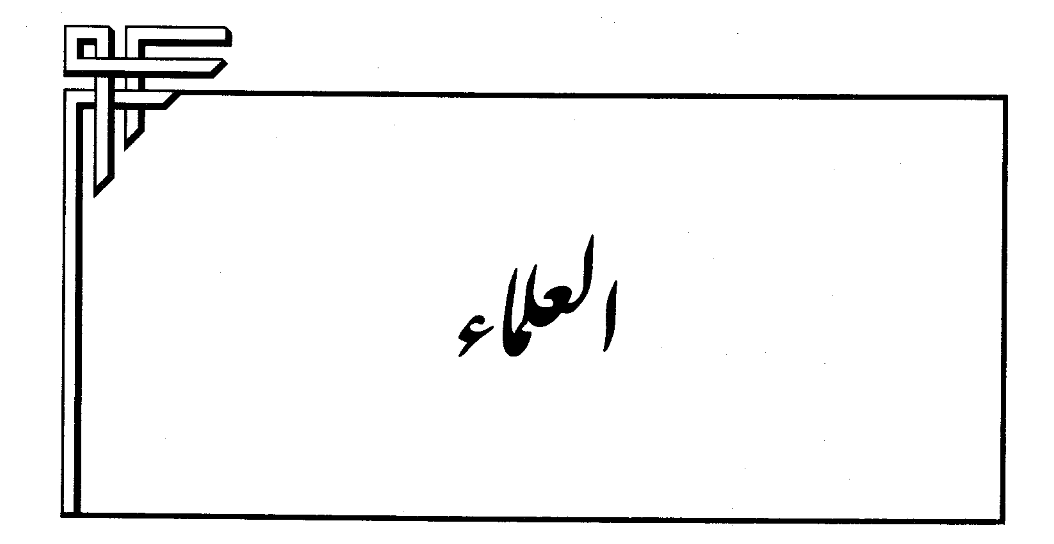
Email: alnafaes@hotmail.com

www.al-nafaes.com



9 789957 801762




العلماء

[علماء أصبحوا حكاماً][1]

أحمد بن طولون[2]

الأمير أبو العباس التركي، صاحب مصر، وُلد بسامراء.

ويقال: إن طولون تبنّاه، وكان ظاهر النّجابة مِن صِغره. وكان طولون قد أهداه نوح عامل بخارى إلى المأمون في جملة غلمان، وذلك في سنة مائتين. فمات طولون في سنة أربعين ومئتين، ونشأ ابنه على مذهبٍ جميلٍ فحفظ القرآن وأتْقنه. وكان مِن أطيب الناس صوتاً به، مع كثرة الدرس وطلب العلم.

وحصل وتنقلّت به الأحوال إلى أن ولي إمرة الثغور، وولي إمرة دمشق وديار مصر. وأول دخوله مصر سنة أربعٍ وخمسين ومائتين وعمره أربعون سنة، فملكها بضع عشرة سنة.

وبلغنا أنه خلّف من الذَّهَب الأحمر عشرة آلاف ألف دينار، وأربعة وعشرين ألف مملوك.

ويقال: إنه خلّف ثلاثة وثلاثين ولداً ذكوراً وإناثاً، وستمائة بغل ثقْل.

وقيل: إن خراج مصر بلغ في العام في أيامه أربعة آلاف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار.

وكان شجاعاً حازماً مَهيباً خليقاً للمُلْك، جواداً ممدَّحاً. وقيل: بلغت نفقته كل يوم ألف دينار. إلا أنه كان سفاكاً للدماء، ذا سَطْوةٍ وجبروت.

قال القُضاعي: أُحْصي مَن قتله صبْراً، فكان جملتهم مع من مات في سجنه ثمانية عشر ألفاً.

---

(١) كل ما بين حاصرتين من عناوين هو من وضع الدكتور عمر سليمان الأشقر صاحب هذه المختارات رحمه الله تعالى.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي، ٢٠/٤٦.

وأنشأ الجامع المشهور، وغرِم على بنائه أكثر من مائة ألف دينار. وكان الخليفة مشغولاً عنه بحرب الزّنْج.

وكان فيما قيل حسَّن له بعض التجار التجارة، فدفع إليه خمسين ألف دينار، فرأى في النوم كأنه يمشمش عظْماً. فدعى المعَبّر وقصّ عليه فقال: لقد سَمَتْ هِمَّةُ مولانا إلى مكسبٍ لا يُشبَّه خَطَرُه.

فأمر صاحب صدقته أن يأخذ الخمسين ألف دينار من التاجر ويتصدَّق بها. وكان، سامحه الله تعالى، قد ضبط الثغور وعمّرها. وكان صحيح الإسلام معظِّماً للحُرُمات، محباً للجهاد والرباط.

قال أحمد بن خاقان، وكان تِرْباً لأحمد بن طولون: وُلد أحمد سنة أربع عشرة ومائتين، ونشأ في الفقه والتصوف، فانتشر له حُسْن الذكر، وكان شديد الإزراء على الأتراك فيما يرتكبونه، إلى أن قال لي يوماً: يا أخي، إلى كم نقيم على الإثم، لا نطأ موطئاً إلا كُتب علينا فيه خطيئة. والصواب أن نسأل الوزير عُبيد الله بن يحيى أن يكتب لنا بأرزاقنا إلى الثغر ونقيم به في ثوابه.

ففعلنا ذلك، فلما صرنا بطَرسوس سُرَّ بما رأى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم عاد إلى العراق وارتفع محله.

قال محمد بن يوسف الهروي، نزيل دمشق، كنا عند الربيع بن سليمان سنة ثمانٍ وستين، إذ جاء رسول أحمد بن طولون بكيس فيه ألف دينار، وقال لي عبدالله القيرواني: بل كان سبعمائة دينار، وصُرّة فيها ثلاثمائة دينار، لابنه أبي الطاهر. فدعى الربيع ابنه حتى جاءه فأمره بقبض المال.

[فراسة ابن طولون]

ذكر محمد بن عبدالملك الهمداني أن أحمد بن طولون جلس يأكل، فرأى سائلاً، فأمر له بدجاجة ورغيف وحلوى. فجاء الغلام وقال: ناولته فما هشَّ له.

فقال: عليَّ به. فلما مَثُلَ بين يديه لم يضطرب من الهيبة، فقال: أحضِر الكتب التي معك وأصْدِقْني، فقد ثبت عندي أنك صاحب خبر. وأحضر السياط فاعترف فقال بعض من حضر: هذا والله السحر.

قال: ما هو بسحر، ولكنه قياس صحيح. رأيت سوء حاله، فسيَّرت له طعاماً يُسَرّ له الشبعان، فما هشَّ، فأحضرته فتلقاني بقوة جأش، فعلمت أنه صاحب خبر.

قال أبو الحسين الرازي: سمعت أحمد بن حُمَيد بن أبي العجائز وغيره من شيوخ دمشق قالوا: لما دخل أحمد بن طولون دمشق وقع فيها حريق عند كنيسة مريم، فركب إليه أحمد ومعه أبو زُرْعة البصري، وأبو عبدالله محمد بن أحمد الواسطي كاتبه، فقال ابن طولون لأبي زُرْعة: ما يسمى هذا الموضع؟

فقال: كنيسة مريم.

فقال أبو عبدالله: وكان لمريم كنيسة؟

قال: ما هي من بناء مريم، إنما بنوْها على اسمها.

فقال ابن طولون: ما لك والاعتراض على الشيخ.

ثم أمر بسبعين ألف دينار من ماله، وأن يُعطى كل من احترق له شيء، ويُقبَل قوله ولا يُستَحْلف. فأعطوا وفضل من المال أربعة عشر ألف دينار.

ثم أمر ابن طولون بمالٍ عظيم فُرِّق في فقراء أهل دمشق والغوطة. وأقل من أصابه من المستورين دينار.

وعن محمد بن علي المادرائي قال: كنت أجتاز بتربة أحمد بن طولون فأرى شيخاً ملازماً للقبر، ثم إني لم أره مدة. ثم رأيته فسألته، فقال: كان له علينا بعض العدل إن لم يكن الكل فأحببت أن أصِله بالقراءة.

قلت: فلِمَ انقطعت؟

قال: رأيته في النوم وهو يقول: أحبّ أن لا يُقْرأ عندي، فما آية إلا قُرعتُ بها وقيل لي: ما سمعتَ هذه؟

توفي بمصر في ذي القعدة سنة سبعين [ومئتين]، وتملّك بعده ابنه خُمَارَوَيْه.

[نوادر الحفاظ من العلماء وغيرهم]

١ - أحمد بن محمد بن هانئ الفقيه[1]

أبو بكر الأثرم الطائي، ويقال الكلبي الإسكافي الحافظ. صاحب الإمام أحمد.

جمع وصنَّف السنن، وخرَّج كتاب «العِلَل». وله مسائل سألها الإمام أحمد.

قال أبو بكر الخلاّل: كان الأثرم جليل القدر حافظاً. لما قَدِم عاصم بن علي بغداد طلب مَن يُخرج له فوائد. فلم يجد غير أبي بكر، فلم يقع منه بموقع لحداثة سنه، فقال لعاصم: أخرجْ كُتُبَك. فجعل يقول له: هذا الحديث خطأ، وهذا غلط، وهذا كذا. فسُرَّ عاصم به، وأملى قريباً من خمسين حديثاً.

وكان مع الأثرم تيقظ عجيب حتى نسبه يحيى بن معين أو يحيى بن أيوب المقابري، فقال: كان أحد أبويّ الأثرم جِنّيّاً.

وقد أخبرني أبو بكر بن صَدَقَة قال: سمعت أبا القاسم الخُتَّليّ قال: قدِم رجلٌ فقال: أريد أن يُكتب لي في الصلاة ما ليس في كتب أبي بكر بن أبي شيبة. فقلنا له: ليس لك إلا الأثرم.

قال: فوجهوا إليه ورقاً، فكتب ستمائة ورقة من كتاب الصلاة.

قال: فنظرنا فإذا ليس في كتاب أبي بكر بن أبي شيبة منه شيء.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، ٢٠/ ٥٣.

وأخبرني أبو بكر بن صَدَقَة: سمعت إبراهيم الإصبهاني يقول: أبو بكر الأثرم أحفظ من أبي زُرْعة الرازي وأتقن.

وسمعت الحسن بن علي بن عمر الفقيه يقول: قدِم شيخان من خراسان للحج فحدَّثا، فقعد هذا ناحية معه خلْق ومستملي، وقعد الآخر ناحية كذلك، فجلس الأثرم بينهما، فكتب ما أمليا معاً.

توفي الأثرم بإسكاف [سنة ٢٦١هـ].

٢- محمد بن عيسى الترمذي بن سورة بن موسى السلمي(١)

الحافظ أبو عيسى الترمذي الضرير، مصنف كتاب «الجامع».

وُلد سنة بضعٍ ومائتين.

وسمع: قتيبة بن سعيد، وأبا مصعب الزهري، وإبراهيم بن عبدالله الهروي، وإسماعيل بن موسى السدي، وصالح بن عبدالله الترمذي، وعبدالله بن معاوية، وحميد بن مسعدة، وسُويد بن نصر المروزي، وعلي بن حُجْر السعدي، ومحمد بن حميد الرازي، ومحمد بن عبدالعزيز بن أبي رزْمة، ومحمد بن عبدالملك بن أبي الشوارب، وأبا كُريب محمد بن العلاء، ومحمد بن أبي معشر السندي، ومحمود بن غيلان، وهنّاد بن السري، وخلْقاً كثيراً.

وأخذ علم الحديث عن أبي عبدالله البخاري.

وعنه: حمّاد بن شاكر، ومكحول بن الفضل، وعبد بن محمد، ومحمد بن محمود بن عنبر النسفيون، والهيثم بن كُليب الشاشي، وأحمد بن علي بن حَسْنَوَيْه النسيابوري، ومحمد بن أحمد بن محبوب المروزي، ومحمد بن المنذر شَكَر والربيع بن حبان الباهلين والفضل بن عمار الصرّام، وآخرون.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، ٢٠/ ٤٥٩.

ذكره ابن حبان في «الثقات» وقال: كان ممن جمع وصنَّف وحفظ وذاكَرَ.

قلت: ويقال له «البُوغي»، بضم الموحّدة وبغينٍ معجمة.

وبُوغ: قرية على ستة فراسخ من ترمِذ، بفتح التاء، وقيل بضمها، ويقال بكسْرها. وهي على نهر بلْخ.

وقد سمع منه شيخه أبو عبدالله البخاري حديثاً؛ فإنه قال في حديث علي بن المنذر، عن محمد بن فضيل، عن سالم بن أبي حفصة، عن عطية، عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال لعلي: «لا يحل لأحدٍ يُجْنِبُ في هذا المسجد غيري وغيرك» سمع مني محمد بن إسماعيل هذا الحديث [واستغربه](1).

وقال عبد المؤمن بن خَلَف النسفي: قُرِئ عليه «الجامع» في دارنا بنَسَف وأنا صغير ألعب.

قلت: وآخر مَن روى حديثه عالياً أبو المِنْجاب الليثي: وكتابه «الجامع» يدل على تبحُّره في هذا الشأن، وفي الفقه، واختلاف العلماء. ولكنه يترخّص في التصحيح والتحسين. ونَفَسُه في التخريج ضعيف.

[ذكاؤه الحاد وحفظه ما يسمع لأول مرة]

قال أبو سعيد الإدريسي: كان أبو عيسى يُضرب به المثل في الحفظ. سمعت أبا بكر محمد بن الحارث المروَزِي الفقيه يقول: سمعت أحمد بن عبدالله بن المروَزِي يقول: سمعت أبا عيسى يقول: كنت في طريق مكة وكنت قد كتبت جزءين من أحاديث شيخ، فمر بنا، فذهبتُ إليه وأنا أظن أن الجزءين معي، ومعي في محملي جزءان حسبتهما الجزءين، فلما أذِن لي أخذتُ الجزءين، فإذا هما بياض. فتحيّرت، فجعل الشيخ يقرأ عليّ من حفظه.

---

(1) انظر سنن الترمذي، الحديث (٣٧٢٧)، وقال الألباني: حديث ضعيف.

ثم نظر إليّ فرأى البياض في يدي، فقال: أما تستحي مني؟

فقصصت عليه أمره، وقلت: أحفظه كله.

فقال: اقرأ. فقرأت جميع ما قرأ عليّ أولاً، فلم يصدقني.

وقال: استظهرتَ قبل أن تجيئني.

فقلت: حدثني بغيره.

فقرأ عليّ أربعين حديثاً من غرائب حديثه، ثم قال: هاتِ اقرأ.

فقرأت عليه من أوله إلى آخره، فما أخطأت في حرف. فقال: ما رأيت مثلك.

وقال أبو أحمد الحاكم: سمعت عمر بن عَلَّك يقول: مات محمد بن إسماعيل البخاري ولم يُخلف بخراسان مثل ابن عيسى في العلم والحفظ والزهد والورع. بكى حتى عَمِي وبقي على ضرره سنين.

وقال محمد بن طاهر الحافظ في «المنثور» له: سمعت الإمام أبا إسماعيل عبدالله بن محمد الأنصاري بهَراة، وجرى ذكر الترمذي، فقال: كتابه أنفع من كتاب البخاري، ومسلم؛ فإنه لا يقف على الفائدة منهما إلا المتبحّر العالِم. وكتاب أبي إسماعيل يصل إلى فائدته كل واحد من الناس.

قال غُنْجار في تاريخه: توفي في ثالث عشر رجب سنة تسعٍ وسبعين [ومئتين] بترمِذ.

[جهل بعض العلماء الأمور المعلومة]

والعجب من أبي محمد بن حزم حيث يقول في أبي عيسى: مجهول.

قاله في الفرائض من كتاب «الأجيال»[1]:

---

(١) الصواب: كتاب الإيصال إلى فهم كتاب الخصال. انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٣٢٥، كشف الظنون ١/ ٧٠٤.

قال أبو الفتح اليعمري: قال أبو الحسن القطان في «بيان الوهم والإيهام» عقيب قول ابن حزم: هذا كلام مَن لم يبحث عنه، وقد شهد له بالإمامة والشهرة الدارقطني، والحاكم.

وقال أبو يعلى الخليلي: هو حافظ متقن ثقة.

وذكره أيضاً الأمير أبو نصر بن الفَرَضيّ، والخطابي.

قال أبو الفتح: وذُكر عن أبي عيسى قال: صنَّفت هذا الكتاب، وعرضته على علماء الحجاز، والعراق، وخراسان، فرضوا به. ومن كان في بيته هذا الكتاب، فكأنما في بيته نبيٌّ يتكلم.

[كلام يدل على علم الذهبي وفقهه ونقده]

قلت: ما في جامعه من الثلاثيات سوى حديث واحد، وإسناده ضعيف. وكأنه من الأصول الستة التي عليها العقد والحل وفي كتابه ما صحّ إسناده وما صَلُح، وما ضُعِّف ولم يُترَك، وما وَهى وسقط، وهو قليل يوجد في المناقب وغيرها.

وقد قال: ما أخرجت في كتابي هذا إلا حديثاً قد عمل به بعض الفقهاء.

قلت: يعني في الحلال والحرام. أما في سوى ذلك ففيه نظر وتفصيل. وقد أطلق عليه الحاكم ابن البيِّع «الجامع الصحيح»، وهذا تجوُّز من الحاكم.

وكذا أطلق عليه أبو بكر الخطيب اسم «الصحيح».

قال السِّلَفي: الكتب الخمسة اتفق على صحتها علماء المشرق والمغرب. وهذا محمول منه على ما سكتوا عن توهينه.

[من غرر الكلام]

وقال أبو بكر بن العربي: وليس في قدر كتاب أبي عيسى مثله حلاوة مقطع، ونفاسة مَنْزَع، وعذوبة مَشْرع. وفيه أربعة عشر علماً فرائد. صنف وأسند وصحح

وأشهر، وعدّد الطرق، وجرّح وعدَّل وأسمى وأكنى، ووصل وقطع، وأوضح المعمول به والمتروك، وبيَّن اختلاف العلماء في الإسناد في الأوائل. وكل علم منها أصلٌ في بابه.

[٣- أبو الطيب المتنبي]

قصة تدل على قدرة حفظ المتنبي الشاعر:

قال أبو الحسن محمد بن يحيى العلوي: حدثني كُتُبيٌّ كان يجلس إليه المتنبي، قال: ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عُبَيدان -وابن عُبيدان لقب أبي المتنبي، وكان سقاء بالكوفة- كان اليوم عندي وقد أحضر رجلٌ كتاباً من كتب الأصمعي نحو ثلاثين ورقة ليبيعه فأخذ ينظر فيه طويلاً، فقال له الرجل: يا هذا أريد أن أبيعه، فإن كنت تريد حفظه فهذا يكون بعد شهر، فقال له ابنُ عبيدان -يعني المتنبي-: فإنْ كنتُ قد حفظتُه فما لي عليك؟ قال: أهبه لك. قال: فأخذتُ الدفتر من يده، فأقبل يقرأ عليَّ إلى آخره، ثم استلبه فجعله في كُمِّه وقام، فعلق به صاحبُه وطالبه بالثمن، فمنعناه منه، وقلنا: أنت شَرَطْتَ على نفسك[١].

٤- الجِعابي

محمد بن عمر بن محمد[٢] بن مسلم أبو بكر بن الجِعابي التميمي البغدادي الحافظ قاضي الموصل.

سمع: عبدالله بن محمد البلْخي، ويحيى بن محمد الحنّائي، ومحمد بن الحسن ابن سماعة الحضرمي، ومحمد بن يحيى المَرْوَزي، ويوسف القاضي، وأبا خليفة، وجعفر الفريابي، وخلقاً كثيراً.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، ٢٦/ ١٠٢.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي، ٢٦/ ١٢٦.

وكان حافظ زمانه. صحب أبا العباس بن عُقْدَة، وصنَّف في الأبواب والشيوخ والتاريخ. وتشيّعه مشهور.

روى عنه: الدارقطني، وأبو حفص بن شاهين، وابن رزقويه، وابن الفضل القطّان، والحاكم أبو عبدالله، وأبو عمر الهاشمي، وآخرون، آخرهم وفاة أبو نُعَيم الحافظ.

مولده في صفر سنة أربعٍ وثمانين ومائتين.

قال أبو علي الحافظ النيسابوري: ما رأيت في المشايخ أحفظ من عَبْدان، ولا رأيت في أصحابنا أحفظ من أبي بكر الجِعابي، وذاك أني حسبته من البغداديين الذين يحفظون شيخاً واحداً أو ترجمة واحدة أو باباً واحداً، فقال لي أبو إسحاق بن حمزة يوماً: يا أبا علي لا تغلط في ابن الجِعابي فإنه يحفظ حديثاً كثيراً. قال: فخرجنا يوماً من عند ابن صاعد فقلت له: يا أبا بكر أيش أَسْنَدَ الثوريّ عن منصور، فمرّ في الترجمة، فقلت: أيش عند أيّوب عن الحسن، فمرّ في الترجمة، فما زلت أجرُّه من حديث مِصر إلى حديث الشام إلى العراق إلى أفراد الخراسانيين وهو يجيب، فقلت: أيش روى الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، وأبي هريرة بالشركة، فذكر بضعة عشر حديثاً، فحيّرَني حفظه. رواها الحاكم عن أبي علي.

[ضاعت كتبه فإذا هو يحفظها كلها وفيها مئتي ألف حديث]

وقال محمد بن الحسين بن الفضل: سمعت ابن الجعابي يقول: دخلت الرَّقَّة، وكان لي ثَمَّ قِمْطَران كتب فأنفذتُ غلامي إلى الذي عنده كتبي، فرجع مغموماً وقال: ضاعت الكتب، فقلت: يا بني لا تغتمّ، فإن فيها مائتي ألف حديثٍ لا يُشْكَلُ عليَّ حديث منها لا إسناداً ولا مَتْناً.

وقال أبو علي التنوخي: ما شاهدنا أحفظ من أبي بكر بن الجِعابي، وسمعت من يقول: إنه يحفظ مائتي ألف حديث ويجيب في مثلها، إلا أنه كان يَفْضُل الحُفَّاظ

بأنه كان يسوق المُتُون بألفاظها، وأكثر الحُفّاظ يتسمّحون في ذلك، وكان إماماً في المعرفة بعلل الحديث وثقات الرجال ومواليهم ووفياتهم، وما يُطعن على كل واحد منهم، ولم يبقَ في زمانه من يتقدّمه في الدين.

قال أبو ذر الهَرَوي: سمعت أبا بكر بن عبدان الحافظ يقول: وقع إليّ جزء من حديث الجعابي، فحفظت منه خمسة أحاديث، فأجابني فيها، ثم قال: من أين لك هذا؟ قلت: من جزء لك. قال: إن شئت ألْق عليّ المَتْن وأُجيبك في الإسناد أو ألْقِ عليّ الإسناد وأجيبك في المتن.

وقال أبو الحسن بن رزقويه، مما سمعه من الخطيب: كان ابن الجِعابي يُملي مجلسَه وتمتلئ السكة التي يُملي فيها والطريق، ويحضره ابن المظفّر والدارقطني ويُملي الأحاديث بطُرُقها من حفظه.

قال أبو علي النيسابوري: قلت لابن الجعابي: قد وصلت إلى الدِّينَوَر فهَلاّ جئت نيسابور؟ قال: هممت به ثم قلت: أذْهَبُ إلى عَجَمٍ لا يفهمون عني ولا أفهم عنهم.

وقال الحاكم: قلت للدارقطني: يبلغني عن الجعابي أنه تغير عما عهِدْناه، فقال: وأي تغيُّر؟ قلت بالله: هل اتهمته؟ قال: أي والله، ثم ذكر أشياء، فقلت: وصحّ لك أنه خَلَطَ في الحديث؟ قال: أي والله. قلت: حتى خفت أنه ترك المذهب، قال: ترك الصلاة والدين.

[تقلب القلوب وسوء الخاتمة]

[علماء تغيروا في آخر عمرهم]

وقال محمد بن عبدالله المسبِّحي: كان ابن الجعابي المحدّث قد صحِب قوماً من المتكلمين فسقط عند كثير من أهل الحديث، وأمر قبل موته أن تُحرق دفاتره بالنار،

فأُنكر عليه واستُقْبح ذلك منه، وقد كان وصل إلى مصر ودخل إلى الإخشيد، ثم مضى إلى دمشق فوقفوا على مذهبه فشرّدوه، فخرج هارباً.

وقال أبو حفص بن شاهين: دخلت أنا وابن المظفر والدارقطني على الجعابي وهو مريض فقلت له: من أنا؟ فقال: سبحان الله ألستم فلان وفلان، وسمّانا، فدَعَوْنا وخرجنا فمشينا خطوات، وسمعنا الصائح بموته، فرجعنا إلى داره فرأينا كتبه تلَّ رماد.

وقال الأزهري: كانت سُكينة نائحة الرافضة تبكيه تنوح مع جنازته.

قال أبو نُعَيم: قدم علينا الجعابي أصبهان سنة تسعٍ وأربعين وثلاثمائة.

أنبأني المسلّم بن علاّن، والمؤمّل بن محمد، ويوسف بن يعقوب، أن أبا اليُمْن الكِنْدي أخبرهم: قال: أخبرنا أبو منصور الشيباني، قال أخبرنا أبو بكر الخطيب، قال: حدثني الحسن بن محمد الأشقر، سمعت أبا عمر القاسم بن جعفر الهاشمي غير مرة يقول: سمعت ابن الجِعابي يقول: أحفظ أربعمائة ألف حديث وأُذاكِر بستمائة ألف حديث. وبه قال الخطيب: حدثني الأزهري، قال: حدثنا أبو عبدالله بن بُكَيْر عن بعض أصحاب الحديث وأظنّه ابن درّان قال: رآني ابن الجِعابي وقد جئت من مجلس ابن المظفَّر فقال: كم أمْلَى؟ فسمّيت له، فقال: أيّما أحبّ إليك، تذكر أسانيد الأحاديث وأذكر مُتُونها، أو تذكر المتونَ وأذكر أسانيدها؟ فقلت: بل المتون. فجعلت أقول: روى حديثاً متنه كذا وكذا، فيقول: حدّثكم به عن فلان بن فلان، فلم يُخطئ في جميعها.

وبه سمعت التنوخي يقول: تقلّد ابن الجِعابي قضاء الموصل، فلم يُحمد في ولايته.

وذكر الخطيب عن رجاله أن ابن الجِعابي كان يشرب في مجلس ابن العميد.

قلت: لم يُبيِّن ما كان يشرب هل هو نبيذ أو خمر؟

وقال السلمي: سألت عنه الدارقطني، فقال: خلّط، وذكر مذهبه في التشيّع.

وكذا ذكر الحاكم عن الدارقطني وذكر عنه، فقال: قال لي الثقة من أصحابنا ممن كان يعاشر ابن الجِعابي: إنه كان نائماً فكتبت على رِجْله، فكنت أراه ثلاثة أيام لم يمسّه الماء.

وبالإسناد المذكور إلى الخطيب: حدثنا الأزهري أنّ ابن الجِعابي لما مات أوصى بأن تُحرق كُتُبُه، فأُحرقت فكان معها كتب للناس، فحدثني أبو الحسين بن البواب أنه كان له عنده مائة وخمسون جزءاً، فذَهَبَتْ في جملة ما أُحْرِق.

وقال مسعود السِّجْزي: سمعت الحاكم يقول: سمعت الدارقطني يقول: أُخبرتُ بعِلّة أبي بكر الجعابي، فقمت إليه في الوقت، فأتيته فرأيته يحرق كُتُبَهُ بالنار، فأقمت عنده حتى ما بقي منه بيِّنة، ثم مات من ليلته.

قرأت على إسحاق الأسدي: أخبرك يوسف الحافظ، أخبرنا أبو المكارم المعدّل، وأخبرنا أحمد بن سلامة وغيره إجازةً، عن أبي المكارم، أن أبا علي الحدّاد أخبرهم، قال: أخبرنا أبو نُعَيم، قال: حدثنا محمد بن عمر بن سلم، حدثنا محمد بن النُّعْمان السّلمي، حدثنا هدية، حدثنا حزْم بن أبي حزْم، سمعت الحسن يقول: بئس الرّفيق الدينار والدرهم لا ينفعانك حتى يفارقاك.

توفي ابن الجعابي ببغداد في رجب سنة ٣٥٥هـ.

[من أفذاذ العلماء]

١ - بكّار بن قتيبة بن عبيد الله[1]

وقيل: بكّار بن قتيبة بن أسد بن عبيد الله بن بِشْر بن أبي بكرة بن نُفَيْع بن الحارث.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، ٢٠/ ٧٠.

القاضي أبو بكرة الثقفي البكْراوي! البصْريّ الفقيه الحنفي، قاضي ديار مصر. وكان من القضاة العادلين.

[القاضي يقرأ آية واحدة طوال الليل]

قال أبو بكر بن المقرئ: حدثنا محمد بن بكر الشعراني بالقدس: حدثنا أحمد ابن سهل الهَرَويّ قال: كنت ساكناً في جوار بكار بن قتيبة، فانصرفت بعد العشاء، فإذا هو يقرأ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص:٢٦]. ثم نزلت في السَّحَر، فإذا هو يقرؤها ويبكي، فعلمت أنه كان يقرؤها من أول الليل.

وقال محمد بن يوسف الكِنْدي: قدِم بكّار قاضياً من قِبَل المتوكل في جمادى الآخرة سنة ستٍّ وأربعين [ومئتين]، فلم يزل قاضياً -يعني على مصر- إلى أن توفي في ذي الحجة سنة سبعين [ومئتين]. وأقامت مصر بلا قاضٍ بعده سبْع سنين، ثم ولّى خُمَارَوَيْه محمد بن عَبْدة.

وكان أحمد بن طولون أراد بكاراً على لعن الموفَّق فامتنع، فسجنه إلى أن مات أحمد، فأُطلق بكّار، وبقي يسيراً ومات. فغُسّل ليلاً، وكثُر الناس فلم يُدفَن إلى العصر.

قلت: وكان القاضي بكّار عظيم الحُرْمة كبير الشأن. كان ينزل السلطانُ ويحضر مجالسه، فذكر الطحاوي قال: استعظم بكّار بن قتيبة فسخ حكم الحارث بن مسكين في قضية ابن السائح، يعني لمّا حكم عليه الحارث وأخرج من يده دار الفيل، وتوجه ابن السائح إلى العراق يغوث على الحارث.

قال الطحاوي: وكان الحارث إنما حكم فيها على مذهب أهل المدينة، فلم يزل يونس بن عبد الأعلى يكلّم بكّاراً ويجسّره حتى جسر وردّ إلى ابني السائح ما كان أخذ منهما.

قال الطحاوي: ولا أحصي كم كان أحمد بن طولون يجيء إلى مجلس بكّار وهو على الحديث، ومجلسه مملوء بالناس، ويتقدم الحاجب ويقول: لا يتغير أحد من

مكانه، فما يشعر بكّار إلا وابن طولون إلى جانبه، فيقول له: أيها الأمير ألا تركتني كنت أقضي حقّك وأقوم.

ثم فسد الحال بينهما حتى حبسه، وفعل به ما فعل.

وقيل: إنه صنَّف كتاباً نقض فيه على الشافعي ردّه على أبي حنيفة. وكان يأنس بيونس بن عبد الأعلى، ويسأله عن أهل مصر وعُدولهم.

ولما حبسه ابن طولون لم يمكنه أن يعزله، لأن القضاء لم يكن أمره إليه. وقيل: إن بكّاراً كان يشاور في حكمه وأمره يونس بن عبد الأعلى، والرجل الصالح موسى ابن عبدالرحمن بن القاسم. فبَلَغَنا أن موسى سأله بكّار: من أين المعيشة؟

قال: مِن وَقْفٍ لأبي أتكفّى به.

وقال: أريد أن أسألك يا أبا بكرة هل ركِبك دَيْن بالبصرة؟

قال: لا.

قال: فهل لك ولد أو زوجة؟

قال: ما نكحت قطّ، ما عندي سوى غلامي.

قال: فأكرهك السُّلطان على القضاء؟

قال: لا.

قال: فضربت آباط الإبل لغير حاجة إلا لتلي الذمّة والفُروج؟ لله عليّ لا عُدْتُ إليك.

فقال بكّار: أقِلني يا أبا هارون.

قال: أنت ابتدأت بمسألتي.

ثم انصرف عنه ولم يعُد إليه.

وقال الحسن بن زولاق في ترجمة بكار: لما اعتلَّ ابن طولون راسل بكاراً وقال: أنا أردُّك إلى منزلك، فأجِبْني.

فقال للرسول: قل له: شيخٌ فانٍ وعليلٌ مُدْنَفٌ والملتقى قريب، والقاضي الله. فأبلغ الرسول ابنَ طولون، فأطرق ثم أقبل يقول: شيخٌ فانٍ وعليلٌ مُدْنَفٌ والملتقى قريب والله القاضي. ثم أمر بنقله من السجن إلى دارٍ اكتُرِيَتْ له، وفيها كان يُحدث. فلما مات ابن طولون قيل لبكّار: انصرف إلى منزلك.

فقال: الدار بأجرة وقد صلُحت لي. فأقام بها.

قال الطحاوي: أقام بها بعد ابن طولون أربعين يوماً ومات.

ونقل ابن خلّكان -رحمه الله- أن ابن طولون كان يدفع إلى بكّار في العام ألف دينار سوى المقرر له فيتركها بختمها. فلما دعاه إلى خلْع الموفَّق من ولاية العهد امتنع، فاعتقله وطالبه بجملة الذَّهَب، فحُمِلِ إليه بختومه، فكان ثمانية عشر كيساً، فاستحى أحمد بن طولون عند ذلك، ثم أمره أن يسلِّم إلى محمد بن شاذان الجوهري القضاء، ففعل، وجعله كالخليفة له. ثم سجنه أحمد، فكان يُحدِّث في السجن مِن طاقة، لأن طَلَبَة الحديث سألوا ابن طولون فأذِن لهم على هذه الصورة.

قال ابن خلكان: وكان بكّار بكّاءً تالياً للقرآن، صالحاً ديِّناً، وقبره مشهور وقد عُرِف باستجابة الدعاء عنده.

وقال الطحاوي: كان على نهايةٍ في الحمد على ولايته. وكان ابن طولون على نهايةٍ في تعظيمه وإجلاله إلى أن أراد منه خلع الموفَّق ولعنه، فأبى فلما رأى أن لا يسلم له منه ما يحاوله ألَّب عليه سفهاء الناس، وجعله لهم خصْماً. فكان يقعد له من يقيمه مقام الخصوم، فلا يأبى، ويقوم بالحُجّة بنفسه. ثم حبسه في دار، فكان كل جمعة يلبس ثيابه وقت الصلاة ويمشي إلى الباب، فيقول له الموكّلون به: ارجع.

فيقول: اللهم اشهد.

قال: ووُلد سنة اثنتين وثمانين ومائة.

قلت: توفي في ذي الحجة سنة سبعين [ومئتين]، وشهده خلق أكثر ممن شهد العيد، وصلى علي ابن أخيه محمد بن الحسن بن قتيبة الثقفي.

[٢- أبو زرعة الرازي]

عُبَيْد الله بن عبدالكريم بن يزيد بن فَرُّوخ[١].

الحافظ أبو زُرْعة القرشي المخزومي، مولاهم الرازي. أحد الأعلام.

قيل: وُلد سنة تسعين ومائة.

ويقال إنه وُلد سنة مائتين. وأظنه وهْماً، فإن رحلته سنة إحدى عشرة، لأنه سمع بالكوفة من: عبدالله بن صالح العِجْليّ، والحسن بن عطية بن نَجيح، وتوفيا عامئذٍ.

وسمع: أبا الوليد الطَّيالسي، وقالون المقرئ، وعمرو بن هاشم البيروتيّ، ويحيى بن عبدالله بن بُكَيْر، وخلْقاً كثيراً بالريّ، الكوفة، والبصرة، والحرمين، وبغداد، والشام، ومصر، والجزيرة.

وفي «تهذيب الكمال» أنه روى عن أبي عاصم النبيل، وفي هذا نظر.

وقال ابن أبي حاتم: سئل أبو زُرْعة: في أي سنة كتبتم عن أبي نُعَيْم؟ قال: في سنة أربع عشرة ومائتين. ورحلت من الريّ المرة الثانية سنة سبعٍ وعشرين ومئتين.

[كان أبو زرعة القرشي من أهل الذكاء والحفظ ومن أفذاذ العلماء]

ولم يدخل خراسان. كان من أفراد العالم ذكاءً وحِفْظاً وديناً وفضلاً.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، ٢٠/ ١٢٤.

روى عنه من شيوخه: محمد بن حُمَيْد، وأبو حفص الفلاّس، وحَرْمَلَة بن يحيى، وإسحاق بن موسى الخطْميّ، ويونس بن عبد الأعلى، والربيع بن سليمان، ومِن أقرانه: أبو حاتم ابن خالته، ومسلم بن الحجّاج، وأبو زُرْعة الدمشقي، وإبراهيم الحربيّ.

ومِن الحُفاظ والمحدثين خلقٌ كثير.

وروى عنه: مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة في كتبهم، وأبو بكر بن أبي داود، وأبو عَوانة، وعبدالرحمن بن أبي حاتم فأكثر، ومحمد بن الحسين القطان.

قال ابن أبي حاتم: كان جدّه فرُّوخ مولى عياش بن مطرِّف القُرَشيّ.

[بكُنْيَتكَ اكتَنَيْت]

وقال جعفر بن محمد الكندي: حدثنا أبو زُرْعَة قال: قدِم علينا جماعة من أهل الريّ دمشق منهم: أبو يحيى فَرْخوَيْه. فلما انصرفوا إلى الري، فيما أخبرني غير واحد، منهم أبو حاتم، رأوا هذا الفتى قد كاس فقالوا: نُكَنِّيك بكُنية أبي زُرْعة الدمشقي. ثم اجتمعت بأبي زُرْعة الرازي فكان يذكرني بهذا ويقول: بكُنْيَتِك اكتَنَيْت.

وقال سعيد بن عمرو: قال أبو زُرْعة: لا أعلم أنه صحّ لي رباط قط. أما قزوين فأردنا محمد بن سعيد بن سابق، وأما عسقلان فأردنا محمد بن أبي السري، وأما بيروت فأردنا العباس بن الوليد بن مَزْيَد.

وقال النجّاد: سمعت عبدالله بن أحمد يقول: لما ورد علينا أبو زُرْعة نزل عندنا، فقال لي أبي: يا بُنَيّ: قد اعْتَضْتُ بنوافلي مذاكرة هذا الشيخ.

[كم كتب وحفظ أبو زرعة]

وقال صالح جَزَرَة: سمعتُ أبا زُرْعَة يقول: كتبتُ عن إبراهيم بن موسى الرازي مائة ألف حديث، وعن أبي بكر بن أبي شيبة مائة ألف، فقلت له: بَلَغَني أنك تحفظ مائة ألف حديث، تقدر أن تُملي عليّ ألف حديث مِن حفظك؟

قال: لا، ولكن إذا أُلقي عليَّ عرفتُ.

وقال ابن أبي حاتم: سألت أبا زُرْعة فقلت: يجوز ما كتبت عن إبراهيم بن موسى مائة ألف.

قال: مائة ألف كثير.

قلت: فخمسين ألف؟ قال: نعم، وسبعين ألف.

أخبرني من عدَّ كتاب الوضوء والصلاة فبلغ ثمانية عشر ألفاً.

وقال أبو عبدالله بن مَنْدَه الحافظ: سمعت محمد بن جعفر بن حَمْكَوَيْه بالري يقول: سئل أبو زُرْعة عن رجلٍ حَلَف بالطلاق أن أبا زُرْعة يحفظ مائتي ألف حديث هل حَنَث؟ فقال: لا.

ثم قال: أحفظ مائتي ألف مثل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وأحفظ في المذاكرة ثلاثمائة ألف حديث.

قلت: هذه حكاية منقطعة لا تثبُت، وهذه أصحّ منها: قال الحافظ ابن عديّ: سمعتُ أبي يقول بالري، وأنا غلام في البزّازين، فحلفَ رجل بالطلاق أن أبا زُرْعة يحفظ مائة ألف حديث، فذهب قوم إلى أبي زُرْعة وذهبت معهم، فذكروا له حلْف الرجل، فقال: ما حَمَلَه على ذلك؟ قيل: قد جرى ذلك منه.

فقال: يمسك امرأته فإنها لم تَطْلُق، أو كما قال.

وقال الحاكم: سمعت أبا جعفر محمد بن أحمد الرازي يقول: سمعت محمد بن مسلم بن وارة يقول: كنت عند ابن راهَوَيْه فقال رجل: سمعتُ أحمد بن حنبل يقول: صحّ من الحديث سبعمائة ألف حديث وكَسْر وهذا الفتى يعني أبا زُرْعة، يحفظ ستمائة ألف.

قلت: في إسنادها مجهول.

وقال غُنْجار في تاريخه: حدثنا نصر بن محمد الأزدي بكرمينية: سمعت أبا يَعْلى الموصلي يقول: رحلت إلى البصرة، فبينا نحن في السفينة إذا برجلٍ يسأل رجلاً: ما تقول في رجلٍ حَلَف بالطلاق أنك تحفظ مائتا ألف حديث؟

فأطرق رأسه ثم قال: اذهب يا هذا وأنت بارٌّ في يمينك.

فقلتُ: من هذا؟

فقيل لي: أبو زُرْعة الرازي ينحدر إلى البصرة.

وقال ابن عُقْدة عن مُطَيَّن، عن أبي بكر بن أبي شيبة قال: ما رأيت أحفظ من أبي زُرْعة.

وقال عبدالله بن محمد بن جعفر القزويني، وهو ضعيف: سمعتُ محمد بن إسحاق الصَّغاني يقول: كان أبو زُرْعة، يشبَّه بأحمد بن حنبل.

وقال عليّ بن الحسين بن الجُنَيْد: ما رأيت أعْلَمَ بحديث مالك من أبي زُرْعة، وكذلك سائر العلوم.

وقال عمر بن محمد بن إسحاق القطان: سمعت عبدالله بن أحمد: سمعتُ أبي يقول: ما جاوز الجسْرَ أفْقَه من إسحاق، ولا أحفظ من أبي زُرْعة.

وقال أبو يعلَى الموصلي: ما سمعنا بذِكْر أحدٍ في الحِفْظ إلا كان اسمه أكبر من رؤيته إلا أبو زُرْعة، فإن مشاهدته كانت أعظم من اسمه. كان قد جمع حفظ الأبواب والشيوخ والتفسير.

وقال صالح جَزَرَة: سمعت أبا زُرْعة يقول: أحفظ في القراءات عشرة آلاف حديث.

وقال إسحاق بن راهويه: كل حديث لا يعرفه أبو زُرْعة الرازي ليس له أصل.

وقال أبو العباس السراج: لما انصرف قتيبة إلى الري من بغداد سألوه أن يحدثهم، فقال: أحدثكم بعد أن أحضر مجلسي أحمد بن حنبل، ويحيى بن مَعين، وعليّ ابن المديني.

قالوا: فإنّ عندنا غلاماً يسرد كل ما حدَّثت به مجلساً مجلساً، قم يا أبا زُرْعة. فقام فسَردَ كل ما حدَّث به قتيبة.

وقال فضْلك الصائغ: دخلت المدينة فصرت إلى باب أبي مُصْعَب، فخرج إليَّ شيخ مخضوب، وكنتُ أنا ناعساً، فحرّكني وقال: يا مردريك[1] من أين أنت، إيش تنام؟

فقلت: أصلحك اللهُ من الرِّي، من شاكرديّ[2] أبي زرعة.

فقال: تركتَ أبا زُرْعة وجئتني! لقيت مالكاً وغيرَه، فما رأت عيناي مثلَه.

قال فضْلَك: فدخلت على الربيع بمصر فقال: إن أبا زُرْعة آية. وإن الله تعالى إذا جعل إنساناً آية أبانه من شكْله حتى لا يكون له ثانٍ.

[من أماني العلماء الشوق إلى الله]

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أحمد بن إسماعيل ابن عمّ زُرْعة أنه سمع أبا زُرْعة يقول في مرضه الذي مات فيه: اللهم إني أشتاق إلى رؤيتك، فإنْ قيل لي: بأي عمل اشتقتَ إليّ؟ قلت: برحمتك يا رب.

وقد كان أبو زُرْعة يحطّ على أهل الرأي ويتكلم فيهم.

---

(١) مردريك: الشاب أو الفتى.

(٢) الشاكردي: التابع والتلميذ.

قال ابن أبي حاتم: سمعتُ أبا زُرْعة يقول: قال لي السَّرِيّ بن مُعاذ، يعني الأمير: لو أني قبلت لأعطيت مائة ألف درهم قبل الليل فيك وفي ابن مسلم من غير أن أحبسكم ولا أضربكم، بل أمنعكم مِن التحديث.

سمعتُ أبا زُرْعة يقول: لو كانت لي صحةُ بَدَنٍ على ما أريد كنت أتصدَّق بمالي كلّه، وأخرج إلى الثُّغور، وآكل من المباحات وألْزَمُها. ثم قال: إني لألبس الثياب لكي إذا نظر الناس إليَّ لا يقولون: قد ترك أبو زُرْعة الدنيا ولبس الدُّون. وإني لآكل ما يُقدَّم إليَّ من الطيبات لكيلا يقولوا: إنه لا يأكل الطيبات لزهده.

وقال يونس بنُ عبد الأعلى: ما رأيت أكثر تواضعاً من أبي زرعة.

وقال عبدالله القزويني، وهو ضعيف: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا أبو زُرعة. فقيل ليونس: من هذا؟

قال: إن أبا زرعة أشهر في الدنيا من الدنيا.

وقال عبدالواحد بن غياث: ما رأى أبو زُرعة مثل نفسه.

وقال سعيد بن عمرو البردعي: سمعت محمد بن يحيى الذُّهْلِيّ يقول: لا يزال المسلمون بخير ما أبقى الله لهم مثل أبي زُرعة يعلِّم لناس.

وقال أبو أحمد بن عدي: حدثنا أحمد بن محمد القطان، قال: حدثنا أبو حاتم الرازي، قال: حدثني أبو زُرْعة عُبيد الله بن عبدالكريم وما خلّف بعده مثله عِلْماً وفهْماً، ولا أعلم من المشرق إلى المغرب من كان يفهم هذا الشأن مثله.

وروى الخطيب بإسنادٍ، عن أبي زُرْعة قال: ما سمعتْ أُذني شيئاً من العلم إلا وعاه قلبي، وإني كنت أمشي في السوق فأسمع صوت المغنيات من الغرف، فأضع إصبعي في أذني مخالفة أن يَعيَه قلبي.

وقال الحاكم وأبو عليّ بن فضالة الحافظان: حدثنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن شاذان الرازي - قلت: وليس بثقة- قال: سمعتُ أبا جعفر محمد بن عليّ ورّاق أبي

زُرْعة، فذكر حكاية تلقين أبي زرعة لا إله إلا الله، وإنهم ذكروه بالحديث. فقال وهو في السياق: حدثنا بندار، قال: حدثنا أبو عاصم، قال: حدثنا عبدالحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عَريب، عن كثير بن مُرَّة، عن معاذ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا اللهُ دخل الجنة». وتوفي رحمه الله.

وقصة تلقين الميت رواها ابن أبي حاتم بخلاف هذا، فقال: سمعت أبي يقول: مات أبو زرعة مطعوناً مبطوناً يعرق الجبين منه في النَّزْع، فقلت لمحمد بن مسلم: ما تحفظ في تلقين الموتى: لا إله إلا الله؟

قال: يروى عن معاذ.

فرفع أبو زرعة رأسه وهو في النَّزْع، فقال: روى عبدالحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عَريب، عن كثير بن مُرَّة، عن معاذ، عن النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» فصار في البيت ضجة ببكاء من حضر.

وقال أبو العباس السراج سمعت ابن وارة يقول: رأيت أبا زُرْعة في النوم، فقلت: ما حالك؟

قال: أحْمَد الله على الأحوال كلها، إني وقفت بين يدي الله تعالى فقال لي: يا عبدالله لِمَ تذرَّعت في القول في عبادي؟

قلت: يا رب إنهم خاذِلو دينك، قال: صدقت.

ثم أُتي بطاهر الخلقاني فاستعديت عليه إلى ربي، فضرب الحد مائة ثم أمر به إلى الحبس، ثم قال: أَلحِقُوا عُبيد الله بأصحابه بأبي عبدالله وأبي عبدالله، وأبي عبدالله: سفيان الثوري، ومالك، وأحمد بن حنبل.

توفي في آخر يوم من سنة أربع وستين ومئتين.

٣- مسلم بن الحجاج بن مسلم[1]

الإمام أبو الحسين القشيري النيسابوري الحافظ صاحب «الصحيح».

قال بعض الناس: وُلد سنة أربعٍ ومائتين. وما أظنه إلا وُلد قبل ذلك.

سمع سنة ثمان عشرة ومائتين ببلده من: يحيى بن يحيى، وبِشْر بن الحَكَم، وإسحاق بن راهويه.

وحجّ سنة عشرين [ومئتين]، فسمع مِن: القَعْنَبيّ، وهو أقدم شيخ له، ومن: إسماعيل بن أبي أُوَيْس، وأحمد بن يونس، وعمر بن حفص بن غِياث، وسعيد بن منصور، وخالد بن خِداش، وجماعة يسيرة.

وَرُدَّ إلى وطنه. ثم رحل في حدود الخمس وعشرين مائتين فسمع من: عليّ ابن الجَعْد، ولم يروِ عنه في صحيحه لأجل بدعةٍ ما.

وسمع من: أحمد بن حنبل، وشَيْبان بن فَرُّوخ، وخَلَف البزّار، وسعيد بن عمرو الأشعثيّ، وعَوْن بن سلاّم، وإبراهيم بن موسى الفرّاء، ومحمد بن مِهْران الجمّال، ومحمد بن الصبّاح الدولابي، أبي نصر التّمار، ويحيى بن بِشْر الحريري، وقتيبة ابن سعيد، وأُميّة بن بِسْطام، وجعفر بن حُمَيْد، وحيان بن موسى المرزوي، والحَكَم ابن موسى القَنْطَري، عبدالرحمن بن سلاّم الجُمحيّ، وخلْق كثير من العراقيين، والحجازيين، والشاميين، والمصريين، والخراسانيين. فسمّى شيخُنا في «تهذيب الكمال[2]» مائتين وأربعة وعشرين شيخاً.

ورأيت بخط حافظ أنه قد روى في صحيحه عن مائتين وسبعة عشر.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، ٢٠/ ١٨٢.

(٢) ٢٧/ ٤٩٩، طبعة مؤسسة الرسالة.

روى عنه: الترمذي حديثاً واحداً في «جامعه»[1]، ومحمد بن عبدالوهاب الفرّاء، وعليّ بن الحسن بن أبي عيسى الهلالي، وهما أكبر منه، وصالح بن محمد جَزَرَة، وأحمد بن سَلَمَة، وأحمد بن المبارك المستملي، وهم مِن أقرانه، وخلْق آخرهُم وفاةً أبو حامد أحمد بن علي بن حَسْنَوَيْه المقرئ أحد الضعفاء.

ذكر الحافظ ابن عساكر[2] في ترجمة مسلم أنه سمع بدمشق من محمد بن خالد السَّكْسكيّ، ولم يذكر أنه سمع من غيره.

وهذا بعيد، ولعله لقي محمد بن خالد في الموسم، لكن قال ابن عساكر: حدَّثني أبو النصر اليونارْتيّ[3] قال: دفع إليَّ صالح بن أبي ورقة من لحاء شجرةٍ بخط مسلم، قد كتبها بدمشق من حديث الوليد بن مسلم.

قلت: إنّ صحّ هذا فيكون قد دخل دمشق مجتازاً، ولم يُمْكِنْه المُقام، أو مرض بها ولم يتمكّن من السماع على شيوخها.

قال أبو عمرو أحمد بن المبارك: سمعت إسحاق بن منصور يقول لمسلم بن الحَجاج: لن نعدم الخير ما أبقاك الله للمسلمين[4].

(١) الحديث هو في الصوم، باب ما جاء في إحصاء هلال شعبان ورمضان (٦٨٧) ونصه: حدثنا مسلم ابن حجاج قال: حدثنا يحيى بن يحيى قال: حدثنا أبو معاوية، عن محمد بن عمرو، عن أبي سَلَمة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحْصُوا هلال شعبان لرمضان».

(٢) في تاريخ دمشق (مخطوطة التيمورية) ٤١/ ٣٦٢.

(٣) اليُونارتي: بضم الياء: وسكون الواو، وفتح النون، وسكون الألف والراء، وفي آخر تاء، نسبةً إلى يُونارت، قرية على باب أصبهان، يُنسب إليها الحافظ أبو نصر الحسن بن محمد بن إبراهيم، وهو توفي بأصبهان في حدود سنة ٥٣٠هـ، (الأنساب ١٢/ ٤٣٣، ٤٣٤).

(٤) سير أعلام النبلاء، ١٢/ ٥٦٣.

وقال أحمد بن سَلَمَة: رأيت أبا زُرْعة، وأبا حاتم يقدمان مسلم بن الحجّاج في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما[1].

وسمعت الحَسَن بن منصور يقول: سمعت إسحاق بن راهَوَيْه، وذكر مسلم ابن الحجاج، فقال بالفارسية كلاماً معناه: أيّ رجلٍ يكون هذا[2]؟

قال أحمد بن سَلَمَة: وعُقِد لمسلم مجلس المذاكرة، فذُكِر له حديث لم يعرفه، فانصرف إلى منزله وأوقد السِّراج، وقال لمن في الدار: لا يدخل أحدٌ منكم. فقيل له: أُهْدِيَت لنا سلة تمر.

فقال: قدِّموها.

فقدَّموها إليها، فكان يطلب الحديث، ويأخذ تمرة تمرة، فأصبح وقد فَنِي التمر ووجد الحديث[3].

رواها الحاكم ثم قال: زادني الثقة من أصحابنا أنه منها مات[4].

وقال عبدالرحمن بن أبي حاتم: كان ثقة من الحفّاظ، كتبت عنه بالرِّيّ[5]، وسئل أبي عنه فقال: صدوق.

وقال أبو قريش الحافظ: سمعت محمد بن بشار يقول: حُفّاظ الدنيا أربعة: أبو زُرْعة بالرِّيّ، ومسلم بنيسابور، وعبدالله الدارمي بسمرقند، ومحمد بن إسماعيل ببخارى[6].

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/ ١٠١، طبقات الحنابلة ١/ ٣٣٨، تهذيب الأسماء واللغات، ج٢ ق١/ ٩١.

(٢) تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٢، والكلام بالفارسية هو: «مرداكا بن بوذ».

(٣) تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٣، تهذيب الكمال ٣/ ١٣٢٤، المنتظم ٥/ ٣٢، ٣٣.

(٤) تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٣، المنتظم ٥/ ٣٣، تهذيب الكمال ٣/ ١٣٢٤.

(٥) وزاد: له معرفة بالحديث. (الجرح والتعديل ٨/ ١٨٢).

(٦) تاريخ بغداد ٢/ ١٦ في ترجمة الإمام البخاري.

وقال أبو عمرو بن حمدان: سألت ابن عُقْدة الحافظ، عن البخاري، ومسلم، أيهما أعلم؟ فقال: كان محمد عالِماً ومسلم عالِماً.

ففكرت عليه مِراراً، ثم قال: يا أبا عمرو قد يقع لمحمد بن إسماعيل الغَلَط في أهل الشام، وذلك أنه أخذ كُتُبَهم فنظر فيها، فربما ذكر الواحد منهم بكُنْيته، ويذكره في مواضع أُخَر باسمه ويتوهَّم أنهما اثنان، وأما مسلم، فقلَّ ما يقع له من الغَلَط في العِلَل، لأنه كتب المسانيد، ولم يكتب المقاطيع ولا المراسيل[1].

وقال أبو عبدالله محمد بن يعقوب بن الأخرم: إنما أخرجت نيسابور ثلاثة رجال: محمد بن يحيى الذُّهْليّ، ومسلم بن الحجاج، وإبراهيم بن أبي طالب[2].

وقال الحسين بن محمد الماسَرْجِسيّ: سمعت أبي يقول: سمعت مسلماً يقول: صنّفت هذا «المسند الصحيح» من ثلاثمائة ألف حديثٍ مسموعة[3].

وقال أحمد بن سَلَمَة: كنت مع مسلم في تأليف صحيحه خمسة عشر سنة. قال: وهو اثنا عشر ألف حديث، يعني بالمكرَّر، بحيث إنه إذا قال: حدثنا قتيبة وابنُ رُمْح يعُدُّهُما حديثين، سواء اتفق لفظهما أو اختلف[4].

وقال ابن مَنْدَة: سمعت الحافظ أبا عليّ النيسابوري يقول: ما تحت أديم السماء كتاب أصحّ من كتاب مسلم[5].

وقال مكي بن عَبْدان: سمعت مسلماً يقول: عرضت كتابي هذا «المسند» على أبي زُرْعة فكلّ ما أشار عليّ في هذا الكتاب أنّ له علة وسبباً تركته. وكلّ ما قال: إنه

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٢، جامع الأصول ١/ ١٨٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٦٥.
(٣) تاريخ بغداد ١٣/ ١٠١، طبقات الحنابلة ١/ ٣٣٨، جامع الأصول ١/ ١٨٧، ١٨٨.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٦٦.
(٥) تاريخ بغداد ٣/ ١٠١، جامع الأصول ١/ ١٨٨، وفيات الأعيان ٥/ ١٩٤.

صحيح ليس له علّة، فهو الذي أخرجت. ولو أن أهل الحديث يكتبون الحديث مائتي سنة فمدارُهُم على هذا المسند[١].

وقال مكي: سألتُ مسلماً عن عليّ بن الجَعْد فقال: ثقة، ولكنه كان جَهْمياً.

فسألته عن محمد بن يزيد فقال: لا تكتب عنه.

وسألته عن محمد بن عبدالوهاب وعبدالرحمن بن بِشْر فوثَّقهما.

وسألته عن قَطَن بن إبراهيم فقال: لا يُكتب حديثُه[٢].

وممن صنَّف مستخرجاً على «صحيح مسلم» أبو جعفر بن حمدان الحيري، وأبو بكر محمد بن محمد بن رجاء النيسابوري، وأبو عَوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرايينيّ، وأبو حامد الشاركي الهروي، وأبو بكر محمد بن عبدالله الشافعي، وأبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم، وأبو الحسن الماسرجسي، وأبو نعيم الأصبهاني، وأبو الوليد حسان بن محمد الفقيه[٣].

وقال أبو أحمد الحاكم: حدثنا أبو بكر محمد بن علي البخاري: سمعت إبراهيم ابن أبي طالب يقول: قلت لمسلم: قد أكثرت في «الصحيح» عن أحمد بن عبدالرحمن الوَهْبي، وحاله قد ظهر.

فقال: إنما نقموا عليه بعد خروجي من مصر[٤].

وقال: الدارقطني: لولا البخاري لما راح مسلم ولا جاء[٥].

---

(١) مقدمة صحيح مسلم بشرح النووي ١٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٦٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٦٩، ٥٧٠.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٦٨.
(٥) تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٢، جامع الأصول ١/ ١٨٨.

وقال الحاكم: كان متجر مسلم خان مَحْمش، ومعاشُه من ضياعه بأُسْتُوا[1] أتت من أعقابه من جهة البنات في داره. وسمعت أبي يقول: رأيت مسلم بن الحجاج يحدّث في خان مَحْمِش، وكان تام القامة، أبيض الرأس واللحية، يرخي طرف عمامته بين كتفيه[2].

وقال أبو قريش: كنا عند أبي زُرْعة، فجاء مسلم فسلّم عليه وجلس ساعة وتذاكرا، فلما ذهبَ قلتُ له: هذا جمع أربعة آلاف حديث في «الصحيح»!

فقال أبو زُرْعة: لِمَ ترك الباقي؟

ثم قال: ليس لهذا عقل لو دارى محمدَ بنَ يحيى لصار رجلاً[3].

وقال مكي بن عبْدان: وافى داود بن علي نيسابور أيام إسحاق بن راهويه، فعقدوا له مجلس النظر، وحضر مجلسه يحيى بن محمد بن يحيى، ومسلم بن الحجاج، فجرت مسألة تكلَّم فيها يحيى فزَبَره داود وقال: اسكت يا صبي. ولم ينصرْه مسلم. فرجع إلى أبيه وشكى إليه داود، فقال أبوه: ومَن كان؟ ثم قال: مسلم ولم ينصرْني.

قال: قد رجعت عن كل ما حدّثته به.

فبلغ ذلك مسلماً، فجمع ما كتب عنه في زِنْبيلٍ وبعث به إليه، وقال: لا أروي عنك أبداً، ثم خرج إلى عبد بن حُمَيْد.

قال الحاكم: علَّقْت هذه الحكاية عن طاهر بن أحمد، عن مكي. وقد كان مسلم يختلف بعد هذه الواقعة إلى محمد، وإنما انقطع عنه من أجل قصة البخاري.

---

(١) أُسْتُوَا: بالضم ثم السكون، وضم التاء المثناة وواو، وألف. كورة من نواحي نيسابور معناه بلسانهم المَضْحاة والمَشْرَقَة، تشتمل على ثلاث وتسعين قرية وقصبتها خبُوشان (معجم البلدان ١/ ١٧٥).

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٧٠.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٧٠، ٥٧١.

وكان أبو عبدالله بن الأخرم أعْرَفَ بذلك، فأخبر عن الوحشة الأخيرة. وسمعته يقول: كان مسلم بن الحجاج يُظهر القول باللفظ ولا يكتمه. فلما استوطن البخاري نيسابور أكثر مسلم الاختلاف إليه، فلما وقع بين البخاري وبين محمد بن يحيى ما وقع في مسألة اللفظ، ونادى عليه، ومنع الناس من الاختلاف إليه حتى هجر وسافر من نيسابور، قال: فقطعه أكثر الناس من غير مسلم، فبلغ محمد بن يحيى فقال يوماً: ألا مَن قال باللفظ فلا يحلّ له أن يحضر مجلسنا.

فأخذ مسلم الرداء فوق عِمامته، وقام على رؤوس الناس، وبعث إليه بما كتب عنه على ظهر جَمّال.

وكان مسلم يُظهر القول باللفظ ولا يكتمه[1].

وقال أبو حامد بن الشرقي: حضرت مجلس محمد بن يحيى فقال: ألا مَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق فلا يحضر مجلسنا فقام مسلم من المجلس[2].

قال أبو بكر الخطيب[3]: كان مسلم يناضل عن البخاري حتى أوحش ما بينه وبين محمد بن يحيى بسببه.

قال أبو عبدالله الحاكم: ذكْر مصنفات مسلم: كتاب «المسند الكبير على الرجال»، ما أرى أنه سمعه منه أحد، كتاب «الجامع على الأبواب»، رأيت بعضه، كتاب «الأسامي[4] والكنَى»، كتاب «المسند الصحيح»، كتاب «التمييز»، كتاب «العِلَل»، كتاب «الوحْدان»، كتاب «الأفراد»، كتاب «الأقران»، كتاب «سؤالات[5]

---

(١) سير أعلام النبلاء، ١٢/ ٥٧١، ٥٧٢.

(٢) تاريخ بغداد، ١٣/ ١٠٣.

(٣) في تاريخه ١٣/ ١٠٣، ووفيات الأعيان ٥/ ١٩٤.

(٤) في تذكرة الحفاظ «الأسماء»، والمثبت يتفق مع: المنتظم.

(٥) في تذكرة الحفاظ «سؤالاته»، والمثبت يتفق مع: المنتظم.

أحمد بن حنبل» كتاب [«حديث][1] عمرو بن شعيب»، كتاب «الانتفاع بأُهُب السِّباع»، كتاب «مشايخ مالك»، كتاب «مشايخ الثوري»، كتاب «مشايخ شُعبة»، كتاب «من ليس له إلا راوٍ واحد»، كتاب «المخضرمين»، كتاب «أفراد الشاميين»[2].

ثم سرد الحاكم تصانيف أُخَرَ تركها.

وقال ابن عساكر في أول كتاب «الأطراف» له بعد ذكر «صحيح البخاري»، ثم سلك سبيله مسلم، فأخذ في تخريج كتابه وتأليفه، وترتيبه على قسمين، وتصنيفه. وقصد أن يذكر في القسم الأول أحاديث أهل الإتقان، وفي القسم الثاني أحاديث أهل الستر والصِّدق الذين لم يبلغوا درجة المثبتين. فحال حلول المنية بينه وبين هذه الأمنية، فمات قبل استتمام كتابه. غير أن كتابه مع إعْوازه اشتهر وانتشر.

وذكر ابن عساكر كلاماً غير هذا.

وقال أبو حامد بن الشرقي: سمعت مسلماً يقول: ما وضعتُ شيئاً في هذا «المسند» إلا بحجة، وما أسقطت منه شيئاً إلا بحجة[3].

وقال ابن سفيان الفقيه: قلت لمسلم: حديث ابن عجلان، عن زيد بن أسلم: وإذا قُرئ[4] فأنصتوا. قال: صحيح.

قلت: لِمَ لم تضعْه في كتابك؟

قال: إنما وضعت ما أجمعوا عليه.

---

(١) إضافة من تذكرة الحفاظ

(٢) المنتظم ٥/ ٣٢، تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٩٠.

(٣) تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٩٠، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٨٠.

(٤) في الأصل: «قرأ».

قال الحاكم: أراد مسلم أن يخرّج «الصحيح» على ثلاثة أقسام وثلاث طبقات من الرواة.

وقد ذكر مسلم هذا في صدر خُطبته.

قال الحاكم: فلم يُقدَّر له إلا الفراغ من الطبقة الأولى، ومات[1].

ثم ذكر الحاكم ذاك القول الذي هو دعوى، وهو قال أن لا يذكر من الحديث إلا ما رواه صحابي مشهور، له راويان ثقتان وأكثر، ثم يرويه عنه تابعي مشهور، له أيضاً راويان ثقتان وأكثر، ثم كذلك مَن بعدهم.

قال أبو علي الجيّاني: المراد بهذا أن الصحابي أو هذا التابعي، قد روى عنه رجلان خرج بهما عن حد الجهالة[2].

قال عِياض: والذي تأوّله الحاكم على مسلم من اخترام المنية له قبل استيفاء غَرَضه إلا من الطبقة الأولى. فأنا أقول: إنك إذا نظرت تقسيم مسلم في كتابه الحديث كما قال على ثلاث طبقات من الناس على غير تكرار. فذكر أن القسم الأول حديث الحُفّاظ، ثم قال: إذا انقضى هذا أتْبَعَه بأحاديث من لم يوصف بالحِذْق والإتقان، وذكر أنهم لاحقون بالطبقة الأولى، فهؤلاء مذكورون في كتابه لمن تدبَّر الأبواب، والطبقة الثالثة قومٌ تكلم فيهم قومٌ وزكّاهم آخرون، فخرج حديثهم عَمَّن ضُعِّفَ أو اتُّهِمَ ببدعة. وكذلك فعل البخاري.

قال عياض: فعندي أنه أتى بطبقاته الثلاث في كتابه، وطرح الطبقة الرابعة[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٧٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٧٤.

(٣) مقدمة صحيح مسلم بشرح النووي ٢٣.

ثم قال: سمعت أبا عبدالله محمد بن يعقوب يقول: توفي مسلم يوم الأحد، ودُفن يوم الاثنين لخمسٍ بقين من رجب سنة إحدى وستين ومائتين، وهو ابن خمس وخمسين سنة[1].

قلت: وقبره مشهور بنيسابور ويُزار. توفي وقد قارب الستين. وقد سمعت كتابه على زينب الكندية إلى «النكاح»، وعلى ابن عساكر من «النكاح» إلى آخر «الصحيح». كلاهما عن المؤيَّد الطوسي كتابةً: أخبرنا الفراوي، أخبرنا الفارسي، أخبرنا ابن عمرويه، عن ابن سفيان، عن مسلم.

وسمعه المزِّي، والبِرْزالي، وطبقتهما قبلنا على القاسم الإرْبليّ منه إجازةً، بسماعه بقوله عن الطوسي، وهو عدْلٌ مقبول.

وسمعه الناس قبل ذلك على الرَّضي التاجر، وابن عبدالدائم، وعلى المُرْسي.

وبقيد الحياة منهم عددٌ كثير من الشيوخ والكهول في وقتنا بمصر، والشام.

وسمعه الناس قبل ذلك بحين على ابن الصلاح، والسخاوي، وتلك الحَلَبة بدمشق على رأس الأربعين وستمائة، من المؤيد وأقرانه، وبمصر على ابن الحُباب، والمُدْلِجي، عن المأموني. فأحسن ما يُسمع في وقتنا على مَن تبقى من أصحاب هؤلاء لتقدُّم سماعهم، فإن تعذّر فعلى أجل أصحاب المذكورين قبلهم، وأجلّهم بالإقليمين عِلماً وفضلاً وثقة ونُبْلاً شيخ الإسلام أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالرحمن الفزاري الشافعي، رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات، ج٢ ق١/ ٩٢.

٤- بقيّ بن مخلد بن يزيد[1]

أبو عبدالرحمن الأندلسي القرطبي الحافظ. أحد الأعلام؛ وصاحب «التفسير» و«المسند».

أخذ عن: يحيى بن يحيى الليثي، ومحمد بن عيسى الأعشى.

وارتحل إلى المشرق ولقي الكبار، فسمع بالحجاز: أبا مُصعب الزهري، وإبراهيم بن المنذر الحِزاميّ، وطبقتهما.

وبمصر: يحيى بن بُكير، وزهير بن عباد، وأبا الطاهر بن السَّرْح، وطائفة.

وبدمشق: إبراهيم بن هشام الغساني، وصفوان بن صالح، وهشام بن عمار، وجماعة.

وببغداد: أحمد بن حنبل، وطبقته.

وبالكوفة: يحيى بن عبدالحميد الحِماني، ومحمد بن عبدالله بن نُمَير، وأبا بكر ابن أبي شيبة، وطائفة.

وبالبصرة من أصحاب حمّاد بن زيد.

وقد فتّشت في «مسند بَقِيّ» لأظفر له بحديث عن أحمد بن حنبل فلم أجد ذلك. وما دخل بغداد إلا سنة نيِّفٍ وثلاثين، بعد موت عليّ بن الجَعْد، وكان أحمد قطع الحديث في سنة ثمانٍ وعشرين إلى أن مات.

وعُني بالأثر عنايةً لا مزيد عليها. وعدد شيوخه مائتان وأربعة وثمانون رجلاً.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣١١.

وكان إماماً زاهداً، صوّاماً، صادقاً، كثير التهجُّد، مُجاب الدعوة، قليل المِثْل.

وكان مجتهداً لا يُقَلِّد أحداً بل يُفتي بالأثر.

وقد أخذ بإفريقية عن سَحْنون بن سعيد.

[المكنسة]

قال أحمد بن أبي خيثمة: ما كنا نُسَمِّيه إلا المِكْنَسَة. وهل احتاج بلدٌ فيه بَقِيٌّ إلى أن يأتي إلى ها هنا منه أحد؟

وقال طاهر بن عبدالعزيز: حملت معي جزءاً من «مسند بَقِيّ» إلى المشرق، فأريته محمد بن إسماعيل الصائغ، فقال: ما اغترفَ هذا إلا من بحر. وعجِبَ من كثرة علمه.

وقال إبراهيم بن حَيُّون، عن بقيّ قال: لما رجعنا من العراق، أجلسني يحيى ابن بُكَير إلى جنبه، وسمع مني سبعة أحاديث.

[ملأ بقي بن مخلد الأندلس حديثاً]

وقال أبو الوليد بن الفَرَضيّ: ملأ بَقِيّ بن مَخْلَد الأندلس حديثاً، فأنكر عليه أصحابه الأندلسيون، ابن خالد، ومحمد بن الحارث وأبو زيد ما أدخله في كتب الاختلاف وغرائب الحديث، فأغْرو ابه السلطان، وأخافوه به.

ثم إنَّ الله أظهره عليهم وعَصَمَهُ؛ فنشر حديثه وقرأ للناس روايته. ثم تلاه ابن وضاح، فصارت الأندلس دار حديث.

ومما انفرد به، ولم يدخله سواه «مصنّف أبي بكر بن أبي شيبة»، وكتاب «الفقه» للشافعي بكماله، و«تاريخ خليفة»، وكتابه «الكبير في الطبقات»، وكتاب «سيرة عمر ابن عبدالعزيز» للدوْرقي؛ وليس لأحدٍ مثل مُسْنَدِهِ.

[بقي بن مخلد من مجابي الدعوة]

وكان ورعاً فاضلاً زاهداً، قد ظهرت له إجابات الدعوة في غير ما شيء.

قال: وكان المشاهير من أصحاب ابن وضّاح لا يسمعون منه، للذي بينهما من الوَحْشَة.

وُلد في رمضان سنة إحدى ومائتين، ومات لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ستٍّ وسبعين ومئتين. ورّخه عبدالله بن يونس. قال محيي الدين بن العربي: الكرامات منها نطق بالكون قبل أن يكون، الإخبار بالمغيبات. وهي على ثلاثة ضُرُب: إلقاء، وكتابة، ولقاء. وكان بقيّ بن مَخْلَد، رحمه الله، قد جمعها. وكان صاحباً للخضر. شُهر هذا عنه.

ذكره في مواقع النجوم، ثم شطح المحيي وقال وعاينا جماعة كذلك. وشاهدناها من ذاتنا غير مرة. ومن هذا المقام ينتقلون إلى مقامٍ يقولون فيه للشيء كن فيكون بإذن الله.

وقال الحافظ ابن عساكر: لم يقع إليَّ حديثٌ مسند من حديثه.

وقال محمد بن حزم: أقطع أنه لم يُؤلَّف في الإسلام مثل تفسيره، ولا تفسير محمد بن جرير، ولا غيره.

[حسد العلماء]

قال: وكان محمد بن عبدالرحمن الأموي صاحب الأندلس محباً للعلوم، عارفاً، فلما دخل بقيّ الأندلسَ بمصنف ابن أبي شيبة، وأنكر عليه جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستبشعوه، ونشَّطوا العامة عليه، ومنعوه مِن قراءته. فاستحضره الأمير محمد المذكور، وأتاهم، وتصفّح الكتاب كله جزءاً جزءاً، حتى أتى على آخره، ثم قال لخازن الكُتُب: هذا كتابٌ لا تستغني خزانتُنا عنه، فانظر في نَسْخه لنا.

وقال لبَقِيّ: انشُر علمك، واروِ ما عندك. ونهاهم أن يتعرضوا له.

وقال أسلم بن عبدالعزيز: حدثنا بقيّ قال: لما وضعت مُسْنَدي جاءني عبدالله ابن يحيى، وأخوه إسحاق فقالا: بلغنا أنك وضعت مسنداً قدَّمتَ فيه أبا مصعب الزهري، ويحيى بن بُكَيْر، وأخّرت أبانا.

فقال بقيّ: أما تقديمي لمصعب، فلقول رسول الله ﷺ : «قدِّموا قريشاً ولا تقدَّموها». وأما تقديمي ابن بُكير، فلقول رسول الله ﷺ : «كبِّرْ كبِّرْ»، يريد السِّنَّ، مع أنه سمع «الموطأ» من مالك سبْع عشرة مرة، وأبوكما لم يسمعه إلا مرة واحدة. فخرجا ولم يعودا. وخرجا إلى حد العداوة.

ولأبي عبدالملك أحمد بن محمد بن عبدالبر القرطبي، المتوفى سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائة، كتابٌ في «أخبار علماء قرطبة»، ذكر فيه بقيّ بن مَخْلَد، فقال: كان فاضلاً تقيّاً صوَّاماً متبتِّلاً، منقطع القرين في عصره، منفرداً عن النظير. في مصر كان أول طلبه عند محمد بن عيسى الأعشى، ثم رحل وروى عن أهل الحرمين، ومصر، والشام، والجزيرة، وحُلْوان، والبصرة، والكوفة، وواسط، وبغداد، وخراسان -كذا قال فغلط، لم يصل إلى خراسان-.

قال: وعَدَن، والقيروان.

قلت: وما أحسبه دخل اليمن.

[قصة دعاء مستجاب]

قال: وذكر عبدالرحمن بن أحمد، عن أبيه، أن امرأة جاءت إلى بَقِيّ فقالت: ابني في الأسْر، ولا حيلة لي، فلو أشرت إلى مَن يفديه، فإني والهة.

قال: نعم، انصرفي حتى أنظر في أمره.

ثم أطرق وحرّك شفته. ثم بعد مدة جاءت المرأة بابنها، فقال: كنت في يد ملك، فبينا أنا في العمل سقط قَيْدي. فذكر اليوم والساعة، فوافق وقت دعاء الشيخ.

قال: فصاح عليَّ المُرَسَّم بنا، ثم نظر وتحيَّر، ثم أحضر الحداد وقيَّدني، فلما فرغ ومشيت سقط. فبُهِتُوا ودَعَوْا رُهبانهم. فقالوا: لك والدة؟

قلت: نعم.

قالوا: وافق دعاؤها الإجابة، وقد أطاعك الله، فلا يمكننا تقييدك. فزوّدوني وبعثوني.

[بقي بن مخلد أول من نشر الحديث في الأندلس]

قال: وكان بَقِيّ أول من كثَّر الحديث بالأندلس ونشره، وهاجم به شيوخ الأندلس. فثاروا عليه لأنهم كان علمهم المسائل ومذهب مالك. وكان بَقِيّ يُفْتي بالأثر، ويشذّ عنهم شذوذاً عظيماً. فعقدوا عليه الشهادات وبدَّعوه، ونسبوا إليه الزَّنْدَقة وأشياء نزَّهه الله منها.

وكان بقيّ يقول: لقد غرست لهم بالأندلس غرساً لا يقلع إلا بخروج الدّجال.

قال: وقال بقيّ: أتيت العراق، وقد مُنع أحمد بن حنبل من الحديث، فسألته أن يحدثني، وكان بيني وبينه خلّة، فكان يحدثني بالحديث بعد الحديث في زيّ السُّؤال، ونحن خلْوة. حتى اجتمع لي منه نحو من ثلاثمائة حديث.

[مسند بقي بن مخلد]

وقال ابن حزم: مسند بقي روى فيه عن ألفٍ وثلاثمائة صاحب ونيِّف، ورتَّب حديث كل صاحب على أبواب الفقه. فهو مُسْنَد ومصنَّف. وما أعلم هذه الرتبة لأحدٍ قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث. وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين، فمن دونهم الذي أوفى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، وعلى مصنف عبدالرزاق، ومصنف سعيد بن منصور.

ثم ذكر تفسيره وقال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام لا نظير لها. وكان متخيِّراً لا يُقلِّد أحداً.

وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل، وجارياً في مضمار البخاري، ومسلم، وأبي عبدالرحمن النسائي.

[صفات بقي بن مخلد الخلقية]

وقال أبو عبدالملك القرطبي في تاريخه: كان بقي طويلاً أقنى، ذا لحية، مُضَبَّراً[1]، قوياً، جَلْداً على المشي. لم يُرَ راكباً دابةً قط. وكان ملازماً لحضور الجنائز، متواضعاً.

[رحلته في طلب العلم]

وكان يقول: إني لأعرف رجلاً كان يمضي عليه الأيام في وقت طلبه العلم، ليس له عيش إلا ورق الكرنب[2] الذي يُرمَى. وسمعت من كل من سمعت منه في البلدان ماشياً إليهم على قدمي.

قلت: وَهِمَ من قال: إنه توفي سنة ثلاثٍ. بل توفي سنة ستٍّ وسبعين ومئتين كما تقدَّم.

قال ابن لُبانة: كان بقيّ من عقلاء الناس وأفاضلهم. وكان أسلم بن عبدالعزيز يقدّمه على جميع مَن لقي بالمشرق، ويصف زُهْده، ويقول: إنما كنت أمشي معه في أزقة قرطبة، فإذا نظر في موضعٍ خالٍ إلى ضعيف محتاج أعطاه أحد ثوبيه.

وذكر أبو عبيدة صاحب القِبْلَة قال: كان بقيّ يختم القرآن كل ليلةٍ في ثلاث عشر رَكْعة. وكان يصلي بالنهار مائة ركعة، ويصوم الدهر، وكان كثير الجهاد، فاضلاً.

---

(١) الضَّبر: تلزيز العظام، واكتناز اللحم.

(٢) الكُرُنْب: هو الملفوف كما في ساحل الشام.

يُذكر عنه أنه رابطَ اثنتين وسبعين غزوة.

ونقل بعض العلماء من كتاب حفيده عبدالرحمن بن أحمد بن بقيّ: سمعت أبي يقول: رحل أبي من مكة إلى بغداد، وكان جُلَّ بغيته ملاقاةُ أحمد بن حنبل. قال: فلما قَرُبْتُ بلغتني المحنةُ، وأنه ممنوع. فاغتممت غمّاً شديداً، فأحللت بغداد واكتريت بيتاً في فندق. ثم أتيت الجامع، وأنا أريد أن أجلس إلى الناس، فدُفعتُ إلى حلقةٍ نبيلة، فإذا برجلٍ يتكلم في الرجال، فقيل لي: هذا يحيى بن معين، ففرجتُ لي فَرْجَةً، وقمت إليه، فقلت: يا أبا زكريا -رحمك الله- رجل غريب ناءٍ عن وطنه، يحبُّ السؤال فلا تستجفني. فقال: قل.

فسألته عن بعض ما لقيته، فبعضاً زكّى، وبعضاً جرَّح.

[كيف تزكى الرجال]

فسألت عن هشام بن عمار، فقال لي: أبو الوليد صاحب صلاة دمشق، ثقة وفوق الثقة. ولو كان تحت ردائه كِبْرٌ أو متقلداً كِبْراً ما ضرّه شيئاً لخيره وفضله.

فصاح أصحاب الحلقة: يكفيك -رحمك الله- غيرك له سؤال.

فقلت وأنا واقف على قدميّ: اكشف عن رجلٍ واحد: أحمد بن حنبل.

فنظر إليَّ كالمتعجِّب، وقال لي: ومثلنا نحن نكشف عن أحمد بن حنبل؟ ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم.

[قصة بقي بن مخلد وأحمد بن حنبل]

فخرجت أستدلّ على منزل أحمد، فدُلِلْتُ عليه. فقرعت بابه، فخرج إليّ، فقلت: يا أبا عبدالله رجل غريب نائي الدار، وهذا أول دخولي هذا البلد، وأنا صاحب حديث، ومُقيِّدُ سُنَّة. ولم تكن رحلتي إلا إليك.

فقال: أُدخل الأسطوانة، ولا يقع عليك عين. فدخلت.

فقال لي: وأين موضِعَك؟

قلت: المغرب الأقصى.

قال: إفريقية؟

فقلت له: أبعد من إفريقية. أجوز من بلدي البحر إلى إفريقية. الأندلس.

قال: إن موضعك لَبعيد، وما كان شيء أحبُّ إليَّ من أن أُحسن عون مثلك، غير أني مُمتحَن بما لعله قد بلغك. فقلت له: بلى، لقد بلغني، وهذا أول دخولي، وأنا مجهول العين عندكم. فإذا أذِنْت لي أن آتي كل يومٍ في زي السُّؤَّال، فأقول عند الباب ما يقوله السائل، فتخرج إلى هذا الموضع. فلو لم تحدثني كل يوم إلا بحديث واحدٍ لكان لي فيه كفاية.

فقال لي: نعم، على شرط أن لا تظهر في الخَلْق، ولا عند المحدثين.

فقلت: لك شرطك.

فكنت آخذ عوداً بيدي، وألفُّ رأسي بخرقةٍ مدنَّسة وآتي بابه، فأصيح: الأجر، رحمكم الله، والسؤال هناك كذلك، فيخرج إليَّ ويُغلق الباب، ويحدثني بالحديثين، والثلاثة، والأكثر. فالتزمت ذلك حتى مات المُمتحِن له[1]، وولي بعد مَن كان على مذهب السنّة[2]، فظهر أحمد وعَلَتْ إمامتُهُ، وكانت تُضربُ إليه آباط الإبل، فكان يعرف لي حق صبري، فكنت إذا أتيت حلقته فسح لي، ويقصّ على أصحاب الحديث قصتي معه. فكان يناولني الحديث مناولةً، ويقرؤه عليّ، وأقرؤه عليه. واعتللْتُ، فعادَني في خلْقٍ معه.

---

(١) وهو الخليفة المأمون.

(٢) وهو الخليفة المتوكل.

وذكر الحكاية أطْوَل من هذا، نقلها ابن بشْكوال في غير «الصلة». وأنا نقلتها من خط أبي الوليد بن الحاج شيخنا[1].

وقال أيضاً: نقلت من خط حفيده عبدالرحمن بن أحمد بن بَقِيّ: حدثني أبي قال: أخبرتني أمي أنها رأت أبي مع رجلٍ طويل جداً. فسألته عنه، فقال هو: أرجو أن تكوني امرأة صالحة، ذاك الخَضِر عليه السلام.

وذكر عبدالرحمن عن جدّه أشياء، فالله أعلم.

قال: كان جدي قد قسّم أيامه على أعمال البِرّ. فكان إذا صلّى الصُّبْح قرأ حزْبه من القرآن في المصحف بسُدس القرآن. وكان أيضاً يختم القرآن في الصلاة في كل يومٍ وليلة. ويخرج كل ليلةٍ في الثلث الأخير إلى مسجده، فيختم قرب انصداع الفجر. وكان يُصلي بعد حزْبه في المصحف صلاة طويلة جداً، ثم ينقلب إلى داره، وقد اجتمع في مسجده الطَّلَبة، فيُجدِّد الوضوء ويخرج إليهم. فإذا انقضت الدول صار إلى صوْمَعة المسجد، فيصلي إلى الظُّهر. ثم يكون هو المبتدئ بالأذان. ثم يهبط، ثم يستمع إلى العصر ويصلي ويسمع. وربما خرج في بقية النهار، فيقعد بين القبور يبكي ويعتبر، فإذا غربت الشمس أتى مسجده، ثم يصلي ويرجع إلى بيته فيُفْطِر.

وكان يسرد الصوم إلا يوم الجمعة. ثم يخرج إلى المسجد، فيخرج إليه جيرانه، فيتكلم معهم في دينهم ودُنياهم. ثم يصلي العشاء، ويدخل بيته، فيُحدِّث أهله، ثم ينام نومةً قد أخذتها نفسه، ثم يقوم. هذا دأْبُه إلى أن توفي. وكان جَلْداً، قوياً على المشي، مواظباً لحضور الجنائز، ولم يُرَ راكباً قط.

ومشى مع ضعيفٍ في مَظْلِمة إلى إشبيلية، ومع آخر إلى إلْبيرة، ومع امرأة ضعيفةٍ إلى جَيّان.

---

(١) وهي منكرة. (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٢-٢٩٤).

[٥- أبو داود السجستاني صاحب السنن]

سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عِمران[1].

الإمام أبو داود الأزدي السجستاني، صاحب «السنن».

قال أبو عبيد الآجري: سمعته يقول: وُلدتُ سنة اثنتين ومائتين. وصليت على عفان [بن مسلم الصفار] ببغداد سنة عشرين.

قلت: مات في ربيع الآخر.

قال: ودخلت البصرة وهم يقولون: أمس مات عثمان بن الهيثم المؤذِّن.

قلت: مات في رجب سنة عشرين.

قال: سمعتُ من أبي عمر الضرير مجلساً واحداً.

قال: مات في شعبان من السنة بالبصرة.

قال: وتبعتُ عمر بن حفص بن غِياث إلى منزله، ولم أسمع منه.

وسمعتُ من سعدون مجلساً واحداً، ومن عاصم بن عليّ مجلساً واحداً.

قال أبو عيسى الأزرق: سمعتُ أبا داود يقول: دخلت الكوفة سنة إحدى وعشرين، ومضيت إلى منزل عمر بن حفص، فلم يُقْضَ لي السماع منه.

قلت: وسمع من: القَعْنَبيّ، وسليمان بن حرب، وجماعة بمكة سنة عشرين أيام الحج.

وسمع من: مسلم بن إبراهيم، وعبدالله بن رجاء، وأبي الوليد [الطيالسي]، وأبي سَلَمَة التبوذكيّ، وخلْق بالبصرة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٥٧.

ومن: الحَسَن بن الربيع البوراني، وأحمد بن يونس اليربوعي، وطائفة بالكوفة.

ومن: صفوان بن صالح، وهشام بن عمّار، وطائفة بدمشق.

ومن: قتيبة، وابن راهويه، وطائفة بخراسان.

ومن: أبي جعفر النُّفَيْلي، وطائفة بالجزيرة.

ومن خلْق بالحجاز، ومصر، والشام، والثَّغر، وخراسان.

وسمع من: أبي توْبَة الربيع بن نافع، بحلب.

ومن: أحمد بن أبي شعيب بحَرّان، وحَيوَة، ويزيد بن عبد ربه، بحمص. وعنه: الترمذي والنسائي، وابنه أبو بكر.

وروى عنه سُنَنَه: أبو عليّ اللؤلؤي، وأبو بكر بن داسة، وأبو سعيد بن الأعرابي بفوتٍ له، وعليّ بن الحسن بن العبد، وأبو أسامة محمد بن عبدالملك الرّوّاس، وأبو سالم محمد بن سعيد الجُلُوديّ وأبو عمرو أحمد بن علي، وغيرهم.

وروى عنه من الحُفَّاظ: أبو عَوانة الإسفراييني، وأبو بشر الدولابي، ومحمد ابن مَخْلَد، وأبو بكر الخلاّل، وعَبْدان الأهوازيّ، وزكريا الساجي، وطائفة.

ومن الشيوخ: إسماعيل الصّفّار، ومحمد بن يحيى الصولي، وأبو بكر النَّجّاد، وأحمد بن جعفر الأشعري، وعبدالله ابن أخي أبي زُرْعة الرازي، وعبدالله بن محمد ابن يعقوب البخاري، ومحمد بن أحمد بن يعقوب المَتُّوثي، وخلْق.

وكتب عنه الإمام أحمد شيخه حديثَ العتيرة.

ويقال: إنه صنَّف «السنن» فعرضه على الإمام أحمد، فاستجاده واستحسنه.

[ثناء العلماء على أبي داود]

وروى إسماعيل الصّفّار عن أبي بكر الصَّاغاني قال: لُيِّنَ لأبي داود السجستاني الحديث، كما لُيِّن لداود الحديد.

وقال أبو عمر الزاهد: قال إبراهيم الحربي: أُلين لأبي داود الحديث كما أُلين لداود عليه السلام الحديد.

وقال موسى بن هارون الحافظ: خُلق أبو داود في الدنيا للحديث، وفي الآخرة للجنة. ما رأيتُ أفضل منه.

وقال ابن داسة: سمعت أبا داود يقول: كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث، وانتخبت منها ما ضمّنته كتاب «السنن». جمعتُ فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث، ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه. فإنْ كان فيه وَهَن شديد بيَّنته.

[توضيح الذهبي لقول أبي داود]

قلت: وفَى رحمه الله بذلك فإنه يبين الضعيف الظاهر، ويسكت عن الضعيف المحتمل. فما سكت عنه لا يكون حَسَناً عنده ولا بد، بل قد يكون فيه ضعفٌ ما.

وقال زكريا الساجي: كتاب الله أصل الإسلام، وكتاب أبي داود عهد الإسلام.

[من فرسان الحديث]

وقال أحمد بن محمد بن ياسين الهَرَوي في «تاريخ هَراة»: أبو داود السِّجْزيّ كان أحد حُفّاظ الإسلام لحديث رسول الله ﷺ وعِلْمه وعِلَله، وسَنَده، في أعلى درجة النسْك والعفاف والصلاح والورع. من فرسان الحديث.

[تفقه أبو داود بأحمد بن حنبل]

قلت: وتفَقَّه بأحمد بن حنبل، ولازمه مدّة. وكان من نُجباء أصحابه، ومن جِلَّة فقهاء زمانه، مع التقدم في الحديث والزُّهد.

روى أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، قال: عن عبدالله إنه كان يُشبَّه بالنبي ﷺ في هَدْيِهِ ودِلِّه. وكان علقمة يشبَّه بابن مسعود.

قال جرير بن عبدالحميد: وكان إبراهيم يشبَّه بعَلْقَمة، وكان منصور يشبه بإبراهيم.

وقال غيره: كان سفيان الثوري يشبه بمنصور، وكان وَكيع يشبه بسفيان، وكان أحمد بن حنبل يشبه بوكيع، وكان أبو داود يشبّه بأحمد.

وقال أبو عبدالله الحاكم: أبو داود هو إمام أهل الحديث في عصره بلا مُدافعة. كتب بخراسان قبل خروجه إلى العراق في بلده، وفي هَراة؛ وكتب ببغداد عن قتيبة، وبالري عن إبراهيم بن موسى. وقد كتب قديماً بنيسابور، ثم رحل بابنه إلى خراسان. كذا قال الحاكم.

[من تحقيقات الذهبي]

وأما القاضي شمس الدين بن خلّكان فقال: سجستان قرية من قرى البصرة.

قلت: سجستان إقليم منفرد متاخم لبلاد السِّنْد، يُذهَب إليه من ناحية هَراة.

وقد قيل: إن أبا داود من سِجِستان، قرية من قرى البصرة؛ وهذا ليس بشيء. بل دخل بغداد قبل أن يجيء إلى البصرة.

[كيف تكون قوياً في الحق]

وقال الخطابي: حدثني عبدالله بن محمد المكيّ: حدثني أبو بكر بن جابر خادم أبي داود رحمه الله قال: كنتُ مع أبي داود ببغداد، فصلَّينا المغرب، فجاءه الأمير أبو أحمد الموفَّق فدخل، ثم أقبل عليه أبو داود فقال: ما جاء بالأمير في مثل هذا الوقت؟

قال: خِلالٌ ثلاث.

قال: وما هي؟

قال: تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطناً ليرحل إليك طلبة العلم، فتعمر بك، فإنها قد خربت وانقطع عنها الناس، لما جرى عليها من محنة الزَّنْج.

فقال: هذه واحدة.

قال: وتروي لأولادي «السُّنَن»

فقال: نعم، هاتِ الثالثة.

قال: وتُفرد لهم جلساً، فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة.

قال: أما هذه فلا سبيل إليها، لأن الناس في العلم سواء.

قال ابن جابر: فكانوا يحضرون ويقعدون في كمٍّ حيريّ ضُرب عليه ستْر، ويسمعون مع العامة.

وقال ابن داسَة: كان لأبي داود كُمٌّ واسع وكُمٌّ ضيق، فقيل له في ذلك، فقال: الواسع للكتب، والآخر لا يُحتاج إليه.

وقال أبو بكر الخلاّل: أبو داود الإمام المقدَّم في زمانه لم يسبق إلى معرفته بتخريج العلوم وبَصَره بمواضعه. رجل ورع مقدَّم. كان أبو بكر بن صدقة وإبراهيم الأصبهاني يرفعون من قَدْره، ويذكرونه بما لا يذكرون أحداً في زمانه مثله.

وقال أبو بكر بن أبي داود: سمعت أبي يقول: خير الكلام ما دخل في الأُذن بغير إذن.

[عجائب خلق الله]

وقال أبو داود في سُنَنه[1]: شَبَرْت قِثاءةً بمصر ثلاثة عشر شِبْراً، ورأيت أُتْرُجَّةً على بعيرٍ قُطِعَتْ قطعتين وعُمِلَتْ مثل عِدْلين.

قال أبو داود: دخلت دمشق سنة اثنتين وعشرين [ومئتين].

---

(١) انظر: سنن أبي داود الحديث (١٥٩٩).

وقال أبو عبيد الآجري: توفي في سادس عشر شوال سنة خمسٍ وسبعين [ومئتين].

قلت: آخر من روى حديثه عالياً سِبْط السِّلَفي، وقع له كتاب «الناسخ والمنسوخ» بعلو من طريق السِّلَفي.

[٦- الدارمي]

عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الحافظ(١).

أبو سعيد الدارمي السجستاني. مُحَدِّث هَراة. وأحد الأعلام. طوَّف الأقاليم، ولقي الكبار، وسمع: أبا اليَمان الحمصي، ويحيى الوُحاظيّ، وحَيَوَة بن شُرَيْح بحمص.

وسعيد بن أبي مريم، وعبدالغفار بن داود الحرّاني، ونُعَيْم بن حماد، وطبقتهم بمصر.

وسليمان بن حرب، وموسى بن إسماعيل التَّبُوذكيّ، وخلْقاً بالعراق.

وهشام بن عمار، وحمّاد بن مالك الحَرَستاني، وطائفة بدمشق.

وأخذ علم الحديث عن: أحمد بن حنبل، وعليّ ابن المديني، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين.

وعنه: أبو عمر أحمد بن محمد الحيري، ومؤمل بن الحسن الماسَرْجِسِيّ، وأحمد ابن محمد الأزهري، ومحمد بن يوسف الهروي نزيل دمشق، ومحمد بن إسحاق الهروي، وأحمد بن محمد بن عَبْدُوس الطريفي، وأبو النضر محمد بن محمد الطوسي الفقيه، وحامد الرّفاء، وأحمد بن محمد العنبري، وطائفة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/٣٩٦.

قال أبو الفضل يعقوب الهروي ابن الفرات: ما رأينا مثل عثمان بن سعيد، ولا رأى هو مثل نفسه: أخذ الأدب عن ابن الأعرابي، والفِقْه عن أبي يعقوب البُوَيْطيّ، والحديث عن علي ابن المديني، ويحيى بن معين، وتقدَّم في هذه العلوم، رحمه الله.

وقال الحافظ أبو حامد الأعمش: ما رأيت في المحدِّثين مثل: محمد بن يحيى، وعثمان بن سعيد، ويعقوب الفَسَوي.

وقال أبو عبدالله بن أبي ذُهَل: قلت لأبي الفضل بن إسحاق الهروي: رأيت أفضل من عثمان الدارمي؟

فأطرق ساعة، ثم قال: نعم، إبراهيم الحربي!

[العلماء والحكام]

قال أبو الفضل: ولقد كنا في مجلس عثمان غير مرة، ومرَّ به الأمير عمرو بن الليث فسلَّم عليه، فقال: عليكم. حدثنا مسدَّد : ولم يزد على هذا.

[طرائف العلماء]

وقال ابن عبْدوس الطريفي: لما أردت الخروج إلى عثمان بن سعيد، كتب لي ابن خُزَيْمَة إليه، فدخلت هَراةَ في ربيع الأول سنة ثمانين [ومئتين]. فقرأ الكتاب ورحَّب بي، وسألني عن ابن خُزَيْمَة، ثم قال: يا فتى متى قدِمْت؟

قلت: غداً.

قال: يا بني، فارجع اليوم فإنك لم تقدم بعد.

قلت: كأنه ما كان عرف اللسان العربي جيداً، فقال: غداً، وظنها أمس.

وللدارمي كتاباً في «الرد على الجهمية»، سمعناه، وكتاب في «الردّ على بِشْر المَريسي»، سمعناه. وكان جِذْعاً في أعين المجتهدين المبتدعين. وصنَّف مُسْنَداً كبيراً. وهو الذي قام على محمد بن كرّام، وطرده من هَراة، فيما قيل.

قال أبو إسحاق أحمد بن محمد بن يونس الهروي، وأبو يعقوب بن الفرات: إنه توفي في ذي الحجة سنة ثمانين [ومئتين]. ووَهِمَ من قال: سنة اثنتين وثمانين.

[لولا العلم لكنت بقالاً]

قال الحاكم: سمعت أبا الطيب محمد بن أحمد الورّاق: سمعت أبا بكر الفَسَويّ: سمعت عثمان بن سعيد الدارمي يقول: قال لي رجل ممن يحسدني: ماذا كنت لولا العلم؟

فقلت: أردتَ شيناً فصار زيناً. سمعت نُعَيْم بن حمّاد يقول: سمعت أبا معاوية يقول: قال الأعمش: لولا العِلم لكنتُ بقّالاً. وأنا لولا العِلْم لكنتُ بزّازاً من بزّازي سِجستان.

قال عثمان الدارمي: مَن لم يجمع حديث شعبة، وسفيان، ومالك، وحمّاد بن زيد، وابن عُيَيْنَة، فهو مُفْلِس في الحديث.

يعني أنه ما بلغ رُتْبة الحُفّاظ في العلم. ولا ريب أن من حصل على علم هؤلاء الأكابر الأئمة الخمسة، وأحاط بمروياتهم عالياً ونازلاً، فقد حصل على ثلثي السُّنة، أو نحو ذلك.

[٧- أبو حاتم الرازي]

محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران[١].

أبو حاتم الغطفاني الحنظلي الرازي الحافظ. أحد الأئمة الأعلام.

وُلد سنة خمسٍ وتسعين ومائة.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٢٠/ ٤٣٠.

قال عبدالرحمن بن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: كتبتُ الحديث سنة تسعٍ وثمانين وأنا ابن عشر سنوات.

سمع: عُبيدالله بن موسى، وأبا نُعَيْم، وطبقتهما بالكوفة؛ ومحمد بن عبدالله الأنصاري، والأصمعي، وطبقتهما بالبصرة؛ وعفان، وهَوْذَة بن خليفة، وطبقتهما ببغداد؛ وأبا مُسْهِر، وأبا الجماهر محمد بن عثمان، وطبقتهما بدمشق؛ وأبا اليَمان، ويحيى الوُحاظيّ، وطبقتهما بحمص؛

وسعيد بن أبي مريم، وطبقته بمصر؛
وخلْقاً بالنواحي الثغور.
وتردَّد في الرحلة زماناً.

[الرحلة في طلب العلم]

قال ابنه: سمعتُ أبي يقول: أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين. أحصيت ما مشيت على قدميّ زيادةً على ألف فرسخ، ثم تركت العدد بعد ذلك. وخرجتُ من البحرين إلى مصر ماشياً، ثم إلى الرملة ماشياً، ثم إلى دمشق، ثم إلى أنطاكية، ثم إلى طَرَسُوس. ثم رجعت إلى حمص، ثم منها إلى الرقة، ثم ركبتُ إلى العراق. كل هذا وأنا ابن عشرين سنة.

دخلتُ الكوفة في رمضان سنة ثلاث عشرة ومئتين.

قلت: أدرك عُبيد الله [بن موسى] قبل موته بشهرين.

قال: وجاءنا نعي أبي عبدالرحمن المقرئ وأنا بالكوفة. ورحلتُ مرةً ثانية سنة اثنتين وأربعين ومائتين، ورجعتُ إلى الري سنة خمسٍ وأربعين.

وحججتُ رابع حجةٍ سنة خمسٍ وخمسين [ومئتين].

قال: وفيها حجّ ابني عبدالرحمن، وحزرت ما كتبت عن ابن نُفَيْل يكون نحواً من أربعة عشر ألفاً. وكتبَ محمد بن مصفًّى عني جزءاً انتخبه.

قلت: وحدَّث عنه من شيوخه: الصفَّار، ويونس بن عبد الأعلى، وعَبْدة بن سلمان المروَزِي، ومحمد بن عوف الحمصيّ، والربيع بن سليمان المراديّ.

ومن أقرانه: أبو زُرْعة الرازي، وأبو زُرْعة الدمشقي.

ومن أصحاب السنن: أبو داود والنسائي، وقيل البخاري وابن ماجه رويا عنه ولم يصحّ؛ وأبو بكر بن أبي الدنيا، وابن صاعد، وأبو عَوانة، والقاضي المحاملي، وأبو الحسن عليّ بن إبراهيم القطان صاحب ابن ماجه، وأبو عمرو محمد بن أحمد بن حكيم المديني، ومحمد بن مَخْلَد العطار، والحسين بن عياش القطان، وحفص بن عمر الأردبيلي، وسليمان بن يزيد الفامي، وعبدالرحمن بن حمدان الجلاّب، وبكر بن محمد المَرْوَزِي الصيرفي، وعبدالمؤمن بن خَلَف النسفي، وأبو حامد أحمد بن علي بن حَسْنَوَيْه المقرئ التاجر، وخلْق كثير.

قال عبدالرحمن بن أبي حاتم: قال لي موسى بن إسحاق القاضي: ما رأيتُ أحفظ من والدك.

وقال أحمد بن سَلَمَة الحافظ: ما رأيت بعد إسحاق بن راهَوَيْه، ومحمد بن يحيى، أحفظ للحديث من أبي حاتم، ولا أعلم بمعانيه.

وقال ابن أبي حاتم: سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: أبو زُرْعة وأبو حاتم إماما خراسان. بقاؤهما صلاحٌ للمسلمين.

وقال هبة الله اللالكائي: أبو حاتم إمام حافظ ثَبْت.

وقال النسائي: ثقة.

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: كنتُ أذاكر أبا زُرعة، فقال لي: يا أبا حاتم قَلَّ مَن يفهم هذا من واحدٍ واثنتين، فما أقلّ من يُحسن هذا. وربما أتيتك في شيء وأبقى إلى أن التقي معك، لا أجد من يشفيني.

وقال القاسم بن أبي صالح الهمداني: سمعتُ أبا حاتم يقول: قال لي أبو زُرعة: ترفع يديك في القُنوت؟

قلت: لا، أفترفع أنت؟

قال: نعم.

قلت: ما حُجَّتك؟

قال: حديث ابن مسعود.

قلت: رواه ليث بن أبي سُلَيْم.

قال: حديث أبي هريرة.

قلت: رواه ابن لَهيعة.

قال: حديث ابن عباس.

قلت: رواه عوف.

قال: فما حُجَّتك في ترْكه؟

قلت: حديث أنس «أن رسول الله ﷺ كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء». فسكت أبو زُرْعة.

[فقه الذهبي]

قلتُ: قد ثبتت عدة أحاديث في رفع النبي ﷺ يديه في الدعاء، وأنس حكى بحسب ما رآه منه.

وقال ابن أبي حاتم: سمعتُ أبي يقول: قلت على باب أبي الوليد الطيالسي: من أغربَ عليَّ حديثاً صحيحاً فله عليَّ درهم يتصدَّق به. وكان ثمَّ خلقٌ، أبو زُرْعة فمن دونه؛ وإنما كان مرادي أن يُلْقى عليَّ ما لم أسمع به. فيقولون هو عند فلان، فأذهب فأسمعه، فلم يتهيأ لأحدٍ أن يُغْرب عليَّ حديثاً.

وسمعتُ أبي يقول: كان محمد بن يزيد الأسفاطي قد ولع بالتفسير وبحفظه، فقال يوماً: ما تحفظون في قوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [ق:٣٦]؟ فسكتوا. فقلت: حدثنا أبو صالح، عن معاوية بن صالح، عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: ضربوا في البلاد.

وسمعت أبي يقول: قدم محمد بن يحيى النيسابوري الرِّيّ. فألقيت عليه ثلاث عشر حديثاً من حديث الزهري، فلم يعرف منها إلا ثلاثة أحاديث.

قلت: إنما ألقى عليه من حديث الزهري، لأن محمداً كان إليه المنتهى في معرفة حديث الزهري، قد جمعه وصنفه وتتبعه حتى كان يقال له الزهري.

قال: وسمعت أبي يقول: وبقيت بالبصرة سنة أربع عشر ثمانية أشهر، فجعلت أبيع ثيابي حتى نفدت. فمضيت مع صديق لي أدور على الشيوخ، فانصرف رفيقي العشي، ورجعت فجعلت أشرب الماء من الجوع ثم أصبحت، فغدا علي رفيقي، فطفت معه على جوع شديد، وانصرفت جائعاً.

فلما كان من الغد، غدا عليّ فقلت: أنا ضعيف لا يمكنني. قال: ما بك؟

قلت: لا أكتمك، مضى يومان ما طُعِمت فيهما شيئاً.

فقال: قد بقي معي دينار، فنصفه لك، ونجعل النصف الآخر في الكراء.

فخرجنا من البصرة، وأخذت منه النصف دينار.

سمعت أبي يقول: خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري، وصرنا إلى الجار فركبنا البحر، فكانت الريح في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر وضاقت صدورنا، وفني ما كان معنا. وخرجنا إلى البر نمشي أياماً حتى فني ما تبقى معنا من الزاد والماء. فمشينا يوماً لم نأكل ولم نشرب، واليوم الثاني كمثل، ويوم الثالث. فلما كان المساء صلينا وألقينا بأنفسنا. فلما أصبحنا في اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا. وكنا ثلاثة، أنا وشيخ نيسابوري، وأبو زهير المَرْوَرُوذي، فسقط الشيخ مغشياً عليه، فجئنا نحركه وهو لا يعقل. فتركناه ومشينا قدر فرسخ، فضعفت وسقطت

مغشياً عليّ، ومضى صاحبي يمشي، فرأى من بعيد قوماً قرَّبوا سفينتهم من البر ونزلوا على بئر موسى فلما عاينهم لوَّحَ بثوبه إليهم فجاؤوا معهم ماء، فسَقوه وأخذوا بيده، فقال لهم: الحقوا رفيقين لي، فما شعرت إلا برجلٍ يصبُّ الماء على وجهي، ففتحت عينيّ، فقلت: اسقِني. فصبَّ من الماء في مَشْرَبة قليلاً، فشربت ورجعتْ إليَّ نفسي. ثم سقاني قليلاً وأخذ بيدي، فقلت: ورائي شيخ مُلقى. فذهب جماعةٌ إليه. وأخذ بيدي وأنا أمشي وأجرّ رجلي، حتى إذا بلغت عند سفينتهم وأتوا بالشيخ، وأحسنوا إليه، فبقينا أياماً حتى رجعتْ إلينا أنفُسُنا. ثم كتبوا لنا كتاباً إلى مدينة يقال لها راية، إلى واليهم. وزوّدونا من الكعك والسَّوِيق والماء. فلم نزل نمشي حتى نفد ما كان معنا من الماء والقوت، فجعلنا نمشي جِياعاً على شاطئ البحر، حتى دُفعنا إلى سلحفاة مثل الفرس. فعمدنا إلى حجرٍ كبير، فضربنا على ظهرها فانفلق، فإذا فيه مثل صُفرة البيض، فحسيناه حتى سكت عنا الجوع، حتى توصلنا إلى مدينة الراية وأوصلنا الكتاب إلى عاملها.

فأنزلنا في داره. وكان يُقدّمُ إلينا كل يوم القَرْع، ويقول لخادمه: هات لهم اليقطين المبارك. فيُقدِّمه مع الخبز أياماً فقال واحد منا: ألا تدعو باللحم المشؤوم. فسمع صاحب الدار، فقال: أنا أحسن الفارسية فإن جدتي كانت هروية. وأتانا بعد ذلك باللحم. ثم زوَّدنا إلى مصر.

سمعتُ أبي يقول: لا أُحصي كم مرةٍ سرت من الكوفة إلى بغداد.

توفي أبو حاتم في شعبان سنة سبعٍ وسبعين [ومئتين]، وله اثنان وثمانون سنة.

[٨- مسند الدنيا الطبراني]

سليمان بن أحمد بن أيوب[١] بن مطير أبو القاسم اللخمي الطبراني الحافظ المشهور مسند الدنيا.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٠٢.

سمع: هاشم بن مرثد الطبراني، وأبا زُرْعة الدمشقي، وأحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، وأحمد بن عبدالوهاب بن نجدة الحَوْطي، وأبا زيد أحمد بن عبدالرحيم بن يزيد الحوطي، وأحمد بن مسعود المقدسي، وأحمد بن إسحاق البلدي الخشّاب، وأحمد بن خُلَيْد الحلبي، وأحمد بن شعيب النسائي، وإبراهيم بن بَرّة الصنعاني، وإسحاق بن إبراهيم الدَّبري، وإبراهيم بن سويد الشبامي، وإدريس بن جعفر العطّار صاحب يزيد بن هارون، وبِشْر بن موسى الأسدي، والحسن بن سهل المجوّز، وحفص بن عمر سنجه، وحَبُّوش بن رزق الله، وخير بن عرفة، وأبا الزنباع رَوْح بن الفرج، وعلي بن عبدالعزيز البَغَوي وعبدالله بن محمد بن سعيد ابن أبي مريم، وعبدالله بن الحسين المَصِّيصي، وعمارة بن وثيمة، وعبيد الله بن رماحس، وعمرو بن ثور الجذامي، ومحمد بن حيّان المازني، ومحمد بن حبّان الباهلي، ومحمد ابن يحيى بن المنذر القزّاز، ومحمد بن زكريا الغلابي محمد بن أسد الأصبهاني، وموسى بن عيسى بن المنذر الحمصي، ومقدام بن داود الرّعيني، وهارون بن مَلّول، ويوسف بن يزيد القراطيسي، ويحيى بن أيوب العلاّف وغيرهم، وأول سماعه بطبرية سنة ثلاثٍ وسبعين ومائتين، وله ثلاث عشرة سنة.

سمّعه أبوه ورحل به لأنه كان له ماسة بالحديث، وقد سمع من دُحَيْم لما قدم عليهم طبرية، وزار به أبوه القدس سنة أربعٍ وسبعين فسمّعه من أحمد بن مسعود الخياط، حدّثه عن عمرو بن أبي سَلَمَةَ التنِّيسي، ثم رحل إلى قيسارية فسمع إبراهيم ابن أبي سفيان، وعمرو بن ثور أصحاب الفريابي، سمع بعكا من أحمد اللحياني صاحب آدم بن أبي إياس، ثم إنه رحل سنة ثمانٍ وسبعين إلى حلب، وسمع بحمص وجَبَلة ودمشق والشام في هذا القُرْب، ثم حجّ ودخل اليمن مع أبيه في نحو من سنة ثمانين، فسمع كُتُب عبدالرزاق، وسمع بمصر في رجوعه فيما أحسب أو في ذهابه من محدّثيها، وسمع بعد ذلك من أهل بغداد والبصرة والكوفة، وأصبهان، وغير ذلك.

وكان مولده بعكا في صفر سنة ستين ومائتين، وكانت أمّه من عكا.

وصنّف معجم شيوخه وهو مجلد مرويّ، و«المعجم الكبير» في عدة مجلدات على أسماء الصحابة، و«المعجم الأوسط» وفيه الأحاديث الأفراد والغرائب، صنّفه على ترتيب أسماء شيوخه، وصنّف كتاب «الدعاء»، وكتاب «عشرة النساء»، وكتاب «حديث الشاميين»، وكتاب «المناسك»، وكتاب «الأوائل»، وكتاب «السُّنَّة»، وكتاب «الطوالات»، وكتاب «الرمي»، وكتاب «النوادر»، مجلد، «ومسند أبي هريرة»، كبير، وكتاب «التفسير»، وكتاب «دلائل النبوة».

وكتاب «مسند شعبة»، وكتاب «مسند سفيان»، ومسانيد طائفة، وغير ذلك مما غاب عني ذكره ولم أعرف به.

روى عنه: أبو خليفة الفضل بن الحُباب، وأبو العباس بن عُقْدة، وأحمد بن محمد الصحاف وهو من شيوخه، وأبو بكر بن مردويه، وأبو عمرو محمد بن الحسين ابن محمد البسطامي فقيه نيسابور والحسين بن أحمد بن المرزبان، وأبو بكر بن أبي عليّ الذكواني، وأبو الفضل أحمد بن محمد الجارودي، وأبو نُعَيم الحافظ، وأبو الحسين بن فاذشاه، ومحمد بن عبيد الله بن شهريار، وأبو سعيد عبدالرحمن بن أحمد الصفّار، وآخر من حدّث عنه بالسماع أبو بكر من ريذَة، وبقي بعده بسنتين عبدالرحمن بن أبي بكر الذَّكْواني يروي عنه بالإجازة.

قال أبو بكر بن أبي علي: سأل والدي أبا القاسم الطبراني عن كثرة حديثه فقال: كنت أنام على البواري ثلاثين[1] سنة.

وقال أبو نعيم: قدِم الطبراني أصبهان سنة تسعين ومائتين، وخرج، ثم قدمها، فأقام بها محدثاً ستين سنة.

---

(١) البواري: جمع بارية، وهي الحصير المنسوج.

وذكر الحافظ سليمان بن إبراهيم الأصبهاني أن أبا أحمد العسّال قاضي أصبهان قال: أنا سمعت من الطبراني عشرين ألف حديث، وسمع منه إبراهيم بن محمد بن حمزة ثلاثين ألفاً، وسمع منه أبو الفتح أربعين ألف حديث كَمَّلَنا.

قلت: وهؤلاء من شيوخ أصبهان في أيام الطبراني.

وقال أبو نُعَيْم: سمعت أحمد بن بُنْدار يقول: دخلت العسكر سنة ثمانٍ وثمانين ومائتين، فحضرت مجلس عبدان، وخرج ليُمْلي فجعل المستملي يقول له: إن رأيتَ أن تملي عليّ فيقول: حتى يحضر الطبراني قال: فأقبل أبو القاسم بعد ساعة مُتَّزِراً بإزار مرتدياً بآخر، ومعه أجزاء، وقد تبعه نحو عشرين نفساً من الغرباء من بلدان شتى حتى يفيدهم الحديث.

وقال أبو بكر بن مردويه في تاريخه: لما قدم الطبراني قِدْمَتَه الثانية سنة عشر وثلاثمائة إلى أصبهان قَبَّلَه أبو علي أحمد بن محمد بن رستم العامل، وضمّه إليه، وأنزله المدينة وأحسن معونته، وجعل له معلوماً من دار الخراج، فكان يقبضه إلى أن مات، وقد كَنَى ولده محمداً أبا ذرّ، وهي كنية والده.

وقال أبو زكريا يحيى بن مَنْدَة الحافظ: سمعت مشايخنا ممن يُعتمد عليهم يقولون: أملى أبو القاسم الطبراني حديث عِكْرمة في الرؤية[1]، فأنكر عليه ابن طباطبا العلوي ورماه بدواة كانت بين يديه، فلما رأى الطبراني ذلك واجهه بكلام اختصرته، وقال في أثناء كلامه: ما تسكتون وتشتغلون بما أنتم فيه حتى لا نذكر ما جرى يوم الحَرَّة، فلما سمع ذلك ابن طباطبا قام واعتذر إليه وندم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٨٥ و٢٩٠ من طريقين، عن: حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي تبارك وتعالى». ورجاله ثقات. وهو في: مجمع الزوائد ١/ ٧٨. وانظر تمام تخريجه وتنقيده مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٥٠-٣٥٤، ٣٨٦، حديث رقم (٢٥٨٠) و(٢٦٣٤) طبعة مؤسسة الرسالة.

[تصحيف حديث]

وقال ابن مَنْدة المذكور: وبلغني أنه كان حسن المشاهدة طيب المحاضرة، عليه قرأ عليه يوماً أبو طاهر ابن لوقا حديث (كان يغسل حصى جماره) فصحّفه وقال: (يغسل خُصي حماره) فقال: وما أراد بذلك يا أبا طاهر؟ فقال: التواضع. وكان أبو طاهر هذا كالمغفّل. قال له الطبراني يوماً: أنت ولدي يا أبا طاهر فقال: وإياك يا أبا القاسم، يعني: وأنت.

[البعد عن المبتدعة]

وقال ابن مَنْدَة: وجدت عن أحمد بن جعفر الفقيه، أخبرنا أبو عمر بن عبدالوهاب السلمي فقال: سمعت الطبراني يقول: لما قدم أبو علي بن رستم من فارس دخلت عليه، فدخل عليه بعض الكُتّاب، فصبّ على رِجْله بخمسمائة درهم، فلما خرج الكاتب قال لي أبو علي: ارفع هذا يا أبا القاسم، فرفعتها، فلما دخلت أم عدنان ابنته صبّت على رِجْله خمسمائة، فقمت، فقال لي: إلى أين؟ فقلت: قمت لئلا يقول: جلستَ لهذا، فقال: ارفع هذه أيضاً، فلما كان آخر أمره، تكلم في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ببعض الشيء، فخرجت ولم أعد إليه بعد.

وقال أحمد بن جعفر الفقيه: سمعت أبا عبدالله بن حمدان، وأبا الحسن المَديني، وغيرهما، يقولون: سمعنا الطبراني يقول: هذا الكتاب روحي، يعني «المعجم الأوسط».

[قيمة العلم وفضله]

وقال أبو الحسين ابن فارس اللغوي: سمعت الأستاذ ابن العميد يقول: ما كنت أظنّ أنّ في الدنيا حلاوة ألذّ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها، حتى شاهدت مذاكرة الطبراني، وأبي بكر الجِعابي بحضرتي، فكان الطبراني يغلبه بكثرة حفظه، وكان الجِعابي يغلب بفطنته وذكائه، حتى ارتفعت أصواتهما، ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي فقال: هات، فقال:

حدثنا أبو خليفة، قال: حدثنا سليمان بن أيوب، وحدّث بحديث، فقال الطبراني: أخبرنا سليمان بن أيوب ومني سمعه أبو خليفة، فاسمع مني حتى يعلو فيه إسنادك، فخجل الجعابي، فوددت أن الوزارة لم تكن، وكنت ابناً[1] للطبراني وفرحت لفرحه أو كما قال.

أُنبئت عن اللبان، عن غانم البرجي، أنه سمع عمر بن محمد بن الهيثم يقول: سمعت أبا جعفر بن أبي السريّ قال: لقيت ابن عُقْدَة بالكوفة، فسألته يوماً أن يعيد لي فَوْتاً[2]، فامتنع، فشددت عليه، فقال: من أي بلد أنت؟ قلت: من أصبهان. فقال: ناصبةٌ ينصبون العداوة لأهل البيت، فقلت: لا تقُلْ هذا فإنه فيهم متفقهة وفُضلاء ومتشيعة. فقال: شيعة معاوية؟ قلت: لا والله، بل شيعة عليّ، وما فيهم أحد إلا وعليٌّ أعز عليه من عينه وأهله، فأعاد عليّ ما فاتني، ثم قال لي: سمعتَ من سليمان بن أحمد اللخمي؟ فقلت: لا أعرفه، فقال: يا سبحان الله!! أبو القاسم ببلدكم وأنت لا تسمع منه، وتؤذيني هذا الأذى، بالكوفة ما أعرف لأبي القاسم نظيراً، قد سمعتُ منه وسمع مني، ثم قال: أسمعت «مسند أبي داود»؟ فقلت: لا، قال: ضيّعت الحزم لأن منبعه من أصبهان وقال: أتعرف إبراهيم بن محمد بن حمزة؟ قلت: نعم، قال: قلَّ ما رأيت مثله في الحفظ.

وقال الحاكم: وجدت أبا عليّ الحافظ سيئ الرأي في أبي القاسم اللَّخْمي، فسألته عن السبب، فقال: اجتمعنا على باب أبي خليفة، فذكرت طرف حديث: «أُمرت أن أسجد على سبعة أعضاء»[3] فقلت له: يحفظ شعبة عن عبدالملك بن

---

(١) كذا في الأصل، وفي رواية: «أنا والطبراني». انظر: آثار البلاد للقزويني (٢١٩).

(٢) أي ما كان فاته من مجلس سماع الحديث.

(٣) أخرجه البخاري ٢/ ٢٤٥ و٢٤٦ في صفة الصلاة، باب السجود على سبعة أعظم، وباب: السجود على الأنف. ومسلم (٤٩٠) في الصلاة، باب أعضاء السجود، من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أُمرتُ أن أسجد على سبعة أعظُم: على الجبهة -وأشار بيده على أنفه-، واليدين، والرجلين، وأطراف القدمين».

ميسرة، عن طاووس، عن ابن عباس قال: بلى، رواه غندر، وابن أبي عديّ، فقلت: من عنهما؟ قال: حدثناه عبدالله بن أحمد، عن أبيه، عنهما، فاتهمته إذ ذاك، فإنه ما حدّث به غير عثمان بن عمر، عن شعبة.

[موازين الضبط وتقويم الرجال]

قال الحافظ ضياء الدين: هذا وهم فيه الطبراني في المذاكرة، أما في جمعه حديث شعبة، فلم يروه إلا من طريق عثمان بن عمر، ولو كان كل من وَهَمَ في حديث واحد اتُّهِم لكان هذا لا يسلم منه أحد.

وقال أبو عبدالله بن مندة الحافظ: الطبراني أحد الحفاظ المذكورين، حدّث عن أحمد بن عبدالرحيم البرقي، ولم يحتمل سنُّهُ لُقِيَّه. توفي أحمد بن عبدالرحيم بمصر سنة ستٍّ وستين ومائتين.

قلت: كذا وَرَّخَهُ ابن يونس في موضع، وقال: في موضع آخر: توفي سنة سبعين في رمضان، وعلى كل تقدير فلم يلقه، والذي ظهر لي أنه سمع من ابن البرقي بلا شك، لكن من عبدالرحيم أخي أحمد المذكور، فاعتقد أنه هو أحمد، وغلط في اسم الرجل، ويؤيد هذا أن الطبراني لم يُخرِّج عن أحمد عن كبار شيوخه مثل عمرو ابن أبي سَلَمَة ونحوه، إنما روى عنه عن مثل عبدالملك بن هشام راوي السيرة.

وأخرى أن الطبراني لم يسمِّ عبدالرحيم ولا ذكره في معجمه، وقد أدركه سفيان لما دخل مصر وسمع منه، لكنه سماه باسم أخيه وهماً منه، ولهما أخٌ حافظ، توفي سنة تسعٍ وأربعين ومائتين من شيوخ النُّبْل، وهذا وَهْم وَحِشٌ من الطبراني قد تكرر في كثير من معجمه قوله: حدثنا أحمد بن عبدالله البرقي، وقد توفي عبدالرحيم ابن البرقي سنة ستٍّ وثمانين.

وسئل أبو العباس أحمد بن منصور الشيرازي الحافظ عن الطبراني فقال: كتبت عنه ثلاثمائة ألف حديث، وهو ثقة، إلا أنه كتب عن شيخ بمصر، وكانا أخوين وغلط في اسمه. يعني: ابني البرقي.

وقال أبو بكر بن مردويه: دخلت بغداد، وتطلّبت حديث إدريس بن جعفر العطّار، عن يزيد بن هارون، ورَوْح بن عبادة، فلم أجد إلاّ أحاديث معدودة وقد روى الطبراني، عن إدريس، عن يزيد كثيراً.

قلت: هذا لا يدل على شيء، فإن الطبراني لما وقع له هذا الشيخ، اغتنمه وأكثر عنه واعتنى به، ولم يعتنِ به أهل بلده.

وقال أحمد الباطرقاني: دخل ابن مردويه بيت الطبراني وأنا معه، وذلك بعد وفاة ابنه أبي ذَرّ لبيع كتب الطبراني، فرأى أجزاء لا أوائل لها، فاغتمّ لذلك وسبّ الطبراني.

قال الباطرقاني: وكان ابن مردويه سيئ الرأي فيه.

قال سليمان بن إبراهيم الحافظ: كان ابن مردويه في قلبه شيء على الطبراني، فتلفظ بكلام، فقال له أبو نُعَيْم: كم كتبت عنه؟ فأشار إلى حُزَم، فقال أبو نُعَيم: ومن رأيتَ مثله؟ فلم يقل شيئاً.

قال الحافظ الضياء: ذكر ابن مردويه في تاريخ أصبهان جماعة وضعّفهم، وذكر الطبراني فلم يضعّفه، ولو كان عنده ضعيفاً لضعّفه.

وقال أبو بكر محمد بن أبي علي المعدّل: الطبراني أشهر من أن ندلّ على فضله وعلمه، كان واسع العلم كثير التصانيف. وقيل ذهبت عيناه في آخر أيامه. فكان يقول: الزنادقة سحروني، فقال له يوماً حسن العطار -تلميذه- يمتحن بصره: كم عدد الجذوع التي في السقف؟ فقال: لا أدري لكن نقش خاتمي (سليمان بن أحمد).

قلت: قال له هذا على سبيل البسْط.

وقال له مرة أخرى: من هذا الآتي؟

قال: أبو ذر، يعني ابنه، وليس بالغِفاري.

قال أبو نُعَيم: توفي لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ستين [وثلاث مئة] وصلّيت عليه.

[الطبراني من المعمرين من العلماء]

قلت: عاش الطبراني مائة سنة وعشرة أشهر، وآخر من روى حديثه عالياً بالإجازة عندنا الزاهد القدوة أبو إسحاق الواسطي، أجاز له أصحاب فاطمة الجوزدانية، التي تفرّدت بالرواية عن ابن زهرة صاحب الطبراني.

[علماء الظاهرية ومن مالَ إلى مذهبهم]

١ - داود بن علي بن خَلَف الظاهري[١]

أبو سليمان البغدادي الأصبهاني، مولى المهدي، الفقيه الظاهري، رأس أهل الظاهر.

وُلد سنة مئتين، وسمع: سليمان بن حرب، والقَعْنَبيّ، وعمرو بن مرزوق، ومحمد بن كثير العبْديّ، ومُسَدّداً، وأبا ثور الفقيه، وإسحاق بن راهويه رحل إليه إلى نيسابور فسمع منه «المسند» و«التفسير»؛ وجالسَ الأئمة، وصنَّف الكتب.

قال أبو بكر الخطيب: كان إماماً ورِعاً ناسكاً زاهداً. وفي كتبه حديث كثير. لكن الرواية عنه عزيزة جداً.

روى عنه: ابنه محمد، وزكريا الساجي، ويوسف بن يعقوب الداودي الفقيه، وعباس بن أحمد المذكّر، وغيرهم.

قال ابن حزم: إنما عُرف بالأصبهاني لأن أمه أصبهانية، وكان أبوه حنفي المذهب، يعني وكان عراقياً.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٩٠.

قال: وكتب داود ثمانية عشر ألف ورقة.

ومن أصحاب داود أبو الحسن عبدالله بن أحمد بن رُوَيْم أحد الأئمة، وأبو بكر بن النجار، وأبو الطيب محمد بن جعفر الديباجي، وأحمد بن مَخْلَد الإيادي، وأبو سعيد الحسن بن عُبَيد الله له تواليف كثيرة وأبو بكر محمد بن أحمد الدجاجي، وأبو نصر رآه بسجستان.

ثم سمى ابن حزم جماعةً كثيرة من الفقهاء من تلامذة داود.

وقال أبو إسحاق الشيرازي: وُلد سنة اثنتين ومائتين، وأخذ العلم عن إسحاق، وأبي ثور. وكان زاهداً متقللاً.

قال أبو العباس ثعلب: كان داود عقله أكثر من علمه.

قال أبو إسحاق وقيل: كان في مجلسه أربعمائة صاحب طَيْلَسان أخضر. وكان من المتعصبين للشافعي، صنَّف كتابين في فضائله والثناء عليه.

قال أبو إسحاق: وانتهت إليه رئاسة العلم ببغداد، وأصله من أصفهان ومولده بالكوفة، ومنشؤه ببغداد وقبره بها.

وقال أبو عمرو أحمد بن المبارك المستملي: رأيتُ داود بن عليّ يردُّ على إسحاق ابن راهويه، وما رأيتُ أحداً قبله ولا بعده يردّ عليه هَيْبَةً له.

وقال عمر بن محمد بن بُجَيْر: سمعت داود بن عليّ يقول: دخلت على إسحاق بن راهويه وهو يحتجم، فجلست رأيت كتب الشافعي، فأخذت أنظر، فصاح: إيش تنظر؟ فقلت: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده. فجعل يضحك ويتبسَّم.

وقال سعيد البرْذَعيّ: كنا عند أبي زُرْعة فاختلف رجلان في أمر داود والمُزَنيّ، والرجلان فَضْلَك الرازي، وابن خِراش، فقال: ابن خِراش: داود كافر.

قال فضلك: المزني جاهل.

فأقبل عليهما أبو زُرْعة يوبِّخهما وقال: ما واحد منكما له بصاحب. ثم قال: ترى داود هذا لو اقتصر عليه أهل العلم لظننت أنه يحمد أهل البِدَع بما عنده من البيان والآلة. ولكنه تعدّى. لقد قدِم علينا من نيسابور، فكتب إليَّ محمد بن رافع، ومحمد بن يحيى، وعمرو بن زُرارة، وحسين بن منصور، ومشيخة نيسابور بما أحدث هناك، فكتمت ذلك لمّا خفت عواقبه، ولم أُبْدِ له شيئاً. فقدِم بغداد، وكان بينه وبين صالح بن أحمد بن حنبل حُسْن، فكلّم صالحاً أن يتلطف له في الاستئذان على أبيه، فأتى وقال: سألني رجل أن يأتيك.

قال: ما اسمه؟

قال: داود.

قال: ابن من؟

قال: هو من أهل أصبهان.

وكان صالح يروغ عن تعريفه، فما زال أبوه يفحص حتى فطِن به فقال: هذا كتب إليّ محمد بن يحيى في أمره أنه زعم أن القرآن مُحْدَث، فلا يقرَبني.

قال: إنه ينفي هذا ويُنْكره.

قال: محمد بن يحيى أصدق منه، لا تأذَنْ له.

قال الخلاّل: أخبرنا الحسين بن عبدالله قال: سألت المَرُّوذي عن قصة داود الأصبهاني ما أنكر عليه أبو عبدالله فقال: كان داود خرج إلى خراسان إلى ابن راهويه، فتكلَّم بكلامٍ شهد عليه أبو نصر بن عبدالمجيد وآخر، شهدا عليه أنه قال: القرآنُ مُحْدَث.

فقال لي أبو عبدالله: مَن داود بن عليّ لا فرّج عنه الله؟

قلت: هذا من غلمان أبي ثور.

قال: جاءني كتاب محمد بن يحيى النيسابوري أن داود الأصبهاني قال ببلدنا: إنّ القرآن مُحْدَث.

قال المروذي: حدثني محمد بن إبراهيم النيسابوري أن إسحاق بن راهويه لما سمع كلام داود في بيته وثب عليه إسحاق فضربه وأنكر عليه.

قال الخلاّل: سمعت أحمد بن محمد بن صدقة: سمعت محمد بن الحسين بن صَبيح، سمعت داود الأصبهاني يقول: القرآن مُحْدَث ولفظي بالقرآن مخلوق.

وأخبرنا سعيد بن أبي مسلم، سمعت محمد بن عَبْدة يقول: دخلت إلى داود فغضب عليّ أحمد بن حنبل، فدخلت عليه فلم يكلمني، فقال له رجل: يا أبا عبدالله إنه رَدّ عليه مسألة.

قال: وما هي؟

قال: قال الخُنْثَى: إذا مات من يغُسّله؟

فقال داود: يغسّله الخَدَم.

فقال محمد بن عَبْدة: الخدم رجال. ولكن يُيَمَّم.

فتبسَّم أحمد وقال: أصاب أصاب. ما أَجْوَدَ ما أجابه!

قلت: كان داود موصوفاً بالدين والتعبُّد مع هذا.

وقال القاضي المحامِلي: رأيت داود بن عليّ يصلي، فما رأيت مسلماً يشبهه في حُسْن تواضعه.

وقد اختلف محمد بن جرير مدة إلى مجلس داود، وأخذ عنه.

وقال أحمد بن كامل القاضي: أخبرني أبو عبدالله الورّاق أنه كان يورّق على داود، فسمعته يُسأل عن القرآن، فقال: أما الذي في اللوح المحفوظ فغير مخلوق، وأما الذي هو بين الناس فمخلوق.

قلت: للعلماء قولان في داود هل يُعتدُّ بخلافه أم لا؟

فقال أبو إسحاق الإسفراييني: قال الجمهور إنهم، يعني نُفاة القياس، لا يبلغون رتبة الاجتهاد، ولا يجوز تقليدهم القضاء.

ونقل الأستاذ أبو منصور البغدادي، عن أبي عليّ بن أبي هريرة، وطائفة من الشافعيين أنه لا اعتبار بخلاف داود، وسائر نفاة القياس في الفروع دون الأصول.

وقال أبو المَعالي الجُوَيْني: الذي ذهب إليه أهل التحقيق أن مُنْكري القياس لا يُعدُّون من علماء الأئمة ولا مِن حملة الشريعة، لأنهم معاندون مباهتون فيما ثبت استفاضةً وتواتراً، لأن معظم الشريعة صادرة عن الاجتهاد، ولا تفي النصوص بعُشْر معشارها، وهؤلاء يلتحقون بالعوام.

[فقه الذهبي]

قلت: قول أبي المعالي رحمه الله فيه بعض ما فيه، فإنما قاله باجتهاد، ونفْيِهم للقياس أيضاً باجتهاد، فكيف يُرَدّ الاجتهاد بمثله؟ نعم، وأيضاً فإذا لم يُعْتَدّ بخلافهم لزِمنا أن نقول إنهم قد خرقوا الإجماع، ومن خالف الإجماع يُكَفَّر ويُقْتَل حَدّاً لعناده. فإن قلتم خالفوا الإجماع بتأويلٍ سائغ، قلنا: فهذا هو المجتهد، فلا نقول يجوز تقليده، إنما يُحكى قوله، مع أن مذهب القوم أن لا يحل لأحدٍ أن يقلّدهم ولا أن يقلّد غيرهم، فلأن نحكي خلافهم ونعدُّه قولاً أهون وأسلم من تكفيرهم.

ونحن نحكي قول ابن عباس في الصَّرْف، والمتعة، وقول الكوفيين في النبيذ، وقول جماعة من الصحابة في ترك الغُسْل من الجِماع بلا إنزال، ومع هذا فلا يجوز تقليدهم في ذلك.

فهؤلاء الظاهرية كذلك، يُعتدّ بخلافهم، فإنْ لم نفعل صار ما تفرّدوا به خارقاً للإجماع، ومن خرق الإجماع المتيقَّن فقد مَرَقَ من المِلَّة. لكن الإجماع المتيقَّن هو ما

عُلِم بالضرورة من الدين: كوجوب رمضان، والحج، وتحريم الزنا، والسرقة، والربا، واللواط.

والظاهرية لهم مسائل شنيعة، لكنها لا تبلغ ذلك، والله أعلم.

وقال الإمام أبو عمرو بن الصلاح: الذي اختاره أبو منصور وذكر أنه الصحيح من المذهب إنه يعتبر خلاف داود.

قال ابن الصلاح: هذا هو الذي استقر عليه الأمر آخراً هو الأغلب الأعرف من صَفْو الأئمة المتأخرين الذين أوردوا مذهب داود في مصنفاتهم المشهورة، كالشيخ أبي حامد، والماوردي، وأبي الطيب، فلولا اعتدادهم به لما ذكروا مذهبه في مصنفاتهم.

قال: ورأى أن يُعتبر قوله إلا فيما خالف فيه القياس الجليّ، وما أجمع عليه القَيَّاسُون من أنواعه، أو بناه على أصوله التي قام الدليل القاطع على بُطلانها، واتفاق من سواه إجماع منعقد، كقوله في التغوُّط في الماء الراكد، وتلك المسائل الشنيعة، وقوله: لا ربا في الستَّة المنصوص عليها، فخلافه في هذا ونحو غير مُعْتَدٍّ به، لأنه مبني على ما يُقطَع ببطلانه، والله أعلم.

توفي في رمضان سنة سبعين ومائتين.

٢- منذر بن سعيد بن عبدالله[١]

ابن عبدالرحمن، أبو الحاكم البَلُّوطي[٢] الكُزْني. وكُزْنة فخذ من البربر، قاضي القضاة بقرطبة.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٢٦/ ١٣٣.

(٢) البلّوطي: بتشديداللام، نسبةً إلى موضع قريب من قرطبة يقال له فحص البلّوط.

سمع من: عبيد الله بن يحيى الليثي، وحجّ سنة ثمانٍ وثلاثمائة، فأخذ عن أبي المنذر كتاب «الأشراف» وأخذ العربية [من][1] ابن النحاس.

كان يميل إلى رأي داود الظاهري ويحتجّ له، ووُلِّي القضاء في الثغور الشرقية. ثم وُلِّي قضاء الجماعة سنة تسعٍ وثلاثين [وثلاث مئة]، وطالت أيامه وحُمدت سيرته، كان بصيراً بالجَدَل والنظر والكلام، فطيناً بليغاً متفوهاً[2] شاعراً وله مصنفات في القرآن والفقه، أخذ الناس عنه.

توفي في ذي القعدة سنة ٣٥٥، وله اثنتان وثمانون سنة، وقد ولي الصلاة بالمدينة الزهراء، وكان قوّالاً بالحق لا يخاف لومة لائم، وكان كثير الإنكار على الناصر لدين الله عبدالرحمن، بليغ الوعظة كبير الشأن.

[القدرة على مواجهة المواقف]

قيل إنّ أول معرفته بالناصر أن الناصر احتفل لدخول [رسول] ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذي اشتهر، فأحبّ أن يقوم الشعراء والخطباء بين يديه؛ فقدَّموا لذلك أبا علي القالي[3] وضَيْف الدولة، فقام وحَمَد الله تعالى وأثنى عليه، ثم أُرْتِجْ عليه وبهِت وسكت، فلما رأى ذلك منذر القاضي قام دونه بدرجة، ووصل افتتاح القالي بكلام عجيب بهر العقول جزالةً وملأ الأسماع جلالة.

٣- يوسف بن عمر بن محمد[4]

ابن يوسف بن يعقوب أبو نصر القاضي ابن قاضي بغداد.

---

(١) إضافة على الأصل من تاريخ علماء الأندلس.

(٢) في الأصل «مقفوغا».

(٣) هو: أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان القالي اللغوي، صاحب كتاب الأمالي.

(٤) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٥٣.

وُلِّي القضاء في حياة أبيه ببغداد، واستقلّ به بعد أبيه، وكان عفيفاً جميلاً متوسطاً في الفقه، حاذقاً بالقضايا، بارعاً في الأدب، واسع العلم باللغة الشعر، تامَّ الهيبة، ولا نعلم ممن تقلد القضاء أعرف في القضاء منه ومن أخيه الحسين. وكان يعقوب جدُّهم قاضي المدينة أيام الراضي بالله.

[كان مالكياً ثم أصبح ظاهرياً]

وذكر ابن حَزْم أن أبا نصر كان مالكياً ثم رجع عن ذلك إلى مذهب داود بن علي الظاهري. له في ذلك تواليف كثيرة واحتجاجات. وكان فصيحاً بلغياً شاعراً ولي القضاء وله عشرون سنة فكُتِب العهدُ بالقضاء على الديار المصرية بيده إلى قاضي مصر والشام من قِبَله الحسين بن أبي زُرْعَة الدمشقي، فولي القضاء أربع سنين، ثم صرفه الراضي بالله سنة تسع بأخيه الحسين، وأقرّه على قضاء الجانب الشرقي، ثم مات الراضي في العام، ثم عُزل عن القضاء من الجانب الشرقي. ومن شعره:

يـــا محنـــة الله[1] كُفّـــي... إنْ لم تكُفّـــــي فخُفِّـــــي

مـــــا آن أنْ ترحمينـــــا... مـــن طـــولِ هـــذا التَّشَـــفّي

ذهبـــــتُ أطلـــــبُ بَخْتــــي وَجَدْتُـــــهُ قـــــد تُـــــوُفّي[2]

---

(١) شُطب لفظ الجلالة في الأصل وكتب تحته «الدهر.»

(٢) وفي تاريخ بغداد:

«ذهبـــــت أطلـــــب بختـــــي فقيـــــل لي قـــــد تـــــوفي»

وفيه بقية هي:

ثـــــور ينـــــال الثُّريّـــــا وعـــــالم متخفـــــي

الحمـــــد لله شـــــكراً عـــــلى نقـــــاوة حـــــرفي

ومن قوله الذي في رسالته التي يذكر فيها رجوعه عن مذهب مالك إلى مذهب داود: «لسنا نجعل من تصديره في كتبه ورسائله، بقَوْل سعيد بن المسيب والزُّهْري وربيعة، كمن تصديره في كتبه ومسائله بقول الله ورسوله وإجماع الأئمة، هيهات هيهات».

٤ - أحمد بن بندار بن إسحاق[١]

أبو عبدالله الأصبهاني الشعّار الفقيه.

سمع: إبراهيم بن سَعْدان، وعبيد بن الحسن الغزّال، ومحمد بن زكريا، وأبا بكر بن أبي عاصم، وأكابر أهل أصبهان، مثل عُمَير بن مرداس وغيرهم.

وعنه: ابن مردويه، وعلي بن جعفر العبدكوي، وأبو بكر بن أبي علي، والحافظ أبو نُعَيم، وجماعة آخرهم موتاً أبو سعيد عبدالرحمن بن أحمد بن عمر الصفّار. وكان شيخ أصبهان ومسنده.

[من علماء الظاهرية]

قال أبو نُعَيم: درس المذهب على أبي بكر بن أبي عصام، وسمع كتبه، **وكان ثقة ظاهري المذهب**.

قلت: وكان أبو بكر شيخه ظاهريّ المذهب مجتهداً من طبقة داود بن علي، وتأخّر عنه قليلاً.

أنبأنا أحمد بن سلامة، عن مسعود بن أبي منصور الجمّال، وقرأت على أحمد بن محمد الكردي، أخبركم يوسف بن خليل، أخبرنا مسعود، أخبرنا أبو علي بن الحداد، أخبرنا أبو نُعَيْم، حدثنا أحمد بن بُنْدار، حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا سليمان

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٨٧.

ابن كرّاز، حدثنا عمر بن صُهْبان الأسلمي، عن ابن المنكَدِر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا الخير عند حِسان الوجوه»[1].

توفي في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وثلاث مئة عن بضعٍ وتسعين سنة.

[من المعمرين من العلماء]

زكريا بن دويد بن محمد بن الأشعث[2]:

أبو أحمد الكِنْديّ.

زعم أنه أتت عليه مائة وثلاثون سنة، وزعم أنه سمع من سفيان الثوري، ومالك بن أنس.

قال عليّ بن محمد بن حاتم القُومِسي: سمعت منه بعسقلان سنة نيِّفٍ وستين ومائتين.

قلت: وجودُ روايته والعَدَم بالسواء. قد روى الطبراني في معجمه عن أحمد ابن إسحاق الدّميريّ، عنه.

قال ابن حِبّان: كان يضع الحديث.

---

(١) لهذا الأثر طُرق عن: أنس وجابر وعائشة وابن عباس وابن عمرو وأبي بكرة وأبي هريرة. قال السخاوي: كلها ضعيفة وبعضها أشدّ في ذلك من بعض. وقال ابن عساكر: وكنت قد سئلت عنه فتكلمت عليه وعلى معناه في رسالتي (تهذيب ابن عساكر ٥/ ١٨٤). وفي لفظ: «التمسوا». انظر كتابنا: من حديث خيثمة بن سليمان الأطرابلسي ٣٣، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٠.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ٢٠/ ٩٩.

[تربية العلماء أبناءهم وغيرهم]

١ - صالح بن أحمد بن محمد بن حنبل[1].

القاضي أبو الفضل، ولد الإمام أبي عبدالله الشيباني البغدادي. قاضي أصبهان.

وُلد سنة ثلاثٍ ومائتين.

وسمع: عفان، وأبا الوليد الطيالسي، وإبرهيم بن الفضل، وإبراهيم بن أبي سُوَيد الذراع، أباه، وعليّ ابن المَدينيّ، وطبقتهم.

وعنه: ابنه زُهير، وأبو القاسم البَغَويّ، وابن صاعد، ومحمد بن مَخْلَد، وأبو عليّ الحصائري، وأبو بكر بن أبي عاصم وهو من أقرانه، ومحمد بن جعفر الخرائطيّ، وعبدالرحمن بن أبي حاتم، وجماعة آخرهم موتاً أحمد بن محمد بي يحيى القصّار شيخ أبي نُعَيْم الحافظ.

قال ابن أبي حاتم: كتبت عنه بأصبهان، وهو صدوق، ثقة.

وقال أبو بكر الخلاّل في كتاب «أدب القُضاة»: أخبرني محمد بن العباس: حدثني محمد بن عليّ قال: لما صار صالح إلى أصبهان قُرئ عهده بالجامع، فبكى كثيراً، وبكى بعض الشيوخ. فلما فرغ جعلوا يدعون له ويقولون: ما ببلدنا إلا من يحبّ أبا عبدالله.

فقال: أبكاني أني ذكرت أبي يراني في هذه الحالة. وكان عليه السَّواد. ثم قال: كان أبي يبعث خلفي إن جاءه رجلٌ زاهد ورجل متقشّف لا ينظر إليه يحبّ أن يكون مثله، ولكن الله يعلم ما دخلت في هذا الأمر إلا لدَيْنٍ غَلَبني وكثرة عيال.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/١٠٧.

قال الخلاّل: وكان صالح سخياً جداً.

وقال ابن المنادي: توفي بأصبهان في رمضان سنة ستٍّ وستين ومئتين.

وقال أبو نُعَيْم: سنة خمسٍ.

[٢- طالب علم يبيت عند أحمد فيضع له وضوءاً ليقوم من الليل]

عاصم بن عصام(١)

أبو عِصْمة القُشَيْرِيّ البيهقي.

قيل كان مُجاب الدعوة.

توفي سنة إحدى وستين ومئتين.

قال الحاكم: سمعتُ أحمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن سفيان يقول: سمعتُ عاصم بن عصام يقول: بتُّ ليلةً عند أحمد بن حنبل، فجاء بالماء فوضعه. فلما أصبح نظر إليّ فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله، رجل يطلب العلم لا يكون له وِرْدٌ بالليل!

[٣- احترام أهل العلم، قيام أحمد للزهري]

أحمد بن سعيد بن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف(٢):

أبو إبراهيم الزُّهْري.

قال الخطيب: وكان مذكوراً بالعلم والفضل، موصوفاً بالصلاح والزُّهْد، من أهل بيت كلّهم علماء ومحدِّثون

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١١٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٥٣.

وقال عبدالله بن عبدالرحمن الزُّهْريّ: حدثني أبي قال: مضى عمّي أبو إبراهيم الزُّهْري إلى أحمد بن حنبل فسلَّم عليه، فلمّا رآه وثَبَ وقامَ إليه وأكرمه، فلما أن مضى قال له ابنه: يا أبَه، شابّ تعمل به هذا وتقوم إليه؟ قال: يا بُنَيّ لا تُعارضني في مثل هذا، ألا أقوم إلى ابن عبدالرحمن بن عوف؟

وقال ابن النادي: توفي في خامس المحرم سنة ثلاثٍ وسبعين ومئتين، وقد بلغ خمساً وسبعين سنة.

وقال ابن صاعد: كان ثقة.

[امتحان العلماء ونزول البلاء بهم]

١ - العباس بن موسى بن مسكويه(١)

أبو الفضل الهمْدانيّ، أحد الأئمة الحفّاظ.

وروى عنه: ابن شيرَوَيْه في تاريخ همدان فقال: كان جليل القدْر سُنّياً، له تصانيف غزيرة سيما كتاب الإمامة، فإنه ما سُبِقَ إليه.

وكان امتُحِنَ أيام الواثق، ودخل بغداد وتوارى بها، ونزل على أبي بكر الأعْيَن، فأُخِذَ من داره، وجرى عليه أمرٌ عظيم. ثم بعد ذلك رُفِع إلى أذربيجان وحدَّث بها. وكان صدوقاً.

ثم ساق شيرَوَيْه ترجمته في ورقتين، وكيف امتُحِنَ، وهي عجيبة إن صحّت.

٢ - علي بن الحسن بن أبي عيسى بن موسى بن ميسرة(٢)

أبو الحسن الهلالي الدارابْجِرْدِيّ.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١١٦.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٣٦.

وقال الحاكم: سمعتُ محمد بن يعقوب بن الأخرم غير مرة يقول: استشهد عليّ بن الحسن برسْتاق أرْغِيان[1] في ضيعته.

قال: وكان السبب أنه زَبر العامل بها، فلما جَنّ عليه الليلُ أمر به، فأدْخِل مَتْبَنَة، وأوقد النار في تِبْنٍ، فمات في الدخان. ثم وُجد متياً وقد أكل النملُ عينيه[2].

قال الحاكم: هو من أكابر علماء المسلمين، وابن عالمهم طلب الحديث بالحجاز، واليمن، والعراق، وخراسان.

وقيل: إنه مات سنة سبعٍ وستين ومئتين في رمضان.

٣- يحيى بن محمد حَيْكان وما جرى عليه من فتن

يحيى بن محمد بن يحيى بن عبدالله بن خالد بن فارس[3].

الشهيد أبو زكريا الذُّهْليّ النيسابوري. شيخ نيسابور بعد والده ومفتيها، ورأس المطّوّعة.

من القراء.

وكان لقبه: حَيْكان.

[وصف غير قتيل المعركة بالشهيد]

قال الحاكم: حَيْكان الشهيد إمام نيسابور في الفتوى الرئاسة، وابن أميرها، ورأس المطَّوِّعة بخراسان. كان يسكن بدار أبيه ولكلٍّ منهما فيه صوْمعة وآثار لعبادتهما.

---

(١) أرْغِيان: بالفتح، ثم السكون، وكسر الغين المعجمة، وياء وألفِ ونون، كورة من نواحي نيسابور، قيل: إنها تشتمل على إحدى وسبعين قرية (معجم البلدان ١/ ١٥٣).

(٢) وقيل: أكله الذئب في قرية برستاق أرغيان، فلم يوجد سوى رأسه ورجليه. (المنتظم ٥/ ٦٠) وقيل: وُجد ميتاً بعد أسبوع من وفاته في مسجده.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٩٨.

وكان أحمد بن عبدالله الخُجُسْتانيّ قد ورد نيسابور ويحيى رئيس بها والقراء يَصْدُرون عن رأيه.

وكانت الطاهرية قد رفعت من شأنه وصيَّرته مُطاعاً، ولم يُحسِن أحمد الصُّحبةَ معه، وقصد الوضْع منه. ومع هذا فكان أحمد مجتهداً في التمكُّن من الإمارة والاستبداد والأمور دون عِلْم يحيى، فكان لا يقدر، فلما قدِم شيرَوَيْه تمكَّن. فلما خرج عن البلد تشوّش الناس. وعرض يحيى بضعة عشر ألفاً، وحاربوا قُوّاد الخُجُسْتانيّ وطردوهم. وقتلوا أم أحمد. فلما رجع طلب يحيى وقتله.

سمعت أبا عبدالله بن خُزَيْمَة يقول: ما رأيت مثل حَيْكان لا رحِمَ الله قاتله.

وسمعت محمد بن يعقوب يقول: خرج أحمد بن عبدالله الخجستاني هارباً من نسيابور، فلم خشي أهلُها رجوعَه اجتمعوا على باب حَيْكان يسألونه القيام لمنع الخجستاني، فامتنع. فما زالوا به حتى أجابهم. فعرضوا عليه زُهاء عشرة آلاف. ولما رجع الخجستاني تفرقوا عن حَيْكان، فطُلِبَ، فخاف وهرب، فبينا هو يسير في قافلةٍ بين الحمّالين وهو بزيِّهم إذ عُرف. فأُخِذ وأتوْا به إلى الخجستاني، فحبسه أياماً، ثم غُيِّب شخصهُ. فقيل: إنه بنى عليه جداراً، وقيل: قتله سرّاً.

سمعت أبا عليّ أحمد بن محمد بن زيد خَتَن حَيْكان على ابنته يقول: دخلنا على أبي زكريا بعد أن رُدّ من الطريق فقال: اشترك في دمي خمسة: العباسان، وابن ياسين، وشيرويه، وأحمد بن نصر اللّبّاد.

سمعت أبا بكر الضُّبَعيّ يقول: سمعت نوح بن أحمد: سمعت الخُجُسْتانيّ يقول: دخلت على حَيْكان في مَحْبَسه على أن أضربه خشبتين وأُطلقه، فلما قَرُبْتُ منه قبض على لحيته، فعضّ على خصيتي حتى لم أشك أنه قاتلي، فذكرت سكيناً في خُفّي، فجررتها وشققتُ بطنه.

سمعت محمد بن صالح بن هانئ يقول: حضرنا الإملاء عند يحيى بن محمد في رمضان، وقُتل في شوال سنة سبعٍ وستين ومئتين، فَرُفِضت مجالسُ الحديث،

وخُبِّئت المحابر، حتى لم يقدر أحد يمشي بمحبرة ولا كراريس إلى سنة سبعين، فاحتال أبو سعيد بن إسماعيل في ورود السَّرِيّ بن خُزَيْمَة وعقد له مجلس الإملاء، وعَلَّى المحبرةَ بيده، واجتمع عنده خلقٌ عظيم حتى حضر ذلك المجلس.

قال محمد بن عبدالوهاب الفراء: حتى لا نستطيع أن نسايره نحن ولا أعقابنا أن رجلاً جعل نحره لنا ونحن مطمئنون نعبد الله.

قال صالح بن محمد الحافظ في كتابه إلى أبي حاتم الرازي: كتبت تسألني عن أحوال أهل العلم بنيسابور وما بقي لهم من الإسناد فاعلم أن أخبار الدين وعِلْم الحديث دون سائر العلوم اليوم مطروح مجفوّ حاله وأهل العناية به في شغل بالفِتَن التي دَهَمَتْهم وتوارت عليهم عند مقتل أبي زكريا يحيى بن محمد بن يحيى، وقد مضى لسبيله، ولم يخلف أحداً مثله. ولزِم كل خاصة نفسه. ومرقت طائفة ممن كانوا يُظْهرون السُّنة فصارت تدين بدين ملوكها.

وقال أبو عمر أحمد بن المبارك المستملي: رأيت يحيى فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: غُفِر لي.

فقلت: ما فعل الله بالخُجُسْتانيّ؟ قال: في تابوت من نار والمفتاح بيدي. قلت: بقي الخجستاني بعده سنة واحدة، وقتله غلمانه كما تقدَّم.

[٤- قصة بقيّ بن مخلد ونشره مصنف ابن أبي شيبة]

ويستفاد من قصة بقيّ بن مخلد كيف يندفع الظلم عن المظلومين وكيف حقق الخليفة فيما افترى على بقيّ بن مخلد خصومه، وأن الحسد موجود حتى عند العلماء.

قال محمد بن حزْم: وكان محمد بن عبدالرحمن الأموي صاحب الأندلس مُحِبّاً للعلوم، عارفاً، فلما دخل بَقِيّ بن مخلد الأندلس بمصنف ابن أبي شيبة، وأنكر عليه جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستبشعوه، ونشَّطوا العامة عليه، ومنعوه من قراءته. فاستحضره الأمير محمد المذكور، وأتاهم، وتصفّح الكتاب كلّه جزءاً

جزءاً، حتى أتى على آخره، ثم قال لخازن الكتب: هذا كتابٌ لا تستغني خزانتُنا عنه، فانظر في نسخه لنا.

وقال لِبَقِيّ: انشُر عِلْمك، وارو ما عندك. ونهاهم أن يتعرَّضوا له[1].

[٥- ابن حبان وإنكاره الحدّ لله]

محمد بن حبان بن أحمد[2] بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، أبو حاتم التميمي البُسْتي[3] الحافظ العلاّمة، صاحب التصانيف.

[عالم بعلوم الدين والدنيا]

قال أبو سعيد الإدريسي: كان على قضاة سمرقند زماناً، وكان من فقهاء الدين وحُفّاظ الآثار، عالِماً بالطب والنجوم وفنون العلم. ألَّف «المسند الصحيح» و«التاريخ» و«الضعفاء» وفقّه الناس بسمرقند.

وقال الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ، ومن عقلاء الرجال. قدم نيسابور فسمع من عبدالله بن شيرَوَيْه، ورحل إلى بخارى فلقي عمر بن محمد بن بجير، ثم ورد نيسابور سنة أربعٍ وثلاثين وثلاث مئة، ثم خرج إلى قضاء نَسَا، ثم انصرف سنة سبعٍ وثلاثين وثلاث مئة فأقام بنيسابور وبنى الخانكاه[4]، وقُرئ عليه جملة من مصنفاته، ثم خرج من نيسابور سنة أربعين وثلاث مئة إلى وطنه. وكانت الرحلة إليه لسماع مصنفاته، وقال: كان ثقة نبيلاً فَهْماً.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣١٥. وقد سلفت القصة في ترجمة بقي بن مخلد ص٤٢.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١١٢.
انظر: صحيح ابن حبان ١/ ٢٣-٢٤، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٧-٩٨.

(٣) البُسْتي: نسبةً إلى بُسْت، بالضم. مدينة بين سجستان وغزنين وهراة. (معجم البلدان ١/ ٤١٤).

(٤) الخانكاه: أو: الخانقاه: جمعه خوانق، وخانقاوات، وهو بيت ينقطع فيه الصوفية للعبادة والذكر. وهي كلمة فارسية الأصل بمعنى بيت، دخلت اللغة العربية منذ انتشار التصوف.

وقد ذكره ابن الصلاح في طبقات الشافعية وقال: غلط الغَلَط الفاحش في تصرُّفِهِ.

وقال ابن حبان -في كتاب «الأنواع والتقاسيم»-: ولعلنا قد كتبنا عن أكثر من ألفي شيخ.

[إنكار الحد لله]

وقال شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري: سألت يحيى بن عمّار عن أبي حاتم بن حبان: هل رأيته؟ قال: وكيف لم أره ونحن أخرجناه من سِجِسْتان، كان له عِلْم كبير ولم يكن له كثير دين، قدم علينا فأنكر الحَدَّ[1] لله، فأخرجناه.

قلت: إنكار الحَدِّ[2] وإثباته، مما لم يأتِ به نص، والكلام منكم فضول، ومن حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، والإيمان بأن الله تعالى ليس كمثله شيء من قواعد العقائد، وكذلك الإيمان بأن الله بائن من خلقه، متميزة ذاته المقدسة من ذوات مخلوقاته.

وقال أبو إسماعيل الأنصاري: سمعت عبدالصمد محمد بن محمد سمعت أبي يقول: أنكروا على ابن حبان قوله، النبوة: العلم والعمل، فحكموا عليه بالزندقة وهُجر، وكُتب فيه إلى الخليفة فكتب بقتله. وسمعت غيره يقول: لذلك أُخرج إلى سمرقند[3].

وقال الحاكم: سمعت أحمد بن محمد الطيبي يقول: توفي أبو حاتم ليلة الجمعة لثمانٍ بقين من شوال سنة أربعٍ وخمسين وثلاث مئة بمدينة بُسْت.

---

(١) في الأصل: الحمد، وهو خطأ، انظر: «صحيح ابن حبان» ١/ ٢٣، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٧.

(٢) في الأصل: الحمد، وهو خطأ، انظر: «صحيح ابن حبان» ١/ ٢٣، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٧.

(٣) انظر قصة محنته في «صحيح ابن حبان» ١/ ٢١-٢٥، تحقيق: الشيخ شعيب الأرنؤوط. سير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٦-٩٨.

[من فقه الذهبي]

قلت: قوله النبوة: العلم والعمل، كقوله ﷺ: الحجّ عرفة، وفي ذلك أحاديث. ومعلوم أن الرجل لو وقف بعرفة فقط ما صار بذلك حاجّاً، وإنما ذكر أشهر أركان الحج، وكذلك قول ابن حبان فذكر أكمل نُعوت النبي ولا يكون العبد نبياً إلا أن يكون عالِماً عاملاً، ولو كان عالِماً فقط لما عُدَّ نبياً أبداً، فلا حيلة لبشر في اكتساب النبوة.

[٦- القلانسي]

إبراهيم بن عبدالله أبو إسحاق الزبيدي الإفريقي المعروف بالقلانسي(١).

كان فاضلاً صالحاً عابداً عارفاً بمذهب مالك، صنّف تصنيفاً في الإمامة والردّ على الرافضة، فامتُحن على يد أبي القاسم الرافضي العُبَيْدي الملقب بالقائم، ضربه سبعمائة سوط وحبسه أربعة عشر شهراً بسبب هذا التصنيف.

توفي سنة سبعٍ وخمسين وثلاث مئة.

[٧- ابن النابلسي الشهيد يسلخ ويصلب]

محمد بن أحمد بن سهل(٢) بن نصر، أبو بكر الرَّمْلي الشهيد المعروف بابن النابلسي.

قال أبو ذر الهروي: سجنه بنو عُبَيْد وصلبوه على السنّة. سمعت الدارقطني يذكره ويبكي ويقول: كان يقول وهو يُسْلَخ: كان ذلك في الكتاب مسطوراً.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٥٨.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣١٠.

وقال أبو الفرج بن الجوزي: أقام جوهر لأبي تميم صاحب مصر الزاهد أبا بكر النابلسي، وكان ينزل الأكواخ من الشام، فقال: بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم وَجَبَ أن يرمي في الروم سهماً وفينا تسعة، فقال: ما قلت هكذا، فظنَّ أنه يرجع عن قوله، فقال كيف قلت؟ قال: قلت: إذا كان معه عشرة وجب أن يرميكم بتسعة ويرمي العاشر فيكم أيضاً، فإنكم قد غيَّرتم المِلَّة، وقتلتم الصالحين، وادَّعيْتم أمور الإلهية، فشهَّره ثم ضربه، ثم أمر يهودياً بسَلْخه.

وقال هبة الله الأكفاني: سنة ثلاث وستين وثلاث مئة توفي العبد الصالح الزاهد أبو بكر بن النابلسي. أمر أبو تميم بسلْخه فسلخ، وحُشي جلده تبناً وصلب.

وقال معمر بن أحمد بن زياد الصوفي: إنما حياة السنَّة بعلماء أهلها القائمين بنصرة الدِّين، الذين لا يخافون غير الله.

[العلماء لطائفهم ونوادرهم]

١ - العباس بن الوليد بن مَزْيَد(١)

أبو الفضل العُذْريّ البيروتي.

سمع: أباه، ومحمد بن شُعيب بن شابور، وعُقْبة بن عَلْقمة، ومحمد بن يوسف الفِرْيابيّ، وأبا مُسْهِر، وجماعة.

وعنه أبو داود، والنسائي، وأبو زُرْعة الرازي والدمشقي، وابن جَوْصا، وأبو بكر بن أبي داود وعبدالرحمن بن أبي حاتم، وخَيْثَمَة بن سليمان، وأبو العباس الأصمّ، وخلْق.

وُلد سنة تسعٍ وستين ومائة في رجب، وعاش مائة سنة وسنة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١١٧.

وفيه هِمّة وجَلادة فإن خيثمة قال: مازح العباس بن الوليد جاريةً له، فدفعته فانكسرت رِجْلُه، فلم يحدثنا عشرين يوماً، وكنا نلقَى الجارية ونقول: حسبُكِ الله كما كسرتِ رِجْلَ الشيخ وحَبَسْتِنا عن الحديث.

وقال أبو داود: سمع من أبيه ثم عرض عليه، وكان صاحب ليل.

وقال إسحاق بن سيّار: ما رأيت أحداً أحسن سمتاً منه.

وقال النسائي: ليس به بأس.

قلت: كان مقرئاً مجوّداً[1].

وقال الحسين بن أبي كامل: سمعت خيثمة يقول: أتيتُ أبا داود السجستاني، فأملى عليّ حديثاً عن العباس بن الوليد بن مزيد.

قلت: وإياي حَدَّث العباس.

فقال لي: رأيته؟

قلت: نعم.

فقال: متى مات؟

قلت: سنة إحدى وسبعين ومئتين.

كذا قال خيثمة.

وأما عمرو بن دُحَيْم فقال: مات في ربيع الآخر سنة سبعين ومئتين، وضبط في أي يومٍ وُلد وأي يومٍ مات، فتحدد أن عمره مائة سنة وثمانية أشهر واثنين وعشرين يوماً.

وهو أحد الجماعة الذين جاوزوا المائة بيقين.

---

(١) ومع ذلك لم يُفرد له ترجمة في: معرفة القراء الكبار، مع أن المؤرخ والمفسر الطبري نزل بيروت وأخذ عليه القراءات العشر، وروى عنه في عدة مواضع من تاريخه، وفي المنتخب من ذيل المذيل. ولكن ترجم له ابن الجزري في «غاية النهاية» ١/ ٣٥٥، رقم (١٥٢١).

[٢- طرفة: يسأله متى قدمت؟ قال: غداً]

وقال ابن عَبْدُوس الطريفي: لما أردت الخروج إلى عثمان بن سعيد الدارمي، كتب لي ابن خُزَيْمة إليه، فدخلت هَراةَ في ربيع الأول سنة ثمانين [ومئتين]. فقرأ الكتاب ورحَّب بي، وسألني عن ابن خُزَيْمَة، ثم قال: يا فتى متى قدِمْت؟

قلت: غداً.

قال: يا بني، فارجِع اليومَ فإنك لم تَقْدَم بعد[(١)].

قلت: كأنه ما كان عرف اللسان العربي جيداً، فقال: غداً، وظنها أمس.

[٣- أكذوبة والرد عليها[(٢)]]

ذكر هلال بن المحسن الصابي أن أبا القاسم الجُهَني مُحتسِب البصرة كان من ندماء المهلبي، وكان يورد الطامات، من الحكايات المُنْكَرَة، فجرى مرة حديث النَّعْنَع فقال: في البلد الفُلاني نعنع يطول حتى يصير شجراً، ويُعمل من شجره سلالم، فثار منه أبو الفرج الأصبهاني وقال: نعم عجائب الدنيا كثيرة ولا يُنكَر هذا، والقدرة صالحة، أنا عندي ما هو أغرب من هذا، زَوْج حمام يبيض بيضتين، فآخذهما وأضع تحتهما سنجة مائة وسنجة خمسين، فإذا فرغ زمان الحضان انفقست السنجتان عن طشْت وإبريق، فضحك أهل المجلس وفطن الجُهَنيّ لما قصد أبو الفرج من الطنز[(٣)] به، وانقبض عن كثير من حكاياته.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٢٠/ ٣٩٧.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ٢٦/ ١٤٥.

(٣) الطَّنْز: السخرية، طَنَز يَطْنُز فهو طنَّاز، أي: سخر واستهزأ.

[٤- تصحيف حديث]

قال أبو زكريا يحيى بن مَنْدَة الحافظ: بلغني أنه -يعني أبا القاسم سليمان بن أيوب الطبراني الحافظ المشهر- كان حسن المشاهدة طيب المحاضرة، عليه قرأ عليه يوماً أبو طاهر ابن لوقا حديث «كان يغسل حصى جماره» فصحّفه، وقال: «يغسل خُصي حماره» فقال الطبراني: وما أراد بذلك يا أبا طاهر؟ فقال: التواضع. وكان أبو طاهر هذا كالمغفل، قال له الطبراني يوماً: أنت ولدي يا أبا طاهر، فقال: وإياك يا أبا القاسم، يعني: وأنت[١].

[٥- ما اغتسل من حلال ولا من حرام]

إبراهيم بن أحمد بن محمد[٢] بن رجاء، أبو إسحاق النيسابوري الأبزاري الورّاق. وأبزار من قرى نيسابور.

سمعت أبا عليّ الحافظ يقول له: أنت يا أبا إسحاق «بَهْز بن أسد»[٣]، يعني لثَبْته وإتقانه. وسمعت أبا علي يمازحه غير مرة بقول: هذا الشيخ ما اغتسل من حلالٍ قط. فيقول: ولا من حرام يا أبا عليّ، وذلك أنه ما تأهّل.

توفي في رجب سنة ٣٦٤هـ وله ستٌّ وتسعون سنة. وحدّث بمرْوِيَّاته على القبول.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٠٥. وقد سلفت القصة ص٦٥.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٢١.

(٣) بهز بن أسد العمي أبو الأسود البصري. قال الإمام أحمد بن حنبل: إليه المنتهى في التثبت. ووثقه ابن معين، وأبو حاتم، وقال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث حجة، وذكره ابن حبان في الثقات. توفي سنة ١٩٧هـ وقيل بعد سنة ٢٠٠هـ. (تهذيب التهذيب ١/ ٤٩٧- ٤٩٨، رقم ٩٢٣).

[٦- أبو محمد السِّجْزي]

دَعْلَج[١] بن أحمد بن دَعْلَج[٢] أبو محمد السِّجْزي[٣] الفقيه المعدّل. وُلد سنة ستين ومائتين أو قبلها، وتوفي سنة ٣٥١هـ.

[أخ لك قتل أخانا ونحن نقتلك به]

وقال الحاكم: سمعته يقول: تقدّم ليلة إليّ بمكة ثلاثة فقالوا: أخٌ لك بخراسان قتل أخانا ونحن نقتلك به. فقلت: اتقوا الله فإنّ خراسان ليست بمدينة واحدة، فلم أزل أُداريهم إلى أن اجتمع الناس وخلّوا عني، فهذا سبب انتقالي من مكة إلى بغداد.

[٧- لولا العلم كنت بقالاً[٤]]

قال الحاكم: سمعت أبا الطيب محمد بن أحمد الورّاق: سمعت أبا بكر الفَسَويّ: سمعت عثمان بن سعيد الدارمي يقول: قال لي رجل ممّن يحسدني: ماذا كنت لولا العلم؟

فقلت: أردتَ شيناً فصار زيناً. سمعت نُعَيْم بن حماد يقول: سمعت أبا معاوية يقول: قال الأعمش: لولا العِلم لكنتُ بقّالاً. وأنا لولا العِلْم لكنتُ بزّازاً من بزّازي سجستان.

---

(١) دَعْلَج: بمفتوحة، فساكنة مهملتين، وفتح لام، وبجيم. وفي موضع آخر بكسر الدال. (المغني في أسماء الرجال ١٠١).

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٣.

(٣) ويقال: السجستاني، بكسر السين والجيم وسكون السين الثانية، نسبةً إلى سجستان. (اللباب ٢/ ١٠٥).

(٤) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٩٨.

[الرحلة في طلب العلم]

[١- عدد شيوخ أبي إسحاق السبيعي]

عن عبدالرحمن بن خِراش قال: كان ابن وَارَة من أهل هذا الشان المتقِنين الأمناء. كنت ليلةً عنده، فذكر أبا إسحاق السَّبِيعي، فذكر شيوخه، فذكر في طَلْق واحدٍ سبعين ومئتي رجل. ثم قال: كان آيةً شيئاً عجباً[١].

[٢- بقيّ بن مخلد من المؤلفين الكبار ويعتبر مسنده مسنداً ومصنفاً]

وقال ابن حزم: مُسْنَد بَقِيّ[٢] روى فيه عن ألفٍ وثلاثمائة صاحب ونيِّف، ورتَّب حديث كل صاحبٍ على أبواب الفقه. فهو مُسْنَد ومصنَّف. وما أعلم هذه الرتبة لأحدٍ قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث. وله مصنَّف في فتاوى الصحابة والتابعين، فمن دونهم الذي أوفى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، وعلى مصنّف عبدالرزاق، ومصنف سعيد بن منصور.

ثم ذكر تفسيره وقال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام لا نظير لها. وكان متخيِّراً لا يُقلِّد أحداً.

وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل، وجارياً في مضمار البخاري، ومسلم، وأبي عبدالرحمن النسائي.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٧٧.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣١٧.

[صفات بقيّ بن مخلد الخلقية، لم ير راكباً دابة قط]

وقال أبو عبدالملك القُرطُبيّ في تاريخه: كان بَقِيّ طويلاً أقْنَى، ذا لحية، مُضَبَّراً[1]، قوياً، جَلْداً على المشي. لم يُرَ راكباً دابةً قط. وكان ملازماً لحضور الجنائز، متواضعاً.

[رحلته في طلب العلم]

وكان يقول: إني لأعرف رجلاً كان يمضي عليه الأيام في وقت طلبه العِلْم، ليس له عيش إلا ورق الكُرُنْب[2] الذي يُرمَى. وسمعت من كل من سمعت منه في البلدان ماشياً إليه على قدمي.

[٣- أبو حاتم الرازي]

محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران[3].

أبو حاتم الغَطَفانيّ الحنْظليّ الرازي الحافظ. أحد الأئمة الأعلام.

[رحلته في طلب العلم]

قال ابنه: سمعتُ أبي يقول: أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين. أحصيت ما مشيت على قدميَّ زيادةً على ألف فرسخ، ثم تركت العدد بعد ذلك. وخرجتُ من البحرين إلى مصر ماشياً، ثم إلى الرمْلة ماشياً، ثم إلى دمشق، ثم إلى أنطاكية، ثم إلى طَرَسُوس. ثم رجعت إلى حمص، ثم منها إلى الرقة، ثم ركبتُ إلى العراق. كل هذا وأنا ابن عشرين سنة.

---

(١) الضَّبْر: تلزيز العظام، واكتناز اللحم.

(٢) الكُرُنْب: هو الملفوف كما في ساحل الشام.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٣٠، وسلفت ترجمته ص٥٦.

دخلتُ الكوفة في رمضان سنة ثلاث عشرة.

قلت: أدرك عُبَيْد الله [بن موسى] قبل موته بشهرين.

قال: وجاءنا نعي أبي عبدالرحمن المقرئ وأنا بالكوفة. ورحلتُ مرةً ثانية سنة اثنتين وأربعين ومائتين، ورجعتُ إلى الري سنة خمسٍ وأربعين.

وحججتُ رابع حجَّةٍ سنة خمسٍ وخمسين [ومئتين].

قال: وفيها حجّ ابني عبدالرحمن، وحزرت ما كتبت عن ابن نُفَيْل يكون نحواً من أربعة عشر ألفاً. وكتبَ محمد بن مصفًّى عني جزءاً انتخبه.

٤ - محمد بن الهيثم بن حماد[١]

أبو الأحوص قاضي عُكْبَرا.

وله رحلة واسعة إلى البصرة، والكوفة، والشام، ومصر، والجزيرة، والحجاز.

لقي بالشام: محمد بن عائذ، وطبقته.

وبالجزيرة: أبا جعفر النُّفَيْلي.

روى عنه: ابن ماجه. حديثاً واحداً، وقع لنا موافقة.

قال الدارقطني: كان من الحُفّاظ الثقات.

قلت: مات في جمادى الأولى سنة تسع وسبعين ومئتين بعُكْبَرا.

---

(١) تاريخ الإسلام، ٢٠/٤٦٦.

[شيوخ ابن حبان]

[٥- محمد بن حبان بن أحمد]

قال ابن حبان في كتاب «الأنواع والتقاسيم»: ولعلنا قد كتبنا عن أكثر من ألفي شيخ[١].

[٦- رحلة الطبراني وشيوخه]

سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني الحافظ مسند الدنيا[٢] أول سماعه بطبرية سنة ثلاث وسبعين ومئتين، وله ثلاث عشرة سنة.

سمَّعه أبوه ورحل به لأنه كان له ماسة بالحديث، وقد سمع من دُحَيْم لما قدم عليهم طبرية، وزار به أبوه القدس سنة أربع وسبعين ومئتين فسمَّعه من أحمد بن مسعود الخياط، حدَّثه عن عمرو بن أبي سَلَمَة التنِّيسي، ثم رحل إلى قيسارية فسمع من إبراهيم بن أبي سفيان، وعمرو بن ثور أصحاب الفريابي، وسمع بعكا من أحمد اللحياني صاحب آدم بن أبي إياس، ثم إنه رحل سنة ثمانٍ وسبعين إلى حلب، وسمع بحمص وجَبَلَة ودمشق والشام في هذا القُرْب، ثم حجّ ودخل اليمن مع أبيه في نحوٍ من سنة ثمانين ومئتين، فسمع كُتُب عبدالرزاق، وسمع بمصر في رجوعه فيما أحسب أو في ذهابه من محدِّثيها، وسمع بعد ذلك من أهل بغداد والبصرة والكوفة، وأصبهان، وغير ذلك.

وصنف معجم شيوخه وهو مجلد مروي.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/١١٣، وقد سلفت ترجمة ابن حبان ص٨٥ وما بعدها. وانظر قوله في «صحيح ابن حبان» بتحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط ١/ ١٥٢.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/٢٠٣، وقد سلفت ترجمة الطبراني ص٦١.

[من أصحاب المذاهب الفقهية غير الأئمة الأربعة]

حمدون بن أحمد بن عِمارة[1]

فقيه على مذهب سفيان الثوري

أبو صالح النيسابوري الصوفي العارف، المعروف بحمدون القصّار. قُدْوَة المَلامَتِية[2] بخراسان، ومنه انتشر مذهبهم، وهو تخريب الظاهر وتعمير الباطن، مع التزام الشرع وواجباته ظاهراً وباطناً.

وكان فقيهاً على مذهب سفيان الثوري. توفي سنة إحدى وسبعين ومئتين بنيسابور.

من كلامه، قال: لا يجزع من المصيبة إلا من اتهم ربَّه. وسئل عن طريق الملامة، فقال: خوفُ القدرية، ورجاء المرجئة.

[من سقطات العلماء وزلاتهم]

[قول ابن حزم في الترمذي[3]]

قال الذهبي: والعجب من أبي محمد بن حزم حيث يقول في أبي عيسى الترمذي: مجهول. قاله في الفرائض من كتاب «الإيصال».

قال أبو الفتح اليعمري: قال أبو الحسن القطان في «بيان الوهم والإيهام» عقيب قول ابن حزم: هذا كلام من لم يبحث عنه، وقد شهد له بالإمامة والشهرة الدارقطني، والحاكم.

وقال أبو يعلى الخليلي: هو حافظ متقن ثقة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٤٠.

(٢) الملامتية: من مذاهب الصوفية.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٦١، وقد سلفت ترجمة الترمذي ص١١.

[موازين أهل العلم الالتزام بالكتاب والسنّة]

قال أبو علي الثقفي[1]: كان أبو حفص -عمرو بن سَلْم النيسابوري الزاهد، شيخ الصوفية بخراسان- يقول: من لم يزنْ أحواله كل وقت بالكتاب والسنّة، ولم يتَّهم خواطره فلا تعُدُّه [في ديوان الرجال].

[أدب العلماء]

[نقرأ عليك الحديث وأنت تتحدث!][2]

قال الدارقطني: كان رحمه الله [يعني محمد بن عبدالله بن زكريا بن حيُّوْيه، أبا الحسن القاضي النيسابوري المصري المتوفى سنة ٣٦٦هـ] لا يترك أحداً يتحدث، وقال: جئت إلى شيخ عنده «الموطأ» وكان يُقْرأُ عليه وهو يتحدث، فلما فرغ قلت: أيها الشيخ نقرأ عليكَ الحديث وأنت تتحدث؟ فقال: كنت أسمع، فلم أعُدْ إليه.

[انبساط القاضي مع جلسائه]

قال الحافظ عبدالغني: وسمعت الوزير أبا الفرج يعقوب بن يوسف يقول: قال لي الأستاذ كافور، اجتمعْ بالقاضي أبي الطاهر فسلِّمْ عليه، وقُلْ له: إنه بلغني أنك تنْبَسِط مع جُلَسائك، وهذا الانبساط يُقِلُّ هيبةَ الحكم، فأعْلَمْتُهُ بذلك، فقال لي: قل للأستاذ: لستُ ذا مالٍ أفيض به على جُلسائي، فلا يكون أقل من خُلُقي، فأخبرتُ الأستاذَ فقال: لا تعاوِدْه، فقد وضع القَصْعَة[3].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٤٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٦٦.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٧٧.

قال الحافظ ابن حجر في «رفع الإصر عن قضاة مصر» ص٣٢٧: وضع القصعة يعني أنه عرَّض له بطلب ما يوسع على خواصه من المال. ووضع القصعة: كناية عن الطلب، لأن العادة جرت أن من احتاج يضع إناء بين الرؤساء، ليجعل كل منهم فيها ما تطيب به نفسه، فإذا انتهى ذلك أخذها صاحبها بما فيها.

[سوء أدب بعض أهل الحديث]

وقال البَرْقاني، كان [يعني عبدالله بن إبراهيم ين يوسف، أبا القاسم الجرجاني الآبَنْدوني الحافظ المتوفى سنة ٣٦٨هـ] محدّثاً زاهداً متقللاً من الدنيا، لم يكن يحدّث غير واحد، فقيل له في ذلك، فقال: أصحاب الحديث فيهم سوء أدب، وإذا اجتمعوا للسماع تحدثوا، وأنا لا أصبر على ذلك. وأخذ البَرْقاني يصف أشياء من تقلّله وزُهْده وأنه أعطاه [كِسَراً يابسة من الخبز] وقال: احملها إلى الباقلاني ليطرح عليها ماء الباقلاء، فوقعت على الكِسَر باقلاّتان، فرفعها وقال: هذا الشيخ يعطيني كل شهر دانقاً حتى أبلّ له الكِسَر[1].

[ألفاظ الثناء على العلماء]

[أعلم من رأيت على أديم الأرض بمذهب مالك]

محمد بن عبدالله بن عبدالحكم بن أعْين بن ليث[2].

الإمام أبو عبدالله المصري الفقيه، أخو عبدالرحمن وسعيد. وُلد سنة اثنتين وثمانين ومائة. وتوفي يوم الأربعاء النصف من ذي القعدة سنة ثمانٍ وستين ومئتين.

وقال إمام الأئمة ابن خُزَيْمَة: ما رأيت في فقهاء الإسلام أعرف بأقاويل الصحابة والتابعين من محمد بن عبدالله بن عبد الحَكَم.

وقال مَرَّة: كان محمد بن عبدالله أعلم مَن رأيت على أديم الأرض بمذهب مالك، وأحفظهم.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٩٨.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٦٨.

أحمد بن يوسف بن خلاد بن منصور أبو [بكر] النصيبي ثم البغدادي العطّار.

[لا يعرف من الحديث شيئاً وهو ثقة]

قال الخطيب: كان لايعرف شيئاً من العلم غير أن سماعه صحيح. سأل الدارقطنيَّ فقال: أيما [أكبر] الصاع أو المُدّ؟ فقال للطلبة: انظروا إلى شيخكم الذي تسمعون منه.

قال أبو نعيم: كان ثقة، وكذا وثقه ابن أبي الفوارس. قال: توفي في صفر سنة ٣٥٩هـ ولم يكن يعرف من الحديث شيئاً[١].

[مواقف العلماء من الحكام]

[١- رفض أبو داود طلب الحاكم إفراد مجلس تحديث لأولاده]

قال الخطابي[٢] حدَّثني عبدالله بن محمد المكي: حدثني أبو بكر بن جابر خادم أبي داود[٣] رحمه الله قال: كنتُ مع أبي داود ببغداد، فصلَّينا المغرب، فجاءه الأمير أبو أحمد الموفَّق فدخل، ثم أقبل عليه أبو داود فقال: ما جاء بالأمير في مثلِ هذا الوقت؟

قال: خِلالٌ ثلاث.

قال: وما هي؟

قال: تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطناً ليرحل إليك طَلَبَةُ العلم، فتعمر بك، فإنها قد خربت وانقطع عنها الناس، لما جرى عليها من محنة الزنج.

فقال: هذه واحدة.

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٩٠.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٦١.

(٣) أبو داود صاحب السنن، سلفت ترجمته ص٤٩ وما بعدها.

قال: وتروي لأولادي «السنن».

فقال: نعم، هات الثالثة.

قال: وتفرد لهم مجلساً، فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة.

قال: أما هذه فلا سبيل إليها، لأن الناس في العلم سواء.

قال ابن جابر: فكانوا يحضرون ويقعدون في كِمٍّ حِيْري ضرب عليه الستر، ويسمعون مع العامة.

[٢- الأمير يمر بمجلس الدارمي فيسلم عليه فقال: عليكم]

قال أبو الفضل: ولقد كنا في مجلس عثمان بن سعيد الدرامي[(١)] غير مرة، ومرَّ به الأمير عمرو بن الليث فسلَّم عليه، فقال: عليكم. حدثنا مسدَّد: ولم يزد على هذا[(٢)].

٣- محمد بن عبدالوهاب بن حبيب[(٣)]

الفقيه أبو أحمد العَبْديّ النيسابوري الفرّاء الأديب.

[دعاؤه لإبعاد السلاطين عنه]

ذكر أبو أحمد مرة السلاطين فقال: اللهم أنْسِهِم ذِكري، ومن أراد ذِكري عندهم فاشدُدْ على قلبه فلا يذكرني.

(١) سلفت ترجمة الدارمي، ص٥٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٩٧.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٥٢.

ابن حبان[1]

[من العلماء الذين جمعوا علوم الدين والدنيا]

قال أبو سعيد الإدريسي: كان ابن حبان على قضاء سمرقند زماناً، وكان من فقهاء الدين وحُفّاظ الآثار، عالِماً بالطب والنجوم وفنون العلم. ألّف «المسند الصحيح» و«التاريخ» و«الضعفاء» وفَقَّه الناس بسمرقند.

[علماء فسقة، وسوء الخاتمة]

[١ - ابن الإمام المقرئ كان خليعاً يضيع ما يحصل عليه]

أحمد بن العباس بن عُبيد الله[2] أبو بكر البغدادي ويُعرف بابن الإمام.

قرأ القرآن على: الأشناني، وأبي بكر بن مجاهد، وكان مُجَوِّداً حاذقاً. انتقل إلى خراسان وأقرأ هناك، وتوفي بالري.

روى عنه: الحاكم وقرأ عليه لأبي عمرو وقال: كان أوحد وقته في القراءات، دخل مَرْو وبُخارى وسمعتهم يذكرون أنَّ نوح بن نصر الأمير قرأ عليه ختمة ووصَله بأموال، ثم إنه سافر إلى فَرغانة. **وكان خليعاً يُضيّع ما يحصل له، وكان لا يُخْلي لياليه من اجتماع الصوفية والقَوَّالين.** وسمعته يقول: سمعت من عبدالله بن ناجية، ومن الفِرْيابي، (وسمعته يقول يوم وفاتي، إما سبعون جارية يَصِحْن: واسيِّداه ، وإما من يكفِّن الغريب، فبلغني أنه مات وكفن كما يكفن الغريب)[3].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١١٢. وسلفت ترجمة ابن حبان ص٨٥.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١١٩.

(٣) وهذا ما ورد في تاريخ الإسلام ٨/ ٧٩ بتحقيق: الدكتور بشار عواد، طبعة دار الغرب الإسلامي وفي تاريخ بغداد ٥/ ٥٤١، الترجمة (٢٤١٧) لم يرد أنه كان خليعاً...، والخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد أقدم وفاة (٤٦٣هـ) وأقدم من ترجم له، بينما توفي الذهبي سنة ٧٤٨هـ ولم يذكر ذلك ابن الجزري في ترجمته في «غاية النهاية» ١/ ٦٤ الترجمة (٢٧٧). فليحقق - الناشر.

وممن قرأ عليه: عيسى أبو بكر الحِيري.

توفي سنة ٣٥٥هـ.

[٢- أبو بكر بن الجِعابي[1]]

قال أبو عليّ التنوخي: ما شاهدنا أحفظ من أبي بكر بن الجعابي، وسمعت من يقول: إنه يحفظ مئتي ألف حديث ويجيب في مثلها، إلا أنه كان يَفْضُل الحُفّاظ بأنه كان يسوق المتون بألفاظها، وأكثر الحفاظ يتسمحون في ذلك، وكان إماماً في المعرفة بعلل الحديث وثقات الرجال ومواليدهم ووفياتهم، وما يطعن على كل واحد منهم، ولم يتبق في زمانه من يتقدمه في الدِّين.

وقال أبو الحسن بن رزقويه، مما سمعه من الخطيب: كان ابن الجعابي يُملي مجلسَه وتمتلئ السّكّة التي يملي فيها والطريق، ويحضره ابن المظفر والدارقطني ويملي الأحاديث بطرقها من حفظه.

[تقلب القلوب وسوء الخاتمة]

[الجعابي من العلماء الذين تغيروا في آخر عمرهم]

وقال محمد بن عبدالله المسبِّحي: كان ابن الجعابي المحدث قد صحب قوماً من المتكلمين فسقط عند كثير من أهل الحديث، وأصر قبل موته أن تُحرق دفاتره بالنار فأُنكر عليه واستُقْبح ذلك منه، وقد كان وصل إلى مصر ودخل على الإخشيد، ثم مضى إلى دمشق فوقفوا على مذهبه فشرّدوه، فخرج هارباً.

وذكر الخطيب عن رجاله أن ابن الجعابي كان يشرب في مجلس ابن العميد.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٢٧-١٣٠، وقد سلفت ترجمة أبي بكر بن الجعابي، ص١٣-١٨.

قلت -القائل هو الذهبي-: لم يبيِّن ما كان يشرب هل هو نبيذ أو خمر؟ وقال السلمي: سألت عنه الدارقطني، فقال خلّط، وذكر مذهبه في التشيع.

كذا ذكر الحاكم عن الدارقطني وذكر عنه، فقال: قال لي الثقة من أصحابنا ممن كان يعاشر ابن الجنابي: إنه كان نائماً فكتب على رِجْله، فكنت أراه ثلاثة أيام لم يمسّه الماء.

[٣- كان مالكياً ثم تحول إلى مذهب الشيعة]

النعمان بن محمد بن منصور[١]، أبو حنيفة المغربي القاضي.

قال المسبّحي في «تاريخ مصر»: كان من أهل الفقه والدين والنُّبل، وله كتاب «أصول المذاهب».

[من العلماء الذين ضلوا]

وقال غيره: كان مالكياً، ثم تحول إلى مذهب الشيعة لأجل الرياسة، وداخَلَ بني عُبَيْد، وصنف لهم كتاب «ابتداء الدعوة»، وكتاباً في الفقه، وكتباً كثيرة في أقوال القوم، وجمع في المناقب والمثالب، وردّ على الأئمة، **وتصانيفه تدل على زَنْدَقته وانسلاخه من الدين، وأنه منافق، نافق القوم**، كما ورد أن مغربيّاً جاء إليه فقال: قد عزم الخادم على الدخول في الدعوة، فقال: ما يحملك على ذلك؟ قال: الذي حمل سيدنا. قال: يا ولدي نحن أدخلَنا في هواهم حَلْواهم، فأنت لماذا تدخل؟

وللنعمان كتاب «دعائم الإسلام» ثلاثون مجلداً في مذهب القوم، و«منهاج شرح الآثار» خمسون مجلداً، وغير ذلك. وكان ملازماً للمعز أبي تميم، وولي القضاء له على مملكته، وقدم مصر معه من المغرب.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣١٥.

وتوفي بمصر في رجب سنة ثلاث وستين، فأشرك المعز في القضاء بين ولده أبي الحسن علي، وبين الذُّهْلي أبي الطاهر، فلما عجز الذُّهْلي وشاخ، استقلّ أبو الحسن بالقضاء، واستناب أخاه أبا عبدالله. وكان أبو الحسن شاعراً مُحْسِناً.

[من علماء آل البيت]

الحسن بن داود بن علي[1] بن عيسى بن محمد بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب أبو عبدالله العلوي النيسابوري.

قال الحاكم في ترجمته: شيخ آل رسول الله ﷺ في عصره بخراسان، وكان من أكثر الناس صِلَة ومحبة وصدقة لأصحاب رسول الله ﷺ في عصره. صحبتُهُ برهة من الدهر فما سمعته ذكر عثمان إلا قال: الشهيد. وبكى، وما سمعته يذكر عائشة إلا قال: الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله، وبكى.

سمع: جعفر بن أحمد الحافظ، وابن شيروَيْه، وابن خُزَيْمة.

وكان جده علي بن عيسى أزهد العلوية في عصره وأكثرهم اجتهاداً، وكان عيسى يلقَّب الفيَّاض لكثرة عطائه وجوده، وكان محمد بن القاسم ينادم الرشيد والمأمون، وكان القاسم راهب آل محمد ﷺ، وكان أبوه أمير المدينة وأحد من روى عنه مالك في «الموطأ». قاله الحاكم.

توفي سنة خمس وخمسين وثلاث مئة.

[الذهبي وما يظهره من علمه، وعقيدته، ونقده، أثناء تراجم العلماء]

١ - البسطامي

طَيْور بن عيسى[2].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٢٢.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١١٠.

أبو يزيد البسطامي الزاهد العارف، من كبار مشايخ القوم. وهو بكنيته أشهر وأعْرَف. وله أخَوَان: آدم، وعليّ، كانا زاهدين عابدين. وكان جَدُّهم أبو عيسى آدم ابن عيسى مجوسياً فأسلم.

ومن كلام أبي يزيد رحمه الله قال: ما وجدتُ شيئاً أشدُّ عليّ من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت حائراً.

وقال: هذا من فرحي بك وأنا أخافك، فكيف فرحي بك إذا أمِنْتُكَ؟

وعنه قال: ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير، وإنما العجب من حبّك لي وأنت ملكٌ قدير.

وعنه، وقيل له: إنك تمرّ في الهواء، قال: وأي أعجوبة هذا؟ طيرٌ يأكل الميتة يمرّ في الهواء، والمؤمن أشرف منه.

وعنه قال: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شرٌّ منه فهو متكبر.

وعنه قال: الجنة لا خطر لها عند المحبين، هم محجوبون بمحبتهم.

وقال: ما ذكروه إلا بالغفلة، ولا خدموه إلا بالفترة.

وعنه قال: اللهم لا تقطعني بك عنك.

وعنه قال: العارف فوق ما يقول، والعالِم دون ما يقول.

وقيل له: علِّمنا الاسم الأعظم. فقال: ليس له حَدّ، إنما هو فراغ قلبك لوحدانيته، فإذا كنت كذلك فارفع له أيَّ اسمٍ شئت.

وعنه قال: لله خلْق كثير يمشون على الماء، وليس لهم عند الله قيمة.

وكان يقول: لو نظرتم إلى رجلٍ أُعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحِفْظ الحدود وأداء الشريعة.

[من فقه الذهبي]

قلت -القائل هو الذهبي-: بل قد اغتر أهل زماننا وخالفوا أبا يزيد، وأكبر من أبي يزيد، وتهافتوا على كل مجنون بوّال على عقِبَيْه، له شيطان ينطق على لسانه بالمغيَّبات، نسأل الله السلامة.

قيل: إن أبا يزيد توفي سنة إحدى وستين ومائتين.

[من متشابه القول، والاختلاف في صحة نسبتها للبسطامي]

وقد نقلوا عنه أشياء من متشابه القول، الشأن في صحتها عنه، ولا تصح عن مسلم، فضلاً عن مثل أبي يزيد، منها: سبحاني.

ومنها: ما النار، لأسْتَنِدَنَّ إليها غداً، وأقول: اجعلني لأهلها فِداء، ولا يلعنها. وما الجنة، لعبة صبيان ومراد أهل الدنيا. ما المحدِّثون إن خاطبهم رجلٌ عن رجلٍ، فقد خاطبنا القلب عن الربّ.

وقال في يهود: هَبْهم لي، ما هؤلاء حتى تعذبهم؟!

[تعليق الذهبي على هذه الأقوال المتشابهة]

وهذا الشَّطْح إنْ صحّ عنه فقد يكون قاله في حالة سُكْره، وكذلك قوله عن نفسه: ما في الجبَّة إلا الله.

وحاشى مسلم فاسق من قول هذا واعتقاده، يا حيّ يا قيوم ثبِّتْنا بالقول الثابت.

وبعض العلماء يقول: هذا الكلام مقتضاه ضلالة، ولكن له تفسير وتأويل يخالف ظاهره ، فالله أعلم.

قال السُّلَميّ في تاريخه: مات أبو يزيد عن ثلاثةٍ وسبعين سنة، وله كلام في حُسْنِ المعاملات.

قال: ويُحكى عنه في الشَّطْح أشياء، منها ما لا يصحّ، ويكون مُقَوَّلاً عليه. وكان يرجع إلى أحوال سيئة.

ثم ساق بسنده عن أبي يزيد قال: من لم ينظر إلى شاهدي بعين الاضطراب، وإلى أوقاتي بعين الاغتراب، وإلى أحوالي بعين الاستدراج، وإلى كلامي بعين الافتراء، وإلى عباراتي بعين الاجتراء، وإلى نفسي بعين الازدراء، فقد أخطأ النَّظَر فيَّ.

وعن أبي يزيد قال: لو صفا لي تهليلةٌ ما باليْتُ بعدها.

[٢- موقف الذهبي من مُنْتَظَر الرافضة]

محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن عليّ الرضا بن موسى الكاظم[١].

أبو القاسم العلوي الحُسينيّ، خاتم الاثني عشر إماماً للشيعة.

وهو مُنْتَظَر الرافضة الذي يزعمون أنه المَهْديّ.

وأنه صاحب الزمان، وأنه الخَلَف الحجة.

وهو صاحب السِّرْداب بسامراء، ولهم أربعمائة وخمسون سنة ينتظرون ظهوره. ويدَّعون أنه دخل سِرداباً في البيت الذي لوالده وأمه تنظر إليه، فلم يخرج منه وإلى الآن.

فدخل السرداب وعُدِم وهو ابن تسع سنين.

وأما أبو محمد بن حزم فقال: إن أبا الحسن مات عن غير عَقِب. وثبَّت جمهور الرافضة على أن للحسن ابناً أخفاه.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٦١.

وقيل: بل ولد بعد موته من جاريةٍ اسمها «نرجس» أو «سوسن». والأظهر عندهم أنها صَقيل، لأنها ادَّعت الحَمْل به بعد سيدها فوقف ميراثه لذلك سبع سنين، ونازعها في ذلك أخوه جعفر بن عليّ، وتعصَّب لها جماعة، وله آخرون. ثم انْفَشَّ ذلك الحَمْل وبَطُلَ وأخذ الميراث جعفرٌ وأخٌ له.

وكان موت الحسن سنة ستين ومائتين.

قال: وزادت فتنة الرافضة بصقيل هذه، وبدعواها، إلى أن حبسها المعتضد بعد نيِّفٍ وعشرين سنة من موت سيدها وبقيت في قصره إلى أن ماتت في زمن المقتدر.

وذكره القاضي شمس الدين بن خلّكان فقال: وقيل: بل دخل السرداب وله سبع عشرة سنة في سنة خمسٍ وسبعين ومائتين. والأصح الأول، وأن ذلك كان سنة خمسٍ وستين.

[رأي الذهبي]

قلت: وفي الجملة جهل الرافضة ما عليه مزيد. اللهم أمِتْنا على حب محمد وآل محمد ﷺ، والذي يعتقده الرافضة في هذا المنتظَر لو اعتقده المسلم في عليّ بل في النبي ﷺ لما جازَ له ذلك ولا أُقِرَّ عليه.

إنهم يعتقدون فيه وفي آبائه وفي كل واحد منهم يعلم علم الأولين والآخرين، وما كان وما يكون، ولا يقع منه خطأ قطّ، وأنه معصوم من الخطأ والسهو، نسأل الله العفو والعافية، ونعوذ بالله من الاحتجاج بالكذب وردّ الصدق، كما هو دأب الشيعة.

٣- محمد بن شجاع[١]

أبو عبدالله بن الثلجي البغدادي، الفقيه الحنفي. أحد الأعلام الكبار. قرأ القرآن على أبي محمد اليَزِّيْدي.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٦٥.

وروى الحروف عن: يحيى بن آدم.

وتفقَّه على: الحسن بن زياد اللؤلؤي، وغيره.

قال ابن عدي: كان يضع أحاديث في التشبيه وينسبها إلى أصحاب الحديث يَثْلبهم بذلك.

روى عن حبَّان بن هلال، عن حماد بن سَلَمَة، عن أبي المُهَزَّم، عن أبي هريرة يرفعه: «إنّ الله خلق الفَرَس فعرقت، ثم خلق نَفَسَه منها».

[نقد الذهبي]

قلت: هذا كذب لا يدخل في عقل المجانين لاستحالته، إلا أن يريد خَلَقَ شيئاً سماه نَفَساً، وأضافه إليه إضافة ملك. وبكل حال هذا والله كذِب بيقين.

وقد سأل عبدالرحمن بن يحيى بن خاقان أحمد بن حنبل، عنه فقال: مبتدِع صاحب هَوَى.

قلت: ومع مذهبه في الوقْف في القرآن كان متعبّداً كثير التلاوة.

قال أحمد بن الحَسَن البغوي: سمعته يقول: ادفنوني في هذا البيت فإنه لم يبقَ فيه طابق إلا وقد ختمت عليه القرآن.

قلت: وُلد سنة إحدى وثمانين ومائة، ومات وهو ساجد في صلاة العصر في رابع ذي الحجة سنة ستٍّ وستين ومئتين. وخُتم له بخير إن شاء الله وأناب عند الموت.

[٤- فقه الذهبي في المحبة والخوف]

قال أبو سعيد بن الأعرابي: فذُكِرَتْ له -يعني غلام خليل أحمد بن محمد غالب الباهلي- هذه الشناعات، يعني خوض الصوفية في دقائق الأحوال التي يذمها أهلُ الأثر، وذُكر له بعض مذاهب البغداديين وقولهم في المحبة، ولم يزل يبلغه

عن الشاذ من أهل البصرة أنهم يقولون: نحن نُحِب ربنا وربنا يحبنا، وقد أسقط عنا خوفه بغَلَبة محبته. فكان يُنكر هذا الخطأ بخطأٍ مثله، وأغلظ منه، حتى جعل محبة الله بدْعة. وقال: إنما المحبة للمخلوقين، والخوف أفضل أولى بنا.

قال: وليس هذا كما توهّم، بل المحبة والخوف أصلان من أصل الإيمان لا يخلو المؤمن منهما، وإن كان أحدهما أغلب على بعض الناس من بعض[1].

[٥- كتاب سنن أبي داود]

وقال ابن داسَة: سمعت أبا داود يقول: كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث، وانتخبت منها ما ضمّنته كتاب «السنن». جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث، ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه. فإنْ كان فيه وَهَن شديد بيَّنته.

[رأي الذهبي في قول أبي داود]

قلت: وَفَى رحمه الله بذلك فإنه بيّن الضعيف الظاهر، وسكت عن الضعيف المحتمل. فما سكت عنه لا يكون حَسَناً عنده ولا بد، بل قد يكون فيه ضعفٌ ما[2].

[٦- علم الذهبي بالأقاليم (الجغرافيا) ومواطن الأقوام]

وأما القاضي شمس الدين بن خلّكان فقال[3]: سجستان قرية من قرى البصرة.

قلت -القائل هو الذهبي-: سجستان إقليم منفرد متاخم لبلاد السِّنْد، يُذهبُ إليه من ناحية هَراة[4].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٧٧.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٦٠. وقد سلفت ترجمة أبي داود صاحب السنن ص٤٩ وما بعدها.

(٣) وفيات الأعيان ٢/ ٤٠٥.

(٤) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٦١.

[تحقيق الذهبي في الرجال]

[٧- ردّ الذهبي على الحاكم في زعمه أن ابن قتيبة كذاب]

وقال مسعود السجزيّ: سمعتُ الحاكم يقول: أجمعت الأمة على أن القُتَيْبيّ كذاب [يعني عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري].

قلت: هذه مجازفة بشِعَة من الحاكم. وما علمتُ أحداً اتَّهم ابن قتيبة في نقْلٍ. مع أن أبا بكر الخطيب قد وثَّقه.

وما أعلمُ أحداً اجتمعت الأمة على كَذِبه إلا مسيلمة والدجال. غير أن ابن قتيبة كثير النقل من الصحف كَدَأْب الإخباريين. وقَلَّ ما روى من الحديث[١].

[٨- رفع اليدين في الدعاء

وتقرير الذهبي أن في ذلك عدة أحاديث صحيحة]

قال القاسم بن أبي صالح سمعت أبا حاتم يقول: قال لي أبو زُرْعة: ترفع يديك في القنوت؟

قلت: لا، أفترفع أنت؟

قال: نعم.

قلت: ما حجتك؟

قال: حديث ابن مسعود.

قلت: رواه ليث بن أبي سُلَيْم.

قال: حديث أبي هريرة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٨٢.

قلت: رواه ابن لهيعة.

قال: حديث ابن عباس.

قلت: رواه عوف.

قال: فما حجتك في تركه؟

قلت: حديث أنس أن رسول الله ﷺ كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء. فسكت أبو زرعة.

قلت -القائل هو الذهبي- قد ثبتت عدة أحاديث في رفع النبي ﷺ يديه في الدعاء. وأنس حكى بحسب ما رآه[1].

[٩- قيمة كتاب السنن للترمذي]

وقال أبو بكر بن العربي: وليس في قدر كتاب أبي عيسى مثله حلاوة مقطع، ونفاسة مَنْزَع، وعذوبة مَشْرع. وفيه أربعة عشر عِلماً فرائد. صنَّف وأسند وصحح وأشهر، وعدّد الطُّرُق، وجرّح وعدّل وأسمى وكنّى، ووصل وقطع، وأوضح المعمول به والمتروك، وبيّن اختلاف العلماء في الإسناد في الأوائل. وكل علم منها أصلٌ في بابه[2].

[١٠- تقويم الذهبي لسنن ابن ماجه]

وعن أبي عبدالله بن ماجه قال: عرضتُ هذه «السُّنن» على أبي زُرْعة فنظر فيه وقال: أظن إنْ وقع هذا في أيدي الناس تعطّلت هذه الجوامع أو أكثرُها.

ثم قال: لعل لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثاً مما في إسناده ضَعْفٌ، أو نحو ذا.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٣٣.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٦٢.

قلت -القائل هو الذهبي-: كان ابن ماجه حافظاً صدوقاً ثقة في نفْسه، وإنما نقص كتابه بروايته أحاديث مُنْكَرَةً فيه[1].

[١١- إنكار الحد لله وإثباته لم يأت به نص]

قال شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري: سألت يحيى بن عمار عن أبي حاتم ابن حبان: هل رأيته؟ قال: وكيف لم أره ونحن أخرجناه من سجستان، كان له علم كبير ولم يكن له كثير دين، قدم علينا فأنكر الحدّ لله[2]، فأخرجناه.

قلت -القائل هو الذهبي-: إنكار الحدِّ[3] وإثباته، مما لم يأتِ به نص، والكلام منكم فضول، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، والإيمان بأن الله تعالى ليس كمثله شيء من قواعد العقائد، كذلك الإيمان بأن الله بائن من خلقه، متميزة ذاته المقدسة من ذوات مخلوقاته.

وقال أبو إسماعيل الأنصاري: سمعت عبدالصمد محمد بن محمد، سمعت أبي يقول: أنكروا على ابن حبان قوله: النبوة: العِلْم والعمل، فحكموا عليه بالزندقة وهُجر، وكتب فيه إلى الخليفة فكتب بقتله، وسمعت غيره يقول: لذلك أخرج إلى سمرقند[4].

[من فقه الذهبي]

قلت -القائل الذهبي- قوله: النبوة: العِلْم والعمل، كقوله ﷺ: «الحج عرفة»، وفي ذلك أحاديث، ومعلوم أن الرجل لو وقف بعرفة فقط ما صار بذلك

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٦٨.

(٢) في الأصل: الحمد، وهو خطأ، انظر: «صحيح ابن حبان» ١/ ٢٣، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٧.

(٣) في الأصل: الحمد، وهو خطأ، انظر «صحيح ابن حبان» ١/ ٢٣، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٧.

(٤) انظر قصة محنته في «صحيح ابن حبان» ١/ ٢١-٢٥ تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٦-٩٨.

حاجّاً، وإنما ذكر أشهر أركان الحج، وكذلك قول ابن حبان فذكر أكمل نعوت النبي، ولا يكون العبد نبياً إلا أن يكون عالِماً عاملاً، ولو كان عالِماً فقط لما عُدَّ نبياً أبداً، فلا حيلة لبشر في اكتساب النبوة[1].

[صاحب مقالة السالمية]

أحمد بن محمد بن سالم أبو الحسن البصري[2] الصوفي بن الصوفي المتكلم.

له أحوال ومجاهدة وأتباع ومُحِبُّون[3]، وهو شيخ أهل البصرة في زمانه، عُمِّر دهْراً، وأدرك سهل بن عبدالله التُّسْتَرِيّ وأخذ عنه، لأن والده كان من تلامذة سهل، وبقي إلى قريب الستين وثلاث مائة، وكان من أبناء التسعين.

قال السَّلَمي في تاريخ الصوفية: محمد بن أحمد بن سالم أبو عبدالله البصري والد أبي الحسن بن سالم، روى كلام سهل، هو من كبار أصحابه، أقام بالبصرة، وله بها أصحاب يُسَمّون السالمية، هجرهم الناسُ لألفاظٍ هُجْنة أطلقوها وذكروها.

قال أبو بكر الرازي: سمعت ابن سالم يقول: سمعت سهل بن عبدالله يقول: لا يستقيم قلب عبدٍ حتى يقطع كل حيلة وكل سببٍ غير الله. وقال: قال سهل: ما اطّلع الله على قلبٍ فرأى فيه همّ الدنيا إلا مَقَتَه، والمَقْتُ أن يتركه ونفسه.

وقال أبو نصر الطوسي: سألت ابن سالم عن الوجل، فقال: انتصاب القلب بين يدي الله. وسألته عن العُجْب قال: أن يستحسن العبد عمله ويرى طاعته. قلت: كيف يتهيأ للعبد أنْ لا يستحسن صلاته وصومه وعبادته؟ قال: إذا علم تقصيره فيها والآفات التي تدخُلُها فلا يستحسنه. وسمعته يقول: متى تنكسر النفس بترك الطعام هيهات هيهات، فسألته بما أستعين على كَسْر قوة نفسي؟ قال:

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١١٣-١١٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٢٥.

(٣) في الأصل: ومجون، وهو خطأ.

بأن تجعل نفسك حيث موضع نظر الله إليك، إنْ مددْت يدك قلت: لِمَ، وإن مددت رجلك قلت: لِمَ، وإن نطقت تقول: لِمَ. هذا حبس النفس التي تنكسر بها قوّته وتزول سُرْبَتُه، لا بترك الطعام والشراب.

قلت: السالمية[1] لهم نِحْلَة لا أحققها.

[١٣- سقتهم السَّويق بالسكر والثلج]

وحجّت جميلة بنت ناصر الدولة ابن حمدان ومعها أخواها إبراهيم وهبة الله، فضُرِب بحجتها المثل، فإنها استصحبت أربعمائة جمل، وكان معها عدة محامل لم يُعْلَم في أيها كانت، وكَسَتْ المجاورين ونثرت على الكعبة لما رأتها عشرة آلاف دينار، وسقت جميع أهل الموسم السَّويق بالسُّكَّر والثلج. كذا قال أبو منصور الثعالبي، فمن أين لها ثلج؟ وقُتل أخوها هبة الله في الطريق، وأعتقت ثلاثمائة عبد ومئتي جارية، وأغنت المجاورين بالأموال.

[فقر بعد غنى]

قال أبو منصور الثعالبي: خلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب، وكان معها أربعمائة عمارية -أي مَحمَل- لا يُدْرَى في أيها كانت، ثم ضرب الدهر ضرباته، واستولى عَضُدُ الدولة على أموالها وحصونها وممالك أهل بيتها، وأفضت بها الحال إلى كل قلّة وذِلّة، وتكشّفت عن فقر مُدْقِع[2].

١٤- إبراهيم بن محمد بن أحمد[3] بن مَحْمَوَيْه

أبو القاسم النصرآباذي الواعظ الصوفي الزاهد. ونصرآباذ محلّة بنيسابور.

---

(١) في الأصل: السنة وهو خطأ. والنص مليء بالأخطاء، تم تصحيحها من تاريخ الإسلام للذهبي بتحقيق الدكتور بشار عواد.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٦٤.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٦٧.

وقال السُّلَمي: كان شيخ الصوفية بنيسابور، له لسان الإشارة، مقروناً بالكتاب والسنَّة. كان يرجع إلى فنون من العلم، منها حِفْظ الحديث وفهمه، وعلم التاريخ وعلوم المعاملات والإشارة. التقى الشبلي، وأبا علي الروذباري. قال: ومع معظم حاله كم مرة قد ضُرب وأُهين وكم حُبس، فقيل له: إنك تقول: الروح غير مخلوق، قال: لست أقول ذا ولا أقول إن الروح مخلوق، ولكن أقول ما قال الله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥]، فجهدوا به، فقال: ما أقول إلا ما قال الله.

[فقه الذهبي]

قلت -القائل هو الذهبي-: هذا كلام زيْف، وما يشكُّ مسلم في خلق الأرواح، وأما سؤال اليهود لنبينا ﷺ عن الروح فإنما هو عن ماهيتها وكيفيتها لا عن خلقِها، فإن الله خالق كل شيء، وخالق أرواحنا وذواتنا وموتنا وحياتنا.

قال السلمي: وقيل له: إنك ذهبت إلى الناووس وطفْت به وقلتَ: هذا طوافي، فقالوا له: إنك نقصت محلّ الكعبة، فقال: لا ولكنهما مخلوقان، لكن جُعِل ثم فَضْلٌ ليس ههنا، وهذا كمن يكرِم الكلب لأنه خَلْقُ الله، فعُوتِبَ في ذلك سنين.

قلت -القائل هو الذهبي-: وهذه سقْطَة أخرى له، والله يغفر له، أتكونُ قبلة الإسلام مثل القبور التي لُعِنَ من اتخذها مسجداً؟

[وصف قتيل المعركة بالشهيد]

عبيد الله بن واصل بن عبدالشكور بن زين[(١)]

الإمام أبو الفضل الزَّيْنيّ، البطل الشجاع البخاري الحافظ.

رحل وسمع: أبا الوليد الطَّيالسي، وعَبْدان بن عثمان المَرْوَزِي، ويحيى بن يحيى التميين، ومُسَدّداً، وعبدالسلام بن مطهّر، وخلْقاً من طبقتهم.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٩٥.

وعنه: محمد بن إسماعيل البخاري وهو أكبر منه، وصالح بن محمد جَزَرَة، وأهل بُخارى.

وُجد مقتولاً إلى رحمة الله في سنة سبْعٍ وسبعين ومئتين، وقيل: في سنة اثنتين وسبعين ومئتين في شوال، في وقعة خُوكيجة شهيداً.

ومولده سنه إحدى ومائتين.

وكان موصوفاً بالشجاعة، له شأن بين المجاهدين، رحمه الله تعالى.

[نماذج مما قيل فيه من تعديل وتجريح]

أحمد بن الفرج بن سليمان[1]

أبو عُتْبة الكِنْدي، الحمصي المعروف بالحجازي، المؤذِّن.

قال ابن أبي حاتم: محلُّه عندنا الصِّدْق.

قال ابن عدي: كان محمد بن عوف يضعّفه ويتكلَّم فيه. وكان ابن جَوْصا يضعّفه.

وقال ابن عديّ: مع ضَعْفه قد احتمله الناس، وليس ممن يُحْتَجّ به.

وأما عبدالغافر بن سلامة الحمصيّ فقال: كان محمد بن عوف، وعمر، وأصحابنا يقولون: إنه كذاب. فلم نسمع منه شيئاً.

قال: وقال محمد بن عوف: هذا كذّاب رأيته عند بئر أبي عُبيدة في سوق الرَّسْتَن، وهو يشرب مع مرْدان. وهو يتقيّاً[2]، وأنا مشرفٌ عليه من كوةٍ في بيتٍ كانت لي فيه تجارة سنة تسعٍ وعشرين ومائتين.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٦٩.

(٢) يعني: الخمر. (كما في: تاريخ بغداد، وتاريخ دمشق).

[الصفات الخلقية بدل الصور]

١ - أحمد المعتمد على الله[1]

أبو العباس أمير المؤمنين ابن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد الهاشمي العباسي.

وُلد سنة تسعٍ وعشرين ومائتين بسُرَّ مَن رأى، وأمّه رومية اسمها فِتْيان.

قال ابن أبي الدنيا: كان أسمر رقيق اللون، أعْيَن، خفيفاً، لطيف اللحية، جميلاً. وُلد في أول سنة تسعٍ، ومات ليلة الاثنين لإحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسعٍ وسبعين فجأة ببغداد. فحُمِل ودفِنَ بسامراء. وكانت خلافته ثلاثة وعشرين سنةً وستة أيام، والصواب: وثلاثة أيام.

وقيل: كان المعتمد مربوعاً نحيفاً، فلما استخلف سمن وأسرع إليه الشيب.

[٢ - صفات بقي بن مخلد الخلقية]

وقال أبو عبدالملك القرطبي في تاريخ: كان بَقِيّ بن مخلد طويلاً أقْنَى، ذا لحية، مُضَبَّراً[2]، قوياً، جَلْداً على المشي. لم يُرَ راكباً دابةً قط. وكان ملازماً لحضور الجنائز، متواضعاً[3].

[من غرر الكلام في وصف سنن الترمذي]

وقال أبو بكر بن العربي: وليس في قدر كتاب أبي عيسى مثله حلاوة مقطع، ونفاسة مَنْزَع، وعذوبة مَشْرع. وفيه أربعة عشر عِلماً فرائد. صنَّف وأسند وصحّح وأشهر، وعدّد الطُّرُق، وجرّح وعدّل وأسمى وكنّى، ووصل وقطع، وأوضح

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٤٨.

(٢) الضَّبْر: تلزيز العظام، واكتناز اللحم.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣١٧. وقد سلفت ترجمة بقي بن مخلد ص٤٠ وما بعدها.

المعمول به والمتروك، وبيّن اختلاف العلماء في الإسناد في الأوائل. وكل علم منها أصلٌ في بابه[1].

[من صيغ المدح والثناء على العلماء]

١ - الترقفي

عباس بن عبدالله بن أبي عيسى[2] بن أبي محمد التَّرْقُفِيّ[3] الباكُسايِيّ[4].

قال الخطيب: كان ثقة صالحاً عابداً.

وقال محمد بن مَخْلَد: ما رأيته ضحِك ولا تبسَّم.

قيل: تُوُفّي في آخر سنة سبْعٍ وستين ومئتين.

[٢ - أبو عصيدة]

أحمد بن عُبيد بن ناصح بن بلنْجُر الديلمي ثم البغدادي النحوي[5].

مولى بن هاشم أبو جعفر المُلَقَّب بأبي عصيدة.

وقال ابن عدي: وأبو عصيدة مع هذا كله كان من أهل الصِّدْق.

قلت: توفي سنة ثمانٍ وسبعين ومئتين. وكان من أئمة العربية.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٦٢. وقد سلفت ترجمة الترمذي ص١١ وما بعدها.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١١٥.

(٣) التَّرْقُفي: بفتح التاء ثالث الحروف وسكون الراء وضم القاف، وفي آخرها الفاء، نسبةً إلى تَرْقُف.

(٤) الباكُسايي بفتح الباء الموحدة بعدها الألف وضم الكاف وفتح السين المهملة والياء آخر الحروف بعد الألف، وهذه النسبة إلى باكُسايا وهي من نواحي بغداد. (الأنساب ٢/ ٥٣).

(٥) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٦٣.

[٣- ابن أبي الخناجر]

أحمد بن محمد بن يزيد بن مسلم بن أبي الخناجر[(١)]

الإمام أبو علي الأنصاري الأطرابُلُسي.

قال ابن أبي حاتم: صدوق.

وقال غيره: كان شيخاً جليلاً نبيلاً.

وقال تمام: حدثنا خَيْثَمَة، قال: حدثنا ابنُ أبي الخناجر قال: كنت في مجلس يزيد بن هارون فجاء المأمون فوقف علينا، وفي المجلس ألوف، فالتفت إلى أصحابه وقال: هذا المُلْك.

وقال ابن دُحَيْم: توفي في جمادى الآخرة سنة أربعٍ وسبعين ومئتين.

٤- أحمد بن مهدي بن رستم[(٢)]

أبو جعفر الأصبهاني العابد. أحد حُفّاظ الحديث.

قال أبو نُعَيْم: كان صاحب ضِياع وثروة. أنفق على أهل العلم ثلاثمائة ألف درهم.

وقال محمد بن يحيى بن مَنْدة: لم يحدِّث ببلدنا منذ أربعين سنة أوثق منه. صنَّف «المسند» ولم يُعرف له فراش منذ أربعين سنة، صاحب عِبادة، رحمه الله.

توفي سنة اثنتين وسبعين ومئتين.

قال ابن النجار: كان من الأئمة الثقات وذوي المُروءات.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٧٢.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٨٣.

٥- السري بن خزيمة بن معاوية[1]

الحافظ أبو محمد الأَبِيوَرْدِي الثقة.

قال الحاكم: هو شيخ فوق الثقة.

[٦-ما قيل في أبي داود صاحب «السنن»]

قال أبو عمر الزاهد: قال إبراهيم الحربي: أُلينَ لأبي داود الحديث كما أُلينَ لداود عليه السلام الحديد.

وقال موسى بن هارون الحافظ: خُلق أبو داود في الدنيا للحديث، وفي الآخرة للجنة. ما رأيتُ أفضل منه.

وقال أحمد بن محمد بن ياسين الهَرَوي في «تاريخ هَراة»: أبو داود السِّجْزيّ كان أحد حُفّاظ الإسلام لحديث رسول الله ﷺ وعِلْمه وعِلَله، وسَنَده، في أعلى درجة النّسْك والعَفاف والصلاح والورع. من فُرسان الحديث[2].

٧- أحمد بن جعفر بن حمدان، أبو بكر القطيعي[3]

قال أبوالفتح بن أبي الفوارس: لم يكن في الحديث بذاك، له في بعض المُسْنَد أصولٌ فيها نَظَر، ذكر أنه كتبها بعد الغَرَق، نسأل الله سِتْراً جميلاً، **وكان مستوراً صاحب سُنّة.**

وقال البَرْقاني: كان شيخاً صالحاً، وكان لأبيه اتصال ببعض السلاطين، فقرئ لابن ذلك السلطان على عبدالله بن أحمد «المسند»، وحضر القَطيعي سماعه، ثم غرقت قطعة من كتبه فنسخها من كتاب، وذكروا أنه لم يكن سماعه فيه، فغمزوه

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٥٢.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٦٠.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٩٠.

لأجل ذلك، وثَبَتَ عندي أنه صَدوق، وإنما كان فيه بَلَهٌ. ولما اجتمعت مع الحاكم أبي عبدالله ليّنْتُ القطيعي، فأنكر عليّ وحَسَّنَ حاله. وقال: كان شيخي.

[ملك من ذرية ملوك الفرس]

أحمد بن بويه الديلمي[1] السلطان معز الدولة أبو الحسين

كان بُوَيْه يصطاد ويحترف، وكان ولده أحمد هذا ربما احتطب، فآل أمره إلى المُلْك، وكان قدومه إلى بغداد سنة أربعٍ وثلاثين وثلاث مئة، وكان موته بالبَطَن فعَهِد إلى ولده عز الدولة أبي منصور بَخْتيار بن أحمد.

[أثر العلم في الهداية]

[توبته عند وفاته بعد علمه بحقائق كان يجهلها]

وقيل: إنه لما احتضر استحضر بعض العلماء فتاب على يده، كلما حضر وقت الصلاة خرج العالم إلى مسجد، فقال معزّ الدولة: لم لا تُصلّي هنا؟ قال: إن الصلاة في هذه الدار لا تصحّ، وسأله عن الصحابة، فذكر له سوابقهم وأنّ علياً زوّج بنته من فاطمة بعمر رضي الله عنه ، فاستعظم وقال: ما علمت بهذا، وتصدّق بأموال عظيمة، وأعتق غلمانه، وأراق الخمور، وردَّ كثيراً من المظالم.

وكان الرفض في أواخر أيامه ظاهراً ببغداد وكان يقال: إنه بكى حتى غشي عليه، وندم على الظلم. ورَدَّ المواريث إلى ذوي الأرحام.

مات في ربيع الآخر سنة ستٍّ وخمسين وثلاث مائة، وله ثلاث وخمسون سنة.

وكانت دولته اثنين وعشرين سنة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٣٦.

[المعاناة في طلب العلم وتحصيله]

[١- معاناة أبي علي القالي[1]]

حكى هارون النحوي قال: كنا نختلف إلى أبي علي القالي بجامع الزهراء، فأخذني المطر، فدخلت وثيابي مُبْتَلَّة، وحوله أعلام أهل قرطبة، فقال لي: مهلاً يا أبا نصر هذا هيّن وتبدّله بثياب أُخَر، فلقد عرض لي ما أبقى بجسمي نُدوباً. كنت أختلف إلى ابن مجاهد فأدْلَجْتُ، فلما انتهيت إلى الدرب رأيته مُغْلَقاً فقلت: أُبَكّر هذا البكور وتفوتني النَّوْبَة، فنظرت إلى سَرَبٍ هناك فاقتحمته، فلما أنْ توسّطْتُه ضاق بي، ونشبت فاقتحمته أشد اقتحام، فنجوت بعد أن تخرَّقَتْ ثيابي وتزلّع جلدي حتى انكشف العَظْم، فأين أنت مما عرض لي.

ثم أنشد:

دَبَبتُ للمجد والسَّاعونَ قد بلغوا ... جَهْدَ النُّفُوس وألقوا دونه الأزرا

فكابَدُوا المجدَ حتى مَلَّ أكْثَرُهُم ... وعانق المجدَ مَن أوفى ومَن صَبَرَا

لا تَحْسِبِ المجدَ تمراً أنت آكِلُه ... لن تَبْلُغَ المجدَ حتى تَلْعَقَ الصَّبْرا

٢- الحسن بن عبدالله بن المرزبان[2]، أبو سعيد السيرافي النحوي القاضي، نزيل بغداد.

وكان أبو سعيد إماماً كبير الشأن تصدّر لإقراء القراءات والنحو واللغة والفرائض والحساب والعَروض، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، عارفاً بفقه أبي حنيفة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٣٩.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٩٤.

قرأ القرآن على: أبي بكر ابن مجاهد، وأخذ اللغة عن ابن دُرَيد، والنحو عن أبي بكر بن السراج.

وكان لا يأكل إلا من كسْب يمينه تَدَيُّناً. وكان لا يجلس للقضاء ولا للاشتغال حتى ينسخ كراساً يأخذ أُجْرَته عشرة دراهم.

قال ابن أبي الفوارس: وكان يُذْكَر عنه الاعتزال، ولم يظهر منه شيء.

قلت: ومن تصانيفه «شرح كتاب سيبويه» و«كتاب ألفاظ القَطْع والوَصْل»، و«كتاب الإقناع» في النحو، لكن كمَّله وَلَدُهُ يوسف، وجزّأ «أخبار النُّحاة».

وتوفي في رجب سنة ٣٦٨هـ، وله أربعٌ وثمانون سنة. وكان نحويّ العراق.

[لا يدرك العلم براحة الجسم]

وحدث الحسن بن عبدالله بن المرزبان، حدثنا محمد بن منصور بن أبي الأزهر، حدثنا الزبير بن بكّار، حدثني أنس بن عياض قال: حدثني من سمع يحيى ابن أبي كثير اليمامي يقول: لا يُدرَك العلم براحة الجسم.

[أبو الفرج الأصبهاني]

علي بن الحسين بن محمد[1] بن أحمد بن الهيثم أبو الفرج الأصبهاني، الكاتب، مصنف كتاب «الأغاني».

قلت -القائل هو الذهبي-: رأيت شيخنا ابن تيمية يضعِّفه ويتّهمه في نقله ويستهول ما يأتي به، وما علمتُ فيه جرحاً إلا قول ابن أبي الفوارس: خلّط قبل أن يموت. وقد أثنى على كتابه «الأغاني» جماعة من جِلَّة الأدباء[2].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٤٣.

(٢) لمعرفة ما قيل حول الأصفهاني وما في كتابه الأغاني من أكاذيب وطامات انظر كتاب الأستاذ وليد الأعظمي: السيف اليماني في نحر الأصفهاني، صاحب الأغاني، وكتاب: كتب حذر منها العلماء للشيخ مشهور سلمان.

[من العلماء الفقراء الصابرين المحتسبين]

محمد بن جعفر بن محمد[1] بن مطر النيسابوري، أبو عمرو بن مطر المعدَّل الزاهد.

شيخ العدالة ببلده ومعدن الورع، معروف بالسماع والرحلة والإتقان، كذا قال فيه الحاكم.

قال الحاكم: قلَّ ما رأيت أصبرَ على الفقر من أبي عمرو، فإنه يتجمل بدَسْت ثياب الجمعة وحضور المجلس، ويلبس في بيته فرواً ضعيفة، ويأكل رغيفاً وبصلة أو جزرة. وبلغني أنه كان يُحيي الليل، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويضرب اللبنَ لقبور الفقراء، ولم أرَ في مشايخنا له في الاجتهاد نظيراً. وتوفي في جمادى الآخرة سنة ستين وثلاث مئة، وهو ابن خمس وتسعين سنة رضي الله عنه .

[علماء قذرون]

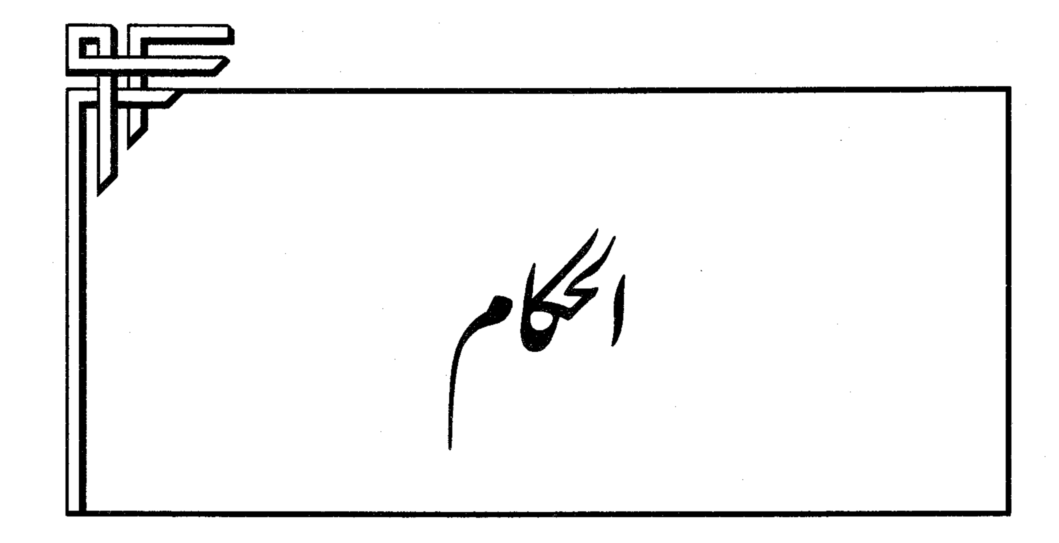
قال هلال بن المحسن الصابي: كان أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب «الأغاني» وسخاً قذراً لم يُغْسَل له ثوب أبداً منذ فصَّلَه إلى أن يتقطع، وشِعْره جيد لكنه في الهجاء أبلغ، وكانوا يتقون لسانه، ويصبرون على مجالسته ومشاربته[2].

[طلب العلم على كبر]

إبراهيم بن أحمد بن محمد، أبو إسحاق النيسابوري الأبزاري الوراق طلب الحديث على كِبَرِ السن، ورحل فيه[3].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢١٣.
(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٤٤.
(٣) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٢١.


الحكام



[الاقتتال بين المسلمين على الملك]

[١ - محاربة ابن الليث للمعتمد وهزيمته[1]]

وفيها -يعني سنة اثنتين وستين ومئتين- أعيا الخليفة أمرُ يعقوب بن الليث، فكتب إليه بولاية خراسان وجُرْجان، فلم يرضَ حتى توافَى باب الخليفة، وأضمر في نفسه الحكم على الخليفة، والاستيلاء على العراق والبلاد. وعلم المعتمد قصده فارتحل من سُرَّ من رأى في شهر جمادى الآخرة، واستخلف عليها ابنَهُ جعفراً، وضم إليه محمداً المولّد. ثم نزل المعتمد بالزعفرانية.

وسار يعقوب بن الليث بجيشٍ لم يُرَ مثله، فقيل: كانوا سبعين ألفاً، وقيل: كانت خزائنه، وثِقَلُه على عشرة آلاف جمل، فدخل واسطاً في أواخر شهر جمادى الآخرة، فارتحل المعتمد من الزعفرانية إلى سيب بني كوما وأتاه مسرور البلخي والعساكر. ثم زحف يعقوب من واسط إلى دير العاقول نحو المعتمد. فجهز المعتمد أخاه الموفق إلى حرب يعقوب، ومعه موسى بن بغا ومسرور، فالتقى الجمعان في ثالث رجب بقرب دير العاقول، واقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت الهزيمة على الموفق، ثم صارت على يعقوب وولى أصحابه مدبرين.

٢ - سيف الدولة الحمداني[2]

علي بن عبدالله بن حمدان، الأمير سيف الدولة، أبو الحسن التغلبي.

ملك مدينة حلب سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة، انتزعها من أحمد بن سعيد الكلابي نائب الإخشيذ، وكان قبلها قد استولى على واسط ونواحيها، وتقلّبت به الأحوال، وملك دمشق أيضاً، وكثيراً من بلاد الشام والجزيرة، وجرت له حروب،

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/٨.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/١٤٦.

وذلك أنه توجَّه من حلب إلى حمص فلقيه جيش الإخشيذ وعليهم كافور الإخشيذي المتوفى أيضاً في هذه السنة، فكان الظَّفَر لسيف الدولة، وجاء فنازل دمشق فلم يفتحوا له، فرجع، وكان الإخشيذ قد خرج بالجيوش من مصر فالتقى هو وهو بنواحي قنسرين، فلما يظفر أحدهما بالآخر، وتقهقر سيف الدولة إلى الجزيرة، وردّ الإخشيذ إلى دمشق، ثم ردّ سيف الدولة فدخل حلب، ومات الإخشيذ بدمشق في آخر سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة، وسار كافور بالعساكر إلى مصر، فقصد سيف الدولة دمشق وملكها وأقام بها، فذكروا أنه كان يساير الشريف العقيقي فقال: ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجلٍ واحدٍ، فقال له العقيقي: هي لأقوام كثير، فقال سيف الدولة: لئن أخذتها القوانين [السلطانية] ليتبرّأنَّ أهلها منها، فأعلم العقيقي أهل دمشق بهذا القول، فكاتبوا كافوراً فجاءهم وأخرجوا سيف الدولة بعد سنة، ودخلها كافور[1].

[٣- هَفْتكين أبو منصور[2] التركي الشرابي الأمير]

هرب من بغداد خوفاً من عضد الدولة، ونزل بنواحي حمص، فسار إليه ظالم العُقَيْلي من بَعْلَبَك ليأخذه، فلم يقدر، وكاتبوا هفتكين من دمشق فقَدِمَها وغلب عليها في سنة أربعٍ وستين وثلاث مئة، وقام الدعوة العباسية، وأزال دعوة بني عُبيد، ثم تأهّب لقتالهم وتوجَّه في شعبان من السنة، فنزل على صيدا، ودافع جُنْد بني عُبَيْد، فقَتَلَ منهم مقتلةً عظيمة، وأخذ مراكب لهم في ساحل صيدا، فسار لحربه من مصر جوهر، فحصَّن هو دمشق، فنازلها جوهر المُعِزِّي بجيوشه في ذي القعدة سنة خمس وستين وثلاث مئة، وحاصرها سبعة أشهر، ثم ترحَّل لما بلغه مجيء القُرْمُطيّ من الأحساء، فسار هفتكين في طلب جوهر، فأدركه بعسقلان، فكسر جوهراً وتحصّن جوهر بعسقلان، فحاصرها هفتكين سنةً وثلاثة أشهر، ثم أمَّنه

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٤٦.
(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٠٦.

فنزل وراح، فصادف صاحبَ مصر العزيز نزاراً وقد خرج في جيوشه قاصداً دمشق، فردّ في خدته، فكانوا سبعين ألفاً، فالتقاهم هفتكين وثبت، ثم انكسر، وأسروه في أول شعبان سنة ثمانٍ وستين وثلاث مئة وحُمل إلى مصر، ثم مَنَّ عليه العزيز وأطلقه، وصار له موكب، فخافه الوزير يعقوب بن يوسف بن كلّس فقتله، دسّ عليه من سقاه السُّمَّ، وقيل بل هلك في سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة، وكان إليه المُنْتَهى في الشجاعة.

[اقتتال الأقارب على الملك سنة ثلاث وسبعين ومئتين]

[١- قتل ملك الروم]

وفيها وثب ثلاثة بنين لملك الروم على أبيهم فقتلوه وملّكوا أحدهم[(١)].

[٢- قتل المعتضد أخاه بعد توليه الحكم]

جعفر بن المعتمد أحمد بن المتوكل جعفر بن المعتصم العباسي[(٢)].

المفوَّض إلى الله ولي العهد.

عقد له أبوه، وخطب له على المنابر زماناً. ثم خلعه أبوه وولى أخاه المعتضد العهدَ خوفاً من المعتضد.

ويقال: إن المعتضد لما استُخلِف قتل المفوَّض هذا في سنة ثمانين ومئتين.

وقيل: بل مات فيها موتاً.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٢٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٢٢.

من حوادث سنة تسع وخمسين وثلاث مئة

[٣- زوجة ملك الروم تتآمر على قتله]

كان نقفور قد عتا وتجبر وقهر البلاد وعظمت هيبته، وتزوج امرأة الملك الذي قبله على كُرْهٍ منها، وكان لها ولدان، فأراد أن يخصيهما ويهديهما للبيعة، ويستريح منها لئلا يُمَلَّكا، فعلمت زوجته بذلك، فأرسلت إلى الدُّمُسْتُق ليأتي إليها في زي النساء ومعه جماعة في زي النساء، فجاؤوا وباتوا عندها ليلة الميلاد فقتلوه، وأُجلس في المُلْك ولدها الأكبر(١).

[من الحكام الأفذاذ]

١ - **محمد بن عبدالرحمن بن الحَكَم** بن هشام ابن صقر بني أمية عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك(٢).

الأمير أبو عبدالله الأموي المرْواني الأندلسيّ، صاحب الأندلس.

كان من خيار ملوك بني أُمية، ذا فضل ودين وعِلْمٍ وفصاحة وإقدام وحزم وعدْل.

بويع بالإمرة عند موت والده سنة ثمانٍ وثلاثين ومئتين، فامتدّت أيامه، وبقي في الإمرة خمساً وثلاثين سنة. وأُمُّه أمُّ ولد.

وقيل: إنه كان يتوغل في بلاد الفرنج، ويبقى في الغزوة العام والعامين.

قال بَقِيّ بن المَخْلَد المحدِّث: ما رأيت ولا علمت أحداً من الملوك، ولا سمعت أبلغ لفظاً من الأمير محمد، ولا أفصح ولا أعقل منه.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٥.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٥١.

وقال المظفر بن الجوزي: هو صاحب وقعة سليط في ملحمة مشهورة، لم يعهد قبلها مثلها بالأندلس، يقال: إنه قُتِلَ فيها ثلاث مئة ألف كافر، وهذا لم يُسمع بمثله.

قلت: وهو الذي نصر بقي بن مخلد على الذين تعصبوا عليه.

توفي إلى رحمة الله في صفر سنة ثلاث وسبعين ومئتين، وبويع من بعده ابنه المنذر بن محمد فلم يُطَوِّل.

[٢- يؤذن وهو وزير]

عبيد الله بن يحيى بن إدريس القرطبي[١]

وكان متقدماً في ضروب العلم، وكان شاعراً مُحسِناً بارعاً مع معرفته الآثار والسنن، وكان متواضعاً نبيلاً. وُلِّي الوزارة فما زاده ذلك إلا فضلاً. وكان يؤذن في مسجده وهو وزير. وكان ثقةً، أخذ الناس عنه كثيراً، وتوفي في ذي القعدة سنة ٣٥٢هـ.

[فقراء أصبحوا حكاماً]

[١- المهلبي كان فقيراً فأصبح وزيراً]

الحسن بن محمد بن عبدالله[٢] بن هارون الوزير أبو محمد المُهَلَّبي الأزْدي من ولد قبيصة بن المهلَّب بن أبي صُفْرة.

وزر لُمعزّ الدولة بن بُوَيْه، وكان كبير القدْر عالي الهمة كامل الرئاسة والعقل، محباً للفضلاء مُقْبِلاً عليهم.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٧٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٧٠.

كان في أوائل شأنه قد أصابته فاقة، حتى سافر واشتهى اللحم، فلم يقدر عليه فقال:

ألا مَوْتٌ يُباعُ فأشتريه ... فهذا العيشُ ما لا خيرَ فيهِ
ألا مَوْتٌ لذيذُ الطَّعْمِ هاني ... يخلّصني من العيش الكريهِ
إذا أبْصَرْتُ قبراً من بعيدٍ ... ودِدْتُ لو أنّني قد صرت فيهِ
ألا رَحِمَ المُهَيْمِنُ نفْسَ حُرٍّ ... تَصَدَّق بالوفاة على أخيهِ

فلما سمعه رفيقه اشترى له لحماً بدِرْهَم وطبخه وأطعمه. ثم تقلبت الأحوال ووُزِّر المُهَلّبي، وضقات الحال بذاك الرجل فقصد المهلّبي وكتب إليه:

ألا قُلْ للوزير فَدَتْه نفْسي ... مَقَالَةَ مُذْكِرٍ ما قد نَسيهِ
أتَذْكُر إذ تقول لضَنْكِ عَيْشٍ ... ألا موتٌ يُبع فأشتريهِ

فلما وقف عليها أمر له في الحال بسبعمائة درهم، ووقع في ورقته: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة:٢٦١]. ثم دعا به فخلع عليه وولاّه عملاً يرتفق به.

وللوزير المُهلّبي أخبار وشعر رائق. وتوفي في طريق واسط، وحُمل إلى بغداد.

توفي المهلّبي لثالثٍ من شعبان سنة ٣٥٢هـ عن نَيِّف وستين سنة.

[٢- أحمد بن بويه كان حطاباً فأصبح ملكاً]

أحمد بن بُوَيْه الديلمي، السلطان مُعِزّ الدولة أبو الحسين كان والده بُوَيْه يصطاد ويحترف، وكان أحمد بن بويه ربما احتطب، فآل أمره إلى الملك[1].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٣٦. سلفت ترجمته ص١٢٣.

[خادم يصبح ملكاً]

[٣- كافور الخادم الأسود الحبشي(١)]

الأستاذ أبو المِسْك الإخشيدي السلطان، اشتراه الإخشيذي من بعض رؤساء المصريين، وكان أسود بصّاصاً(٢)، فيقال إنه ابتيع بثمانية عشر ديناراً، ثم إنه تقدّم عند عند الإخشيذ صاحب مصر لعقله ورأيه وسَعْده، إلى أن كان من كبار القوّاد، وجهّزه في جيش لحرب سيف الدولة، ثم إنه لما مات أستاذه صار أتابك(٣) ولده أبي أبي القاسم أنوجور وكان صبياً، فغلب كافور على الأمور وبقي الاسمُ لأبي القاسم والدَّسْت(٤) لكافور حتى قال وكيله: خدمت كافور وراتبه كل يوم ثلاث عشر جراية، وتوفي وقد بلغت على يدي كل يوم ثلاثة عشر ألف جراية.

وأنوجور معناه بالعربي محمود. ولي مملكة مصر والشام إلا اليسير منها بعقد الراضي بالله والمدبر له كافور. ومات في سنة تسع وأربعين وثلاثمائة عن ثلاثين سنة، وأقيم مكانه أخوه [أبو] الحسن عليّ، فأخذت الروم في أيامه حلب وطَرَسُوس والمَصِّيصة وذلك الصقْع. ومات علي في أول سنة خمس وخمسين وثلاث مئة عن إحدى وثلاثين، فاستقلّ كافور بالأمر، فأشاروا عليه بإقامة الدعوة لولدٍ لعليّ المذكور، فاحتج بصِغَره، وركب في الدَّسْت بخِلَعٍ أظهر أنها جاءته من الخليفة وتقليده، وذلك في صفر سنة خمس وخمسين وثلاث مئة، وتم له الأمر.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٤٩.

(٢) بصاص: وصف من بصّ إذا برق ولمع وتلألأ.

(٣) أتابك: أطابك، ومعناه الولد الأمير، وقيل معناه أمير أب، والمراد أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المتقدمين في عصر المماليك بعد النائب الكافل. (صبح الأعشى للقلقشندي ٤/ ١٨).
وقيل: أتابك -كلمة تركية- تعني الوصي على الأمير، ومدبر المملكة.

(٤) الدَّسْت: بفتح الدال المشددة المهملة وسكون السين. لفظ فارسي له معانٍ كثيرة منها صدر المجلس. (انظر: معجم الألفاظ الفارسية المعرَّبة - السيد أدي شير، ص٦٣، طبعة مكتبة لبنان، ١٩٨٠).

وكان وزيره أبا الفضل جعفر بن الفرات، وكان راغباً في الخير وأهله. ولم يبلُغْ أحدٌ من الخُدّام ما بلغ كافور، وكان ذكياً له نظرٌ في العربية والأدب والعلم، وممن كان في خدمته أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله النجيرمي[1] النحوي صاحب الزجاج، فدخل يوماً على كافور أبو الفضل بن عياش فقال: أدام الله أيامِ سيدنا - بخفض أيام- فتبسم كافور ونظر إلى النجيرمي وقال ارتجالاً:

ومثل سيدِنا حالتْ مهابَتُه ... بين البليغ وبين القول بالحَصَرِ
فإنْ يكن خَفَضَ الأيام من دَهَشٍ ... وشدّة الخوف لا من قلة البَصَر
فقد تَفاءَلْتُ في هذا لسيدنا ... والفأل مأثورة عن سيد البَشَر[2]

فأمر له بثلاثمائة دينار.

وكان كافور يُدني الشعراء ويجيزهم، وكان يُقرأ عنده كل ليلة السِّيَر وأخبار الدولة الأموية والعباسية، وله نُدَماء. وكان عظيم الحِمْيَة يمتنع من الأسواق[3]، وعنده جوارٍ مغنيات، وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف. زاد مُلْكُه

---

(١) النجيرمي: نسبةً إلى نجيرم،محلّة بالبصرة.

(٢) وجاء على هامش الأصل:

لا غرو إنْ لَحَقَن الداعي لسيدنا ... أو غُصَّ من دهشٍ بالريق أو بهر
فتلك هيبتهُ حالت جلالتُها ... بين الأديب وبين الفتح بالحَصَر
وإنْ يكن خَفَضَ الأيام من غلطٍ ... في موضع النصب لا عن قلّة البصر
فقد تفاءلت من هذا لسيدنا ... والفأل مأثور عن سيد البشر
بأن أيّامه خفض بلا نصب ... وأن أوقاته صفو بلا كدر

أقول أنا المحقق الفقير إلى الله تعالى عمر بن عبدالسلام التدمري الطرابلسي اللبناني:
وردت هذه الأبيات في وفيات الأعيان، والنجوم الزاهرة وبغية الوعاة، وغيره، وعنها صحَّحْنا الألفاظ التي أخطأ الناسخ في كتابتها. (ورقة الأصل ٦١).

(٣) في الأصل «الأمراق»، والتصحيح عن حاشية النجوم الزاهرة ٤/ ٦ رقم ١، وفي متن النجوم «الأمراء».

على مُلْك مولاه الإخشيذ، وكان كريماً كثير الخِلَع والهِبات، خبيراً بالسياسة، فطِناً ذكياً جيد العقل داهيةً، كان يهادي المُعِزَّ صاحب المغرب ويُظْهِر مَيْلَه إليه، وكذا يُذْعن بطاعة بني العباس ويُداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء.

ولما فارق المتنبي سيفَ الدولة مغاضباً له سار إلى كافور فأقام عنده أربع سنين يأخذ جوائزه وله فيه مدائح وفارقه سنة خمسين وثلاث مئة وهجاه بقوله:

مَن علَّم الأسودَ المَخْصِيَّ مَكْرُمَةً ... أقَوْمُه[1] البيضُ أمْ آباؤُه الصِّيدُ

وذاك أنّ الفُحُولَ البِيض عاجزةٌ ... عن الجميل فكيف الخصْية السُّودُ[2]

وهرب ولم يسلك الدربَ، ووُضعت عليه العيون والخيل فلم يُدْرِكوه، وسار على البرية ودخل بغداد، ثم مضى إلى شيراز فمدح عَضُدَ الدولة.

وكانت أيام كافور سديدة جميلة، وكان يُدعى له على المنابر بالحجاز ومصر والشام والثغور وطرسوس والمصيصة، واستقل بملك مصر سنتين وأربعة أشهر.

قرأت في تاريخ إبراهيم بن إسماعيل، إمام مسجد الزبير: كان حياً في سنة بضعٍ وسبعين وخمسمائة، قال: كان كافور شديد الساعد لا يكاد واحد يمدّ قوسه، فإذا جاؤوه برامٍ دعا بقومه، فإنْ أظهر العجز ضحك وقدّمه وأثبته، وإنْ قوي على مدّه واستهان به عبس ونقصت منزلتُهُ عنده، ثم ذكر له حكايات تدلُّ على أنه مُغْرىً بالرمي، قال: وكان يداوم الجلوسَ للناس غدوة وعشية، وقيل كان يتهجد ثم يمرّغ وجهه ساجداً ويقول: اللهم لا تسلط عليّ مخلوقاً.

توفي في جمادى الأولى سنة ستٍّ وقيل سنة سبعٍ وخمسين وثلاث مئة، عاش بِضْعاً وستين سنة.

---

(١) في الأصل «اقوامه».

(٢) البيتان في الديوان ٢/ ١٤٧، ١٤٨ من قصيدة مطلعها:

عيدٌ بأيةِ حالٍ عدتَ يا عيدُ ... بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديدُ

ويقال: إنه وُجد على ضريحه منقوراً:

مـا بـالُ قـبرِكَ يـا كـافور مُنْفَـرِداً بالصّحصح المَرْت[1] بعد العسكر اللَّجَبِ
تـدوس قـبرك أفنـاءُ[2] الرّجـال وقـد كانت أُسُودُ الثَّرى تخشـاك في الكُتُـبِ

[ملوك وعلماء مسلمون من نسل آباء كفرة]

[من نسل الملوك الأكاسرة]

١ - أحمد بن بُوَيْه[3] (ت٣٥٦هـ)

السلطان مُعِزّ الدولة أبو الحسن بن فنَّاخسْرُو بن تمام بن كوهي بن شيرزيل ابن شيركوه بن شيرزيل بن شيران بن شيرفنّه بن شبستان شاه بن سَسَن فرو بن شروزيل بن سَسْناد بن بهرام جُور.

أحد ملوك بني ساسان. كذا ساق نسبه القاضي شمس الدين، وَعَدَّ ما بينه وبين بهرام ثلاثةَ عشر أباً.

[٢- الميكالي من نسل الأكاسرة الفرس]

إسماعيل بن عبدالله بن محمد[4] بن ميكال أديب أبو العباس شيخ خراسان ووجْهُها وعيْنُها، من ولد يَزْدَجِرْد بن بهرام جور ملك الفرس.

استعمل المقتدر أباه على الأهواز، فاستدعى أبا بكر بن دُرَيْد لتأديب إسماعيل.

---

(١) المَرْت: مفازة لا نبات فيها.
(٢) وقيل «آحاد» وفي الأصل «افتآ».
(٣) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٣٦.
(٤) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٩٠.

وفي ابنه يقول ابن دُرَيْد مقصورته التي يقول فيها:

إنّ ابن ميكال الأمير انْتَاشَني ... من بعد ما قد كنت كالشيء اللِّقا

ومَدّ ضَبعيَّ أبو العبّاس من ... بعد انقباض الذّرع والبَاع الوزى[1]

نفسي الفِدا لأميريَّ ومَنْ ... تحت السّما لأميريّ الفِدا

قال الحاكم: سمعت محمد بن الحسين الوَضّاحي، سمعت أبا العباس يذكر صلة أبيه لابن دُريد لما عمل هذه القصيدة، قال الوضاحي: فقلت: ما وصل إليه من خاصّتك؟ قال: لم تصل يدي إذ ذاك إلا إلى ثلاثمائة دينار، وضعتها بين يديه.

سمع أبو العباس [الميكالي] من: عَبْدان الأهوازي كتاباً خَصَّه به، فسمعت أبا عليّ الحافظ يقول: استفدت منه أكثر من مائة حديث. وسمع أيضاً من السراج، وابن خُزَيْمة، وعلي بن سعيد العسكري ونحوهم. وأملى مدةً.

روى عنه: أبو علي الحافظ، وهو أسْنَد منه، وأبو الحسين الحجاجي، وأبو عبدالله الحاكم وجماعة.

وقد عُرضت عليه ولايات جليلة فامتنع.

أخبرنا محمد بن عبدالسلام، وأحمد بن هبة الله، عن زينب الشَّعْرِيَّة، أن فاطمة بنت علي بن مظفّر أخبرتها قالت: أخبرنا عبدالغافر بن محمد الفارسي، أخبرنا أبو العباس إسماعيل بن عبدلله، أخبرنا عَبْدان بن أحمد الجواليقي سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين، حدثنا داهر بن نوح، حدثن عبدالحميد بن الحسن الكوفي، حدثنا محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «العائد في هِبته كالعائد في قَيئه»[2].

توفي أبو العباس في صفر سنة ٣٦٢هـ وله اثنان وتسعون سنة.

---

(١) الوزى: القصير.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٢/ ٢١٨ الحديث (١٠٥٦).

[ابن القوطية]

محمد بن عمر بن عبدالعزيز[1] أبو بكر بن القوطية القرطبي اللغوي.

سمع: سعيد بن جابر، وأسلم بن عبدالعزيز، وابن لُبابة، ومحمد بن عبدالله الزبيدي، وطاهر بن عبدالعزيز، وجماعة.

وكان علاّمة زمانه في اللغة والعربية، حافظاً للحديث والفقه، إخبارياً، لا يُلحق شَأْوُهُ ولا يُشقُّ غُبارُهُ. ولم يكن بالماهر في الفقه والحديث.

صنّف كتاب «تصاريف الأفعال»، فتح الباب لمن بعد، وتبعه ابن القَطَّاع. وله كتاب حافل في «المقصور والممدود»، وكان عابداً ناسكً خيِّراً، دقيق الشعر، إلا أنه تزَهَّد عنه.

وكان أبو علي يبالغ في تعظيمه.

توفي في ربيع الأول سنة ٣٦٧هـ.

[القوطية من بنات الملوك]

والقوطية: هي جدَّة أبي جدّه، وهي سارة بنت المنذر بن غيطشة، من بنات الملوك القوطية الذي كانوا بإقليم الأندلس، هم من ذرية قوط بن حام بن نوح أبي السودان والهند والسِّنْد.

وفَدَت سارةُ هذه على هشام بن عبدالملك إلى الشام متظلِّمةً من عمها أرْطباس، فتزوَّجها بالشام عيسى بن مُزاحِم، مولى عمر بن عبدالعزيز، رحمة الله عليه، ثم سافر معها إلى الأندلس، فولدت له إبراهيم والد عبدالعزيز. كذا نقل القاضي شمس الدين ابن خلّكان، والله أعلم.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٨٣.

وقد صنّف تاريخاً في أخبار أهل الأندلس، وكان يُمْليه عن ظهر قلبه في كثير من الأوقات. وقد طال عمره، أخذ الناس عنه طبقةً بعد طبقة.

[من أخبار المجاهدين]

[لبنة من غبار الجهاد]

علي بن عبدالله بن حمدان الأمير سيف الدولة المتوفى سنة ٣٥٦هـ.

يقال: إنه كان قد جُمع من نَفْض الغبار الذي يتجمع عليه أيام غزواته ما جاء من لبنة بقَدْر الكَفّ، أوصى أن يوضع خَدُّه عليها في لحده ففُعِل ذلك به.

وكان سيف الدولة شيعياً متظاهراً مِفضالاً على الشيعة والعلويين[١].

[حاكم انتهازي خائن]

فنك الخادم[٢] مولى الأستاذ كافور ملك مصر

خرج من مصر بعد موت مولاه في هذه السنة -يعني سنة ٣٥٧هـ- إلى الرملة، فبعثه الحسن بن عبدالله بن طُغْج أمير الرملة أميراً على دمشق فدخلها وأقام بها، فلما اتصل به أن الروم -لعنهم الله- أخذوا حمص يوم عيد الأضحى نادى في البلد النفير إلى ثنية العُقاب[٣]، فخرج الجيش والمُطَوَّعة وغيرهم وانتشروا إلى دومة[٤] وحَرَسْتا[٥]، وانتهز هو الفرصة، في خُلُوِّ البلد فرحل بثِقْله نحو عَقَبة

---

(١) الإسلام ٢٦/ ١٤٧، ١٤٨.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٦٦.

(٣) ثنيَّة العُقاب: بالضم، وهي ثنيّة مشرفة على غوطة دمشق، يطؤها القاصد من دمشق إلى حمص (معجم البلدان ٢/ ٨٥).

(٤) دومة: بالضم: من قرى غوطة دمشق، غير دومة الجندل. (معجم البلدان ٢/ ٤٨٦).

(٥) حَرَسْتا: بالتحريك، وسكون السين، وتاء فوقها نقطتان: قرية كبيرة عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص (معجم البلدان ٢/ ٢٤١).

دُمَّر[1]، وسار بعسكره وخواصه، وطلب نحو الساحل، فطمع الناس فيه ونهبوا بعض أثقاله وقتلوا من تأخّر من رجاله، وذلك في آخر السنة.

[ضعف الحكم وعدم ضبط الأمور]

[حوادث] سنة أربع وستين وثلاثمائة[2]

[استفحال أمر العيارين في بغداد]

في المحرم أوقع العيّارون حريقاً بالخشّابين مبدؤه من باب الشعير، فاحترق أكثر هذا السوق، وهلك شيء كثير، واستفحل أمرُ العيّارين ببغداد حتى ركبوا الخيل وتلقّبوا بالقوّاد، وغلبوا على الأمور وأخذوا الخفارة من الأسواق والدروب، وكان فيهم أسود الزبد كان يأوي قنطرة الزَّبَد ويشحذ وهو عريان، فلما كثُر الفساد رأى هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ السيف، فطلب الأسود سيفاً ونهب وأغار، وحفَّ به طائفة وتقوّى، وأخذ الأموال، واشترى جارية بألف دينار، ثم راودها فتمنّعت، فقال: ما تكرهين مني قالت: أكرهك كلّك، قال: ما تحبّين؟ قالت: تبيعني. قال: أو خيراً من ذلك. فحملها إلى القاضي وأعتقها، ووهبها ألف دينار، فتعجب الناس من سماحته، ثم خرج إلى الشام فهلك هناك.

وقُطعت خطبة الطائع لله وغيرها من يوم العشرين من جمادى الأولى، إلى أن أعيدت في عاشر رجب، فلم يُخطب في هذه الجمع في البلاد، وذلك لأجل شغب وقع بينه وبين عضُد الدولة.

وكان عضد الدولة قد قدم العراق فأعجبه مُلْكُها، فعمل عليها، واستمال الجند، فشغبوا على عز الدولة، فأغلق بابه، وكتب عضد الدولة عن الطائع باستقرار

---

(١) عقبة دُمَّر: مشرفة على غوطة دمشق في طريق بعلبك. (معجم البلدان ٢/ ٤٦٣).

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٥٧.

الأمر لعضد الدولة وخلع عضد الدولة على محمد بن بقية وزير عز الدولة، ثم اضطربت الأمور على عَضُد الدولة، ولم يبقَ بيده غير بغداد، فنفّذ إلى والده ركن الدولة يُعْلِمُهُ أنه قد خاطر بنفسه وجُنْده، وقد هذّب مملكة العراق واستعاد الطائع إلى داره، وأن عز الدولة عاصٍ لا يقيم دولة، فلما بلغه ذلك غَضِب وقال للرسول: قل له: خرجت في نُصْرة أحمد ابن أخي أو في الطمع في مملكته؟ فأفرج عضُد الدولة عن عز الدولة بختيار، ثم خرج إلى فارس.

وفيها عُدمت الأقوات حتى أُبيع كرّ الدقيق بمائة وسبعين ديناراً، والتمر ثلاثة أرطال بدرهم.

ولم يخرج وفد من بغداد بل خرجت طائفة من الخراسانيين مخاطرة، فلحقتهم شدة.

[استفحال شأن قسام الحارثي]

حُمَيْدان بن خراش[1] العُقَيْلي، ولي إمرة دمشق في هذا العام -يعني ٣٦٨هـ- للعزيز العُبَيْدي، وكان قسَّام [الحارثي، كان ينقل التراب على الحمير، وتنقلت به الأحوال وصار له أعوان حتى غلب على دمشق] يأخذ الأمر بالبلد، فوقع بينه وبينه، ثم طرده قسَّام والعَيَّارون، ونُهِبَت داره، وهرب واستفحل شأن قسَّام.

[تنازل عن الحكم لولده]

الفضل أبو القاسم[2] أمير المؤمنين المطيع لله بن المقتدر بن جعفر بن المعتضد العباسي الهاشمي.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٩٧.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٢٨.

ولي الخلافة بعد المُسْتكْفي، وأُمُّه أم ولد اسمها مَشْغَلَة، أدركت خلافته، وبويع في سنة أربعٍ وثلاثين وثلاث مئة، ومولده في أول سنة إحدى وثلاثمائة.

قال ابن شاهين: وخلع نفسه غير مُكْرَه فيما صحّ عندي في ذي القعدة سنة ثلاثٍ وستين، ونزل عن الأمر لولده أبي بكر عبدالكريم، ولقّبوه «الطائع لله» وسِنُّ أبي بكر يومئذ ثمانٍ وأربعون سنة. ثم إن الطائع خرج إلى واسط ومعه أبوه فمات في المحرَّم سنة أربعٍ وستين وثلاث مئة.

أنبأنا المسلم بن محمد، أخبرنا أبو النعمان الكِنْدي، أخبرنا أبو منصور الشيباني، أخبرنا أبو بكر الخطيب، حدثني محمد بن يوسف القطان، سمعت أبا الفضل التميمي، سمعت المطيع لله، سمعت شيخي ابن منيع، سمعت أحمد بن حنبل يقول: إذا مات أصدقاء الرجل ذُلّ.

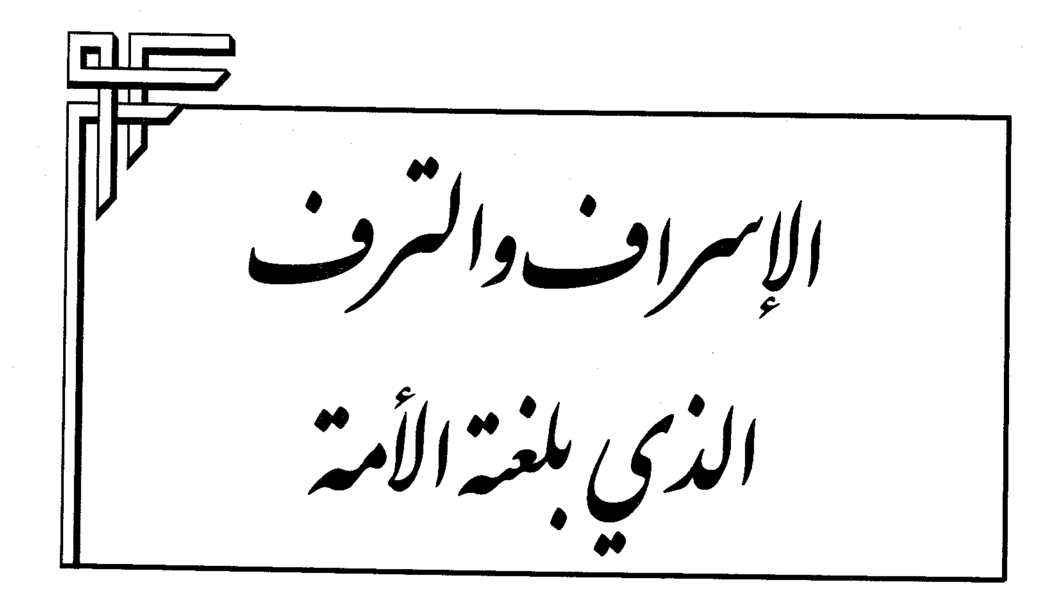
[حوادث] سنة خمس وستين وثلاثمائة[1]

تقسيم ركن الدولة الملك بين أولاده

فيها كتب ركن الدولة أبو علي بن بُوَيْه إلى ولده عَضُد الدولة أبي شجاع أنه قد كَبُرت سنُّه وأنه يؤثر مشاهدته، فاجتمعا، فقسم ركن الدولة الممالك بين أولاده فجعل لعضد الدولة فارس وكرمان وأرَّجان ولمؤيَّد الدولة الريّ وأصبهان، ولفخر الدولة همذان والدينور، وجعل ولده أبا العباس في كنف عضُد الدولة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٦١.



الإسراف والترف الذي بلغته الأمة



[١- مسجد من فضة]

قد أرسل درهم بن الحسين المطوعي إلى المعتز بالله هدية عظيمة، من جملتها مسجد فضة يسع خمسة عشر نَفساً يصلون فيه. وكان يُحمل على عدة جِمال، ويُفكَّك ثم يُركَّب[١].

[٢- خراج خراسان]

ورجع يعقوب بن الليث الصفار إلى سِجِسْتان، وخلع المعتز، وبويع المعتمد على الله -وذلك سنة ٢٥٦هـ- ثم رجع يعقوب إلى فارس، فجبى خراجها ثلاثين ألف ألف درهم. واستعمل عليها محمد بن واصل.

وكان يحمل إلى الخليفة في العام نحو خمسة آلاف ألف درهم[٢].

[٣- وظيفة الوزير في اليوم]

إسماعيل بن بلبل[٣]

الوزير أبو الصقر الشيباني. كاتب بليغ، شاعر مُحسن جواد ممدوح. وزر للمعتمد سنة خمس وستين ومئتين، بعد الحسن بن مَخْلَد، ثم عُزل بعد شهر؛ ثم وزِر ثانياً، ثم عُزل. ثم وزر ثالثاً بعد القبض على صاعد بن مَخْلَد الوزير سنة اثنتين وسبعين ومئتين.

وكان واسع النفس. وظيفته في كل يوم سبعون جَدْياً، ومائة حَمَل، ومائة رطل حَلْواء. ولم يزل على وزارته إلى أن ولي العهد أحمد بن الموفَّق، فقبض عليه وقيّده، وعذّبه حتى هلك في صَفَر سنة ثمانٍ وسبعين ومئتين.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٠٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٠٥.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٠٤.

[٤- ما أُنفق في عرس بوران][1]

ابنة الوزير الحسن بن سهل التي تزوج المأمون بها، ودخل بها في سنة عشرٍ ومائتين. فاحتفل أبوها لعرْسِها وجَهازها احتفالاً يُضرب به المثل. ونثر على الأمراء الجواهر والذهب وبنادق من المِسْك التي في باطنها رِقاعاً بأسماء ضِياع، وأسماء جواهر، وخَيْل. وقام بمؤونة العسكر كله أيام العُرْس. فأنفق عليهم وعلى العروس ونحو ذلك في مدة عشرين يوماً خمسين ألف ألف درهم.

ولا أعلم جرى في الإسلام عرسٌ مثله.

توفيت في ربيع الأول سنة إحدى وسبعين ومئتين، عن ثمانين سنة. ودفنت في قُبَّتها. وما زالت وافرة الحُرْمة، كاملة الحشمة إلى أن ماتت.

[٥- الإسراف في غسل وتكفين سيف الدولة الحمداني[2]]

مات [علي بن عبدالله بن حمدان الأمير سيف الدولة الحمداني] على أربع ساعات من يوم الجمعة لخمسٍ بقين من صفر سنة ٣٥٦هـ الموافق ثامن شباط [سنة ٩٦٧م]، وتولى أمره القاضي أبو الهيثم بن أبي حُصَين، وغسّله عبدالرحمن بن سهل المالكي قاضي الكوفة، وغسّله بالسّدر ثم الصَّنْدل، ثم بالذّريرة، ثم بالعنبر والكافور، ثم بماء ورد، ثم بالماء، ونُشِّف بثوب دبيقي بنيِّف وخمسين ديناراً، أخذه الغاسل وجميع ما عليه وتحته، وصبّره بصبر ومُرّ ومنٍّ من كافور، وجعل على وجهه وبَخْره مائة مثقال غالية، وكُفِّن في سبعة أثواب تساوي ألف دينار، وجُعل في التابوت مُضَرَّبَة ومخدَّتان، وصلى عليه أبو عبدالله العلوي الكوفي الأقساسي فكبّر خمساً. وعاش أربعاً وخمسين سنة شمسية.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٢١.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٤٨.

وخرج أبو فراس بن حمدان في الليل إلى حمص، ولما بلغ عزَّ الدولة خبرُ موته جزع عليه وقال: أنا أعلم أن أيامي لا تطول بعده، وكذا كان.

وذكر النجار أن سيف الدولة حضر عيد النحر، ففرّق على أرباب دولته ضحايا، وكانوا ألوفاً، فبعث إليهم ما يُضَحُّون به، فأكثر مَن ماله مائة رأس وأقلّهم شاة، قال: ولزمه في فداء الأسارى سنة خمسٍ وخمسين وثلاثمائة ستمائة ألف دينار، وفي ذلك يقول البَبَّغاء:

كانوا عبيد نَداكَ ثم شريتهم ... فَغَدوا عبيد نعمة وشراء

[٦- ما تركه سبكتكين الأمير]

سُبُكْتِكين الأمير[1]، حاجب مُعِزّ الدولة بن بُوَيْه. خلع عليه الطائع وطوَّقه وسَوَّرَه نصر الدولة، فلم تَطُلْ أيامه.

قال أبو الفرج بن الجوزي: سقط من الفَرَس فانْكَسَرت ضِلْعُه، فاستدعى ابن الصَّلْت المُجَبِّر فردَّه، وبقي لا يمكنه الانحناء للركوع، وكان يقول للمجبر. إذا ذكرتُ عافيتي على يدك فرحتُ بك ولا أقدر على مكافأتك، وإذا ذكرتُ حصول رِجلك فوق ظهري اشتدّ غيظي منك.

تُوُفي في أواخر المحرَّم سنة ٣٦٤هـ، وكانت مدة إمارته شهرين ونصف، وخلّف ألف ألف دينار وعشرة آلاف ألف دِرْهَم، وصندوقين فيهما جواهر، وستين صندوقاً قماش، وفضيات وتُحَف، ومائة وثلاثين سَرْجاً مُذَهَّبة، منها خمسون في كل واحد ألف دينار، حلية، ستمائة سَرْج فضة، وأربعة عشر ألف ثوب من أنواع القماش، وثلاثمائة عِدْل فيها فَرْش وبُسُط، وثلاثة آلاف رأس من الدواب، وألف جمل، وثلاثمائة مملوك دارية، وأربعة وأربعين خادماً. وكان له دار هي دار المملكة اليوم، يعني صارت دار السلطنة. وقد غَرِمَ عليها أموالاً لا تُحْصَى.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٢٣.

ومما رُوِي عن المحسن التنوخي، عن أبيه قال: بلغت النفقة على عمل البستان، يعني الذي للدار، وسَوْقِ الماء إليه خمسة آلاف ألف درهم. قال: ولعله قد أنفق على أبنية الدار مثل ذلك فيما أظن.

[الغلو في الصالحين والعلماء]

محمد بن سحنون الفقيه عبدالسلام بن سعيد التنوخي القيرواني

المالكي، الحافظ أبو عبدالله.

سمع: أباه، وأبا مصعب الزهري، وجماعة.

وكان خبيراً بمذهب مالك، عالماً بالآثار.

وقال يحيى بن عمر: كان ابن سَحْنون من أكبر الناس حجة وأتقنهم لها. وكان يناظر أباه، وما شبهّه إلا بالسيف.

قيل لعيسى بن مِسكين: مَن خير من رأيت في العلم؟

قال: محمد بن سحنون.

وقال غيره: ألّف كتابه المشهور، جمع فيه فنون العلم والفقه، وكتاب «السِّيَر» وهو عشرون كتاباً، وكتاب «التاريخ» وهو ستة أجزاء، وكتاب «الرد على الشافعي وأهل العراق»، وكتاب «الزُّهْد»، وكتاب «الإمامة»، وتصانيفه كثيرة.

[الغلو في محمد بن سحنون وضرب الأخبية على قبره]

ولما مات ضُربت الأخبية على قبره وأقام الناس فيها شهوراً حتى قامت الأسواق حول قبره. ورثاه غير واحدٍ من الشعراء. وكانت وفاته سنة خمسٍ وستين ومئتين[1] بالقيروان. مات كهلاً رحمه الله.

---

(١) وفي ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض: أنه توفي سنة ست وخمسين ومئتين بعد موت أبيه سحنون عبدالسلام بن سعيد بست عشرة سنة.

[كيف يخطط أعداء الإسلام لإضلال العباد]

[ظهور القرامطة بسواد الكوفة]

حمدان قرمط ومنهجه في الإضلال يدعوهم لعبادة الله بمنهج خطأ ثم يضلهم ضلالاً عظيماً.

وفي سنة ثمان وسبعين ومئتين ظهرت القرامطة[1] بسواد الكوفة؛ وقد اختلفوا فيهم على أقوال: أحدها: إنه قدِم رجلٌ من ناحية خُوزِستان إلى الكوفة، فنزل النهرين وأظهر الزُّهْد والتقشف، يعمل الخوص ويصوم. وإذا جلس إليه إنسان وَعَظه وزهَّده في الدنيا، وأعلمه أن الصلوات المفترَضَة في اليوم والليل خمسون صلاة. حتى خُشِي ذلك منه. ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت، فكانوا يجلسون إليه. ثم نظر نخلاً، فكان يأخذ من بقّالٍ كل ليلةٍ رطل تمرٍ ثم يُفْطِر عليه، ويبيعه النَّوَى.

فأتاه أصحاب النخل فأهانوه، وقالوا: ما كفاك أكلُ تمر النخل حتى تبيع النوى؟ فقال البقّال: ويْحَكُم ظلمتموه، فإنه لم يذُقْ تمركم، وإنما يشتري مني التمر فيُفْطِر عليه، ويبيعني النوَى.

فندِموا على ضَرْبه وتحللوه، وازداد نُبْلاً عند أهل القرية. وتبِعه جماعة، فكان يأخذ من كل رجلٍ ديناراً، واتخذ منهم اثني عشر نقيباً. وفرض عليهم كل يومٍ خمسين صلاةً، وسوى نوافل اشتغلن بها عن زراعاتهم، فخرِبت الضياع. وكانت للهَيْصم ضِياع هناك فقصّروا. فبلغه شأنه، فطلبه وسأله عن أمره، فأخبره ودعاه إلى مذهبه. فحبسه في بيتٍ وحلف لَيَقْتُلَنّه. فسمِعَتْه جارية من جواريه، فرَقَّت له، وأخذت المفتاح وفتحت عليه. ثم قفلت الباب، وأعادت المفتاح إلى مكانه، فانتبه الهيصم ففتح الباب فلم يجده. وقال الناس: رُفع إلى السماء.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٣٢.

ثم ظهر في مكانٍ آخر، فسألوه عن قصته فقال: مَن تعرَّض لي بسوء هلك. ثم انسحب إلى الشام، فلم يُعرف له خبر. وصحِبَه رجلٌ يقال له كَرْمِيتَة، ثم خُفِّف، فقيل قَرْمَط.

وفي قولٍ: كان هذا الرجل قد لقي الخبيث ملك الخوارج الزَّنْج، فقال له: ورائي مائة ألف سيف، فوافِقْني على مذهبي حتى أصير إليك بمن معي. وتناظَرا فاختلفا، ولم يتَّفِقا، فافترقا.

القول الثاني: إن أول من أظهر مذهبهم رجلٌ يقال له محمد الوراق يُعرف بالمُقَرْمِط الكوفي. شرَّع لهم شرائع وتراتيب خالف بها دين الإسلام.

والثالث، إنّ بعض دُعاتهم اكترى دوابَّ من رجلٍ يقال له قَرْمط بن الأشعث، فدعاه فأجابه.

والقول الأول أشهر.

[الزنادقة والصوفية والمنجمون والقصاص، وتستر الذين يريدون هدم الإسلام وتدمير المسلمين بدعوات لها رواج عند المسلمين، وضلال الصوفية]

[١- طاغية الزنج]

عليّ بن محمد بن عبدالرحمن[١]

العبْديّ الخبيث لعنه الله.

رجل من عبد القيس افترى وزعم أنه من ولد زيد بن عليّ، فتبعه أناس كثير، وكان خارجياً على رأي الحَرورية، يقول: لا حُكم إلا لله. والأظهر أنه كما قيل دَهْرياً زِنْدِيقاً يتستر بمذهب الخوارج.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/١٣٨.

وظهر بالبصرة وتوثّب عليها، وهو طاغية الزنج الذين أخربوا البصرة واستباحوها قتْلاً ونهْباً وسَبْياً، وامتدت أيامه واستفحل شرّه، وخافته الخلفاء إلى أن هلك.

ونقل غير واحدٍ أن صاحب الزّنْج المنعوت بالخبيث رجل من أهل ورزنين.

مات إلى لعنة الله سنة سبعين ومئتين.

وكان بلاء على الأمة، قد سقنا أخباره ومعاناته في الحوادث. وكانت دولته خمس عشرة سنة. وافترى نَسَباً إلى عليّ رضي الله عنه .

قال نِفْطَوَيْه: كان ربما كتب العَوْذ. وكان قبل ذلك بواسط، فحبسه محمد بن أبي عَوْن، ثم أطلقه. ولم يلبث أن خرج واستغوى الزَّنْج الذين يكسحون ويَزْبِلون[1]، وقوي أمره.

٢- محمد بن إبراهيم[2] [صوفي حلولي زنديق]

أبو حمزة البغدادي الصوفي الزاهد.

جالَسَ بِشْر بن الحارث، وأحمد بن حنبل.

وصحِبَ سرِيّ السَّقَطيّ، وغيره.

وكان عارفاً بالقرآن، كثير الغزو بالثَّغْر.

حكى عنه: خير النّساج، ومحمد بن عليّ الكتّانيّ، وغيرهما.

---

(١) في الأصل: يلبسون السهار، والتصحيح من سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٣٠. والكسح: الكنس. ويزبلون، أي: يصلحون الأرض بالزبل.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٥٥.

من كلامه: علامة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الغِنى، ويُذَلّ بعد العزّ، ويُخفى بعد الشُّهْرة، وعلامة الصوفي الكاذب أن يستغني بعد الفقر، ويُعَزّ بعد الذّل، ويشتهر بعد الخفاء.

وقال إبراهيم بن علي المؤيدي: سمعت أبا حمزة يقول: من المُحال أن نحبّه ثم لا نذكره، ومن المُحال أنْ نذكره ثم لا يوجد له ذِكْر، ومن المُحال أن يوجد له ذِكْر ثم نشتغل بغيره.

قال أبو نُعَيْم في «الحِلْية»: حكى لي عبدالواحد بن أبي بكر: حدَّثني محمد بن عبدالعزيز: سمعتُ أبا عبدالله الرمليّ يقول: تكلَّم أبو حمزة في جامع طَرَسوس فقبلوه. فبينما هو يتكلم ذات يوم إذ صاح غرابٌ على سطح الجامع، فزعق أبو حمزة: لَبّيك لَبّيك. فنسبوه إلى الزندقة وقالوا: حُلُوليّ زِنْديق. فشهدوا عليه، وأُخرج وبيع فَرَسُهُ ونُودي عليه: هذا فرس الزِّنْديق.

وقال أبو نصر السراج صاحب اللُّمَع: بلغني عن أبي حمزة أنه دخل على الحارث المحاسبيّ، فصاحت الشاة: ماع. فشهق أبو حمزة شهقة وقال: لبيك لبيك يا سيدي.

فغضب الحارث -رحمه الله- وعمدَ إلى السكين، وقال: إنْ لم تَتُبْ ذبحتك.

[ضلال الصوفية في عدم الأخذ بالأسباب]

[وقع في بئر فأبى أن يستغيث توكلاً على الله]

وقال إبراهيم: حدثنا أبو نُعَيْم: حدثنا أحمد بن محمد بن مقسم: حدثني أبو بدر الخيّاط: سمعتُ أبا حمزة قال: بينما أنا أسير في سفرة على التوكل والنوم في عيني إذ وقعتُ في بئرٍ، فلم أقدر على الخروج لعُمْقها. فبينما أنا جالس إذ وقف على رأسها رجلان، فقال أحدهما لصاحبه: نجوز ونترك هذه في طريق السّابلة؟

قال: فما نصنع؟

قال: نُطْبِقها.

فبَدَرَتْ نفسي أن أقول: أنا فيها، فنُوديت: تتوكل علينا، وتشكو بلاءنا إلى سِوانا؟

فسكتُّ، ومضيا. ثم رجعا ومعهما شيء جعلاه على رأسها غطّوها به فقالت لي نفسي: أمِنْت طمها ولكن حصلت مسجوناً فيها.

فمكثت يوم وليلتي، فلما كان مِن الغد ناداني شيء يهتف بي ولا أراه: تمسك بي شديداً. فمددتُ يدي، فوقعت على شيءٍ خشن، فتمسكت به، فعَلاها وطرحني. فتأمَّلتُ فإذا هو سَبُع. فلما رأيته لحِق من نفسي من ذلك ما يلحق مِن مثله. فهتف بي هاتف: يا أبا حمزة استنقذناك من البلاء بالبلاء، وكَفَيْناك ما تخاف.

قيل: إن أبا حمزة تكلَّم يوماً على كرسيِّه ببغداد، وكان يذكّر الناس فتغيَّر عليه حاله وسقط عن كُرْسِيّه، ومات في الجمعة الثانية.

نقل أبو بكر الخطيب وفاته سنة تسعٍ وستين ومائتين.

وقال أبو عبدالرحمن السُّلَميّ: توفي سنة تسعٍ وثمانين ومائتين.

قلت: تصفحّت ذي بذي. والصواب ستين لا ثمانين[1].

[٣- منع المنجمين والقُصّاص]

وفيها -يعني سنة تسع وسبعين ومئتين- أمر المعتضد أن لا يقعد في الطريق مُنَجِّم ولا قَصَّاص، واستحلف الوراقين لا يبيعون كتب الفلاسفة والجدل ونحو ذلك[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٦٨.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٣٧، ٢٣٨.

[٤ - ابن العميد متفلسف متهم برأي الأوائل]

محمد بن الحسين بن محمد[١] أبو الفضل بن العميد الكاتب وزير الملك ركن الدولة الحسن بن بُوَيْه الدَّيْلميّ

كان آية في الترسُّل والإنشاء، وكان متفلسفاً مُتَّهماً برأي الأوائل، حتى كان يسمَّى الجاحظ الثاني، وكان يقال: بُدِئت الكتابة بعبدالحميد وخُتمت بابن العميد

وقد مدحه المتنبي وغيره وأعطى المتنبي ثلاثة آلاف دينار.

[عالم بالكلام جاهل بالشرع]

وقيل كان مع فنونه لا يدري الشَّرْع، فإذا تكلم أحد بحضرته في أمر الدين شقّ عليه وخنس، ثم قطع على المتكلم فيه.

وكان قد ألّف كتاباً سماه «الخَلْق والخُلُق» فلم يُبَيّضه، ولم يكن الكتاب بذاك، ولكن جَعْس الرؤساء خُبيص وصُنان الأغنياء نَدّ. وتوفي بالري سنة ستين وثلاثة مئة.

وكان الصاحب بن عبّاد يلزمه ويصحبه، فلذلك قيل له: الصاحب، وأقام في الوزارة ابنٌ بعده سنه ستين وهو الوزير أبو الفتح ذو الكفايتين.

[حوادث]

سنة تسع وستين وثلاثمائة

في صفر قبض عَضُدُ الدولة [على] قاضي القضاة أبي محمد بن معروف، وأنفذه إلى القلعة بفارس، وقلَّد أبا سعد بِشْر بن الحسين القضاء[٢].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢١٥.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٧٣.

وفي شعبان ورد رسول العزيز صاحب مصر إلى عَضُد الدولة بكتاب، وما زال يبعث إليه برسالة بعد رسالة، فأجابه بما مضمونه صِدْق الطَّوِيَّة وحُسْن النية.

[٥- تأليه الحكام]

وسأل عَضُدُ الدولة الطائعَ أن يزيد في لقبه «تاج الملّة» ويجدّد الخُلَعَ عليه ويلْبِسه التاج، فأجابه، وجلس الطائع على السرير وحوله مائة بالسيوف والزينة، وبين يديه مُصْحَف عثمان، وعلى كتفه البُرْدَة، وبيده القضيب، وهو متقلّد سيف النبي ﷺ ، وضُرِبت ستارة بعثها عَضُدُ الدولة، وسأل أنْ تكون حجاباً للطائع، حتى لا تقع عليه عين أحدٍ من الجُنْد قبله، ودخل الأتراك والدَّيْلَم، وليس مع أحد منهم حديد، ووقف الأشراف وأصحاب المراتب من الجانبين، ثم أذِن لعضُد الدولة فدخل، ثم رُفعت الستارة، وقبّل عضُدُ الدولة الأرض، فارتاع زياد القائد، وقال بالفارسية: ما هذا أيها الملك، أهذا الله[١] عز وجل؟ فالتفت إلى عبدالعزيز بن يوسف وقال له: فَهِّمْه وقل له: هذا خليفة الله في الأرض، ثم [استمر][٢] يمشي ويقبّل الأرض سبع[٣] مرات، فالتفت الطائع إلى خالص الخادم وقال: استَدْنِه، فصعد عَضُدُ الدولة، فقبّل الأرض دفعتين، فقال له: أُدْن إليّ أُدْن إليّ، فدنا[٤] وقبّل رِجْلَه، وثنى الطائع بِرِجْلِهِ عليه[٥]، وأمره، فجلس على كرسي، بعد أن كرر عليه: اجْلِس، وهو يستعفي فقال: أقسمتُ لتَجْلِسن، فقبَّل الكرسيّ وجلس، وقال له: ما كان أشْوَقُنا إليك وأتْوَقُنا إلى مفاوضتك، فقال: عُذْري معلوم، وقال: نِيَّتُك موثوقٌ بها، وعقيدتك مسكونٌ إليها، فأومى برأسه، ثم قال له الطائع: قد رأيت أن أفوّض

---

(١) في الأصل «لله» وفي بعض النسخ «أهذا هو الله».
(٢) سقطت من الأصل، والإضافة عن المنتظم ٧/ ٩٩ وتاريخ الخلفاء ٤٠٨.
(٣) في المنتظم «تسع».
(٤) في الأصل «فدنى».
(٥) في تاريخ الخلفاء «وثنى الطائع يمينه عليه».

إليك ما وكّل الله إليَّ من أمور الرعيّة في شرق الأرض وغربها، وتدبيرها في جميع جهاتها، سوى خاصّتي، وأسبابي، فتَوَلَّ ذلك مستخيراً بالله.

قال: يعينني الله على طاعة مولانا وخِدْمته. وأريد وُجُوهَ القواد أن يسمعوا لفظ أمير المؤمنين. فقال الطائع: هاتوا الحسين بن موسى، ومحمد بن عمرو بن معروف، وابن أمّ شيبان، والزينبي، فقدموا، فأعاد الطائع القول بالتفويض، ثم التفت إلى طريف الخادم فقال: يا طريف تُفاض عليه الخُلَع ويُتَوَّج، فنهض إلى الرّواق وأُلْبِس الخُلَع، وخرج قادماً ليقبّل الأرض، فلم يُطِقْ لكثرة ما عليه، فقال الطائع: حسْبُك، وأمره بالجلوس، ثم استدعى الطائع تقديم ألويته، فقدّم لواءين، واستخار الله، وصلَّى على رسول الله ﷺ، وعقدهما، ثم قال: يقرأ كتابه، فَقُرِئ، فقال له الطائع: خارَ الله لك ولنا وللمسلمين، آمُرُكَ بما أمرك الله به، وأنهاك عما نهاك الله عنه، وأبرأ إلى الله مما سوى ذلك، انْهَض على اسم الله، ثم أخذ الطائع سيفاً كان بين المخدَّتَيْن فقلَّده به مضافاً إلى السيف الذي قلّده مع الخلْعة، وخرج من باب الخاصة، وسار في البلد، ثم بعث إليه الطائع هدية فيها غلالة قصب، وصينية ذهب خرداذي بلَّوْر فيه شراب، وعلى فم الخرداذي خرقة حرير مختومة وكأس بلّور، وأشياء من هذا الفن، فجاء من الغد أبو نصر الخازن ومعه من الأموال نحو ما ذكر في دخوله الأول في السنة الماضية.

[٦ - محمد بن هاني[١] متهم بدين الفلاسفة]

أبو القاسم وأبو الحسن الأزدي الأندلسي، قيل: إنه من ذرية المهلّب بن أبي صُفْرَة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٠٠.

كان أبوه شاعراً أديباً، وأما هو فحامل لواء الشعر بالأندلس، وُلِد بإشبيلية، واشتغل بها، وكان حافظاً لأشعار العرب وأخبارها، اتصل بصاحب إشبيلية وحظي عنده، فمن شعره:

ولمـــا التَقَـــتْ ألْحَاظُنـــا ووُشَـــاتُنا وأعلن شـقّ الـوشي مـا الـوشْيُ كـاتمُ

تـــنفَّس إنـــسيّ مـــن الخِـــدْر ناشـــج فأُسْـعِدَ وَحْـشيٌّ مـن السَّـدر بـاغمُ

وقالــت قطــاً ســارٍ ســمعتُ حَفيفــه فقلــتُ: قلــوب العشــاقين الحــوائمُ

عَشِـــيّةَ لا آوي إلى غـــير ســـاجع ببَيْنــك حتــى كــلُّ شيءٍ حَمــائمُ

وكان مُنْهمِكاً في اللذات والمُحرَّمات، مُتَّهماً بدين الفلاسفة، ولقد هَمُّوا بقتْله، فأشار عليه مخدومه بالاختفاء، فهرب من الأندلس إلى المغرب، واجتمع بالقائد جوهر فامتدحه، ثم اتصل بالمعزّ أبي تميم الذي بنى القاهرة، فامتدحه، فوصله، وأنعم عليه، ثم إنه شرب عند أُناسٍ وأصبح مخنوقاً.

وقيل: لم يُعرَف سبب موته، وهلك في رجب سنة اثنتين وستين وثلاث مئة عن نيِّفٍ وأربعين سنة.

وله ديوان كبير في المدْح، وقد يفضي به المديح إلى الكُفْر، وليس يلحقه أحد في الشعر من أهل الأندلس، وهو نظير المتنبي.

[الفتن التي تهب على الأمة من داخلها]

[١- ما وقع للحجيج من عطش وقتل]

سنة سبع وخمسين وثلاث مئة[١]

وكان الحجّ في هذا العام صعباً للغاية لما لحقهم من العطش والقتل، مات من حجاج خراسان فوق الخمسة آلاف وقيل: بل ثلاثة آلاف بالعطش، فلما حصلوا

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤١.

بمكة خرج عليهم الطلحيون والبكْريون فوضعوا في الحجيج السيف، وأخذوا الركْبَ بما حوى، ولم يحجّ من مصر ولا الشام أحد. وكان حجّاج المغرب خلقاً، فرجع معهم خلق من التُّجار فأُخِذوا، فيقال: إنه أُخِذ لتاجرٍ فيها متاع بنحو مائتي ألف دينار، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

[٢- اقتحام القرامطة دمشق وقيام دولة الرفض]

وفي آخر العام جاءت القرامطة من البرية وتوثّبوا على دمشق فملكوها، وساروا إلى الرملة، فالتقاهم الحسن بن عبدالله الإخشيدي فهزموه، ثم قاتلوا أهل الرملة أشد قتال، واستباحوها بعد يومين، ثم إن أهلها دافعوا عن نفوسهم بمائة وعشرين ألف دينار، وسبوا من أعمال الرملة عشرة آلاف نسمة، وعزموا على قصْد مصر ليملكوها، فجاء العُبَيْدِيون فأخذوها، **وقامت دولة الرفض في الأقاليم: المغرب ومصر والعراق وغير ذلك.**

[الرياح التي تهب على الأمة، الفتن]

[مواقع مهمة في التاريخ الإسلامي]

ومن حوادث سنة سبع وستين ومئتين:

[وقعة الزَّنْج][1]

وفيها دخلت الزَّنْج واسطاً، فاستباحوها وأحرقوا فيها، فجهّز الموفّق ابنه أبا العباس في جيشٍ عظيم، فكان بينه بين الزَّنْج وقعة في المراكب في الماء، فهزمهم أبو العباس، وقَتَلَ فيهم وأسَر وغرَّق سُفُنَهم، وكان ذلك أول النصر. فنزل أبو العباس واسطاً.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢١.

واجتمع قوّاد الخبيث صاحب الزَّنْج سليمان بن موسى الشعراني، وعليّ بن أبان، وسليمان بن جامع، وحشدوا وأقبلوا، فالتقاهم أبو العباس، فهزمهم وفرَّقهم، ثم واقَعَهم بعد ذلك، فهزمهم أيضاً ومزَّقهم. ثم دامت مصابرة القتال بينهم شهرين، ثم قذف الله الرُّعْبَ في قلوب الزَّنْج من أبي العباس وهابوه.

وتحصّن سليمان بن جامع بمكان، وتحصّن الشعراني بمكانٍ آخر. فسار أبو العباس وحاصر الشعراني، وجَرَت بينهم حروب صعبة، إلى أن انهزمت الزَّنْج، ورجع أبو العباس بجيوشه سالماً غانماً. وكان أكثر قتالهم في المراكب والسماريات، وغرق من الزَّنْج خلْق سوى من قُتِل وأُسِر.

ثم سار الموفّق من بغداد في جيشه في السفن والسماريات في هيئةٍ لم يُرَ مثلها إلى واسط. فلتقاه ولده أبو العباس، ثم سارا إلى قتال الزَّنْج ليستأصلوهم فواقعهم، فانهزم الزَّنْج واستُنْقِذَ منه من المسلمات نحو خمسة آلاف امرأة، وهُدِمت مدينة الشعراني فهرب في نفرٍ يسير مسلوباً من الأهل والمال، ووصل إلى المذار، فكتب إلى الخبيث سلطان الزَّنْج بما جرى، فتردد الخبيث إلى الخلاء مراراً في ساعة، ورجف قوّاده وتقطّعت كبدُه، وأيقن بالهلاك.

ثم إن الموفق سأل عن أصحاب الخبيث، فقيل له: معظمهم مع سليمان بن جامع في بلد طَهيثا، فسار الموفق إليها، وزحف عليها بجنوده، فالتقاه سليمان بن جامع وأحمد بن مهديّ الجُبائيّ في جموع الزَّنج، ورتّب الكُمَناء واستحرَّ القتال، فرمى أبو العباس بن الموفّق لأحمد بن مهدي بسهمٍ في وجهه هلك منه بعد أيام. وكان أبو العباس رامياً مذكوراً.

ثم أصبح الموفّق على القتال، وصلّى وابتهل إلى الله بالدعاء، وزحف على البَلْدة، وكان عليه خمسة أسوار، فما كانت إلا ساعة وانهزمت الزَّنْج، وعمل فيهم السيف، وغرِق أكثرهم. وهرب سليمان بن جامع.

واستنقذ الموفق من طَهيثا نحو عشرة آلاف أسير، فسيَّرهنّ إلى واسط، وأخذ من المدينة تُحفاً وأموالاً، بحيث استغنى عسكره، وأقام بها الموفق أياماً ثم هدَمها.

[مسير الموفق إلى الأهواز]

وكان المهلبي مقيماً بالأهواز في ثلاثين ألفاً من الزَّنج، فسار إليها الموفَّق، فانهزم الملهَّبي وتفرَّق جَمْعُه، وانهزم بَهْبُوذ الزنجي، وبعثوا يطلبون الأمان، لأنه كان قد ظفر بطائفةٍ كبيرة من أصحاب الخبيث وهو بنهر أبي الخصيب.

[تمهيد الموفق للبلاد]

ثم سار الموفَّق إلى جُنْدَيْسابور ثم إلى تُسْتَر فنزلَها، وأنفق في الجند والموالي، ثم رحل إلى عسكر مُكْرَم ومهّد البلاد، ثم رجع وبعث ابنه أبا العباس إلى نهر أبي الخصيب لقتال الخبيث. فبعث إليه الخبيث سُفُناً، فاقتتلوا، فهزمهم أبو العباس، واستأمن إليه القائد مُنْتاب الزَّنْجي، فأحسنَ إليه.

[موقعة المختارة]

وكتب الموفَّق كتاباً إلى الخبيث يدعوه إلى التوبة إلى الله والإنابة إليه مما فعل من سَفْك الدماء وسبْي الحريم وانتِحال النبوة والوحي، فما زاده الكتاب إلا تجبُّراً وعُتُوّاً.

وقيل: إنه قتل الرسول، فسار الموفَّق في جيوشه إلى مدينة الخبيث بنهر أبي الخَصيب، فأشرف عليها، وكان قد سمّاها «المختارة»، فتأمّلها الموفَّق ورأى حصانتها وأسوارها وخنادقها، فرأى شيئاً لم يرَ مثله، ورأى من كثرة المقاتلة ما استعظمه، ورفعوا أصواتهم، فارتجّت الأرض، فرشقهم ابنه أبو العباس بالنّشّاب، فرموه رمية واحدة بالمجانيق والمقاليع والنّشّاب، فأذهلوا الموفَّق، فرجع عنهم وثبت أبو العباس.

[واستمر القتال مع الزنج إلى أن قتل صاحب الزنج، وأُسر قائده سليمان بن جامع، وانتهت بذلك حركة الزنج بعد أن دامت أكثر من أربعة عشر سنة ٢٥٥-٢٧٠هـ][1].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ٦/ ٧٤-٧٦.

مَعَدّ المعز لدين الله[1] أبو تميم

[أول من تملك من بني عبيد الرافضة]

ابن المنصور إسماعيل القائم بن المهدي العُبَيْدي، صاحب المغرب، والذي بُنيت له القاهرة المُعِزّية، وهو أول من تملّك ديار مصر من بني عُبَيْد الرافضة المدَّعين أنهم عَلَويون.

وكان ولي عهد أبيه، فاستقلّ بالأمر في آخر سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، وسار في نواحي إفريقية يمهّد مملكته، فذلّل العُصاة، واستعمل غلمانه على المدن، واستخدم الجُنْدَ، ثم جهزّ مولاه جوهر القائد في جيش كثيف، فسار فافتتح سِجِلْماسة، وسار حتى وصل إلى البحر المحيط، وصيدَ له من سمكه، وافتتح مدينة فاس، وأرسل بصاحبها وبصاحب سَبْتَة أسيرين إلى المُعز. ووطّد له من إفريقية إلى البحر، سوى مدينة سبْتة، فإنها بقيت لبني أمية أصحاب الأندلس.

وذكر هذا القفْطي أن المُعِزّ عزم على تجهيز عسكرٍ إلى مصر، فسألته أمّه تأخير ذلك لتحجّ خفية، فأجابها، وحجّت، فلما حصلت بمصر، أحسّ بها الأستاذ كافور الإخشيدي، فحضر وخدمها وحمل إليها هدايا، وبعث في خدمتها أجناداً، فلما رجعت من حجّها منعت ولدها من غزو بلاده، فلما توفّي كافور بعث المُعِزّ جيوشه، فأخذوا مصر.

قال غيره: ولما بلغ المُعِزّ موت كافور صاحب ديار مصر، جهّز جوهر المذكور إليها، فجبى جوهر القطائع التي على البربر، فكانت خمسمائة ألف دينار، وسار المعز بنفسه إلى المهدية في الشتاء، فأخرج من قصور آبائه من الأموال خمسمائة حِمْل، ثم سار جوهر في الجيوش إلى مصر في أول سنة ثمان وخمسين، وأنفق الأموال. وكان في أُهْبَةٍ هائلة، وصادف بمصر الغلاء والوباء، فافتتحها، وافتتح الحجاز والشام، ثم

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/٣٤٨.

أرسل يُعرِّف المُعِزّ بانتظام الحال، فاستخلف على إفريقية بُلُكّين بن زيري الصنهاجي، وسار في خزانته وجيوشه في سنة إحدى وستين. ودخل الإسكندرية في شعبان سنة اثنتين وستين، فتلقّاه قاضي مصر أبو الطاهر الذُّهْلي والأعيان، فطال حديثه معه وأعلمهم بأنّ قَصْدَه القصد المبارك من إقامة الجهاد والحقّ، وأنْ يختم عمره بالأعمال الصالحة، وأن يعمل بما أمره به جدّه رسول الله ﷺ ، ووعظهم وطوَّل حتى بكى بعضهم، ثم خلع على جماعة، ثم سار فنزل بالجيزة، فأخذه جيشه في التَّعْدِية إلى مصر، ثم دخل القاهرة، وقد بُنيت له بها دور الإمرة. ولم يدخل مصر، وكانوا قد احتفلوا وزيّنوا مصر، فلما دخل القصر خرّ ساجداً، وصلّى ركعتين.

وكان عاقلاً حازماً أديباً سرِيّاً جواداً مُمَدَّحاً، فيه عدْل وإنصاف، فمن ذلك، قيل إن زوجة الإخشيد لما زالت دولتهم أودعت عند يهودي بغلطاقاً[1] كله جوهر، ثم فيما بعد طالبته، فأنكر، فقالت: خُذْ كُمَّ البغلطاق فأبى، فلم تزل حتى قالت: هات الكُمَّ وخُذِ الجميع، فلم يفعل. وكان فيه بضع عشرة درّة، فأتت قصر المُعِزّ فأذِن لها، فأخبرته بأمرها، فأحضره وقرّرَه، فلم يقرّ، فبعث إلى داره من خرّب حيطانها، فظهرت جرة فيها البلغطاق، فلما رآه المُعِزّ تحيّر من حُسْنه، ووجد اليهودي قد أخذ من صدره دُرَّتين، فاعترف أنه باعهما بألف وستمائة دينار، فسلّمه بكماله، فاجتهدت أن يأخذه هدية أو بثمن، فلم يفعل، فقالت: يا مولانا هذا كان يصلح لي وأنا صاحبة مصر، فأما اليوم فلا، ثم أخذته وانصرفت.

وجاء أن المنجمين، أخبروه أن عليه قطْعاً، وأشاروا عليه أن يتخذ سرداباً ويتوارى فيه سنة ففعل، فلما طالت غيبته ظنّ جنده المغاربة أنه قد رُفع، فكان الفارس منهم إذا رأى الغمام ترجّل ويقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين. ثم خرج بعد السنة، وتوفي بعد ذلك بيسير.

---

(١) البغلطاق: لفظ فارسي معناه قباء بلا أكمام أو بأكمام قصيرة جداً. خطط المقريزي ٢/ ٩٩، الملابس المملوكة ص٤٤، نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٢/ ٣١٩.

وكان قد قرأ فنوناً من العلم والأدب، والله أعلم بسريرته.

قيل إنه أحضر إليه بمصر كتاب فيه شهادة جدّه عُبَيْد الله بسَلَمِيّة، وكتب: «شهد عُبَيْد الله بن محمد بن عبدالله الباهلي». وفي الكتاب شهادة جماعة من أهل سَلَمِية وحمص، فقال: نعم هذه شهادة جدّنا، وأراد بقوله: الباهلي أنه من أهل المُباهلة لا أنه من باهِلَة.

وكان المعز أيضاً ينظر في النجوم.

توفي في ربيع الآخر سنة خمسٍ وستين وثلاث مئة، وله ست وأربعون سنة، وكان مولده بالمهدية.

[أسباب النجاح]

عبيد الله بن يحيى بن خاقان التركي[1]، ثم البغدادي.

أبو الحسن، الوزير للمتوكل. وما زال في الوزارة إلى أن قُتل المتوكل.

وقد جرت له أمور، وانخفاض وارتفاع، ونفاه المستعين إلى الرَّقَّة سنة ثمانٍ وأربعين ومئتين. ثم قدِم بغداد بعد خمس سنين، ثم استوزره المعتمد سنة ستٍّ وخمسين ومئتين.

قال حسين الكواكبيّ: أخبرنا محرز الكاتب قال: اعتلّ عُبيد الله بن يحيى بن خاقان فأمر التموكل، الفتح بن خاقان أن يعودَه، فأتاه فقال: إن أمير المؤمنين يسأل عن عِلَّتك، فقال عبيد الله:

عليـــــــل مـــــــن مكـــــــانَيْن	مـــــــن الأســـــقام والـــــدَّيْن
وفي هــــــــذين لي شُـــــــغْلٌ	وحسْـــــبِي شُـــــغْلُ هَـــــذين

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٣٢.

قال: فأمر له المتوكل بألف ألف درهم.

قال الصُّوليّ: حدثنا الحسن بن عليّ الكاتب قال: لما قَتَلَ المتوكلُ محمدَ بن الفضل الجرجرائي قال: قد مللتُ عرض المشايخ عليّ، فاطلبوا لي حدثاً من أولاد الكُتّاب. وبقي شهرين بلا وزير وأصحاب الدواوين يعرضون عليه أعمالهم، ثم طلب عُبيد الله بن يحيى، فلما خاطبه أعجبته حركته، وأمره أن يكتب فأعجبه أيضاً خَطّه.

فقال عمُّه الفتح: والذي كتبت أحسن من خطّه. قال: وما هو؟ قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]، وقد تفاءلت ببركته ببركة ما كتب. فولاَّه العَرْض، فبقي سنة يؤرّخ الكتب عنه وعن وَصيف. وحظي عند المتوكل، فطرح اسم وصيف، ونفذت الكتب باسم عبيد الله وحده.

قال الصُّوليّ: كان عُبيد الله سمحاً جواداً ممدَّحاً، حدثني أبو العَيْناء قال: دخلت على المتوكل، فقال: ما تقول في عُبيد الله؟ قلت: نِعْمَ العبد لله، ولكَ، منقسمٌ بين طاعته وخدمتك، يؤثر رِضاك على كل فائدة، وإصلاح رعيّتك على كل لذة.

[سبب نجاح عُبيد الله]

وقال عليّ بن عيسى الوزير: لم يكن لعُبيد الله ين يحيى حظٌّ من الصناعة، إلا أنه أُيِّد بأعوانٍ وكُتّاب، **وكان واسع الحيلة، حَسَن المُداراة.**

وقال الصولي: ولم يزل أعداء عُبيد الله يحرّضون المنتصر على قتله، وإنه مائلٌ إلى المعتز، حتى هَمَّ بذلك وأحمد بن الخطيب يردعه عنه. ثم نفاه وأبعده إلى أقريطش. فلما استخلف المعتمد ذكر لوزارته سليمان بن وهْب، والحَسَن بن مَخْلَد، وجمع الكُتّاب، فقال ابن مَخْلَد: هذا عُبيد الله بن يحيى قد أصلح الجماعة ورأسهم، وهو ببغداد. فصدّقه الجماعة.

[أدبته النُّكَب وهذبته، فزاد عفافه وتوقيه]

وقال المعتمد وأبو عيسى بن المتوكل: ما لنا حظٌّ في غيره.

فطلبوه إلى سُرَّ من رأى واستحثُّوه، ولم يذكروا له الوزارة لئلا يمتنع زُهْداً فيها. فشخص على كُرْه، وأُدْخِل على المعتمد، فخلع عليه الوزارة. فلما خرج امتنع، فلاطَفُوه. وولي سنة ستٍّ وخمسين بعفاف ورأي ومروءة إلى أن مات، وعليه ستمائة ألف دينار، مع كثرة ضياعه. وقد أدَّبته النُّكَب وهذَّبته، فزاد عَفافه وتوَقّيه.

قلت: ورد عن عُبَيْد الله أخبار في الحِلْم والجُود.

حكى الصُّوليّ، عن غير واحدٍ، أن عُبيد الله نزل إلى الميدان ليضرب الصَّوالجة، فصدمه خادمه رشيق، فسقط عن دابّته، فحُمل ومات ليومه.

توفي الوزير عُبيد الله سنة ثلاثٍ وستين ومئتين، وهو والد المعديّ أبي مزاحم الخاقاني.

[إخراج فضلَك الصائغ لقوله: الإيمان مخلوق]

الفضل بن العباس[1].

الحافظ أبو بكر الرازي، ولقَبُه: فَضْلَك الصائغ.

توفي في صفر سنة سبعين ومئتين.

[إنكار الناس ما يخالف السنّة]

قال المَرُّوذِيّ: ورد عليَّ كتابٌ من ناحية شيراز أنّ فَضْلك قال ببلدهم: إن الإيمان مخلوق، فبلغني أنهم أخرجوه من البلد بأعوان الوالي.

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٤٩.

وقال لي أحمد بن أصرم المُزَني: كنتُ بشيراز وقد أظهر فَضْلَك أنّ الإيمان مخلوق، وأفسد قوماً من المشيخة فحذَّرت منه، وأخبرتهم أن أحمد بن حنبل جَهَّم من قال بالعراق: إن القرآن مخلوق. وبيَّنا أمره حتى أُخرج. ودخلت أصبهان فإذا قد جاء إليهم، وأظهر عندهم أن الإيمان مخلوق فأُخرج منها.

وقال المَرُّوذيّ: ما زلنا بهجر فَضْلَك حتى مات ولم يُظهر توبةً ولا رجوعاً.

وقال الخطيب: كان ثقة ثبتاً حافظاً، سكن بغداد.

وقال محمد بن حرث: سمعت الفضل بن العباس وسألته: أيُّهما أحفظ: أبو زُرْعة أو البخاريّ؟

فقال: جهدتُ أنْ أُغْرِب على البخاري فلم أستطع، وأنا أُغْرِب على أبي زُرْعة على عدد شَعْره.

أبو القاسم بن أبي يعلى[1] الشريف الهاشمي

قام بدمشق وقام معه خلق من الشباب وأهل الغوطة، وقطع دعوة المصريين، ولبس السواد، ودعا للمطيع لله، وذلك في ذي الحجة سنة تسع وخمسين وثلاث مئة، واستفحل أمره ونفى عن دمشق أميرها إقبال نائب شموَّل الكافوري، فلم يلبث إلا أياماً حتى جاء عسكر المصريين وقاتلوا أهل دمشق، وقُتل منهم جماعة، ثم هرب أبو القاسم الشريف في الليل، فصالح أهل البلد العسكرَ، وطلب أبو القاسم البريّة يريد بغداد فلحقه ابن عليان العدوي فأسره عند تَدْمُر وجاء به، فشهَّرَه جعفر ابن فلاح في عسكره على جمل، وذلك في المحرم سنة ستين وثلاثة مئة وسيَّره إلى مصر.

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٢٠.

[من طرق التعزير]

قال ابن عساكر: قرأت بخط عبدالوهاب إن أبا جعفر بن فلاح وعد لمن جاء بالشريف ابن أبي يَعْلى بمائة ألف دِرْهَم، فجيء به، ففرح، وطيف به على جمل، على رأسه قلنسوة لبود، وفي لِحْيَيْه ريش، وبيده قصبة، ثم لان له ابن فلاح وقال: لأُكاتِبَنَّ مولانا بما يَسُرُّك. وإيش حَمَلَكَ على الخروج عن الطاعة؟ قال: القضاء والقدر، وأغلظ لبني عدي الذين جاؤوا به وقال: غدرتم بالرجل، ففرح أكثر الناس بهذا، ودعوا بالخلاص لابن أبي يعلى لِحِلْمه وكرمه وجوده.

وتوفي سنة ستين وثلاث مئة.

[إخلاص إسماعيل بن نجيد]

إسماعيل بن نُجَيْد بن أحمد بن يوسف بن خالد، أبو عمرو السُّلَمي النيسابوري الصوفي الزاهد، شيخُ عصرِه في الصوفية والمعاملة، ومُسْنَدُ مِصْرِه.

قال الحاكم: ورث من آبائه أموالاً كثيرة، فأنفق سائرها على الزُّهاد والعلماء.

ومن مناقبه أن شيخه أبا عثمان الحيري طلب شيئاً لبعض الثُّغور، فتأخّر ذلك، فضاق صدره، وبكى على رؤوس الناس، فجاءه أبو عمرو بن نُجَيْد بألْفي درهم، فدعا له، ثم قال لما جلس: أيها الناس إني قد رجوتُ لأبي عمرو الجنة بما فعل، فإنه ناب عن الجماعة وحمل كذا، فقام ابن نُجَيْد على رؤوس الناس وقال: إنما حملت ذلك من مال أمي وهي كارهة، فينبغي أن يُرَدّ عليّ لأرُدَّه عليها، فأمر أبو عثمان الحيري بالكيس، فرُدّ إليه، فلما جنَّ عليه الليل جاء بالكيس، وطلب من أبي عثمان سَتْرَ ذلك، فبكى أبو عثمان، وكان بعد ذلك يقول: أنا أخشى من همَّة أبي عمرو.

وقال السُّلَمي: جدّي له طريقة ينفرد بها من صَوْن الحال وتلبيسه، وسمعته يقول: كل حال لا يكون عن نتيجة علمٍ فإن ضَرَرَه على صاحبه أكبر من نَفْعه.

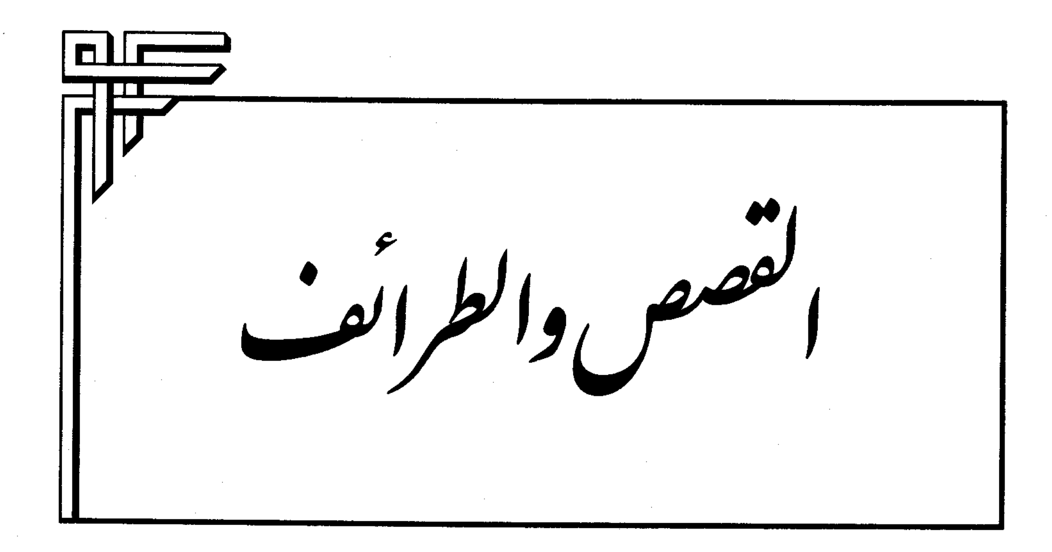
وسمعته يقول: لا تصفو لأحد قَدَمٌ في العبودية حتى تكونَ أفعالُه عنده كلها رياءً، وأحواله كلها عنده دعاوى.

وقال جدي: من قدر على إسقاط جاهه عند الخَلْق سهل عليه الإعراض عن الدنيا وأهلها.

وسمعت أبا عمرو بن مطر، سمعت أبا عثمان الحيري يقول -وخرج من عند ابن نُجَيْد-: يلومني الناس في هذا الفتى وأنا لا أعرف على طريقته سواه، وربما كان أبو عثمان يقول: أبو عمرو خَلَفي من بعدي.

قال لي ابن أبي زرقاء: قال فلان: جدّك من أوتاد الأرض.

توفي ابن نُجَيْد في ربيع الأول عن ثلاثٍ وتسعين سنة، وقد سمعنا خبره بالإجازة العالية.



القصص والطرائف



أحمد بن مهدي بن رستم[1]

أبو جعفر الأصبهاني العابد. أحد حُفّاظ الحديث.

قال أبو نُعَيْم: كان صاحب ضِياع وثروة. أنفق على أهل العلم ثلاثمائة ألف درهم.

وقال محمد بن يحيى بن مَنْدة: لم يحدِّث ببلدنا منذ أربعين سنة أوثق منه. صنَّف «المسند» ولم يُعرف له فراش منذ أربعين سنة، صاحب عبادة، رحمه الله.

توفي سنة اثنتين وسبعين ومئتين.

قال ابن النجار: كان من الأئمة الثقات وذوي المروءات.

أخبرنا اللّبان كتابةً، أخبرنا الحداد، أخبرنا أبو نُعَيْم: سمعت محمد بن أبان: سمعت أبا عليّ أحمد بن محمد بن إبراهيم يقول: قال أحمد بن مهدي: جاءتني امرأة ببغداد ليلةً، فذكرت أنها من بنات الناس، وأنها امتُحِنت بمحْنة: وأسألك بالله أن تسترني، فقد أُكرِهتُ على نفسي، وأنا حبْلَى، وقلت: إنك زوجي، فلا تفضحْني.

فنكست عنها ومضت. فلم أشعر حتى جاء إمام المحلة والجيران يهنّوني بالولد الميمون. فأظهرت التهلل. ووزنت في اليوم الثاني للإمام دينارين وقلت: أعطِها للمرأة نفقةً، فإني فارقتها. وكنت أعطيه كل شهر دينارين يوصلها لها. إلى أن أتى على ذلك سنتان. فمات الولد، وجاءني الناس يعزُّونني. فكنت أُظْهِر له التسليم والرضا. فجاءتني المرأة بعد شهر ومعها تلك الدنانير لردّها وقالت: سَتَرَك الله كما سترتني.

فقلت: هذه الدنانير كانت صلة مني للمولود، وهي لك لأنك ترثينه، فاعملي بها ما تريدين.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٨٣.

[بيت شعر قتل صاحبه[1]]

بعد أن ذهب أبو الطيب المتنبي إلى بلاد فارس ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمي وأجزل جائزته، رجع من عنده قاصداً بغداد، وكان معه جماعة، فخرج عليهم قوم من بني ضبَّة، فقاتلهم قتالاً شديداً، فلما رأى الغلبة انهزم وفرّ هارباً، فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

الخيـــلُ والليـــلُ والبيـــداءُ تعرفُنـــي   والحرب والضربُ والقِرطاسُ والقلـمُ

فقال المتنبي: قتلتني قتلك الله، فكَرَّ راجعاً ثم قاتل حتى قُتل، فكان سبب قتله هذا البيت من شعره.

[قتل الجمال بحُسْن صوته]

قال أبو نصر عبدالله بن علي السَّراج الصوفي: حكى أبو بكر الدُّقّي قال: كنت بالبادية فوافيت قبيلة، فأضافني رجل، فرأيت غلاماً أسود مقيَّداً هناك، ورأيت جِمالاً ميتةً ثَمَّ، فقال الغلام: اشفَعْ لي فإنه لا يردّك، قلت: لا آكل حتى تحلّه، فقال: إنه قد أفقرني. قلت: ما فعل؟ قال: له صوت طيب فحَدَا لهذه الجِمال وهي مثقلة، حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم، فلما حطّ عنها ماتت كلّها، ولكن قد وهبته لك، فلما أصبحنا أحببت أن أسمع صوته فسألته، وكان هناك جمل يُسْتَقَى عليه، فحدا، فهامَ الجمل على وجه وقطع حباله، ولم أظن أني سمعت صوتاً أطيب منه، ووقعت لوجهي[2].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٠٥.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢١٨.

[جهل بعض العلماء]

روى الحاكم قال: سمعت أبا بكر بن حرب شيخ أهل الرأي ببلدنا يقول: كثيراً ما أرى أصحابنا يظلمون أهل الحديث، كنت عند حاتم العَتَكِي، فدخل عليه شيخ من أهل الرأي فقال: أنت الذي تروي أنّ النبي ﷺ أمر بقراءة الفاتحة خلف الإمام؟ فقال: قد صحّ الحديث، لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب. فقال له: كَذَبْتَ، إن فاتحة الكتاب لم تكن في عهد النبي ﷺ إنما نزلت في عهد عمر[1].

قلت: إسنادُها صحيح.

[خبر الكسوف الزَّلْزلة في بلاد الدُّبيل]

رُوي أن في ذي الحجة سنة ثمانين ومئتين ورد كتاب من الدُّبيل أنَّ القمر انكسف في شوال من السنة، وأن الدنيا أصبحت مظلمة إلى العصر. فهبّت ريحٌ سوداء، فدامت إلى ثلث الليل، وأعقبها زلزلة عظيمة أذهبت عامة المدينة. وأنهم أخرجوا من تحت الهدْم ثلاثين ألفاً إلى تاريخ الكتاب.

ثم زُلزلت خمس مرات، فكان عدة مَن أُخرج من تحت الرَّدْم مائة ألف وخمسين ألفاً[2].

من حوادث سنة إحدى وستين وثلاث مئة

في شهر صفر انقض كوكب هائل له دويّ كدوي الرعد[3].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٠٠.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٤٤.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٤٥.

[حسن الجواب]

محمد بن أحمد بن أبي المُثَنَّى يحيى بن عيسى بن هلال[1].

أبو جعفر التميمي المَوْصِليّ، شيخ الموصل ومحدِّثها في وقته.

قال ابن إياس: كان من أهل الفضل والثقة، ومن آدَبِ مَن رأينا من المحدِّثين.

قال: وكان أحمد بن حنبل وابن مَعين يُكرمونه. وكانت الرحلة إليه بالموصل بعد عليّ بن حرب. سمعته يقول: خرج أحمد بن حنبل يوماً فقمت، فقال: أما علمت أن النبي ﷺ قال: «من أحبّ أن يتمثّل له الرجال قياماً فليتبوَّأ مقعده من النار»؟[2].

فقلت: إنما قمت إليك ولم أقُم لك. فاستحسن ذلك.

توفي سنة سبعٍ وسبعين ومئتين في شوال.

[الكرامات والآيات]

[١ - دخل أتون الآجر وهو مشتعل وخرج ولم يحترق]

إبراهيم الآجري البغدادي[3].

أبو إسحاق الزاهد

صاحب كرامات. أُنبئتُ عن الكاغديّ، أن الخلاّل أخبره: أخبرنا أبو نُعَيْم في «الحلية» أخبرنا الخلدي في كتابه، وحدَّثني عنه أبو عُمَر العثماني:

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٢٤.

(٢) الحديث صحيح، أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم (٩٧٧)، وأبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٣٧٧٥)، وأحمد في المسند ٤/ ٩٣ و١٠٠.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٩٨.

حدثنا ابن مسروق، وأبو أحمد المَغازِليّ، وغيرهم عن إبراهيم الآجُريّ قالوا: جاء يهودي يقتضيه شيئاً من ثمن قَصَب. فكلَّمه فقال: أَرِني شيئاً أعرف به شرف الإسلام وفضْله على ديني.

قال: هات رداءك. فأخذه فجعله في ردائه، ولفّ به ورمى به في أتُّون الآجرّ. ثم دخل في أَثَره، فأخذ الرداء وخرج من الباب، وفتح رداءه صحيحاً، وأخرج رداء اليهودي محروقاً. فأسلم اليهودي.

[٢- طيور خضراء مصطفة فوق الجنازة والقبر]

إسحاق بن حنيفة(١)

أبو يعقوب الجُرجاني الزاهد العابد.

قال الفقيه أبو عِمران إبراهيم بن هاني الفقيه: لم أرَ مثل إسحاق بن حنيفة، ولا رأى مثل نفسه.

كان يأكل من كسْبه بالوراقة، ويوم مات رأينا طيوراً خضراء مصطفين فوق الجنازة، وفوق القبر إلى أن دُفن. لم أرها قبل ولا بعد.

مات بجُرْجان رحمة الله عليه [في حدود الثمانين ومئتين](٢).

[٣- من آيات الله الدالة على توحيده ونبوة الرسول محمد ﷺ(٣)]

حَدَّث الحسنُ بن إسحاق العطّار: سمعت عبدالرحمن بن هارون يقول: كنا في البحر سائرين إلى إفريقية، فركدت علينا الريح، فأرسينا إلى موضع يقال له

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٠١.

(٢) الوافي بالوفيات للصفدي ٨/ ٢٢٦.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٣١.

البَرْطُون، ومعنا صبيّ صَقْلَبيّ يقال له أيْمَن، معه شِصٌّ. يصطاد به السمك. فاصطاد سمكةً، نحواً من شِبْر أو أقل. وكان على صنيفة (أذنها) اليُمْنَى مكتوب: «لا إله إلا الله»، وعلى قَذالها وصنيفة أُذُنها اليُسْرى مكتوب: «محمد رسول الله». وكان أَبْيَنُ من نقشٍ على حجر. وكانت السمكة بيضاء، والكتابة سوداء كأنه كُتب بحبر.

[٤- من كرامات محمد بن يعقوب بن الفَرَج[1]]

الشيخ أبو جعفر الفَرَجيّ الصوفي الزاهد الواعظ.

كان إماماً فقيهاً يُفتي بالأثر. وله فضل وعبادة.

صحِب ذا النون المصري، وأبا تُراب النخْشبيّ.

وسمع من: عليّ ابن المَديني، وأبي داود، وجماعة.

وكان على غاية التجريد. يأوي بالمساجد والصحراء.

توفي بالرملة بعد سنة سبعين ومئتين.

قال أبو نُعَيْم: له مصفات في معاني الصوفية.

وروى عنه أنه قال: مكثت عشرين سنة لا أسأل عن مسألة إلا ومنازلتي فيها قبل قولي.

وقال: لو صحّ الود لسقطت شروط الأدب.

وقد رُويت له حكاية، وهي أنه سافر على التجريد فوقع في تِيه بني إسرائيل، وصحِب راهبين لهما حالٌ من أحوال الرهبان المتولّدة من الجوع والوَحْدة.

قال: فكان يبيع لهما الماء ويُحضِر لهما الطعام إذا جاعا.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٧٠.

فقالا له بعد ليلتين: يا مسلم هذه نَوْبتُك.

قال: فدَخَل بعضي في بعض، فقلت: اللهم إني أعلم أن ذنوبي لم تَدَع لي عندك جاهاً. ولكن أسألك أن لا تفضحني عندهما، ولا تُشمّتهما بنبينا ﷺ وبأُمَّته.

قال: فإذا بعينٍ خرّارة وطعام كثير. وذكر قصة إسلامهما على يده.

[٥- من كرامات يعقوب بن سفيان بن جوان[1]]

عن محمد بن يزيد العطّار: سمعت يعقوب بن سفيان الفَسَويّ قال: كنت أُكْثِرُ النَّسْخ بالليل، وقلَّت نفقتي، فجعلت أستعجل. فنسخت ليلةً حتى تصرّم الليل، فنزل الماء من عيني، فلم أُبصر السراج، فبكيت على انقطاعي، وعلى ما يفوتني من العلم. فاشتدّ بكائي، فنمت، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فناداني: يا يعقوب بن سفيان لِمَ بَكيت؟

فقلت: يا رسول الله ذهبَ بصري فتحسّرت على ما فاتني من كَتْبِ سُنَّتك، وعلى الانقطاع من بلدي.

فقال: ادنُ مني.

فدنوت منه، فأمرَّ يده على عينيّ كأنه يقرأ عليهما، ثم استيقظت، فأبصرت، وأخذت نُسختي، وقعدت في السراج أكتب.

توفي يعقوب في وسط سنة سبع وسبعين ومئتين قبل أبي حاتم الأزديّ بشهر.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٩٥.

[٦- أبو القاسم الواسطي قطع الروافض لسانه مرتين]

وفي هذه السنين -يعني النصف الثاني من القرن الرابع الهجري- وبعدها كان الرفض يغلي ويفور بمصر والشام، والمغرب، والمشرق لا سيما العُبَيْدية الباطنية، قاتلهم الله.

قال مشرف بن مُرَجّا المقدسي؛ أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن الحسن قال: حدثني الشيخ الصالح أبو القاسم الواسطي قال: كنت مجاوراً ببيت المقدس، فأمروا في أول رمضان بقطع التراويح، فصِحْتُ أنا وعبدالله الخادم: واإسلاماه وامُحَمَّداه، فأخذني الأعوان وحُبِسْت، ثم جاء الكتاب من مصر بقطع لساني فقُطِع، فبعد أسبوع رأيت النبي ﷺ تَفَلَ في فمي، فانتبهت ببَرْد رِيق رسول الله ﷺ وقد زال عني الألم، فتوضأت وصلّيت وعمدت إلى المأذنة فأذّنت «الصلاة خير من النوم»، فأخذوني وحُبِست وقُيِّدْت، وكتبوا فيّ إلى مصر، فورد الكتاب بقطْع لساني، وبضربي خمسمائة سَوْط، وبصَلْبي، ففُعِل بي، فرأيت لساني على البلاط مثل الرّيّة، وكان البرد والجليد، وصلّيت واشتدَّ عليّ الجليد، فبعد ثلاثة أيام عهدي بالحدّائين يقولون: نعرّف الوالي أن هذا قد مات فأتوه، وكان الوالي جيش بن الصمصامة فقال: أَنْزِلوه، فألقوني على باب داود، فقوم يترحّمون عليّ وآخرون يلعنوني، فلما كان بعد العشاء جاءني أربعة فحملوني على نعش ومضوا بي ليغسّلوني في دار، فوجدوني حياً، فكانوا يصلحون لي خزيرة بلَوْز وسُكّر أسبوعاً.

ثم رأيت النبي ﷺ في المنام ومعه أصحابه العشرة فقال: يا أبا بكر ترى ما قد جرى على صاحبك قال: يا رسول الله فما أصنع به؟ قال: اتْفِلْ في فيه، فتفل في فيَّ، ومسح النبي ﷺ صدري، فزال عني الألم، وانتبهت ببرد ريق أبي بكر، فناديت، فقام إليّ رجل، فأخبرته، وأسخن لي ماء، فتوضأت به، وجاءني بثياب ونفقة وقال: هذا فتوح، فقمت فقال: أين تمرّ الله، فجئت المأذنة وأذَّنْت الصُّبْح: «الصلاة خير من النوم»، ثم قلت قصيدة في الصحابة، فأُخذت إلى الوالي فقال: يا هذا اذهب ولا تُقِم

ببلدي، فإني أخاف من أصحاب الأخبار وأدخل فيك جهنم، فخرجت وأتيت عُمان، فاكتريت مع عرب الكوفة، فأتيت واسط، فوجدت أمي تبكي عليّ، وأنا كل سنة أحجّ وأسأل عن القدس لعل تزول دولتهم، فرأيته طلق اللسان ألْثغ.

[الدعاء المستجاب]

[١ - قصة دعاء مستجاب]

ذكر عبدالرحمن بن أحمد، عن أبيه، أن امرأة جاءت إلى بَقِيّ بن مخلد فقالت: ابني في الأسْر، ولا حيلة لي، فلو أشرت إلى مَن يفديه، فإني والهة.

قال: نعم، انصرفي حتى أنظر في أمره.

ثم أطرق وحرّك شفته. ثم بعد مدة جاءت المرأة بابنها، فقال: كنت في يد ملك، فبينا أنا في العمل سقط قَيْدي. فذكر اليوم والساعة، فوافق وقت دعاء الشيخ.

قال: فصاح عليَّ المُرَسَّم بنا، ثم نظر وتحيَّر، ثم أحضر الحدّاد وقيَّدني، فلما فرغ ومشيت سقط. فبُهِتُوا ودَعَوْا رهبانهم. فقالوا: لك والدة؟

قلت: نعم.

قالوا: وافق دعاؤها الإجابة، وقد أطاعك الله، فلا يمكننا تقييدك. فزوَّدوني وبعثوني[١].

[٢ - اللهم لا تحيني حتى تريني الرايات الصفر]

حمزة بن محمد بن علي[٢] بن العباس أبو القاسم الكناني المصري الحافظ.

سمع: أبا عبدالرحمن النسائي، وجماعة كثيرة. ورحل وطوّف وجمع وصنَّف.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣١٦.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٦٠.

وعنه: ابن مَنْدَة، والدارقطني، والحافظ عبدالغني وغيرهم.

وقال أبو القاسم يحيى بن علي بن الطحّان: توفي في ذي الحجة سنة ٣٥٧ وسمعت منه.

قلت: وكان حافظ ديار مصر بعد أبي سعيد بن يونس، وكان ثقةً ثبْتاً صالحاً ديِّناً.

وقال أبوعبدالله الحاكم: حمزة المصري كان على تقدّمه في معرفة الحديث أحد مَن يُذكَر بالزهد والوَرَع والعبادة. سمع أبا خليفة، والنسائي وأقرانهما.

وقال الحافظ عبدالغني: كل شيء لحمزة في سنة خمس. وُلد في سنة خمسٍ وسبعين ومائتين، وأول ما سمع سنة خمس وتسعين، ورحل سنة خمس ثلاثمائة.

قال الصوري: كان حمزة رحمه الله ثبْتاً حافظاً.

[كان مستجاب الدعوة]

قال ابن عساكر: أخبرنا هبة الله بن الأكْفاني، أخبرنا سهل بن بِشْر: سمعت علي بن عمر الحرّاني، سمعت حمزة بن محمد الحافظ، وجاءه غريب، فقال: إن عسكر المعزّ المغاربة قد وصلوا إلى الإسكندرية فقال: اللهم لا تُحْيني حتى تُريني الرايات الصُّفْر، فمات حمزة، ودخل عسكرهم بعد موته بثلاثة أيام.

قال ابن زُولاق: حدثني حمزة الحافظ قال: رحلت سنة خمسٍ وثلاثمائة، فدخلت حلب، وقاضيها أبو عبدالله محمد بن عَبْدَه، فكتبت عنه، فكان يقول: لو عرفتك بمصر لملأتُ ركائبك ذَهَباً.

[٣- أريتنا قدرتك ونحن نأمل من الله أن يرينا قدرته فيك]

وفي شهر رمضان سنة ٣٦٢، قُتل رجلٌ من أعوان الوالي في بغداد، فبعث الرئيس أبو الفضل الشيرازي -وكان قد أقامه عزّ الدولة على الوزارة- مَن طَرَحَ

الناس من النحاسين إلى السمّاكين، فاحترق حريق عظيم لم يشهد مثله، وأُحرقت أموال عظيمة وجماعة كثيرة من النساء، والرجال، والصبيان، والأطفال في الدُّور وفي الحمامات، فأُحصي ما أُحرق من بغداد فكان سبعة عشر ألفاً وثلاثمائة دكان، وثلاثمائة وعشرين داراً، أجرة ذلك في الشهر ثلاثة وأربعون ألفاً، ودخل في الجملة ثلاثون مسجداً.

فقال رجل لأبي الفضل الشيرازي: أيها الوزير أريتنا قدرتَكَ، ونحن نأمل من الله أن يرينا قدرته فيك، وكَثُر الدعاء عليه، ثم إن عزّ الدولة قبض عليه وسلَّمه إلى الشريف أبي الحسن محمد بن عمر العلوي، فأنفذه إلى الكوفة وسقي ذراريح، فتقرحت مثانته، فهلك في ذي الحجة من هذه السنة -يعني سنة اثنتين وستين وثلاث مئة- لا رحمه الله[1].

[جده كان كافراً فأسلم]

محمد بن إسحاق[2]

أبو بكر الصاغاني الحافظ.

طوَّف وجال، وأكثر الرتحال، وبرع في العِلَل والرجال.

قال ابن أبي حاتم: ثَبْتٌ، هو صدوق.

وقال ابن خراش: ثقة، مأمون.

وقال الدارقطني: ثقة، وفوق الثقة.

وعن أبي مُزاحم الخاقاني قال: كان الصاغاني يشبه يحيى بن مَعين في وقته.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٤٨.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٥٧.

وقال الأصمّ: سأله أبي: إلى أي قبيلة تنتسب؟

فقال: إن جدي كان في الصحراء فاستقبله رجل فقال له: أسلم. فأسلم وقطع الزّنّار.

وقال أبو بكر الخطيب: كان أحد الأثبات المتقنين، مع صلابةٍ في الدين واشتهارٍ بالسُّنة، واتِّساعٍ في الرواية.

وقال أحمد بن كامل، مات في سابع صفر سنة سبعين ومئتين.

[نهاية غريبة، مات برفسة دابته]

أحمد بن عبدالله بن عبدالرحيم بن سعيد[1].

أبو بكر بن البَرْقيّ المصري الحافظ، مولى بن زُهْرة.

وله كتاب في معرفة الصحابة وأنسابهم، رواه عنه أحمد بن عليّ المديني. وكان إماماً حافظاً متقناً، عاش بعد أخيه محمد مدّة، وعاش بعده أخوه عبدالرحيم أيضاً.

رَفَسته دابَّتُه في شهر رمضان سنة سبعين ومائتين فمات منها رحمه الله.

[مات صائماً عطشاً]

إبراهيم بن هانئ النيسابوري الزاهد[2].

أبو إسحاق، نزيل بغداد.

وكان الإمام أحمد يُجِلّ إبراهيم بن هانئ ويحترمه ويَغْشاه.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٥٢.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٦٣.

وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري: حدثني أبو موسى الطرسوسي في جنازة إبراهيم بن هانئ: سمعتُ ابن زَنْجَوَيْه يقول: قال أحمد بن حنبل: إن كان ببغداد أحدٌ من الأبدال فأبو إسحاق النيسابوري.

وقال ابن المنادي: توفي في ربيع الآخر سنة خمسٍ وستين ومئتين.

وقال أبو زكريا بن زياد: حضرت إبراهيم بن هانئ عند وفاته فقال: أنا عطشان. فجاءه ابنه بماء، فقال: أغابت الشمس؟ قال: لا. فردّه وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات:٦١]. ثم مات رحمه الله.

[تقلب الدنيا بأهلها]

١ - الحسن بن مَخْلَد بن الجراح[1]

الوزير أبو محمد البغدادي الكاتب.

ومن أعجب الاتفاق أن أربعة وُلّوا الوزارة وُلِدوا في سنة تسعٍ ومائتين: هذا، وعُبَيْد الله بن يحيى بن خاقان، ومحمد بن عبدالله بن طاهر وأحمد بن إسرائيل.

ولي الحسن الوزارة للمعتمد مرتين، وصادره في الأولى، ثم استوزره مرة ثالثة سنة خمسٍ وستين ومئتين، ثم سخط عليه في شعبان من السنة، فانسحب إلى مصر. فأقبل عليه أحمد بن طولون وولاّه قطر البلاد، وضمن له زيادة ألف ألف دينار في السنة مع العدل. فخافه الكاتب، فقال لابن طولون: هذا عين للموفَّق عليك، وصبغوه بذلك فحبسه، فقالوا: لا ينبغي أن يكون محبوساً في جوارك، فربما حَدَثَ به حَدَثٌ فيُنْسَب إليك. فبعثَ به إلى متولي أنطاكية، وأمره أن يعذِّبه، فعذَّبه حتى هلك في سنة تسعٍ وستين ومئتين.

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٨٠.

وكان مع ظُلْمه شاعراً فصيحاً جواداً ممدَّحاً نبيل الرأي. مدحَه البحتري، وغيره.

وذكره ابن النجار، وأنه جمع بين الوزارة وكتابة الموفَّق.

وكان آية في حساب الديوان، حتى قيل: ما لا يعلمه الحسن فليس مِن الدنيا.

وكان تام الشكل، مهيب البأس، عظيم التجمُّل، سَرِيّاً. كان خدمه يركبون يوم الجمعة بالجنائب الكثيرة وغلمانه بالديباج المنسوج بالذهب. فإذا جلس في داره وقفت العين على فرش وسُتور ونحو ذلك بمائة ألف دينار.

وقيل: بل هلك سنة إحدى وسبعين ومائتين.

[٢- كان فقيراً فأصبح وزيراً ثم سُملت عيناه وألقي تحت أرجل الفيلة ثم صُلب]

محمد بن محمد بن بقية[١] بن علي، نصير الدولة، أبو الطاهر وزير عِزّ الدولة بَخْتيار ابن معز الدولة

كان أحد الأجواد والرؤساء، أصله من أَوَانا من عمل بغداد، استوزر سنة اثنتين وستين وثلاث مئة، وقد تقلّب به الدهر ألواناً، حتى بلغ الوزارة، فإنّ أباه كان فلاحاً، وآل أمره إلى ما آل، ثم خَلَعَ عليه المطيع لله، واستوزره أيضاً، ولقّبه الناصح، مضافاً إلى نصير الدولة، فصار له لَقَبان، وكان قليل العربية، ولكن السَّعْد والإقبال غطّى ذلك. وله أخبار في الجُود والأفْضال، وكان كثير التنعُّم والرفاهية. وله أخبار في ذلك. وقُبض عليه بواسط في آخر سنة ستٍّ وستين وثلاث مئة، وسَمَلُوا عينيه. وكان يؤلب لعزّ الدولة على عضد الدولة، فلما قُتِل عز الدولة بختيار، ملك عضُد الدولة وأهلكه، فيقال: إنه ألقاه تحت أرجل الفيَلة، ثم صُلب عند البيمارستان

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٨٥

العَضُدي في شوال سنة سبعٍ وستين وثلاث مئة، ويقال إنه خَلَعَ في وزارته في عشرين يوماً عشرين ألف خِلْعة.

قال بعضهم: رأيته شرب ليلة، فخَلَعَ مئة خلعة على أهل المجلس.

وعاش نيفاً وخمسين سنة.

[حل المشكلات بأهون الأمور]

[حبْس الموفّق لابنه أبي العباس][1]

وفيها -يعني سنة خمس وسبعين ومئتين- حبس الموفّق ابنه أبا العباس، فشغب أصحابه وحملوا السلاح، واضطربت بغداد. فركب الموفّق وقال: يا أصحاب ولدي أتُراكم أشفق على ابني مني؟ وقد احتَجْت إلى تأديبه.

فوضعوا السلاح وتفرَّقوا، واطمأنوا عليه.

والله أعلم.

[١ - أمنية عالم أن يرى ربَّه]

قال ابن أبي حاتم: أخبرنا أحمد بن إسماعيل ابن عم زُرْعة أنه سمع أبا زرعة يقول في مرضه الذي مات فيه: اللهم إني أشتاق إلى رؤيتك، فإن قيل لي: بأيّ عمل اشتقت إليّ؟ قلت: برحمتك يا رب[2].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٢٧.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٢٩. وقد سلفت ترجمة أبي زرعة الرازي ص٢٣-٢٩.

[٢- أمنية الشافعي: وددت أن لي ولداً مثله]

عن المزني، قال: نظر الإمام الشافعي إلى محمد بن عبدالله بن عبدالحكم، وقد ركب دابته، فأتبعه بصره وقال: وددت أن لي ولداً مثله وعليَّ ألف دينار لا أجد قضاءها[١].

[أخلاق راقية]

[يأوي إلى فراشه وليس في صدره غائلة لمسلم]

قال يونس بن عبدالله بن مغيث: سمعت أبي يقول: أوثق عملي في نفسي سلامة صدري أني آوي إلى فراشي ولا يأوي صدري غائلة لمسلم[٢].

[من قصص الضلال]

[المتنبي وادعاء النبوة]

قال أبو القاسم التَّنوخيّ: كان المتنبي خرج إلى حلب وقام فيهم وادّعى أنه علويٌّ، ثم ادّعى بعد ذلك النبوة إلى أن شُهِد عليه بالكذب في الدعوتين، وحُبس دهراً وأشرف على القتل، ثم استتبوه وأطلقوه.

قال التنوخي: حدثني أُبَيُّ بن أبي علي بن أبي حامد: سمعنا خلْقاً بحلب يحكون والمتنبي بها إذ ذاك أنه تنبّأ في بادية السَّماوة، قال: فخرج إليه لؤلؤ أميرٌ حمصي من قِبَل الإخشيدية فأسره بعد أن قاتل المتنبي ومَن معه، وهرب مَن كان اجتمع عليه من حلب، حبسه دهراً، فاعتلّ وكاد أن يتلف، ثم استُتيب بمكتوبٍ.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٧٠.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٧٣.

وكان قد قرأ على البَوادي كلاماً ذكر أنه قرآن أُنزل عليه نَسَخْتُ منه سورة فضاعَتْ وبقي أوَّلُها في حفظي وهو: والنجم السَّيار والفَلَكِ الدَّوار والليل والنهار إن الكافر لَفِي أخطار، امْضِ على سُنَنِك واقْفُ أثَرَ من كان قبْلَكَ من المرسلين، وإن الله قامِع زَيْغَ مَنْ ألْحَدَ في الدين وضلَّ عن السبيل. قال: وهي طويلة. قال: وكان المتنبي كان إذا شُوغِبَ في مجلس سيف الدولة -ونحن إذ ذاك بحلب- يُذكر له هذا القرآن فينكره ويَجحده.

وقال له ابن خالَوَيْه النحويّ يوماً في مجلس سيف الدولة: لولا أنّ الآخر جاهلٌ لما رضي أن يُدعَى المتنبي لأن متنبِّئ معناه كاذب، فقال: إني لم أرضَ أن أُدْعَى به[1].

[حوارات ومناظرات]

[١- من روائع الشعر، والنقد الأدبي]

وقال صاحب اليتيمة: استنشد سيف الدولة أبا الطيب قصيدَتَه الميمية وكانت تعجبه، فلما قال له:

وقفت وما في الموت شكٌّ لِوَاقِف ... كأنَّك في جفْن الرَّدَى وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هَزِيمةً ... ووجْهُك وضّاحٌ وثغْرُك باسِمُ

فقال: قد انتقدنا عليك من البيتين كما انْتُقِد على امرئ القيس قوله:

كأنّي لم أركبْ جواداً ولم أقُلْ ... لخيلي كرّي كَرَّةً بعد إجفالِ
ولم أسبأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ للذَّةٍ ... ولم أتَبَطَّن كاعِباً ذات خلخالِ

(١) تاريخ الإسلام ١٠٣/٢٦.

ولك أن تقول الشطر الثاني من البيت الثاني مع الشطر الأول وشطره مع الثاني. فقال: أَيَّدكَ الله إنْ صح أنّ الذي استَدْرَكَ على امرئ القيس أعلمُ بالشِّعْر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأنا، ومولانا يعرف أنّ الثوب لا يعرفه البزّاز معرفة الحائك، لأن البزّاز يعرف جملته، والحائك يعرف جملته وتفاريقه، لأنه هو الذي أخرجه من الغزْل إلى الثَّوْبيّة، وإنما قرن امرؤ القيس لذَّةَ النساء بلذة الركوب إلى الصيد، وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في مُنازَلَة الأعداء. وأنا لما ذكرت الموتَ في أول البيت أتْبَعْتُه بذِكْر الرَّدَى وهو الموت لتجانُسِه، ولما كان وجه المنهزِم لا يخلو من أن يكون عَبُوساً وعينه من أن تكون باكية. قلت: (ووجهُك وضّاح وثغْرُك باسِمُ) لأجمعَ بين الأضداد في المعنى، وإنْ لم يتَّسع اللفظُ لجمعِها. فأُعجب سيفُ الدولة بقوله، ووصله بخمسمائة دينار.

[٢- ابن العميد وما قال حين سمع المحاورة بين الطبراني والجِعابي]

قال أبو الحسين بن فارس اللغوي: سمعت الأستاذ ابن العميد يقول: ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوة ألذّ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها، حتى شاهدت مذاكرة الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي فكان الطبراني يغلبه بكثرة حفظه، وكان الجعابي يغلب بفطنته وذكائه، حتى ارتفعت أصواتهما، ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي، فقال: هات، فقال حدثنا أبو خليفة، قال: حدثنا سليمان بن أيوب، وحدَّث بحديث، فقال الطبراني: أخبرنا سليمان بن أيوب ومني سمعه أبو خليفة، فاسمع مني حتى يعلو فيه إسنادك، فخجل الجعابي، فوددت أن الوزارة لم تكن، وكنت ابناً للطبراني وفرحت لفرحه أو كما قال[1].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/٢٠٦. وقد سلفت ترجمة الطبراني ص٦١ وما بعدها، وترجمة الجعابي ص١٥ وما بعدها.

[٣- المناظرة بحضرة القاضي]

قال طلحة بن محمد بن جعفر: استقضى المتقي لله سنة تسع وعشرين وثلاث مئة أبا طاهر محمد بن أحمد الذهلي، وله أُبُوَّة في القضاء، سديد المذهب، متوسط الفقه، على مذهب مالك، وكان له مجلس يجتمع إليه المخالفون ويناظرون بحضرته وكان يتوسط بينهم، ويتكلم بكلام سديد(١).

[أصحاب البديهة الحاضرة والقدرة على مواجهة المواقف]

[١- المنذر بن سعيد]

احتفل الخليفة عبدالرحمن الناصر الأموي (٢٧٧-٣٥٠هـ) لدخول رسول ملك الروم صاحب القسطنطينية بقصر قرطبة، فأحب أن يقوم الشعراء والخطباء بين يديه، فقدموا لذلك أبا علي القالي [اللغوي صاحب كتاب الأمالي] فقام وحَمَد الله تعالى وأثنى عليه، ثم أُرْتِجَ عليه وبهت وسكت، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد(٢) قاضي القضاة قرطبة قام قائماً دونه بدرجة من مرقاة أبي علي القالي ووصل افتتاح القالي بكلام عجيب بهر العقول جزالةً وملأ الأسماع جلالةً، فقال: أما بعد، فإن لكل حادثة مقاماً، ولكل مقامٍ مقالاً، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقامٍ كريم، بين يديْ ملك عظيم، فاصْغوا لي بأسماعكم، إن من الحق أنْ يقال للمُحِقّ: صدَقتَ، وللمُبْطِل: كذبْتَ، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتَقدَّس بأسمائه، أمر كَليمَه موسى أن يذكِّر قومه بنَعَم الله عندهم، وأنا أذكّركم نِعَمَ الله عليكم، وتلافيه لكم بولاية أميركم التي آمنتْ سربكم ورفعت خوفكم، وكنتم قليلاً فكثّركم ومستضعفين فقوّاكم، ومُستَذَلّين فنصركم، ولاّه الله أياماً ضربت الفتنة سُرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شُعَلُ النفاق حتى صرتم مثل حدقة البعير، مع

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٧٧.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٣٣، وقد سلفت ترجمة منذر بن سعيد قاضي القضاة بقرطبة ص٧٤.

ضيق الحال والتغيير، فاستُبْدِلتم من الشدة بالرخاء. فناشدتُكُمُ الله ألَمْ تكن الدماء مسفوكةً فحقنها، والسُبُلُ مخوفةً فأمَّنها، والأموال مُنتَهَبَةً فأحرزها، والبلاد خراباً فعمّرها، والثغور مهتضَمَة فحماها ونصرها؟، فاذكروا آلاءَ الله عليكم، وذكر كلاماً طويلاً وشعراً، فقطّب الرسول وصلَّب وتعجب الأمير عبدالرحمن منه وولاّه خطابة الزهراء، ثم قضاء الجماعة بمملكته، ولم يُحفظ له قضية جَوْر، وقد استعفى غير مرة فلم يُعف، والله أعلم.

[٢- ارتجال النجيرمي أبياتاً من الشعر]

لم يبلغ أحد من الخدام ما بلغ كافور[١]، وكان ذكياً له نظر في العربية والأدب والعلم، وممن كان في خدمته أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله النجيرمي النحوي صاحب الزجاج، فدخل يوماً على كافور أبو الفضل بن عيّاش فقال: أدام الله أيام سيدنا -بخفض أيام- فتبسم كافور ونظر إلى النجيرمي وقال ارتجالاً:

ومثلُ سيدِنا حالت مهابتُه ... بين البليغ وبين القول بالحصرِ
فإن يكن خَفَضَ الأيام من دَهَشٍ ... وشدة الخوف لا من قلَّة البَصَر
فقد تفاءلتُ في هذا لسيدنا ... والفأل مأثورة عن سيدِ البشرِ

فأمر له بثلاث مئة دينار[٢].

[التخلص من المواقف المحرجة]

[حسن تخلص العلماء من الطغاة]

قال عبدالغني: لما تلقّى أبو الطاهر القاضي المُعِزّ أبا تميم بالإسكندرية سأله المُعِزّ فقال: يا قاضي كم رأيت من خليفة؟ قال واحداً. قال: مَن هو؟ قال: أنت،

---

(١) سلفت ترجمة كافور الخادم الأسود الحبشي ص١٣٥ ما بعدها.
(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٥٠.

والباقون مُلُوك، فأعجبه ذلك. ثم قال له: أحَجَجْتَ؟ قال: نعم. قال: وسلَّمت على الشيخين: قال: شغلني عنهما النبي ﷺ، كما شغلني الخليفة عن وليّ عهده، فازداد به المعز إعجاباً، وتخلص من ولي العهد، إذ لم يسلّم عليه بحضرة المعز، فأجازه المعز يومئذ بعشرة آلاف درهم[1].

[٢- ما الذي حملك على مرثية عدوي؟]

رثى أبو الحسن محمد بن عمر الأنباري محمدَ بن بقية بن علي[2]، نصير الدولة، أبا الطاهر وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة بكلمته السائرة:

عُلُــوٌّ في الحيــاة وفي الممــات	لَحَــقٌّ أنــت إحــدى المُعْجِــزَاتِ
كــأنّ النّــاسَ حَوْلَــكَ حــين قــاموا	وُفُــودُ نــداكَ أيــام الصِّــلاتِ
كأنَّــك قــائمٌ فــيهم خطيبــاً	وكُلُّهُــمُ قِيــامٌ للصَّــلاة
ولمــا ضــاقَ بطــنُ الأرض عــن أنْ	يَضُــمَّ عُــلاكَ مــن بعــد المَــمَاتِ
أصــاروا الجَــوَّ قَــبْرَكَ واســتنابوا	عــن الأكفــان ثَــوْبَ السَّــافِياتِ
لِعِظَمِــكَ في النُّفُــوس تبيــت تُرْعَــى	بحُفَّــاظٍ وحُــرّاسٍ ثِقــاتِ
ولم أر قبــل جــذْعِكَ قَــطُّ جــذْعاً	تمكَّــن مــن عِنــاق المَكْرُمــاتِ

في أبيات أُخَر.

وبقي مصلوباً إلى أنْ توفي عضُد الدولة، ولما بلغ عضُدَ الدولة هذا الشعرُ قال: عليّ بقائله، فاختفى، ثم سافر بعد عامٍ إلى الصاحب إسماعيل بن عبَّاد، فقال: أنشدني القصيدة، فلما أتى هذا البيت الأخير، قام إليه وعانقه وقبّل فاهُ، وأنفذه إلى عضُد الدولة، فلما مَثُل بين يديه قال: ما الذي حملك على مرثية عدوِّي؟ قال: حقوقٌ

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٧٨.
(٢) سلف ترجمته ص١٨٥.

سلفتْ وأيادٍ مضتْ، فجاش الحزنُ في قلبي، فرثيت. فقال: هل يحضُرَكَ شيءٌ في الشُّموع، والشموع تُزهر بين يديه، فقال:

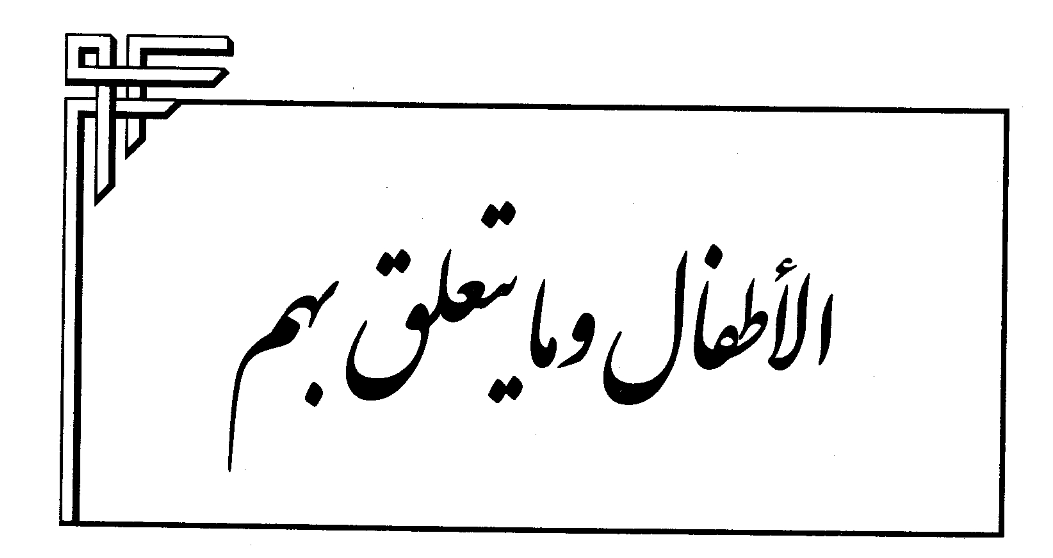
كـــأنّ الشُّـــموعَ وقـــد أظْهَـــرَتْ ... مـــن النـــار في كـــل رأسٍ سِـــنانا

أصـــابعُ أعـــدائك الخـــائفين ... تَضْـــرَعُ تَطْلُـــبُ منـــك الأمانـــا

قال: فأعطاه بِدْرَةً وفَرَساً، وهو من المُقلين في الشعر[1].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٨٦.



الأطفال وما يتعلق بهم



[اللهم أحسن خَلْقَهُ وخُلُقَه]

أحمد بن يونس بن المسيب الضبي[1]

أبو العباس الكوفي، نزيل أصبهان.

وقال محمد بن الفرخان: سمعت أحمد بن يونس يقول: قدَّمني أبي إلى الفُضَيل بن عِياض فمسح رأسي وسمعته يقول: اللهم أحسِن خَلْقَهُ وخُلُقَهُ.

وثّقه الدارقطني.

وهو ابن عم داود بن عمر الضبي شيخ البَغَوي.

توفي سنة ثمانٍ وستين ومئتين.

قلت: وكان من أبناء التسعين، صاحب رحلة ومعرفة.

[نباهة خالد بن يزيد وهو صغير وحسن جوابه]

خالد بن يزيد، أبو الهيثم التميمي الكاتب[2]

أحد الشعراء البُلَغاء.

توفي ببغداد سنة ٢٦٩هـ وقد شاخ وهرِم.

وأصله من خراسان.

حدَّث خالد الكاتب قال: أُدخلتُ على إبراهيم بن المهدي وأنا غلام، فقال: أنت خالد؟ قلتُ: نعم.

قال: أنشدني شيئاً.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٥٩.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٨٤.

قلت: أعز الله الأمير أنا حَدَثٌ أمْزَح، لا أهجو ولا أمدح، وإن رأى الأمير أن يعفيني.

قال: والله لتقولّن، فإن الذي تقوله في شجون نفسك أشدّ لدواعي البلاء. فأنشدته:

رأت منه عيني منظرين كما رأت — من البدر والشمس المنيرة بالأرض
عَشِيّةَ حيّاني بوردٍ كأنّه — خدودٌ أُضيفت بعضهنّ إلى بعض
وناولني كأساً كأنّ رُضابَها — دموعي لما صُدّ عن مقلتي غَمضي
وولّى وفِعْلُ السُّكْرِ في حَركاتِهِ — من الراح فِعْلَ الرّيحِ في الغُصن الغضّ

قال: فزحف. وقال: يا بني الناس يشبِّهون الخدود بالورد، وأنت شبّهت الورد بالخدود. زِدْني.

فأنشدته:

عِشْ فحبّيك سريعاً قاتلي — والضنى إنْ لم تصلني واصلي
ظفر الحبّ بقلبٍ دَنِفٍ — فيك والسّقم بجسمٍ ناحلِ
فهما بين اكتئابٍ وبِلَى — تركاني كالقضيب الذّابلِ
وبَكَى العاذل لي من رحمةٍ — فبُكائي لبكاء العاذلِ

قال: أحسنت. ووصلني بثلاثمائة وخمسين دينار.

وعن خالد الكاتب قال: طُرِقَ بابي بعد العتمة، فخرجت فإذا رجل على حمار مُغَطّى الرأس معه خادم، فقال: أنت الذي تقول:

ليت ما أصبح من رقّـ — ـة خَدَّيْك بقلبك

قلت: نعم.

قال: فأنت الذي تقول:

أقـــول للســـقم عُـــد إلى بـــدني   حبّـاً لشـــيء يكـــون مـــن ســببك

قلت: نعم.

قال: أنت الذي تقول:

ترشَّـــفْت مـــن شـــفتيه العُقـــارا   وقبّلْـــت مـــن خـــدّه الجُلَّنـــارا

قلت: نعم.

قال: يا غلام ادفع إليه ما معك.

فدفع إليّ صُرّةً فيها ثلاثمائة دينار.

قلت: والله لا أقبلها حتى أعرفك.

قال: أنا إبراهيم بن المهديّ.

وقد وَسْوس خالد وكبر، وكان يركب قصبة.

وقال بعضهم: فلو رأيته والصبيان يتبعونه ويقولون: يا بارد.

ويقولون: ما الذي صار بك إلى هذا؟ فيقول:

الهمـــــــوم والسَّـــــــهَر   والسُّـــــــهاد والفِكَـــــــر
ســـلّطت عـــلى جســـدٍ   فيـــه للبَلْـــوى أثـــر
لا ومَـــــن كَلفْـــتُ بـــه   مـــا يُطيـــق ذا بَشَـــر

وشعر بديع سائر.

[تأثير الآباء في إصلاح الأبناء]

[أبو قلابة عني به أبوه وأسمعه في صغره]

عبدالملك بن محمد بن عبدالله[1]

أبو قِلابة الرّقاشي. الحافظ العابد، رحمة الله عليه. عُنِي به أبوه، وأسمعه في صِغَره، وأشغله في العلم لما رأى من ذكائه، فإنه وُلد سنة تسعين ومائة.

قال الدارقطني: صدوق كثير الخطأ لكونه يُحدِّث من حفظه.

وقال ابن كامل القاضي: حُكي أنه كان يصلي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة.

قال: ويقال إنه حدَّث من حِفْظه بستين ألف حديث.

قلت: الذي كان يصلي أربعمائة ركعة هو والده فيما حكى أحمد العِجْليّ. فلعله فعل كأبيه.

وقال أبو عُبيد الآجُريّ: سألت أبا داود عنه، فقال: رجل صدوق أمين مأمون، كتبت عنه.

وقال محمد بن جرير الطبري: ما رأيتُ أحفظ من أبي قِلابة.

قلت: مات في شؤال سنة ستٍّ وسبعين ومئتين.

[تربية العلماء الصغار]

محمد بن عوف بن سفيان الحافظ[2]

أبو جعفر الطائي الحمصي.

رحل وسمع الكثير.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٩١.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٥٧.

وقد سمع منه: الإمام أحمد، مع جلالته، حديثاً رواه له، عن أبيه.

قال ابن عديّ: محمد بن عَوْف عالمٌ بحديث الشام، صحيحاً وضعيفاً.

وكان عليه اعتماد ابن جَوْصا، ومنه يسأل، وخاصة حديث أهل حمص.

قلت: وقد أثنى عليه غير واحد من الكبار، ووصفوه بالحفظ والتَّبَحُّر.

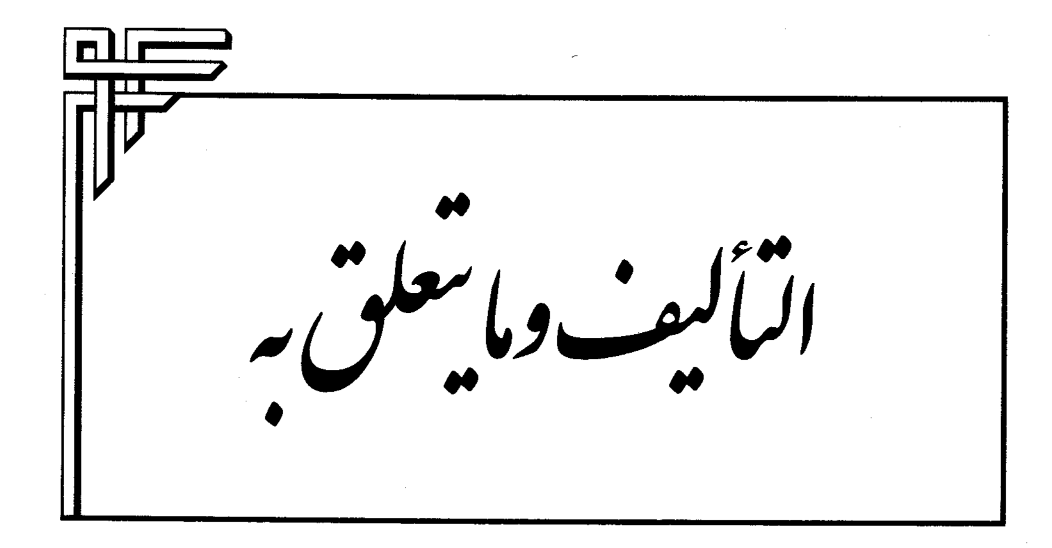
وقال القاضي عبدالصمد في «تاريخه»: سمعت محمد بن عوف يقول: كنت ألعب في الكنيسة بالكُرَة وأنا حَدَث، فدخلتْ الكرة إلى المسجد، فوقعت بالقرب من المُعافَى بن عِمْران، يعني الحمصيّ، فدخلتُ لآخذها، فقال: ابن مَن أنت؟

قلت: ابن عوف بن سفيان.

قال: أما إنّ أباك كان من إخواننا، وكان ممن يكتب معنا الحديث والعلم والذي يُشْبِهُكَ أن تَتَّبعَ ما كان عليه والدك. فصرتُ إلى أمي فأخبرتها، فقالت: صَدَق يا بني. فألبستني ثوباً وإزاراً، ثم جئت إليه ومعي مِحْبَرةٌ وورق، فقال لي: اكتُب، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد ربه بن سليمان قال: كتبت لي أمُّ الدرداء في لوحي: «اطلبوا العلم صغاراً تعملوا به كِباراً، فإن لكل حاصدٍ ما زرع».

فكان هذا أول ما سمعته.

توفي في وسط سنة اثنتين وسبعين ومئتين.



التأليف وما يتعلق به



[١- في بيته أربعون لحافاً أعدها للوراقين]

يعقوب بن شيبة بن الصلت بن عصفور[(١)]

الحافظ الكبير أبو يوسف السدوسي البصري، نزيل بغداد.

صنَّف مسنداً كبيراً إلى الغاية القصوى لم يُتمّه. ولو تمّ لجاء في مائتي مجلد.

قال الدارقطني: لو كان كتاب يعقوب بن شيبة مسطوراً على حَمّامٍ لوَجَبَ أن يُكتَب.

وقال أبو بكر الخطيب: حدثني الأزهري قال: بَلَغَني أنه كان في منزل يعقوب ابن شيبة أربعون لحافاً أعدَّها لمن كان يكتب عنده من الوراقين الذين يبيضون «المُسْنَد»، ولزِمه على ما خرج منه عشرة آلاف دينار.

قال: قيل لي: إن نسخةً بمُسْنَد أبي هريرة شوهِدت بمصر، فكانت مائتي جزء.

قال: والذي ظَهَرَ له من «المسند»: مسند العشرة، وابن مسعود، وعمار، وعُتْبة ابن غزوان، والعباس وبعض الموالي.

قلت: وبَلَغَني أن مسند عليّ ﷺ له في خمس مجلدات، وقع لنا الجزء الأول من مُسْنَد عمّار بعُلوّ.

قال أحمد بن كامل القاضي: كان يعقوب من كبار أصحاب أحمد بن المعدّل، والحارث بن مِسْكين. فقيهاً ثرياً. وكان يقف في القرآن، يعني لا يقول: مخلوق ولا غير مخلوق.

توفي في ربيع الأول سنة اثنتين وستين ومئتين.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/٢٠١.

[٢- نبذة عن مسند بقي بن مخلد]

وقال ابن حزم: مسند بَقِيَ بن مخلد روى فيه عن ألفٍ وثلاثمائة صاحب ونيِّف، ورتَّب حديث كل صاحبٍ على أبواب الفقه. **فهو مُسند ومصنَّف**. وما أعلم هذه الرتبة لأحدٍ قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث. وله مصنَّف في فتاوى الصحابة والتابعين، فمن دونهم الذي أوفى فيه على مصنَّف أبي بكر بن أبي شيبة، وعلى مصنَّف عبدالرزاق، ومصنَّف سعيد بن منصور.

ثم ذكر تفسيره وقال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام لا نظير لها. وكان متخيِّراً لا يُقلِّد أحداً.

وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل، وجارياً في مضمار البخاري، ومسلم، وأبي عبدالرحمن النسائي[١].

[٣- عنده قلم كتب به أربعين سنة]

قال أبو محمد الجريري: قال لي فتح بن شُخْرُف: من إعجابي بكل شيء جيد أن عندي قلمٌ كتبتُ به أربعين سنة. وكنت أكتب به بالليل والنهار في ضوء القمر، فإذا انشعب رأسه قَطَطْتُه، وهو عندي. فأخرجه من أنبوبة نحاس[٢].

[٤- ينسخ بالأجرة]

يعقوب بن يوسف بن مَعقل بن سِنان النيسابوري[٣].

كان من أبرع الناس خطاً. نسخ الكثير بالأُجرة.

ومات في المحرم سنة سبعٍ وسبعين ومئتين.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣١٧.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤١٢.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٩٦.

[٥- شعراء بني أمية]

صنف عبدالله بن محمد بن مغيث أبو محمد الأنصاري القرطبي الصفار للحكم المنتصر بالله صاحب الأندلس كتاب «شعراء بني أمية» فأجاد وجاء في مجلد[١].

[٦- أنفق كل ما ورثه على شراء الكاغد]

ذكر الخطيب أنه ورث سبعمائة دينار، اشترى بجميعها كاغداً في صفقة، ومكث دهراً يكتب فيه الحديث، رحمه الله[٢].

[٧- مؤلفات أبي علي القالي]

حكى هارون النحوي قال: دخل أبو علي القالي الأندلس في سنة ثلاثين وثلاث مئة، فقصد صاحبها عبدالرحمن الناصر لدين الله فأكرمه، وصنَّف لولده الحكم تصانيف، وبث علومه هناك، وكان قد بحث على ابن دَرَسْتَوَيْه الفارسي كتاب سيبويه، ودقق النظر، وانتصر للبصريين، وأملى أشياء من حفظه ككتاب «النوادر» وكتاب «الأمالي» الذي اشتهر اسمه، وكتاب «المقصور والممدود»، وله كتاب «الإبل» وكتاب «الخيل»، وله كتاب «البارع في اللغة» نحو خمسة آلاف ورقة، لم يؤلِّف أحدٌ مثله في الإحاطة والجمع لكن لم يتمّمه. وولاؤه لعبدالملك بن مروان، ولهذا قصد بني أمية ملوك الأندلس، فعَظُمَ عندهم، وكانت مؤلفاته على غاية الإتقان[٣].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٧٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٨٤.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٣٩.

[٨- صنف لبني أمية ملوك الأندلس]

قال أبو علي التنوخي: كان أبو الفرج الأصبهاني -صاحب كتاب الأغاني- يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والمسندات والأنساب ما لم أرَ قط من يحفظ مثله، ويحفظ سوى ذلك من علوم أُخر، منها اللغة والنحو والمغازي والسِّيَر، وله تصانيف عديدة، وحصل له ببلاد كُتُب صنفها لبني أمية ملوك الأندلس أقاربه، سيَّرها إليهم سِرّاً وجاءه الإنعام سِرّاً، فمن ذلك: «نسب بني عبد شمس» وكتاب «أيام العرب ألف وست مئة يوم»، وكتاب «جمهرة النسب»، وكتاب «نسب بني شيبان» وكتاب «نسب المهالبة» لكونه كان منقطعاً إلى الوزير المهلبي، وله فيه مدائح، وله كتاب «أخبار الشواعر» وكتاب «مَقاتِل الطالبيين» وكتاب «الزيارات» وهذا عجيب إذ هو مرواني يتشيع(١).

[٩- مصطلح كان دارجاً قديماً]

قال أبو جعفر بن أبي السريّ: لقيتُ ابنَ عُقدَةَ بالكوفة، فسألته يوماً أن يعيد لي فوتاً، أي: ما كان فاته من مجلس سماع الحديث(٢).

[١٠- صنف كتباً للحكم بن الناصر لدين الله صاحب قرطبة]

محمد بن حارث بن أسد(٣) أبو عبدالله الخُشَني القيرواني الحافظ

أخذ عن أحمد بن نصر، وأحمد بن زياد، ودخل الأندلس فسمع قاسم بن أصبغ، وأحمد بن عبادة، سكن قرطبة وتمكّن من صاحبها الحَكَم بن الناصر لدين

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٤٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٠٦، انظر ص٦٦ حيث تتمة القصة مع ابن عقدة.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٨٣.

الله، وصنّف له كتباً منها «الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك» وكتاب «الفُتْيا»، وكتاب «تاريخ الأندلس»، و«تاريخ الإفريقيين»، وكتاب «النَّسَب».

قال ابن الفَرَضيّ: بلغني أنه صنَّف للحَكَم مائة ديوان، وكان شاعراً بليغاً لكنه يَلْحَن، وكان يتعاطى الكيمياء، واحتاج بعد موت الحَكَم إلى أن جلس في حانوتٍ يبيع الأدْهان.

توفي في صفر سنة ٣٦١هـ.

[١١ - خصّ عبدان الأهوازي الميكالي أبا العباس بكتاب]

قال الحاكم: سمع أبو العباس إسماعيلُ بن عبدالله بن محمد الميكاليّ الأديب من عبدان الأهوازي كتاباً خصّه به، فسمعت أبا علي الحافظ يقول: استفدت منه أكثر من مئة حديث[1].

[١٢ - وضع القلم في المحبرة ورفع يديه يدعو فمات]

قال القاضي أبو زُرْعَة رَوْح سِبْط ابن السُّنّي: سمعت عمي علي بن أحمد بن محمد بن إسحاق يقول: كان أبي رحمه الله يكتب الحديث، فوضع القلم في أنبوبة المحبرة ورفع يديه يدعو الله تعالى، فمات رحمه الله، وذلك في آخر سنة أربعٍ وستين وثلاث مئة[2].

عاش بضعاً وثمانين سنة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٩١. وقد سلفت ترجمة أبي العباس الميكالي ص١٣٨ وما بعدها.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣١٩.

[١٣-ملك مكتبة ضخمة واهتم بالعلم]

الحَكَم المستنصِر بالله[١]، صاحب الأندلس أبو العاص بن الناصر لدين الله عبدالرحمن الأموي.

بقي في المملكة بعد أبيه ستة عشر عاماً، وعاش ثلاثاً وستين سنة. وكان حَسَنَ السيرة، مُكْرِماً للقادمين عليه. جَمَعَ من الكتب ما لا يُحَدّ ولا يوصَف كثرةً ونفاسةً، مع العلم والنَّباهة، وحُسْن السيرة وصفاء السريرة.

وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي، باذلاً فيها ما أمكن من الأموال، حتى ضاقت عنها خزائنه، وكان ذا غرامٍ بها، قد آثر ذلك على لذّات الملوك، فاستوسع علمه، ودقّ نظره، وجمّت استفادته. وكان في المعرفة بالرجال والأنساب والأخبار أُحْوَذِياً نسيجَ وحْدِه.

وكان أخوه عبدالله المعروف بالولد[٢] على هذا النمط من محبة العلم، فقُتل في أيام أبيه.

وكان الحَكَم ثقةً فيما ينقله.

قال ابن الأبّار: هذا وأضعافه فيه. وقال: عجباً لابن الفَرَضيّ، وابن بَشْكَوال كيف لم يذكراه. كنيته أبو العاص. وولي الأمر في سنة خمسين وثلاثمائة بعد والده، وقلّ ما نجد له كتاباً من خزانته إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فنّ كان، ويكتب فيه نَسَبَ المؤلف ومولِدَه ووفاته، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن.

توفي بقصر قرطبة في ثاني صفر سنة ٣٦٦هـ، رحمه الله.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/٣٥٨.

(٢) الولد: مصطلح أندلسي لا يُطلق إلا على الأمراء، وكثيراً ما يختص به ولي العهد.

وقد شدَّد في إبطال الخمور في مملكته تشديداً مُفْرِطاً، ومات بالفالج، وولي الأمر بعده ابنه المؤيَّد بالله هشام، وسِنُّه يومئذٍ تسع سنين، وقام بتدبير المملكة الحاجب أبو عامر محمد بن عبدالله بن أبي عامر العامري القحطاني الملقَّب بالمنصور، فكان هو الكُلّ.

[١٤- لا يأكل إلا من كسب يده]

كان أبو سعيد السيرافي الحسن بن عبدالله بن المَرْزُبان لا يأكل إلا من كسب يمينه تَدَيُّناً، وكان لا يجلس للقضاء ولا للاشتغال حتى ينسخ كراساً يأخذ أجرته عشرة دراهم[١].

[١٥- أثر التقوى والصلاح في التأليف]

ورد أن المزني الفقيه صاحب الشافعي كان إذا فرغ من مسألة وأودعها مختصره «مختصر المزني» صلى ركعتين[٢].

[مصطلحات تتعلق بالشعر والنثر]

[بدئ الشعر بملك وختم بملك]

الحارث بن سعيد بن حمدان[٣] الأمير أبو فراس التغلبي الشاعر المشهور

كان شجاعاً كامل الأدب بارع الشعر حتى كان الصاحب بن عبّاد يقول: بُدئ الشعر بملك وخُتم بملك، يعني بهما امرأ القيس، وأبا فراس. وقد أسرته الروم في وقعة وهو جريح في سنة ثمانٍ وأربعين وثلاث مئة، وأخذته إلى

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٩٥، وقد سلفت ترجمة أبي سعيد السيرافي ابن المرزبان ص١٢٤ وما بعدها.
(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٦٦.
(٣) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٥٩.

القسطنطينية، وفداه ابن عمه سيف الدولة منهم بعد سنين، وكانت مَنْبِج إقطاعاً له. وعاش سبعاً وثلاثين سنة، وله ديوان مشهور.

قُتل في هذه السنة -يعني سنة ٣٥٧هـ- ببرّيّة تدمر، وكان خرج على إثر أخيه صاحب حلب.

قال أبو علي التنوخي: كان أبو فراس قد برع في كل فضيلة، وحُسْن خُلق وخَلْق، وفروسية تامة، وشجاعة كاملة، وكرم مستفيض، وترسُّل، وشعْر في غاية الجودة، وديوانه كبير. تملّك حمص.

[ابن العميد]

محمد بن الحسين أبو الفضل بن العميد الكاتب كان آية في الترسل والإنشاء. وكان يقال: بدئت الكتابة بعبدالحميد وخُتمت بابن العميد[1].

[الرؤى والأحلام]

[١- أحب أن لا يقرأ عندي]

وعن محمد بن عليّ المادَرائي قال: كنت أجتاز بتُربة أحمد بن طولون فأرى شيخاً ملازماً للقبر -يعني قبر أحمد بن طولون-، ثم إنّي لم أره مدة. ثم رأيته فسألته، فقال: كان له علينا بعض العدل إن لم يكن الكل فأحببت أن أصِله بالقراءة.

قلت: فلِمَ انقطعت؟

قال: رأيته في النوم وهو يقول: أحبّ أن لا يُقْرأ عندي، فما آية إلا قُرِعْتُ بها وقيل لي: ما سمعتَ هذه؟[2]

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢١٦.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٩، وقد سلفت ترجمة أحمد بن طولون، ص٧ وما بعدها.

[٢- لا تعود ترى مناماً آخر]

عيسى بن الشيخ(١)

أحد الأمراء المذكورين. أبو موسى الشيباني الذُّهْليّ الدمشقي. ولي إمرة دمشق فأظهر الخلاف والخروج عن الطاعة سنة خمسٍ وخمسين ومئتين، وأخذ الأموال، وتغلَّب على دمشق، فوجَّه المعتمد لحربه جيشاً عليهم أماجور. فجهَّز الأمير عيسى لملتقاه وزيره ظفْر بن اليَمان وولده منصور بن عيسى، فانكسروا وقُتل ابنه في المعركة وأُسر الوزير، وصُلب في ظاهر البلد. وجرت له أمورٌ بعد ذلك.

قال الصولي: حدثني الحسين بن فَهْم أن بعض الظُّرَفاء قصد عيسى بن الشيخ بآمِد فأنشده:

رأيتــك بالمنــام خلعــتَ حقّــاً ... عــليَّ ببنفســجيّ وقَضَــيت دَيْنــي

فعجِّــلْ لي فِــداك أبي وأُمــيّ ... مقــالاً في المنــام رأتْــه عينــي

فقال: يا غلام، اعرض كل ما في الخزائن من الحرير.

فعرضه فوجد سبعين شقّة بنفسجي، فدفعها إليه وقال: كم دَيْنك؟ قال: عشرة آلاف درهم.

فأعطاه عشرين ألف درهم وقال: لا تعود ترى مناماً آخر.

قيل: إن عيسى مات سنة تسعٍ وستين ومئتين.

[٣- احذر لا آخذك على غِرَّة]

وقال ابن البربهاري: سمعت الفتح بن شُخْرُف يقول: رأيت رب العِزّة في المنام، فقال لي: يا فتح، احذر لا آخذك على غِرّة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٤٧.

قال: فتُهْت في الجبال سبْع سنين[1].

[٤- رؤيا أبي إسحاق الهجيمي]

إبراهيم بن علي بن عبدالله الأعلى[2] أبو إسحاق الهُجَيْمي البصري. توفي في آخر السنة -يعني سنة ٣٥١هـ-.

وكان معمَّراً من أبناء المائة، وهو مقبول الحديث.

قال الرازي في مشيخته: سمعت عبدالرحمن بن أحمد البخاري يقول: رأى أبو إسحاق الهَجَيْمي أنه تعمّم، فدوّر على رأسه مائة وثلاث دورات، فعبّر له أنه يعيش مائة وثلاث سنين، فلم يحدث حتى بلغ المائة، ثم حدّث فقرأ القارئ وأراد أن يختبر عقله:

إنّ الجبـــان حتفـــه مـــن فوقـــه كالكلـب يحمـي جلـدهُ برَوقِـه[3]

فقال الهجيمي: كالثور، فإن الكلب لا رَوق[4] له، ففرحوا بصحة عقله.

[٥- كان يكتب الحديث، ولا يكتب: (وسلم) بعد (صلى الله عليه)]

قال ابن مندة: سمعت حمزة بن محمد الحافظ يقول: كنت أكتب الحديث فلا أكتب: (وسلّم) بعد (صلى الله عليه)، فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي: أما تختم الصلاة عليَّ في كتابك؟[5]

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤١٣.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥١.

(٣) البيت لعامر بن فُهيرة التيمي، مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، استشهد ببئر مَعُونة، وكان إذا أصابته الحُمَّى يقول:

إنّي وجـــدت المـــوت قبـــل ذَوْقـــه إنّ الجبـــان حَتفـــه مـــن فوقـــه

كـــلَّ امـــرئٍ مجاهـــد بطَوْقـــه كـــالثور يحمـــي جِلْـــده برَوْقـــه

(٤) الروق: القرن من كل ذي قرن، وتثنيته: الرَّوْقان، والجمع أرواق.

(٥) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٦٢.

[٦- أنا عندكم إلى يوم الجمعة]

عبدالعزيز بن جعفر بن أحمد[1] بن يزداد، أبو بكر الفقيه الحنبلي، غلام الخلاّل شيخ الحنابلة وعالمهم المشهور.

تفقه بأستاذه أبي بكر الخلاّل، وسمع من عبدالله بن أحمد بن حنبل فيما قيل.

وكان كبير القدْر، صحيح النقل، بارعاً في نقل مذهبِه.

قال أبو حفص البرمكي: سمعت أبا بكر عبدالعزيز يقول: سمع مني شيخنا أبو بكر الخلاّل نحو عشرين مسألة وأثبتها في كتابه.

وقال أبو يَعْلَى القاضي: كان لأبي بكر عبدالعزيز مصنَّفات حَسَنة منها «المقنع» وهو نحو مائة جزء، وكتاب «الشافي» نحو ثمانين جزءاً، وكتاب «زاد المسافر» وكتاب «الخلاف مع الشافعي» وكتاب «مختصر السُّنَّة».

توفي في شوال سنة ثلاثٍ وستين وثلاث مئة، وله ثمانٍ وسبعون سنة في سنّ شيخه الخلاّل، وسنّ شيخ شيخه المَرْوزي، وسنّ أحمد بن حنبل.

ورُوي عنه أنه قال في مرضه: أنا عندكم إلى يوم الجمعة، فمات يوم الجمعة، رحمه الله تعالى. ويُذكَر عنه زُهْدٌ وقُنوع.

وقد ذكر أبو يعلى أنه كان معظَّماً في النفوس، متقدماً عند الدولة، بارعاً في مذهب أحمد.

أنبأنا المؤمّل بن البالِسي، أخبرنا أبو اليُمْن الكِنْدي، أخبرنا الشيباني، أخبرنا أبو بكر الخطيب، حدثنا أحمد بن الجُنَيْد الخطبي، حدثنا أبو بكر بن عبدالعزيز بن جعفر، حدثنا علي بن طَيْفُور، حدثنا قُتَيْبة، حدثنا عبدالوارث، عن عبدالرحمن بن

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٠٨.

إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ من تَعَلَّم القرآن وعلَّمَه»[1].

[٧- رأى الرسول ﷺ وقف على قبر يحيى]

محمد بن الحسن بن أحمد[2] بن إسماعيل، أبو الحسن النيسابوري السرّاج المقرئ الزاهد.

قال الحاكم: قَلَّ ما رأيت اجتهاداً وعبادة منه. وكان يعلِّم القرآن، وما أُشَبِّه حالَه إلا بحال أبي يونس القَوِّي الزاهد، صلّى حتى أُقْعِد، وبكى حتى عُمي. حدّث أبو الحسن من أصول صحيحه، وتوفي يوم عاشوراء سنة ٣٦٦هـ. وسمعته يقول: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فتبعته حتى وقف على قبر يحيى بن يحيى، وتقدَّم، وصفّ خلفه جماعة من الصحابة فصلّى عليه، ثم التفت فقال: هذا القبر أمان لأهل المدينة.

[٨- منامات الحافظ عبدالغني بن عبدالواحد الجماعيلي][3]

أورد له لشيخ الضياء عدة منامات منها:

سمعت أحمد بن يونس المقدسيَّ الأمين يقول: رأيت كأني بمسجد الدَّير وفيه رجال عليهم ثياب بيض، وقع في نفسي أنهم ملائكة، فدخل الحافظ عبدالغني، فقالوا بأجمعهم: نشهد بالله إنك من أهل اليمين مرتين أو ثلاثاً.

---

(١) أخرجه البخاري والترمذي وأبو داود. وفي أخرى للبخاري «أو علّمه». رواه البخاري ٩/ ٦٦ و٦٧ في فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه، وأبو داود رقم ١٤٥٢ في الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن، والترمذي رقم ٢٩٠٩ و٢٩١٠ في ثواب القرآن، باب: ما جاء في تعليم القرآن.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٦٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٦٨.

سمعتُ الحافظ عبدالغني يقول: رأيت النبي ﷺ في النوم وأنا أمشي خلفَهُ إلا أن بيني وبينه رَجُلاً.

سمعتُ الرضي عبدالرحمن بن محمد يقول: رأيت كأن قائلاً يقول: جاء الحافظ من مصر، فمضيتُ أنا والشيخ أبو عمرو العز ابن الحافظ إليه، فجئنا إلى دار ففُتِحَ الباب، فإذا الحافظ وعلى وجهه عمود من نور إلى السماء، وإذا والدته في تلك الدار.

سمعت الشيخ الصالح غشيم بن ناصر المصري قال: لما مات الحافظ كنت بمكة، فلما قدمتُ قلت: أين دُفن؟ قيل: شرقي قبر الشافعي، فخرجتُ، فلقيتُ رجلاً، فقلت: أين قبر عبدالغني؟ قال: لا تسألني عنه، ما أنا على مذهبه ولا أحبه، فتركته، ومشيت، وأتيت قبر الحافظ، وترددت إليه، فأنا بعض الأيام في الطريق فإذا الرجل فسَلَّم عليّ وقال: أما تعرفني؟ أنا الذي لقيتك من مدة وقلت لك كذا وكذا، مضيت تلك الليلة فرأيت قائلاً يقول لي: يقول لك فلان وسمّاني: أين قبر عبدالغني؟ فتقول: ما قلت؟ وكرر القول عليَّ، وقال: إن أراد الله بك خيراً فأنت تكون على ما هو عليه، ثم قال: فلو كنت أعرف منزلك لأتيتك.

سمعت أبا موسى ابن الحافظ، حدثني صنيعة الملك هبة الله بن حَيْدَرَة قال: لما خرجتُ للصلاة على الحافظ لقيني هذا المغربي[1] فقال: أنا غريب، رأيت البارحة كأني في أرض بها قوم عليهم ثياب بيض، فقلت ما هؤلاء؟ قيل: ملائكة السماء نزلوا لموت الحافظ عبدالغني، فقلت: وأين هو؟ فقيل لي: اقعد عند الجامع حتى يخرج صنيعة الملك فامضِ معه، قال: فلقيته واقفاً عند الجامع.

سمعتُ الفقيه أحمد بن محمد بن عبدالغني سنة اثنتي عشرة يقول: رأيت البارحة أخاكَ الكمال عبدالرحيم -وكان توفي تلك السنة- في النوم، فقلت: يا فلان أين أنت؟ قال: في جنة عَدن، فقلت: أيما أفضل الحافظ أو الشيخ أبو عمر؟ فقال: ما

---

(١) كان رجلاً مغربياً معه، فهو يشير إليه.

أدري، وأما الحافظ فكل ليلة جمعة يُنصب له كرسيٌّ تحت العرش، ويقرأ عليه الحديث، ويُنْثَرُ عليه الدُّرُّ والجوهر، وهذا نصيبي منه، وكان في كُمّه شيءٌ.

سمعتُ الشيخ عبدالله بن حسن بن محمد الكردي بحرّان يقول: قرأتُ في رمضان ثلاثين ختمة، وجعلت ثواب عشرٍ منها للحافظ عبدالغني، فقلت في نفسي: ترى يصل هذا إليه؟ فرأيت في النوم كأنّ عندي ثلاثة أطباق رطب، فجاء الحافظ وأخذ واحِداً منها. ورأيته مرة فقلت: أليس قد مُتَّ؟ قال: إن الله أبقى عليَّ وردي من الصلاة، أو نحو هذا.

سمعتُ القاضي الإمام عمر بن علي الهكّاري بنابلس يقول: رأيتُ الحافظ كأنه قد جاء إلى بيت المقدس، فقلتُ: جئتَ غيرَ راكب، فعل الله بمن جئت من عندهم! قال: أنا حملني النبي ﷺ.

[الوضع في الحديث النبوي]

[١- ابن أخي معمر يدخل على معمر أحاديث مكذوبة]

أحمد بن الأزهر بن مَنيع بن سَليط[١]

أبو الأزهر العبْديّ النيسابوري الحافظ.

حجّ ورأى سفيان بن عُيَيْنَة.

وكان أبو الأزهر ثقةً بصيراً بهذا الشأن، روى عن عبدالرزاق حديثاً مُنْكَراً هو منه إن شاء الله بَرِيْءُ العهدة. وهو: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عُبَيْد الله بن عبدالله، عن ابن عباس قال: نظر النبي ﷺ إلى عليّ فقال: «أنت سيدٌ في الدنيا سيدٌ

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٠.

في الآخرة. من أحبَّكَ فقد أحبّني، وحبيبي حبيب الله. وعدوَّك عدوي، وعدوي عدو الله، والويل لمن أبغضك مِن بعدي».

قال أحمد بن يحيى بن زُهير التستري: لما حدَّث أبو الأزهر بهذا الحديث أُخْبِر يحيى بن معين بذلك، فقال: مَن هذا الكذاب النيسابوري الذي حدَّث بهذا؟

فقام أبو الأزهر فقال: هو ذا أنا.

فتبسَّم ابن مَعين وقال: أما إنك لست بكذاب. وتعجّب من سلامته، وقال: الذَّنْب لغيرك في هذا الحديث.

قال أبو حامد بن الشرقي، هذا حديث باطل، وكان لَمَعْمَر ابن أخٍ رافضيّ، وكان مَعْمَر يمكِّنه من كُتُبه، فأدخل عليه هذا. وكان مَعْمَر رجلاً مَهيباً، لا يقدر عليه أحد في السؤال والمراجعة، فسمعه عبدالرزاق في كتابه.

وقال غير واحد، عن مكيّ بن عَبْدان: سمعت أبا الأزهر يقول: خرج عبدالرزاق إلى قريته، فبكَّرت إليه قبل الصُّبْح، فلما رآني قال: كنت البارحة هنا؟ قلت: لا، ولكن خرجت في الليل.

فأعجبه ذلك. فلما فرغ من صلاة الصُّبح دعاني وقرأ عليّ هذا الحديث، وخصّني به دون أصحابي.

وروى أبو محمد بن الشرقي، عن أبي الأزهر قال: كان عبدالرزاق يخرج إلى قريته، فذهبت خلفه، فرآني أشتدّ، فال: تعالَ. فأركبني خلفه على البغْل، ثم قال لي: ألا أُخبرك حديثاً غريباً؟ قلت: بلى.

فحدَّثني الحديث. فلما رجعت إلى بغداد أنكر عليّ ابن مَعين وهؤلاء، فحلفت أن لا أحدّث به حتى أتصدّق بدرهم.

وقد رواه محمد بن علي بن سفيان النجار، عن عبدالرزاق.

قال أبو حامد بن الشرقي: قيل لي: لِمَ لا ترحل إلى العراق؟ قلت: وما أصنع وعندنا من بنادرة[1] الحديث ثلاثة: محمد بن يحيى، وأبو الأزهر، وأحمد بن يوسف السُّلَميّ.

قال الحسين بن محمد القباني: توفي سنة ثلاث وستين ومئتين.

[٢- يضع الحديث وينسبه لأصحاب الحديث]

محمد بن شجاع[2]

أبو عبدالله بن الثَّلْجي البغدادي.

قال ابن عديّ: كان يضع أحاديث في التشبيه وينسبها إلى أصحاب الحديث يَثْلبهم بذلك.

روى عن حبان بن هلال، عن حمّاد بن سَلَمَة، عن أبي المُهَزِّم، عن أبي هريرة يرفعه: «إنّ الله خلق الفَرَس فعرقت، ثم خلق نَفَسَه منها».

قلت: هذا كذب لا يدخل في عقل المجانين لاستحالته، إلا أن يريد خَلَقَ شيئاً سَمّاهُ نَفَساً، وأضافه إليه إضافة ملك. وبكلّ حال هذا والله كذب بيقين.

٣- كان يضع الحديث

عبدالله بن سِنان[3]

أبو محمد السَّعْدي الروحيّ البصْريّ. قاضي الدِّينَوَر

قال الدارقطني: متروك.

---

(١) بنادرة: مفردها بُنْدار، وهو الحافظ في بلده.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٦٥.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٨٠.

وقال أبو نُعَيْم الأصبهاني: كان يضع الحديث.

وقال كثيرٌ غيره: وضع كثيراً على رَوْح بن القاسم.

[٤- عج حجر... حديث موضوع]

محمد بن عبيد الله بن محمد بن الحكم، أبو الحسين، ويقال: أبو سعد القربي[١].

ذكر ابن عساكر حديثين ساقطين، أحدهما هو عن أبيه، عن دُحَيْم، عن الوليد.

وعن أبيه، عن عمر بن عبدالواحد، عن الأوزاعي بإسناد الصحيحين مرفوعاً قال: عَجَّ حَجَرٌ إلى الله فقال: عبدتُك سِنين ثم جعلتني أساس كَنيف! فقال: أما ترضى أنّي عَدَلْتُ بك عن مجالس القُضاة! هذا وضعه هذا أو أبوه بيقين، رواه عنه تمّام.

[٥- طرق الكشف عن الكذابين في الحديث]

[الشيخ كذاب]

محمد بن الحسن بن كوثر أبو بحر البربهاري[٢]، بغدادي مُعَمّر انتخب عليه الدراقطني وأبو حفص بن شاهين.

قال أبو نعيم: كان يقول لنا الدارقطني: اقتصروا من حديث أبي بحر على ما انتخبته حسب.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٩٧.

وقال البرقاني: حضرت يوماً عند أبي بحر، فقال لنا ابن السرخسي: سأريكم أن الشيخ كذاب، ثم قال له: فلان بن فلان ينزل المكان الفلاني، سمعتَ منه؟ قال: نعم. قال البرقاني: ولم يكن له وجود.

قال ابن أبي الفوارس: توفي لأربع بقين من جمادى الأولى سنة ٣٦٢هـ. ومولده سنة ست وستين ومئتين، وكان مخلطاً، وله أصول جياد وله شيء رديء.

[الكنى والألقاب]

[١- الحافظ أبو زرعة القرشي المخزومي، مولاهم الرازي]

وقال جعفر بن محمد الكِنْديّ: حدثنا أبو زُرْعَة الدمشقي قال: قدِم علينا جماعة من أهل الريّ دمشقَ منهم: أبو يحيى فَرْخوَيْه. فلما انصرفوا إلى الريّ، فيما أخبرني غير واحدٍ، منهم أبو حاتم الرازي، رأوا هذا الفتى قد كاس -يعني أبا زرعة الرازي- فقالوا: نُكَنِّيك بكُنْية أبي زُرْعة الدمشقي. ثم اجتمعت بأبي زُرْعة الرازي بدمشق، فكان يذكرني بهذا ويقول: بكُنْيَتِك اكتَنَيْت[1].

[٢- المكنسة بقي بن مخلد[2]]

قال أحمد بن أبي خَيْثَمة: ما كنا نسميه إلا المِكْنَسَة. وهل احتاجَ بلدٌ فيه بَقِيٌّ إلى أن يأتي إلى ها هنا منه أحد؟

[٣- خياط السنة]

زكريا بن يحيى بن إياس بن سَلَمَة أبو عبدالرحمن السِّجْزِيُّ الحافظ، نزيل دمشق ويعرف بخياط السنّة[3].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ١٢٦. وقد سلفت ترجمة أبي زرعة الرازي ص٢٣ وما بعدها.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣١٣، وق سلفدت ترجمة بقي بن مخلد ص٤٠ وما بعدها.

(٣) تاريخ الإسلام ٢١/ ١٨٠، ٢٥/ ٤٦٥.

مولده سنة خمس وتسعين ومئة، وتوفي سنة تسع وثمانين ومئتين عن أربع وتسعين سنة.

قلت: كان يعرف بخياط السنّة لأنه كان يخيط أكفان أهل السنّة[1].

[٤- مسند الدنيا]

سليمان بن أحمد بن أيوب[2] أبو القاسم اللخمي الطبراني الحافظ المشهور مسند الدنيا

[منع أهلُ البدعة أهل الحديث من التحديث وكيف تخلصوا من ذلك]

السَّرِيّ بن خُزَيْمَة بن معاوية[3]

الحافظ أبو محمد الأبيورْدِيّ الثقة.

سمعتُ محمد بن صالح بن هانئ يقول: لَمَّا قُتِلَ حَيْكان[4] رفضوا مجالس الحديث، حتى لم يقدر أحد أن يأخذ لنيسابور مَحْبَرة، إلى أنْ مَنَّ الله علينا بورود السريّ بن خُزَيْمة. فاجتمعنا لنذهب إليه فلم نقدر. فقصدنا أبا عثمان الحيريّ الزاهد، واجتمع الناس عنده. وأخذ أبو عثمان مِحْبَرةً بيده، وأخذنا المحابر بأيدينا، فلم يقدر أحد من المبتدِعة أن يقرب منّا. فخرج السريّ، فأملى علينا وأبو بكر بن خُزَيْمَة ينتخب.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٠٧.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ١٠٢، وقد سلفت ترجمة الطبراني ص٦١ وما بعدها.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣٥٢.

(٤) سلفت ترجمة حيكان يحيى بن محمد بن يحيى ص٨٢ وما بعدها.

وسمعتُ أبا الفضل يعقوب بن الحسن ين يعقوب يقول: ما رأيت مجلساً أبهى من مجلس السَّرِيّ بن خُزَيْمة، ولا شيخاً أبهى منه. كانوا يجلسون بين يديه وكأنما على رؤوسهم الطير. وكان لا يُحدِّثُ إلا من أصل كتابه، رحمه الله تعالى.

[من رجالات الخوارج في الأندلس]

عمر بن حفصون[1]

رأس الخوارج بجزيرة الأندلس. ظهر من أعمال رَيَّة، وكاد أن يغلب على الأندلس، وأتعبَ السلاطين. وطال أمره وعظُم البلاء به.

وكان جَلْداً شجاعاً فاتكاً. وكان يتحصَّن بقلعةٍ منيعة.

وجرت له أمور يطول شرحها، إلى أن قُتِل سنة خمسٍ وسبعين ومائتين.

[فلسطين، أخبار تتعلق بها]

لقي الطبرانيُّ أحمدَ بن عبدالله اللحياني العكاوي بعكا سنة خمس وسبعين ومئتين[2].

وكان مولد الطبراني بعكا في صفر سنة ستين ومئتين وكانت أمه من عكا[3].

وفي سنة ثلاث وستين وثلاث مئة توفي العبد الصالح الزاهد الشهيد أبو بكر ابن النابلسي. كان يرى قتال المغاربة يعني بني عُبَيْد، وكان قد هرب من الرملة إلى دمشق[4].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٤٠٧.
(٢) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٢٥٨.
(٣) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٠٣.
(٤) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣١١.

[مصطلحات قديمة]

[فندق]

قال بقي بن مخلد: رحلت من مكة إلى بغداد، فأحللت بغداد واكتريت بيتاً في فندق[1].

[من الذين ادعوا المهدية]

وفي سنة سبع وخمسين وثلاث مئة كانت فتنة الأمير أبي الحسن محمد بن المستكفي بالله عبدالله بن المكتفي بالله علي ابن المعتضد العباسي لما خلع أبوه المستكفي وسُمل، وهرب هو ودخل الشام ومصر، وأقام هناك عند كافور الإخشيدي فلاذَ به جماعة وأطمعوه في الأمر وقالوا: إن رسول الله ﷺ قال: «المهدي من بعدي، يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي» وإن أنت قدمت بغداد بايعك الديلم، فتوجَّه إلى بغداد ثم دخلها سِرّاً وبايعه جماعة من الديلم في هذه السنة ثم قبض عليه عز الدولة، ثم جدع أنفه وقطع شفته العليا وشحمتي أذنيه وسجن بدار الخلافة[2].

[من حوادث سنة ست وخمسين وثلاث مئة]

[بطولات إسلامية]

ودخل الثغر محمد بن عيسى رئيس الخراسانية ومعه ابن شاكر الطرسوسي، فظفروا وغنموا وردّوا بالغنائم. وتأخّر في الساقة محمد بن عيسى وابن شاكر في نحو ثمانمائة فارس، فدَهَمَهُمْ جموع الروم، فقال ابن عيسى: ما أستحلّ أن أُوَلّيهم الدُّبُر بعد أن قرُبُوا. وسار ابن شاكر يكشفهم فإذا هم فيما يقال في ثلاثين ألفاً، فرجع وقال: لا طاقة لك بهؤلاء، فلم يقبل، والتقاهم وقاتلوا أشدّ قتال، وأنْكوا في الروم

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٠/ ٣١٨.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٣٩.

نكاية عظيمة، واستُشْهد عامة المسلمين. وبقي محمد بن عيسى في مائة وخمسين فارساً، فقال له ابن شاكر: لا تُلقي بيدك إلى التهلكة، فقال له فقيه معه: إن وَلَّيْتَ الدُّبُرَ لحِقوك وقتلوك وأنت فارٌّ، فقاتَلَ حتى قُتل أكثر أصحابه، ثم أُسر محمد بن عيسى، وابن شاكر، ثم ورد الخبر بأن ابن عيسى اشترى نفسه بمائة ألف درهم وبمائة وعشرين عِلْجاً كانوا بأنطاكية، وبرطل فصوص فيروزج، وإنه بعد ذلك غزا العدوَّ وظفر[1].

[حوادث سنة ثلاث وستين وثلاثمائة]

[من القضاة العادلين]

فيها تقلّد قضاء القضاة أبو الحسن محمد بن أم شيبان الهاشمي[2]، وعُزل ابن معروف بحكومة ابتغى فيها وجه الله، وسأل مع ذلك الإعفاء من القضاء، فخُوطِب أبو الحسن، فامتنع، فأُلزم، فأجاب وشرط لنفسه شروطاً، منها أنه لا يرتزق على القضاء ولا يخلع عليه ولا يُسام ما لا يوجبه حكم، ولا يشفع إليه في إيقاف حق أو فعْل ما لا يقتضيه شَرْع.

وقرر لكاتبه في كل شهر ثلاثمائة درهم، ولحاجبه مائة وخمسون درهماً، وللعارض على بابه مائة درهم، ولخازن ديوان الحكم، والأعوان ستمائة درهم.

وركب إلى المطيع لله حتى سلّم إليه عهده، فركب من الغد إلى الجامع، فقُرئ عهده، وتولى إنشاءه أبو منصور أحمد بن عبيد الله الشيرازي صاحب ديوان الرسائل.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٩.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٢٥١.

[أسقطت شهادته لسوء طريقته وظلمه]

ابن ياسين[1]

الشيخ المُسْنِد الأمين الحجّاج أبو منصور سعيد بن محمد بن ياسين بن عبدالملك ين مُفَرّج البغدادي البَزّار السَّفّار.

قال ابن أنجب في تاريخه[2]: حجّ تسعاً وأربعين حجة.

قلت: أُسقطت شهادته لسوء طريقته وظُلمه.

توفي في خامس صَفَر سنة أربع وثلاثين وست مئة.

[جمع تاريخاً ولم يكن محققاً فيما ينقله ويقوله]

ابن القطيعي[3]

الشيخ العالِمُ المُحدِّثُ المفيد المؤرخ المُعمَّر مسند العراق شيخ المستنصرية أول ما فُتحت[4] أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن حسين البغدادي ابن القطيعي.

وُلد في رجب سنة ست وأربعين وخمس مئة.

لزمَ الشيخ أبا الفرج ابن الجوزي، وقرأ عليه كثيراً، وأخذ عنه الوعظ، وجمع «ذيل التاريخ» لبغداد، وما تمَّمَهُ، وخَدم في بعض الجهات، ونابَ عن الصاحب

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٥.

(٢) هو تاج الدين عليّ بن أنجب المعروف بابن الساعي البغدادي خازن كتب المدرسة المستنصرية وصاحب التصايف الكثيرة المشهورة، ومنها تاريخه هذا الذي تظهر النقول عنه أنه كان من التواريخ المفصلة المستوعبة وقد رتبه على السنين، وفيه الحوادث والوفيات. توفي ابن الساعي سنة ٦٧٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٨.

(٤) يعني شيخ دار الحديث بالمستنصرية.

محيي الدين ابن الجوزي في الحِسْبَة، وفتر عن الحديث، بل تركه، ثم طالَ عمره، وعلا سندُهُ، واشتهر ذكرُهُ، فأُعطي مشيخة المستنصرية. وكان يَخْضِب بالسواد، ثم تركه. وكان آخر من حدَّثَ ببلده «بالصحيح» كاملاً عن أبي الوَقْت، وتفرَّد بعدة أجزاء.

قال ابن نُقْطَة: هو شيخٌ صالح السَّماع، صنَّف لبغداد «تاريخاً» إلا أنه ما أظهره.

قلت: وكانَ له أصول يروي منها، وكان يتعاسر في الرواية.

قال ابن النجار: جمع «تاريخاً»[1] ولم يكن مُحقِّقاً فيما ينقله ويقوله، عفا الله عنه. وتفرَّد بالرواية عن جماعة، أذهب عُمره في «التاريخ» الذي عمله، طالعتُهُ فرأيتُ فيه كثيراً من الغلط والتصحيف، فأوقفته على وجه الصواب فيه فلم يَفْهَم، وقد نقلت عنه، منه أشياء لا يطمئن قلبي إليها، والعُهدة عليه. وسمعت عبدالعزيز بن دُلَف يقول: سمعتُ الوزير أبا المظفر بن يونس يقول لأبي الحسن ابن القَطيعي: ويلك عُمرَكَ تقرأ الحديث ولا تُحسن تقرأ حديثاً واحداً صحيحاً.

قال ابن النجار: وكان لَحَنةً، قليل المعرفة بأسماء الرجال، أَسَنَّ وعُزِلَ عن الشهادة، وأُلزم منزله.

توفي في رابع أو خامس ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وست مئة.

مرتضى[2]

ابن العفيف أبي الجود حاتم بن المُسَلَّم بن أبي العرب، الشيخ الإمام المقرئ المحدث أبو الحسن الحارثي المصري الحَوْفي.

---

(١) سماه «درة الإكليل في تتمة التذييل»، قال ابن رجب: رأيت أكثره بخطه، وقد نقلت منه في هذا الكتاب كثيراً، وفيه فوائد جمة مع أوهام وأغلاط. وكتابه هذا يشبه تاريخ ابن الدبيثي من حيث هو ذيل على ذيل السمعاني.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١١.

مولده بالحَوْف[1] سنة تسع وأربعين وخمس مئة تقريباً.

وقرأ بالسبع، وسمع من أبي طاهر السِّلَفيّ.

قال المنذري: كان على طريقة حَسَنة، كثير التلاوة ليلاً ونهاراً، وأبوه أحد المنقطعين المشهورين بالصلاح.

قلتُ: حدّث مرتضى بدمشق، وكان عنده فقه ومعرفة ونباهة. كتب بخطه الكثير.

[مبالغات لا تسلم في الثناء على الرجال]

وقال التقي عبيد: كان فقيراً صبوراً له قبولٌ، يختم في الشهر ثلاثين ختمة. وله في رمضان ستون ختمة رحمه الله.

توفي بالشارع[2] في التاسع والعشرين من شوال سنة أربع وثلاثين وست مئة، وكان شافعياً.

مُكْرَم بن محمد[3]

ابن حمزة بن محمد بن أحمد بن سلام بن أبي جميل بن أبي الصقر، الشيخ الأمين المسند المعمَّر أبو المُفضَّل نجمُ الدين وَلَد الإمام المُحدِّث العَدْل أبي عبدالله ابن الشيخ أبي يَعْلَى القرشي الدمشقي التاجرُ السَّفّار.

وُلد في رجب سنة ثمان وأربعين وخمس مئة.

قال المنذري: كان يقدم مصر كثيراً للتجارة.

---

(١) كورة مشهورة قصبتها بلبيس من ديار مصر، قيدها المنذري.

(٢) محلة بظاهر القاهرة.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٤.

[فيه مجون ولم يكن مكرماً لأصحاب الحديث]

وقال ابن الحاجب: كان يواظب على الخمس في جماعة، وكان كثير المجون مع أصحابه، ولم يكن مُكْرِماً لأصحاب الحديث بل يتعاسر عليهم.

قلتُ: توفي في ثاني رجب سنة خمس وثلاثين وست مئة، ودُفن على والده بمقبرة باب الصغير.

[كان مالكياً فأصبح ظاهرياً متعصباً لابن حزم]

ابنُ الرومية[1]

الشيخ الإمام الفقيه الحافظ الناقد الطبيب أبو العباس أحمد بن محمد بن مُفرّجٍ الإشبيلي الأموي، مولاهم، الحَزْميُّ الظاهري النباتي الزَّهْرِي العشّابُ.

وُلد سنة إحدى وستين وخمس مئة.

قال أبو عبدالله الأبّار: كان ظاهرياً متعصباً لابن حَزْمٍ، بعد أن كان مالكياً. قال: وكان بصيراً بالحديث ورجاله، وله مجلدٌ مفيد فيه استلحاقٌ على «الكامل» لابن عدي، وكانت له بالنبات والحشائش معرفٌ فاقَ فيه أهل العصر وجلس في دكان لبيعها.

والزَّهري: بفتح أوله.

قلتُ: له كتاب «التذكرة» في معرفة شيوخه، وله كتاب «المعلم بما زادَ البخاريُّ على مسلم».

مات فُجاءةً في سَلْخ ربيع الأول سنة سبعٍ وثلاثين وست مئةٍ، ورُثي بقصائد.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٥٨.

[قاضٍ ظالم فاسد]

الرفيع[1]

العلاّمة الأصولي الفيلسوف رفيع الدين قاضي القضاة أبو حامد عبدالعزيز ابن عبدالواحد بن إسماعيل الجيليُّ الشافعي

كانَ قد أمعنَ في علم الأوائل، وأظلم قلبُهُ وقالبُهُ، وقَدِمَ دمشق وتصدَّرَ، ثم وَلِيَ قضاء بعلبك للصالح إسماعيل، فنفق عليه وعلى وزيره الأمين المسلماني، ولما غلب إسماعيل على دمشق ولاه قضاءَها، فكان مذموم السيرة، خبيث السريرة، وواطأه أمين الدولة على أذية الناس، واستعمل شهود زور ووكلاء، فكان يُطلب ذو المال إلى مجلسه فيبث مدّعٍ عليه بألف دينار ويحضر شهودُهُ، فيتحير الرجل ويُبهَتُ، فيقول الرفيع: صالِحْ غريمَكَ، فيصالح على النصف، فاستُبيحت أموال المسلمين، وعظُمَ الخطب، وتعثّر خلقٌ، وعظُمت الشناعات، واستغاثوا إلى الصالح، فطلب وزيره، وقال: ما هذا؟ فخاف، وكان أُسّ البلاء الموفّق الواسطي فتحَ أبواب الظلم، فبادر الوزير وأهلكهما لئلا يقرّا عليه وليرضيَ الناسَ، ويقال: كان الصالح يدري أيضاً.

ذكر الصدرُ عبدالملك بنُ عساكر في «جريدته» أن القاضي الرفيع دخلَ من توجهه إلى بغداد رسولاً، فركب لتلقّيه الوزير أمين الدولة، والمنصور ولدُ السلطان، فدخل في زخمٍ عظيم، وعليه خلعةٌ سوداء وعلى جميع أصحابه، فقيل: ما دخل بغداد ولا أخذت منه الرسالة، فردَّ واشترى الخلعَ لأصحابه من عنده، قال: وشرع الصالح في مصادرة الناس على يد الرفيع، وكتب إلى نوابه في القضاء يطلب منهم إحضار ما تحت أيديهم من أموال اليتامى، وكان يسلُك طريق الولاة، ويحكمُ بالرشوة، ويأخذ من الخصمين، ولا يعدّل أحداً إلا بمال، ويأخذ جهراً، واستعارَ أربعين طبقاً ليهدي فيها إلى صاحب حمص فلم يردّها، وغارت المياهُ في أيامه،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٠٩.

ويبست الشجر وصقعتْ، وبطلت الطواحين، وماتَ عجميٌّ خَلَّفَ مئة ألفٍ فما أعطى بنتَه فلساً، وأذِنَ للنساء في عبور جامع دمشق، وقال: ما هو بأعظم من الحرمين فامتلأ بالرجال والنساء ليلة النصف.

وقال سِبْطُ الجوزي: حدثني جماعة أعيان أنَّ الرفيع كان فاسد العقيدة دهرياً يجيء إلى الجمعة سكراناً، وأن دارَه مثل الحانة.

وحكى لي جماعة أن الوزير السامري بعث به في الليل على بغلٍ بأكافٍ إلى قلعة بعلبك ونفذ به إلى مغارة أفقه فأهلكه بها، وتُرِكَ أياماً بلا أكلٍ، وأشهد على نفسه ببيع أملاكه للسامري، وأنه لما عاينَ الموت قال: دعوني أصلي، فصلى فرَفَسه داود من رأس شقيفٍ فما وصل حتى تقطّع، وقيل: بل تعلّق ذيلُهُ بسنّ الجبل، فضربوه بالحجارة حتى مات.

وقال رئيس النَّيْرَب: سُلِّم الرفيع إليّ وإلى سيف النقمة داود، فوصلنا به إلى شقيفٍ فيه عينُ ماءٍ فقال: دعوني أغتسل، فاغتسل وصلَّى ودعا فدفعه داود فما وصل إلا وقد تلفَ، وذلك في أول سنة اثنتين وأربعين وست مئة.

[من العلماء السلفيين]

ابن المَجْد[1]

الإمام العالم الحافظ المتقن القدوة الصالح سيف الدين أبو العباس أحمد ابن المحدث الفقيه مجد الدين عيسى ابن الإمام العلاّمة موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة، المقدسي الصالحي الحنبلي.

وُلد سنة خمس وست مئة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١١٨.

سمع أبا اليُمْن الكندي، وابن الحرستاني، وابن مُلاعِبٍ، وجدَّهُ، وجماعة. وتخرج بخاله الحافظ ضياء الدين، وارتحل، وله ثماني عشرة سنةً، فسمع من الفتح ابن عبدالسلام، وعليّ بن بوزندار، وأبي عليّ بن الجواليقي وطبقتهم، ثم ارتحل إلى بغداد أيضاً سنة ستٍّ وعشرين، وكتب الكثير، وجمع، وصنف، وبرع في الحديث.

وكان ثقةً ثَبْتاً، ذكياً، سلفياً، تقياً، ذا ورع وتقوى، ومحاسن جمة، وتعبّدٍ وتألّهٍ، ومروءة تامة، وقول بالحق، ونهي عن المنكر، ولو عاش لسادَ في العلم والعمل فرحِمَه الله تعالى. وكتب لنفسه وبالأجرة وأفاد الطلبة.

وعاش ثمانياً وثلاثين سنة.

توفي في أول شعبان سنة ثلاثٍ وأربعين وست مئة، ودُفن عند آبائه، وله مصنف في السَّمَاع.

[شيخ القراء والأدباء]

السخاوي[1]

الشيخ الإمام العلامة شيخ القراء والأدباء علم الدين أبو الحسن عليُّ بن محمد بن عبدالصمد بن عطّاس الهمداني، المصري، السخاوي، الشافعي، نزيل دمشق.

وُلد سنة ثمانٍ وخمسين وخمس مئة، أو سنة تسعٍ.

تلا بالسبع على الشاطبي، وأبي الجود، والكندي، والشهاب الغَزْنوي.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٢٢.

وأقرأ الناس دهراً، وما أسند القراءات عن الغزنوي والكندي، وكانا أعلى إسناداً من الآخرين، امتنع من ذلك لأنه تلا عليهما بـ «المُبْهِج»[1] ولم يكن بأخرة يرى الإقراء به ولا بما زاد على السبع، فقيل: إنه اجتنب ذلك لمنامٍ رآه.

وكان إماماً في العربية، بصيراً باللغة، فقيها، مفتياً، عالماً بالقراءات وعللها، مجوّداً لها، بارعاً في التفسير. صنَّف وأقرأ وأفاد، وروى الكثير وبَعُدَ صيتُه، وتكاثر عليه القراء.

وكان مع سعة علومه وفضائله ديِّنا، حسن الأخلاق، محبباً إلى الناس، وافر الحُرمة، مُطَّرِحاً للتكلُّف، ليس له شغلٌ إلا العلم ونشره.

شرح «الشاطبية» في مجلدين، و«الرائية» في مجلد، وله كتاب «جمال القراء»، وكتاب «منير الدياجي في الآداب»، وبلغ في التفسير إلى الكهف، وذلك في أربع مجلدات، وشرح «المُفَصّل» في أربع مجلدات، وله النظم والنثر.

وكان يترخص في إقراء اثنين فأكثر كل واحدٍ في سورة، وفي هذا خلاف السنّة، لأننا أُمرنا بالإنصات إلى قارئٍ لنفهم ونعقل ونتدبَّرَ.

وقد وفد على السلطان صلاح الدين بظاهر عكا في سنة ستٍّ وثمانين زمن المحاصرة فامتدحه بقصيدة طويلة، واتفق أنه امتدح أيضاً الرشيد الفارقيَّ، وبين الممدوحين في الموت أزيدُ من مئة عامٍ.

قال الإمام أبو شامة: وفي ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ثلاثٍ وأربعين وستّ مئة توفي شيخنا علم الدين علامة زمانه وشيخ أوانه بمنزله بالتربة الصالحية، وكان على جنازته هيبةٌ وجلالةٌ وإخباتٌ، ومنه استفَدْتُ علوماً جمّة كالقراءات، والتفسير وفنون العربية.

قلت: كان يُقرئ بالتربة وله حَلْقةٌ بالجامع.

---

(١) المبهج في القراءات الثمان وقراءة الأعمش وابن محيصن واختيار خلف واليزيدي لسبط الخياط.

الضياء المقدسي[1]

محمد بن عبدالواحد بن أحمد بن عبدالرحمن بن إسماعيل بن منصور، الشيخ الإمام الحافظ القدوة المحقق المجوِّد الحجة بقية السَّلَف ضياء الدين أبو عبدالله السعدي المقدسي الجماعيلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي صاحب التصانيف والرحلة الواسعة.

وُلد سنة تسع وستين وخمس مئة بالدَّيْر المبارك بقاسيون.

وأجاز له الحافظ السلفي، وشُهْدَةُ الكاتبة، وعبدالحق اليوسفي، وخلقٌ كثير.

وبقي في الرحلة المشرقية مدة سنين. وحصَّل الأصول الكثيرة، وجرَّح وعدَّل، وصحّح وعلّل، وقيّد وأهْمَل، مع الديانة والأمانة، والتقوى والصيانة، والورع والتواضع والصدق والإخلاص وصحة النقل.

ومن تصانيفه المشهورة كتاب «فضائل الأعمال» مجلد، كتاب «الأحكام» ولم يتم في ثلاث مجلدات، «الأحاديث المختارة» وعمل نصفها في ست مجلدات، «الموافقات» في نحو من ستين جزءاً، «مناقب المحدثين» ثلاثةُ أجزاء، «فضائل الشام» جزءان، «صفة الجنة» ثلاثة أجزاء، «صفة النار» جزءان، «سيرة المقادسة» مجلد كبير «فضائل القرآن» جزء، «ذكر الحوض» جزء «النهي عن سبّ الأصحاب» جزء، «سيرة شيخيه الحافظ عبدالغني والشيخ الموفق» أربعة أجزاء. «قتال الترك» جزء، «فضل العلم» جزء.

ولم يزلْ ملازماً للعمل والرواية التأليف إلى أن مات [سنة ٦٤٣]، وتصانيفه نافعة مهذبة. أنشأ مدرسةً إلى جانب الجامع المُظَفّري، وكان يبني فيها بيده، ويتقنّع

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٢٦.

باليسير، يجتهد في فعل الخير، ونشر السنّة، وفيه تعبدٌ وانجماع عن الناس، وكان كثير البرّ والمواساة، دائم التهجّد، أماراً بالمعروف، بهيّ المنظر، مليح الشيبة، محبباً إلى الموافِق والمخالِف، مشتغلاً بنفسه رضي الله عنه.

ابن الصلاح[1]

الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو عمرو عثمان ابن المفتي صلاح الدين عبدالرحمن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري الموصلي الشافعي، صاحب «علوم الحديث».

مولده في سنة سبعٍ وسبعين وخمس مئة.

درَّس بالمدرسة الصلاحية ببيت المقدس مُديدةً، فلما أمَرَ المعظَّم بهدم سور المدينة نزح إلى دمشق فدرَّس بالرواحية مدةً عندما أنشأها الواقف، فلما أنشئت الدار الأشرفية صار شيخاً، ثم ولي تدريس الشامية الصغرى.

وأشغل، وأفتى، وجمع وألّف، تخرّج به الأصحاب، كان من كبار الأئمة.

قال القاضي شمس الدين ابن خلِّكان: هو أحد شيوخي الذين انتفعتُ بهم، أقمتُ عنده للاشتغال، ولازمته سنةً، وهي سنة اثنتين وثلاثين وست مئة، وله إشكالاتٌ على «الوسيط».

وذكرَه المحدِّث عمر بن الحاجب في «معجمه» فقال: إمامٌ ورعٌ، وافر العقل، حسن السَّمت، متبحِّرٌ في الأصول والفروع، بالغَ في الطلب حتى صار يُضرب به المثل، وأجهد نفسه في الطاعة والعبادة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٤٠.

[صفاته وعقيدته]

قلتُ: كان ذا جلالةٍ عجيبة، ووقار وهيبة، وفصاحة، وعلم نافع، وكان متين الديانة، سلفي الجملة، صحيح النِّحْلة، كافاً عن الخوض في مزلاّت الأقدام، مؤمناً بالله، وبما جاء عن الله من أسمائه ونعوته، حسنَ البِزَّة، وافرَ الحرمة، معظَّماً عند السلطان.

وكان قدومه دمشق في حدود سنة ثلاث عشرة وست مئة بعد أن فرغ من خراسان والعراق والجزيرة. وكان مع تبحّره في الفقه مجوِّداً لما ينقله، قويّ المادة من اللغة والعربية، متفنناً في الحديث متصوّناً، مُكِبّاً على العلم، عديم النظير في زمانه، وله مسألة ليست من قواعده شذّ فيها وهي صلاة الرغائب قوّاها ونصرها مع أن حديثها باطلٌ بلا تردد، ولكن له إصابات وفضائل.

[فتوى في ذم المنطق والفلسفة]

ومن فتاويه أنه سئل عمن يشتغل بالمنطق والفلسفة فأجاب: الفلسفة أُسُّ السَّفَهِ والانحلال، ومادةُ الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف، عَمِيَتْ بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالبراهين، ومن تلبَّس بها، قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأظلم قلبه عن نبوة محمد ﷺ ، إلى أن قالَ: واستعمالُ الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية من المنكرات المُسْتبشعة، والرقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية -ولله الحمد- افتقارٌ إلى المنطق أصلاً، هو قعاقع قد أغنى اللهُ عنها كل صحيح الذهن، فالواجب على السلطان أعزَّه الله أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم، ويُخرجَهم من المدارس ويبعدهم.

توفي الشيخ تقي الدين -رحمه الله- في سنة الخوارزمية في سَحَر يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وأربعين وست مئة، وحُمل على الرؤوس، وازدحم الخلقُ على سريره، وكان على جنازته هيبةٌ وخشوع، فصُلِّيَ عليه

بجامع دمشق، وشيَّعوه إلى داخل باب الفرج فصلوا عليه بداخله ثاني مرة، ودفنوه بمقابر الصوفية[1]!

[من الحكام العادلين]

المستنصر بالله[2]

أمير المؤمنين أبو جعفر منصور ابن الظاهر بأمر الله محمد ابن الناصر لدين الله أحمد ابن المستضيء بأمر الله حسن ابن المستنجد بالله يوسف ابن المُقتفي العباسي البغدادي واقف المستنصرية التي لا نظير لها.

مولده سنة ثمان وثمانين وخمس مئة.

وأُمّه تركية، وكان أبيض أشقر، سميناً، رَبْعَة، مليح الصورة، عاقلاً حازماً سائساً، ذا رأي ودهاء ونهوض بأعباء المُلْك وكان جدّه الناصر يحبه ويسميه القاضي لحبّه للحق وعقله.

بويع عند موت والده يوم الجمعة ثالث عشر رجب سنة ثلاث وعشرين وست مئة البيعة الخاصة من إخوته وبني عمه وأُسرته، وبايعه من الغد الكبراء والعلماء والأمراء.

قال ابن النجار: فنشر العدل، وبثَّ المعروف، وقرَّب العلماء والصُّلحاء، وبنى المساجد والمدارس والرُّبط، ودور الضيافة والمارستانات، وأجرى العطيات، وقمع المتمردة، حمل الناس على أقوم سَنن، وعمَّر طُرق الحاج، وعمَّر بالحرمين دوراً للمرضى، وبعث إليه الأدوية:

تَخْشى الإلهَ فَمَا تَنَامُ عِنَايَةً ... بالمُسْلِمينَ وكُلُّهم بِكَ نائِمُ

(١) قال شعيب: وقد دُرست، وقام مكانها عمائر ومستشفى ومسجد.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٥٥.

إلى أن قال: ثم قامَ بأمر الجهاد أحسن قيام، وجمع العساكر، وقمع الطغام، وبذل الأموال، وحفظ الثغور، وافتتح الحصون، وأطاعه المُلوك.

قال: وبيعت كتب العلم في أيامه بأغلى الأثمان لرغبته فيها، ولوقفها. وخَطَهُ الشيب فخضَّب بالحناء ثم تركه.

قلتُ: كانت دولته جيدة التمكن، وفيه عدلٌ في الجملة، ووقْعٌ في النفوس. استجدَّ عسكراً كثيراً لما عَلِمَ بظهور التتار، بحيث إنه يقال: بلغ عِدَّة عسكره مئة ألف، وفيه بُعْدٌ، فلعل ذلك نمى في طاعته من ملوك مصر والشام والجزيرة، وكان يُخطَبُ له بالأندلس والبلاد البعيدة.

قال الساعي: حضرتُ بيعتَهُ فلما رُفع الستر شاهدته وقد كمّل الله صورَته ومعناه، كان أبيض بحمرة، أزَجَّ الحاجبين، أدعَجَ العين، سَهْل الخدين، أقْنَى، رحْبَ الصدر، عليه ثوبٌ أبيضُ وبَقيار[1] أبيض، وطرْحةُ قَصَب بيضاء، فجلس إلى الظُّهر.

قال: فبلغني أن عدة الخِلَع بلغتْ ثلاثة آلاف وخمس مئة وسبعين خلعةً.

قلت: بلغ مَغَلُّ وقْف المستنصرية مرة نيِّفاً وسبعين ألف دينار في العام، واتفق له أنه لم يكن في أيامه معه سلطانٌ يحكم عليه، بل ملوك الأطراف خاضعون له، وفِكْرُهُم مُتقَسِّم بأمر التتار واستيلائهم على خراسان.

توفي[2] في بُكرة الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة أربعين وست مئة.

وكانت دولته سبع عشرة سنة، وعاش اثنتين وخمسين سنة.

---

(١) ضرب من العمائم (معجم دوزي: ١/ ٤٠٧).

(٢) ذكر الحافظ المنذري أن وفاته كانت في العشرين من جمادى الأولى وورد في دول الإسلام أنه مات في جمادى الآخرة وسينقل الحافظ الذهبي بعد قليل عن ابن البزوري أنه توفي يوم الجمعة بكرة عاشر جمادى الآخرة فليلاحظ ذلك.

غريبة:

وفيها -يعني سنة ٦٢٥هـ- جرى الكُوَيز[١] الساعي من واسط إلى بغداد في يوم وليلة ورُزق قبولاً وحصل له ستة آلاف دينار ونيف وعشرون فَرَساً[٢].

[تسليم الكامل القدس إلى الفرنج]

وفي سنة ٦٢٦: سلّم الكامل القُدس إلى الفرنج فواغوثاه بالله، وأتبع ذلك بحصار دمشق، وأذية الرعية، وجرت بينهم وقعاتٌ، منها وقعةٌ قُتل فيها خلق من الفريقين، وأُحرقت الحواضر، وزحفوا على دمشق مراراً، واشتدّ الغلاء، ودام البلاء أشهراً، ثم قَنِعَ الناصر بالكرك ونابلس والغور، وسلّم الكامل دمشق للأشرف وعُوِّض عنها بحرّان والرقة ورأس عين، ثم حاصروا الأمجد ببعلبك، ورموها بالمجانيق، وأُخذت، فتحول الأمجد إلى داره بدمشق[٣].

[المدرسة المستنصرية عام ٦٣١هـ]

أديرت المستنصرية ببغداد، ولا نظير لها في الحُسْن والسعة، وكثرة الأوقاف، بها مئتان وثمانية وأربعون فقيهاً، وأربعة مدرسين، وشيخ للحديث، وشيخ للطب، وشيخ للنحو، وشيخ للفرائض، وإذا أقبلَ وقفُها، غلَّ أزيد من سبعين ألف مثقال، ولعل قيمة ما وقف عليها يساوي ألف الف دينار[٤].

(١) الضبط من خط المؤلف في «تاريخ الإسلام» واسمه معتوق الموصلي، والذهبي ينقل هنا عن تاج الدين ابن الساعي.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٥٩.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٠.
(٤) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٣.

[الاقتتال على الملك]

وفي سنة ٦٣٥: مات بدمشق السلطان الملك الأشرف[1]، وتملّكها بعده أخوه الكامل، فمات بعده بها، وذلك بعد أن اقتتل بها الكامل وأخوه الصالح عماد الدين على المُلْك، وتعبت الرعية. وبعده تملكها الجواد، ثم ضعفت هِمّته وأعطاها للملك الصالح نجم الدين ايوب ابن الكامل، وتسلطنَ بمصر العادل أبو بكر ابن الكامل، وجرت أمور طويلة آخرها أن الصالح تملّك الديار المصرية، واعتقل أخاه، وغلب على دمشق عمُّه الصالح، فتحاربا على المُلْك مدة طويلة، ثم استقرت مصر والشام لنجم الدين أيوب.

[خيانات الحكام]

وفي سنة ٦٣٨: فيها سلَّم الصالح إسماعيل قَلْعة الشقيف إلى الفرنج لينجدوه على المصريين، فأنكر عليه ابنُ الحاجب وابنُ عبدالسلام، فسجنهما مدة.

[رسالة ملك التتار]

قال سِبْط الجوزي: قَدِمَ رسول التتار إلى شهاب الدين غازي ابن العادل، وإلى ملوك الإسلام [ومعه كتاب و] عنوان الكتاب: «من نائب رَبِّ السماء ماسح وجه الأرض مَلك الشرق والغرب يأمر ملوك الإسلام بالدخول في طاعة القان الأعظم»، وقال الرسول لغازي: قد جعلك سلحداره[2]، وأمرك أن تخرِّب أسوار بلادك[3].

وفيها كَسَرَ الناصر داود الفرنج بغزّة.

وأُخذ الركبُ الشامي بقرب تيماء.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٦.

(٣) وتكتب أيضاً: سلاح دار، وهو مسؤول السلاح.

والتقى صاحب حمص ومعه عسكر حلب الخوارزمية، فكسرهم بأرض حرّان، وأخذ حرّان، وأخذ صاحب الروم آمد بعد حصار طويل، وكانت التتار تعيثُ في البلاد قَتْلاً وسبياً، وقلَّت الخوارزمية، فكانوا بالجزيرة يعيثون.

وفي سنة ٦٣٩: دخلت التتار مع بايجونَوِين بلاد الروم، وعاثوا ونهبوا القُرى، فهرب منهم صاحبها.

[سماع المستنصر لدروس العلم][1]

وكان للمستنصر منظرةٌ يجلس فيها يسمعُ دروس المستنصرية، واستخدم جيشاً عظيماً، حتى قيل: إنهم بلغوا أزيدَ من مئة ألف. وكان ذا شجاعة وإقدام، وكان أخوه الخَفاجي من الأبطال يقول: إن وليتُ، لأعبرن بالجيش جَيْحون، وأسترد البلاد، وأستأصل التتار، فلما مات المستنصر زَواه عن الخلافة الدُّويدار والشَّرابي خوفاً من بأسه.

أنبأني ابن البُزوري أن المستنصر توفي يوم الجمعة بُكرة عاشر جمادى الآخرة سنة أربعين وست مئة.

وقال المنذري: جمادى الأولى، فوهم.

عاش إحدى وخمسين سنة وأشهراً، وخُطب يوم موته له، كتموا ذلك، فأتى إقبال الشرابي والخدم إلى وَلَده المُستعصم، فسلَّموا عليه بإمرة المؤمنين وأقعدوه في سُدَّة الخلافة، وأُعلم الوزير وأستاذ الدار في الليل، فبايعاه.

[تخبئة الحكام الأموال]

قال القاضي جمال الدين محمد بن سومر المالكي: حدثني شيخُنا ابنُ عبدالسلام قال: لما أخذنا في بيعة المستنصر قلتُ للملك الظاهر بيبرس: بايِعْه،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٧.

فقال: ما أُحْسِنُ، لكن بايِعْهُ أنتَ أولاً وأنا بعدَكَ، فلما عقدنا البيعةَ، حضرنا من الغد عند السلطان، فأثنى على الخليفة، وقال: من جملة بركته أنني دخلتُ أمسِ الدار، فقصدتُ مسجداً فيها للصلاة، فأرى مصطبة نافرة، فقلت للغلمان أخربوا هذه، فلما هدموها، انفتح تحتها سَرب فنزلوا فإذا فيه صناديق كثيرة مملوءة ذهباً وفضة من ذخائر الملك الكامل رحمه الله[1].

[اقتتال المسلمين وتعاون بعضهم مع الصليبيين]

وفي سنة اثنتين وأربعين وست مئة[2]: كان حصارُ الخوارزمية على دمشق في خدمة صاحب مصر، واشتد القحط بدمشق ثم التقى الشاميون ومعهم عسكر من الفرنج والمصريون ومعهم الخوارزمية بين عسقلان وغزة، فانهزم الجمعان، ولكن حَصَدت الخوارزميةُ الفرنجَ في ساعة ثم أسروا منهم ثماني مئة، ويقال: زادت القتلى على ثلاثين ألفاً. واندك صاحب حِمْص، ونُهِبَت خزائنه وبكى، وقال: قد علمت بأنا لا نفلح لما سرنا تحت الصُّلبان، واشتد الحصار على دمشق.

[أحداث كبار تعصف بالعالم الإسلامي[3]]

في **سنة أربع وخمسين وست مئة**: كان ظهور الآية الكبرى وهي النار بظاهر المدينة النبوية ودامت أياماً تأكل الحجارة، واستغاث أهل المدينة إلى الله وتابوا، وبكوا، ورأى أهل مكة ضوءَها من مكة، وأضاءت لها أعناق الإبل ببُصرى، كما وعد بها رسول الله ﷺ فيما صحَّ عنه. وكُسف فيه الشمس والقمر، وكان فيها الغَرَقُ العظيم ببغداد، وهلك خلقٌ من أهلها، وتهدمت البيوت، وطَفَحَ الماء على السور.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٦٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٧٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٨٠.

وفيها سار الطاغية هولاكو بن تولي بن جنكزخان في مئة ألف، وافتتح حصن الألموت، وأبادَ الإسماعيلية وبعث جيشاً عليه باجونَوِين، فأخذوا مدائن الروم، وذلّ لهم صاحبُها، وقتل خلق كثير.

وفيها كان حريق مسجد النبي ﷺ جميعه في أول رمضان من مسرجة القَيّم، فلله الأمر كله.

وفي سنة خمس وخمسين وست مئة: مات صاحب مصر الملك المعزّ أيبك التركماني، قتلتْه زوجته شجرُ الدر في الغيرة، فوُسّطتْ.

وجرت فتنةٌ مهولةٌ ببغداد بين الناس وبين الرافضة، وقُتل عدة من الفريقين، وعظُمَ البلاءُ، ونُهب الكرْخُ، فحنق ابن العَلْقَميّ الوزير الرافضي، وكاتب هولاكو، وطمَّعَهُ في العراق، فجاءت رسل هولاكو إلى بغداد، وفي الباطن معهم فرمانات لغير واحد، والخليفة لا يدري ما يتم، وأيامه قد ولّت، وصاحب دمشق شابٌّ غرٌّ جبانٌ، فبعث ولده الطفل مع الحافظي بتقادم وتحفٍ إلى هولاكو فخضع له، ومصر في اضطراب بعد قتل المُعزّ، وصاحب الروم قد هرب إلى بلاد الأشكري، فتمرّد هولاكو وتجبَّر، واستولى على الممالك، وعاث جُندهُ الكفرة يقتلون ويأسرون ويُحرقون.

ودخلت سنةُ ستٍّ وخمس وست مئة: فسارَ عسكرُ الناصر، وعليهم المغيثُ ابنُ صاحب الكرك، ليأخذوا مصر فالتقاهم المظفر قُطز، وهو نائب للمنصور عليّ وَلَد المعز بالرَّمل فكسرهم، وأسرَ جماعة أمراء فضرب أعناقهم.

[خيانة ابن العلقمي]

وأما هولاكو فقصد بغداد فخرج عسكرها إليه فانكسروا، وكاتب لؤلؤ صاحب الموصل وابنُ صلايا متولي إربلَ الخليفة سراً ينصحانِه فما أفاد، وقُضي الأمر، وأقبل هولاكو في المغول والترك والكُرج ومددٍ من ابن عمه بركة ومددٍ من

عسكر لؤلؤ عليهم ابنُه الملك الصالح، فنزلوا بالجانب الغربي، وأنشؤوا عليهم سوراً، وقيل: بل أتى هولاكو البلد من الجانب الشرقي[1]، فأشار الوزير على الخليفة بالمداراة وقال: أخرُج إليه أنا، فخرج واستوثق نفسه وردَّ، فقال: القان راغبٌ في أن يزوِّج بنتَه بابنك أبي بكرٍ ويُبقي لك منصبَك كما أبقى صاحب الروم في مملكته من تحت أوامر القانِ، فاخرُج إليه، فخرج في كُبراء دولته للنكاح يعني، فضرب أعناق الكل بهذه الخديعة، ورُفِسَ المستعصم حتى تلف، وبقي السيف في بغداد بضعة وثلاثين يوماً، فأقلُّ ما قيل: قتل بها ثمانٍ مئة ألف نفس، وأكثر ما قيل بلغوا ألف ألفٍ وثمان مئة ألف، وجرت السيول من الدماء فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم بعد ذهاب البلد ومَنْ فيه إلا اليسير نودي بالأمان، وانعكس على الوزير مرامُهُ وذاقَ ذلاً وويلاً وما أمهلَه الله.

ورجع هولاكو بالسبي والأموال إلى أذربيجان، فنزل إلى خدمته لؤلؤ فخلع عليه، وردّه إلى الموصل، ونزل إليه ابن صلايا، فضربَ عنقه، وبعث عسكراً حاصروا ميَّافارقين وبعث رسولاً إلى الناصر وكتابَهُ: خِدْمة ملك ناصر طال عُمره إنا فتحنا بغداد، واستأصلنا مَلكها ومُلكها وكان ظن إذ ضنّ بالأموال ولم يُنافس في الرجال أن ملكه يبقى على ذلك الحال، وقد علا قدرُه ونَمى ذكرُه فخُسف في الكمال بدرُه:

إذا تَمَّ أمرٌ بدا نقصُهُ ... توقَّعْ زوالاً إذا قيل تم

ونحن في طلب الازدياد على ممر الآبادِ، فأبدِ ما في نفسِك، وأجبْ دعوةَ ملكِ البسيطة تأمنْ شرَّه، وتَنَلْ بِرَّه، واسْعَ إليه ولا تُعوِّق رسولنا والسلام.

(١) أتى هولاكو من الجانب الشرقي، وأتى قائده بايجو من الجانب الغربي، فأحاطوا بها من الجانبين (انظر الحوادث الجامعة: ٣٢٣ والعسجد المسبوك: ٦٣٠).

ذكر جمال الدين سليمان بن رطلين الحنبلي، قال: جاء هولاكو في نحو مئتي ألفٍ، ثم طلب الخليفة فطلع معه القضاة والأعيانُ في نحو من سبع مئة نفسٍ فمُنعوا، وأُحضر الخليفة ومعه سبعة عشر كان أبي[1] منهم، وضرب رقاب سائر أولئك، فأُنزل الخليفة في خيمةٍ والسبعة عشر في خيمةٍ قال أبي: فكان الخليفة يجيء إلينا في الليل ويقول: ادعوا لي، قال: فنزل على خيمته طائرٌ فطلبه هولاكو، فقال: أيش عمل هذا الطائر، وما قال لك؟ ثم جرت له محاورة معه، وأمر به وبابنه أبي بكرٍ فرُفِسا حتى ماتا، وأطلقوا السبعة عشر وأعطوهم نشابةً، فقُتل منهم اثنان وأتى الباقون دورهم فوجدوها بلاقع، فأتيت أبي بالمُغيثية، فوجدتُه مع رفاقه فلم يعرفني أحد منهم، وقالوا: ما تريدُ؟ قلت: أريد فخر الدين ابن رَطْلَين، وقد عرفته فالتفت إليَّ وقال: ما تريد منه؟ قلت: أنا ولدُه، فنظر فلما تحققني، بكى وكان معي قليلُ سمسمٍ فتركتُه بينهم.

[هدف ابن العلقمي إفساد الدين ونشر مذهب الرافضة]

وعمل ابنُ العَلْقَميّ على ترك الجُمُعاتِ، وأن يبنيَ مدرسةً على مذهب الرافضة، فما بلغ أملُه، وأقيمت الجُمعاتُ.

وحدثني أبي، قال: كان قد مشى حال الخليفة بأن يكون للتتار نصف دخْل العراق، وما بقي شيءٌ، أن يتم ذلك، فقال ابن العلقمي: بل المصلحةُ قتْلُه، وإلا فما يتم لكم مُلك العراق[2].

قلتُ: قتلوه خنقاً، وقيل: رفساً، وقيل: غماً في بساط، وكانوا يسمونه «الأَبْلَه».

---

(١) أبوه هو فخر الدين أبو محمد عبدالله بن علي بن منصور بن رطلين الحنبلي،كان من العدول الأعيان، سلم من الوقعة المشؤومة وتوفي في شهر رجب سنة ٦٧٩، ودفن بباب حرب، فهو شاهد عيان لها. ترجمه ابن الفوطي في تلخيصه: ٤/ الترجمة: ٢١٤٣.

(٢) أعمى الحقد والتعصب هذا الخائن، وقتل الناس ودمرت بلاد الإسلام بسبب حقده وتعصبه واعتقاده الفاسد.

وأنبأني الظهير الكازَروني في تاريخه أن المستعصم دخل بغداد بعد أن خرج إلى هولاكو، فأخرج له الأموال، ثم خرج في رابع صفر، وبُذل السيف في خامس صفر.

قال: وقُتل المستعصم بالله يوم الأربعاء رابع عشر صفر، فقيل: جُعل في غرارةٍ ورُفس إلى أن ماتَ رحمه الله، ودفن وعُفي أثره، وقد بلغ ستاً وأربعين سنة وأربعة أشهرٍ.

قال: وقتل ابناه أحمد وعبدالرحمن وبقي ولده مباركٌ وفاطمة وخديجة ومريم في أسر التتار.

قلتُ: وله ذريةٌ إلى اليوم بأذربيجان، وانقطعت الإمامة العباسية ثلاث سنين وأشهراً بموت المستعصم، فكانت دولتُهم من سنة اثنتين وثلاثين ومئة إلى سنة ستٍّ وخمسين وستٍّ مئة فذلك خمس مئة وأربع وعشرون سنة، ولله الأمر.

الملك الصالح[1]

السلطان الكبير الملك الصالحُ نجمُ الدين أبو الفتوح أيوبُ ابنُ السلطان الملك الكامل محمد ابن العادل، وأمُّهُ جارية سوداء اسمُها «وَرْدُ المُنى».

مولده سنة ثلاثٍ وست مئة بالقاهرة.

ونابَ عن أبيه لما جاء لحصار الناصر داود، فلما رجع انتقد أبوه عليه أشياء، ومالَ عنه إلى ولده الآخر العادل، فلما استولى الكامل على آمدَ وحصنِ كيفا وسنجارَ سَلْطَنَ نجمَ الدين، جعلَهُ على هذه البلاد، فبقي بها إلى أن جاء وتملك دمشق، ثم ساقَ إلى الغور فوثب على دمشق عمُّه إسماعيل فأخذها، ونزل عسكر الكَرَك، فأحاطوا بالصالح، وأخذوه إلى الكرك، ثم ذهب به الناصر لَمَّا كاتبه الأمراء الكاملية فعزلوا أخاه العادل وملّكوه، ورجع الناصر بخفيّ حُنين.

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٨٧.

قال ابنُ واصلٍ: كان لا يجتمع بالفضلاء ولم يكن له مشاركة، بخلاف أبيه، وفي سنة إحدى وأربعين [وست مئة] اصطلح الصالح وعمُّه الصالح[1] على أن دمشق لعمِّه، وأن يقيم هو والحلبيون والحمصيون الخطبة للصالح نجم الدين، وأن يُبعث إليه ولده الملك المُغيث وابن أبي عليّ ومجير الدين ابن أبي زكري فأطلقهم عمُّه، واتفقت الملوك على عداوة صاحب الكرك.

[خيانة الحكام]

وبعث إسماعيل جيشاً يحاصرون عجلون، وهي بيد الناصر، ثم انحل ذلك لورقةٍ وجدها إسماعيل من أيوبَ إلى الخوارزمية يحثُّه على المجيء ليحاصروا عمّه، فحبسَ حينئذ المغيثَ وصالح صاحبَ الكرك، واتفق مع صاحب حمص وصاحب حلب واعتضد بالفرنج، فأقبل المصريون عليهم بيبرس الصالحيُّ البُندقدارُ الكبير الذي قتلَهُ أستاذُه.

[إعطاء بيت المقدس للفرنج]

وأعطى إسماعيل الفرنج بيت المقدس وعمروا طبريةَ وعسقلان، ووضعت الرهبانُ قنانيَ الخمر على الصخرة، وأُبطل الأذان بالحَرَم.

[الحكام الخونة وإقرارهم: أننا لا نفلح بالنصارى]

وعدَّت الخوارزمية الفرات في عشرة آلاف، فما مروا بشيءٍ إلا نهبوه، وأقبلوا، فهربت الفرنج منهم من القدس فقتلوا عدة من النصارى، وهدموا قُمامة[2] ونبشوا عظام الموتى، وجاءته الخِلَع والنفقة من مصر، ثم سار على الشاميين المنصور صاحب حِمْص، ووافته الفرنج، قال المنصور: لقد قصَّرت يومئذ وعرفت أننا لا

(١) يعني: إسماعيل.

(٢) يعني: كنيسة القيامة.

نفلح بالنصارى، فالتقوا. قال: فانهزم الشاميون، ثم جاء جيش السلطان نجم الدين، وعليهم مُعين الدين ابن الشيخ، ومعه خزانة مالٍ فنازلوا دمشقَ مدة، ثم أُخذت بالأمان لقلة من مع صاحبها، ولمفارقة الحلبيين له، فتركها وذهب إلى بعلبك، وحصل للخوارزمية إدْلال، وطمعوا في كبار الأخباز، فلم يصحّ مرامُهم، فغضبوا ونابذوا، ثم حلفوا لإسماعيل، وجاء تقليد الخلافة للسلطان بمصر والشام والشرق ولبس العمامة والجُبَّة السوداء.

[الصراع على الحكم]

ثم إن الصالح إسماعيل كرَّ بالخوارزمية إلى دمشق ونازلها وما بها كبيرُ عسكرٍ، فكان بالقلعة رشيدٌ الخادم، وبالمدينة حسام الدين ابن أبي عليٍّ، فقام بحفظها واشتدَّ بها القَحطُ حتى أكلوا الجِيَفَ، حتى قيل: إن رجلاً مات في الحبس فأكلوه. وجَرَتْ أمور مزعجة.

[قتل الحكام أقاربهم من أجل الحكم]

أعدم العادلُ أخاه سراً، وله ثمان وعشرون سنة، وحصل له قرحةٌ، ومرض في أُنثيبه، ثم جاء إلى دمشق عليلاً في محفّة لما بلغه أن الحلبيين أخذوا حِمْص، فبلغه حركة الفرنج لقصد دمياط، فرُدَّ في المحفّة، ثم خيّم بأشمون، وأقبلت الفرنج مع ريْذا فرنس(1)، فأُمليتْ(2) دمياط بالذخائر، وأُتْقِنت(3) الشواني، ونزل فخر الدين

---

(1) هو اسم ملك فرنسا هكذا قيده الذهبي، وهو: روا دو فرانس، أي ملك فرنسا وهو لويس التاسع، قال الذهبي في تاريخ الإسلام: «وتواترت الأخبار بأن ريذا فرنس مقدم الإفرنسيسية قد خرج من بلاده في جموع عظيمة وشتا بجزيرة قبرص، كان من أعظم ملوك الإفرنج وأشدهم بأساً، وريذ بلسانهم: الملك».

(2) في تاريخ الإسلام: وشحنت.

(3) في تاريخ الإسلام: وأحكمت. والشواني جمع شونة، أي مخزن الغلة أو المركب المعد للجهاد في البحر.

ابن الشيخ بالجيش على جيزة دِمياط وأرست مراكب الفرنج تلقاءهم في صفر سنة سبعٍ وأربعين [وست مئة]، ثم طلعوا ونزلوا في البرّ مع المسلمين ووقع قتالٌ، فقُتِل الأميرُ ابن شيخ الإسلام[1]، والأمير الوزيري، فتحول الجيش إلى البر الشرقي الذي فيه دِمياط، ثم تقهقروا ووقع على أهل دمياط خذلان عجيبٌ، فهربوا منها طولَ الليل، حتى لم يبقَ بها آدميٌّ، وذلك بسوء تدبير ابنِ الشيخ، هربوا لما رأوا هَرَبَ العسكر، وعرفوا مرض السلطان، فدخلتها الفرنج بلا كُلفةٍ، مملوءةً خيراتٍ وعُدّةً ومجانيقَ، فلما علم السلطان غضب وانزعج وشَنَقَ من مقاتليها ستين، وردّ فنزل بالمنصورة في قصر أبيه ونوديَ بالنفير العام، فأقبل خلائقُ من المطوّعة، وناوشوا الفرنج، وأيس من السلطان. وأما الكرك فذهب الناصر إلى بغداد فسار ولدُه الأمجدُ إلى باب السلطان وسلّم الكركَ إليه فبالغ السلطان في إكرام أولاد الناصرِ وأقطعهم بمصرَ.

قال ابنُ واصلٍ: كان الملكُ الصالح نجم الدين عزيز النفس أبيًّها، عفيفاً، حييّاً، طاهر اللسان والذيل، لا يرى الهزلَ ولا العبث، وقوراً، كثيرَ الصمتِ، اقتنى من التُّرك ما لم يشتره مَلك، حتى صاروا معظم عسكره، ورجَّحهم على الأكراد وأمَّر منهم، وجعلهم بطانته والمحيطين بدهليزه، وسمَّاهم البحرية.

قلتُ: لكون التجار جلبوهم في البحر من بلاد القفجاق.

قال ابن واصل: حكى لي حسام الدين ابن أبي عليّ، أن هؤلاء المماليك مع فرط جبروتهم وسطوتهم كانوا أبلغ مَن يهاب السلطان، وإذا خرج يُرعدون منه، وأنه لم يقع منه في حال غضبه كلمةٌ قبيحةٌ قطُّ، كثر ما يقول: يا مُتخلِّف، وكان كثيرَ الباه بجواريه، ثم لم يكن عنده في الآخر سوى زوجتين الواحدة شجر الدر، والأخرى بنت العالِمَة تزوجها بعد مملوكه الجُوكندار، وكان إذا سَمِعَ الغناء لم يتزعزع، لا هو ولا مَن في مجلسه، وكان لا يستقل أحد من الكبار في دولته بأمر، بل

(١) يعني: فخر الدين.

يُراجع مع الخدّام بالقصص فيوقِّع هو ما يعتمده كُتّاب الإنشاء، وكان يُحب أهل الفضل والدين، يؤثر العزلة والانفراد، لكن له نهم في لعبة الكُرة، وفي إنشاء الأبنية العظيمة، وقيل: كان لا يَجْسُرُ أحدٌ أن يخاطبه ابتداء. وقيل: كان فصيحاً، حسنَ المحاورة عظيمَ السطوة، تعلّل ووقعت الآكلة في فخذه، ثم اعتراه إسهالٌ؛ فتوفي ليلة النصف من شعبان، سنة سبعٍ وأربعين وست مئة بقصر المنصورة مرابطاً، فأخفوا موتَه، وأنه عليلٌ حتى أقدَموا ابنَه الملك المُعظَّم تُورانشاه من حصنِ كيفا، ثم نُقل، فدُفِنَ بتربتِهِ بالقاهرة، وكان بنو شيخ الشيوخ قد ترقّوا لديه، وشاركوه في المملكة، وقد غَضِبَ مدة على فخر الدين يوسف، ثم أطلقَه وصيَّره نائب السلطنة؛ لنُبْلِهِ، وكمال سؤدده، وكان جواداً محبّباً إلى الناس، إلا أنه كان يتناول النبيذ.

ولما ماتَ السلطانُ عُيِّن فخر الدين للسلطنة فجَبُن ونهض بأعباء الأمور، وساسَ الجيش، وأنفق فيهم مئتي ألف دينار، وأحضر توارنشاه، وسلطَنَهُ، ويقال: إن تورانشاه همَّ بقتله. واتفق[1] حركةُ الفرنج وتأخّرُ العساكر، فركب فخر الدين في السحر، وبعث خلفَ الأمراء ليركبوا، فساق في طلبه فدهمه طُلب الدَّاويّة، فحملوا عليه فتفلّل عنه أجناده، وطُعن، وقُتِلَ، ونَهبتْ غلمانُهُ أموالَهُ وخيلَهُ، فراح كأنْ لم يكُنْ.

قال ابن عمِّه سعدُ الدين: كان الضبابُ شديداً فطُعن وجاءَتْه ضربةُ سيفٍ في وجهه، وقُتل معه جَمْداره وعدّةٌ، وتراجع المسلمون فأوقعوا بالفرنج، وقتلوا منهم ألفاً وست مئة فارسٍ، ثم خَنْدَقت الفرنج على نفوسهم. قال: وأُخْرِبت دارُ فخر الدين ليومها، وبالأمس كان يصطفُّ على بابِها عصائبُ سبعينَ أميراً[2]. قُتل في ذي القعدة سنة سبعٍ وله خمسٌ وستون سنة.

---

(١) وانظر مرآة الزمان: ٨/ ٧٧٦-٧٧٧.

(٢) قال السبط: «أخربها الأمراء الذين كانوا يركبون كل يوم إلى خدمته ويقفون على بابه، وهم أكثر من سبعين أميراً، كانوا يتمنون أن ينظر إلى أحد منهم نظرة، أخربوا داره بأيديهم، وحمل من المقياس إلى الشافعي فدفن عند والدته، وكان يوماً مشهوداً، وحمل على الأصابع، وبكى عليه الناس، وعمل له العزاء العظيم، وكان له يوم مات ست وثلاثون سنة (كذا)» (مرآة: ٨/ ٧٧٧).

المعز[1]

السلطان الملك المعز عز الدنيا والدين أيْبَك التركماني الصالحي الجاشنكير صاحب مصر.

لما قتلوا المعظم، وخطبوا لأم خليل شجر الدر أياماً، وكانت تُعلِّم على المناشير، وتأمر وتنهى، ويُخطب لها بالسلطنة.

وكان المعزُّ أكبر الصالحية، وكان ديِّناً، عاقلاً، ساكناً، كريماً، تاركاً للشرب. ملَّكوه في أواخر ربيع الآخر سنةَ ثمانٍ وأربعين وست مئة، وتزوج بأم خليل شجر الدر، فأنفَ من سلطنته جماعةٌ.

وكان في المعزّ تؤدة ومُداراة، بنى مدرسةً كبيرة، ثم إنه خطب ابنةَ بدر الدين صاحب الموصل، فغارت أم خليل فقتلته في حمَّام، وثب عليه سنجر الجوجري وخدَّام، فأمسكوا على بيضه فتَلِف، وقُطعت هي نصفين، وقيل: بل خُنقت ولم توسط، ورُميت مهتوكة، وصُلب الجوجري والخدام وملَّكوا ولده الملك المنصور علي بن أيبك وله خمس عشرة سنة، وصيَّروا أتابكه علمَ الدين الحلبي.

عاش المعز نيفاً وخمسين سنة وقُتل في ربيع الأول سنة خمسٍ وخمسين وست مئة.

[نساء حاكمات - شجر الدر أم خليل[2]]

وكانت شجرُ الدر أم خليل أمَّ ولدٍ للصالح ذات حُسن وظَرْفٍ ودهاء وعقل، ونالت من العز والجاه ما لم تنله امرأة في عصرها، وكان مماليك الصالح يخضعون لها ويرون لها، فملّكوها بعد قتل المُعظَّم أزيد من شهرين، وكان المعزُّ لا يقطع أمراً دونها ولها عليه صَوْلة، وكانت جريئة وقحة قتلت وزيرَها الأسعد، وقد

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٩٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٩٩.

ولدت بالكرك من الصالح خليلاً، فمات صغيراً، وكان الصالح يحبُّها كثيراً، وكانت تحتجرُ على المعز فأنِفَ من ذلك. قيل: لما تيقنت الهلاك، أخذت جواهرَ مثمنة ودقتها في الهاون.

ولما قتلوا الفارس أقطايا تمكن المعزُّ، واستقل بالسلطنة، وعزل الملك الأشرف، وأبطل ذكره، وبعث به إلى عماته القطبيات، ودافع مماليك الصالح عن شجر الدّر، فلم تُقتل إلا بعد اثنين وعشرين يوماً، فقتُلت ورُميتْ مهتوكةً. وقيل: خُطب لها ثلاثة أشهر، وكان المنصور وأُمه يحرِّضان على قتلها، فقُتلت في حادي عشر ربيعٍ الآخر بعد مقتل المعز بدون الشهر، ودفنت بتربتها بقرب قبر السيدة نفيسة. وقيل: إنها أودعت أموالاً كثيرة فذهبت. وكانت حسنة السيرة، لكن هلكت بالغيرة. وكان الخطباء يقولون: «واحفظ اللهم الحُرْمة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح».

[من الملوك المسلمين الذين تنصروا]

وأما المنصور عليّ فعُزل وتملَّك قُطزُ الذي كَسَرَ التتار، فبعث بعليٍّ وبأخيه قليج إلى بلاد الأشكري؛ فحدثني سيف الدين قليج هذا أن أخاه تنصَّر بقسطنطينية وتزوج وجاءته أولاد نصارى، وعاش إلى نحو سنة سبع مئة، وسمى نفسه ميخائيل.

قلتُ: نعوذ بالله من الشقاء، فهذا بعد سلطنة مصر كفر وتعثَّر.

[من علماء السوء]

ابن عَدي[1]

الشيخ الكبير المدعو بتاج العارفين حسن بن عَدِي بن أبي البركات بن صخر ابن مُسافر شيخ الأكراد، وجدّه هو أخو الشيخ الكبير عَدِي.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٢٣.

كان هذا من رجال العالَم دهاءً وهِمَّةً وسُموّاً، له فضيلةٌ وأدبٌ وتواليفُ في التصوف الفاسد، وله اتباع لا ينحصرون وجلالةٌ عجيبةٌ. بلغ من تعظيمهم له أن واعظاً أتاه فتكلَّم بين يديه، فكبى تاج العارفين وغُشِيَ عليه، فوثب كردي، وذبح الواعظ، فأفاق الشيخ فرأى الواعظ يختبِطُ في دمه، فقال: أيشٍ هذا؟ فقالوا: أي شيء هذا من الكلاب حتى يُبكِي سيدي الشيخ.

[مقتله]

وزاد تمكّن الشيخ حتى خافَ منه بدر الدين صاحب الموصل، فتحيَّل عليه حتى اصطاده، وخنقه بالمَوْصل؛ خوفاً من غائلته.

[رأي الذهبي فيه]

وهناك جهلة يعتقدون أن الشيخ حسناً لا بد أن يرجع إلى الدنيا، وكان يلوِّح في نظمه بالإلحاد، ويزعم أنه رأى ربَّ العزة عِياناً، واعتقادُه ضلالة.

قُتل سنة أربعٍ وأربعين وستّ مئةٍ، وله ثلاثٌ وخمسون سنة

[من الدعاة إلى الضلال]

الحريري[1]

كبيرُ الفقراء البَطَلَة، الشيخ علي بن أبي الحسن بن منصور ابن الحريري الحوراني، من عشير يقال لهم: بنو الرُّمان.

مولده ببُسْر، وبها ماتَ في سنة خمسٍ وأربعين وستٍّ مئةٍ في رمضان، وقد قارب التسعين.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٢٤.

قَدِمَ دمشق صبياً، فتعلم نَسْجَ المَرْوَزيِّ وبرع، ثم وقف عليه دَيْنٌ فحُبس. وأُمه دمشقية من ذرية الأمير مُسيّب العقيلي، وكانَ خالُه صائغاً، ورُبي الشيخ يتيماً، ثم عمل العتابيَّ، ثم تزهَّد، وصحب أبا علي المُغَرْبَل خادمَ الشيخ رسلان.

قرأت بخط السيف الحافظ: كان الحريريُّ من أفتن شيءٍ وأضرِّه على الإسلام، تظهرُ منه الزندقة والاستهزاءُ بالشرع، بلغني من الثّقات أشياءُ يستعظم ذكرُها من الزندقة والجرأة على الله، وكان مستخفاً بأمر الصلوات.

وحدثني أبو إسحاق الصَّرِيفيني، قال: قلت للحريري: ما الحجة في الرقص؟ قال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾ [الزلزلة:١]. وكان يُطعِم ويُنفِق ويتبعه كلُّ مريب. شَهِدَ عليه خلقٌ كثيرٌ بما يوجب القتل، ولم يُقْدِم السلطان على قتله، بل سجنه مرتين.

أنبأنا العلاّمة ابن دقيق العيد، عن ابن عبدالسلام سمعه يقول في ابن العربي: شيخ سوء كَذّاب.

وعندي مجموعٌ من كلام الشيخ الحريري فيه: إذا دخل مريدي بلادَ الروم، وتنصَّر، وأكل الخنزير، وشرب الخمر كان في شغلي!

وسأله رجلٌ: أيُّ الطرق أقْرَبُ إلى الله؟ قال: اترك السيرَ وقد وصلتَ!

وقال لأصحابه: بايعوني على أن نموت يهودَ ونحشر إلى النار حتى لا يصحبني أحدٌ لعلةٍ.

وقال: لو قَدِمَ عليّ مَنْ قَتَلَ ولدي وهو بذلك طيبٌ وجدني أطيبَ منه.

ومن ذلك قوله: أمرد يُقدِّم مداسي أخْيَرُ من رضوانكم، وربع قَحْبَة عندي أحسنُ من الولدان. أودُّ أشتهي قبل موتي أعشق ولو صورة حَجر. أنا متكلٌ محيّر والعشق بي مشغول!!

قال ابن إسرائيل: قال لي الشيخ: ما معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٦٤] قلتُ: يقول سيدي، قال: وَيْحَكَ مَن المُوقِدُ ومَن المُطفِئ، لا يسمع لله كلاماً إلاّ منك فيكَ، فامْحُ إنِّيَتَكَ.

وقال علي بن أنجب في تاريخه[1]:

الفقير الحريري شيخٌ عجيب، كان يعاشر الأحداث، كان يقال عنه: إنه مباحيٌّ ولم تكن له مراقبةٌ، كان يُخرِّب، والفقهاء يُنكرون فعلَهُ، وكان له قبولٌ عظيم.

ورُوي عن الحريري: لو ضربنا عنقك على هذا القول ولعنّاك لاعتقدنا أنّا مصيبون.

وممن انتصر له وخضع لكشفه الإمام أبو شامة[2]، فقال: كانَ عنده من القيام بواجب الشريعة ما لم يعرفه أحد من المتشرعين ظاهراً وباطناً، وأكثر الناس يغلطون فيه، كان مكاشَفاً لما في الصدور بحيث قد أطلعه الله على سرائر أوليائه.

[من فقه الذهبي]

قلت: ما هذا؟ اتقِ الله؛ فالكهنةُ وابنُ صائدٍ مكاشَفون لما في الضمائر.

كان الحريري يلبسُ ما اتفق والمُطَرَّز والمُلَوَّن، وقال عن نفسه:

فقيرٌ ولكِنْ من صلاحٍ ومن تُقًى — وشيخٌ ولكن للفسُوقِ إمامُ

وباقي سيرته في «تاريخ الإسلام».

---

(١) هو التاج ابن الساعي المؤرخ العراقي المشهور.

(٢) لم نجد هذ الكلام في ذيل الروضتين لأبي شامة حين ترجم له في وفاته سنة ٦٤٥ ص١٨٠ بل نجد خلاف ذلك ذماً له، وقد نسب ابن تغري بردي إلى أبي شامة أيضاً أنه أثنى على الحريري (النجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٠).

[من أذكياء العالم]

ابن تيمية الجد[1]

الشيخ الإمام العلاّمة فقيهُ العصر شيخ الحنابلة مجدُ الدين أبو البركات عبدالسلام بن عبدالله بن الخَضِر بن محمد بن عليٍّ الحراني، ابنُ تيمية.

وُلد سنة تسعين وخمس مئةٍ تقريباً.

وتفقّهَ، وبرع، واشتغل، وصنّف التصاينيف، وانتهت إليه الإمامةُ في الفقه، وكان يدري القراءات، وصنّف فيها أرجوزةً. تلا عليه الشيخ القيرواني.

وقد حجّ في سنة إحدى وخمسين على درب العراق، وانبهرَ علماءُ بغداد لذكائه وفضائله، والتمس منه أستاذ دار الخلافة محيي الدين ابن الجوزي الإقامة عندهم، فتعلل بالأهل والوطن.

سمعتُ الشيخ تقي الدين أبا العباس يقول: كان الشيخ جمال الدين ابن مالك يقولُ: أُلِيْنَ للشيخ المجد الفقهُ كما أُلينَ لداود الحديدُ. ثم قال الشيخ: وكانت في جدّنا حدّة[2]، قال: وحكى البرهان المراغيّ أنه اجتمع بالشيخ المجد، فأورد على الشيخ نكتةً فقال: الجوابُ عنها من ستين وجهاً: الأول كذا، الثاني كذا، وسردها إلى آخرها، وقال: قد رضينا منكَ بإعادة الأجوبة، فخضع البرهان له وانبهر.

وقال العلاّمة ابن حمدان: كنتُ أطالعُ على درس الشيخ وما أبقي ممكناً فإذا أصبحتُ وحضرتُ ينقلُ أشياء كثيرةً لم أعرفها قبلُ.

قال الشيخ تقي الدين: كان جدّنا عَجَباً في سردِ المتونِ وحفظ مذاهب الناس وإيرادها بلا كُلْفةٍ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٩١.

(٢) قلت: وفي إمام الأئمة أبي العباس حدّة أيضاً، وما وراء ذلك إلا الدفاع عن بيضة الإسلام.

حدثني الإمام عبدالله بن تيمية أنّ جدَّه رُبّي يتيماً، ثم سافر مع ابن عمّه إلى العراق ليخدمه ويُنفقّه، وله ثلاث عشرة سنةً فكان يبيتُ عندَهُ ويسمعُهُ يكرر على مسائل الخلاف فيحفظ المسألة، فقال الفخر إسماعيل يوماً: أيش حفظ النُّنين[1] فبدر المجد وقال: حفظتُ يا سيدي الدَّرْس وسَرَدَهُ فبُهِتَ الفخْرُ، وقال: هذا يجيء منه شيءٌ. ثم عرض على الفخر مصنّفه «جنة الناظر» وكتب له عليه في سنة ست وستٍّ مئةٍ وعظّمه، فهو شيخُهُ في علم النظر، وأبو البقاء شيخُهُ في النحو والفرائض، وأبو بكر بن غنيمة صاحبُ ابن المنيّ شيخُهُ في الفقه، وابن سُلطان شيخُهُ في القراءات، وقد أقامَ ببغداد ستة أعوامٍ مُكِبّاً على الاشتغال، ورَجَع ثم ارتحل إلى بغداد قبل العشرين وستّ مئةٍ، فتزيَّدَ من العلم، وصنَّف التصانيف، مع الدين والتقوى، وحسن الاتباع، وجلالة العلم.

توفي بحرّان يومَ الفطر سنة اثنتين وخمسين وستٍّ مئةٍ.

[الكشف ليس دليل الصلاح]

القُميني[2]

الشيخ يوسف القمّينيُّ المُولّهُ بدمشق، كان للناس في هذا اعتقادٌ زائدٌ لما يسمعون من مكاشفته التي تجري على لسانه كما يتم للكاهن سواء في نطقهِ بالمغيبات. كان يأوي إلى القَمامين والمزابل التي هي مأوى الشياطين، ويمشي حافياً ويكنس الزبل بثيابه النجسة ببوله، ويترنّح في مشيهِ، وله أكمام طوالٌ، ورأسُه مكشوف، والصبيان يعبثون به، وكان طويل السكوت، قليل التبسم، يأوي إلى قُمّينِ حمام نور الدين، وقد صارَ باطنه مأوى لقرينه، ويجري فيه مجرى الدم، ويتكلم فيخضع له كلُّ تالفٍ، ويعتقدُ أنه وليّ لله، فلا قوةَ إلا بالله.

---

(١) يعني: الصبي الصغير (وانظر تاريخ الإسلام، الورقة: ١٢٠).
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٠٢.

وقد رأيتُ غير واحدٍ من هذا النمط الذين زالَ عقلُهم أو نَقَص يتقلبون في النجاسات، ولا يصلون، ولا يصومون، وبالفحش ينطقون، ولهم كشفٌ كما والله للرهبان كشفٌ وكما للساحر كشف وكما لمن يصرع كشفٌ، وكما لمن يأكل الحية ويدخل النار حالٌ مع ارتكابه للفواحش، فوالله ما ارتبطوا على مسيلمة والأسود إلا لإتيانهم بالمغيبات.

توفي يوسف سنة سبعٍ وخمسين وست مئةٍ.

الحلبي[1]

رأس الأمراء عز الدين أيبكُ الحلبي الصالحي.

عُيِّنَ للمُلْكِ عند قتلهِ المعزّ أيبَكَ، وفي مماليكهِ عدة أمراء، فلما كان عاشرُ ربيع الآخر (سنة ٦٥٥هـ) هاجتْ فتنةٌ بمصر وركب الجيش، وفزع السلطان الملك المنصور علي بن المعز، وقبضوا على نائب السلطنة الجديد علم الدين سنجر الحَلَبيّ، وهربتْ أمراءُ إلى الشام فتقنطر بعز الدين المذكور فرسُهُ فمات من ذلك، وسجنوا سنجراً لأنهم تخيلوا منه أنه يريد السلطنة، وكذلك تقنطَرَ يومئذٍ بالأمير الكبير ركن الدين خاص تُرك فرسُه خارج القاهرة فهلك أيضاً، وأُمسك الوزير الفائزيُّ وأُخذتْ حواصلُه، وخُنِقَ، ووزر بدرُ الدين السِّنجاري، وناب في الملك قُطُز وتمكن، ثم في رمضان من السنة -سنة خمسٍ وخمسين- ثارتْ فتنةٌ وركب بُغْدي ويلغان الأشرفي وعدةٌ، وأحاطوا بقلعة مصر لحرب قُطُز والمعزّية، فتفلّلوا، وجرح بغدي، وقبض عليه وعلى من قام معه من الأشرفية كأيبك الأسمر، وأزْز الرومي، والسائق الصيرفي، ونُهبت دورُهم، وقويت الأمراء المعزية، ثم ملّكوا قُطُز.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٠٩.

ابن العقلمي الرافضي[1]

الوزير الكبير المدبر المبير مؤيد الدين محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب ابن العلقمي البغدادي الرافضي وزير المستعصم.

وكانت دولته أربع عشر سنة فأفشى الرَّفْض فعارضه السُّنّة، وأُكْبِتَ، فتَنَمَّر، ورأى أن هولاكو على قصد العراق فكاتبه وجَسَّرَه وقوّى عزْمه على قصد العراق، ليتخذ عنده يداً، وليتمكن من أغراضه، وحَفَر للأمة قَلِيْباً، فأوقع فيه قريباً، وذاق الهوان، وبقي يركب كديشاً وحدَه، بعد أن كانت ركبته تُضاهي موكب سلطان، فمات غَبْناً وغمّاً، وفي الآخرة أشدَّ خِزياً وأشد تنكيلاً.

وكان أبو بكر ابن المستعصم والدويدار الصغير قد شدَّا على أيدي السُّنّة حتى نُهِبَ الكَرْخ، وتمَّ على الشيعة بلاءٌ عظيم، فحنق لذلك مؤيد الدين ابن العلقمي بالثأر بسيف التتار من السُّنّة، بل ومن الشيعة واليهود والنصارى، وقُتل الخليفة ونحو السبعين من أهل العقد والحل، وبُذِل السيف في بغداد تسعة وثلاثين نهاراً حتى جرت سيول الدماء وبقيت البلدة كأمس الذاهب، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وعاش ابن العلقمي بعد الكائنة ثلاثة أشهر، وهلك[2].

ومات قبله بأيام أخوه الصاحب علم الدين أحمد.

ومات بعده ابنه محمد أحد البُلغاء المُنْشِئين.

وعاش الوزير ستاً وستين سنة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٦١.

(٢) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أنه توفي في مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة (يعني سنة ٦٥٦) وذكر الصفدي في الوافي وابن شاكر في الفوات أنه توفي في أوائل سنة ٦٥٧، وأضاف الصفدي أن مولده كان في شهر ربيع الأول سنة ٥٩١.

الباخَرزي[1]

الإمام القدوة شيخ خراسان سيف الدين أبو المعالي سعيد بن المُطَهَّر بن سعيد ابن علي القائدي الباخرزي نزيلُ بخارى.

كان إماماً، محدّثاً، ورعاً زهداً، تقياً، أثرياً، مُنقطع القَرين، بعيد الصِّيت، له وقع في القلوب ومهابةٌ في النفوس. صحب الشيخ نجم الدين الخِيْوَقي.

وقيل: إنه قَدِمَ بغداد وله إحدى عشرة سنة، فسمع من ابن الجوزيّ؛ فإنه وُلد في تاسع شعبان سنة ست وثمانين [وخمس مئة].

وقد ذكره في «معجم الألقاب» ابن الفوطيّ، فقال فيه: هو المُحدّث الحافظ الزاهد الواعظ. كان شيخاً بهياً عارفاً، تقياً فصيحاً، كلماته كالدر. روى عن أبي الجِنّاب الخِيْوَقي، ولبس منه[2].

قال ابن الفوطي: قرأتُ في سيرة الباخرزي لشيخنا منهاج الدين النَّسَفِي، وكان متأدباً بأفعاله، فقال: كان الشيخ متابعاً للحديث في الأصول والفروع، لم ينظر في تقويم ولا طِبّ، بل إذا وُصف له دواء خالفهم متابعاً للسُّنة[3]، وكانت طريقته عارية عن التكلُّف، كان في علمه وفضله كالبحر الزاخر، وفي الحقيقة مفخر الأوائل والأواخر، له الجلالة والوجاهة، وانتشر صيتُهُ بين المسلمين والكفار، وبهمَّتِهِ اشتهر علم الأثر بما وراء النهر وتُركستان، وكان علمُهم الجدل والقول بالخلافيات وترك العمل، فأظهر أنوار الأخبار في تلك الديار.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٦٣.

(٢) يعني: لبس خرقة التصوف.

(٣) هذا كلام غير دقيق، إذ السنّة لا تمنع من استشارة الطبيب وأخذ الدواء الذي يقرره، بل تحض عليه.

ولد بباخرز، وهي ولاية بين نيسابور وهراة قصبتها مالين، وصحبَ نجم [الخِيوقيّ] الكبرى. ولما خَرَّب التتار بخارى وغيرها أمر نجم الدين الكبرى أصحابه بالخروج من خوارزم إلى خراسان منهم سعد الدين، وآخى بين الباخرزيّ وسعد الدين، وقال للباخرزي: اذهب إلى ما وراء النهر. وفي تلك الأيام هرب خوارزم شاه، فقدِمَ سيف الدين بُخارى وقد احترقت وما بها موضع ينزل به، فتكلم بها، وتجمع إليه الناس، فقرأ لهم البخاري على جمال الدين عبيد الله بن إبراهيم المحبوبي سنة اثنتين وعشرين وست مئة، ثم أقام، ووعظ وفسَّر، ولما غَمَرتْ بُخارى أخذوا في حَسَدِهِ وتكلموا في اعتقاده، وكان يُصلِّي صلاة التسبيح جماعة ويحضر السَّماع. ولما جاء محمود يلواج بخارى ليضع القلان؛ وهو أن يعدّ الناس ويأخذ من الرأس ديناراً والعُشر من التجارة، فدخل على سيف الدين فرأى وجهه يشرق كالقمر، وكانَ الشيخ جميلاً بحيث إن نجم الدين الكبرى أمره لما أتاه أن يتنقب لئلا يفتتن به الناس، فأحب يلواج الشيخ ووضع بين يديه ألف دينار، فما التفت إليها. ثم خرج ببخارى التارابيّ وحشد وجمع فالتقى المغُل وأوهم أنه يستحضر الجن، ولم يكن مع جَمْعه سلاحٌ فاغتروا بقوله، فقَتَلَت المَغُل في ساعة سبعة آلاف منهم أولهم التّارابيّ، فأوهَمَ خواصَّه أنه قد طار، وما نجا إلا من تشَفَّع بالباخرزي، لكن وَسَمَتهم التتار بالكي على جباههم.

[تأثير بعض العلماء في التتار]

إلى أن قال: ووقع خوف الباخرزي في قلوب الكفار، فلم يخالفه أحدٌ في شيء يريده، وكان بايقوا[1] أخو قآن ظالماً غاشماً سَفّاكاً، قَتَل أهل تِرْمِذ حتى الدواب والطيور والتحق به كلُّ مُفْسِد، فشغبوه على الباخرزي، وقالوا: ما جاء إليك، وهو يريد أن يصير خليفة. فطلبه إلى سمرقند مُقَيّداً، فقال: إني سأرى بعد هذا الذُّل عِزّاً،

---

(١) هذا وأمثاله أسماء تترية تكتب بأشكال مختلفة، وقد حافظنا على رسم المخطوطة جهد المستطاع.

فلما قرب مات بايقوا، فأطلقوا الشيخ وأسلم على يده جماعة. وزارَ بخَرْتَنْك قبر البخاري وجدد قُبّته وعلَّق عليها السّتُور والقناديل. فسأله أهل سمرقند أن يقيم عندهم، فأقام أياماً ورجع إلى بُخارى.

وأسلم على يده أميرٌ وصار بواباً للشيخ، فسماه الشيخ مؤمناً. وعُرف الشيخ بين التتار بأُلُغْ شيخ، يعني الشيخ الكبير، وبذلك كان يعرفه هولاكو، وقد بعث إليه بَرَكة بن توشي بن جنكزخان من سَقسين رسولاً ليأخذ له العهد بالإسلام، وكان أخوه باتوا كافراً ظَلوماً قد استولى على بلاد سَقسين وبُلْغار وصقلاب وقفجاق إلى الدّربند، وكان لبركة أخ أصغر منه يقال له: بركة حَرْ، وكانَ باتوا مع كُفره يحب الشيخ، فلما عرف أن أخاه بركة خان قد صار مُريداً للشيخ فرح فاستاذنَهَ في زيارة الشيخ فأذِنَ له، فسار من بُلغار إلى جَنْد ثم إلى أُترار، ثم أتى بخارى، فجاء بعد العشاء في الثلوج فما استأذن إلى بُكرة، فحكى لي مَن لا يُشَك في قوله أن بركة خان قام تلك الليلة على الباب حتى أصبح، وكان يصلي في أثناء ذلك، ثم دخل فقبَّل رجل الشيخ، وصلَّى تحية البُقْعَة فأعجب الشيخ ذلك، وأسلم جماعة من أمرائه، وأخذ الشيخ عليهم العهد، وكتب له الأوراد والدعوات، وأمره بالرجوع، فلم تطب نفسه، فقال: إنك قصدتنا ومعكَ خلقٌ كثير، وما يعجبني أن تأمرهم بالانصراف، لأني أشتهي أن تكونَ في سُلطانك. وكان عنده ستون زوجة فأمره باتخاذ أربع وفراق الباقيات ففعل، ورجع، وأظهرَ شعارَ المِلة، أسلمَ معه جماعةٌ، وأخذوا في تعليم الفرض، وارتحل إليه الأئمة، ثم كانت بينه وبين ابن عمه هولاكو حروب، ومات بركة خان في ربيع الآخر سنة خمس وستين [وست مئة]، وكانت خيراته متواصلة إلى أكثر العلماء.

وكان المستعصم يهدي من بغداد إلى الباخرزي التُّحَفَ؛ من ذلك مصحف بخط الإمام علي رضي الله عنه ، وكان مظفر الدين أبو بكر بن سعد صاحب شيراز يهدي إلى الشيخ في السنة ألف دينار، وأنفذ له لؤلؤ صاحب الموصل. وأهدت له ملكة

بنت أُزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان سنَّ النبي ﷺ الذي كُسر يوم أُحد. وكان يمنع التتار من قصد العراق، ويُفَخِّم أمر الخليفة. وممن راسله سلطان الهند ناصر الدين أيبك، وصاحب السِّنْد ومُلتان غياث الدين بلبان.

قال[1]: وبعث إليه منكو قآن لما جلس على سرير السَّلْطَنة بأموال كثيرة، وكذلك وزيره برهان الدين مسعود بن محمود يَلَواج، وكان عالماً بالخلاف والنُّكت، أنشأ مدرسة بكلاباذ، وكان معتزلياً، وكان إذا جاء إلى الشيخ قَبَّل العتبة ووقفة حتى يُؤذن له، ويقول: إن أبي فعل ذلك، ولأن له هيبة في قلوب ملوكِنا، حتى لو أمرهم بقتلي لما توقفوا!

توفي الشيخ رحمه الله في العشرين من ذي القعدة[2]. أُعتِقَ له ما نيّف على أربع مئة مملوك، وأوصى أن يُكفَّن في خِرْقةِ شيخه نجم الكبرى، وأن لا يُقرأ قُدّام جنازته ولا يُناح عليه، وكانَ يوم وفاته يوماً مشهوداً لم يتخلّف أحدٌ، حُزِرَ العالم بأربع مئة ألف إنسان، ومن تركتِهِ لكل ابنٍ - وهم: جلال الدين محمد وبرهان الدين أحمد ومظهر الدين مُطَهَّر-: ثلاث مئة وثلاثين ثوباً ما بين قميصٍ ومنديل وعمامة وفروة، وكانت له فروة آس[3] من الفاقم[4] أعطي فيها ألف دينار، وكانت مسامير المداسات فضة، وكان له كرسي تحت رجليه مُذَهَّب بخمس مئة دينار، وكان له من الخيل والمواشي ما يساوي عشرة آلاف دينار، وكان له من العبيد ستون عبداً من حُفّاظ القرآن وتعلَّموا الخط والعربية وسمعوا الحديث، وسَرَدَهُم[5]، منهم نافع

---

(١) يعني ابن الفوطي.

(٢) لم يذكر الذهبي هنا سنة وفاته، ووضع ترجمته في حوادث سنة ٦٥٩ من العبر وعلى هوامش حوادثها في تاريخ الإسلام، وذكره ضمن من توفي في هذه السنة من تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٥١- ١٤٥٢، ونص الصفدي عليها في الوافي وكذا وضعها ابن العماد في الشذرات.

(٣) هكذا في الأصل. ولعل الصواب: فروة رأس، أي: غطاء للرأس - الناشر.

(٤) الفاقم: الشديد السواد. هكذا في الأصل، والصواب: من القاقم وهو حيوان من فصيلة ابن عرس، وفروه من أحسن الفراء الثمينة - الناشر.

(٥) يعني: ابن الفوطي.

الدين، وقد كتب للشيخ أكثر من أربعين مصفحاً وكتاباً وحجَّ وخلعَ عليه بالديوان، وله من الفلاحين أزيد من ثلاث مئة نفس وله قُرى وبساتين عدة، وسمَّاها.

[اللصوص والعيارون]

[مقتل حمدي اللص]

فيها -يعني سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة- قُتل حَمْدي[1] اللص، وكان فاتكاً. ضمّنه ابن شيرزاد اللصوصية ببغداد في الشهر بخمسة وعشرين ألف دينار. فكان يكبس بيوت الناس بالمِشْعَل والشمع، ويأخذ الأموال. وكان أسكورَج الديلمي قد ولي شرطة بغداد، فأخذه ووسّطه.

[مصرع القرمطي]

ولم يحج في هذه السنة -يعني سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة- أحد لموت القرمطي، وهو أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد [الحسن بن بهرام] الجنابي بهجر في رمضان بالجدري، وهو الذي قتل الحجيج واستباحهم مرات، واقتلع الحجر الأسود، وبقي بعده أبو القاسم سعيد، وكان أبوه يحبه ويرجّحه للأمر من بعده، وأوصى إن حدث بي موت، فالأمر إلى ابني سعيد إلى أن يكبُرَ أبو طاهر، فيعيد سعيد الأمر إليه.

وكان أبو سعيد قد عتا وتمرد، وأخاف العباد، وهزم الجيوش، وكان قد أَسَرَ فيمن أسر خادماً، فحسنت منزلته عنده حتى صار على طعامه وشرابه، وكان الخادم ينطوي على إسلام، فلم يرَ أبا سعيد يصلي صلاةً، ولا صام شهر رمضان. فأبغضه وأضمر قتله، فخلاه وقد دخل حماماً في الدار ووثب عليه بخنجر فذبحه، ثم خرج

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ١٢.

ودعا بعض قُواد أبي سعيد فقال له: كلّم أبا سعيد. فلما حصل ذبحه. ثم استدعى آخر، ففعل به كذلك حتى فعل ذلك بجماعة من الكبار، وكان شجاعاً قوياً جلْداً.

ثم استدعى في الآخِر رجلاً، فدخل في أول الحمام، فإذا الدماء تجري، فأدبر مسرعاً وصاح، فتجمّع الناس. وقد مرّ ذلك في سنة إحدى وثلاثمائة.

وأخذ سعيد ذلك الخادم، فقرضَ لحمه بالمقاريض إلى أن مات. فلما كان في سنة خمسٍ وثلاثمائة سلّم سعيد الأمرَ إلى أخيه أبي طاهر، فاستجاب لأبي طاهر خلق وافتتنوا به، بسبب أنه دلّهم على كنوز كان والده أطلعه عليها وحده، فوقع لهم أنه عِلْم غيب، وتخيَّر موضعاً من الصحراء وقال: أريد أن أحفر ههنا عيْناً. فقيل له: هنا لا ينبع ماء. فخالفهم وحفر فنبع الماء فازدادت فتنتهم به.

ثم استباح البصرة، وأخذ الحجيج، وفعل العظائم، وأرعَبَ الخلائق وكثُرت جموعه، وتزلزل له الخليفة.

وزعم بعض أصحابه به أنه إله ومنهم من زعم أنه المسيح، ومنهم مَن قال هو نبيّ. وقيل هو المهديّ، وقيل: هو الممهّد للمهديّ.

وقد هزم جيش الخليفة المقتدي غير مرة، ثم إنه قصد بغداد ليأخذها فدفع الله شرّه.

[الإفساد في الحرم]

وقد قتل بحَرَم الله تعالى مقتلة عظيمة لم يتم مثلها قط في الحرَم. وأخذ الحجر الأسود. ثم لم يُمْهِلْه الله بعد ذلك. فلما أشفى على التَّلَف سلَّم مُلْكه إلى أبي الفضل ابن زكريا المجوسي العجميّ.

قال محمد بن عليّ بن رِزام الكوفي: قال لي ابن حمدان الطبيب: أقمتُ بالقَطيف أعالج مريضاً فقال لي رجل: انظر ما يقول الناس، يقولون: إن ربّهم قد ظهر.

فخرجتُ، فإذا الناس يُهرعون، إلى أن أتينا دارَ أبي طاهر سليمان القرمطي، فإذا بغلام حسن الوجه، دُريّ اللون، خفيف العارضين، له نحو عشرين سنة، وعليه عمامة صفراء تعميم العجم، وعليه ثوب أصفر، وفي وسطه منديل وهو راكب فرساً شهباء، والناس قيام، وأبو طاهر القرمطي وإخوته حوله. فصاح أبو طاهر بأعلى صوته: يا معشر الناس، مَن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أبو طاهر سليمان بن الحسن. اعلموا أنّا كنا وإياكم حميراً، وقد مَنَّ اللهُ علينا بهذا، وأشارَ إلى الغلام؛ هذا ربي وربكم، وإلهي وإلهكم، وكلُّنا عباده والأمرُ إليه، وهو يملكنا كلَّنا.

ثم أخذ هو والجماعة التّراب، ووضعوه على رؤوسهم؛ ثم قال أبو طاهر: اعلموا يا معشر الناس، إن الدين قد ظهر، وهو دين أبينا آدم، وكل دين كنا عليه فهو باطل. وجميع ما توصلتْ به الدُّعاة إليكم فهو باطل وزور مِن ذكر موسى، وعيسى، ومحمد. إنما الدين دين آدم الأول، وهؤلاء كلهم دجّالون محتالون فالعنوهم. فلعنهم الناس.

وكان أبو الفضل المجوسي، يعني الغلام الأمرد، قد سَنَّ لهم اللواط ونكاح الأخوات، وأمرَ بقتل الأمرد الممتنع. وكان أبو طاهر يطوف هو والناس عُراةً به ويقولون: إلهنا عز وجل.

قال ابن حمدان الطبيب: أُدخِلتُ على أبي الفضل فوجدتُ بين يديه أطباقاً عليها رؤوس جماعة، فسجدتُ له كعادتهم والناسُ حوله قيام وفيهم أبو طاهر، فقال لأبي طاهر: إن الملوك لم تزل تُعدّ الرؤوس في خزائنها فسَلُوه، وأشار إليَّ، كيف الحيلة في بقائها بغير تغيير؟

فسألني أبو طاهر فقلت: إلهُنا أعلم، ويعلم أن هذا الأمر ما علمته. ولكن أقول على التقدير إنّ جملة الإنسان إذا مات يحتاج إلى كذا وكذا صِبر وكافور. والرأس جزءٌ من الإنسان، فيؤخذ بحسابه. فقال أبو الفضل: ما أحسن ما قال.

قال ابن حمدان: وما زلت أسمع الناس تلك الأيام يلعنون إبراهيم، وموسى، ومحمداً، وعلياً، وأولاده، ورأيت المصحف يُمْسَح به الغائط.

وقال أبو الفضل لكاتبه ابن سَنْبر: اكتب كتاباً إلى الخليفة فصلِّ لهم على محمد، وبَجِّل لهم جناب المنورة.

قال ابن سَنْبر: والله ما تنبسط يدي لذلك.

وكان لأبي طاهر أخت فافتضها أبو الفضل، وذبح ابناً لها في حُجْرها، وقتل زوجها، ثم عزم على قتل أبي طاهر، فبلغ ذلك أبا طاهر، فأجمع رأيه ورأي ابن سَنْبر ووالدة أبي طاهر على أن يمتحنوه ويقتلوه.

فأتياه فقالا: يا إلهنا، إن فُرْجة أم أبي طاهر قد ماتت، نشتهي أن تَحْضُرَ لنشقّ جوفها ونحشوه جَمْراً، وكان قد شرع لهم ذلك. فمضى معهما، فوجد فُرْجة مُسَجّاة، فأمرَ بشقّ بطنها. فقال أبو طاهر: يا إلهي أنا أشتهي أن تُحييها لي.

قال: ما تستحقّ، فإنها كافرة.

فعاوده مراراً، فاستراب وأحسَّ بتغيّرهما عليه، فقال: لا تعجلا عليَّ ودعاني أخدم دوابّكما إلى أن يأتي أبي، فإني سرقت منه العلامة، فيرى فيَّ رأيَه.

فقال له ابنُ سنبر: ويْلَك هتكتَ أستارنا وحريمنا، وكشفتَ أمرنا، ونحن نُرتّب هذه الدعوة من ستين سنة، لا يُعلَم ما نحن فيه. فأنت لو رآكَ أبوك على هذه الحالة لقتلك، قُمْ يا أبا طاهر فاقتله.

قال: أخشى أن يمسخني.

فقام إليه سعيد أخو أبي طاهر فقتله وأخرج كبده، فأكَلَتْها أخت أبي طاهر.

ثم جمع ابن سنبر الناسَ وذكر حقَّه فيهم، لأنه كان شيخهُم، وقال لهم: إنّ هذا الغلام وَرَدَ بكذبٍ سَرقه مِن معدن حقّ، وعلامةٍ موّه بها، فأطعناه لذلك. وإنا وجدنا فوقه غلاماً ينكحه فقتلناه.

وقد كنا نسمع أنه لا بُدّ للمؤمنين من فتنةٍ عظيمة يظهر بعدها الحق، وهذه هي. فارجعوا عن نكاح المُحرَّمات، وأطفئوا بيوتَ النيران، واتركوا اتخاذ الغلمان، وعظّموا الأنبياء عليهم السلام.

فضجّ الناس بالصياح وقالوا: كل يوم تقولون لنا قولاً. فأنفق أبو طاهر أموالاً، كان جمعها أبو الفضل، في أعيان الناس فسكتوا.

قال ابن حمدان الطبيب: وبعد قتل أبي الفضل اتصلتُ بخدمة أبي طاهر، فأخرج إليَّ يوماً الحجر الأسود وقال: هذا الذي كان المسلمون يعبدونَه.

قلتُ: ما كانوا يعبدونه.

قال: بلى.

فقلت: أنت أعلم.

وأخرجه إليَّ يوماً وهو ملفوف بثياب دَيْبقيّ، وقد طيّبه بالمسك، فعرَّفنا أنه معظّم له.

ثم إنه جرت بين أبي طاهر وبين المسلمين حروب وأمور، وضعف جانبه، وقُتل من أصحابه في تلك الوقعات خلْق وقَلُّوا، فطلب من المسلمين الأمان على أن يردّ الحجر الأسود وأن لا يتعرض للحجاج أبداً. وأن يأخذ على كل حاج ديناراً ويخفرهم. فطابت قلوب الناس وحجّوا آمنين. وحصل له أضعاف ما كان ينتهبه من الحاجّ.

وقد كان هذا الملعون بلاءً عظيماً على الإسلام وأهله، وطالت أيامه.

ومنهم مَن يقول إنه هلك عقيب أخْذه الحجر الأسود. والظاهر خلاف ذلك.

[عناية ابن بُوَيْه بالشباب]

وهو أول من ملك العراق من الدَّيْلم. وهو أول من أظهر السُّعاة ببغداد ليجعلهم فُيوجاً بينه وبين أخيه رُكْن الدول إلى الريّ. وكان له ركائبيان: فضل،

ومرعوش، فكان كل واحد يمشي في اليوم ستة وثلاثين فرسخاً، فغَرِيَ بذلك شبابُ بغداد وانهمكوا فيه. وكان يُحضِر المصارعين بين يديه في الميدان ويأذن للعوّام، فمن غلب خَلَع عليه. وشرع في تعليم السباحة، حتى صار السبّاح يسبح وعلى يده كانون فوقه قِدْره، فيسبح حتى ينضج اللحم[1].

[من أخبار الباطنية سبهم للرسل وقتلهم العلماء]

[وفاة القائم أبي القاسم صاحب المغرب[2]]

وفيها مات القائم أبو القاسم محمد بن عُبَيد الله صاحب المغرب. وكان مولده بسَلَمية سنة ثمانٍ وسبعين. ودخلَ مع أبيه المغرب في زيّ التجار، فآل بهم الأمر إلى ما آل. وبويع هذا سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة عند موت أبيه.

وقد خرج عليه سنة اثنتين وثلاثين مَخْلَد بن كيْداد. وكانت بينهما وقائع مشهورة. وحصره مَخْلَد بالمَهْديّة وضيَّق عليه واستولى على بلاده، فعرض للقائم وسواس فاختلط عقله، ومات في تلك الحال في شوال، وله خمسٌ وخمسون سنة. وسُتِرت وفاته سنة ونصفاً. وقام بعده وليّ عهده المنصور بالله أبو الطاهر إسماعيل ولده.

وكان القائم شراً من أبيه المهديّ، زنْديقاً ملعوناً.

[مقاتلة ابن كَيْداد لأبي القاسم]

ذكر القاضي عبدالجبار أنه أظهر سبّ الأنبياء عليهم السلام، وكان مناديه ينادي: العنوا الغار وما حوى، وقتلَ خلقاً من العلماء. وكان يراسل أبا طاهر القَرْمَطيّ إلى البحرين وهَجَر، ويأمره بإحراق المساجد والمصاحف. ولما كثُر فجوره اجتمع أهل الجبال على رجل من الإباضية يقال له مَخْلَد بن كيْداد، وكان شيخاً لا يقدر على

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٢٥.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣١.

ركوب الخيل، فركب حماراً. وكان وزيره أعمى، فاجتمع معه خلائق، فسار فحصرَ القائم بالمهدية.

وكان مَخْلَد أعرج يُكنّى أبا يزيد، وهو من زَناتة، قبيلة كبيرة من البربر، كان يتنسَّك ويقصر دلقة الصوف، ويركب حماراً، ولا يثبت على الخيل.

وكان نافذ الأمر في البربر، زاهداً، ديّناً، خارجياً. قام على بني عُبَيْد، والناس على فاقة وحاجةٍ لذلك. فقاموا معه وأتوه أفواجاً، ففتح البلاد، ودخل القيروان. وتحيّز منه المنصور وتحصّن بالمهدية التي بناها جدّه. ونَفَر مع مَخْلَد الخلْق والعلماء والصُّلحاء، منهم الإمام أبو الفضل المَمْسِي العباس بن عيسى الفقيه، وأبو سليمان ربيع القطّان، وأبو العرب، وإبراهيم بن محمد.

قال القاضي عِياض في ترجمة العبّاس بن عيسى هذا: وركب أبو العرب وتقلّد مصحفاً، وركب الفقهاء في السلاح، وشقّوا القيروان وهم يُعلنون التكبير والصلاة على النبي ﷺ والترضي على الصحابة. وركّزوا بنودهم عند باب الجامع. وهي سبعة بنود حُمْر فيها: لا إله إلا الله، ولا حُكْم إلا لله وهو خير الحاكمين؛ وبَنْدان أصفران لربيع القطّان فيهما: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصف:١٣]؛ وبَنْد مَخْلَد فيه: اللهم انصر وليَّك على من سبّ نبيك؛ وبَنْد أبي العرب فيه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة:٢٩]، وبَنْد أصفر لابن نصرون الزاهد فيه: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التوبة:١٤]؛ وبَنْد أبيض فيه: محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق، وبَنْد أبيض لإبراهيم بن محمد المعروف بالعَشّاء فيه ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٤٠].

وحضرت الجمعة فخطبهم أحمد بن أبي الوليد، وحضّ على الجهاد. ثم ساروا ونازلوا المهدية. فلما التقوا وأيقن مَخْلَد بالنصر غلب عليه ما عنده من الخارجية، فقال لأصحابه: انكشفوا عن أهل القيروان حتى ينال منهم عدوّهم. ففعلوا ذلك،

فاستشهد خمسةٌ وثمانون رجلاً من العلماء والزّهاد، منهم ربيع القطّان، والمَمْسي، والعشّاء.

[رد الحجر الأسود][1]

وفيها -يعني سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة- رُدّ الحجر الأسود إلى موضعه. بعث به القَرْمَطِيّ مع محمد بن سَنْبر إلى المطيع. وكان بَجْكَم قد دفع فيه قبل هذا خمسين ألف دينار وما أجابوا، وقالوا: أخذناه بأمرٍ وما نردّه إلا بأمر. فلما ردّوه في هذه السنة قالوا: رددناه بأمر مَن أخذناه بأمره.

[من فقه الذهبي]

وكذبوا، فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ [الأعراف:٢٨]، فكذّبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾ [الأعراف:٢٨] وأنْ عَنَوْا بالأمر القَدَر، فليس ذلك حُجّة لهم، فإنّ الله تعالى قدَّر عليهم الضلال والمُرُوقَ مِن الدين، وقدَّر عليهم أنه يُدخِلُهم النارَ، فلا ينفعهم قولُهم: أخذناه بأمر.

وقد أعطاهم المطيع مالاً، وبقي الحجر عندهم اثنتين وعشرين سنة.

وفيها - قاله المسبحيّ، وافى سُنْبُر بن الحَسَن إلى مكة ومعه الحجر الأسود، وأمير مكة معه، فلما صار بفناء البيت أظهر الحجر من سَفط وعليه ضباب فضة قد عُملت من طوله وعرضه فضبط شقوقاً حَدَثت عليه بعد انقلاعه، وأحضر له صانعاً معه جصّ يشدّه به. فوضع سنبر بن الحسن بن سنبر الحجر بيده، وشدّه الصانع بالجصّ، وقال لما ردّه: أخذناه بقُدرة الله ورددناه بمشيئة الله.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٤٣.

[قتل ابنه حرصاً على الملك[1]]

وفي عيد الأضحى [سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة] قتل الناصر لدين الله عبدالرحمن بن محمد الأموي صاحب الأندلس ولدَه عبدالله، وكان قد خاف من خروجه عليه[2]، وكان من كبار العلماء، روى عن: محمد بن عبدالملك بن أيمن، وقاسم بن أَصْبَغ. وله تصانيف منها مجلّد في «مناقب بَقِيّ بن مَخْلَد»، رواه عنه: مَسْلَمَةُ بن قاسم.

[إصلاح الحجر الأسود وتمكينه في الكعبة]

وفيها -يعني سنة أربعين وثلاث مئة- قلع حَجَبَة الكعبة الحجر الذي نصبه سنبر صاحب الجِنابيّ وجعلوه في الكعبة، وأحبّوا أن يجعلوا له طوقاً من فضة فيُشَدّ به كما كان قديماً لما عمله عبدالله بن الزبير. وأخذ في إصلاحه صائغان حاذقان فأحكماه.

قال أبو الحسن محمد بن نافع الخُزاعي: فدخلتُ الكعبة فيمن دخلها، فتأملتُ الحجر، فإذا السواد في رأسه دون سائره، وسائره أبيض. وكان مقدار طوله فيما حزرت مقدار عُظْم الذراع.

قال: ومبلغ ما عليه من الفضة فيما قيل ثلاثة آلاف وسبعمائة وسبعة وتسعون درهماً ونصف[3].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٤٥.

(٢) كان عبدالله بن عبدالرحمن فقيهاً شافعياً متنسكاً أديباً شاعراً، سما إلى طلب الخلافة في مدة أبيه وبايعه قوم في الخفية على قتل والده وأخيه المستنصر ولي عهد أبيه فعرف بذلك أبوه فسجنه إلى أن أخرج يوم عيد الأضحى سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة من الحبس، وأحضره أبوه بين يديه وقال لخواصه هذه أضحيتي في هذا العيد ثم أُضْجِع له وذبحه، وقال لأتباعه ليذبح كل أضحيته فاقتسموا أصحاب ولده عبدالله وذبحوهم عن آخرهم. «الوافي بالوفيات» ١٧/ ١٢٩.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٤٧.

[من العلماء بعلوم الظاهر]

عبدالله بن محمد بن منازل[1]

أبو محمد النيسابوري الزاهد، المجرد على الصحة والحقيقة.

وقيل: كنيته أبو محمود.

وقال السُّلَمي: له طريقة يتفرَّد بها. صحِبَ حمدون القصّار، وكان عالماً بعلوم الظاهر. سمعت محمد بن عبدالله بن شاذان يقول: سمعت ابن منازل يقول: لا خير فيمن لم يذُقْ ذُلّ المكاسب، وذُلّ السؤال، وذُلّ الرد.

توفي في ربيع الأول سنة ٣٣١هـ، وكان أعرج.

[ادُّخِر له أموال عظيمة فضيعها وافتقر]

محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة السَّدوسي[2]

أبو بكر البغدادي.

وثّقه الخطيب، وقال: أخبرنا البَرْقانيّ، أخبرنا عبدالرحمن بن عمر، قال محمد: سمعت «المُسْنَد» من جدي في سنة ستين، وسنة إحدى وستين ومئتين بسامراء، فسمع أبو مسلم الكَجّيّ من جدي، وبقى عليه شيء سمعه أبو مسلم مني. ومات جدي وهو يقرأ عليّ. والذي سمعتُ منه مُسْنَد العشرة[3]، وابن عباس، وبعض الموالي، ولي دون العَشْر. وُلدتُ في أول سنة أربعٍ وخمسين ومئتين.

قلت: وخُلِّفَ له أموالاً عظيمة فضيَّعها وافتقر.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٥٥.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٥٧.

(٣) أي: العشرة المبشرين بالجنة

قال أبو سعد السَّمعاني في «الأنساب»: ذكر أبو بكر بن يعقوب قال: لما وُلدتُ دخل أبي على أمي فقال: إن المنجمين قد أخذوا مولد هذا الصبيّ، فإذا هو يعيش كذا وكذا. وقد حَسَبتُها أياماً، وقد عزمتُ أن أُعدَّ لكل يوم ديناراً، فإن ذلك يكفي المتوسط. فأعدَّ لي حُبّاً[1] في الأرض وملأه دنانير. ثم قال لها: أعدِّي له حُبّاً آخر. فجعل فيه مثل ذلك استظهاراً، ثم استدعى حُبّاً آخر وملأه ودفنهم.

قال أبو بكر: وما نفعني ذلك مع حوادث الزمان، وقد احتجت إلى ما ترون.

قال أبو بكر بن السَّقَطيّ: رأيناه فقيراً يجيئنا بلا إزار، ونسمع عليه ويُبَرّ بالشيء بعد الشيء.

قلت: وتوفي في ربيع الآخر سنة ٣٣١هـ.

[يظهر الغنى وهو فقير]

محمد بن إسماعيل[2]

أبو بكر الفرغاني الصوفي، أستاذ أبي بكر الدُّقيّ.

كان من المجتهدين في العبادة.

قال الدُّقيّ: ما رأيت أحسن منه ممن يُظهر الغِنى في الفقر. كان يلبس قيميصين أبيضين ورداء وسراويل ونعْلاً نظيفاً وعمامة. وفي يده مفتاح، وليس له بيت. ينطرح في المساجد ويطوي الخمسَ والستّ[3].

---

(١) الحُبّ: بالضم، الجَرَّة الضخمة. وفي الأنساب: «جُبّاً».
(٢) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٦٠.
(٣) أي: يصوم خمسة وستة أيام.

وقال أحمد بن عليّ الرُّسْتُميّ: كان يسيحُ ومعه كوزٌ فيه قميص نظيف رقيق، فإذا اشتهى دخول بلد تنظَّف ولبس القميص، ومعه مفتاح منقوش، فيصلي ويطرحه بين يديه يوهم أنه تاجر.

وقال عبدالواحد بن بكر: سمعت الدُّقي: سمعت الفرغاني محمد بن إسماعيل يقول: دخلتُ الدَّيْر الذي بطور سيناء فأتاني مطرانهم بأقوامٍ كأنهم نُشروا من القبور فقال: هؤلاء يأكل أحدهم في الأسبوع أكلةً يفخرون بذلك.

فقلتُ لهم: كم صبر مسيحيّكم هذا؟

قالوا: ثلاثين يوم.

وكنتُ قاعداً في وَسَط الدَّيْر، فلم أزل جالساً أربعين يوماً لم آكل ولم أشرب، فخرج إليّ مطرانهم قال: يا هذا، قُم فقد أفسدت قلوبَ كل من في الدَّيْر.

فقلت: حتى أُتِمّ ستين يوماً. فألحّوا عليَّ فخرجتُ.

توفي الفرغاني سنة إحدى وثلاثين وثلاث مئة.

[من العلماء الحفاظ]

أحمد بن محمد بن سعيد بن عبدالرحمن(١)

مولى بني هاشم، أبو العباس الكوفي الحافظ المعروف بابن عُقْدة، وهو لَقَبُ أبيه.

وكان حافظاً كبيراً، جَمَعَ الأبواب والتراجم.

وكان أبو عُقْدة إماماً في النحو التصريف، ورِعاً خيِّراً.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٦٨.

ومما أملاه ابن عقدة بسنده، قال: قال سفيان الثوري: لا يجتمع حُبّ عليّ وعثمان إلا في قلوب نبلاء الرجال.

قلت: ما يُمْلي ابن عُقْدَة مثل هذا إلا وأمره في التشيُّع متوسط.

قال الوزير أبو الفضل بن حِنْزابَة: سمعت الدراقطني يقول: أجمعَ أهل الكوفة أنه لم يُرَ بالكوفة من زمن ابن مسعود رضي الله عنه إلى زمن أبي العباس ابن عُقْدة أحفظ منه.

أبو أحمد الحاكم قال: قال لي ابن عُقْدة: دخل البَرْديجي الكوفة، فزعم أنه أحفظ مني. فقلت: لا تطولُ، نتقدّم إلى دُكّان ورّاق، ونضع القَبّان، ونزن من الكتب ما شئت. ثم يلقى علينا فنذكره.

قال: فبقي[1].

قال الحاكم: سمعت أبا عليّ الحافظ يقول: ما رأيت أحفظ لحديث الكوفيين من ابن عُقْدَة.

وعن ابن عُقْدة قال: أنا أُجيب في ثلاثمائة ألف حديث من حديث أهل البيت وبني هاشم.

روى هذا عنه أيضاً الدارقطني.

وعن ابن عُقْدة قال: أحفظ مائة ألف حديث بالإسناد والمتن، وأُذاكِر بثلاثمائة ألف حديث.

وقال عبدالغني: سمعتُ الدارقطني قال: كان ابن عُقْدة يعلم ما عند الناس، ولا يعلم الناس ما عنده.

---

(١) أي: بُهِتَ.

وقال أبو سعْد الماليني: أراد ابن عُقْدة أن ينتقل، فكانت كُتُبُه ستمائة حَمْلة.

قلت: وكل أحدٍ يخضع لِحفْظ ابن عُقْدة، ولكنه ضعيف.

قال أبو أحمد بن عَدِيّ: كان أبو العباس صاحب معرفة وحِفْظ، ومقدَّم في هذه الصنعة، إلا أني رأيت مشايخ بغداد يسيئون الثناء عليه، ورأيت فيه مجازفات، حتى كان يقول: حدثني فلانة قالت: هذا كتاب فلان قرأت فيه: حدثنا فلان. وهذا مجازفة.

وكان مقدَّماً في الشيعة. ولولا اشتراطي أنْ أذكر كل مَن تُكلِّمَ فيه لَمَا ذكرتُه للفضل الذي فيه.

وقال البرْقانيّ: قلت للدارقطني: إيش أكثر ما في نفسك من ابن عُقْدة؟

قال: الإكثار بالمناكير.

وقال السُّلَميّ: سألتُ الدارقطني عنه فقال: حافظ محدِّث، ولم يكن في الدين بقويّ، ولا أُزيد على هذا.

وقال حمزة بن محمد بن طاهر: سمعت الدارقطني يقول: ابن عُقْدة رجل سوء.

وقال أبو عمر بن حيويه: كان ابن عُقْدة يُملي مثالب الصحابة، أو قال: الشيخين، فتركتُ حديثه.

وقال عَبْدان الأهوازي: ابن عُقْدة خرج عن معاني أصحاب الحديث، ولا يُذكر معهم. يعني لما كان يُظْهِر من الكثرة.

وتكلم فيه مُطَيَّن.

وقال ابن عدي: سمعتُ أبا بكر بن أبي غالب يقول: ابن عُقْدة لا يتديَّن بالحديث لأنه كان يحمل شيوخاً بالكوفة على الكذب، يُسوّي لهم نُسَخاً ويأمرهم أن يرووها، ثم يرويها عنهم. قد تبيّنا ذلك منه في غير شيخ.

وسمعتُ محمد بن محمد الباغَنْدِيّ يحكي فيه شبيهاً بهذا، وقال: كتب إلينا أنه قد خرج بالكوفة شيخ عنده نُسَخ فقدِمنا عليه، وقصدنا الشيخ وطالبناه بأصول ما يرويه.

فقال: ليس عندي أصلٌ، إنما جاءني ابن عُقْدة بهذه النسخ، وقال: اروه يكُنْ لك فيه ذِكْر، ويُرْحَل إليك.

مولد ابن عقدة في سنة تسع وأربعين ومئتين، وتوفي في ذي القعدة سنة ٣٣٢هـ.

[صاحب كتاب «محن العلماء»]

محمد بن أحمد بن تميم بن تمّام(١)

أبو العرب الإفريقي.

كان جده من أمراء إفريقية.

وسمع محمد من أصحاب سَحْنون، وكان حافظاً لمذهب مالك، مفتياً. غلب عليه علم الحديث والرجال، وله تصانيف منها كتاب «مِحَن العلماء»(٢)، وكتاب «طبقات أهل إفريقية»، وكتاب «فضائل مكة»، وكتاب «فضائل سَحْنون» وكتاب «عُبّاد إفريقية»، وغير ذلك.

وتوفي في ذي القعدة سنة ٣٣٣هـ.

[لم لقب بالصنوبري]

أحمد بن محمد بن الحسن بن مرّار(٣)

أبو بكر الضبيّ الحلبي المعروف بالصنوبري. [المتوفى ٣٣٤هـ].

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٩٢.

(٢) قامت دار الغرب الإسلامي بطبعه وعنوانه «كتاب المحن» وحققه الدكتور يحيى وهيب الجبوري.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٩٩.

الشاعر المشهور.

روى عنه من شعره: أبو الحسن الأديب، وأبو الحسين بن جُمَيْع، وغيرهما.

فمن شعره السائر:

لا النَّـــــومُ أدرِي بـــــه ولا الأرَقُ	يـــدري بهـــذَين مَـــن بـــه رَمَـــقُ
إنّ دمـوعي مِـن طـول مـا استبقتْ	كلّـــتْ فـــما تســـتطيعُ تســـتبقُ
ولي مَلِيـــكٌ لم تبـــدُ صـــورتُهُ	مُـذْ كـان إلا صَـلَّتْ لـه الحَـدَقُ
نَوَيْـــتُ تَقبيـــلَ نـــارِ وجْنَتـــهِ	وخِفْـــتُ أدنـــو منهـــا فـــأحْترقُ

وحكى الصنوبري أن جدّه الحسن كان صاحب بيت حكمةٍ من بيوت حِكم المأمون، فتكلَّم بين يديه فأعجبه كلامُه ومزاحُه فقال: إنك لصنوبريُّ الشكل، يعني الذكاء، فلقّبوا جدي: الصنوبري.

[الوزير الصالح العالم]

علي بن عيسى بن داود بن الجراح(١)

أبو الحسن البغدادي الكاتب الوزير.

وَزَرَ للمقتدر وللقاهر.

وكان صدوقاً، ديِّناً، خيِّراً، صالحاً عالماً من خيار الوزراء ومِن صُلَحاء الكُبَراء.

وكان على الحقيقة غنياً شاكراً، ولما نزلَ به صابراً.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ١٠٧.

من غرر الكلام:

وما أحسن قوله إذ عزَّى ولدي القاضي عمر بن أبي عمر محمد بن يوسف بأبيهما: مصيبةٌ قد وَجَبَ أجرُها، خيرٌ مِن نعمةٍ لا يؤدّى شُكْرُها. وصدق والله.

وكان كثير البر والمعروف، والصلاة والصيام، ومجالسة العلماء.

أمنية مستجابة:

حكى أبو سهل بن زياد القطان أنه كان معه لما نُفي إلى مكة. وقال: فطافَ يوماً، وجاء فرمى بنفسه وقال: أشتهي على الله شُرْبة ماءٍ مثلوج.

فنشأت بعد ساعةٍ سحابةٌ ورعدت، وجاء بَرَدٌ كثير، وجمع الغلمان منه جِراراً، كان الوزير صائماً، فلما كان الإفطار جاءته أقداحٌ مملوءة من أصناف الأسوقة فأقبل يسقي المجاورين، ثم شرب وحمد الله، وقال: ليتني تمنّيت المغفرة.

وكان متواضعاً، قال: ما لبست ثوباً بأكثر من سبعة دنانير.

وقال أحمد بن كامل القاضي: سمعتُ علي بن عيسى الوزير يقول: كسبت سبعمائة ألف دينار، أخرجتُ منها في وجوه البِرّ ستمائة وثمانين ألفاً.

توفي في آخر السنة -يعني سنة ٣٣٤هـ- ، وله تسعون سنة. وقد ذكرناه في الحوادث.

ووقع لي من حديثه بعلو في أمالي ابنه عيسى.

وله كتاب «جامع الدعاء»، وكتاب «معاني القرآن وتفسيره»، وأعانه عليه أبو بكر بن مجاهد، وأبو الحسين الواسطي، وكتاب ترسّلاته.

وزَر أولاً أول سنة إحدى وثلاثمائة، وعُزل بعد أربع سنين. ثم وزر في سنة خمس عشرة.

قال الصولي: لا أعلم أنه وَزَر لبني العباس وزير يُشبهه في عِفّته وزُهْده، وحفْظه للقرآن وعِلْمه بمعانيه. وكان يصوم نهاره ويقوم ليله. ولا أعلم أنني خاطبتُ أحداً أعرف منه بالشِّعْر.

وكان يجلس للمظالم ويُنصف الناس. ولم يروا أعفّ بطْناً ولساناً وفَرْجاً منه. ولما عُزل ثانياً لم يقنع ابن الفرات حتى أخرجه عن بغداد، فجاور بمكة.

وأشار على المقتدر فوقف ما مُغَلُّه في العام تسعون ألف دينار على الحرمين والثَّغر، وأفرد لهذه الوقوف ديواناً سماه «ديوان البرّ».

[من العلماء الوزراء]

محمد بن محمد بن أحمد الحاكم[1]

أبو الفضل السُّلَميّ المَرْوَزِيّ الحنفي، الوزير الشهيد.

كان عالِم مَرْو، وشيخ الحنفية. ولي قضاء بُخارى، واختلف إلى الأمير الحميد، فأقرأه العلم، فلما تملّك الحميد قلّده أزمة الأمور كلها.

وكان يمتنع عن اسم الوزارة، فلم يزل به الأمير الحميد حتى تقلّدها.

وكان يحفظ الفقهيات، ويتكلم على الحديث. ويصوم الاثنين والخميس، ويقوم الليل.

ومناقبه جَمّة.

وكان لا ينهض بأعباء الوزارة، بل نهمته في العلم وفي الطلبة الفقراء.

قُتل ساجداً سنة ٣٣٤هـ.

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ١١٣.

[صاحب أطول قصيدة]

محمد بن أحمد بن الربيع بن سليمان بن أبي مريم[1]

أبو رجاء الأسوانيّ المصري الشاعر.

صاحب القصيدة التي ما أعلم في الوجود أطول منها.

ذكره ابن يونس، وأنه مات في ذي القعدة سنة ٣٣٥هـ.

وأنه سمع من عليّ بن عبدالعزيز البَغَوي. وأنه كان أديباً وفقيهاً على مذهب الشافعي. له قصيدة نظمَ فيه أخبار العالم، فذكر قصص الأنبياء نبياً نبياً عليهم السلام.

قال: وبلغني أنه سئل قبل موته بسنتين: كم بلغت قصيدتك إلى الآن؟

فقال: ثلاثين ومائة ألف بيت، وقد بقي عليَّ فيها أشياء. ونظمَ فيها الفقه، ونظم كتاب المُزني فيها، وكتاب طب، وكتب الفلسفة.

وكان فيه سكون وقار. وكان حسن الصيانة.

توفي في ذي الحجة سنة ٣٣٥هـ.

قلت: كذا أعاد وفاته بعد أن قدَّم أنها في ذي القعدة. ثم روى عنه حديثاً.

[كان شديد التقتير على نفسه]

أحمد بن محمد بن إسماعيل[2]

أبو جعفر بن النحاس المصري النحوي اللغوي.

رحل إلى الشام، وأخذ عن الزجّاج.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ١٢٧.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٥/ ١٥٥.

وكان يُنظَّر بابن الأنباريّ ونفطويه ببلده.

له كتاب «إعراب القرآن»، وكتاب «المعاني»، وكتاب «اشتقاق الأسماء الحسنى»، وكتاب «تفسير أبيات سيبويه»، و«الكافي» المؤلَّف في النحو.

وفسَّرَ عشرة دواوين وأملاها.

وروى كثيراً عن: عليّ بن سليمان الأخفش الصغير.

وكان حاذقاً، بارعاً، كبير الشأن.

سمع الحديث من: الحسن بن علي، ونحوه.

وقيل: كان شديد التقتيرعلى نفسه. ربما وهبوه العمامة، فيقطّعها ثلاث عمائم.

وروى أيضاً عن: محمد بن جعفر بن أعْيَن، وأحمد بن شُعيب النسائي، وبكر ابن سهل الدمياطي، وجعفر الفِرْيابي، وعمر بن أبي غَيْلان، ومحمد بن الحسن بن سَماعة الكوفي، وإبراهيم بن السريّ الزجاج.

وغلط ابن النجار في قوله: إنه سمع من المبرد، فإنه لم يُدْركه.

روى عنه أبو بكر محمد بن علي الأُدْفُويّ مصنفاته.

ووصفه بمعرفة النحو أبو سعيد بن يونس، وقال: توفي في ذي الحجة سنة ٣٨٨هـ.

[من الطرائف: هذا يسحر النيل]

وقيل: إنه جلس على درج مقياس نيل مصر يقطّع لبعض الطلبة بيتاً من الشعر، فسمعه جاهلٌ فقال: هذا يسحر النيل حتى لا يزيد. فدفعه برِجْلِه فألقاه في النيل، فعُدِم.

[علماء حسان الوجوه]

عليّ بن محمد بن أحمد بن حسن المصري[1]

أبو الحسن الواعظ.

بغدادي، أقام بمصر مدة ورجع.

قال الخطيب وكان ثقة عارفاً. جمع حديث الليث، وابن لَهيعة، وصنَّف في الزُّهد كتباً كثيرة. وله مجلسُ وعظ. حدثني الأزهري أن أبا الحسن المصري كان يحضر مجلسَ، وعْظه رجالٌ ونساء، فكان يجعل على وجهه بُرقعاً تخوُّفاً أن يفتتن به الناس من حُسْن وجهه.

قال الزهري: فحُدِّثتُ أن أبا بكر النقاش المقرئ حضر مجلسَه متخفيّاً، فلما سمع كلامه قام قائماً وشهر نفسه وقال: أيها الشيخ، القَصَصُ بعدك حرام.

قال الخطيب: مات في ذي القعدة سنة ٣٣٨ وله نيِّفٌ وثمانون سنة.

قلتُ: عند سِبْط السِّلَفي جزءٌ عالٍ من حديثه.

الفارابي الفيلسوف

محمد بن محمد بن طَرْخان بن أوْزَلَغ[2]

أبو نصر التركي الفارابي، الحكيم. صاحب الفلسفة.

كان بارعاً في الكلام والمنطق والموسيقى. وله تصانيف مشهورة، مَن ابتغى الهُدى منها أضلّهُ الله.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ١٦٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٥/ ١٨٢.

وبكُتُبه تخرَّج أبو عليّ بن سينا.

قدِم أبو نصر بغداد، فأتقن بها اللغة، وأدرك بها متَّى بن يونس الفيلسوف المنطقي، فأخذ عنه.

وسار إلى حران فلزِم يوحنا بن جَيْلان النصرانيَّ فأخذ عنه، وسار إلى دمشق، وإلى مصر، ثم رجع إلى دمشق. وكان مفرطاً في الذكاء.

وقيل إنه دخل بدمشق على سيف الدولة بن حمدان وهو بزِيّ التُّرْك - وكان ذلك زِيُّه دائماً. كان يَعرِف فيما زعموا، سبعين لساناً. وكان أبوه قائد جيش فيما بلغنا - فقعد في الصَّدْر وأخذ يتكلم مع علماء المجلس في كل فن، ولم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل. ثم إنه خلا به، فإذا به أبرع من يوجد في لِعب العود. فأخرج عوداً من خريطة، وركّبه ولعب به، فضحك كلُّ من في المجلس طرباً. ثم غير تركيبَه وحرّكه فنام كلُّ من في المجلس، حتى البواب، فتركهم وراح.

ويقال: إن القانون هو أول من اخترعه.

وكان منفرداً لا يُعاشِر أحداً. وكان يقعد بدمشق في المواضع النزِهة، ويُصنّف ويُشغل. وقلَما بيَّض من تصانيفه.

وسألوه: مَن أعلم أنتَ أو أرسطو؟

فقال: لو أدركته لكنتُ أكبر تلاميذه.

وقد ذكر أبوالعباس أحمد بن أبي أُصَيْبَعة في ترجمة أبي نصر: له شِعراً جداً، وأدعية مليحة على اصطلاح الفلاسفة وعباراتهم. وسرد أسماء مصنفاته، وهي كثيرة منها: مقالة في إثبات الكيمياء والرد على مُبْطِلها.

وكل مصنفاته في الرياضي والإلهي.

وكان زاهداً كزُهْد الفلاسفة، لا يحتفل بملبس ولا مسكن. أجرى عليه سيف الدولة كل يوم أربعة دراهم.

وبدمشق توفي، وصلى عليه سيف الدولة.

وعاش نحواً من ثمانين سنة. ومات في رجب سنة ٣٣٩، ودُفن بمقبرة باب الصغير.

[من أخذ عنه فقد استراح من الرحلة]

القاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن واضح(١)

أبو محمد الأندلسي القرطبي. مولى الوليد بن عبدالملك الأموي البيانيّ. وبيّانة محلّة من قرطبة.

هذا مُسْنَد العصر بالأندلس وحافظها ومحدّثها الذي مَن أخذ عنه فقد استراح من الرحلة. فإنه سمع: بَقِي بن مَخْلَد، ومحمد بن وضّاح، وأصبْغ بن خليل، ومحمد بن عبدالسلام الخُشَنيّ.

ورحل إلى المشرق سنة أربع وسبعين ومئتين، وهو ابن بضعٍ وعشرين سنة، فسمع: محمد بن إسماعيل الصائغ، وجماعة بمكة.

وأبا محمد بن قُتَيْبة، ومحمد بن الجَهْم السَّمْريّ، والكُدَيْميّ، وجعفر بن محمد ابن شاكر، والحارث بن أبي أسامة، وأبا بكر بن أبي الدنيا، وأبا إسماعيل الترمذي، وأحمد بن أبي خيْثَمَة وسمع منه تاريخه، وإسماعيل القاضي، ونحوهم ببغداد.

وإبراهيم بن أبي العنبس القاضي، وإبرهيم بن عبدالله العبسي القصّار صاحب وَكيع.

وكان رفيقه في الرحلة محمد بن عبدالملك بن أيمن.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ١٩٢.

وصنَّف كتاب «السّنَن» على وضع «سُنَن أبي داود» لكونه فاته السماع منه. وصنف «مُسْنَد مالك»، وكتاب «بر الوالدين»، وغير ذلك.

وكان بصيراً بالحديث والرجال، نبيلاً في النحو والغريب والشعر، مشاوَراً في الأحكام.

وُلد في ذي الحجة سنة سبع وأربعين ومائتين، وكان ممتَّعاً بذهنه، لا يُنكر منه شيء إلا النسيان، خاصة إلى آخر سنة سبعٍ وثلاثين وثلاث مئة، فتغير ذهنه إلى أن مات بقرطبة في رابع عشر جمادى الأولى سنة أربعين وثلاث مئة.

ومن مصنفاته: كتاب «المنتقى» وهو كصحيح مسلم في الصحة، وكتاب «المنتقى في السُّنَن»، و«آثار التابعين».

وله مصنَّف في الأنساب في غاية الحُسْن.

وقيل: ترك التحديث قبل موته بعامين.

[يدعو فيستجاب له]

أبو الحسن الكرخي[1]

شيخ الحنفية بالعراق.

اسمه عُبيد الله بن الحسين بن دَلاّل.

كان علاّمة كبير الشأن، بارعاً. انتهت إليه رئاسة الأصحاب، وانتشر تلامذته في البلاد. وكان عظيم العبادة والصلاة والصوم، صبوراً على الفقر والحاجة.

قال أبو بكر الخطيب: حدثني الصَّيْمَريّ: حدثني أبو القاسم بن علاّن الواسطيّ قال: لما أصاب أبا الحسن الكرخي الفالج في آخر عمره حضرتُه وحضر

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ١٩٧.

أصحابهُ أبو بكر الدامغانيّ، وأبو عليّ الشاشي، وأبو عبدالله البصري فقالوا: هذا مرض يحتاج إلى نفقة وعلاج، والشيخ مُقِلّ. ولا ينبغي أن نبذله للناس. فكتبوا إلى سيف الدولة بن حمدان. فأحسّ أبو الحسن بما هم فيه، فبكى وقال: اللهم لا تجعل رزقي إلا من حيث عوَّدتني.

فمات قبل أن يُحمل إليه شيء.

ثم ورد من سيف الدولة عشرة آلاف درهم فتُصدِّقَ بها.

توفي سنة ٣٤٠هـ وله ثمانون سنة.

من حوادث سنة ستٍّ وأربعين وثلاثمائة[١]

[ظهور جبال وجُزُر في البحر]

فيها نقص البحرُ ثمانين ذراعاً، وظهر فيه جبال وجزائر لم تُعهد. وكان العام قليل المطر جداً.

[الزلازل بالري]

وكان بالري ونواحيها زلازل عظيمة.

[الانخساف بالطالقان]

وخُسِف ببلد الطَّالَقان[٢] في ذي الحجة، ولم يُفلت من أهلها إلا نحو ثلاثين رجلاً.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٢٢٣.

(٢) الطَّالَقان: بعد الألف لام مفتوحة وقاف، وآخره نون. بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو الرُّوذ وبلخ، بينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل. وقال الإصطخري: أكبر مدينة بطخارستان طالقان. وهي في مستوى من الأرض وبينها وبين الجبل غلوة سهم. (معجم البلدان ٤/ ٦).

[بناء معز الدولة للدار الهائلة في بغداد][1]

فيها -يعني سنة خمسين وثلاث مئة- شرع مُعِزّ الدولة لما تعافى في بناء دارٍ هائلة عظيمة ببغداد، أخرب لأجلها دوراً وقصوراً، وقلع أبواب الحديد التي على باب مدينة المنصور. وألزم الناسَ ببيع أملاكهم ليُدخلها في البناء، ونزل في الأساسات ستة وثلاثين ذراعاً. فحاصله أنه لزِمه من الغرامات عليها إلى أن مات ثلاثة عشر ألف ألف درهم. وصادرَ الدواوين وغيرهم. وجعل كل ما صحَّ له شيء أخرجه في بنائها.

وقد درست من قبل سنة ستمائة، ولم يبقَ لها أثر. وبقي مكانها دَحْلَة[2] يأوي إليها الوحوش، وشيء من الأساس يعتبر به من يراه.

إسماعيل المنصور[3]

أبو الطاهر ابن القائم ابن المهدي العُبَيْدي. خليفة إفريقية، وأحد خلفاء الباطنية. بايعوه يوم توفي أبوه القائم سنة ٣٣٤.

وكان أبوه قد ولاّه محاربة أبي يزيد مَخْلَد بن كَيْداد الخارجي الإباضي.

[هزيمة أبي يزيد مخلد بن كيداد]

كان أبو يزيد مع كونه سيئ الاعتقاد زاهداً. قام غضباً لله لما انتهك هؤلاء من المُحرَّمات وقلبوا الدين. وكان يركب حماراً ويلبس الصوف. فقام معه خلْق كثير، فحارب القائم مرات، واستولى على جميع مدن القيروان. ولم يبقَ للقائم إلا المهدية. فنازلها أبو زيد وحاصرها، فهلك القائم في الحصار. وقام المنصور وأخفى موت أبيه، ونهض لنفسه وصابَرَ أبا يزيد حتى رحل عن المهدية، ونزل على سوسة

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٢٣٤.

(٢) الدَّحْلَة: البئر.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٢٤١.

يحاصرها. فخرج إليه المنصور مِن المهدية والتقيا، فانهزم أبو يزيد، وساقوا وراءه فأسروه في سنة ستٍّ وثلاثين وثلاث مئة، فمات بعد أسره بأربعة أيام من الجراحات، فأمر بسلْخه وحشا جلْده قُطْناً وصلبه، وبنى مدينةً في موضع الوقعة وسمّاها المنصورية واستوطنها.

وكان شجاعاً قوي الجأش، فصيحاً مفوَّهاً، يرتجل الخطبة.

خرج في رمضان سنة إحدى وأربعين وثلاث مئة إلى مدينة جلولاء للتنزُّه، فأصابه مطر وبرد وريح عظيمة، فأثَّر فيه ومرض، ومات خلْق ممن معه.

مات هو سنة ٣٤١هـ في سلْخ شوال، وله تسعٌ وثلاثون سنة.

وقد كان في سنة أربعين جهَّز جيشه في البحر إلى صقلية، فالتقوا الروم ونُصروا عليهم، وقُتِل من الروم ثلاثون ألفاً، وأُسِرَ منهم خلق. وغنم البربر ما لا يوصف.

ذَكَرَ شيوخ القيروان أنهم ما رأوا فتحاً مثله قط.

خبر طريف:

ومن عجيب أخباره أنه جمع في قصره من أولاد جُنْده ورعيّته عشرة آلاف صبيّ، وأمر لهم بكسوة فاخرة، وعمل لهم وليمة لم يُرَ مثلها، وخَتَنَهم في آنٍ واحد، بعد أن وهب للصبي مائة دينار أو خمسين ديناراً على أقدارهم. وبقي الخِتان أياماً عديدة حتى فرغوا من ختانهم.

وكان يرجع إلى إسلامٍ ودين في الجملة بخلاف أبيه وجدّه.

[من العبر والعِظات]

أحمد بن إبراهيم الأندلسي[1]

ثم المصري. المالكي الفقيه.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٢٥٥.

كان إماماً فصيحاً رئيساً، متمولاً وجيهاً.

كتب إلى بغداد يطلب قضاء مصر، فجاء العهد بعد موته بأربعة أيام سنة اثنين وأربعين وثلاث مئة، وتعجَّب الناس.

وكان قد بذل مالاً كثيراً. فسُرَّ ابنُ الخصيب قاضي مصر بموته سامحه الله.

[عالم ذو سيرة مرضية]

أحمد بن إسحاق بن أيوب بن يزيد[1]

أبو بكر النيسابوري الشافعي الفقيه المعروف بالصِّبغي.

وُلد سنة ثمانٍ وخمسين ومائتين، وتوفي في شعبان سنة ٣٤٢. وكان في صباه قد اشتغل بعلم الفروسية، فما سمع إلى سنة ثمانين. وكان إماماً في الفقه.

قال الحكم: أقام يُفتي نيفاً وخمسين سنة، لم يؤخذ عليه في فتاويه مسألة وهم فيها. وله الكتب المطوَّلة مثل: «الطهارة»، و«الصلاة»، و«الزكاة»، ثم كذلك إلى آخر كتاب «المبسوط» وله كتاب «الأسماء والصفات» وكتاب «الإيمان والقدر» وكتاب «فضل الخلفاء الأربعة» وكتاب «الرؤية» وكتاب «الأحكام» وكتاب «الإمامة».

وسمعتُ محمد بن حمدون يقول: صحبت الصِّبْغيّ سنين، فما رأيته قط ترك قيام الليل، لا في سفر ولا في حَضَر.

[مسألة فقهية]

قال الحاكم: كان يُضرب المثل بعقله ورأيه. سئل عن الرجل يدرك الركوع ولم يقرأ الفاتحة. فقال: يعيد الركعة. ثم صنَّف هذه المسألة وروى عن أبي هريرة وعن جماعة من التابعين قالوا: يعيد الركعة.

وما رأيت في جميع مشايخنا أحسن صلاة منه كان لا يدع أحداً يغتاب في مجلسه.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٢٥٦.

عالم يحضر المجالس المذمومة

علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم(١)

أبوالقاسم التَّنُوخيّ القاضي.

مات بالبصرة في ربيع الأول [سنة ٣٤٢]. ووُلد بأنطاكية سنة ثمانٍ وسبعين ومائتين.

وقدِم بغداد، وتفقّه على مذهب أبي حنيفة.

وكان عارفاً بأقوال المعتزلة وبالنجوم. وله ديوان شعر. وولي قضاء الأهواز.

وكان حافظاً للشعر، من الأذكياء.

حكى عنه ابنه أنه حفظ ستمائة بيت شعر، وهي قصيدة لدِعْبِل، في يوم وليلة؛ وأنه حفظ لأبي تمام وللبحتري مائتي قصيدة، غير ما يحفظ لغيرهما.

وله كتاب في العَروض بديع. وولي القضاء بعدة بلدان.

وكان المطيع لله قد عوّل على صرْف أبي السائب عن قضاء القضاة وتقليده إياه، فأفسد ذلك عليه بعضُ أعدائه.

ولما مات بالبصرة سنة ٣٤٢ صلى عليه الوزير المهلبي وقضى ديونَه، وهي خمسون ألف درهم.

وكان موصوفاً بالجود والإفضال.

قال ولدُه أبو عليّ: كان أبي يحفظ للطالبيين سبعمائة قصيدة، وكان يحفظ من النحو واللغة شيئاً عظيماً. وكان في الفقه والشروط والمحاضر بارعاً، مع التقدُّم في الهيئة والهندسة والمنطق وعلم الكلام.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٢٦٥.

قال: وكان مع ذلك يحفظ ويجيب في فوق من عشرين ألف حديث.

ما رأيتُ أحداً أحفظ منه، ولولا أن حِفْظه تفرَّق في علوم عدة لكان أمراً هائلاً.

وقال أبو منصور الثعالبي: هو من أعيان أهل العلم والأدب. كان المهلبي وغيره من الرؤساء يميلون إليه جداً، ويعدّونه رَيْحانة النُّدَماء وتاريخ الظُّرَفاء.

قال: وبلغني أنه كان له غلام يسمى نسيماً في نهاية الملاحة، كان يؤثره على سائر غلمانه. وفيه يقول شاعرٌ:

هــــل عـــليٌّ لامُـــهُ مدْغمــــة لاضــطّرار الشِّــعر في مــيم نســيم؟

[فوقع تحته: نعم ولِمَ لا!]

وكان شاعراً محسناً خليعاً معاشراً، يحضر المجالس المذمومة، والله يسامحه.

ومن شعره:

وراح مِــــن الشــــمسِ مخلوقـــةٍ بـــدت لـــك في قَـــدَحٍ مِـــن نهـــارِ

هــــــواءٌ ولكنّـــــه جامــــــدٌ ومـــاءٌ ولكنّـــه غـــير جـــاري

خيثمة بن سليمان بن حيدرة(١)

أبو الحسن القرشي الأطرابُلُسي، أحد الثقات المشهورين

وذكر ابن أبي كامل أنّ خَيْثَمَة وُلد سنة خمسين ومائتين.

وقال عُبَيْد بن أحمد بن فُطَيْس: توفي في ذي القعدة سنة ثلاث [وأربعين وثلاث مئة]، ثم ذكر أنه سأله عن مولده فقال: سنة سبع وعشرين ومائتين.

وقال الكتاني: قال غير عُبيد: إن خيثمة ولد سنة سبع عشرة ومئتين.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٢٧٨.

وقال الخطيب: هو ثقة ثقة، قد جمع فضائل الصحابة.

[يرحل في طلب العلم فيؤسر ويؤذى]

وقال ابن أبي كامل: سمعتُ خيْثَمَة يقول: ركبتُ البحر وقصدتُ جَبَلَة لأسمع من يوسف بن بحر، وخرجتُ منها أريد أنطاكية لأسمع من يوسف بن سعيد بن المسلم فلقينا مركب [من مراكب العدو] فقاتلناهم، ثم سَلَمَ المركبَ قوم من مقدَّمه، فأخذوه ثم ضربوني وكتبوا أسماء الأسرى فقالوا: ما اسمك؟ قلت: خَيْثَمَة بن سليمان. فقالوا: اكتب حمار ابن حمار. ولما ضُربتُ سكِرتُ ونمتُ، فرأيت كأني أنظر إلى الجنة وعلى بابها جماعة من الحور يلعبن، فقالت إحداهن، يا شقيّ، ما فاتك. فقالت أخرى: أيش فاته؟ قالت: لو كان قُتل كان في الجنة مع الحور.

فقالت لها: لأن يرزقُهُ الله الشهادة في عز من الإسلام وذُلٍّ من الشرك خير له.

ثم انتبهتُ.

[رؤيا صادقة]

قال: ورأيت في منامي مرَّةً كأن قائلاً يقول لي: اقرأ (براءة): فقرأت إلى قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة:٢]، فانتبهت، فعددتُ من ليلة الرؤيا أربعة أشهر، ففكّ الله أسري.

قلت: آخر من روى حديث خَيثَمَة بعُلُوٍّ. مُكْرَم بن أبي الصَّقْر.

قال الحسين بن أبي كامل الأطرابلسي: سمعت خيْثَمَة الأطرابلسي يقول: كنتُ بدمشق، فرويت حديث الثوري، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: «اطلبوا الخيرَ عند حِسان الوجوه»[1]. فأنكر القاضي

(١) وفي رواية: «التمسوا الخير...». قال السخاوي: ولهذا الأثر طرق عن: أنس، وجابر، وعائشة، وابن عباس، وابن عمرو، وأبي بكرة، وأبي هريرة، كلها ضعيفة، وبعضها أشدّ في ذلك من بعض.

البَلْخيّ، يعني زكريا بن أحمد، هذا الحديث. وبعث فَيْجاً[1] قاصداً إلى الكوفة، ليسأل ابن عُقْدة عنه. فكتب إليه: قد كان السري بن يحيى حدَّث بهذا الحديث في تاريخ كذا وكذا. فإن كان هذا الشيخ قد حضر في ذلك الوقت فقد سمعه.

فأنفذ إليَّ البلخيّ: أن أنفِذ إليَّ الأصل. فأنفذته إليه، فوافق ما قال ابن عُقْدة من التاريخ. فاستحلّني البلخيُّ فلم أُحِلّه. رواه السري، عن قَبيصة، عنه.

محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر[2]:

أبو بكر بن الحداد المصري، الفقيه الشافعي شيخ المصريين.

وُلد يوم وفاة المُزَنيّ [لِستٍّ بقين من شهر رمضان سنة أربع وستين ومئتين].

وسمع من: النسائي، وغيره.

وجالَس الإمام أبا إسحاق المَرْوَزِيّ لما قدِم عليهم، ودخل بغداد في سنة عشر وثلاث مئة. ودخل على ابن جرير الطبري وأخذ عنه. وسمع من: رَوْح بن الفَرَج، ومحمد بن جعفر ابن الإمام، وخلْق.

وصنَّف كتاب الفروع في المذهب، وهو صغير الحجم، دقَّق مسائله. شرحه القفّال المروزي، وأبو الطيب الطبري، وأبو عليّ السِّنْجي.

وكان أبو بكر غوّاصاً على المعاني، محققاً كبير القدر، له وجه في المذهب. ولي القضاء والتدريس بمصر. وكانت الملوك تعظّمه وتحترمه. وكان متصرفاً في علوم كثيرة.

---

(١) الفَيْج: ساعي البريد.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٠٢.

[كان الشافعي يختم في رمضان ستين ختمة]

قال أبو عبدالرحمن السُّلَمي: سمعت الدراقطني: سمعت أبا إسحاق إبراهيم ابن محمد النَّسَويّ المُعَدَّل بمصر: سمعت أبا بكر بن الحداد، وذكره بالفضل والدين والاجتهاد، يقول: أخذت نفسي بما رواه الربيع، عن الشافعي، أنه كان يختم في رمضان ستين ختمة، سوى ما يقرأ في الصلاة. فأكثر ما قدرت عليه تسعاً وخمسين ختْمة. وأتيتُ في غير رمضان بثلاثين ختمة.

توفي يوم الثلاثاء لأربع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وثلاث مئة، وعاش تسعاً وسبعين سنة وشهوراً.

[من علماء الأندلس]

أبو وهْب الزاهد(١)

أحد المشهورين بالأندلس.

جمع أبو القاسم بن بَشْكُوال جزءاً في أخباره، فمن ذلك قال أبو جعفر أحمد ابن عون الله: سمعت أبا وهْب يقول: والله لا عانَقَ الأبكارَ في جنات النعيم والناسُ في الحساب إلا مَن عانق الذُّل وضاجَع الصبرَ، وخرج منها كما دخل فيها.

وسمعته يقول: ما رُزق امرؤٌ مثل عافيةٍ، ولا تصدّق بمثل موعظة، ولا سأل مثل مغفرة.

وروى عبدالوارث بن سفيان، عن خالد بن سعد أنّ أبا وهْب قيل: إنه من ولد العبّاس. وكان لا ينتسب.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/٣١٦.

وكان صاحب عُزلةٍ، باع ماعُونَه قبل موته، فقيل له: ما هذا؟ قال: لا أريد سفراً. فمات إلى أيامٍ يسيرة.

وقال يونس بن عبدالله القاضي: أخبرني يحيى بن فرحون الخبّاز، قال: أخبرني أبو سعيد بن حفصون، الرجل الصالح، قال: دخلت على أبي وهْب فقلتُ: لي إليك حاجة أحبّ أن تُسعِفَني بها.

قال: وما هي؟

قلت: أنت تعلم أنّ داري تُراث قديم وفيها سَعَة، أريد أن تسكنها معي، وأتولّى خدمتك بنفسي وأشاركك في الحُلْو والمُرّ.

قال: لا أفعل، لأني قد طلّقت الدنيا بالأمس، أفأُراجِعُها اليوم. ولأن المطلِّق إنما يطلق المرأة بعد أن يعرف سوء أخلاقها، وقد خَبِرَها. وليس من العقل أن يرجع إلى ما قد عرف من المكروه. وفي الحديث: «لا يُلدغ المؤمن من جُحْرٍ مرتين».

قال القاضي يونس: وأخبرني ثقة من إخواني، عن رجل كان يصحبُه أنه قال: بتُّ عنده في مسجدٍ كان كثيراً ما يأوي إليه بقرب حوانيت ابن نُصَيْر بقرطبة. فلما كان في الليل تذكَّر صديقاً له من الصالحين فقال: ودِدْتُ أن نكون معه الليلة.

فقلت: وما يمنعنا من ذلك؟ ليست علينا كسْوة نخاف عليها، وإنما هي هذه الجُبَيْبات، فاخْرج بنا نحوه.

فقال لي: وأين العِلم، وهل لنا أن نمشي ليلاً ونحن نعلم أن الإمام الذي ملّكه اللهُ أمرَ المسلمين في هذه البلدة قد منع مِن المشي ليلاً، وطاعته لنا لازمة؟ ففي هذا نقْضٌ للطاعة وخروج عما يلزم جماعة المسلمين.

فعجِبْتُ من فقهه في ذلك.

قال القاضي يونس بن عبدالله: كان أبو وهْب رحمه الله جليلاً في الخير والزُّهْد. طرأ إلى قُرْطُبة وبقي بها إلى أن مات. ولم يدرِ أحدٌ مِن أين هو، ولا إلى مَن

ينتمي. وكان يقال: إنه من بني العباس، إلا أن ذلك لم يُعرف من قبله. وكان يقصده أهل الإرادة عندنا بقُرْطُبة ويألفونه ويأنس إلى مَن عَرَف منهم بطول التردد. وإذا أتاه من ينكِر من الناس تَبالَه وأوهمه أنه مدخول العقل.

ولم يكن يخبر أحداً باسمه، وإنما صاح صائحٌ إلى غيره: يا أبا وهْبٍ؛ فالتفت هو فعُرفت كنْيته.

وكان إذا قيل له: ابنُ مَن أنت؟ يقول: أنا ابن آدم؛ ولا يزيد. وأخبرني بعضُ مَن صحِبه أنه كان يُفْضي منه جليسه إلى علمٍ وحلمٍ وتفنّن في العلم والفقه والحديث واللغة.

قال القاضي: توفي في شعبان سنة أربعٍ وأربعين وثلاثمائة.

وعن أبي جعفر الكندي الزاهد قال: كان يوجد تحت حُصر المسجد الذي يأوي إليه أبو وهْب من حبّ الجِبْرَيول مراراً. وربما كان قوته منه. وربما خرج في أوقات الغُبَيْراء والسَّعْتَر، فيجلب منه ما يبيعه ويقتات بثمنه.

قال ابن بشْكُوال: وأخبرتُ عن الفقيه أبي الوليد هشام بن أحمد قال: كان أبو وهْب إذا اشتهر أمره وهمَّ أقوامٌ بمجالسته يركب قصبةً ويعدو، فإذا رأى أحداً قال: إياك المهْر يُركِضُك.

وقبره مشهور يُزار، رحمه الله ورضي عنه.

[عالم اشتهر بكثرة أكله]

أحمد بن عبدالله بن سعيد(١)

أبو عمرو الأندلسي ابن القطّان. ويُعرف بصاحب الوردة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٢٠.

روى عن: محمد بن وضَاح.

وكان فقيهاً مالكياً له أخبار ونوادر في كثرة الأكل. وكان موصوفاً بذلك. قاله عِياض رحمه الله تعالى [توفي سنة ٣٤٥هـ].

[كان مستجاب الدعوة]

أحمد بن عثمان بن الفضل بن بكر الرَّبَعي[١]

البغدادي.

أبو بكر المقرئ، المعروف بغلام السَّبّاك.

قال عبدالعزيز الكتّانيّ: سمعتُ عبدالقاهر الصائغ يقول: سمعتُ غلام السبّاك يقول: ثقُل سمعي وكان شخص يقرأ عليَّ، وكان جميلاً، فكنت أنظر إلى فمهِ ولسانه مراعاةً لقراءته، وكان الناس يقفون ينظرون إليه لجماله، فاتُّهِمْتُ فيه، فساءني ذلك، فسألت الله أن يردّ عليَّ سمعي، فردَّه عليَّ.

توفي سنة خمس وأربعين وثلاث مئة.

[لِمَ لُقِّب بـ «طَباطَبا»]

أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طَباطَبا[٢] بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب العلوي الرّسّي:

أبو القاسم المصري، نقيب الطالبيين بمصر.

له شعْر جيد في الزُّهْد وفي الغزل مدوَّن. فمنه قوله:

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٢١.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٢٢.

قالت : أراكَ سَتَرْتَ الشَّيْبَ قلتُ لها : سترته عنك يا سَمْعي ويا بَصَري
فاستضحكَتْ، ثمّ قالت مِن تعجُّبِها : تَكاثَرَ الغِشّ حتّى صار في الشَّعْرِ

ومن شعره، وقيل ذاك لذي القرنين ابن حمدان ولم يصح:

قالت لَطِيْفِ خيالٍ زارها ومضى : بالله صِفْهُ ولا تُنْقِصْ ولا تَزِدِ
فقال : أبصرتُهُ لو مات من ظَمَأٍ وقلت : قِفْ عن ورود الماء لم يردِ
قالت : صدقتَ الوفا في الحبّ عادتُهُ يا بَرْدَ ذاكَ الذي قالتْ على كبِدِيّ

وله:

خليليَّ إنّي للثُّرَيّا لَحَاسِدٌ وإنّي على رَيْبِ الزّمانِ لَواجِدُ
أَيَبْقى جميعاً شملُها وهْيَ سَبعةٌ وأفقِدُ من أحْبَبْتَهُ وهْوَ واحدُ ؟

ولُقّب إبراهيم بطباطبا لأنه كان يلثغ بالقاف طاء. فطلب يوماً ثيابه فقال الغلام: أجيء بدُرَّاعَة؟ فقال: لا، طَبا طَبا؛ يعني قَباء قَباء. فلُقِّب بذلك.

توفي سنة ٣٤٥هـ.

[عالِمٍ موسوعي]

عليّ بن إبراهيم بن سَلَمَة بن بحر(١)

أبو الحسن القزويني الحافظ القطّان.

قال فيه الخليليّ: عالِمٍ بجميع العلوم والتفسير والفقه والنحو واللغة.

قلتُ: وسمع «السُّنَن» من ابن ماجه.

وُلد سنة أربعٍ وخمسين ومائتين.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٣٠.

وانتهت إليه رئاسة العلم وعُلُوّ السَّنَد بتلك الديار.

وقال ابن فارس في بعض أماليه: سمعت أبا الحسن القطّان بعدما عَلَتْ سِنُّه يقول: كنت حين رحلت أحفظ مائة ألف حديث، وأنا اليوم لا أقوم على حفظ مائة حديث.

قال: وسمعته يقول: أُصِبْتُ ببصري، وأظنّ أني عوقبتُ بكثرة بكائي أيام الرحلة.

قلت: وكان له بنون ثلاثة: محمد، وحسن، وحسين، ماتوا شباباً. قال الخليليّ: سمعت جماعةً من شيوخ قزوين يقولون: لم يَرَ أبو الحسن مثله في الفضل والزُّهْد، أدام الصيام ثلاثين سنة، وكان ينظر إلى الخبز والملح.

قال: وفضائله أكثر من أن تُعَدّ.

قلتُ: قد عَلا في «سنن ابن ماجه» أماكن.

توفي سنة ٣٤٥هـ.

[غلام ثعلب أملى من حفظه ثلاثة آلاف ورقة]

محمد بن عبدالواحد بن أبي هاشم البغدادي(١)

أبو عمر الزاهد، غلام ثعلب اللُّغَوِيّ المشهور.

وُلد سنة إحدى وستين ومئتين.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٣٤.

قال الخطيب: سمعت غير واحد يحكي أن الأشراف والكُتّاب وأهل الأدب كانوا يحضرون عند أبي عمر الزاهد ليسمعوا منه كتب ثعلب وغيرها. وكان له جزء جمع فيه فضائل معاوية، فلا يُقرئهم شيئاً حتى يبتدئ بقراءة ذلك الجزء. وكان جميع شيوخنا يوثّقونه في الحديث.

وقال أبو عليّ التنوخي: مِن الرواة الذين لم يُرَ قطّ أحفظ منهم أبو عمر غلام ثعلب، أملى من حفظه ثلاثين ألف ورقة فيما بلغني، حتى اتَّهموه لسَعَة حِفْظه: فكان يُسأل عن الشيء الذي يظنّ السائلُ أنه قد وضَعَه فيُجيب عنه، ثم يسأله غيره عنه بعد سنةٍ فيجيب بذلك الجواب.

وقال رئيس الرؤساء علي بن الحسن: قد رأيت أشياء مما أنكروا عليه مدوّنةً في كتب أهل العلم.

وقال عبدالواحد بن عليّ بن برهان: لم يتكلّم في اللغة أحدٌ أحسن من كلام أبي عمر الزاهد.

قال: وله كتاب «غريب الحديث»، صنّفه على «مُسْنَد أحمد».

ونقل القفْطيّ أنّ صناعة أبي عمر الزاهد كانت التطريز، وكان اشتغاله بالعلوم قد منعه من التكسُّب، فلم يزل مضيَّقاً عليه. وكان إبراهيم بن ماسيّ يَصِلُه. وكان آيةً في حفظ الأدب.

وكان في شبيبته يؤدِّب ولد القاضي عمر بن يوسف.

وله من التصانيف: «غريب الحديث»، «كتاب الياقوتة»، «فائت الفصيح»، «العشرات»، و«الشورى»، «تفسير أسماء الشعراء»، «كتاب القبائل»، «النوادر»، «كتاب يوم وليلة»، وغير ذلك.

توفي رحمه الله في ثالث عشر ذي القعدة سنة خمسٍ وأربعين وثلاث مئة.

[علماء أغنياء]

محمد بن علي بن أحمد بن رستم[1]

أبو بكر البغدادي المادَرائيّ. الكاتب الوزير.

وزر لخمارَوَيْه صاحب مصر وولي أبوه خراج مصر.

مولده سنة ٢٥٧.

سمع الكثير، واحترق أكثر كتبه وبقي عنده جزءان سمعهما من أحمد بن عبدالجبار العُطارِديّ.

وتوفي بمصر في شوّال سنة ٣٤٥.

كان رئيساً نبيلاً معظَّماً، كثير المعروف إلى أولاد النعم وأهل الحرمين. ولم يكن بقي أحد من الأكابر الجِلّة يرتفع عن الوقوف ببابه.

وقد حجّ إحدى وعشرين حجة، وكان كثير الصيام، ملازم للصلاة في المساجد القديمة.

وكان الوزير أبو الفتح الفضل بن جعفر صادَرَ محمد بن عليّ المادَرائي مرةً على ألف ألف دينار، وأقام معتقلاً خمس سنين بالرملة حتى توفي أبو الفتح، فراسله الإخشيد بالمسير إليه وبإطلاقه، فقدِم فأظهر إكرامه ولم يزل عارفاً بحقوقه إلى أن توفي وصلّى عليه بالمُصلّى أبو القاسم ابن الإخشيد ونائب المملكة كافور، ودُفن بداره.

قال ذلك المسبِّحيّ.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٣٦.

وقال: يقال إن ديوان أبي بكر محمد بن عليّ أطبق على ستين ألفاً ممن يجري عليهم الرزق. وكان له بمصر ممن يجري عليهم الرزق في كل شهر مائة ألف رطل على ما حكاه الحسن بن إسماعيل الضّراب عن بعض الطحّانين.

قال: وأطبق ديوانه على مائة ألف عبد أعتقهم في طول عمره. وكان له من المعروف وعمارة المساجد ما لا يوقف عليه كثرة.

ولد بنصيبين سنة ٢٥٧، ونشأ بالعراق، وقدِم مصر شاباً على والده هو وأخوه أبو الطيب أحمد.

ولم يكن لأبي بكر بلاغة الكُتّاب المنشئين، ولا مبالغة في النحو، لكنه كان ذكياً صاحب بديهة.

ولي الخراج استقلالاً، وله ثلاثٌ وعشرون سنة.

وقد وَزَرَ أيضاً لأبي الجيش خماروَيْه، فلما قُتل أبو الجيش وأُجلس في مكانه ابنه هارون بن أبي الجيش استوزر أبا بكر. فلما قُتل هارون قدِم محمد بن سليمان الكاتب مصر مِن قِبَل المكتفي، فأزال دولة الطولونية وخرّبَ ديارهم، وحمل أبا بكر إلى بغداد. ثم إنه وافَى مصر مع مؤنس والعساكر في نوبة حُباسة، وأمر أبو بكر ونهى ودبَّر البلد.

وكان أبو بكر على ما قيل يختم كل يوم وليلة ختْمةً في المصحف، وقد ملك بمصر مِن القُرى الكبار ما لم يملكه أحد قبله حتى بلغ ارتفاع أملاكه في كل سنة أربعمائة ألف دينار، سوى الخراج.

وكان يقال إنه أنفق في كل حجة حَجَّها مائة ألف دينار.

ذكر هذا كلّه المسبّحيّ، وذكر عدة قصائد مليحة، مما رثاه بها الشعراء رحمه الله تعالى.

[الأثري السني الظاهري]

عبد المؤمن بن خَلَف بن طُفَيْل بن زيد بن طُفَيْل[1]

الحافظ أبو يَعْلَى التميمي النَّسَفيّ.

وُلد سنة تسعٍ وخمسين مائتين

وكان أثرياً سُنّياً ظاهريّ المذهب، شديداً على أهل القياس، يتبع كثيراً أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهُوَيْه.

وأخذ عن أبي بكر محمد بن داود الظاهري مصنفاته، وكان خيّراً ناسكاً.

دخل أبو القاسم عبدالله بن أحمد الكعبيّ المعتزلي نسَف، فأكرموه إلا الحافظ عبد المؤمن فإنه لم يمضِ إليه، فقال الكعبيّ: نحن نأتيه.

فلما دخل عليه لم يقُم ولم يلتفت من محرابه، فكسّر الكعبي خَجَله بأن قال: بالله عليك أيها الشيخ. يعني لا تقم، ودعا له قائماً وانصرف.

قال أبو جعفر محمد بن عليّ النَّسَفيّ: شهدت جنازة الشيخ أبا يَعْلَى بالمُصَلّى إذ غشِينا أصواتُ الطُّبول مثل ما يكون من العساكر، حتى ظنّ أجمعُنا أن جيشاً قدِم. وكنا نقول: ليتنا صلَّينا قبل أن يغشانا هذا.

لما اجتمع الناس وقاموا للصلاة وأنصتوا هدأت الأصوات كأن لم تكن. ثم إني كنتُ رأيت في النوم في أيام أبي يَعْلَى كأنّ شخصاً واقفاً على رأس درب أبي يَعْلَى ابن خَلَف وهو يقول: أيها الناس من أراد منكم الطريق المستقيم فعليه بأبي يَعْلَى. أو كلاماً نحو هذا.

رواها جعفر بن محمد بن المستغفري الحافظ، عن أبي جعفر هذا.

توفي أبو يَعْلَى رحمه الله في جمادى الآخرة سنة ٣٤٦.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٥٤.

[رأيت أبي في المنام]

قال الحاكم: وسمعتُ أبا العباس محمد بن يعقوب بن يوسف[1] يقول: رأيتُ أبي في المنام فقال لي: عليك بكتاب البُوَيْطيّ، فليس في كتب الشافعي كتابٌ أقل خطأً منه. رحمه الله تعالى.

[المنهج الصواب]

قال الحاكم: سمعت أبا الحسن البوشنجي [الزاهد، شيخ الصوفية] يقول وسئل: ما التوحيد؟ قال: أن لا تكون تشبه الذات، ولا تنفي الصفات[2].

[عذر غير مقبول]

قال الحاكم: سمعت أبا الحسن البوشنجي [الزاهد، شيخ الصوفية] غير مرة يُعاتَب في ترْك الجمعة فيقول: إن كانت الفضيلة في الجماعة فإن السلامة في العُزْلة.

[فقه الذهبي]

قلتُ: هذا عذرٌ غير مقبول منه، ولا رُخْصَة في ترك الجمعة لأجل سلامة العُزْلة. وهذا بالإجماع.

[اعتنى بالكتب ولم يتفرغ أن يحدث]

القاسم بن سعدان بن إبراهيم بن عبدالوارث بن محمد بن يزيد[3]

مولى عبدالرحمن بن معاوية الداخل، أبو محمد الأندلسي.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٦٩.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٨٣.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٨٤.

من أهل رَيَّة، نزل قرطبة.

وكان متقناً ضابطاً، محدِّثاً بصيراً بالنحو والشعر واللغة.

قال ابن الفَرَضيّ: لا أعلم بالأندلس أحداً عُنِي بالكتب عنايَته، ولم يتفرَّغ أن يُحدِّث.

[يقتطع لقمة من كل رغيف]

أحمد بن سلْمان بن الحسن بن إسرائيل بن يونس الفقيه(١)

أبو بكر البغدادي النّجاد الحنبلي.

قال الخطيب: وكان صدوقاً عارفاً، صنَّف كتاباً كبيراً في السُّنَن، وكان له في جامع المنصور يوم الجمعة حلقتان، حلقة قبل الصلاة للفتوى، في الفقه على مذهب أحمد بن حنبل، وأخرى بعد الصلاة للإملاء(٢).

وكان ابن رِزْقُوَيْه يقول: أبو بكر النّجاد ابن صاعدنا(٣).

وقال أبو إسحاق الطبريّ: كان النّجاد يصوم الدهر، ويُفطر كل ليلةٍ على رغيف ويترك منه لقمةً، فإذا كان ليلة الجمعة تصدّق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم.

وُلد النّجاد سنة ثلاثٍ وخمسين ومائتين. ومات في ذي الحجة سنة ثمانٍ وأربعين وثلاث مئة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٩٢.

(٢) أي إملاء الحديث.

(٣) تاريخ بغداد ٤/ ١٩٠، وقال الخطيب: «عنى بذلك أن النجّاد في كثرة حديثه، واتساع طرقه، وعظم رواياته، وأصناف فوائده لمن سمع منه، يحيى بن صاعد لأصحابه، إذ كل واحد من الرجلين كان واحد وقته في كثرة الحديث».

قال الدارقطني: قد حدَّث النجاد مِن كتاب غيره بما لم يكن في أُصوله.

قال الخطيب: كان النّجاد قد أضرّ، فلعل بعضٌ قرأ عليه ما ذكره الدارقطني.

قلت: والنجاد من كبار أئمة الحنابلة، وقد صنَّف كتاباً في الخلاف.

وحديثه كثير.

[انحراف في المنهج: تدع علم الخرق وتأخذ علم الورق]

جعفر بن محمد بن نُصَير بن قاسم(١)

أبو محمد البغدادي الخُلْديّ الخوّاصُ شيخُ الصوفية وكبيرهم ومحدّثهم.

وكان المرجع إليه في علم القوم وتصانيفهم وحكاياتهم.

قال: عندي مائة ونيّف وثلاثون ديواناً مِن دواوين الصوفية.

ووثَّقه الخطيب.

وقال إبراهيم بن أحمد الطبري: سمعت الخُلْديّ يقول: مضيت إلى عباس الدُّوري وأنا حَدَث، فكتبتُ عنه مجلساً، وخرَجت فلقِيَني بعض الصوفية فقال: أيش هذا؟

فأريْتُه، فقال: ويْحك؛ تدع عِلْمَ الخِرَق وتأخذ عِلْم الوَرَق!! ثم خرّق الأوراق. فدخل كلامه في قلبي فلم أعد إلى عباس.

ووقفتُ بعَرَفة ستاً وخمسين وقفة.

وقيل: عجائب بغداد في الصوفية ثلاثة: نُكَت المرتعِش، وإشارات الشِّبْليّ، وحكايات الخُلْديّ.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٣٩٦.

وقال أبو الفتح القوّاس: سمعتُ الخُلْديّ يقول: لا يجدُ العبد لذة المعاملة مع لذة النفس، لأن أهل الحق قطعوا العلائق التي تقطعهم عن الحق قبل أن تقطعهم العلائق.

وسُئل الخُلْدي عن الزهد فقال: من أراد أن يزهد فليزهد أولاً في الرياسة، ثم ليزهد في قدر نصيب نفسه ومراداتها.

توفي الخلدي في رمضان سنة ٣٤٨ عن خمس وتسعين سنة.

[أبو الوليد الفقيه الأموي]

حسان بن محمد[1] بن أحمد بن هارون بن حسان بن عبدالله بن عبدالرحمن بن عَنْبَسَة بن عبدالرحمن بن عَنْبَسَة بن سعيد بن العاص بن أُمَيَّة بن عبد شمس بن عبد مَناف.

القُرَشي، الأمويّ.

الأستاذ أبو الوليد الفقيه الشافعي.

قال فيه الحاكم: إمام أهل الحديث بخراسان. وأزْهَد من رأيت من العلماء وأعْبَدهم.

[إذا كرر المصلي الفاتحة مرتين بطلت صلاته]

وهو صاحب وجه في المذهب، فمن غرائبه أن المصلي إذا كرَّر الفاتحة مرتين بَطُلَت صلاته. وهو خلاف نص الشافعي، وحكاه أبو حامد الإسفراييني في تعليقته عن القديم.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/٤١٧.

ومن غرائب أبي الوليد أن الحجامة تُفطر الحاجمَ والمحجوم، وادعى أنه المذهب لصحة الحديث. وذلك غلط لأن الشافعي قال: الحديث منسوخ.

وصنَّف الأستاذ أبو الوليد «المُخَرَّج على مذهب الشافعي» و«المخرج على صحيح مسلم».

وقال أبوسعيد الأديب: سألت أبا عليّ الثقفي قلت: من نَسْأل بعدك؟ قال: أبا الوليد.

[من الطرائف والحيل الشرعية]

وقال الحاكم: سمعت أبا الوليد: سمعت الحسن بن سفيان سمعت حَرْمَلَة يقول: سئل الشافعي عن رجلٍ وضع في فيهِ تمرة وقال لامرأته: إن أكلتُها فأنتِ طالق، وإن طرحتُها فأنتِ طالق.

فقال الشافعي: يأكل نصفها ويطرح نصفها.

قال أبو الوليد: سمع مني أبو العباس بن سُرَيْج هذه الحكاية، وبنى عليها باقي تفريعات الطلاق.

توفي أبو الوليد رحمه الله في ربيع الأول عن اثنتين وسبعين سنة.

الحافظ أبو علي النيسابوري

الحسين بن عليّ بن يزيد بن داود[1]

قال الحاكم: هو واحد عصره في الحفظ والإتقان والورع والمذاكرة والتصنيف.

وُلد سنة ٢٧٧، وتوفي سنة ٣٤٩ في جمادى الأولى.

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٤١٩

وأول سماعه سنة ٢٩٤.

وكان يشتغل بالصياغة، فنصحه بعض العلماء وأشار عليه بالعلم، قال: خرجت إلى هَراة سنة خمسٍ وتسعين ومئتين، وحضرتُ أبا خليفة وهو يهدّد وكيلاً له يقول: تعود يا لُكَع.

فقال: لا أصلَحَك الله. فقال: بل أنت لا أصلحك الله. قُمْ عني.

قال الحاكم: وكنتُ أرى أبا عليّ معجباً بأبي يَعْلَى الموصلي، وإتقانه.

قال: لا يخفى عليه من حديثه إلا اليسير، ولولا اشتغاله بسماع كُتُب أبي يوسف بن بِشْر بن الوليد لأدرك بالبصرة أبا الوليد وسليمان بن حرب.

قال الحاكم: كان أبو عليّ باقعةً[1] في الحفظ، لا تُطاق مذاكرته ولا يفي بمذكراته أحدٌ من حُفّاظنا.

خرج إلى بغداد سنة عشر وثلاث مئة ثانياً، وقد صنَّف وجمع، فأقام ببغداد وما بها أحد أحفظ منه.

وقال أبو بكر بن أبي دارم الحافظ: ما رأيت ابن عُقْدة يتواضع لأحدٍ من الحفّاظ كتواضعه لأبي عليّ النيسابوري.

وقال الحاكم: سمعت أبا عليّ يقول: اجتمعتُ ببغداد مع أبي أحمد العسّال، وإبراهيم بن حمزة، وأبي طالب بن نصر، وأبي بكر الجِعابي فقالوا: أمِل علينا من حديث نيسابور مجلساً، فامتنعتُ، فما زالوا بي حتى أمليت عليهم ثلاثين حديثاً، ما أجاب واحدٌ منهم في حديثٍ منها إلا ابن حمزة في حديثٍ واحد.

قال الحاكم: وكان أبو علي يقول: ما رأينا في أصحابنا مثل الجِعابي، حيّرني حِفْظُه.

---

(١) الباقعة: الداهية.

قال الحاكم: فحكيتُ ذلك لأبي بكر الجِعابي، فقال: يقول أبو عليّ هذا وهو أستاذي على الحقيقة.

قال أبو عبدالرحمن السُّلَميّ: سألت الدارقطني عن أبي عليّ النيسابوري فقال: إمام مهذّب.

أنبأنا المسلّم بن علاّن، عن القاسم بن عساكر، أن أبي قال: حدثنا أخي أبو الحسين: سمعتُ أبا طاهر السِّلفيّ: سمعتُ غانم بن أحمد: سمعتُ أحمد بن الفضل الباطِرْقانيّ، سمعت ابن مَنْدَة يقول: سمعت أبا عليّ النيسابوري، وما رأيت أحفظ منه، قال: ما تحت أديم السماء أصحّ من كتاب مسلم.

وقال عبدالرحمن بن مَنْدَة: سمعت أبي أبا عبدالله يقول: ما رأيت في اختلاف الحديث والإتقان أحفظ من أبي عليّ النيسابوري.

وقال القاضي أبو بكر الأبْهريّ: سمعتُ أبا بكر بن أبي داود يقول لأبي عليّ النيسابوري: إبراهيم، عن إبراهيم، عن إبراهيم، مَن هم؟ فقال: إبراهيم بن طهْمان، عن إبراهيم بن عامر البَجَليّ، عن إبراهيم النَّخَعيّ! فقال: أحسنتَ يا أبا عليّ.

[عالم من أهل الدعابة والمزاح]

أحمد بن محمد بن عبدالله بن زياد بن عبّاد المحدّث[1]

أبو سهل القطّان، بغدادي مشهور.

قال الخطيب: كان صدوقاً، أديباً، شاعراً، رواية للأدب عن ثعلب والمبرّد، وكان يميل إلى التشيُّع.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٤٣٥.

وقال أبو عبدالله بن بِشْر القطان: ما رأيت أحسن انتزاعاً لما أراد من آي القرآن من أبي سهل بن زياد، وكان جارنا. وكان يديم الصلاة الليل والتلاوة، فلكثرة درسه صار القرآن كأنه بين عينيه.

وقال الخطيب: كان في أبي سهل مُزاح ودُعابة. وسمعت البَرْقانيّ يقول: كرهوه لمُزاحٍ فيه، وهو صدوق.

وقال الصوري: سمعت عليّ بن نصر بن الصبّاح بمصر يقول: كنا يوماً بين يدي أبي سهل بن زياد، فأخذ شخصٌ سكِّيناً بين يديه ينظر فيها، فقال: ما لك ولها، أتريد أن تسرقها كما سرقتُها أنا؟ هذه سكين البَغَويّ سرقتُها.

وُلد ابن زياد سنة ٢٥٩، وتوفي في شبعان سنة ٣٥٠.

[من أفذاذ الحكام خُلُقاً وديناً]

عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحَكَم بن هشام ابن الداخل عبدالرحمن بن معاوية الأموي المرواني[(١)]:

الناصر لدين الله أبو المُطَرِّف صاحب الأندلس، الملقَّب أمير المؤمنين بالأندلس.

ولد سنة ٢٧٧هـ.

بقي في الإمرة خمسين سنة [ما بين ٣٠٠ و٣٥٠هـ]، وقام بعده ولده الحَكَم.

وقد ذكرنا من أخباره في الحوادث. وكان أبوه قد قتله أخوه المُطَرِّف في صدر دولة أبيهما. وخلف ابنَه عبدالرحمن هذا ابن عشرين يوماً.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٤٤٣.

وتوفي جدّه عبدالله الأمير في سنة ثلاثمائة، فولي عبدالرحمن الأمرَ بعد جدّه. وكان ذلك من غرائب الوجود، لأنه كان شاباً وبالحضرة أكابر من أعمامه وأعمام أبيه.

وتقدَّم هو، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، فاستقام له الأمر، ابتنى مدينة الزَّهراء، وقسّم الخراج أثلاثاً، ثلثاً للجند، وثلثاً يدَّخره في النوائب، وثلثاً للنفقة في الزَّهْراء. فجاءت من أحسن مدينةٍ على وجه الأرض. واتخذ لسطح العُلِّية الصغرى التي على الصَّرح قراميد ذَهَب وفضة، وأنفق عليها أموالاً هائلة، وجعل سقفها صفراء فاقعةً إلى بيضاء ناصعة، تَسلُب الأبصار بلمعانها، وجلس فيها مسروراً فرحاً.

[علماء لا تأخذهم في الله لومة لائم]

فدخل عليه القاضي أبو الحكم منذر بن سعيد البلُّوطي، رحمه الله، حزيناً، فقال: هل رأيتَ ملكاً قبلي فَعَل مثل هذا؟

فبكى القاضي وقال: والله ما ظننتُ أن الشيطان يبلغ منك هذا مع ما آتاك الله من الفضل، حتى أنزلك منازل الكافرين.

فاقشعرّ من قوله، قال: وكيف أنزلني منازل الكافرين؟

قال: أليس الله يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف:٣٣] وتلا الآية كلَّها. فوجم عبدالرحمن ونكّس رأسَه مليّاً ودموعُه تسيل على لحيته خشوعاً لله وقال: جزاك الله خيراً، فالذي قلتَه الحق. وقام يستغفر الله، وأمرَ بنقض السَّقْف الذي للقُبّة.

وكان كَلِفاً بعمارة بلاده، وإقامة معالمها، وإنباط مياهها، وتخليد الآثار الغريبة الدالة على قوة مُلْكه.

[إذا خشع جبار الأرض رحم جبار السماء]

وقد استفرغ الوُسْعَ في إتقان قصور الزهراء وزخرفتها. وقد أصابهم قحطٌ، وأراد الناس الاستسقاء، فجاء عبدالرحمن الناصر رسولٌ من القاضي منذر بن سعيد، رحمه الله، يحرّكه للخروج، فقال الرسول لبعض الخَدَم: يا ليت شعري ما الذي يصنعه الأمير؟

فقال: ما رأيته أخشع لله منه في يومنا هذا وأنه منفردٌ بنفسه، لابسٌ أخشن ثيابه، يبكي ويعترف بذنوبه، وهو يقول: هذه ناصيتي بيدك، أتراك تُعذّب الرعية من أجلي وأنت أحكم الحاكمين، لن يفوتك شيء مني.

فتهلّل وجه القاضي لما بلغه هذا، وقال: يا غلام أحمل المْطَر معك، فقد أذِن الله بسُقْيانا. إذا خشع جبّار الأرض رحم جبّار السماء. فخرج، وكان كما قال.

وكان عبدالرحمن يرجع إلى دين متين وحُسْن خُلق. وكان فيه دعابة.

وكان مَهيباً شجاعاً صارماً، ولم يتسمَّ أحدٌ بأمير المؤمنين من أجداده، إنما يُخطب لهم بالإمارة فقط. فلما كان سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وبلغه ضَعْف الخلافة بالعراق، وظهور الشيعة بالقيروان، وهم بنو عُبَيْد الباطنية، تسمى بأمير المؤمنين.

توفي في أوائل رمضان سنة ٣٥٠هـ، وكانت حشمته وأُبَّهَتُهُ أعظم بكثيرٍ من خلفاء زمانه الذين بالعراق.

وكان الوزير أبو مروان أحمد بن عبدالملك بن شُهيد الأشجعي الأندلسي مع جلالته وزيره.

ولقد نقل بعض المؤرخين -أظنه أبا مروان بن حيّان- أن ابن شُهَيْد قدَّمَ مرةً للخليفة الناصر تقدمة تتجاوز الوصف، وهي هذه:

من المال خمسمائة ألف دينار، من التِّبرْ أربعمائة رطل برَطْلهم، من سبائك الفضة مائتا بِدْرَة، ومن العود الهندي اثنا عشر رطلاً، من العود الصنفي مائة

وثمانون رطلاً، ومن العود الأشباه مائة رطل، ومن المسك مائة أُوقية واثنتا عشر أوقية، ومن العنبر الأشهب خمس مائة أوقية، ومن الكافور ثلاثمائة أوقية، ومن الثياب ثلاثون شُقَّة، ومن الفِراء عشرة من جلود الفَنك، وستة سُرادقات عراقية، وثمانية وأربعون ملحفةً بغدادية لزينةِ الخيل من الحرير المرقوم بالذَّهب، وثلاثون شُقّة لسُروج الهيئات، وعشرة قناطير سمّور، وأربعة آلاف رطل حرير مغزول، وألف رطل حرير بلا غزل، وثلاثون بساطاً، البساط عشرون ذراعاً، وخمسة عشر نخاً من معمول الخزّ، وألف ترس سلطانية، وثمانمائة من تخافيف التزيين يوم العرض، ومائة ألف سهم، وخمسة عشر فَرَساً فائقة، وعشرون بغلاً مسرَّجَة بمراكب الخلافة. ومِن الخيل العتاق مائة رأس، ومِن الغلمان أربعون وصيفاً وعشرون جارية.

ومن التقدمة كتاب ضيعتين من خيار ملكِه، ومن الخشب عشرون ألف عود تساوي خمسين ألف دينار. فولاّه الوزارة، ولقّبه ذا الوزارتين.

وابتدأ الناصر في إنشاء مدينة الزهراء في سنة خمسٍ وعشرين وثلاثمائة، فأنفق عليها من الأموال ما لا يحصى، وأصعَد الماء إلى ذروتها، ومات ولم يُتِّمها، فأتمّها ابنه المستنصر. وجامِعُها من أحسن المساجد له منارة عظيمة لا نظير لها، ومنبره من أعظم المنابر، لم يُعمل مثله في الآفاق. وعدة أبواب قصر الزَّهراء المصفّحة بالنحاس والحديد المنقوش، على ما نقل ابن حيان، خمسة عشر ألف باب، والعهدة عليه.

أبو الخير التيناتي الأقطع[1]

صاحب الكرامات رضي الله عنه .

وهو من أهل المغرب. نزل تِينات من أعمال حلب.

(١) تاريخ الإسلام ٢٥/ ٤٨٥.

وكان أسود اللون، سيداً من سادات الكَوْن.

قيل: اسمه حماد بن عبدالله.

صحِب أبا عبدالله بن الجلاّء؛ وسكن جبل لبنان مدة.

قال السُّلَميّ: كان ينسج الخُوص بإحدى يديه لا يُدرى كيف ينسجه، وله آيات وكرامات، تأوي السباع إليه وتأنَس به.

وقال القُشَيْرِيّ: كان كثير الشأن، له كرامات وفراسة جادّة.

قال القُشَيْرِيّ: قال أبوالحسين القيرواني: زرتُ أبا الخير التيناتيّ، فلما ودّعته خرج معي إلى باب المسجد فقال: يا أبا الحسين أنا أعلم أنك لا تحمل معك معلوماً، ولكن احمل معك هاتين التفاحتين.

قال: فأخذتها ووضعتها في جيبي وسرتُ، فلم يفتح لي بشيء ثلاثة أيام، فأخرجتُ واحدةً وأكلتها، ثم أردتُ أن أخرج الثانية فإذا هما في جيبي. فكنت كلما أكلت واحدة وجدتها بحالها إلى أن وصلت إلى باب الموصل، فقلت في نفسي إنهما يفسدان عليَّ حالَ توكُّلي، فأخرجتها من جيبي فنظرتُ، فإذا فقير مكفوف في عباءة يقول: أشتهي تفاحة، فناولته إياهما. فلما عبرتُ وقع لي أن الشيخ إنما بعثهما إليه، فرجعت فلم أجد الفقير.

وقال السلمي: سمعت أبا الأزهر يقول: عاش أبو الخير مئة وعشرين سنة، ومات سنة تسع وأربعين وثلاث مئة أو قريب من ذلك.

[أبو الشيخ ابن حيان]

عبدالله بن محمد بن جعفر[1] بن حيان، أبو محمد الأصبهاني الحافظ، أبو الشيخ صاحب التصانيف.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤١٨.

وُلد سنة أربعٍ وسبعين ومائتين.

وكان حافظاً عارفاً بالرجال والأبواب، كثيرَ الحديث إلى الغاية، صالحاً عابداً قانتاً لله، صنّف تاريخ بلده والتاريخ على السنين، وكتاب «السنَّة» وكتاب «العظمة» وكتاب «ثواب الأعمال» وكتاب «السُّنَن».

[رؤيا]

قال بهروزمرد أبو نُعَيْم: كان أحد الأعلام، صنَّف الأحكام والتفسير، وكان يفيد عن الشيوخ ويصنف لهم ستين سنة، وكان ثقة. أخبرنا علي بن عبدالغني المعدّل في كتابه، أنه سمع يوسف بن خليل الحافظ يقول: رأيت في النوم كأني دخلت مسجد الكوفة، فرأيت في وسطه شيخاً طُوالاً لم أر قط أحسن منه، وعليه ثياب بيض، فقيل لي: أتعرف هذا؟ قلت: لا. فقيل لي: هو أبو محمد بن حيان، فخرجت خلفه، وقلت له: أنت أبو محمد بن حيّان؟ فقال: أنا أبو محمد. قلت: أليس قد مُتّ؟ قال: بلى. قلت: فبالله، ما فعل الله بك؟ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر:٧٤]، إلى آخر الآية. فقلت: أنا يوسف بن خليل الدمشقي جئت لأسمع حديثك وأُحَصّل كُتُبَكَ. فقال: سلّمك الله، وفَّقك الله، ثم صافحته، فلم أرَ شيئاً قط ألْيَن من كفّه، فقبَّلْتُها ووضعتها على عيني.

توفي أبوالشيخ فيما ذكر أبو نُعَيْم في سَلْخ المحرَّم من سنة ٣٦٩ عن بضع وتسعين سنة.

[الصعلوكي محمد بن سليمان بن محمد]

محمد بن سليمان بن محمد[1] بن سليمان بن هارون، الإمام أبو سهل الحنفي العجلي الصعلوكي النيسابوري.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٢٣.

الفقيه الشافعي الأديب اللغوي المتكلم المفسّر النحوي الشاعر المفتي الصوفي، حَبْرُ زمانه وبقية أقرانه. هذا قول الحاكم فيه.

وقال: وُلد سنة ستٍّ وتسعين ومائتين، وأول سماعه سنة خمسٍ وثلاثمائة.

ناظر وبرع، ثم استُدعي إلى أصبهان، فلما بلغه نَعِيُّ عمه أبي الطيب، خرج متخفياً، فورد نيسابور سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة، ثم نقل أهله من أصبهان، وأفتى ودَرَّس بنيسابور نيّفاً وثلاثين سنة.

وكان يمتنع عن التحديث كثيراً إلى سنة خمسٍ وستين، فأجاب للإملاء. وقد سمعت أبا بكر بن إسحاق الضُّبَعي غير مرة يعود الأستاذ أبا سهل ويقول: بارك الله فيك لا أصابك العين. وسمعت أبا منصور الفقيه يقول: سئل أبو الوليد الفقيه عن أبي بكر القفّال وأبي بكر الصعلوكي أيهما أرجح؟ فقال: ومن يقدر أن يكون مثل أبي سهل؟!

وقال الصاحب إسماعيل بن عبّاد: ما رأينا مثل أبي سهل، ولا أرى مثل نفسه.

وقال الحاكم أبو عبدالله: أبو سهل مفتي البلدة وفقيهها، وأجْدل من رأينا من الشافعيين بخراسان، ومع ذلك أديب، شاعر، نحوي، كاتب، عَروضي، مُحِبٌّ للفقراء.

وقال أبو إسحاق الشيرازي: أبو سهل الصعلوكي الحنفي من بني حنيفة، صاحب أبي إسحاق المروزي، مات في آخر سنة تسع وستين وثلاث مئة، وكان فقيهاً، أديباً، شاعراً، متكلماً، مفسّراً، صوفياً، كاتباً. وعنه أخذ ابنه أبو الطيب، وفقهاء نيسابور.

[من غرائبه]

قلت: وهو صاحب وجه، ومن غرائبه أنه قال: إذا نوى غسْل الجَنابة والجمعة معاً لا يجزئه لواحد. وقال بوجوب النية لإزالة النجاسة.

وقد نقل الماوردي، وأبو محمد البغوي الإجماع أنها لا تُشتَرط.

وقال أبو العباس النَسَوي: كان أبو سهل الصعلوكي مقدَّماً في علم الصوفية، صحِب الشبلي، وأبا علي الثقفي، والمُرْتَعِش، وله كلام حَسَنٌ في التصوُّف.

قلت: مناقبه جَمَّةٌ، ومنها ما رواه القشيري أنه سمع أبا بكر بن فورك يقول: سئل الأستاذ أبو سهل عن جواز رؤية الله بالعقل، فقال: «الدليل عليه شوق المؤمنين إلى لقائه، والشوق إرادة مفرطة، والإرادة لا تتعلق بمُحال».

وقال السُّلَمي: سمعت أبا سهل يقول: ما عقدت على شيء قط، وما كان لي قِفْلٌ ولا مفتاح، ولا صَرَرْتُ على فضة ولا ذهب قط.

وسمعته يُسأل عن التصوف فقال: الإعراض عن الاعتراض.

وسمعته يقول: من قال لشيخه: «لِمَ» لا يفلح أبداً.

[أحمد بن علي، أبو بكر الرازي[1] المعروف بالجصاص]

العلاّمة صاحب التصانيف، وتلميذ أبي الحسن الكَرْخي، وإليه انتهت رئاسة الحنفية ببغداد، وعنه أخذ فقهاؤها. وكان مشهوراً بالزُّهْد والفقه.

عُرِض عليه قضاء القضاة فامتنع منه.

وعاش خمساً وستين سنة. قدم بغداد في صباه وسكنها. وتصانيفه تدل على حِفْظه للحديث وبصره به. وكان رأساً في الزُّهْد.

قال أبو بكر الخطيب: حدثنا أبو العلاء الواسطي قال: لما امتنع القاضي أبو بكر الأبهري المالكي من أن يَلِيَ القضاء قالوا: فمن يَصْلُح؟ قال: أبو بكر الرازي. وكان الرازي يزيد حاله على منزلة الرهبان في العبادة - فأُريد للقضاء فامتنع.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٣١.

[كان يميل للاعتزال]

كان يميل إلى الاعتزال. وفي تصانيفه ما يدل على ذلك في مسألة الرؤية وغيرها.

وتوفي في ذي الحجة سنة سبعين وثلاث مئة، وعاش خمساً وستين سنة. قدم بغداد في صباه.

[النامي]

أحمد بن محمد، أبو العباس الدارمي المَصِّيصي، الشاعر المشهور بالنامي[1]، أحد شعراء سيف الدولة الخَوَاص، وكان تِلْوَ المتنبي في الرُّتْبة عند سيف الدولة.

وكان عارفاً باللغة. أملى آداباً بحلب عن: علي بن سليمان الأخفش، وابن دَرَسْتَوَيْه، وأبي بكر الصُّولي، وجماعة.

وله في سيف الدولة:

أميرَ العُلَى إنّ العَوَالِي كواسبٌ ... عَلاءكَ في الدُّنيا وفي جنّة الخُلْدِ

يمرُّ عليك الحَوْلُ سيفُك في الطّلى ... وطِرْفُكَ ما بين الشّكيمة واللّبدِ

ويمضي عليك الدّهر فعلُك للعُلَى ... وقولُك للتَّقْوَى وكفُّك للرِّفْدِ

وله مع المتنبي وقائع ومعارضات في الأناشيد، وليس هو من رجال المتنبي، ولكنه شاخ، وبقي شيخ الأدباء بالشام.

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٣٣.

[من طرائفه]

ذكر أبو الخطاب بن عَوْن قال: دخلت عليه فوجدت رأسه كالثُّغامة بياضاً، وفيه شعرة واحدة سوداء، فقلت له: يا سيدي في رأسك شعرة سوداء، فقال: نعم هذه بقية شبابي وأنا أفرح بها، ولي فيها:

رأيتُ في الرأس شعرةً بَقِيَتْ   سوداءَ تَهوى العيونُ رؤيتَها
فقلتُ للبيضِ إذا تُروِّعها   بالله إلاّ رحمتِ غربتها
فقَلَّ لَبْثُ السوداء في وطنٍ   تكونُ فيهِ البيضاء ضَرَّتها

ثم قال لي: بيضاء واحدة تروع ألف سوداء فكيف حال سوداء بين ألف بيضاء.

وتوفي النامي عن تسعين سنة، سنة ٣٧٠.

أبو القاسم الآمدي

الحسن بن بِشْر بن يحيى[(١)] أبو القاسم الآمدي النحْوي الكاتب.

سمع من إبراهيم بن عَرَفة نَفْطَوَيْه النحوي وغيره، وله كتاب «المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء» وكتاب «نثر المنظوم» وكتاب «الموازنة بين أبي تمام والبُحتُري» وهو كتاب مشهور. وكتاب «شدة حاجة المرء إلى أن يعرف نفسه» وكتاب «فعلت وأفعلت» وهو كتاب نفيس في معناه، وكتاب «ديوان شعره» وله سوى ذلك من التصانيف الأدبية.

ذكره التنوخي فقال: وُلد بالبصرة وأخذ ببغداد عن: الأخفش، والزَّجاج، وابن دُرَيْد، وغيرهم، وانتهت رواية القديم والأخبار في آخر عمره إليه بالبصرة، ومات سنة سبعين وثلاث مئة، وقد وُلّي قضاء البصرة، وكان من أئمة الأدب.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٣٧.

أبو منصور الأزهري

محمد بن أحمد بن الأزهر[1] بن طلحة، أبو منصور الهَرَوِي الأزهري النحوي اللغوي الشافعي.

سمع بهراة من: الحسين بن إدريس، ومحمد بن عبدالرحمن السامي وطائفة، ثم رحل إلى بغداد. وسمع: أبا القاسم البَغَوي، وأبا بكر بن أبي داود، وإبراهيم بن عَرَفَة نَفْطَوَيْه، وابن السرّاج، وأبا الفضل المُنْذِري. ولم يأخذ عن ابن دُرَيْد تديُّناً لأنه قال: دخلت داره غير مرة فألفيته على كرسيه سكراناً.

أخذ عنه: أبو عبيد الهَرَوي صاحب الغريبين، وحدّث عنه أبو يعقوب القَرّاب، وأبو ذر عبد بن أحمد، وأبو عثمان سعيد القرشي، وأبو الحسين الباشاني، وغيرهم.

وكان بارعاً في المذهب، ثقةً ورِعاً فاضلاً. وقيل إنه أُسِر فوجدوا بخطّه قال: امتُحنتُ بالأسر سنةَ عارَضَت القرامطة الحاجَّ بالهَبِير، وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عَرَباً نشؤوا بالبادية يبتغون مساقطَ الغيث أيام النَّجْع، ويرجعون إلى إعداد المياه في محاضرهم زمن القَيْظ، ويتكلمون بطباعهم البدوية ولا يكاد يوجد في منطقهم لحن، أو خطأ فاحش، فبقيت في أَسْرهم دهراً طويلاً، وكنا نُشَتّي بالدَّهْناء، ونرتبع بالصّمان، واستفدتُ منهم ألفاظاً جَمَّة.

صنَّف كتاب «تهذيب اللغة» في عشر مجلدات، وكتاب «التقريب في التفسير» وكتاب «تفسير ألفاظ كتاب المُزني» وكتاب «عِلَل القراءات» وكتاب «الروح وما ورد فيها من الكتاب والسنَّة» وكتاب «تفسير الأسماء الحسنى» وكتاب «الرد على الليث» وكتاب «تفسير إصلاح المَنطق» وكتاب «تفسير السبع الطّوال» وكتاب «تفسير ديوان أبي تمام»، وله سوى ذلك من المصنفات.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٤٣.

توفي في ربيع الآخر سنة ٣٧٠ رحمه الله، وُلد سنة اثنتين وثمانين ومئتين.

[المحدث الشاعر أبو نصر البيض]

محمد بن محمد بن عمرو[١]، أبو نصر النيسابوري المحدّث الشاعر الملقَّب بالبَيْض.

نزل حلب ومدح سيف الدولة.

ويروي عن: إمام الأئمة ابن خُزَيْمَة، والبغوي، وعَبْدان الأهْوازي، وأبي عَروبة، وزكريا الساجي، وابن نيروز الأنْماطي، وابن عُقدَة.

وعنه: حمزة بن الشام، وأحمد بن عبدالرحمن بن قابوس الأطرابُلُسِيّان، وأبو الخير أحمد بن علي، ولاحق المَقْدِسي، وغيرهم.

وهو صاحب القصيدة المطبوعة التي أوّلها:

حَبَــاؤُكَ مُعْتَــادٌ وأمْــرُكَ نافِــذٌ   وعبــدُكَ مُحْتــاجٌ إلى ألــفِ دِرْهَــمِ

[كتاب لم يصل إلينا]

وقد أوردتُها في «مختصر دمشق». رأيت له مجلَّداً في أصول الفقه سماه «المدخل إلى الاجتهاد» يدل على اعتزاله وعلى حِفْظِه للحديث وسَعَة رحلته.

حوادث سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة[٢]

وفي هذا الزمان كانت البِدَع والأهواءُ فاشيةً بمثل بغداد ومصر من الرفض والاعتزال والضَّلال، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٦٨.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٧٣.

[المحاورات وفضائح علماء الكلام وسيرهم]

فذكر الحُمَيْدي في ترجمة أبي عمر أحمد بن محمد بن سعدي الأندلسي الفقيه طامة كبرى، قال: سمعت أبا عبدالله محمد بن الفرج بن عبد الولي الأنصاري، سمعت: أبا محمد عبدالله بن الوليد قال: سمعت أبا محمد عبدالله بن أبي زيد الفقيه يسأل أبا عمر أحمد بن محمد بن سعدي المالكي عند وصوله إلى القيروان من بلاد المشرق، فقال: هل حضرت مجالس أهل الكلام؟ قال: نعم، مرتين، ولم أعد إليها، قال: ولِمَ؟ فقال: أما أول مجلسٍ حضرتُهُ فرأيت مجلساً قد جمع الفِرَق من السنَّة والبَدَعَة والكفار واليهود والنصارى والدهرية والمَجوس، ولكل فرقة رئيس يتكلم ويجادل عن مذهبه، فإذا جاء رئيس قاموا كلهم له على أقدامهم، حتى يجلس فيجلسون بجلوسه فإذا تكلموا قال قائل من الكفار: قد اجتمعتم للمناظرة، فلا يحتجّ أحدٌ بكتابه ولا بنبيه، فإنا لا نصدق بذلك ولا نُقِر به، وإنما نتناظر بالعقل، فيقولون: نعم، فلما سمعت ذلك لم أعده. ثم قيل لي: هنا مجلس آخر للكلام، فذهبت إليه فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم سواء، فقطعت مجالس أهل الكلام. فجعل ابن أبي زيد يتعجب من ذلك، وقال: ذهبت العلماء وذهبت حُرْمَة الإسلام.

حوادث سنة ثمانين وثلاثمائة(١)

[عيارو بغداد]

فيها زاد أمر العيّارين ببغداد وصاروا فئتين، ووقعت بينهم حروب عظيمة، واتصل القتال بين أهل الكَرْخ وباب البصرة، وقُتل الناس ونُهبت الأموال وتواترت العَملات، وأحرق بعضُهم محالَّ بعض، وعَمَّ البلاء، ووقع حريق في نهر الدجاج ذهب فيه شيء كثير.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٨٧.

أبو محمد الهَمْداني السَّبيعيّ

الحسن بن أحمد بن صالح الحافظ، أبو محمد الهمداني السبيعي[1] الحلبي، من أولاد إسحاق السبيعي، وإليه يُنسب بحلب درب السَّبيعي.

كان حافظاً متقِناً رحّالاً، عالي الرواية، خبيراً بالرجال والعِلَل، فيه تشيُّع يسير.

وكان عسِراً في الرواية.

وقال ابن أسامة الحلبي: لو لم يكن للحلبيين من الفضيلة إلا أبو محمد الحسن ابن أحمد السبيعي لكَفاهم. كان وجيهاً عند سيف الدولة، وكان يزوره في داره، وصنَّف له كتاب «التبصرة في فضيلة العِتْرَة المُطهَّرة». وكان له في العامة سوق، وهو الذي وقف «حمام السبيعي» على العلويين. توفي السبيعي في سابع عشر ذي الحجة سنة ٣٧١.

قال الخطيب: كان ثقةً حافظاً مُكْثِراً عسِراً في الرواية، ولما كان بأخرة عَزَم على التحديث والإملاء، فتهيأ لذلك، فمات، حُدِّثْتُ عن الدارقطني، سمعت السبيعي يقول: قدِم علينا الوزير أبو الفتح بن حنزابة إلى حلب، فتلقاه الناس، فعرف أنّي محدّث، فقال لي: تعرف إسناداً فيه أربعة من الصحابة؟ فذكرت له حديث عمر في العُمالة[2]، فعرف لي ذلك، صارت لي به عنده منزلة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٩٥.

(٢) في الأصل «المعاملة» والتصويب من (تاريخ بغداد وتذكرة الحفاظ). والحديث في مسند أحمد ١/ ١٧، وصحيح البخاري ١٣/ ١٣-٣٢، والنسائي ٥/ ١٠٤، ١٠٥ ويرويه الصحابي: السائب ابن يزيد، عن حويطب بن عبدالعزى، عن عبدالله بن السعدي، عن عمر.

أبو الحسن الحُصْريّ[1]

أحد كبار الصوفية.

[من غرر كلامه]: «لا يغرنَّكم صفاءُ الأوقات فإن تحتها آفات، ولا يغرَّنَّكم العطاء، فإن العطاء، عند أهل الصفاء مَقْتٌ».

قال الخطيب: مات سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة، وقد نيّف على الثمانين.

قال السُّلَمي: هو سيد وقته وشيخ العراق.

أبو زيد المروزي[2]

محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد، أبو زيد المروزي الشافعي الزاهد.

قال: وُلدت سنة إحدى وثلاثمائة.

قال الحاكم: كان أحد أئمة المسلمين، ومن أحْفَظ الناس لمذهب الشافعي، وأحسنهم نظراً، وأزْهَدهم في الدنيا. سمعت أبا بكر البزار يقول: عادلت الفقيه أبا زيد من نيسابور إلى مكة، فما أعلم أن الملائكة كتبتْ عليه خطيئة.

وقال الخطيب: حدّث ببغداد، ثم جاور بمكة، وحدّث هناك بصحيح البخاري عن الفَرَبْرِي. وأبو زيد أجَلُّ من روى ذلك الكتاب.

وقال أبو إسحاق الشيرازي: ومنهم أبو زيد المَرْوزي صاحب أبي إسحاق، مات بمرو في رجب سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة. وكان حافظاً للمذهب، حَسَن النظر، مشهوراً بالزُّهْد. وعنه أخذ أبو بكر القَفّال، وفقهاء مرو.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٠٣.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٠٤.

[رؤيا]

وقرأت على أبي علي الأمين، أخبركم ابن اللَّتي، قال: أخبرنا عبد الأول، قال: حدثنا أبو إسماعيل الأنصاري، أخبرنا أحمد بن محمد بن إسماعيل، سمعت خالد بن عبدالله المَرُوزي، سمعت أبا سهل محمد بن أحمد المَروزي، سمعت أبا زيد المَروزي يقول: كنت نائماً بين الرُّكْن والمقام، فرأيت النبي ﷺ فقال: يا أبا زيد إلى متى تدرِّس كتاب الشافعي ولا تدرِّس كتابي؟ فقلت: يا رسول الله وما كتابك؟ فقال: «جامع محمد بن إسماعيل» يعني البخاري.

أبو عبدالله الضبي الشيرازي

محمد بن خفيف[1] بن إسْفَكْشاذ، أبو عبدالله الضَّبيّ الشيرازي الصوفي، شيخ إقليم فارس.

[تمسك العلماء بالسنّة]

قال أبو عبدالرحمن السُّلَمي: أقام بشيراز، وكانت أُمُّه بنيسابور، وهو اليوم شيخ المشايخ وتاريخ الزمان، لم يبقَ للقوم أقدم منه سِنّاً، ولا أَتَّمَّ حالاً، صحب رُوَيْمَ بن أحمد، وأبا العباس ابن عطاء، ولقي الحسين بن منصور الحلاّج، وهو من أعلم المشايخ بعلوم الظاهر، متمسكٌ بالكتاب والسنَّة، فقيهٌ على مذهب الشافعي، فمن كلامه قال: «ما سمعت شيئاً من سُنَن رسول الله ﷺ إلا واستعملته، حتى الصلاة على أطراف الأصابع، وهي صعبة».

قال السُّلَمي: قال أحمد بن يحيى الشيرازي: ما أرى التصوُّف إلا يُخْتَم به. وكان أبو عبدالله من أولاد الأمراء، فتزهّد حتى قال: كنت أذهب وأجمع الخِرَقَ من المزابل، وأغسله، وأُصْلح منه ما أَلْبَسُه، وبقيت أربعين شهراً أفْطِر كل ليلةٍ على كفٍّ

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٠٦.

باقلاء، فافْتصدتُ، فخرج من عِرْقي شبيهُ ماء اللحم، فتحيَّر الفَصَّادُ وقال: ما رأيت جسداً بلا دمٍ إلا هذا.

وقال ابن باكَوَيْه: سمعت أبا أحمد الكبير يقول: سمعت أبا عبدالله بن خفيف يقول: نُهِبْتُ في البادية وجعت حتى سقَطَتْ لي ثمانية أسنان، وانتثر شَعْرِي، ثم وقعتُ إلى فَيْدَ وأقمت بها، حتى تماثلتُ وحَجَجْتُ، ثم مضيت إلى بيت المقدس، ودخلت الشام، فنمت إلى جانب دُكان صبَّاغ، وبات معي في المسجد رجل به بَطَنٌ قيام، وكان يدخل ويخرج إلى الصباح، فلما أصبحنا، صاح الناس: نُقِب دُكّان الصباغ وسُرِق، فدخلوا المسجد ورأونا، فقال المَبْطون: لا أدري، غير أن هذا طول الليل كان يدخل ويخرج، وما كنت خرجتُ إلى مرَّةً، تطهَّرْتُ، فجرُّوني وضربوني، وقالوا: تكلم. فاعتقدت التسليمَ، فكانوا يغتاظون من سكوتي، فحملوني إلى دكان الصباغ، وكان أثرُ رِجل اللص في الرَّماد، فقالوا: ضَعْ رِجْلَك فيه، فوضعت، فكان على قَدْر رِجْلي، فزادهم غَيْظاً، وجاء الأمير، ونُصبت القِدْر وفيها الزيت يغلي، وأُحْضِرت السكين ومَن يقطع اليد، فرجِعْت إلى نفسي وإذا هي ساكنة، فقلت: إنْ أرادوا قَطْعَ يدي سألتهم يعفو يميني لأكتب بها، فبقي الأمير يهددني ويصول، فنظرت إليه فعرفته، وكان مملوكاً لوالدي، فكلمني بالعربية وكلمته بالفارسية، فنظر إليّ وقال: أبو الحسين وكنتُ أُكَنَّى بها في صِباي، فضحكتُ، فعرفني، فأخذ يلطم رأسه ووجهه، واشتغل الناس به، فإذا بضجة عظيمة، وأن اللصوص قد مُسِكُوا، فذهبتُ والناسُ ورائي، وأنا مُلَطَّخٌ بالدماء جائع لي أيام لم آكل، فرأتني عجوزٌ فقيرة، فقالت: ادخل إلينا، فدخلتُ ولم يرني الناس، وغسلت وجهي ويديَّ، فإذا الأمير قد أقبل يطلبني. فدخل ومعه جماعة، وجرّ من منطقته سكيناً، وحَلَفَ بالله وقال: إن أمسكني إنسان لأقتلنّ نفسي، وضرب بيده رأسه ووجهه مائة صَفْعة، حتى منعتُه أنا، ثم اعتذر، وجَهِد بي أن أقبل شيئاً، فأبَيْتُ، وهربتُ ليومي من المدينة، فحدثت بعضَ المشايخ فقال: هذا عقوبة انفرادك، فما دخلتُ بلداً فيه فقراء إلا قصدتُهم.

وقال أبو عبيد الله بن باكَوَيْه: سألت أبا عبدالله بن خفيف، وقد سأله قاسم الإصطخري عن الأشعري فقال: كنت مرة البصرة جالساً مع عمرو بن عَلُّوَيْه على ساجة[1] في سفينة نتذاكر في شيء، فإذا بأبي الحسن الأشعري قد عَبَرَ وسلّم علينا وجلس، فقال: عبرت عليكم أمس في الجامع، فرأيتكم تتكلمون في شيء عرفت الألفاظ ولم أعرف المَغْزَى، فأُحبّ أن تُعيدوها عليّ. قلت: وفي أي شيء كنا؟ قال: في سؤال إبراهيم عليه السلام ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠] وسؤال موسى ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف:١٤٣]. فقلت: نعم. قلت: إن سؤال إبراهيم هو سؤال موسى، إلا أن سؤال إبراهيم سؤال متمكن، وسؤال موسى سؤال صاحب غَلَبَةٍ وهَيَجان، فكان تصريحاً، وكان سؤال إبراهيم تعريضاً، وذلك أنه قال: أرني كيف تُحيي الموتى، فأراه كيفية المَحْيَى ولم يرِه كيفية الإحياء، لأن الإحياء صفته والمَحْيَى قدرته، فأجابه إشارة كما سأله إشارة، إلا أنه قال في الآخر: ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾ [البقرة:٢٦٠]. فالعزيز: المنيع. فقال أبو الحسن: هذا كلام صحيح.

ثم إني مشيت مع أبي الحسن وسمعت مناظرته، وتعجّبت من حُسن كلامه حين أجابهم.

قال أبو العباس الفَسَوي: صنَّف شيخنا ابن خفيف من الكتب ما لم يصنّفْه أحدٌ، وانتفع به جماعة صاروا أئمةً يُقْتَدَى بهم، وعُمِّر حتى عمّ نفعُه البلدانَ.

توفي ليلة ثالث رمضان سنة ٣٧١ عن خمس وتسعين سنة.

وقيل: عاش مئة سنة وأربع سنين، وازدحم الخلق على جنازته، وكان أمراً عظيماً، وصلّوا عليه نحواً من مئة مرة، رحمه الله ورضي عنه.

---

(١) الساجة: مفرد السّاج، وهو الخشب المجلوب من الهند.

فَنّاخِسْرُو السلطان عَضُدُ الدولة[1]

أبو شجاع بن السلطان رُكْن الدولة الحسن بن بُويْه الديلمي. ولي مملكة فارس بعد عمّه عماد الدولة، ثم قوِي على ابن عمه عز الدولة بَخْتِيار ابن معز الدولة، وبلغ من سَعَة المملكة والاستيلاء على الممالك، ما لم يبلغه أحد من بنيه، ودانت له البلاد والعباد. وهو أول من خوطب بالملك شاهٍ شاه في الإسلام، وأول من خُطب له على المنابر ببغداد بعد أمير المؤمنين.

وكان فاضلاً نحوياً، له مشاركة في فنون، وله صنَّف أبو علي الفارسي «الإيضاح والتكملة». وقد مدحه فُحول الشعراء، وسافر إلى بابه المتنبي إلى شيراز، قبل أن يملك العراق، وامتدحه بقصائد مشهورة.

[من الغلو القبيح قوله: «غلاب القدر»]

وقال الثعالبي في «يتيمة الدهر»: لعَضُد الدولة قصيدة فيها بيت لم يفلح بعده:

لـيس شُرْبُ الـرّاح إلاّ في المَطَـرْ ... وغِنـاءٍ مـن جَـوارٍ في السّـحَرْ

مُـبْرِزاتِ الكـاسِ مـن مَطْلِعِهـا ... سـاقياتِ الـرّاحِ مَـنْ فـاقَ البَشَـرْ

عَضُـدُ الدولـةِ وابـنُ رُكْنِهـا ... ملـكُ الأمـلاكِ غـلاّبُ القَـدَرْ

فقيل إنه لما احتَضَر، لم ينطق لسانه إلا بـ ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة:٢٨-٢٩]. وتوفي بعلّة الصَّرَع في شوال، سنة اثنتين وسبعين وثلاث مئة ببغداد، وله ثمان وأربعون سنة، ودُفِن بمشهد عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالكوفة.

وهو الذي أظهر قبر عليّ بالكوفة وادّعى أنه قبره. وكان شيعياً، فبنى على المشهد، وأقام البيمارستان العَضُدِي ببغداد، وأنفق عليه أموالاً عظيمة، وهو بيمارستان عظيم ليس في الدنيا مثل ترتيبه.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٢٢.

وملك العراق خمس سنين ونصفاً، ولما قدِمها خرج الطائع لله وتلقّاه، وهذا شيء لم يتهيأ لأحد قبله، فدخل بغداد، وقد استولى عليها الخراب وعلى سواده بانفجار بُثُوقِها، وقَطْع المفسدين طُرُقاتها، فبعث العسكر إلى بني شيبان، وكانوا يقطعون الطريق، فأوقعوا بهم وأسروا من بني شيبان ثمانمائة، وسدّ البُثُوق، وغَرَسَ المزاهر وهو دار أبي علي بن مُقْلَة، وكانت قد صارت تلاّ، فيقال: إنه غرِم على نقل التراب أكثر من ألف ألف درهم، وغرس التاجي عند قُطْرَبُلّ وحوّط على ألفٍ وسبعمائة جَريب، وعمر الطُّرُقَ والقناطر والجسور.

وكان متيقظاً شَهْماً، له عيون كثيرة تأتيه بأخبار البلاد القاصية، حتى صارت أخبار الأقاليم عنده. وكان شديد العناية بذلك، كثيرَ البحث عن المشكلات، وافرَ العقل.

كان من أفراد الملوك لولا ظلمه، وكان سفَّاكاً للدماء، حتى إن جارية شُغِل قلبه بمَيْله إليها، فأمر بتغْريقها، وأخذ غلامٌ من رجل بطّيخاً غَصْباً، فوسَّطه.

وكان يحبّ العلم والعلماء ويصِلُهم. ووجد له في «تذكرة»: إذا فرِغْنا من حلّ إقليدس تصدّقت بعشرين ألف درهم، وإذا فرغنا من كتاب أبي علي النحوي تصدّقت بخمسين ألف درهم، وإنْ وُلد لي ابنٌ تصدّقت بعشرة آلاف، فإنْ كان من فلانة تصدّقت بخمسين ألف درهم.

وكان قد طلب حساب دِجْلَة في السنة، فإذا هو ثلاثمائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم، فقال: أبلغ به إلى ثلاثمائة وستين ألف ألف، ليكون دخْلُنا كل يومٍ ألف ألف درهم.

قال ابن الجوزي: كان يرتفع له في العام اثنان وثلاثون ألف ألف دينار، وكان له كِرْمان، وفارس، وعُمان، وخوزِسْتان، والعراق، والموصل، وديار بكر، وحَرّان، ومَنْبِج. وكان يُناقش في القيراط، وأقام مكوساً ومَظالم، فنسأل الله العافية.

[التحيل في الوصول إلى المقصود]

وكان صائبَ الفراسة، قيل إن تاجراً قدِم بغدادَ للحج فأودع عند عطار عِقْد جوهر، فأنكره، فحار، ثم إنه أتى عَضُدَ الدولة، فقصّ عليه أمره، فقال: الْزَم الجلوسَ هذه الأيام عند العطار، ثم إن عَضُدَ الدولة مرّ في موكبه على العطار، فسلّم على التاجر وبالغ في إكرامه، فتعجّب الناس، فلما تعدّاه التفت العطار إلى التاجر، قال: ما تخبرني متى أودعتني هذا العِقْد، وما صفته، لعلي أتذكر، قال: صفته كذا، فقام وفتّش ثم نفض برنيّه[1] فوقع العِقْد، وقال: كنت نسيته.

قيل إنّ قوماً من الأكراد قُطّاعَ طريقٍ عجز عنهم، فاستدعى تاجراً، ودفع إليه بغلاً، عليه صندوقان فيهما حَلْوَى مسمومة، ومتاعٌ ودنانير، فأخذوا البغل والصندوقين، وأكلوا الحلوى فهلكوا.

وقد ذكر ابن الجوزي في كتاب «الأذكياء» له عدة حكايات لعَضُد الدولة، والله أعلم.

[زوج الحُرَّة أبو بكر البغدادي]

محمد بن جعفر بن أحمد[2] بن جعفر، أبو بكر البغدادي الحريري المعدّل، المعروف بزوج الحُرَّة.

وقال البَرْقاني: ثقة جليل.

وقال أبو علي بن شاذان: كان يحضر مجلسه ابن المظفَّر، والدارقطني وتوفي في صفر سنة ٣٧٢.

---

(١) برنيّه: حصيره.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٢٦.

قال أبو القاسم التنوخي: حدثنا أبي قال: حدثني جعفر بن المكتفي بالله قال: كانت بنت بدر المُعْتَضِدي زوجة المقتدر بالله، فأقامت معه سنين، ثم قُتل، وأفلتت هي من النكبة، وتسلّمت أموالها، وخرجت من الدار، فكان يدخل إلى مطبخها حَدَثٌ يُعْرَف بمحمد بن جعفر بن أبي عَشْرُون، وكان حَرِكاً، فصار وكيل المطبخ، فرأته فاستكاسته، فردّت إليه وكالتها، وترقّى أمره حتى صار ينظر في ضِياعها، وصارت تكلّمه من وراء ستر، وزاد اختصاصه بها، حتى علق بقلبها فجسَّرَتْه على تزويجها، وبذلت أموالاً حتى تمّ لها ذلك، وأعطته نعمة ظاهرة وأموالاً، لئلا يمنعها أولياؤها منه بالفقر، ثم هادَتْ القضاة بهدايا جليلة، حتى زوّجوها منه، فاعترض الأولياء، فغالبتهم بالدراهم، وأقام معها سنين، ثم ماتت، فحصل له منها نحو ثلاثمائة ألف دينار، ولذلك قيل له «زوج الحُرّة».

[أبو العباس الديبلي الزاهد الخياط]

أحمد بن محمد الإمام، أبو العباس الدَّيْبُلِيّ الشافعي الزاهد الخياط، نزيل مصر.

ذكر أبو العباس الفسوي أنه كان جيد المعرفة بالمذهب، يقتات من الخياطة، فكان يعمل القميص في جمعة بدرهم وثلث.

كان حسن العيش واللباس، طاهر اللسان، سليم القلب، صوّاماً تالياً كثير النظر في كتاب «الربيع» مع كتاب «الأم» للشافعي. وكان مكاشفاً، ربما يخبر بأشياء فتوجد كما يقول. وكان مقبولاً عند الموافق والمخالف، حتى كان أهل المِلَل يتبرّكون بدعائه. مرض فتولَّيْتُ خدمته، فشهدت أحوالاً سنيّة، وسمعته يقول: كلما تَرَى أُعْطِيتُهُ ببركة القرآن والفقه. وقال لي: قيل إنك تموت ليلة الأحد، وكذا كان. وما كان يصلي إلا في الجماعة، فكنت أصلي به فصليت به ليلة الأحد المغرب، فقال: تَنَحَّ فإني أريد الجَمْع بالعشاء لا أدري إيش يكون مني، فجمع وأوْتَرَ، ثم أخذ في السياق، وهو حاضر معنا إلى نصف الليل، فنمت ساعة وقمت، فقال: أي وقت هو؟ قلت: قُرْب الصُّبْح. قال: حوّلْني إلى القبلة، وكان معي أبو سعد الماليني، فحوّلناه

إلى القبلة، فأخذ يقرأ قدر خمسين آية، ثم قُبِض ومات سنة ثلاثٍ وسبعين وثلاث مئة، أحسبه في رمضان. وكانت جنازته شيئاً عجيباً، ما بقي أحد بمصر من أهلها ومن المغاربة أولياء السلطان إلا صلّوا عليه.

وذكره القُضاعي، وأنّ قبره ومسجده مشهوران. قال: وكانت له كرامات مشهورة.

[أبو إسحاق الأصبهاني القصّار]

إبراهيم بن عبدالله بن إسحاق[1] بن جعفر، أبو إسحاق الأصبهاني، المعدّل، المعروف بالقصّار.

ولُقِّبَ بالقصّار لأنه كان يغسل الموتى تزهُّداً ومتابعةً للسنّة.

وعاش مائة وثلاث سنين، وإنما سمع وقد كُبر. كُفَّ بصرُه قبل موته بستّ سنين. توفي سنة ٣٧٣.

[أبو الفتوح بُلُكّين[2] ولد له يوم واحد سبعة عشر ولداً ذكراً]

بُلُكّين بن زيري بن مُناد الحميري الصنهاجي الأمير، أبو الفتوح جد الأمير باديس، من وجوه المغاربة.

استخلفه المُعِزّ بن المنصور العُبيدي على إفريقية عند توجُّهه إلى الديار المصرية في سنة إحدى وستين وثلاثمائة، وسلّم إليه إقليم المغرب، فكان حَسَن السيرة، تامّ النظر في مصالح دولته ورعيّته.

ومات في ذي الحجة سنة ٣٧٣.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٣٦.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٣٧.

وكانت له أربعمائة سَرِيّة، وذُكِر أن البشائر وَفَدَتْ عليه في فَرْد يوم بولادة سبعة عشر ولداً ذَكَراً.

[التبذير والإسراف في عرس أبي منصور مؤيد الدولة]

بُوَيْه مؤيّد الدولة[1]، أبو منصور بن رُكْن الدولة.

كان وزيره هو الصاحب إسماعيل بن عَبّاد، فضبط مملكته وأحسن التدبير. وكان قد تزوّج بنت عمّه زبيدة بنت معز الدولة، فأنفق في عُرْسه بها سبعمائة ألف دينار.

توفي بجُرْجان في ثالث عشر شعبان سنة ٣٧٣، من خوانيق أصابته، وله ثلاث وأربعون سنة. وكانت دولته سبع سنين.

أبو محمد ابن السقا الواسطي

عبدالله بن محمد بن عثمان[2] بن المختار المُزني الحافظ، أبو محمد بن السقا الواسطي، محدّث واسط.

قال أبو العلاء الواسطي: سمعت ابن المظفَّر والدارقطني يقولان: لم نَرَ مع ابن السقا كتاباً، وإنما حدّثنا حِفْظاً.

وقال علي بن محمد بن الطيب الجُلابي في «تاريخ واسط»: هو من أئمة الواسطيين الحُفَّاظ المتقِنين. قال: وتوفي في ثاني جُمادى الآخرة سنة ثلاثٍ وسبعين وثلاثمائة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٣٧.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٤١.

وقد قال السِّلَفي: سألت خميساً الحَوْزِي عن ابن السّقّاء فقال: هو من مُزَيْنَة مُضَر، ولم يكن بسقّاء بل هو لَقَبٌ له، من وجوه الواسطيين، وذوي الثروة والحفظ، رَحَلَ به أبوه فسمَّعه من أبي خليفة، وأبي يَعْلَى، وابن زيدان، والمفضل بن محمد الجَنَدي وجماعة. وبارك الله في سِنِّه وعلمه.

[حديث الطائر]

واتفق أنه أملى «حديث الطائر»[1] فلم تحتمله أنفُسهم، فوثبوا به وأقاموه، وغسّلوا موضعه، فمضى ولزم بيته، فكان لا يحدّث أحداً من الواسطيين، فلهذا أقلّ حديثه عندهم. وتوفي سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة حدثني بكل ذلك شيخنا أبو الحسن المَغازِلي.

أبو الحسن السلامي

عبدالله بن موسى بن كُرَيد أبو الحسن السّلامي:

حدّث: عن: يحيى بن صاعد، وغيره بخراسان وسمرقند.

وفي حديثه مناكير وعجائب. وكتب عمن دبّ ودَرَجَ. وكان أديباً شاعراً:

وَرَّخَ موتَه الإدريسي وغُنْجَار.

فقال الخطيب: هو عبدالله بن موسى بن الحسن، وقيل الحسين بن إبراهيم بن كريد السّلامي.

قال الخطيب: حدّث في رواياته غرائب ومناكير وعجائب.

وقال الحاكم: كان من الرحالة في طلب الحديث. توفي في سنة ستٍّ وستين وثلاثمائة.

---

(١) انظر حديث الطائر في: سنن الترمذي في المناقب (٣٧٢١) والمستدرك للحاكم ٣/ ١٣٠ و١٣٢.

قلت: الصواب بقاؤه إلى الساعة.

قال الإدريسي: كان أبو الحسن السّلامي أديباً شاعراً، جيد الشِّعْر، أمير الحفظ للحكايات والنوادر. صنَّف كتباً كثيرة في التواريخ والنوادر، وقدِم علينا سمرقند وأقام ببخارى، إلى أن مات سنة ٣٧٤. صحيح السماع.

ابن نُباتة

عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل(١) بن نُباتة، الخطيب المشهور، أبو يحيى، صاحب ديوان الخُطَب.

كان من أهل مَيَّافارِقين، ووُلِّي خطابَ حلب لسيف الدولة، وبها اجتمع بالمتنبي.

[رؤيا ابن نباتة]

وكان خطيباً بليغاً مُفَوَّهاً بديع المعاني رائق الخُطَب، رُزِق السعادةَ في خُطَبِهِ، وكان رجلاً صالحاً، رأى النبي ﷺ ، فاستيقظ وعلى وجهه نور لم يكن قبل ذلك، وعاش بعد ذلك ثمانية عشر يوماً، وذكر أن رسول الله ﷺ تَفَلَ في فيه، فبقي تلك الأيام لا يستطعم فيها طعاماً، ولا يشرب شراباً من أجل تلك التَّفْلَة.

وذكر ابن الأزرق مولده في سنة خمسٍ وثلاثين وثلاث مئة، وأنه توفي سنة أربعٍ وسبعين وثلاث مئة.

قلت: فعُمْرُهُ تسعٌ وثلاثون سنة، وتوفي بمَيَّافارِقين، وفي ولايته خطابة حلب أيام سيف الدولة نظَرٌ، وقد غلطوا في مولده، نعم غلطوا في مولده، فإنه ابتدأ سالف خُطَبِهِ في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وهو خطيب.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٥٩.

قسام الحارثي العيار

قسَّام الحارثي[1]، من أهل قرية تلفيتا من جبل سَنِّير.

كان ينقل التراب على الحمير، ثم اتصل بأحمد بن الجصطار من أحداث دمشق فكان من حزبه، وتنقّلت به الأحوال، وكثُر أعوانه حتى غَلَبَ على دمشق، فلم يكن لنُوابها معه أمر، إلى أن نَدَبوا له من مصر جيشاً، عليهم بلتكين الذي ذكرنا ترجمته من قريب، فحارب قسَّاماً أو قوي عليه، فضَعُف أمر قسّام، فاختفى أياماً، ثم استأمن، فقيَّدوه وحملوه إلى مصر، فعُفي عنه.

حملوه إلى مصر في سنة ٣٧٦ ولم أرَ له ذِكْراً بعدها.

وقال القفطي: تغلّب على دمشق رجل من العيَّارين فعُرف بقسّام وتحصّن بها، وخالف على صاحب مصر، فسار لحربه الأمير فضل من مصر، فحاصر دمشق، وضاق بأهلها الحال، فخرج قسَامٌ متنكِّراً، فأخذته الحَرَس، فقال: أنا رسول، فأحضروه إلى فضل فقال: بعثني قسام إليك لتحلف له وتُعَوِّضه عن دمشق بلداً يعيش فيه، وقد بعثني إليك سرّاً، فحلف الفَضْل له، فلما توثَّق منه قام وقبّل يده وقال: أنا قسام، فأُعجب به الفضل، وزاد في إكرامه.

فردّ إلى البلد، وسلّمه إليه، وقام له بكل ما ضمنه، وعوّضه موضعاً عاش فيه، وأحسن العزيز صَلَتَه. ذكر القفْطي أن ذلك كان في سنة تسعٍ وستين وثلاث مئة. ثم قال: وذكر بعضهم أن أخْذَ دمشق من قسام كان في سنة اثنتين وسبعين وثلاث مئة.

قلت: وهو الذي يتحدّث الناس أنه ملك دمشق، وأنه قسيم الزّبال. وكان سلمان بن جعفر بن فلاح قد قدِم دمشقَ في جيش، فنزل بظاهرها، ولم يمكنه دخولها، فبعث إليه قسَّام بخطّه: أنا مقيم على الطاعة، فورد البريد إلى سلمان أن

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٩٦.

يرتحل عن دمشق. وولي دمشق أبو محمود المغربي، ولم يكن له أيضاً مع قسام أمر ولا حَلّ ولا عَقْد، فهذا ما عندي من خبر قسّام.

أبو عمرو ابن الزاهد الحيري النيسابوري

محمد بن أحمد بن حمدان[1] بن علي بن عبدالله بن سِنان، أبو عمرو ابن الزاهد أبي جعفر الحيري النيسابوري. الزاهد المقرئ المحدّث النحوي.

كان المسجد فراشه نيفاً وثلاثين سنة، ثم لما عُميَ وضَعُف نقلوه إلى بعض أقاربه بالحيرة من نيسابور. رحل به أبوه.

قال الحاكم: سماعاته صحيحة، وصحِب الزُّهاد، وأدرك أبا عثمان الحيري الزاهد، وسمع سنة خمسٍ وتسعين ومائتين.

[وُلِد له بنت وهو ابن تسعين سنة، وتوفي وزوجته حُبْلَى]

وقال الحاكم: وُلد له بنت وهو ابن تسعين سنة، وتوفي وزوجته حبْلى، فبلغني أنها قالت له عند وفاته: قد قُربَت ولادتي. فقال: سلّمته إلى الله تعالى، فقد جاؤوا ببراءتي من السماء، فتشهّد ومات في الوقت، رحمه الله. قال: وتوفي في ذي القعدة في الثامن والعشرين منه سنة ٣٧٦، وهو ابن ثلاثٍ أو أربعٍ وتسعين سنة. وصلى عليه أبو أحمد الحاكم الحافظ.

يحيى بن مالك بن عائذ[2]، أبو زكريا الأندلسي الحافظ

سمع: عبدالله بن يونس المرادي، وأبا عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه بقرطبة، وطائفة. رحل فسمع: أبا سهل بن زياد القطّان، ودَعْلَج بن أحمد، والطبقة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٩٨

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٦٠٢.

روى عنه: الحسن بن رشيق أحد شيوخه، ويحيى بن علي الحضرمي بن الطّحان، ومحمد بن أحمد بن القاسم بن المَحاملي، وأبو الوليد بن الفَرَضي.

أملى بجامع قرطبة.

[من مات وهو يخطب على المنبر]

قال التنوخي: في «النّشْوار»: إنه حضر مجلس أبي الفرج صاحب «الأغاني» فقال: لم نسمع بمن مات فُجاءَةً على المِنْبر؟ فقال شيخ أندلسي قد لزم أبا الفرج اسمه يحيى بن مالك بن عائذ إنه شاهد في جامع بلده بالأندلس خطيبَ البلد وقد صعِد يوم جمعةٍ ليخطُب، فلما بلغ يسيراً من خطبته خَرَّ مَيتاً فوق المنبر، فأُنْزِل، وطُلِب في الحال من رَقِي المنبرَ، فخطب وصلّى الجمعة بنا.

قال الحبّال: مات ابن عائذ الأندلسي في شعبان سنة ستٍّ وسبعين وثلاث مئة.

أبو الحسن بن لؤلؤ الوراق

علي بن محمد بن أحمد[1] بن نُصَيْر بن عَرَفَة الثقفي البغدادي، أبو الحسن بن لؤلؤ الورّاق.

وُلد سنة إحدى وثمانين ومائتين.

[يأخذ العوض على الحديث]

قال البَرْقاني: كان ابن لؤلؤ يأخذ العِوَض على الحديث دانِقَيْن، يعني أنّ نَفْسَه دَنِيّة. قال: وكانت حاله حسنة من الدنيا، وهو صَدوق، غير أنه رديء الكتاب، أي سيئ النقل. قال: وصَحَّفَ مرّة: عن عُتَيّ، عن أُبَيّ قال: عن عن، عن أُبيّ.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٦١١.

وقال عُبيد الله الأزهري: ابن لؤلؤ ثقة.

وقال أبو القاسم التنوخي: حضرت عند ابن لؤلؤ مع أبي الحسين البيضاوي ليقرأ عليه حديث إبراهيم بن هاشم، وكان قد ذكر له عدد مَن يحضر، ودَفَعْنا إليه دراهم، فرأى في جملتنا واحداً زائداً على العدد، فأمر بإخراجه، فجلس الرجل في الدهليز، فجعل البيضاوي يرفع صوته ليُسْمع الرجل، فقال له ابن لؤلؤ: يا أبا الحسين أتُقاضي عليّ وأنا بغدادي بابطاقيّ، ورّاق، صاحب حديث، شيعيّ، أزرق كوسج، ثم أمر جاريته بأن تجلس وتدقّ في الهاوِن أشْناناً، حتى لا يصل الصوتُ.

وقال العتيقي: توفي ابن لؤلؤ، وكان أكثر كُتُبِهِ بخطّه، وقال: لا يفهم الحديث إنما يُحْمَل أمره على الصدق.

توفي في محرم سنة سبعٍ وسبعين وثلاثمائة.

[من بيت الفتوى والرواية]

بِشْر بن محمد بن محمد[1] بن ياسين بن النَّضْر بن سليمان القاضي، أبو القاسم الباهلي النيسابوري، من بيت الفتوى والرواية.

قال الحاكم: كان كثير الذِّكْر والصلاة.

سمع: أبا بكر بن خُزَيْمَة، وأبا العباس السرّاج، وأبا العباس الدَّغُولي.

جلس وأمْلَى، وكان مُكْثِراً لكنه ضيّع أُصُولَه.

وروى عنه: الحاكم، وأبو سعيد الكَنْجَرُوذي في هذه السنة ٣٧٨.

وتوفي في شهر رمضان سنة ٣٧٨.

وقع لي من عواليه جُزءٌ، وقد وُلد سنة ستٍّ وتسعين ومائتين.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٦٢١.

سهل بن أحمد بن الدّيباجي[1]، أبو محمد

حدّث عن ابن خليفة ويموت بن المُزَرِّع.

وعنه: العتيقي، وعلي بن المحسّن التنوخي، وأبو محمد الجوهري.

وقال الأزهري: كان كذّاباً رافضيّاً، رأيت في بيته لَعْنَ أبي بكر وعمر مكتوباً.

وقال بن أبي الفوارس: كان أنْكالاً في الرواية، غالياً في الرفض، ولم يكن له أصل صحيح.

توفي سنة ٣٨٠.

محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن[2] بن صُبر، أبو بكر الحنفي الفقيه

ولي القضاء بعسكر المهديّ، وعاش ستين سنة، وكان معتزلياً مشهوراً به، رأساً في عِلْم الكلام.

سمّى أبو بكر الخطيب أباه عبدالرحمن: وإنما هو محمد بن عبدالله بن جعفر بن محمد بن الحسين بن الفَهْم المعروف بابن صُبَر.

ناب في القضاء عن أبي محمد بن معروف. كان بصيراً بكلام أبي هاشم الجُبّائي، خبيراً بالتفسير.

وله كتاب في الردّ على اليهود، وكتاب «عُمْدَة الأدلّة»، وكتاب «التفسير» وما أتمّه.

توفي لعشر بقين من ذي الحجة ببغداد سنة ٣٨٠.

ولبِشْر بن هارون فيه:

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٦٥٧.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٦٦٦.

قــــل للـــــدّعِيِّ أبي صُـــــبَر وهـــب ادّعيـــت فَمَـــنْ صَـــبَرْ
وإذا تَطَـــــيْلَسَ للقضـــــاءِ فَمَرْحَبـــــاً بـــــأبي العُـــــرَر
فَقَضَـــــاؤُهُ شَرّ القضـــــاء إذا قَـــضَى عَمِـــيَ البَصَـــرْ

يعقوب بن يوسف بن إبراهيم[1] بن هارون بن داود بن كِلّس

الوزير البغدادي، أبو الفرج.

كان يهودياً خبيثاً ماكراً فَطِناً داهية. سافر ونزل الرَّملة، وصار بها وكيلاً، فكسر أموال التجار، وهرب إلى مصر، ثم توصّل، وجرت له أمور، فرأى منه كافور الأخشيذي فَطْنَةً وسياسة، وطمع هو في التقدُّم، فأسلم في يوم جمعة، فقصده الوزير ابن حنزابه لما فهم مرامه، فهرب إلى المغرب، واتصل بيهودٍ كانوا في خدمة المُعِزّ، فعَظُم شأنه، ونَفَق على المُعِزّ، وجاء معه إلى مصر، فلما ولي العزيز، استوزره سنة خمسٍ وستين، وبقي وزيرَه إلى أن هلك، وهو وزير في هذه السنة -أي سنة ٣٨٠- في ذي القعدة، وله اثنان وستون سنة.

وكان عالي الهمّة وافر الهيبة، عاده في مرضه العزيز وقال له: يا يعقوب ودِدْتُ أن تُباع فأشتريك بملكي، هل من حاجةٍ؟ فبكى وقبّل يده، وقال: أما لنفسي فلا يحتاج مولاي وصيّةً، ولكن فيما يتعلق بك: سالِمِ الرُّومَ ما سالموك، واقنع من بني حمدان بالدعوة والشُّكْر، ولا تُبْقِ على المفرَّج بن دَغْفَل متى أمْكَنَتْك فيه الفرصةُ، فأمر به العزيز، فدُفن في القصر، في قُبَّة بناها العزيز لنفسه وصلّى عليه، وألْحَدَه بيده، وتأسّف عليه، وهذه المنزلة ما نالها وزير قطّ من مخدومه.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٦٦٨.

وقيل إنّه حَسُنَ إسلامُهُ، وقرأ القرآن والنَّحْوَ، وكان يجمع عنده العلماء وتُقْرأ عليه مصنفاته ليلة الجمعة، وله إقبال زائد على العلوم على اختلافها، وقد مدحه عدة شعراء، وكان كريماً جَواداً.

ومن تصانيفه كتاب في الفقه مما سمعه من المُعِزّ والعزيز، وجلس سنة تسعٍ وستين وثلاث مئة مجلساً في رمضان، فقرأ فيه الكتاب بنفسه، وسمعه خلائق، وجلس جماعة في الجامع العتيق يفتون من هذا الكتاب. قلت: هذا الكتاب يريد كونه على مذهب الرافضة، فإن القوم رافضة ملحدة في الباطن. والأصح أنه حسن إسلامه.

أحمد بن يعقوب بن عبدالجبار أبو بكر الأموي الجُرجاني[1]

قال البيهقي: له أحاديث موضوعة لا أستحلّ رواية شيء منها.

قلت: له رحلة إلى الشام ومصر والعراق، دخل بغداد سنة ثلاثٍ وثلاثمائة، وجدّه هو: عبدالجبار بن يعاطر بن مُصْعَب بن سعيد بن الأمير مَسلَمَة بن عبدالملك ابن مروان.

وقد حكى عنه محمد بن القاسم الفارسي، قال: دخلت بغداد، وبها شيخ يقال له أبو العَبَرْطَن يحدّث بالأعاجيب فإذا الدار مملوءة بأولاد الملوك والأغنياء يكتبون عنه، وعلى رأسه خُفٌّ مقلوب، وعليه فَرْوَةٌ مقلوبة، فقال: حدثنا الأول عن الثاني عن الثالث أن الزِّنْج سودٌ سود، وحدثنا خرباق عن نباق قال: مطرُ الربيع ماءٌ كله. وحدثنا دُرَيْد عن رُشَيْد قال: الأعمى يمشي رويداً. فتعجبت وقصدْتُهُ خلْوةً، فرحّب بي، فرأيت منه جميل الأدب، فقلت: تحيّرت في أمر الشيخ، فقال: إن السلطان أرادني على عملٍ لم أكن أُطيقه، فأبيتُ، فحبسني، ولم أجد وجهاً لخلاصي، فتحامَقْتُ فها أنا في أرغد عَيْش.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٦/ ٦٨٧.

[الرحلات في طلب العلم]

وُلد السَّلَفي أبو طاهر أحمد بن محمد[(١)] سنة خمس وسبعين وأربع مئة، وارتحل، وله أقلّ من عشرين سنة، وبقي في بغداد أربع سنين، ثم جالَ في بلاد الإسلام، يأخذ العلم عن العلماء في مختلف البلاد، فسافر إلى الكوفة والبصرة، وزِنْجان، وهمذان، وأبهر، وواسط، وسَلَماس، والحلّة، والدِّينور، وتستر، ونصيبين، وشهرستان، والنعمانية، وأردبيل، وآمد، وزَرَند، ومصر، والري، وقزوين، ومراغة، والإسكندرية، وصُور، وغيرها من البلاد، وبقي في الرحلة ثمانية عشر عاماً، وقدم دمشق سنة ٥٠٩، فأقام بها سنتين، ثم استوطن ثغر الإسكندرية بضعاً وستين سنة إلى أن مات[(٢)].

وقال الذهبي في موضع آخر عن السَّلفي: «خرج من بغداد سنة خمس مائة إلى واسط والبصرة، ودخل خوزستان، وبلاد السِّيس ونهاوند، ثم مضى إلى الدَّرْبَنْد، وهو آخر بلاد الإسلام، ثم رجع إلى تفليس وبلاد أذربيجان، ثم خرج إلى ديار بكر، وعاد إلى الجزيرة، ونصيبين وماكسين، ثم صعد إلى دمشق»[(٣)].

وقد ذكر ابن الحاجب أن «معجم السفر» الذي دوَّن فيه السِّلَفي أسماء شيوخه يشتمل على ألفي شيخ[(٤)].

وقد قال السلفي متحدثاً عن نفسه[(٥)]:

كم جلتُ طولاً وعرضاً ... وجُبْتُ أرضاً فأرضاً

وما ظفرت بخلٍّ ... من غير غِلٍّ فأرضَى

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١١-١٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٤.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٨.

(٥) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٩.

مُسْنِد العصر أبو الوقت(1)

الشيخ الإمام الزاهد الخيِّر الصوفي، شيخ الإسلام، مُسند الآفاق، أبو الوقت، عبدُ الأول بنُ الشيخ المحدثِ المعمّر أبي عبدالله عيسى بن شُعيب بن إبراهيم بن إسحاق، السِّجْزيّ، ثم الهَرَويُّ الماليني.

مولده في سنة ثمانٍ وخمسين وأربع مئة.

وحدث بخُراسان وأصبهان وكَرْمان وهَمَذان وبغداد، وتكاثر عليه الطلبةُ، واشتهر حديثُه، وبَعُد صيتُه، وانتهى إليه علوُّ الإسناد.

[الرحلة في طلب العلم]

وقال زكي الدين البِرْزَالي: طاف أبو الوقت العراقَ وخوزستان، وحدَّث بهَرَاة ومالين وبُوشنج وكِرمان ويَزْدَ واصْبَهان والكَرْجِ وفارس وهَمذان، وقعد بين يديه الحُفّاظُ والوزراءُ، كان عنده كُتُبٌ وأجزاء، سمع عليه مَن لا يُحصى ولا يُحصر.

[حسن الخاتمة]

وقال ابنُ الجوزي: كان صَبوراً على القراءة، وكان صالحاً، كثير الذكر والتهجُّد والبكاء، على سَمْتِ السلف، وعزم عام موته على الحج، وهيَّأ ما يحتاجُ إليه، فمات.

وقال يوسف بن أحمد الشيرازي في «أربعين البلدان» له: لما رحلتُ إلى شيخنا رحلةِ الدنيا ومسندِ العصر أبي الوقت، قدَّر اللهُ لي الوصول إليه في آخر بلاد كرمان، فسلمتُ عليه، وقبلتُه، جلستُ بين يديه، فقال لي: ما أقدمكَ هذه البلاد؟ قلتُ: كان قصدي إليك، ومُعوَّلي بعد الله عليك، وقد كتبتُ ما وقع إليَّ من حديثك بقلمي، وسعيتُ إليك بقدمي، لأدرِكَ بركةَ أنفاسِك، وأحظى بعُلوِّ إسنادِك. فقال: وفقك

(1) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٠٣.

اللهُ وإيانا لمرضاتِه، وجعلَ سَعْيَنا له، وقصدنا إليه، لو كنتَ عرفتني حقَّ معرفتي، لما سلَّمْتَ عليَّ، ولا جلستَ بين يدي، ثم بكى بكاءً طويلاً، وأبكى من حضرهُ، ثم قال: اللهم استُرنا بسترِكَ الجميل، واجعل تحت السترِ ما ترضى به عنّا، يا ولدي، تعلمُ أني رحلتُ أيضاً لسماع «الصحيح» ماشياً مع والدي من هَرَاة إلى الداوودي ببُوشَنْج ولي دون عشرِ سنين، فكان والدي يضعُ على يديَّ حَجَرين، ويقول: احملْهما. فكنتُ من خوفِه أحفظهما بيديَّ، ويمشي وهو يتأمَّلُني، فإذا رآني قد عييتُ أمَرني أن أُلقي حجراً واحداً، فأُلقي، ويَخِفُّ عني، فأمشي إلى أن يتبين له تعبي، فيقول لي: هل عييتَ؟ فأخافُه، وأقولُ: لا. فيقول: لِمَ تُقصِّر في المشي؟ فأسرعُ بين يديه ساعةً، ثم أعجِزُ، فيأخُذ الآخرَ، فيُلقيه، فأمشي حتى أعطَبَ، فحينئذٍ كان يأخذُني ويحملُني، وكنا نلتقي جماعة الفلاحين وغيرَهم، فيقولون: يا شيخُ عيسى، ادفع إلينا هذا الطفلَ نُركبُه وإياك إلى بُوشَنْج، فيقول: معاذَ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله ﷺ، بل نمشي، وإذا عجز أركبتهُ على رأسي إجلالاً لحديث رسول الله ورجاءَ ثوابه. فكان ثمرة ذلك من حُسن نيَّته أني انتفعتُ بسماع هذا الكتاب وغيره، ولم يبقَ من أقراني أحدٌ سواي، حتى صارت الوفود ترحلُ إليَّ من الأمصار. ثم أشارَ إلى صاحبِنا عبدالباقي بن عبدالجبار الهَرَويِّ أن يُقدِّم لي حَلْواء، فقلت: يا سيدي، قراءتي لجزء أبي الجَهْمِ أحبُّ إليَّ من أكل الحلواء. فتبسَّم، وقال: إذا دخل الطعامُ خرج الكلام. وقدم لنا صحناً فيه حَلْواءُ الفانيذ، فأكلنا، وأخرجتُ الجزء، وسألتُه إحضارَ الأصل، فأحضرهُ، وقال: لا تخف ولا تحرِص، فإني قد قبرتُ ممن سمع عليَّ خلقاً كثيراً، فسل الله السلامةَ. فقرأتُ الجزء، وسُررتُ به، ويسَّر اللهُ سماع «الصحيح» وغيرَه مراراً، ولم أزل في صحبته وخدمته إلى أن توفي ببغداد في ليلة الثلاثاء من ذي الحجة[1] -قلت: وبيَّض لليوم وهو سادس الشهر-.

---

(١) سيذكر المؤلف قولاً آخر في وفاته، وهو سادس ذي القعدة، وهو المذكور في «العبر» و«وفيات الأعيان» و«ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار.

قال: ودفنّاه بالشُّونيزيَّة. قال لي: تدفنني تحتَ أقدام مشايخنا بالشُّونيزيَّة. ولما احتُضِرَ سَنَدْتُه إلى صدري، وكان مُسْتَهْتَراً[1] بالذِّكر، فدخل عليه محمد بن القاسم الصوفي، وأكبَّ عليه، وقال: يا سيدي، قال النبي ﷺ: «من كان آخر كلامِهِ لا إله إلا الله دخل الجنة»[2] فرفع طرفه إليه، تلا: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس:٢٦-٢٧] فدهش إليه هو ومن حضر من الأصحاب، ولم يزل يقرأُ حتى ختمَ السورة، وقال: الله الله الله، ووفي وهو جالسٌ على السجادة.

وقال أبو الفرج بن الجوزي[3]: حدثني محمد بن الحسين التكريتي الصوفي قال: أسندته إليَّ، وكان آخر كلمة قالها: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾، ومات.

قلت: قدم بغداد في شوال، فأقام بها سنةً وشهراً، وكان معه أصولُه، فحدَّث منها.

---

(١) أي: مولَعٌ به، يقال: أُهْتِرَ فلان بكذا، واستُهْتِرَ، فهو مُهْتَرٌ ومستهتر، أي: مولع به لا يتحدث بغيره، ولا يفعل غيره، وفي سنن الترمذي (٣٥٩٦) من حديث أبي هريرة «سبق المفرِّدون» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «المستهترون في ذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم، فيأتون يوم القيامة خفافاً». وصححه الحاكم ١/ ٤٩٥، ووافقه الذهبي، من طريق آخر بلفظ «سبق المفردون قالوا يا رسول الله: ومن المفردون؟ قال الذين يهترون في ذكر الله عز وجل» ورواه مسلم (٢٦٧٦). من طريق آخر عنه بلفظ «سبق المفردون»، قالوا: وما المفردون يا رسول الله قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

(٢) أخرجه أبو داود (٣١١٦) وأحمد ٥/ ٢٣٣ من حدث معاذ بن جبل، وصححه الحاكم ١/ ٣٥١، ووافقه الذهبي وله شاهد من حديث أبي هريرة عند ابن حبان (٧١٩) ولفظه: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله عند الموت دخل الجنة يوماً من الدهر وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه».

(٣) في «المنتظم» ١٠/ ١٨٣.

قال ابنُ النجار: كان الوزيرُ أبو المظفَّر بنُ هُبيرة قد استدعاه، ونفَّذ إليه نفقةً، ثم أنزلَه عنده، وأكرمَه، وأحضرُه في مجلسه، وسمع عليه «الصحيحَ» في مجلس عامٍّ أذِنَ فيه للناس، فكان الجمعُ يفوتُ الإحصاء، ثم قرأه عليه أبو محمد بنُ الخشّاب بالنظاميَّة، وحضر خلقٌ كثيرٌ دون هؤلاء، وقُرئ عليه بجامع المنصور، وسمعه جمعٌ جمٌّ، وآخرُ من قرأهُ عليه شيخُنا ابنُ الأخضر، وكان شيخاً صَدوقاً أميناً، من مشايخ الصوفية ومحاسِنهم، ذا ورعٍ وعبادةٍ مع علوِّ سنِّه، وله أصلٌ حسنة، وسماعاتٌ صحيحة[1].

ثم قال: قرأت في كتاب أحمدَ بن صالح الجيلي: توفي شيخُنا أبو الوقت ليلةَ الأحد سادسَ ذي القعدة سنةَ ثلاثٍ وخمسين وخمس مئة نصف الليل، وصلِّي عليه ضاحي نهارِ اليوم برباط فيروز الذي كان نازلاً فيه، ثم صُلِّي عليه بالجامع، وأمَّنا الشيخ عبدالقادر الجيلي، وكان الجمع متوفراً، وكنتُ يوم خامس الشهر عنده، وقرأتُ عليه الحديثَ إلى وقت الظُّهر، وكان مستقيمَ الرأي، حاضرَ الذهن، ولم نرَ في سنِّه مثلَ سندِه، وكان شيخاً صالحاً سنيّاً، قارئاً للقرآن، قد صحبَ الأشياخَ، وعاشَ حتى ألحق الصغار بالكبار، ورأى من رئاسة التحديث ما لم يرهُ أحدٌ من أبناء جنسِه، وسمع منه من لم يرغب في الرواية قبلَه، وكان آخر من روى في الدنيا عن الداووديِّ وبقيةِ أشياخه، وقُرئت الكتب التي معه كُلُّها عليه والأجزاءُ مراتٍ في عدة مواضع، وسمعها منه ألوفٌ من الناس، وصل بغداد في حادي عشر شوال سنت اثنتين وخمسين، صحب شيخ الإسلام نيِّفاً وعشرين سنة.

[كيف ماتوا، حسن الخاتمة]

من الذين ختم لهم بخاتمة طيبة الحافظ السِّلَفي أبو طاهر أحمد بن محمد، رحمه الله تعالى، فإنه مات عن مائة وست سنين، ولم يزل يقرأ عليه الحديث يوم الخميس

---

(١) انظر: «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» ١٥١.

إلى أن غربت الشمس من ليلة وفاته، وهو يَرُدُّ على القارئ اللحن الخفيَّ، وصلَّى يوم الجمعة الصبحَ عند انفجارِ الفجر، وتوفي بعدها فُجاءةً خامس شهر ربيع الآخر، سنة ست وسبعين وخمس مئة[١].

[الحافظ عبدالغني[٢] المقدسي الجماعيلي]

الإمامُ العالِمِ الحافِظُ الكبير الصادقُ القُدوة العابِد الأثريُّ[٣] المُتَّبع عالِمُ الحُفّاظ تقيُّ الدين أبو محمد عبدالغني بن عبدالواحد بن علي بن سُرور بن رافع بن حسن ابن جعفر المقدسيُّ الجَمّاعيليُّ ثم الدمشقيُّ المنشأ الصالحيُّ الحنبلي، صاحب «الأحكام الكبرى» و«الصغرى».

قرأتُ سيرتَهُ في جزءين جَمْعِ الحافظ ضياء الدين أبي عبدالله المقدسي[٤] على الشيخ عبدالحميد بن أحمد البَنّاء بسماعه عام ستة وعشرين وست مئة من المؤلف فعامة ما أورده فمنها.

قال: وُلد سنة إحدى وأربعين[٥] وخمس مئة بجمّاعيل أظنه في ربيع الآخر، قالت والدتي[٦]: هو أكبر من أخيها الشيخ الموفق بأربعة أشهر، والموفق[٧] ولد في شعبان.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٤٣.

(٣) نسبةً إلى عنايته بالأثر على صاحبه أفضل الصلاة والتسليم.

(٤) توفي الضياء سنة ٦٤٣ وكتب مجموعة سير للمقادسة. ونقل ابن رجب عن الضياء أن ممن كتب سيرة له أيضاً: مكي بن عمر بن نعمة المصري.

(٥) ولكن قال الزكي المنذري: «وذكر عنه بعض أصحابه على أن مولده سنة أربع وأربعين وخمس مئة». وذكر ابن النجار في تاريخه -على ما نقل ابن رجب- أنه سأل الحافظ عبدالغني عن مولده، فقال: إما في سنة ثلاث أو في سنة أربع وأربعين وخمس مئة، وأنه قال: الأظهر أنه سنة أربع.

(٦) الكلام للضياء.

(٧) ابن قدامة المتوفى سنة ٦٢٠.

سمع الكثير بدمشق، والإسكندرية، وبيت المقدس، ومصر، وبغداد، وحَرّان، والموصل، وأصبهان، وهمذان، وكتب الكثير.

[القوة في الدين]

[قيامه في النهي عن المنكر]

كان لا يرى مُنكراً إلا غَيَّرَهُ بيده أو بلسانه، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم. قد رأيته مرة يهريق خمراً فجبذ صاحبُهُ السيفَ فلم يَخَفْ منه، وأخذه من يده، وكان قوياً في بَدَنه، وكثيراً ما كان بدمشق ينكر [المنكر] ويكسر الطَّنابير والشَّبابات.

قال خالي الموفق: كان الحافظ لا يصبر عن إنكار المُنكر إذا رآه، وكنا مرة أنكرنا على قومٍ وأرقنا خَمْرَهُم وتضاربنا، فسمع خالي أبو عمر، فضاقَ صَدرُهُ، وخاصَمَنا، فلما جئنا إلى الحافظ طَيَّبَ قلوبَنا، وصَوَّب فِعْلَنا وتلا: ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧].

وسمعت أبا بكر بن أحمد الطَّحان، قال: كان بعض أولاد صلاح الدين قد عُمِلت لهم طنابير، وكانوا في بستان يشربون، فلقيَ الحافظ الطَّنابير فكَسَرها. قال: فحدثني الحافظ، قال: فلما كنت أنا وعبدالهادي عند حمّام كافور إذا قومٌ كثير معهم عصيّ فخففت المشي، وجعلت أقول: «حسبي الله ونِعْمَ الوكيل»، فلما صرت على الجسرِ لحقوا صاحبي، فقال: أنا ما كسرتُ لكم شيئاً، هذا هو الذي كَسَر. قال: فإذا فارس يركض فترَجَّل، وقَبَّل يديَّ، وقال: الصبيان ما عرفوك. وكان قد وضع اللهُ له هيبةً في النفوس.

سَمِعتُ فضائلَ بن محمد بن علي بن سُرور المقدسيَّ يقول: سمعتهم يتحدثون بمصر أن الحافظ كان قد دخل على العادل فقام له، فلما كان اليوم الثاني جاء الأمراء إلى الحافظ مثل سركس وأُزكش، فقالوا: آمنا بكراماتك يا حافظ.

وذكروا أن العادل قال: ما خفتُ من أحدٍ ما خفت من هذا، فقلنا: أيها الملك هذا رجل فقيه. قال: لما دخل ما خُيِّل إليَّ إلا أنه سَبعٌ.

قال الضياء: رأيت بخط الحافظ: والملك العادل اجتمعت به، وما رأيت منه إلا الجميل، فأقبل عليَّ، وقام لي، والتزمني، ودعوتُ له ثم قلت: عندنا قصور هو الذي يوجب التقصير، فقال: ما عندك لا تقصير ولا قصور، وذكر أمر السُّنّة فقال: ما عندك شيء تُعاب به لا في الدين ولا الدُّنيا، ولا بد للناس من حاسدين.

وبلغني بعدُ عنه أنه قال: ما رأيت بالشام ولا مصر مثل فلان، ودخل عليَّ فخُيِّل إليَّ أنه أسدٌ، وهذا ببركة دعائكم ودعاء الأصحاب.

قال الضياء: كانوا قد وَغَروا عليه صَدر العادل، وتكلموا فيه، وكان بعضهم أرسل إلى العادل يبذل في قتل الحافظ خمسة آلاف دينار.

قلت: جرّ هذه الفتنة نَشْر الحافظ أحاديث النزول والصفات فقاموا عليه، ورموه بالتَّجسيم، فما دارى كما كان يداريهم الشيخ المُوَفَّق.

سمعتُ بعض أصحابنا يحكي عن الأمير درباس أنه دخل مع الحافظ إلى الملك العادل فلما قضى الملك كلامه مع الحافظ، جعل يتكلم في أمر ماردين وحصارها، فسمع الحافظ فقال: أيش هذا، وأنت بعدُ تريد قتال المسلمين، ما تشكر الله فيما أعطاك، أما... أما؟! قال فما أعاد ولا أبدى. ثم قامَ الحافظُ وقمتُ معه، فقلت: أيش هذا؟ نحن كنا نخاف عليك من هذا ثم تعمل هذا العمل؟ قال: أنا إذا رأيت شيئاً لا أقدر أصبر، أو كما قال.

وسمعت أبا بكر ابن الطحان، قال: كان في دولة الأفضل جعلوا الملاهي عند الدَّرَج، فجاء الحافظ فكَسَّر شيئاً كثيراً، ثم صعد يقرأ الحديث، فجاء رسول القاضي يأمره بالمشي إليه ليناظره في الدُّف والشبابة فقال: ذاكَ عندي حرامٌ ولا أمشي إليه، ثم قرأ الحديث. فعاد الرسول فقال: لا بد من المشي إليه، أنت قد بطّلت هذه

الأشياء على السلطان، فقال الحافظ: ضرب الله رقبته ورقبة السلطان، فمضى الرسول وخفنا، فما جاء أحدٌ.

وفاته:

سمعت أبا موسى يقول[1]: مرض أبي في ربيع الأول مرضاً شديداً منعه من الكلام والقيام، واشتدّ ستة عشر يوماً، وكنت أسأله كثيراً: ما يشتهي؟ فيقول: أشتهي الجنة، أشتهي رحمة الله، لا يزيد على ذلك، فجئته بماء حار فمدّ يده فوضأته وقت الفجر، فقال: يا عبدالله قم صلِّ بنا وخفف، فصليت بالجماعة، وصلى جالساً، ثم جلستُ عند رأسه، فقال: اقرأ يسٓ، فقرأتها، وجعل يدعو وأنا أؤمِّن، فقلت: هنا دواء تشربه، قال: يا بني ما بقي إلا الموت، فقلت: ما تشتهي شيئاً؟ قال: أشتهي النظر إلى وجه الله سبحانه، فقلت: ما أنت عني راضٍ؟ قال: بَلَى والله[2]، فقلت: ما توصي بشيء؟ قال: ما لي على أحد شيء، ولا لأحد عليَّ شيء، قلت: توصيني؟ قال: أوصيك بتقوى الله والمحافظة على طاعته، فجاء جماعة يعودونه، فسلموا، فردّ عليهم، وجعلوا يتحدثون، فقال: ما هذا؟ اذكروا الله، قولوا لا إله إلا الله، فلما قاموا جعل يذكر الله بشفتيه، ويشير بعينيه، فقمت لأناول رجلاً كتاباً من جانب المسجد فرجعت وقد خرجت روحه، رحمه الله، وذلك يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ست مئة، وبقي ليلة الثلاثاء في المسجد واجتمع الخَلْق من الغد فدفناه بالقرافة[3].

---

(١) انظر: الذيل لابن رجب: ٢/ ٢٨-٢٩. وقد اختصرها الذهبي على عادته في اختصار الأخبار وعنايته بالمعنى العام.

(٢) وتمام جوابه: «أنا عنك راضٍ وعن إخوتك وقد أجزت لك ولإخوتك ولابن أختك إبراهيم».

(٣) تمام الخبر -كما نقله ابن رجب عن الضياء-: «مقابل قبر الشيخ أبي عمرو بن مرزوق في مكان ذكر لي خادمه عبدالمنعم أنه كان يزور ذلك المكان ويبكي فيه إلى أن يبل الحصى، ويقول: قلبي ارتاح إلى هذا المكان».

صاحب الموصل[1]

الملكُ عزُّ الدين أبو المظفَّر مسعودُ ابنُ الملك مودودِ بن الأتابكِ زنكيّ ابن آقسنقر، الأتابكيُّ، التركيُّ، الذي عَمِلَ المصافَّ مع صلاح الدين على قُرون حماة، فانكسر مسعودٌ سنة سبعين، ثم وَرِثَ حلب، أوصى له بها ابنُ عمِه الصالح إسماعيل، فساقَ، وطلعَ إلى القلعة، وتزوَّجَ بوالدة الصالح، فحاربَهُ صلاح الدين، وحاصر الموصل ثلاث مرات، وجَرَتْ أمورٌ، ثم تصالحا، وكان موتُهما متقارباً.

تعَلَّل مسعودٌ، وبقي عشرة أيام لا يتكلم إلا بالشهادة والتلاوة، وإن تكلم بشيء، استغفر، وخُتِمَ له بخيرٍ. وكان يزور الصالحين، وفيه حلمٌ وحياءٌ ودينٌ وقيام ليل، وفيه عدل.

مات في شعبان سنة تسع وثمانين وخمس مئة.

شيخ الشيوخ

الشيخ الصالح، أبو البركات، إسماعيلُ بن أبي سعد أحمد بن محمد بن دُوْسْت، النيسابوري[2].

وُلد سنة ٤٦٥ ببغداد.

قال السَّماني: وقورٌ مَهيبٌ، على شاكلة حميدة، ما عرفتُ له هَفْوةً، قرأتُ عليه الكثير، وكنتُ نازلاً برباطِه.

قال ابنُ النجار: سمعتُ ابن سُكينة يقول: كنتُ حاضراً لما احتُضر، فقالت له أمي: يا سيدي، ما تجدُ؟ فما قدر على النطق، فكتب على يدها: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة:٨٩] ثم مات.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٣٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٦٠.

قلتُ: مات في عاشر جمادى الآخرة سنةَ إحدى وأربعين وخمس مئة، وعملوا لموته وليمةً بنحو ثلاثِ مئة دينار.

ابن عساكر[1]

الشيخ الإمام العالِم القدوة المفتي شيخ الشافعية فخر الدين أبو منصور عبدالرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الدمشقي الشافعي.

وُلد سنة خمسين وخمس مئة.

توفي في عاشر رجب سنة عشرين وست مئة، وقَلَّ من تخلَّف عن جنازته.

وقال أبو شامة: أخبرني من حضره[2] قال: صلى الظهر، وجعل يسأل عن العصر، وتوضأ ثم تشهَّد وهو جالس، وقال: رضيتُ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، لقّنني الله حُجتي وأقالني عَثْرَتي ورحمَ غُربتي. ثم قال: وعليكم السلام، فعلمنا أنه حضرت الملائكة، ثم انقلب ميتاً. غسله الفخر ابن المالكي، وابن أخيه تاج الدين[3]، وكان مرضه بالإسهال، وصلى عليه أخوه زين الأمناء، ومَن الذي قدر على الوصول إلى سريره؟

ابن الأثير[4]

مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني الجزري، الكاتب صاحب «جامع الأصول» و«غريب الحديث» وغيرهما.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٨٧.

(٢) يعني من حضر وفاته.

(٣) يعني عبدالوهاب ابن زين الأمناء.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٩١.

[لا يريد العلاج حتى لا يخدم الحكام]

حكى أخوه العز، قال: جاء مغربيّ عالجَ أخي بدهن صنعه، فبانت ثمرته، وتمكن من مدّ رجليه، فقال لي: أعطه ما يرضيه واصرفه قلت: لماذا وقد ظهر النُّجح؟ قال: هو كما تقول، ولكني في راحة من ترك هؤلاء الدَّولة، وقد سَكَنَتْ نفسي إلى الانقطاع والدَّعة، وبالأمس كنتُ أُذَلُّ بالسعي إليهم، وهنا فما يجيئوني إلا في مشورة مهمة، ولم يبقَ من العمر إلا القليل.

[تراجم بعض العلماء]

الرفاعي(1)

الإمام القدوة، العابد، الزاهد، شيخ العارفين، أبو العباس أحمدُ بنُ أبي الحسن عليٍّ بن أحمد بن يحيى بن حازم بن عليٍّ بن رفاعة الرفاعي المغربي ثم البطائحيُّ.

قَدِمَ أبوهُ من المغرب، وسكن البطائِحَ، بقرية أُمِّ عَبِيْدَة. وتزوج بأختِ منصورٍ الزاهد، ورُزِقَ منها الشيخ أحمد وإخوته.

وكان أبو الحسن مُقرئاً يؤُمُّ بالشيخ منصور، فتوفي وابنه أحمد حَمْلٌ. فربَّاه خالُه، فقيل: كان مولدُهُ في أول سنة خمس مئة.

قيل: إنه أقسَمَ على أصحابِهِ إنْ كان فيه عيبٌ يُنبِّهونَه عليه، فقالَ الشيخ عمرُ الفاروثيُّ: يا سيدي أنا أعْلَمُ فيك عيباً. قال: ما هو؟ قال: يا سيدي، عيبُكَ أننا من أصحابِك. فبكى الشيخ والفقراء، وقال -أي عُمَرُ-: إنْ سَلِمَ المركبُ، حَمَلَ منْ فيه.

---

(1) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٧٨.

[من طرفه]

قيل: إنَّ هرَّةً نامتْ على كُمِّ الشيخ أحمد، وقامت الصلاة، فقصَّ كُمَّهُ، وما أزعجَها، ثم قَعَدَ، فوصَلَهُ، وقال: ما تغير شيءٌ.

وقيل: توضأ، فنزلتْ بعوضةٌ على يده، فوقف لها حتى طارت.

وعنه قالَ: أقربُ الطريق الانكسارُ والذُّلُّ والافتقارُ؛ تُعظِّمُ أمْرَ الله، وتُشْفِقُ على خلق الله، وتقتدي بسنَّة رسول الله ﷺ.

وقيل: كان شافعياً يعرفُ الفقه. وقيل: كان يجمعُ الحطَبَ، ويجيء به إلى بيوت الأرامل، ويملأ لهم بالجَرَّة.

قيل له: أيش أنتَ يا سيدي؟ فبكى، وقال: يا فقيرُ، ومن أنا في البَيْنِ، ثبِّتْ نَسَبْ واطْلب ميراث[1].

وقال[2]: لمَّا اجتمع القومُ، طلب كلُّ واحدٍ شيء[3]، فقال هذا اللاش أحمد: أي ربِّ عِلْمُكَ محيطٌ بي وبطلبي فكُرِّرَ عليَّ القولُ. قلت: أي مولاي، أريد أن لا أريد، وأختارُ أن لا يكون لي اختيارٌ، فأُجِبْتُ، وصارَ الأمرُ له وعليه.

وقيل: إنه رأى فقيراً يقتلُ قملةً، فقال: لا واخَذَكَ اللهُ، شَفَيْتَ غيظَكَ؟!

وعنه أنه قال: لو أنَّ عن يميني جماعةً يروِّحوني بمراوح النَّدِّ والطيب، وهم أقربُ الناس إليَّ، وعن يساري مثلهم يقرضون لحمي بمقاريضَ وهم أبغضُ الناس

---

(١) هكذا وردت في الأصل وهي حكاية مثل ليس فيها التزام بقواعد النحو.

(٢) أي أحمد، وفي «طبقات الشافعية الكبرى» أن القائل هو يعقوب، وهو غير معقول؛ بسبب العبارة الآتية (فقال: هذا اللاش أحمد).

(٣) هكذا في الأصل وفي «تاريخ الإسلام» وفي «طبقات الشافعية الوسطى» للسبكي وفي نسخ في طبقاته الكبرى. وقد غيّرها محققو الطبقات الكبرى إلى (شيئاً) حسب القواعد النحوية، وكثير من مثل هذا الكلام لا نجد التزاماً بالقواعد النحوية فيه فالأولى تثبتُه كما جاء.

إليَّ، ما زاد هؤلاء عندي، ولا نقص هؤلاء عندي بما فعلوه، ثم تلا: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد:٢٣].

وقيل: أُحْضِرَ بين يديه طبق تمرٍ، فبقي يُنقِّي لنفسه الحَشَفَ يأكله، ويقول: أنا أحقُّ بالدُّونِ، فإني مثلُه دونٌ.

وكان لا يجمع بين لبسِ قميصين، ولا يأكلُ إلا بعد يومين أو ثلاثةٍ أكلةً، وإذا غسل ثوبَه، ينزلُ في الشّطِّ كما هو قائمٌ يفركهُ، ثم يقِفُ في الشمس حتى ينشَفَ، وإذا ورد ضَيْفٌ، يدورُ على بيوتِ أصحابه يجمعُ الطعامَ في مئزرٍ.

وعنه قال: الفقير المتمكن إذا سأل حاجةً، وقُضيتْ له، نَقَصَ تمكُّنُهُ درجةٌ.

وكان لا يقوم للرؤساء، ويقولُ: النظرُ إلى وجوههم يقسِّي القلبَ.

وكان كثير الاستغفار، عاليَ المقدار، رقيقَ القلب، غزيرَ الإخلاص.

توفي سنة ثمانٍ وسبعين وخمس مئة في جمادى الأولى رحمه الله[(١)].

الكمال الأنباري[(٢)]

الإمام القدوة، شيخ النحو كمال الدين أبو البركات عبدالرحمن بن محمد بن عُبيد الله الأنباري، نزيلُ بغداد.

---

(١) رأي الذهبي وموقفه من التصوف، قال في «العبر» بعد هذا المدح الكثير: «ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزغل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات، وهذا لا عرفه الشيخ ولا صلحاءُ أصحابه، فنعوذ بالله من الشيطان» (٤/ ٢٣٣). وقال في «تاريخ الإسلام»: «ولهم أحوال عجيبة من أكل الحيات حية، والنزول في التنانير وهي تتضرّم ناراً، والدخول إلى الأفرنة، وينام الواحد منهم في جانب الفرن، والخباز يخبز في الجانب الآخر، وتوقد لهم النار العظيمة، ويقام السماع فيرقصون عليها إلى أن تنطفىء» (الورقة: ٧٤ - أحمد الثالث ٢٩١٧/ ١٤).

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١١٣.

تفقَّه بالنظامية على أبي منصور الرزاز وغيره، وبرع في مذهب الشافعي، وقرأ الخلاف، وأعاد بالنظامية، ووعظ، ثم إنه تأدب بابن الجواليقي، وأبي السعادات ابن الشجري، وشرح عدة دواوين، وتصدَّر، وأخذ عنه أئمةٌ، وسمع بالأنبار من أبيه، وخليفة بن محفوظٍ، وببغداد من أبي منصور بن خَيْرون، وعبدالوهاب الأنماطي، والقاضي أبي بكرٍ محمد بن القاسم الشهرزوري، وعدةٍ، روى كتباً من الأدبيات.

قال ابن النجار: روى لنا عنه أبو بكر المبارك بن المبارك النحوي، وابنُ الدُّبَيْثيِّ، وعبدالله بن أحمد الخَبَّاز. قال: وكان إماماً كبيراً في النحو، ثقةً، عفيفاً، مناظراً، غزيرَ العلم، ورعاً، زاهداً، عابداً، تقياً، لا يقبل من أحد شيئاً، وكان خشن العيش جشْبَ[1] المأكل والملبس، لم يتلبس من الدنيا بشيء، مضى على أسدِّ[2] طريقةٍ. وله كتاب «هداية الذاهب في معرفة المذاهب»، كتاب «بداية الهداية»، كتاب «في أصول الدين»، كتاب «النور اللامح في اعتقاد السلف الصالح»، كتاب «منثور العقود في تجريد الحدود»، كتاب «التنقيح في الخلاف»، كتاب «الجمل في علم الجدل»، كتاب «ألفاظ تدور بين النُّظَّار»، كتاب «الإنصاف في الخلاف بين البصريين والكوفيين»، كتاب «أسرار العربية»، كتاب «عقود الإعراب»، كتاب «مفتاح المذاكرة»، كتاب «كلا وكلتا»، كتاب «لو وما»، كتاب «كيف»، كتاب «الألف واللام»، كتاب «في يعْفون»، كتاب «حلية العربية»، كتاب «لمع الأدلة»، كتاب «الوجيز في التصريف»، كتاب «إعراب القرآن»، كتاب «ديوان اللغة»، «شرح المقامات»، «شرح ديوان المتنبي»، «شرح الحماسة»، «شرح السَّبع»، كتاب «نزهة الألباء في طبقات الأدباء»، كتاب «تاريخ الأنبار»، كتاب في «التصوُّف»، كتاب في «التعبير». سَرَدَ له ابنُ النجار أسماء تصانيف جمّة.

---

(١) المأكل الجشب: الغليظ الخشن، وقيل: هو الذي لا أُدْم له.

(٢) من السداد، أي: أصلح طريقة.

وقال: أخبرنا عبدالله بنُ أحمد، أخبرنا الكمال، أخبرنا عبدالوهاب الحافظ، أخبرنا عليُّ ابن البُسْرِيّ، فذكر حديثاً، وعَلاَّه. وله شِعْرٌ حَسَنٌ.

مولِدُهُ في ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وخمس مئة.

ومات في تاسع شعبان سنة سبعٍ وسبعين وخمس مئة عن بضعٍ وستين سنةً.

قال الموفَّق عبداللطيف: الكمالُ شيخنا؛ لم أرَ في العُبَّادِ المنقطعين أقوى منه في طريقِهِ، ولا أصدق منه في أسلوبه، جدٌّ محض، لا يعتريه تصنُّعٌ، ولا يعرفُ الشرورَ، ولا أحوالَ العالم، كان له دارٌ يسكنُها، وحانوتٌ ودارٌ يتقوَّتُ بأجرتهما، سيَّر له المستضيءُ خمسَ مئة دينار فردَّها، وكان لا يوقد عليه ضوءاً، وتحته حصيرٌ قصبٍ، وثوبا قطن وله مئة وثلاثون مُصَنَّفاً رحمه الله تعالى.

ابن سُكَينة[1]

الشيخ الإمام العالمُ الفقيه المحدِّث الثقة المعمَّر القدوة الكبير شيخ الإسلام مَفْخَر العراق ضياء الدين أبو أحمد عبدالوهاب ابن الشيخ الأمين أبي منصورعليّ بن علي بن عُبيد الله ابن سُكينة البغدادي الصوفي الشافعي.

وسُكينة هي والدة أبيه.

مولده في شعبان سنة تسع عشرة وخمس مئة.

وسمع الكثير من أبيه، فروَى عنه «الجَعْديات»، وهبة الله بن الحُصين، يروي عنه «الغيلانيات»، وأبي غالب محمد بن الحسن الماوردي، وزاهر الشَّحاميِّ، وقاضي المارستان، ومحمد بن حَمويه الجويني الزاهد، وعَدةٍ، بإفادة ابن ناصر، ثم لازم أبا سعد البغدادي المُحدّث، وأكثر عنه. وسمع معه من أبي منصور القَزَّاز، وإسماعيل

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٠٢.

ابن السمرقندي، أبي الحسن بن تَوْبَة، وشيخ الشيوخ أبي البركات إسماعيل بن أحمد، وهو جده لأمه، وعدّةٍ.

وعُني بالحديث عنايةً قوية، وبالقراءات، فبرع فيها، وتَلا بها على أبي محمد سبط الخيّاط، وأبي الحسن بن محمويه، وأبي العلاء الهمذاني، وأخذ المذهب[١] والخلاف عن أبي منصور ابن الرَّزّار، والعربية عن أبي محمد ابن الخشَّاب. وصحبَ جده أبا البركات، ولبس منه[٢]، ولازم ابن ناصر، وأخذ عنه علم الأثر[٣]، وحفظ عنه فوائد غزيرة.

[حسن السمت والمظهر]

قال ابن النجار[٤]: شيخنا ابن سكينة شيخ العراق في الحديث والزُّهد وحُسْن السَّمْت وموافقة السنَّة والسلف. عُمّر حتى حدَّث بجميع مروياته، وقصده الطلاب من البلاد، وكانت أوقاتُه محفوظةً، لا تمضي له ساعةٌ إلا في تلاوة أو ذكرٍ أو تهجُّدٍ أو تسميع، وكان إذا قُرئ عليه منع من القيام له أو لغيره. وكان كثير الحج والمجاورة والطهارة، لا يخرجُ من بيته إلا لحضور جمعة أو عيد أو جنازة، ولا يحضر دور أبناء الدنيا في هناءٍ ولا عزاء، يديم الصومَ غالباً، ويستعمل السنّة في أموره، ويحب الصالحين، ويُعظِّم العلماء، ويتواضع للناس، وكان يكثر أن يقول: أسأل الله أن يُميتنا مسلمين، وكان ظاهر الخشوع، غزير الدمعة، ويعتذر من البكاء، ويقول: قد كبرت ولا أملكه. وكان الله قد ألبسه رداءً جميلاً من البهاء وحُسْن الخِلْقَة وقبول الصورة، ونور الطاعة، وجلالة العبادة، وكانت له في القلوب منزلة عظيمة، ومَن رآه انتفع برؤيته، فإذا تكلم كان عليه البهاء والنور، لا يشبع من مجالسته. لقد طُفتُ

(١) يعني مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه.
(٢) يعني: لبس منه خرقة التصوف.
(٣) أي الحديث الشريف على قائله أفضل الصلاة والسلام.
(٤) التاريخ المجدد لمدينة السلام، الورقة: ٦٤-٦٦ (ظاهرية).

شرقاً وغرباً ورأيت الأئمة والزُّهاد فما رأيت أكملَ منه ولا أكثر عبادةً ولا أحسن سمْتاً، صحبتُه قريباً من عشرين سنة ليلاً ونهاراً، وتأدبت به، وخدمته، وقرأت عليه[1] بجميع رواياته، وسمعتُ منه أكثر مروياته وكان ثقةً حجةً نبيلاً عَلَماً من أعلام الدين! سمع منه الحُفّاظ: عليُّ بنُ أحمد الزيدي، والقاضي عمر بن علي القرشي، والحازمي، وطائفةٌ ماتوا قبله.

وسمعتُ ابنَ الأخضر غير مرةٍ يقول: لم يبقَ ممن طلبَ الحديثَ وعُنِيَ به غير عبدالوهاب ابن سُكينة.

وسمعته يقول: كان شيخنا ابنُ ناصرٍ يجلس في داره على سرير لطيف، فكل من حضر عنده يجلس تحت إلا ابن سُكينة.

قال ابن النجار: وأنبأنا يحيى بن القاسم مُدرِّس النظامية في ذكر مشايخه: ابن سُكينة كان عالماً عامِلاً دائم التكرار لكتاب «التنبيه»[2] في الفقه، كثير الاشتغال بـ«المهذب» و«الوسيط» لا يُضيِّع شيئاً من وقته، وكُنّا إذا دخلنا عليه يقول: لا تزيدوا على «سلام عليكم» مسألة؛ لكثرة حرصه على المباحثة وتقرير الأحكام.

وقال ابن الدُّبَيْثِيِّ: سمع بنفسه وحصَّل المسموعات، ثم سمى في شيوخه أبا البركات عمر بن إبراهيم الزيدي، وأبا شجاع البِسطامي.

قال: وحدَّث بمصر والشام والحجاز، وكان ثقةً فَهْماً صحيح الأصول ذا سكينة ووقار.

وقد قَدِمَ ابنُ سُكينة دمشق رسولاً في سنة خمس وثمانين[3] وسمع منه التاج ابن أبي جعفر وجماعة.

---

(١) يعني القرآن الكريم، كما في تاريخ ابن النجار.

(٢) الذي لأبي إسحاق الشيرازي، وهو من أشهر كتب الشافعية.

(٣) يعني وخمس مئة على عهد الخليفة الهمام الناصر لدين الله العباسي.

قال الإمام أبو شامة: وفي سنة سبع وست مئة توفي ابن سكينة، وحضرَهُ أربابُ الدولة، وكان يوماً مشهوداً. ثم قال: وكان من الأبدال.

وقال ابن النجار: مات في تاسع عشر ربيع الآخر رحمه الله.

عديّ

الشيخ الإمام الصالح القدوة، زاهد وقتِه، أبو محمد، عَدِيُّ بنُ صخر الشامي[1]، وقيل: عديُّ بنُ مسافر -وهذا أشهر- ابن إسماعيل بن موسى الشامي، ثم الهَكَّاريُّ مسكناً.

قال الحافظ عبدالقادر: ساح سنين كثيرة، وصحب المشايخ، وجاهد أنواعاً من المجاهدات، ثم إنه سكنَ بعض جبال الموصل في موضع ليسَ به أنيسٌ، ثم آنس اللهُ تلكَ المواضع به، وعمرّها ببركاته، حتى صار لا يخاف أَحدٌ بها بعد قطع السُّبُل، وارتد جماعةٌ من مفسدي الأكراد ببركاته، وعُمِّر حتى انتفع به خلْقٌ، انتشر ذِكْرُه، وكان معلِّماً للخير، ناصحاً متشرعاً، شديداً في الله، لاتأخذه في الله لومةُ لائم، عاش قريباً من ثمانين سنة، ما بلَغنا أنه باعَ شيئاً ولا اشترى، ولا تلبَّس بشيءٍ من أمر الدنيا، كانت له غُلَيلَةٌ يزرعُها بالقَدوم في الجبل، ويحصُدها، ويتقوَّتُ، وكان يزرعُ القطن، ويكتسي منه، ولا يأكُلُ من مالِ أحدٍ شيئاً، وكانت له أوقاتٌ لا يُرى فيها محافظةً على أورادِه، وقد طُفتُ معه أياماً في سواد الموصل، فكان يصلي معنا العشاء، ثم لا نراه إلى الصبح، ورأيتُه إذا أقبل إلى قريةٍ يتلقاه أهلُها من قبل أن يسمعوا كلامه تائبين رجالُهم ونساؤُهم إلا من شاء الله منهم.

ولقد أتينا معه على دير رُهبان، فتلقَّانا منهم راهبان، فكشفا رأسَيهما، وقبَّلا رجليه، وقالا: ادْع لنا فما نحنُ إلا في بركاتِك، وأخرجا طبقاً فيه خبز وعسل، فأكل الجماعة. وخرجتُ إلى زيارة الشيخ أول مرةٍ، فأخذ يحادِثُنا، ويسأل الجماعة،

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٤٢.

ويوانِسُهم، وقال: رأيتُ البارحة في النوم كأننا في الجنة ونحن ينزلُ علينا شيءٌ كالبرد. ثم قال: الرحمةُ، فنظرتُ إلى فوق رأسي، فرأيتُ ناساً، فقلت: من هؤلاء؟ فقيل: أهل السُّنة والصيت للحنابلة، وسمعتُ شخصاً يقولُ له: يا شيخ، لا بأس بمداراة الفاسق. فقال: لا يا أخي، دينٌ مكتومٌ دينٌ ميشوم.

وكان يواصل الأيام الكثيرة على ما اشتهر عنه، حتى إن بعض الناس كان يعتقد أنه لا يأكل شيئاً قطُّ، فلما بلغه ذلك أخذ شيئاً، وأكلَه بحضرة الناس، واشتهر عنه من الرياضات والسِّيَرِ والكرامات والانتفاع به ما لو كان في الزمان القديم لكان أحدوثةً، ورأيتُهُ قد جاء إلى الموصل في السنة التي مات فيها، فنزل في مشهدٍ خارج الموصل، فخرج إليه السلطان وأصحاب الولايات والمشايخ والعوامُّ حتى آذَوه مما يقبِّلون يدَه، فأُجلس في موضعٍ بينه وبين الناس شُبّاكٌ بحيث لا يصلُ إليه أحدٌ إلا رؤيةً، فكانوا يسلِّمون عليه، وينصرفون، ثم رجع إلى زاويته.

[الغلو في اعتقاد بعض الخلق فيه]

وقال ابنُ خلِّكان[1]: أصله من بيت فار من بلاد بَعْلَبك، وتوجَّه إلى جبل الهَكَّارية، وانقطع، وبنى له زاويةً، ومالَ إليه أهل البلاد ميلاً لم يُسمع بمثله، وسار ذكرُه في الآفاق، وتبعه خلقٌ جاوز اعتقادُهم فيه الحد، حتى جعلوه قبلتَهم التي يُصلُّون إليها، وذخيرتهم في الآخرة، صحِبَ الشيخ عقيلاً المَنْبِجيَّ، والشيخ حمّاداً الدبَّاس وغيرهما، وعاش تسعين سنة، وتوفي سنة سبع وخمسين وخمس مئة.

قال مظفَّر الدين صاحب إربل: رأيتُ الشيخ عديَّ بنَ مسافر وأنا صغيرٌ بالموصل، وهو شيخٌ رَبْعَةٌ، أسمر اللون، رحمه الله.

قلتُ: نقل الحافظ الضياء عن شيخٍ له أنَّ وفاته كانت في يوم عاشوراء من السنّة.

---

(١) في «وفيات الأعيان» ٣/ ٢٥٤.

ابن الحُطَيئة(1)

الشيخُ الإمام العلاّمة القدوة، شيخ الإسلام، أبو العباس أحمد بن عبدالله بن محمد بن هشام اللخمي المغربي الفاسي المقرئ الناسخ ابن الحُطَيئة.

مولدُه بفاس سنةَ ثمانٍ وسبعين وأربع مئة.

وحجَّ، ولقي الكبار، وتلا بالسبعِ على أبي القاسم بن الفحّام الصقليّ وغيره.

وسمع من أبي الحسن بن مُشرف، وأبي عبدالله الحَضْرمي، وأبي بك الطرطوشي.

حدث عنه: أبو طاهر السِّلَفي وهو أكبرُ منه، وصنيعة المُلك ابنُ حَيْدَرة، وشجاع بن محمد المُدلجي، والأثيرُ محمدُ بن محمد بن بنان وقرأ عليه، وإسماعيلُ بن محمد اللمْطيُّ، والنفيس أسعدُ بن قادوس خاتمة أصحابه.

وقد دخل الشام، وزار، وسكن مصر، وتزوج، وكان يعيشُ من الوراقة، وعلَّم زوجتَه وبنتَه الكتابة، فكتبتا مثلَه، فكان يأخُذُ الكتابَ ويقسِمه بينه وبينهما، فينسخ كلٌّ منهما طائفةً من الكتاب، فلا يفرَّقُ بين الخطوط إلا في شيء نادر، وكان مقيماً بجامع راشدة خارج الفُسطاط، ولأهل مصر حتى أمرائها العُبيدية فيه اعتقادٌ كبير، كان لا يقبل من أحدٍ شيئاً، مع العلم والعمل والخوف والإخلاص.

وتلا أيضاً بالسبع على أبي علي بن بَلِّيمة، وعلى محمد بن إبراهيم الحضرمي.

وأحكم العربية والفقه، وخطُّه مرغوبٌ فيه لإتقانِهِ وبركتِهِ.

وقد كان حصل قحطٌ بمصر، فبذلَ له غيرُ واحدٍ عطاءً، فأبى وقنِع، فخطب الفضل بن يحيى الطويل إليه بنته، فزوَّجه، ثم طلب منه أُمَّها لتُؤنِسها، ففعل، فما أجمل تلطُّفَ هذا المرء في بِرِّ أبي العباس.

---

(1) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٤٤.

[القوة في الدين]

قال السِّلفي: كان ابنُ الحُطيئة رأساً في القراءات، وقرأتُ بخط أبي الطاهر بن الأنماطي قال: سمعتُ شيخنا شجاعاً المُدلجي وكان من خيار عباد الله يقول: كان شيخُنا ابنُ الحُطيئة شديداً في دين الله، فَظّاً غليظاً على أعداء الله، لقد كان يحضُرُ مجلسَه داعي الدعاة مع عِظم سُلطانه ونفوذ أمرِه، فما يحتشِمُهُ، ولا يُكرمُه، ويقول: أحمقُ الناسِ في مسألة كذا وكذا الروافضُ، خالفوا الكتابَ والسُّنَّة، وكفروا بالله، وكنتُ عنده يوماً في مسجده بشرف مصر وقد حضره بعض وزراء المصريين أظنه ابن عباس، فاستسقى في مجلسه، فأتاه بعض غلمانه بإناء فضة، فلما رآه ابنُ الحُطيئة وضع يده على فؤاده، وصرخ صرخةً ملأتِ المسجد، وقال: واحَرَّها على كَبِدي، أتشربُ في مجلسٍ يُقرأ فيه حديثُ رسول الله ﷺ في آنية الفضة؟! لا والله لا تفعلُ، وطرد الغلامَ، فخرج، وطلب الشيخُ كُوزاً، فجيء بكوزٍ قد تثلَّم، فشربَ، واستحيا من الشيخ، فرأيتُه والله كما قال اللهُ: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم:١٧].

قال: وأتى رجلٌ إلى شيخُنا ابن الحُطيئة بمئزرٍ، وحلَف بالطلاق ثلاثا لا بُدَّ أن يقبلَه، فوبَّخه على ذلك، وقال: علِّقْهُ على ذاك الوَتِد. فلم يزل على الوَتِدِ حتى أكله العثُّ. وتساقط، وكان ينسخُ بالأُجرة، وكان له على الجزية في السنة ثلاثة دنانير، ولقد عرَضَ عليه غيرُ واحد من الأمراء أن يزيد جامكيَّته[1]، فما قبل، وكان له من الموقع في قلوبهم مع كثرة ما يُهينُهُم ما لم يكن لأحدٍ سواه وعرضوا عليه القضاء بمصر، فقال: والله لا أقضي لهم... إلى أن قال شجاع: وكتب «صحيح» مسلم كلَّه بقلمٍ واحد، وسمعتُهُ وقيل له: فلانٌ رُزِق نعمةً ومعِدَةً، فقال: حسدوهُ على التردد إلى الخَلاء، وسمعتُهُ كثيراً إذا ذُكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: طُوِيتْ سعادةُ المسلمين في أكفانِ عُمر.

---

(١) الجامكيَّة: رواتب خدام الدولة. تعريب جامكي، وهو مركب من «جامه» أي قيمة، ومن «كي» وهو أداة النسبة. انظر «معجم الألفاظ الفارسية المعربة» لأدي شير، ص٤٥.

وذكرنا في «طبقات القراء» أن الناس بقُوا بمصر ثلاثةَ أشهر بلا قاضٍ في سنة ثلاث وثلاثين، فوقع اختيارُ الدولة على الشيخ أبي العباس، فاشترط عليهم شروطاً صعبة، منها أنه لا يقضي بمذهبِهم -يعني الرفض-، فلم يُجيبوا إلا أن يقضيَ على مذهب الإمامية.

تلوتُ بالسبع من طريقهِ على أبي عبدالله محمد بن منصور النحوي، عن الكمال العباسي، عن شجاعٍ المُدلجيِّ، عنه.

وقرأتُ بخط ابن الأنماطي، قال لي شيخُنا شجاعٌ: كان الشيخُ أبو العباس قد أخذ نفسَه بتقليل الأكل، بحيث بلغ في ذلك إلى الغاية، وكان يتعجبُ ممن يأكُلُ ثلاثين لُقمةً، ويقول: لو أكلَ الناس من الضارِّ ما آكُلُ أنا من النافع ما اعتلُّوا. قال: وحكى لنا شجاعٌ أن أبا العباس وُلدت له بنتٌ، فلما كَبِرتْ أقرأها بالسبع، وقرأتْ عليه «الصحيحين» وغير ذلك، وكتبت الكثير، وتعلَّمتْ عليه كثيراً من العلم، ولم ينظُرْ إليها قطُّ، فسألتُ شجاعاً: أكان ذلك عن قصدٍ؟ فقال: كان في أول العُمر اتفاقاً، لأنه كان يشتغلُ بالإقراء إلى المَغْرب، ثم يدخل بيته وهي في مهدِها، وتمادى الحال إلى أن كَبِرَت، فصارت عادةً، وزوَّجَها، ودخلت بيتَها والأمرُ على ذلك، ولم ينظر إليها قطُّ.

قلتُ: لا مَدْحَ في مثل هذا، بل السنَّةُ بخلافِه، فقد كان سيِّدُ البشر ﷺ يحملُ أُمامة بنتَ ابنته وهو في الصلاة[1].

توفي ابن الحُطيئة رحمه الله في المحرم سنة ستين وخمس مئة، وقبرُه بالقَرافة ظاهرٌ يُزار.

(١) أخرجه البخاري (٥١٦) و(٥٩٩٦) ومسلم (٥٤٣) ومالك في «الموطأ» ١/ ١٧٠، وابن خزيمة (٨٦٨) وأبو داود (٩١٧) و(٩١٨) و(٩١٩) و(٩٢٠) والنسائي ٢/ ٤٥، و٣/ ١٠.

الشيخ عبدالقادر الجيلاني

الشيخ الإمام العالِم الزاهد العارفُ القدوة، شيخ الإسلام، علمُ الأولياء، محيي الدين أبو محمد، عبدالقادر بن أبي صالح عبدالله[1] بن جنكي دوست الجيلي الحنبلي، شيخ بغداد.

مولده بجيلان في سنة إحدى وسبعين وأربع مئة.

وقَدِمَ بغداد شاباً.

قال السمعانيُّ: كان عبدالقادر من أهل جيْلان إمامَ الحنابلة وشيخَهم في عصره، فقيهٌ صالح ديِّن خيِّر، كثيرُ الذكر، دائمُ الفكر، سريعُ الدمعة، تفقَّه على المُخرِّمي، وصحبَ الشيخَ حمّاداً الدباس، وكان يَسْكُنُ بباب الأزَجِ في مدرسةٍ بُنيت له، مضينا لزيارته، فخرج وقَعَدَ بين أصحابه، وخَتَمُوا القرآن، فألقى درساً ما فهمتُ منه شيئاً، وأعجبُ من هذا أنَّ أصحابه قاموا وأعادوا الدرس، فلعلهم فهِمُوا لإلفهم بكلامه وعبارته.

قال ابن الجوزي: كان أبو سعدٍ المُخَرِّمي قد بنى مدرسةً لطيفة بباب الأزَج، ففُوِّضت إلى عبدالقادر، فتكلَّم على الناس بلسانِ الوعظ، وظهر له صيتٌ بالزهد، وكان له سَمْتٌ وصَمْت، وضاقت المدرسة بالناس، فكان يجلسُ عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط، ويتوبُ عنده في المجلس خلقٌ كثيرٌ ، فعُمِّرت المدرسة، ووُسِّعت، وتعصَّب في ذلك العوامُّ، وأقام فيها يُدرِّس ويَعِظُ إلى أن توفي.

[عنايته بطلبة العلم]

أنبأني أبو بكر بن طَرْخان، أخبرنا الشيخ موفق الدين أبو محمد بن قُدامة - وسئل عن الشيخ عبدالقادر- فقال: أدركناه في آخر عُمره، فأسكننا في مدرسته وكان

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٣٩.

يُعنَى بنا، وربما أرسل إلينا ابنَه يحيى، فيُسرج لنا السراجَ، وربما يُرسِلُ إلينا طعاماً من منزله، وكان يُصلِّي الفريضة بنا إماماً، وكنتُ أقرأُ عليه من حفظي من كتاب الخِرقي غُدوةً، ويقرأُ عليه الحافظُ عبدالغني من كتاب «الهداية» في الكتاب، وما كان أحدٌ يقرأُ عليه في ذلك الوقت سوانا، فأقمنا عندَهُ شهراً وتسعةَ أيام، ثم مات، وصلينا عليه ليلاً في مدرستِهِ، ولم أسمع عن أحدٍ يُحكى عنه من الكرامات أكثر مما يُحكى عنه، ولا رأيتُ أحداً يُعظِّمه الناس للدين أكثر منه، وسمعنا عليه أجزاءَ يسيرة.

قرأتُ بخط الحافظ سيف الدين ابن المجد، سمعتُ محمد بن محمود المَراتبي، سمعتُ الشيخ أبا بكر العماد رحمه الله يقولُ: كنتُ قرأتُ في أصول الدين، فأوقع عندي شكّاً، فقلتُ: حتى أمضي إلى مجلس الشيخ عبدالقادر، فقد ذُكر أنه يتكلم على الخواطر، فمضيتُ وهو يتكلم، فقال: اعتقادُنا اعتقادُ السلف الصالح والصحابة. فقلتُ في نفسي: هذا قاله اتفاقاً، فتكلم ثم التفت إلى ناحيتي، فأعاده، فقلت، الواعظُ قد يلتفتُ، فالتفت إليَّ ثالثةً، وقال: يا أبا بكر، فأعادَ القول: ثم قال: قُم قد جاء أبوكَ. وكان غائباً، فقمتُ مبادِراً، وإذا أبي قد جاء.

وحدثنا أبو القاسم بن محمدٍ الفقيه، حدثني شيخُنا جمال الدين يحيى بن الصيرفي سمعتُ أبا البقاء النحوي قال: حضرتُ مجلسَ الشيخ عبدالقادر، فقرؤوا بين يديه بالألحان، فقلتُ في نفسي: تُرى لأي شيءٍ ما يُنكر الشيخ هذا؟ فقال: يجيء واحدٌ قد قرأ أبواباً من الفقه يُنكر. فقلتُ في نفسي: لعل أنه قصد غيري، فقال: إياك نعني بالقول، فتبتُ في نفسي من اعتراضي. فقال: قد قَبِل الله توبتك.

الملك الأشرف

صاحب دمشق السلطان الملك الأشرف مظفر الدين أبو الفتح موسى شاه أرمن ابن العادل[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٢٢.

وُلد بالقاهرة في سنة ست وسبعين وخمس مئة، فهو من أقران أخيه المُعظَّم.

تملَّك القدسَ أولاً، ثم أعطاه أبوه حَرّان والرُّها وغير ذلك، ثم تملَّك خِلاط، وتنقَّلت به الأحوال، ثم تملك دمشق بعد حصار الناصر بها، فعَدل وخفَّف الجَوْرَ، وأحَبّته الرعية. وكان فيه دينٌ وخوفٌ من الله على لَعِبه. وكان جواداً، سَمْحاً، فارساً شجاعاً، لديه فضيلة. ولما مَرّ بحلب سنة خمس وست مئة تلقاه الملك الظاهر ابن عمه وأنزله في القلعة، وبالغَ في الإنفاق عليه، فأقام عنده خمسة وعشرين يوماً، فلعله نابه فيها لأجله خمسون ألف دينار، ثم قَدَّمَ له تقدمة وهي: مئة بُقْجَة مع مئة مملوك فيه فاخر الثياب وخمسة وعشرون رأساً من الخيل، وعشرون بَغلاً وقطاران جمال، وعدة خِلَع لخواصه ومئة ألف درهم، وأشياء سوى ذلك.

ومن سعادته أن أخاه الملك الأوحد صاحب خِلاط مَرِضَ فعادَهُ الأشرف فأَسَرَّ الطبيبُ إليه: إنَّ أخاك سيموت، فمات بعد يوم واستولى الأشرف على أرمينية.

[صلاح وفسق]

وكان مليحَ الهيئة، حُلوَ الشمائل. قيل: ما هُزِمت له رايةٌ. وكان له عكوفٌ على الملاهي والمُسكر عفا الله عنه، ويبالغ في الخضوع للفقراء ويزورهم ويعطيهم، ويُجيز على الشعر، ويبعث في رمضان بالحلاوات إلى أماكن الفقراء، ويشارك في صنائع، وله فَهْم وذكاء وسياسة. أخْرَبَ خان العقيبة، وعمله جامعاً[1].

قال سبط الجوزيّ: فجلست فيه، وحضَرَ الأشرف وبكَى وأعتق جماعة. وعمل مسجد باب النصر، ودار السعادة، ومسجد أبي الدرداء، وجامع جراح، وداري الحديث بالبلد وبالسفح والدهشة، وجامع بيت الأبار.

---

(١) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: ولا يزال عامراً إلى يومنا هذا، ويسمى جامع التوبة، ويقع شمال الجامع الأموي والمحلة التي فيها المسجد تسمى العقيبة.

[عفة الملوك ومخافتهم من الله]

قال سبط الجوزي: كان الأشرف يحضر مجالسي بحَرّان، وبخِلاط، ودمشق، وكان ملكاً عفيفاً، قال لي: ما مددت عيني إلى حريم أحد ولا ذكر ولا أنثى، جاءتني عجوز من عند بنت صاحب خلاط شاه أرمن بأن الحاجب عليّ[1] أخذ لها ضيعة فكتبتُ بإطلاقها فقالت العجوز: تريد أن تحضر بين يديك. فقلت: بسم الله، فجاءت بها فلم أرَ أحسنَ من قوامها ولا أحسن من شكلها فخَدَمَت فقُمتُ لها، وقلت: أنت في هذا البلد وأنا لا أدري؟ فسفرت عن وجه أضاءت منه الغُرفة، فقلت: لا، استتري. فقالت: مات أبي واستولى على المدينة بكتمر، ثم أخذ الحاجب قريتي، وبقيت أعيش من عَمل النقش وفي دار بالكِراء. فبكيتُ لها، وأمرتُ لها بدار وقماش، فقالت العجوز: يا خَوَند ألا تحظَى الليلة بك؟ فوقع في قلبي تغير الزمان وأن خِلاط يملكها غيري، وتحتاج بنتي أن تقعد هذه القَعْدَة، فقلت: معاذَ الله ما هذا من شيمتي. فقامت الشابة باكية تقول: صان الله عواقِبَكَ.

وحدثني أن غلاماً له مات فخلَّف ابناً كان مليح زمانه، وكنت أُتّهم به، وهو أعزّ مِنْ وَلَد، وبلغ عشرين سنة، فاتفق أنه ضربَ غلاماً له فمات، فاستغاث أولياؤه، فاجتمع عليهم مماليكي، حتى بذلوا لهم مئة ألف فأبوا إلا قتله، فقلت: سَلِّموه إليهم، فسلموه فقتلوه.

وقضيته مشهورةٌ بحَرَّان؛ أتاه أصحاب الشيخ حياة[2] وبَدَّدوا المُسكر من بين يديه، فسكت، وكان يقول: بها نُصرتُ. وقد خلع عليَّ مرةً وأعطاني بغلة وعشرة آلاف درهم.

وحدثني الفقيه محمد اليونيني، قال: حكى لي فقير صالح، قال: لما ماتَ الأشرف رأيته في ثياب خُضر وهو يطير مع الأولياء.

---

(١) هكذا في الأصل المخطوط ومرآة الزمان، وصوابها: «علياً».

(٢) الحراني الصوفي المشهور.

وله شعر فيما قِيل.

قال: وكنتُ أغشاه في مرضه، فقلت له: استعدَّ للقاء الله فما يضر، فقال: لا والله بل ينفع، ففرق البلادَ، وأعتق مماليكَه نحو مئتين، ووقف دارَ السعادة والدهشة على بنته.

وقال ابن واصل: خلَّفَ بنتاً فتزوجها الملكُ الجواد، فلما تَسَلْطَن عَمُّها الصالح فسخَ نِكاحها، ولأنه حلف بطلاقها على شيء فعله، ثم زوَّجها بولده المنصور محمد، فدامت في صحبته إلى اليوم.

[حسن التصرف حين تثور الفتن]

وكان للأشرف ميلٌ إلى المحدثين والحنابلة؛ قال ابن واصل: وقعت فتنة بين الشافعية والحنابلة بسبب العقائد. قال: وتعصَب الشيخ عز الدين بن عبدالسلام على الحنابلة، وجرت خَبْطة، حتى كتب عز الدين رحمه الله إلى الأشرف يقعُ فيهم، وأن الناصح ساعد على فتح باب السلامة لعسكر الظاهر والأفضل عندما حاصروا العادل، فكتب الأشرف: يا عز الدين الفتنة ساكنة لعن الله مُثيرَها، وأما بابُ السلامة فكما قيل:

وجُـــرْم جَـــرَّهُ سُـــفهاءُ قـــومٍ ... فَحَـــلَّ بغـــيرِ جانِيـــهِ العَـــذابُ

وقد تاب الأشرف في مرضه وابتهل، وأكثر الذكر والاستغفار.

قلت: مرض مرضين مختلفين في أعلاهُ وأسفلِه، فقيل: كان الجرائِحي يُخرج من رأسه عِظاماً، وهو يحمَدُ الله.

ولما احتُضِرَ قال لابن موسك: هاتِ وديعي، فجاء بمئزرِ صوف فيه خِرقٌ من آثار المشايخ، وإزار عتيق، فقال: يكون هذا على بَدَني أتقي به النار، وهَبَنِيه إنسانٌ حَبَشيٌّ من الأبدال كان بالرُّها.

وقال ابنُ حمويه: كان به دمامل في رأسه ومَخْرَجِهِ، وتأسَّف الخَلْقُ عليه.

قلتُ: كان يبالغ في تعظيم الشيخ الفقيه[1]، توضأ الفقيه يوماً، فوثب الأشرف، وحَلَّ من تخْفِيْفَتِهِ ورَماها على يدي الشيخ ليُنَشِّف بها، رأى ذلك شيخنا أبو الحسين، وحكاه لي.

مات في رابع المحرم سنة خمس وثلاثين وستة مئة، وكان آخر كلامِهِ «لا إله إلا الله» فيما قيل.

نصر بن عبدالرزاق[2]

ابن شيخ الإسلام عبدالقادر بن أبي صالح، الإمام العالِمُ الأوحَد قاضي القضاة عماد الدين أبو صالح ولد الحافظ الزاهد أبي بكر، الجيليُّ ثم البغدادي الأزجي الحنبلي.

ولد في سنة أربع وستين وخمس مئة في ربيع الآخر.

وجمع «الأربعين» لنفسه، ودرَّس بمدرسة جده وبالمدرسة الشاطئة، وتكلم في الوعظ، وألَّف في التصوف، وولي القضاء للظاهر بأمر الله، وأوائل دولة المستنصر، ثم عُزِلَ.

قال الضياء: هو فقيه كريم النفس خيِّر.

وقال ابن النجار: قرأ الخلاف على أبي محمد بن أبي علي النوقاني الشافعي، وبُنيت له دَكّة بجامع القصر للمناظرة، ووَعَظَ، فكان له قبولٌ تامٌّ، وأُذِنَ له في الدخول على الأمير أبي نصر محمد ابن الناصر في كل جمعة لسماع المُسْنَد بإجازته من الناصر والده فأنس به، فلما استخلف لُقِّبَ بالظاهر فقلَّدَ القضاء أبا صالح سنة اثنتين وعشرين، فسار السيرة الحَسَنة، وسلكَ الطريقة المستقيمة، وأقام ناموس

---

(١) يعني: اليونيني.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٩٦.

الشرع، لم يُحاب أحداً، ولا مَكَّنَ من الصِّياح بين يديه. وكان يمضي إلى الجمعة ماشياً، ويكتب الشهود من دواته في المجلس، فلما استخلف المستنصر أقرَّه أشهراً وعزَلَهُ. وروى الكثير، وكان ثقةً، متحرياً، له في المذهب اليد الطولى، وكان لطيفاً متوضعاً، مزّاحاً كيِّساً.

[كيف تصرف مع ابن كرم لما علم أنه يهودي]

كان مقداماً رجلاً من الرجال، سمعته يقول: كنتُ في دار الوزير القُمِّي، وهناك جماعة، إذ دخل رجل ذو هيئة، فقاموا له وخدموه، فقمتُ وظننته بعض الفقهاء، فقيل: هذا ابن كرم اليهودي عامل دار الضَّرب، فقلت له: تعالَ إلى هنا، فجاء، ووقف، فقلتُ: ويلكَ، توهّمتك فقيهاً فقمتُ إكراماً لكَ، ولست -ويلك- عندي بهذه الصفة، ثم كرَّرتُ ذلك عليه، وهو قائم يقول: الله يحفظك! الله يبقيك! ثم قلتُ له: اخسأ هناكَ بعيداً عنا، فذهبَ.

[عزة العلماء]

قال: وحدثني أبو صالح أنه رُسِمَ له برزق من الخليفة، وأنه زار يومئذ قبر الإمام أحمد، فقيل لي: دُفِعَ رَسْمُك إلى ابن توما النصراني، فامضِ إليه فخذه، فقلت: والله لا أمضي ولا أطلبه. فبقي ذلك الذهب عنده إلى أن قُتِلَ إلى لعنة الله في السنة الأخرى، وأُخِذَ الذهب من داره، فنفذ إليَّ.

توفي أبو صالح في سادس عشر شوال سنة ثلاث وثلاثين وست مئة، ودُفن عند أحمد بن حنبل، فقيل: إنه دُفن معه في قبره، فَعَلَ ذلك الرَّعاع، فقُبِضَ على من فعل ذلك وعوقب وحُبس، ثم نُبش أبو صالح ليلاً بعد أيام ودفن رحمه الله وحده.

[مولع في تحصيل الكتب]

أبو القاسم عبدالكريم بن علي اللخمي ابن البياني أخو القاضي الفاضل.

قال الموفق عبداللطيف: كان له هَوَسٌ مفرط في تحصيل الكتب كان عنده زُهاء مئتي ألف كتاب، من كل كتاب نسخ[1].

[من علماء السوء]

الغزنوي

الواعظ أبو الفتح أحمد بن علي بن الحسين الغزنوي[2] ثم البغدادي.

وُلد سنة ٥٣٢.

قال ابنُ الدُّبيثي: لم يحب الرواية لميله إلى غير ذلك وشنآنه، ولم يكن محمود الطريقة.

وقال ابن النجار: كان فاسد العقيدة يعظ وينالُ من الصحابة، شاخَ وافتقر وهجرَهُ الناسُ، وكان ضجوراً عَسِراً مُبغِضاً لأهل الحديث، انفرد برواية «جامع الترمذي» و«بمعرفة الصحابة» لابن مَنْدَة، وكان يُسمِّع بالأجرة.

وقال ابن نُقطة: هو مشهورٌ بين العَوام برذائل ونقائص من شرب ورفض، ثم سئل وأنا أسمع عمَّن يقول: القرآن مخلوق، فقال: كافر، وعمن يسبُّ الصحابة، فقال: كافر، وعمن يستحل شرب الخمر -وقيل: إنهم يعنونكَ بذلك-، فقال: أنا بريء من ذلك، وكتب خطه بالبراءة.

قلت: لعله تابَ وارعوَى.

توفي في رمضان سنة ثماني عشرة وست مئة.

---

(١) تاريخ الإسلام ٤٢/ ٢٥٠، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٤٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٠٣.

الكندي[1]

الشيخ الإمام العلاّمة المُفتي، شيخ الحنفية، وشيخ العربية، وشيخ القراءات، ومسند الشام، تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة بن حمير الكِنديُّ البغدادي المقرئ النحوي اللغوي الحنفي.

وُلد في شعبان سنة عشرين وخمس مئة.

وحفظ القرآن وهو صغير مُميِّز، وقرأه بالروايات العشر، وله عشرة أعوام، وهذا شيء ما تهيأ لأحد قبله، ثم عاش حتى انتهى إليه علو الإسناد في القراءات والحديث؛ فتلا على أستاذه ومعلِّمه أبي محمد سِبط الخياط، ثم قرأ على أقوام، فصار في درجة سِبط الخياط في بعض الطرق، فتلا بـ «الكفاية في القراءات الست» على المُعَمَّر هبة الله بن أحمد بن الطَّبَر من تلامذة أبي بكر محمد بن علي بن موسى الخَيّاط، وتلا بـ «المفتاح» على مؤلفه ابن خيرون، وتلا بالسبع على خطيب المُحَوَّل محمد بن إبراهيم، وأبي الفضل بن المهتدي بالله.

وقرأ النحو على أبي السعادات ابن الشَّجَرِيّ، وسِبط الخياط، وابن الخشّاب. وأخذ اللغة عن أبي منصور ابن الجواليقي. وسمع بدمشق من عبدالرحمن بن عبدالله ابن أبي الحديد، وتفرَّد بالرواية عن غالب شيوخه، وأجاز له عدد كثير، وتردد إلى البلاد، وإلى مصر والشام، يتَّجر، ثم استوطن دمشق ورأى عِزّا وجاهاً، وكَثُرت أموالُه، ازدحم عليه الفضلاء، وعُمِّر دهراً. وكان حنبلياً، فانتقل حنَفياً، وبرع في الفقه، وفي النحو، وأفتى ودرَّس وصنَّف، وله النظم والنثر، وكان صحيح السماع، ثقةً في نقلِهِ، ظريفاً، كَيِّساً، ذا دعابة، وانطباع.

قرأ عليه بالروايات علم الدين السخاوي، ولم يسندها عنه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٤.

قال ابن النجار: أسلَمَهُ أبوهُ في صِغَرِهِ إلى سِبْط الخياط، فلقَّنَهُ القرآن، وجوَّد عليه، ثم حفَّظَهُ القراءات له عشر سنين، قال: وسافر عن بغداد سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة، فأقام بهمذان سنين يتفقه على مذهب أبي حنيفة على سعد الرازي بمدرسة السلطان طُغرل، ثم إنَّ أباه حج سنة أربع وأربعين، فماتَ في الطريق، فعاد أبو اليُمن إلى بغداد، ثم توجه إلى الشام، واستوزره فرُّوخشاه ثم بعده اتصل بأخيه تقي الدين عمر، واختص به، وكثرت أمواله، وكان الملك المعظّم يقرأُ عليه الأدب، ويقصده في منزله ويُعظِّمه. قرأتُ عليه كثيراً، وكان يصلني بالنفقة، ما رأيتُ شيخاً أكمل منه عقلاً ونبلاً وثقةً وصِدقاً وتحقيقاً ورزانةً مع دماثة أخلاقه، وكان بهياً وقوراً، أشبه بالوزراء من العلماء؛ لجلالته وعلو منزلته، وكان أعلم أهل زمانه بالنحو، أظنه يحفظ «كتاب سيبويه». ما دخلت عليه قط إلا وهو في يده يطالعه، وكان في مجلد واحد رفيع يقرؤه بلا كُلْفة، وقد بلغ التسعين، وكان قد مُتِّع بسمعِهِ وبصرِهِ وقوّتِهِ، وكان مليح الصورة، ظريفاً، إذا تكلَّم ازداد حلاوةً، وله النظم والنثر والبلاغة الكاملة. إلى أن قال: توفي وحضرتُ الصلاة عليه.

قلتُ: كان يروي كتباً كباراً من كتب العلم، وروى عنه «كتاب سيبويه» علمُ الدين القاسم.

قال أبو شامة: ورد مصر، وكان أوحد الدهر فريد العصر، فاشتمل عليه عز الدين فَرُّوخشاه، ثم ابنه الأمجد، وتردد إليه بدمشق الملك الأفضل، وأخوه المحسِن وابن عمه المُعَظَّم.

قال ضياء الدين ابن أبي الحجاج الكاتب عن الكندي، قال: كنتُ في مجلس القاضي الفاضل، فدخل عليه فَرُّوخشاه، فجرى ذكر شرح بيت من ديوان المتنبي، فذكرت شيئاً فأعجبه، فسأل القاضي عني، فقال: هذا العلامة تاج الدين الكِنْديّ، فنهض وأخذني معه، ودامَ اتصالي به. قال: وكان المُعَظَّم يقرأ عليه دائماً، قرأ عليه «كتاب سيبويه» نصّاً وشرحاً، وكتاب «الحماسة» وكتاب «الإيضاح» وشيئاً كثيراً، وكان يأتيه ماشياً من القلعة إلى درب العَجَم والمجلد تحت إبْطه.

ونقل ابن خَلِّكان أن الكنديّ قال: كنتُ قاعداً على باب ابن الخَشَّاب، وقد خرج من عنده الزمخشري، وهو يمشي في جاون خشب، سقطت رجله من الثلج.

قال ابن نُقطة: كان الكِنديُّ مُكْرِماً للغرباء، حَسَن الأخلاق، وكان من أبناء الدنيا المشتغلين بها، وبإيثار مجالسة أهلها، وكان ثقةً في الحديث والقراءات -سامحه الله-[1].

وقال الشيخ المُوَفَّق[2]: كان الكِنديّ إماماً في القراءة والعربية، وانتهى إليه عُلُوُّ الإسناد، وانتقل إلى مذهبه لأجل الدنيا[3]، إلا أنه كان على السنَّة، وصَّى إليَّ بالصلاة عليه، والوقوف على دفنه، ففعلتُ.

وقال القِفْطيّ: آخر ما كان الكندي ببغداد في سنة ثلاث وستين وخمس مئة. وسكنَ حلب مُدَّةً، وصحب بها الأمير حسن ابن الداية النوري والِيها. وكان يبتاع الخليع[4] من الملبوس ويتجر به إلى الروم. ثم نزل دمشق، وسافر مع فَرُّوخشاه إلى مصر، واقتنى من كتب خزائنها عندما أُبيعَتْ. إلى أن قال: وكان لَيِّناً في الرواية، مُعجباً بنفسه فيما يذكره ويرويه، وإذا نُوظِرَ جَبَهَ بالقبيح، ولم يكن موفَّقَ القلم، رأيتُ له أشياء باردة، واشتهر عنه أنه لم يكن صحيح العقيدة.

قلت: ما علمنا إلا خيراً، وكان يحبُّ الله ورسوله وأهلَ الخير.

قال الأنماطيُّ: توفي الكندي يوم الاثنين سادس شوال سنة ثلاث عشرة وست مئة، وأَمَّهم عليه قاضي القضاة جمال الدين ابن الحَرَستانيّ، ثم أمَّهم بظاهر

---

(١) سامحه الله بسبب مجالسته لأهل الدنيا وإيثارهم.

(٢) موفق الدين ابن قُدامة المقدسي المتوفى سنة ٦٢٠.

(٣) يعني إلى مذهب الحنفية، ولم يثبت أنه انتقل إليه لأجل الدنيا فقد مرّ أنه درسَهُ في أول شبيبته بهمذان مدة سنين على سعدٍ الرازي بمدرسة السلطان طغرل، فكأنه رآه الأحق بالاتباع، وكل إنسان يرى ما يرى وما وراء ذلك إن شاء الله إلا حسن إسلام، فكان ماذا؟

(٤) الخليع من الثياب: الخلق القديم.

باب الفراديس: شيخ الحنفية جمال الدين الحصيري، ثم أَمَّ بالجبل: موفق الدين شيخ الحنبلية، وشَيَّعه الخَلْق، ودفن بتربة له، وعقد له العزاء تحت النّسر - يعني قبّة النسر بجامع دمشق الأموي - يومين.

ابن الدهّان[1]

العلاّمة وجيه الدين أبو بكر المبارك بن المبارك بن أبي الأزهر سعيد بن أبي السعادات الواسطيُّ النحوي الضرير.

حفظ القرآن، وتلا بالروايات على جماعة.

وقَدِمَ بغداد شاباً، فسمع من أبي زُرْعَة المقدسي، ويحيى بن ثابت، وأحمد بن المبارك المُرَقّعاتي، وأبي محمد ابن الخَشّاب، ولزمه في العربية.

قال ابن النجار: قرأ الأدبَ على أبي سعيد نصر بن محمد المُؤدِّب، وقَدِمَ بغدادَ مع والده، فسكنها، وقرأ الأدب على ابن الخشّاب، وقرأ جملة من كتب النحو واللغة على أبي البركات الأنباري من حفظه، وذكر لي أنه قرأ نصف «كتاب سيبويه» من حفظه عليه أيضاً، وأنه كان يحفظ في كل يوم كُراساً في النحو ويفهمه ويُطارح فيه، حتى برع، وكان يتردد إلى منازل الصدور لإقراء الأدب، كان شديد الذكاء، ثاقب الفهم، وكثير المحفوظ، مضطلعاً بعلوم كثيرة: النحو، واللغة، والتصريف، والعَروض، ومعاني الشعر، والتفسير، ويعرف الفقه والطب وعلم النجوم وعلوم الأوائل.

قلت: لو جهل هذين العلمين لسَعِد.

[أديب ويتقن عدة لغات]

قال: وله النظمُ والنثرُ، وينشئ الخطب والرسائل بلا كُلفة ولا رَوِيَّة، ويتكلم بالتركية والفارسية والرومية والأرمنية والحبشية والهندية والزنجية بكلام فصيح

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٨٦.

عند أهل ذلك اللسان. وكان حليماً بطيء الغضب، متواضعاً، ديِّناً، صالحاً، كثير الصدقة، متفقداً للفقراء والطلبة؛ تفقه أولاً لأبي حنيفة، ثم تحوَّل شافعياً بعد علو سِنِّه، وولي تدريس النحو بالنظامية، إلى أن مات، قرأتُ عليه كثيراً، وهو أول من فتح فمي بالعلم، لأن أُمّي أسلمتني إليه ولي عشر سنين، فكنتُ أقرأُ عليه القرآن والفقه والنحو، وأُطالع له ليلاً ونهاراً، وإذا مشى، كنتُ آخذاً بيده، وكان ثقةً نبيلاً، أنشدني لنفسه:

أيها المغرور بالدنيا انتبِه ... إنها حالٌ ستفنى وتَحُولُ

واجْتَهِدْ في نَيْلِ مُلْكٍ دائِمٍ ... أيُّ خَيْرٍ في نَعيمٍ سَيَزُولُ

لَوْ عَقلنا ما ضَحِكْنَا لَحْظَةً ... غَيْرَ أَنَّا فُقِدَتْ مِنَّا العُقولُ

قال: مولده في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وخمس مئة[1]، ومات في شعبان[2] سنة اثنتي عشرة وست مئة وكنتُ بنيسابور.

ابن الجوزي[3]

الشيخ الفاضل المُسْنِدُ بدر الدين أبو القاسم علي ابن الشيخ الإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي ابن الجوزي البَكْري البغدادي الناسخ.

وُلد في رمضان سنة إحدى وخمسين وخمس مئة.

وسمع من أبي الفتح بن البَطِّي، ويحيى بن ثابت، وأبي زُرْعَة، وأحمد بن المُقَرَّب، والوزير ابن هُبيرة، وشُهْدَة، وعَمِلَ الوعظ وَقْتاً، ثم تَرَكَ. وكان كثير

---

(١) هذا قول ابن النجار، أما المنذري فقال: مولده بواسط في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة. وقد سقطت كلمة «ثلاثين» من إرشاد ياقوت ونكت الهميان للصفدي فصار مولده فيهما سنة ٥٠٢.

(٢) في ليلة السادس والعشرين منه، على ما ذكره المنذري.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٥٢.

النوادر، حلو الدعابة، لزم البطالة والنذالة مدة، ثم لزم النسخ، وليس خطه جيداً، وكان مُتَعَفِّفاً يخدم نفسه، وينال من أبيه، وربما غَلَّ[1] من كتبه.

حدَّث عنه السيف، والعز عبدالرحمن الحافظ[2]، والتقي ابن الواسطي، والكمال علي بن وَضّاح، وأبو الفرج ابن الزَّين، وأبو العباس الفاروثيُّ، وشمس الدين محمد ابن هُبيرة نزيلُ بِلْبِيْس، وبالإجازة أبو نصر ابن الشيرازي، والقاضي الحنبلي.

قال ابن نُقْطة:

هو صحيح السَّماع، ثقة، كثير المحفوظ، حَسَن الإيراد، سمع «صحيح الإسماعيلي» من يحيى بن ثابت.

[ميله إلى اللهو وقلة تدينه]

وقال ابن النجار: وَعَظَ في صباه، وكان كثير المَيْلِ إلى اللهو والخلاعة، فترك الوعظ واشتغل بما لا يجوز، وصاحب المُفْسِدين. سمعتُ أباه يقول: إني لأدعو عليه كل ليلة وقت السَّحَر. ولم يزل على طريقته إلى آخر عمره، وكان لا يقبل صِلَة، ويكتب في اليوم عشرة كراريس وهو قليل المعرفة.

قلتُ: مات في سَلْخ رمضان سنة ثلاثين وست مئة.

أبو الفرج ابن الجوزي[3]

الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسِّر، شيخ الإسلام، مفخرُ العراق، جمال الدين، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبدالله بن حمَّاديٍّ بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبدالله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن

---

(١) أي: سَرَقَ.

(٢) يعني: عز الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالغني المقدسي.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦٥.

محمد بن عبدالله ابن الفقيه عبدالرحمن بن الفقيه القاسم بن محمد بن خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق، القرشي التيميُّ البكري البغدادي، الحنبلي، الواعظ، صاحب التصاينف.

وُلد سنع تسعٍ أو عشرٍ وخمس مئةٍ.
وأول شيءٍ سمع في سنة ست عشرة.

ولم يرحل في الحديث، لكنه عنده «مسند الإمام أحمد» و«الطبقات» لابن سعد، و«تاريخ الخطيب»، وأشياء عالية، و«الصحيحان»، والسنن الأربعة، و«الحِلْية» وعدة تواليف وأجزاء يُخرِّج منها.

وتوفي ليلة الجمعة بين العشاءين الثالث عشر من رمضان سنة سبعٍ وتسعين وخمس مئةٍ في داره بقَطُفْتا. وحكتْ لي أمي أنها سمعته يقولُ قبل موته: أيش اعمل بطواويس؟ يردِّدُها، قد جبتُم لي هذه الطواويس.

وحضر غسلَهُ شيخُنا ابنُ سُكَيْنَة وقت السَّحَر، وغُلِّقَت الأسواقُ، وجاء الخلقُ، وصلَّى عليه ابنُه أبو القاسم عليٌّ اتفاقاً، لأن الأعيان لم يقدروا من الوصول إليه، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور، فصلّوا عليه، وضاقَ بالناس، وكان يوماً مشهوداً، فلم يصل إلى حفرتِه بمقبرة أحمد إلى وقت صلاة الجمعة، وكان في تموز، وأفطَرَ خلقٌ، ورَموا نفوسَهُم في الماء. إلى أن قال: وما وصل إلى حفرتِه من الكفنِ إلا قليلٌ، كذا قال، والعهدةُ عليه، وأُنزِلَ في الحفرة، والمؤذِّنُ يقول الله أكبَرُ.

قال السيف: سمعت ابن نقطة يقول: قيل لابن الأخضر ألا تجيب عن بعض أوهام ابن الجوزي؟ قال: إنما يُتَتَبَّعُ على من قل غلطه، فأما هذا، فأوهامه كثيرة.

ثم قال السيفُ: ما رأيتُ أحداً يُعتَمَدُ في دينِه وعلمِه وعقلِه راضياً عنه.

قلتُ: إذا رضي الله عنه، فلا اعتبارَ بهم.

قال: وقال جدي[1]: كان أبو المُظفَّر ابن حمدي يُنكر على أبي الفرج كثيراً كلماتٍ يُخالف فيها السنَّة.

قال السيفُ: وعاتَبَه أبو الفتح ابن المَنِّي في أشياء، ولما بانَ تخليطُهُ أخيراً، رجع عنه أعيان أصحابنا وأصحابُهُ.

وكان أبو إسحاق العَلْثِيّ يُكاتِبُه، ويُنكر عليه.

أنبأني أبو معتوق محفوظ بنُ معتوق ابن البُزُوريِّ في «تاريخه» في ترجمة ابن الجوزي يقول: فأصبح في مذهبه إماماً يُشارُ إليه، ويعقد الخنصرُ في وقته عليه، درَّس بمدرسة ابن الشمحل[2]، وبمدرسة الجهة ببنفشا[3]، وبمدرسة الشيخ عبدالقادر[4]، وبَنى لنفسِهِ مدرسةً بدرب دينار[5]، ووقف عليها كتبَه، برع في العلوم، وتفرَّد بالمنثور والمنظوم، وفاقَ على أدباء مصرِهِ، وعلا على فضلاء عصره، تصانيفه تزيد على ثلاث مئةٍ وأربعين مصنَّفاً ما بين عشرين مجلداً إلى كرَّاسٍ، وما أظن الزمان يسمح بمثله، وله كتاب «المنتظم»، وكتابنا ذيلٌ عليه.

---

(١) يعني جد السيف ابن المجد، وهو موفق الدين عبدالله بن أحمد المقدسي العلاّمة المشهور.

(٢) قال ابن الجوزي في ترجمة أبي حكيم إبراهيم بن دينار النهرواني من «المنتظم» (١٠/ ٢٠١): «وأعطى المدرسة التي بناها ابن الشمحل بالمأمونية وأعدت درسه فبقي نحو شهرين فيها وسلمت بعده إليّ فجلست فيها للتدريس، وله مدرسة بباب الأزج كان مقيماً بها فلما احتضر أسندها إليّ» وتوفي أبو حكيم هذا سنة ٥٥٦ كما هو مشهور.

(٣) ابتدأ التدريس بها في يوم الخميس الخامس والعشرين من شعبان سنة ٥٧٠ (انظر التفاصيل في: «المنتظم»: ١٠/ ٢٥٢-٢٥٣. و«بنفشا» هذه هي حظية الخليفة المستضيء وتكتب أيضاً «بنفشة».

(٤) تسلمها ابن الجوزي بعد حرق كتب عبدالسلام ابن الشيخ عبدالقادر على عهد الوزير ابن يونس، وهي قصة مشهورة.

(٥) درس فيها في الثالث من محرم سنة ٥٧٠ («المنتظم»: ١٠/ ٢٥٠).

[أخذ ابنه مصنفاته وباعها]

قال سبطُه أبو المُظَفَّر[1]: خلَّف من الولد عليّاً، وهو الذي أخذ مصنفات والده، وباعَها بيعَ العبيد، ولِمَنْ يزيدُ، ولما أُحدِرَ والدُه إلى واسط، تحيَل على الكتب بالليل، وأخذ منها ما أرادَ، وباعها ولا بثمن المداد، وكان أبوه قد هجره منذ سنين، فلما امتُحن، صار ألَباً عليه[2]. وخلَّف يوسف محيي الدين، فولي حسبةَ بغداد في سنة أربع وستٍّ مئةٍ، وترسل عن الخلفاء إلى أن وليَ في سنة أربعين أستاذ دارية الخلافة[3]. وكان لجدِّي ولدٌ أكبر أولادِهِ اسمه عبدالعزيز، سمَّعه من الأُرْمَويّ وابن ناصر، ثم سافر إلى الموصل، فوعظ بها، وبها مات شابّاً[4]، وكان له بناتٌ: رابعةُ أُمِّي، وشَرَفُ النساء، وزينبُ، وجوهرةُ، وستُّ العلماءِ الصغيرة.

[شيخ عاميّ بليد عريّ من العلم]

عبداللطيف[5]

ابنُ أبي البركات إسماعيل بن الشيخ أبي سَعْدٍ محمد بن دوست شيخ الشيوخ، أبو الحسن النيسابوري الأصل البغدادي الصوفي، أخو شيخ الشيوخ صدر الدين عبدالرحيم الذي مات بالرَّحبةِ.

كان أبو الحسن شيخاً عاميّاً بليداً عَرِيّاً من العلم.

---

(١) «المرآة»: ٨/ ٥٠٢-٥٠٣.

(٢) ومات سنة ٦٣٠ كما ذكر المؤرخون.

(٣) قتله هولاكو صبراً عند احتلاله بغداد وتدميره لها سنة ٦٥٦.

(٤) سنة ٥٥٤.

(٥) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٣٤.

وتَمَشْيَخَ برباط جدِّه بعد أخيه في سنة ثمانين وخمس مئة، وقد حجَّ، وركب البحر، وقدم مصر وبيت المقدس زائراً ودمشق. وحدَّث، فأدركتهُ المنيّةُ بدمشق في رابع عشر ذي الحجة سنة ستٍّ وتسعين وخمس مئةٍ، وله ثلاثٌ وسبعون سنة.

قال ابنُ الدُّبَيْثِيِّ: كان بليداً لا يفهمُ، قال مرةً فيما بلغني لِمَن قَصَدَهُ في سماع جزءٍ: امضِ به إلى ابن سُكَيْنَةَ يُسمِعْك عني، فإني مشغول.

[القوة في الدين]

الخَبُوشاني[1]

الفقيه الكبير، الزاهد، نجم الدين، أبو البركات محمد بن موفَّق بن سعيد، الخَبُوشانيُّ، الشافعي، الصوفي.

تفقَّه على محمد بن يحيى، وبرع.

قال ابنُ خَلِّكان: فكان يستحضر كتابه «المحيط» وهو ستة عشر مجلَّداً.

وقال المنذري: وُلد سنة عشرٍ وخمس مئة، وحدَّث عن هبة الرحمن بن القُشَيْرِيّ. وقدِمَ مصر فأقام بمسجد مدةً، ثم بتربة الشافعي، وتبتَّلَ لإنشائها ودرَّس بها، وأفتى وصنَّف. وخُبُوشان من قرى نيسابور.

قال ابنُ خَلِّكان[2]: كان السلطان صلاح الدين يُقرِّبُهُ، ويعتقدُ فيه، ورأيتُ جماعةً من أصحابه، فكانوا يصِفون فضلَهُ ودينَهُ وسلامة باطنِه.

وقال الموفَّقُ عبداللطيف: سكن السُّمَيْساطية، وعرف الأمير نجم الدين أيوب، وأخاه، وكان قشفاً في العيش، يابساً في الدين، وكان يقول: أصعدُ إلى مصر،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٠٤.

(٢) وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٠.

وأزيل ملك بني عُبيد اليهودي، إلى أن قال: فنزل بالقاهرة، وصرَّح بثلب أهل القصر، وجعل سبَّهم تسبيحَهُ، فحاروا فيه، فنفذوا إليه بمالٍ عظيم قيل: أربعة آلاف دينار، فقال للرسول: ويلَكَ، ما هذه البدعة! فأعجلَهُ، فرمى الذهب بين يديه، فضربه، وصارت عمامته حِلَقاً، وأنزله من السلم[1]. ومات العاضد، وتهيَّبوا الخطبة لبني العباس، فوقف الخُبُوشانيُّ بعصاهُ قُدَّام المنبر، وأمر الخطيبَ بذلك، ففعل، ولم يكن إلا الخيرُ، وزُيِّنَتْ بغداد. ولما بَنَى مكانَ الشافعي، نَبَشَ عظام ابن الكِيْزانيّ، وقال: لا يكون صِدِّيقٌ وزنديقٌ معاً، فشَدَّ الحنابلة عليه، وتألَّبوا، وصار بينهم حملاتٌ حربية وغَلَبَهم.

وجاء العزيز[2] إلى زيارته وصافحه، فطلب ماءً، وغسل يده، وقال: يا ولدي إنك تمسُّ العنان، ولا يتوقّى الغلمان، قال: فاغسلْ وجْهَكَ، فإنكَ مسَحْتَ وجْهَكَ. قال: نعم، وغَسَلَهُ.

وكان أصحابه يأكلون بسببه الدنيا، ولا يسمعُ فيهم، وهم عنده معصومون.

وكان متى رأى ذِمياً راكباً، قَصَدَ قتْلَهُ، فظَفَرَ بواحدٍ طبيب يُعرفُ بابن شوعة، فأندر عينه بعصاه، فذهبت هدراً.

وقيل: التمس من السلطان إسقاط ضرائب لا يمكن إسقاطها، وساء خلقُه، فقال: قمْ لا نَصَرِكَ اللهُ! وَوَكَزَهُ بعصاه، فوقعتْ قلنسوته، فوجم لذلك، ثم حضر وقْعَةً، فكُسِر، فظنَّ أنه بدعائه، فجاء وقبَّلَ يديه، وسأله العفو.

وجاءه حاجب نائب مصر المظفَّر تقي الدين عُمَرَ، وقال له: تقي الدين يُسلِّمُ عليكَ. فقال الخُبُوشاني قل: بل شقيُّ الدين لا سلَّم الله عليه، قال: إنه يعتذر، ويقول: ليس له موضعٌ لبيع المِزْرِ. قال: يكذبُ. قال: إن كان ثَمَّ مكانٌ، فأرِناه. قال:

---

(١) في طبقات السبكي ٧/ ١٥: وأنزله من السلم وهو يرمي بالدنانير على رأسه ويسب أهل القصر.

(٢) يعني الملك العزيز.

ادْنُ. فدنا، فأمسكَ بشعرِهِ، وجعل يلطمُ على رأسه، ويقول: لستُ مَزّاراً فأعرف مواضع المِزْرِ، فخلَّصوه منه.

وعاش عُمُرَهُ لم يأخذ درهماً لَملكٍ ولا من وقْفٍ، ودفنَ في الكساء الذي صحبه من بلده، وكان يأكل من تاجرٍ صحِبَهُ من بلده.

وأتاه القاضي الفاضل لزيارة الشافعي، فرآه يُلقي الدرس، فجلس وجَنْبُه إلى القبر، فصاح: قُمْ قُمْ، ظهرُك إلى الإمام؟! فقال: إنْ كنتُ مستدبرَهُ بقالبي، فأنا مستقبلُه بقلبي. فصاح فيه، وقال: ما تُعُبِّدْنا بهذا، فخرج وهو لا يعقل.

قلتُ: مات الخَبوشاني في ذي القعدة سنة سبعٍ وثمانين وخمس مئة.

[عالم على منهج السلف]

عبدالرّزّاق

ابنُ شيخ الإسلام عبدالقادر بن أبي صالح[1]، الشيخ الإمام المُحدِّثُ

أبو بكر الجِيْليُّ ثم البغدادي الحنبلي الزاهد

وُلد سنة ثمانٍ وعشرين وخمس مئة.

ويقال له: الحَلْبيُّ، نسبةً إلى محلة الحَلْبة[2].

وقال الضياءُ: لم أرَ ببغداد في تيقُّظه وتحَرّيه مثله.

وقال أبو شامة: كان زاهداً عابداً ثقةً مُقْتَنِعاً باليسير.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٢٦.

(٢) بالجانب الشرقي من بغداد.

وقال ابنُ النَّجار: كتبَ لنفسه كثيراً وكان خطُّه رديئاً. قال: وكان حافظاً، مُتْقِناً، ثقةً حَسَن المعرفة، فقيهاً، وَرِعاً، كثير العبادة مُنْقَطِعاً في منزله لا يخرج إلا إلى الجمعة، وكان محباً للرواية مُكْرِماً للطلبة سَخِيّاً بالفائدة ذا مروءة مع قلة ذات يده، صابراً على فَقره على منهاج السَّلَف، وكانت جنازته مشهودة، وحُمِل على الرؤوس رحمه الله.

مات في شوال في سادسه سنة ثلاث وست مئة.

حنبل[1]

ابن عبدالله بن فَرَج بن سعادة، بقية المُسْنِدِين أبو علي وأبو عبدالله الواسِطيُّ ثم البغداديُّ الرصافي المُكَبِّر، راوي «المسند»[2] كُلِّه عن هبة الله ابن الحُصَيْن، وسماعه له بقراءة ابن الخشّاب في سنة ثلاث وعشرين وخمس مئة.

قال أبو شامة: كان فقيراً جداً، روى «المسند» بإربل وبالموصل ودمشق، وكان يمرض بالتخم، كان السلطان يعمل له الألوان.

[وقف أبوه نفسه على مصالح المسلمين]

وقال ابن الأنماطيِّ: كان أبوه قد وَقَفَ نفسَهُ على مصالح المسلمين، والمشي في قضاء حوائجهم، وكان أكثر همّه تجهيز الموتى على الطرق.

[حسن توجيه العلماء]

قال ابن نقطة: حدثنا أبو الطاهر ابن الأنماطي بدمشق، قال: حدثني حنبل بن عبدالله قال: لما وُلدتُ، مضى أبي إلى الشيخ عبدالقادر الجيليِّ، وقال له: قد ولد لي ابن

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٣١.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

ما أُسميه؟ قال: سَمِّه حنبل، وإذا كَبِرَ سَمِّعه «مسند» أحمد بن حنبل، قال: فسماني كما أمره، فلما كبرت سَمَّعني «المسند»، وكان هذا من بركة مشورة الشيخ.

قال ابن الدُّبَيْثي: كان دلاّلاً في بيع الأملاك، سُئل عن مولده فذكر ما يدل على أنه في سنة عشر وخمس مئة أو إحدى عشرة، إلى أن قال: وتوفي بعد عوده من الشام في ليلة الجمعة رابع محرم سنة أربع وست مئة.

[الإخلاص]

قال ابن الأنماطيّ: سمعتُ منه جميع «المسند» ببغداد أكثره بقراءتي عليه، في نيِّف وعشرين مجلساً، ولما فرغت أخذت أُرَغِّبه في السَّفَر إلى الشام فقلت: يحصل لكَ مال ويقبل عليك وجوه الناس ورؤساؤهم، فقال: دعني؛ فوالله ما أسافر لأجلهم، ولا لما يَحْصَل منهم، وإنما أُسافر خِدْمَة لرسول الله ﷺ أروي أحاديثه في بلد لا تُروى فيه.

قال ابن الأنماطيّ: اجتمع له جماعة لا نعلمها اجتمعت في مجلس سماع قبل هذا بدمشق، بل لم يجتمع مثلها لأحد ممن روى «المسند».

قلتُ: أسمعه مرة بالبلد ومرة بالجامع المُظَفريّ.

الطالقاني(1)

الشيخ الإمام، العلاّمةُ، الواعظ، ذو الفنون، رضيُّ الدين، أبو الخير أحمدُ بن إسماعيل بن يوسف الطالْقانيُّ القزويني الشافعيُّ.

مولده بقَزْوين في سنة اثنتي عشرة وخمس مئة.

ودرَّس بقزوين وببغداد.

وسمع من ابن البَطِّيّ. ووعظ، ونَفَقَ سوقُهُ، ثم درَّس بالنظامية.

---

(1) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٩٠.

قال ابن النجار: كان إماماً في المذهب والأصول والتفسير والخلاف والتذكير، وحدَّث بـ «صحيح مسلم»، و«مسند ابن راهويه»، و«تاريخ الحاكم»، و«السنن الكبير»، و«دلائل النبوة»، و«البعث والنشور» للبيهقي، وأملَى مجالس، ووعظ، وأقبلوا عليه لحُسْن سَمْتِهِ، وحلاوة منْطِقِه، وكثرة محفوظاته، وكثُر التعصُّب له من الأمراء والخواص، وأحبَّه العَوَامُّ، وكان يجلس بجامع القصر، وبالنظامية، وتحْضُرُهُ أُمَمٌ، ثم عاد سنة ثمانين إلى بلده. وكان كثير العبادة والصلاة، دائم الذكر، قليل المأكل، يشتمل مجلسُه على التفسير والحديث والفقه وحكايات الصالحين بلا سجعٍ ولا تزويقٍ ولا شعر. وهو ثقةٌ في روايته، وقيلَ: كان يختم كل يومٍ مع دوام الصومِ ويُفْطِرُ على قرصٍ واحد.

وقال ابنُ الدُّبَيْثي: أملَى عدة مجالس، وكان مُقْبِلاً على الخير، كثير الصلاة، له يدٌ باسطةٌ في النظر، واطلاعٌ على العلوم، ومعرفةٌ بالحديث، كان جَمَّاعةً للفنون رحمه الله، ردَّ إلى بلده، فأقام مشتغلاً بالعبادة إلى أن توفِّيَ في المحرم سنة تسعين وخمس مئة.

وقال الحافظ عبدالعظيم: حكى غيرُ واحدٍ أنه كان لا يزال لسانه رَطْباً من ذكر الله. مات في الثالث والعشرين من المحرَّم.

وأنبأنا محفوظ ابنُ البُزُوريِّ في «تاريخه»، قال: أبو الخير، هو أول من وَعَظَ بباب بدر الشريف.

قلتُ: هذا موضعٌ كان ربما حَضَرَ فيه وعْظَهُ الخليفة المستضيء من وراء السِّتْرِ، وتحْضُرُ الأمم، فكان هو يَعِظُ مرةً وابن الجوزيِّ مرةً.

حدَّث عنه: أبو البقاء إسماعيل بن محمدٍ المؤدب، والموَفَّق عبداللطيف، وبالغ في تعظيمه، وأبو عبدالله ابنُ الدُّبَيْثِيِّ، ومحمد بن علي بن أبي السَّهْلِ، وآخرون.

[قوَّته في الدين]

قال الموَفَّقُ: كان يعملُ في اليوم والليل ما يعجزُ المجتهدُ عنه في شهرٍ، وظهرَ التشيُّعُ في زمانه بسبب ابن الصاحب، فالتمسَ العامُ منه على المنبر يوم عاشوراء أن

يلعنَ يزيد، فامتنع، فهمُّوا بقتله مراتٍ، فلم يُرَعْ، ولا زَلَّ، وسارَ إلى قزوينَ، وضَجَعَ[1] لهم ابنُ الجوزي.

[من العلماء العميان]

[١ - سيد القراء الشاطبي[2]]

الشيخ الإمام، العالم العامل، القدوة، سيد القراء، أبو محمد، وأبو القاسم القاسمُ بنُ فِيْرُّه[3] بن خلف بن أحمد الرُّعَيْنيُّ، الأندلسي، الشاطبي، الضرير، ناظم «الشاطبية» و«الرائية».

مَن كَنَّاه أبا القاسم كالسخاوي وغيره، لم يجعل له اسماً سواها. والأكثرون على أنه أبو محمدٍ القاسم.

وذكره أبو عمرو بن الصلاح في «طبقات الشافعية».

وُلد سنة ثمانٍ وثلاثين وخمس مئة.

وتلا ببلده بالسبع على أبي عبدالله بن أبي العاص النَّفْزِيّ، ورَحَلَ إلى بلنسية، فقرأ القراءات على أبي الحَسَن بن هُذَيْلٍ، وعَرَضَ عليه «التيسير»، وسمع منه الكتب، ومن أبي الحسن ابن النِّعْمَة، وأبي عبدالله بن سعادة، وأبي محمد بن عاشرٍ، وأبي عبدالله بن عبدالرحيم، وعليم بن عبدالعزيز. وارتحل للحج، فسمع من أبي طاهرٍ السِّلفي، وغيره.

---

(١) أي مال إليهم ووافقتهم، وهذه عادة ابن الجوزي -سامحه الله-.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٦١.

(٣) قيده الذهبي والصفدي وابن خلكان والسبكي وغيرهم، قالوا: بكسر الفاء وسكون الياء آخر الحروف وتشديد الراء وضمها، قال الصفدي: وهذا في لغة اللطيني (اللاتيني) من أعاجم الأندلس ومعناها الحديد (Ferrum، فيروم)، وانظر كتاب «الأعلام» للمرحوم العلاّمة خير الدين الزركلي: ٦/ ١٤ ففيه كلام جيد على هذا الموضوع.

وكان يتوقد ذكاءً. له الباع الأطول في فن القراءات والرسم والنحو والفقه والحديث، وله النظم الرائق، مع الوَرَع والتقوى والتألُّه والوقار.

استوطن مصر، وتصدَّر، وشاع ذكرُهُ.

حدَّث عنه: أبو الحسن بن خيرة، ومحمد بن يحيى الجنجالي، وأبو بكر بن وضاحٍ، وأبو الحسن عليُّ بن الجُمَّيْزيِّ، وأبو محمد بن عبدالوارث قارئ مصحف الذهب.

وقرأ عليه بالسبع: أبو موسى عيسى بن يوسف المقدسي، وعبدالرحمن بن سعيد الشافعي، وأبو عبدالله محمد بن عمر القرطبي، وأبو الحسن السخاوي، والزَّيْنُ أبو عبدالله الكردي، والسَّديد عيسى بن مكي، والكمال عليُّ بن شجاع، وآخرون.

[قوته في الدين]

قال أبو شامة: أخبرنا السخاوي: أن سبب انتقال الشاطبي من بلده أنه أُريد على الخطابة، فاحتجَّ بالحج، وترك بلدَه، ولم يَعُدْ إليه تورُّعاً مما كانوا يلْزمون الخطباء من ذكرهم الأمراء بأوصافٍ لم يرها سائغةً، وصبر على فقرٍ شديد، وسمع من السِّلفي، فطلبه القاضي الفاضل للإقراء بمدرسته، فأجاب على شروط، وزار بيت المقدس سنة سبعٍ وثمانين وخمس مئة.

قال السخاوي: أقطعُ بأنه كان مكاشفاً، وأنه سأل الله كفَّ حاله.

قال الأبَّار: تصدر بمصر، فعظُم شأنه، وبَعُدَ صيتُهُ، انتهتْ إليه رياسةُ الإقراء، وتوفي بمصر في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمس مئةٍ.

قلتُ: وله أولادٌ رَووا عنه منهم أبو عبدالله محمدٌ.

[شدة إخلاصه]

وجاء عنه قال: لا يقرأُ أحدٌ قصيدتي هذه إلا وينفعُهُ الله، لأنني نظمتُها لله.

[من منظوماته]

وله قصيدةٌ داليةٌ نحو خمس مئة بيتٍ مَن قرأها، أحاط علماً بـ «التمهيد» لابن عبد البر.

وكان إذا قُرِئ عليه «الموطَّأ» و«الصحيحان»، يصحِّحُ النسخ من حفظه، حتى كان يقال: إنه يحفظ وِقْرَ بعيرٍ من العلوم.

قال ابن خلِّكان: قيل: اسمه وكنيته واحدٌ، ولكن وجدت إجازات أشياخه له: أبو محمدٍ القاسم. وكان نزيل القاضي الفاضل فرتَّبَهُ بمدرسته لإقراء القرآن، ولإقراء النحو واللغة، وكان يتجنَّبُ فضول الكلام ولا ينطقُ إلا لضرورة، ولا يجلسُ للإقراء إلا على طهارةٍ.

٢- الماكسيني

العلاّمة إمامُ العربية صائنُ الدين أبو الحَرَم مكي بن رَيَّان بن شَبَّة[1] بن صالح الماكسيني ثم الموصلي المقرئ الضرير.

عمي وله ثمان سنين، وسار إلى بغداد بعد أن تلا بالسبع، وتأدب على يحيى بن سعدون القرطبي، فمهر في النحو على ابن الخشَّاب، وعلى أبي الحسن بن العصار، والكمال الأنباري، وتقدَّم في الآداب؛ تخرَّج به علماء الموصل.

وكان ذا تقوى وصلاح، إلا أنه كان يتعصب لأبي العلاء المعري؛ لاتفاقهما في الأدب والعمى بالجُدري.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٢٥.

قَدِمَ في أواخر عمره وحدَّث بدمشق، فقرأ عليه السخاوي كتاب «أسرار العربية» لشيخه كمال الدين، وكان مع براعته في القراءات واللغة يدري الفقهَ والحساب وأشياء. كان أحد الأذكياء[1].

توفي بالموصل في شوال سنة ثلاث وست مئة وقد ناهز السبعين.

[من العلماء الأميين الذين لا يكتبون]

١ - ابن كامل

الشيخ المسنِد أبو الفتوح يوسف[2] ابن المُحدِّث أبي بكر المبارك بن كامل بن أبي غالب البغدادي الخَفّاف المقرئ.

وكان أُمّياً لا يكتب، قاله ابن النجار، وقال: هو صالحٌ، حافظٌ لكتاب الله، ولا يعرف شيئاً من الفقه، عَسِرٌ في الرواية، سيئ الخُلُق، مُتَبَرِّمٌ بالسماع، كنا نلقى منه شدة، وكان فقيراً مُدْقعاً، وكان من فقهاء النظامية وكان يأخذ على الرواية. ولد سنة سبع وعشرين وخمس مئة، وسمع في سنة اثنتين وثلاثين.

مات في الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة إحدى وست مئة.

---

(١) وقد نبزه وتكلم فيه الجمال القفطي، فقال: واجتاز بحلب وأنابها، واجتمعنا فرأيت كلامه لم يكن في غاية الجودة والتحقيق، وكان إذا حوقق في أمر مما يجري من أنواع الأدب نزق وأظهر الغضب فراراً من العي عن الجواب، ورأيته يعيب على صاحب «الصحاح» أشياء يعفى عن مثلها، ويهمل من معايبه ما هو أشد من ذلك مما واخذه به العلماء. قلت: هذا تحامل شديد من القفطي على هذا العالم الجليل الذي أثنى عليه جملة كبيرة من مترجميه، وأين هذا من قول ياقوت الحموي: «وقرأ عليه أهل الموصل وتخرّج به أعيان أهلها... رأيته... وكان حراً كريماً صالحاً صبوراً على المشتغلين يجلس لهم من السحر إلى أن يصلي العشاء الآخرة، وكان من أحفظ الناس للقرآن ناقلاً للسبع، نصب نفسه للإقراء فلم يتفرَّغ للتأليف، وكان يقرأ عليه الجماعة القرآن معاً كل واحد منهم بحرف وهو يسمع عليهم كلهم ويرد على كل واحد منهم». وقال عز الدين ابن الأثير: «كان عارفاً بالنحو واللغة والقراءات، لم يكن في زمانه مثله». اللهم نسألك العافية!

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤١٧.

٢ - ذاكر بنُ كامل[١]

ابن أبي غالبٍ محمد بن حسين، الشيخ المعمَّر، المُسْنِد، أبو القاسم البغدادي الخَفَّاف.

وروى الكثير، وتفرَّد، وكان صالحاً خيِّراً، قليل الكلام، ذاكراً الله، يسردُ الصوم، ويتقوَّتُ من عمله، وكان أُمِّياً لا يكتب.

توفي في سادس رجب سنة إحدى وتسعين وخمس مئة.

ابن نُجيَّة[٢]

الشيخ الإمام العالم الرئيس الجليل الواعظ، الفقيه، زين الدين، أبو الحسن، علي بن إبراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري الدمشقي الحنبلي نزيل الشارع بمصر، ويعرَف بابن نُجَيَّة.

وُلد بدمشق في سنة ثمانٍ وخمس مئة.

كتب عنه أبو طاهر السِّلفي حكاية.

ووعظ بجامع القرافة مدة.

وكان صَدْراً محتشماً نبيلاً، ذا جاهٍ ورياسة وسؤدد وأموال وتجمُّل وافرٍ، واتصال بالدولة.

تَرَسَّل لنور الدين إلى الديوان العزيز سنة أربعٍ وستين وخمس مئة.

قال ابن النجَّار: كان مليح الوعظ، لطيف الطبع، حلو الإيراد، كثير المعاني، متديناً، حميد السيرة، ذا منزلةٍ رفيعة، وهو سبط الشيخ أبي الفرج.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٥٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٩٣.

[من اختلاف العلماء]

قال أبو شامة: كان كبير القدر، معظَّماً عند صلاح الدين، وهو الذي نمَّ على الفقيه عمارة اليمنيّ وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة، فشنقهم صلاح الدين وكان صلاح الدين يكاتبُهُ، ويُحضِرُهُ مجلسه، وكذلك ولدُه الملكُ العزيز من بعده، وكان واعظاً مفسِّراً، سكن مصر، وكان له جاهٌ عظيم، وحرمةٌ زائدة، وكان يجري بينه وبين الشهاب الطوسي العجائب، لأنه كان حنبلياً، وكان الشهاب أشعرياً واعظاً. جلس ابنُ نجية يوماً في جامع القرافة، فوقَعَ عليه وعلى جماعة سقف، فعمل الطوسي فصلاً ذكر فيه ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٢٦] وجاء يوماً كلبٌ يشقُّ الصفوف في مجلس ابن نُجَيَّة، فقال: هذا من هناك، وأشار إلى جهة الطوسي.

قال أبو المظفَّر السِّبط: اقتنى ابنُ نُجَيَّة أموالاً عظيمة، وتنعَّم تنعُّماً زائداً، بحيث إنه كان في دارِه عشرون جاريةً للفراش، تساوي كل واحدةٍ ألف دينارٍ وأكثر، وكان يُعْمَلُ له من الأطعمة ما لا يُعمَلُ للملوك، أعطاه الخلفاءُ والملوك أموالاً جزيلةً. قال: ومع هذا مات فقيراً كفَّنه بعض أصحابه.

قال المنذري: ماتَ في سابع رمضان سنة تسعٍ وتسعين وخمس مئة. وماتت بعدَه زوجتُه فاطمة بسنةٍ.

حياة(١)

الشيخ القدوة الزاهد العابد، شيخ حَرَّان، وزاهِدُها، حياةُ بن قيس بن رجَّال ابن سلطان الأنصاري الحراني.

صاحبُ أحوالٍ وكراماتٍ وتألُّهٍ وإخلاص وتعفُّفٍ وانقباضٍ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٨١.

[كانت الملوك يزورونه]

كانت الملوك يزورونَه، ويتبرَّكون بلقائه، وكان كلمة وفاقٍ بين أهل بلده.

قيل: إن السلطان نور الدين زارَه، فقوَّى عزمه على جهاد الفرنج، ودعا له، وإن السلطان صلاح الدين زارَه، وطلب منه الدعاء، فأشار عليه. بترك قصد الموصل، فلم يقبلْ، وسار إليها فلم يظفر بها.

وقيل: إنه كان بشوش الوجه، ليِّن الجانب، رحيم القلب، سخياً كريماً، صاحب ليلٍ وتبتُّلٍ، لم يُخلِّف بحرَّان بعدَه مثله، وله «سيرة» في مجلدٍ كانت عند ذريته.

توفي في ليلة الأربعاء سَلْخَ جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وخمس مئة وله ثمانون سنة رحمه الله تعالى.

ابن نُقْطَة[1]

الإمام العالِم الحافظ المُتْقِن الرَّحال معين الدين أبو بكر محمد بن عبدالغني بن أبي بكر بن شجاع بن أبي نصر البغدادي الحنبلي.

وُلد بعد السبعين وخمس مئة.

وكان أبوه من الزُّهاد، فعُني أبو بكر بالحديث، وجمع وألّف.

وكان ثقة، حسن القراءة، جيد الكتابة، متثبّتاً فيما يقوله، له سَمْت ووقار، وفيه ورع وصلاح وعفة وقناعة.

وصنف كتاب «التقييد في معرفة رواة الكتب والمسانيد» وألف مستدركاً على «الإكمال» لابن ماكولا، يدل على سعة معرفته.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٤٧.

ثم قال: وقد أوردنا لكل رجل منهم حديثاً في كتابنا الموسوم «بالمُلتَقَط مما في كتب الخطيب وغيره من الوَهم والغلط»[1].

[لماذا عرف بابن نقطة]

قلت: سئل أبو بكر عن نُقطة، فقال: هي جارية عُرفنا بها، رَبت شجاعاً جَدَّنا.

توفي أبو بكر في الثاني والعشرين من صفر سنة تسع وعشرين وست مئة كهلاً.

عبد المغيث[2]

ابن زهير بن زهير بن عَلَوي، الشيخ الإمام المحدّث الزاهد الصالح، المُتَّبع، بقية السلف، أبو العز بن أبي حَرْبٍ، البغدادي الحربي.

ولد سنة خمس مئة.

وعُنِيَ بالآثار، وقرأ الكتب، ونسخ، وجمع وصنَّف، مع الوَرَع والدين والصدق والتمسك بالسُّنن، والوقع في النفوس والجلالة.

وقد أَلَّف جزءاً في فضائل يزيد أتى فيه بعجائب وأوابِد، لو لم يؤلِّفه، لكانَ خيراً، وعَمِلَه ردّاً على ابن الجوزي، ووقع بينهما عداوة.

ولعبد المغيث غلطاتٌ تدل على قلة علمه: قال مرةً: مُسْلمُ بنُ يسارٍ صحابي، وصحح حديث الاستلقاء، وهو منكر، فقيل له في ذلك، فقال: إذا رددناه، كان فيه إزراء على من رواه!

---

(١) الظاهر لنا أن الإمام الذهبي إنما أورد هذا المثال من كتاب ابن نقطة لسببين: الأول إظهار سعة علم الرحال في الرجال، وتتبعه للمصادر والروايات، الثاني لذكر تأليفه الآخر الذي رَدّ فيه على كتب الخطيب وغيره في المشتبه.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٥٩.

وقد حَفَرَ له قبراً بقرب الإمام أحمد، وكان قد قدم دمشق تاجراً بمال لسعد الخير[1]، فحدَّث بها، وذكره ابنُ عساكر في تاريخه.

[حسن تخلص العلماء]

حكى ابنُ تيمية شيخُنا قال: قيل: إن الخليفة الناصر لما بَلَغَهُ نهيُ عبدالمغيث عن سبِّ يزيد، تنكَّر، وقصَدَه، وسأله عن ذلك، فتبالَه عنه، وقال: يا هذا إنما قصدْتُ كفَّ الألسنة عن لعن الخلفاء، وإلا فلو فتحنا هذا لكان خليفةُ الوقت أحقَّ باللعن؛ لأنه يفعل كذا، ويفعل كذا، وجعل يُعدِّد خطاياه، قال: يا شيخ ادعُ لي، وقامَ.

توفي عبدُ المغيث في المحرم سنة ثلاثٍ وثمانين وخمس مئة.

القُطْبُ[2]

الإمام العلاّمة، شيخ الشافعية، قُطْبُ الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود الطُّرَيْثيثي النيسابوري.

وُلد سنة خمس وخمس مئة.

[درس بالنظامية والمجاهدية والغزالية]

وتأدَّب على أبيه، وبرع، وتقدّم، وأفتى، ووعظ في أيام مشايخه، ودرَّس بنظامية نيسابور نيابةً، وصار من فحول المناظرين، وبلغ رتبة الإمامة.

وقدم بغداد في سنة ٥٣٨، فوعظ وناظر، ثم سكن دمشق، وقد رأى أبا نصرٍ القُشَيْريّ. وكان صاحب فنون، أقبلوا عليه بدمشق في أيام أبي الفتح المِصِّيْصيِّ، ودرَّس بالمجاهدية، فلما توفي أبو الفتح، ولي بعده تدريس الغَزَّالية، ثم انفصل إلى

---

(١) يعني المحدث المشهور سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري البلنسي.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/١٠٦.

حلب، فولي تدريس المدرستين اللتين أنشأهما نور الدين وأسدُ الدين، ثم سار إلى همذان، درَّس بها مدةً، ثم عاد إلى دمشق، ودرَّس بالغزالية ثانياً، وتفقَّه به الأصحاب. وكان حسن الأخلاق، متودداً، قليل التصنع. ثم سار إلى بغداد رسولاً.

وأجاز للحافظ الضياء.

قال ابن عساكر: كان أبوه من طُرَيْثيث. كان أديباً يُقرئ الأدب، قدِمَ ووعَظَ، وحصل له قبولٌ، وكان حسَن النظر مواظباً على التدريس، وقد تفرَّد برئاسة أصحاب الشافعي.

قال ابن النجار: قدم بغداد رسولاً، وتزوَّج بابنة أبي الفتوح الإسفراييني. أنشدني أبو الحسن القطيعي، أنشدني أبو المعالي مسعود بن محمدٍ الفقيهُ:

يقولون: أسبابُ الفراغِ ثلاثةٌ	ورابعُها خَلَّوهُ وَهُوَ خيارُها
وقد ذكروا أمْناً ومالاً وصحةً	ولم يعلموا أنَّ الشبابَ مدارُها

[ما يحسن من عالم لا يحسن من غيره]

قلتُ: كان فصيحاً، مفوَّهاً، مفسّراً، فقيهاً، خِلافياً، درَّس أيضاً بالجاروخيَّة(١)، وقيل: إنه وعظ بدمشق، وطلب من الملك نور الدين أنْ يحضرَ مجلسَه، فحضره، فأخذ يعظُهُ، ويناديه: يا محمود، كما كان يفعل البرهان البلخيُّ شيخُ الحنفية، فأمرَ الحاجب، فطلع، وأمرَهُ أنْ لايناديَهُ باسمه، فقيل فيما بعد للملك، فقال: إن البرهان كان إذا قال: يا محمود قَفَّ(٢) شعري هيبةً له، ويرقُّ قلبي، وهذا إذا قال،

---

(١) قال شعيب: هي داخل بابي الفراديس لصيقة الإقبالية الحنفية شمالي الجامع الأموي والظاهرية الجوانية. قال ابن شداد: بناها جاروخ التركماني يلقب بسيف الدين. «الدارس» ١/ ٢٢٥، ٢٣٢ للنعيمي. قلت: وهي اليوم في الجادة المعروفة عند أهل دمشق بسبع طوالع وقد درست وحولت إلى سكن.

(٢) قفَّ شعره يقفُّ بالكسر قفوفاً: قام من الفزع.

قسا قلبي، وضاقَ صدري. حكى هذه سبطُ ابنُ الجوزي، وقال: كان القطبُ غريقاً في بحارِ الدنيا.

قال القاسم ابن عساكر: مات في سَلْخ رمضان سنة ثمانٍ وسبعين وخمس مئة، ودُفن يوم العيد في مقبرةٍ أنشأها جوار مقبرة الصوفية غربي دمشق.

قلتُ: وبنى مسجداً، ووقف كتبَه، رحمه الله.

[من العلماء الأذكياء الفاسدين]

ابن العربي

العلامة صاحب التواليف الكثيرة محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد ابن أحمد الطائي الحاتمي المرسي ابن العربي، نزيل دمشق.

ذكر أنه سمع من ابن بشكوال وابن صاف، وسمع بمكة من زاهر بن رستم، وبدمشق من ابن الحرستاني، وببغداد. وسكن الروم مدة، وكان ذكياً كثير العلم، كتب الإنشاء لبعض الأمراء بالمغرب، ثم تزهّد وتفرَّد، وتعبَّد وتوحَّد، وسافر وتجردَّ، وأتهم وأنجد، وعمل الخلوات وعلَّق شيئاً كثيراً في تصوف أهل الوحدة. ومن أرْدَأ تواليفه كتاب «الفصوص» فإنْ كان لا كُفْر فيه فما في الدنيا كفرٌ، نسأل الله العفو والنجاة فواغوثاه بالله!

[شيخ سوء كذاب]

وقد عظمه جماعةٌ وتكلفوا لما صدر منه ببعيد الاحتمالات، وقد حكى العلاّمة ابن دقيق العيد شيخنا أنه سمع الشيخ عز الدين بن عبدالسلام يقول عن ابن العربي: شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم ولا يُحرِّم فرجاً.

قلتُ: إن كان محيي الدين رجع عن مقالاته تلك قبل الموت، فقد فاز، وما ذلك على الله بعزيز.

توفي في ربيع الآخر سنة ثمانٍ وثلاثين وست مئة.

وقد أوردت عنه في «التاريخ الكبير». وله شعرٌ رائق، وعلمٌ واسع، وذهنٌ وقّاد، ولا ريب أنَّ كثيراً من عباراته له تأويلٌ إلا كتاب «الفصوص»!

وقرأتُ بخط ابن رافعٍ أنه رأى بخط فتح الدين اليَعْمُري أنه سمِعَ ابن دقيق العيد يقول: سمعتُ الشيخ عز الدين، وجرى ذكر ابن العربي الطائي فقال: هو شيخ سوءٍ مقبوحٌ كذاب.

ابن قدامة[1]

الشيخ الإمام القدوة العلامة المجتهد شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مِقدام بن نصر المقدسي الجماعيلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي صاحب «المغني».

مولده بجمّاعيل من عمل نابلس سنة إحدى وأربعين وخمس مئة في شعبان.

وهاجر مع أهل بيته وأقاربه، وله عشر سنين، وحفظ القرآن، ولزم الاشتغال من صغره، وكتب الخط المَليح، وكان من بحور العلم وأذكياء العالم.

ورحل هو وابنُ خاله الحافظُ عبدالغني في أول سنة إحدى وستين في طلب العلم إلى بغداد فأدركا نحو أربعين يوماً من جنازة الشيخ عبدالقادر، فنزلا عنده بالمدرسة، واشتغلا عليه تلك الأيام، وسمعا منه.

وتلا بحرف نافع على أبي الحسن البطائحي، وبحرف أبي عمرو على أستاذه أبي الفتح بن المَنّي.

وسمع بدمشق من أبي المكارم بن هلال، وعدة. وبالموصل من خطيبها أبي الفضل الطوسي. وبمكة من المبارك بن الطباخ. وله مشيخةٌ سمعناها.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٦٥.

قال الضياء: كان حَسَن الأخلاق لا يكاد يراه أحد إلا مبتسماً، يحكي الحكايات ويمزح. وسمعتُ البهاء يقول: كان الشيخ في القراءة يمازحنا وينبسط. وكلموه مرة في صبيان يشتغلون عليه، فقال: هم صبيان ولا بد لهم من اللعب، وأنتم كنتم مثلهم. وكان لا ينافس أهل الدنيا، ولا يكاد يشكو، وربما كان أكثر حاجة من غيره، وكان يؤثر.

وسمعتُ البهاء يصفه بالشجاعة، وقال: كان يتقدم إلى العدو وجُرح في كفِّه، وكان يرامي العدو.

قال الضياء: وكان يصلي بخشوع، ولا يكاد يصلي سُنّة الفجر والعشاءين إلا في بيته، وكان يصلي بين العشاءين أربعاً «بالسَّجدة»، و«يس»، و«الدخان»، و«تبارك»، لا يكاد يخل بهن، ويقوم السحَر بسبع وربما رفع صوته، وكان حَسَن الصوت.

وسمعت الحافظ اليونيني يقول: لما كنتُ أسمع شناعة الخَلْق على الحنابلة بالتشبيه عزمتُ على سؤال الشيخ الموفق، وبقيتُ أشهراً أريد أن أسأله، فصعدتُ معه الجبل[1]، فلما كنا عند دار ابن محارب قلت: يا سيدي، وما نطقتُ بأكثر من سيدي، فقال لي: التشبيه مستحيلٌ، فقلت: لِمَ؟ قال: لأن من شرط التشبيه أن نرى الشيء، ثم نشبهه، من الذي رأى الله ثم شبهه لنا؟

وذكر الضياء حكايات في كراماته.

وقال أبو شامة: كان إماماً عَلَماً في العلم والعمل، صنَّف كتباً كثيرة، لكن كلامه في العقائد على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه، فسبحان من لم يُوَضِّح له الأمرُ فيها على جلالته في العلم ومعرفته بمعاني الأخبار.

---

(١) يعني: جبل قاسيون، حيث الصالحية، وفيها ديارهم.

[رأي الذهبي]

قلت: وهو وأمثاله متعجِّبٌ منكم مع علمكم وذكائكم كيف قلتم! وكذا كل فرقة تتعجب من الأخرى، لا عجب في ذلك، ونرجو لكل من بَذَل جهده في تَطَلُّب الحق أن يُغفَر له من هذه الأمة المرحومة.

قال الضياء: جاءه من بنت عمته مريم[1]: المجد عيسى، ومحمد، ويحيى، وصفية، وفاطمة، وله عقب من المجد. ثم تسرَّى بجارية، ثم بأخرى، ثم تزوج عِزّية فماتت قبله، وانتقل إلى رحمة الله يوم السبت يوم الفطر، ودُفن من الغد سنة عشرين وست مئة، وكان الخَلْق لا يُحصون. توفي بمنزله بالبلد. قال: وكنت فيمن غَسّلَهُ.

عضد الدين[2]

وزير العراق، الأوحد المعظَّم، عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبدالله بن هبة الله بن مُظفَّر ابن الوزير الكبير رئيس الرؤساء، أبي القاسم، عليّ ابن المُسْلِمَة، البغدادي.

وُلد سنة أربع عشر وخمس مئة.

وعَمِلَ الأستاذ دارية للمُقْتَفي وللمُسْتَنجِدِ، ثم وَزَرَ للإمام المستضيء. وكان جواداً سرياً مهيباً كبير القدْر.

[حسن تصرفه مع من كان تحت يده]

قال المُوَفَّق عبداللطيف: كان إذا وزن الذَّهب، يرمي تحت الحُصْر قُراضةً كثيرةً ليأخذها الفرّاشون، ولا يرى صبياً منا إلا وضع في يدِهِ ديناراً، وكذا كان ولدان له يفعلان؛ وهما: كمال الدين وعماد الدين.

---

(١) يعني زوجته مريم.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٧٥.

قال: وكان والدي ملازِمَه على قراءة القرآن والحديث. استوْزَرَه المستضيء أول ما بويع، واستفحل أمره، وكان المستضيء كريماً رؤوفاً، وكان الوزير ذا انصبابٍ إلى أهل العلم والتصوف؛ يسبغ عليهم النِّعَم، ويشتغل هو وأولاده بالحديث والفقه والأدب. وكان الناس معهم في بُلَهنيةٍ[1]، ثم وقعت كدوراتٌ وإحَنٌ بينه وبين قطب الدين قايماز.

قلتُ: وقد عُزِلَ[2]، ثم أُعيد[3]، وتمكَّن، ثم تهيأ للحج، وخرج في رابع ذي القعدة[4] في موكبٍ عظيم، فضربه باطنيٌّ على باب قَطُفْتا[5] أربع ضربات، ومات ليومه من سنة ثلاثٍ وسبعين وخمس مئة، وكان قد هيّأ ست مئة جمل، سَبَّل منها مئةً، صاح الباطنيُّ: مظلوم! مظلوم! وتقرب، فزجرَه الغلمان، فقال: دَعُوْهُ، فتقدم إليه، فضربه بسكين في خاصرتِهِ، فصاح الوزير: قتلني، وسقط، وانكشف رأسُه، فغطّى رأسَه بكمِّه، وضُرب الباطنيُّ بسيفٍ، فعاد وضرب الوزير، فهبَّروه بالسيوف، وكان معه اثنان، فأُحرقوا، وحُمِلَ الوزير إلى دارٍ، وجُرِحَ الحاجب[6].

---

(١) بلهنية بضم الباء: أي سعة ورفاهية.

(٢) قال ابن الدبيثي: «فلم يزل على أمره، وله أعداء يسعون في فساد حاله، والإمام المستضيء بأمر الله رضي الله عنه يدفع عنه، حتى تمّ لهم ما راموه، فعزل في اليوم العاشر من شوال سنة سبع وستين وخمس مئة، ولزم بيته، ثم لم يزالوا متتبعين له، عاملين في أذاه حتى أدت الحال إلى خروجه من داره ومنزله بأهله إلى الحريم الطاهري بالجانب الغربي» (التاريخ: ٢ الترجمة: ٢٢٠).

(٣) وذلك في ذي القعدة سنة ٥٧٠، كما في «تاريخ» ابن الدبيثي المذكور و«مختصر التاريخ» لابن الكازروني: ص٢٤٠-٢٤١.

(٤) سنة ٥٧٣. وفي «تاريخ» ابن الدبيثي: خامس ذي القعدة.

(٥) قطفتا: بالفتح ثم الضم والفاء ساكنة: اسم قرية كانت مجاورة لمقبرة الشيخ معروف الكرخي وقد صارت في ذلك التاريخ محلة مشهورة من محال الجانب الغربي.

(٦) يعني حاجب الباب، وهو أبو سعد ابن المُعَوَّج. وتفاصيل الحادثة في كتاب «المنتظم» لابن الجوزي و«تاريخ» ابن الدبيثي.

[رأى في النوم أنه معانق عثمان رضي الله عنه]

وكان الوزير قد رأى في النوم أنه معانِقٌ عثمان رضي الله عنه ، وحكى عنه ابنُهُ أنه اغتسل قبل خروجه، وقال هذا غسل الإسلام، فإنني مقتول بلا شك ثم مات بعد الظهر.

[الحكام والسلاطين الذين طلبوا العلم]

ارتحل إلى الحافظ السلفي لما أقام في الإسكندرية السلطان صلاح الدين وإخوته، فسمعوا منه[1].

ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء أن صلاح الدين الأيوبي كتب عن الشيخ الإمام، صدر الإسلام شيخ المالكية إسماعيل بن مكي بن إسماعيل[2]، وذكر المحقق في الهامش أنه سمع منه الموطأ.

[احترام أعداء الإسلام لبعض علماء الإسلام]

قد يرزق الله بعض عباده من العلماء احترام وتقدير علمائهم، فمن هؤلاء الحافظ السِّلفي، قال عبدالقادر الرهاوي: «كان للسِّلفي عند ملوك مصر الجاه والكلمة النافذة مع مخالفته لهم في المذهب. يريد عبدالقادر ملوك الباطنية المتظاهرين بالرفض»[3].

شيخ همذان أبو العلاء الهمذاني[4]

الإمام الحافظ المقرئ العلاّمة شيخ الإسلام أبو العلاء الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن سهل بن سَلمة بن عثكل بن إسحاق بن حنبل الهمذاني العطَّار، شيخ همذان بلا مدافعةٍ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٧.

(٢) سير الذهبي ٢١/ ١٢٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٣.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٠.

مولدُه في ذي الحجة سنة ثمانٍ وثمانين وأربع مئة.

وأوَّل سماعه في سنة خمسٍ وتسعين.

وارتحل إلى خراسان، فسمع من محمد بن الفضل الفُراوي «صحيح مسلم»، وما زال يسمع ويرحل ويُسمِّع أولاده. وآخر قدماتِه إلى بغداد، وكان بعد الأربعين، فقرأ لأولاده على أبي الفضل الأُرمَوِيّ، وابن ناصر، وابن الزاغوني، فحدَّث إذ ذاك بها وأقرأ.

فتلا عليه بالعشرة أبو أحمد عبدالوهاب ابن سُكَيْنَة[1].

قال أبو سعدٍ السمعانيُّ: هو حافظٌ مُتْقنٌ، ومقرئٌ فاضل، حَسَن السيرة، جميل الأمر، مرْضِيُّ الطريقة، عزيز النفس سخيٌّ بما يملكه، مُكْرِمٌ للغرباء، يعرف الحديث والقراءات والآداب معرفةً حسنة.

وقال الحافظ عبدالقادر[2]: شيخُنا أشهرُ من أنْ يُعرَّف؛ تعذَّر وجود مثلِه من أعصارٍ كثيرة، على ما بلغنا من سِيَر العلماء والمشايخ، أرْبى على أهل زمانه في كثرة السماعات، مع تحصيل أصول ما سمع، وجودة النُّسَخ، وإتقان ما كَتَبَه بخطِّه؛ فإنه ما كان يكتب شيئاً إلا منقوطاً معرباً، وأول سماعه من الدُّونيِّ سنة ٤٩٥[3]، وبرع على حفَّاظ عصرِه في حفظ ما يتعلقُ بالحديث من الأنساب والتواريخ والأسماء والكنى والقصص والسير.

---

(١) ابن سكينة المتوفى سنة ٦٠٧، وهو شيخ زهاد العراق في زمانه، ويشتبه بـ (سكينة) بكسر السين وتشديد الكاف وهو غيره.

(٢) يعني الرُّهاوي.

(٣) هكذا قيدها الناسخ بالقلم الهندي.

[القدرة على التأليف]

ولقد كان يوماً في مجلسه، وجاءَتْه فتوى في أمر عثمان رضي الله عنه فأخذها، وكتب فيها مِنْ حفظِه، ونحن جلوسٌ، درجاً طويلاً، ذكر فيه نسبَه، ومولدَه، ووفاتَه، وأولاده، وما قيل فيه، إلى غير ذلك.

وله التصانيف في الحديث، وفي الزهد والرقائق، وقد صنَّف كتاب «زاد المسافر» في خمسين مجلداً، وكان إماماً في الحديث وعلومِه.

وحَصَّل من القراءات ما إنه صنَّف فيها العشرة[1] والمفردات، وصنَّف في الوَقْف والابتداء، وفي التجويد، وكتاباً في ماءات القرآن، وفي العدد، وكتاباً في معرفة القراء في نحوٍ من عشرين مجلداً، استُحْسِنَتْ تصانيفه، وكُتِبتْ، ونُقِلَتْ إلى خوارزم وإلى الشام، وبرع عندَه جماعةٌ كثيرةٌ في القراءات. وكان إذا جرى ذِكْرُ القراء يقول: فلانٌ مات عام كذا وكذا، ومات فلانٌ في سنة كذا وكذا، وفلانٌ يعلو إسنادُه على فلانٍ بكذا.

[بذل ماله في سبيل العلم]

وكان عالماً إماماً في النحو واللغة. سمعتُ أنَّ من جملة ما حفظ كتابَ «الجمهرة». وخرَّج له تلامذةً في العربية أئمةً يقْرئون بهمذان، وبعض أصحابه رأيتُهُ، فكان من محفوظاته كتابُ «الغريبين» لأبي عُبيد الهروي، إلى أن قال: وكان مُهيناً للمال، باع جميع ما ورِثَه، وكان من أبناء التجار، فأنفقه في طلب العلم، حتى سافر إلى بغداد وإلى أصبهان مراتٍ ماشياً يحملُ كتبَه على ظهرِهِ، سمعتُه يقولُ: كنتُ أبيتُ ببغداد في المساجد، وآكلُ خبزَ الدُّخْنِ.

---

(١) يريد بها القراءات العشر. وكتابه «غاية الاختصار في قراءات العشرة أئمة الأمصار» مطبوع ومتداول.

قال: وسمعتُ أبا الفضل بن بُنَيْمان الأديب يقول: رأيتُ أبا العلاء العطَّار في مسجدٍ من مساجد بغداد يكتب وهو قائمٌ؛ لأن السراج كان عالياً، إلى أن قال: فعَظُمَ شأنه في القلوب؛ حتى إنْ كان ليمُرُّ في همذان فلا يبقى أحدٌ رآه إلا قامَ، ودعا له؛ حتى الصبيان واليهود، وربما كان يمضي إلى بلدة مُشْكان يصلي بها الجمعة، فيتلقاه أهلُها خارج البلد؛ المسلمون على حدةٍ، واليهود على حدةٍ، يدعون له، إلى أن يدخل البلد.

[اعتناؤه بتلامذته]

وكان يُفتح عليه من الدنيا جُمَلٌ، فلم يدَّخِرْها، بل يُنْفِقْها على تلامذِته، وكان عليه رسومٌ لأقوامٍ، وما كان يبرحُ عليه ألفُ دينار همذانية أو أكثرمن الدَّيْن، مع كثرة ما كان يُفتحُ عليه.

وكان يطلبُ لأصحابِهِ من الناس، ويعزُّ أصحابه ومنْ يلوذُ به، ولا يحضرُ دعوةً حتى يحضرَ جماعةُ أصحابِه، وكان لا يأكل من أموال الظَّلَمة، ولا قَبِلَ منهم مدرسةً قطُّ ولا رباطاً، وإنما كان يُقرئ في دارِهِ، ونحن في مسجده سُكَّانٌ.

وكان يُقرئ نصف نهارِهِ الحديث، ونصفَهُ القرآن والعلم، ولا يغشى السلاطين، ولا تأخذه في الله لومة لائمٍ، ولا يمكِّن أحداً في محلَّتِه[1] أن يفعل منكراً، ولا سماعاً، وكان يُنزِّلُ كل إنسانٍ منزلتَهُ، حتى تألَّفت القلوب على محبَّته وحسن الذكر له في الآفاق البعيدة، حتى أهل خوارزم الذين هم معتزلة مع شدَّته في الحَنْبَلة.

---

(١) في «تذكرة الحفاظ» ٤/ ١٣٢٦: ولا يمكن أحداً يعمل في مجلسه منكراً. وما ورد هنا أثبت، ويقويه ما ورد بعده بقوله (ولا سماعاً) فمن غيرالمعقول أن يكون السماع (أي الغناء) في مجلس من مثل مجلس الحافظ أبي العلاء.

وكان حسن الصلاة لم أرَ أحداً من مشايخنا أحسن صلاةً منه، وكان متشدِّداً في أمر الطهارة؛ لا يدعُ أحداً يمسُّ مداسَه، وكانت ثيابه قِصاراً، وأكمامُه قِصاراً، وعمامتُهُ نحو سبعةِ أذرعٍ.

توفي أبو العلاء الهمذاني بهمذان في جمادى الأولى سنة تسع وستين وخمس مئة، وله نيف وثمانون سنة.

ابن الحَرَسْتاني[1]

الشيخ الإمام العالِم المفتي المُعمَّر الصالح مُسْنِد الشام شيخ الإسلام قاضي القضاة جمال الدين أبو القاسم عبدالصمد بن محمد بن أبي الفضل بن علي بن عبدالواحد الأنصاري الدمشقي الشافعي ابن الحَرَسْتاني، من ذرية سعد بن عُبادة رضي الله عنه.

وُلد في أحد الربيعين سنة عشرين وخمس مئة.

وحدَّث «بدلائل النبوة» للبيهقي، وبـ «صحيح مسلم» وبرع في المذهب، وأفتى ودرَّس، وعمَّر دهراً، وتفرَّد بالعوالي. وكان إماماً فقيهاً عارفاً بالمذهب، ورعاً صالحاً، محمود الأحكام، حَسَن السيرة، كبير القَدْر. رحل إلى حلب، وتفقه بها على المُحَدِّث الفقيه أبي الحسن المُراديِّ، ووليَ القضاء بدمشق، نيابة عن أبي سعد بن أبي عَصْرون، ثم إنه وَلِيَ قضاء القضاة استقلالاً في سنة اثنتي عشرة وست مئة.

قال ابن نقطة: هو أسندُ شيخ لقينا من أهل دمشق، حسن الإنصات، صحيح السماع.

وقال أبو شامة: دخل به أبوه من حَرَستا، فنزل بباب توما يؤم بمسجد الزَّينبيّ، ثم أمَّ فيه ابنه جمال الدين، ثم انتقل جمالُ الدين فسكن بداره بالحُوَيرة،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٨٠.

وكان يُلازم الجماعة بمقصورة الخَضِر، ويحدِّث هناك، ويجتمع خلق، مع حسن سَمْته، وسكونه، وهَيبته. حدثني الشيخُ عِزُّ الدين بن عبدالسلام أنه لم يرَ أفقه منه، وعليه كان ابتداء اشتغاله، ثم صحب فخر الدين ابن عساكر، فسألته عنهما فرجّح ابن الحَرَستاني، وكان حفظ «الوسيط» للغزالي.

[جمع بين القضاء والتدريس]

ثم قال أبو شامة: ولما ولي محيي الدين القضاء لم ينب ابن الحَرَستاني عنه، وبقي إلى أنْ ولاّه العادل القضاء، وعزل الطاهر، وأخذ منه العزيزية، والتقوية، فأعطَى العزيزيةَ ابنَ الحرستاني مع القضاء، وأقبل عليه العادل، وكان يَحكُم بالمجاهدية، وناب عنه ولده العِماد، ثم ابن الشيرازي، وشمس الدين ابن سَنِيِّ الدولة، وبقي سنتين وسبعة أشهر، ومات، وكانت له جنازة عظيمة، وقد امتنع من القضاء، فألحوا عليه، وكان صارِماً عادلاً على طريقة السَّلَف في لباسه وعفته.

[كتاب الله أولى من كتابي]

وقال سِبط الجوزي[1]: كان زاهداً، عَفيفاً، ورعاً، نَزِهاً، لا تأخذه في الله لومة لائم. اتفق أهل دمشق على أنه ما فاتته صلاة بجامع دمشق في جماعة إلا إذا كان مريضاً. ثم ساق حكايات من مناقبه وعدله في قضاياه، وأُتي مرَّة بكتاب، فرمَى به، وقال: «كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب»، فبلغ العادلَ قولُه، فقال: «صدق، كتاب الله أولى من كتابي»، وكان يقول للعادل: أنا ما أحكم إلا بالشرع، وإلا فأنا ما سألتُك القضاء، فإن شئت فأبصر غيري.

---

(١) يعني سبط ابن الجوزي، والذهبي يتصرف.

[الشرع ما يكون فيه وصية]

قال أبو شامة: ابنُه العماد هو الذي أَلَحَّ عليه حتى تولَّى القضاء. وحدثني ابنُه قال: جاء إليه ابن عُنَيْن، فقال: السلطانُ يُسلِّم عليك ويوصي بفلان، فإن له محاكمة. فغضب وقال: الشرع ما يكون فيه وصية.

قال المنذري: سمعتُ منه وكان مَهيباً، حَسَن السَّمْت، مجلسُهُ مجلس وقار وسكينة، يبالغ في الإنصات إلى مَن يقرأ عليه.

توفي في رابع ذي الحجة سنة أربع عشرة وست مئة، وهو في خمس وتسعين سنة.

ابن عساكر[1]

الشيخ الإمام العالِم القدوة المفتي شيخ الشافعية فخر الدين أبو منصور عبدالرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الدمشقيُّ الشافعي.

وُلد سنة خمسين وخمس مئة.

[المدارس التي درَّس بها]

درَّس بالجاروخية، ثم بالصلاحية بالقدس، وبالتَّقَوِيّة بدمشق، فكان يُقيم بالقدس أشهراً، وبدمشق أشهراً، وكان عنده بالتقوية فُضلاء البلد، حتى كانت تسمى نظامية الشام. ثم درس بالعَذْراوية سنة ٥٩٣ وماتت الست عذراء، وبها دُفنت، وهي أخت الأمير عز الدين فروخشاه.

وكان فخر الدين لا يَمَلُّ الشخصُ من النظر إليه لحُسن سَمْتِه، ونور وجهه، ولُطفه واقتصاده في مَلْبَسه، وكان لا يفتُرُ من الذكر، وكان يُسمِّع الحديث تحت النسر[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٨٧.

(٢) يعني قبة النسر من جامع دمشق الأموي.

قال أبو شامة: أخذتُ عنه مسائل، بعثَ إليه المُعظَّم ليوليه القضاء فأبى، وطلبه ليلاً فجاءه فتلقاه وأجلسه إلى جَنْبه، فأُحضِر الطعامُ فامتنع، وألحَّ عليه في القضاء، فقال: أستخير الله، فأخبرني من كان معه، قال: ورجع ودخل بيته الصغير الذي عند محراب الصحابة، وكان أكثر النهار فيه، فلما أصبح أتوه فأصرّ على الامتناع، وأشار بابن الحَرَستاني فوُلّيَ، وكان قد خاف أن يُكره فجهَّز أهلَهُ للسفر، وخرجت المحابر[1] إلى ناحية حلب، فردّها العادل، وعزّ عليه ما جرى.

وقال أبو المظفر الجوزي: كان زاهداً، عابِداً، ورعاً، منقطعاً إلى العلم والعبادة، حسن الأخلاق، قليل الرغبة في الدنيا، توفي عاشر رجب سنة عشرين وست مئة.

[الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر]

قال الحافظ عبدالقادر: «كان [أبو طاهر] السِّلَفي آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، حتى إنه قد أزال من جواره منكرات كثيرة، ورأيته يوماً، وقد جاء جماعة من المقرئين بالألحان، فأرادوا أن يقرؤوا فمنعهم من ذلك، وقال: هذه القراءة بدعة، بل اقرؤوا ترتيلاً، فقرؤوا كما أمرهم»[2].

حاكم ظالم صاحب الجزيرة[3]

الملك معز الدين سنجر ابن الملك غازي بن مودود بن الأتابك زنكي ابن آقسنقر صاحب جزيرة ابن عمر.

كان ظالماً غاشِماً للرعية وللجند والحريم، سجن أولاده بقلعةٍ، فهرب ولدُه غازي إلى الموصل فأكرمه صاحبُها وقال: اكفنا شر أبيك، فرجع واختفى، ثم تسلَّق

(١) يعني: أهل المحابر، وهم طلبة العلم الذين يستملون.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٠٧.

واختفى عند سُرِّيّة فسترت عليه، وسكر أبوه فوثب عليه ابنه في الخلاء فقتله، فلم يملِّكوه، بل ملَّكوا أخاه محموداً، ودخلوا على غازي فمانع عن نفسه، فقتلوه ورُمِيَ، وتمكن محمود فقتل أخاه الآخر مودوداً، وقيل: بل تملك غازي يوماً واحداً، ثم أُخِذَ.

ويُحكَى من عُسْف سنجر وقلة دينه عجائب. طالت أيامه وقُتل سنة خمس وستة مئة.

ابن طَبَرْزَد[1]

الشيخ المسند الكبير الرُّحْلَةُ أبو حفص عمر بن محمد بن مُعَمَّر بن أحمد بن يحيى بن حسّان البغدادي الدارقزي المؤدب ويعرف بابن طَبَرْزَد.

والطَّبَرْزَد بذال معجمة هو السُّكَّر.

مولده في ذي الحجة سنة ست عشرة وخمس مئة.

وقال ابن الدُّبَيْثِيّ: كان سماعه صحيحاً على تخليط فيه. سافر إلى الشام وحدَّث في طريقه بإربل وبالموصل وحرّان وحلب ودمشق، وعاد إلى بغداد وحدَّث بها، وجمعتُ له «مشيخة» عن ثلاثة وثمانين شيخاً، وحدَّث بها مراراً، وأملى مجالس بجامع المنصور، وعاش تسعين سنة وسبعة أشهر.

قلتُ: يشير ابن الدبيثي بالتخليط إلى أن أخا ابن طَبَرْزَد ضعيف وأكثر سماعات عمر بقراءة أخيه، وفي النفس من هذا.

قال أبو شامة: توفي ابن طبرزد وكان خليعاً ماجِناً، سافر بعد حنبل[2] إلى الشام، وحصل له مالٌ بسبب الحديث، وعاد حنبل فأقام يعمل تجارة بما حَصَّل،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٠٧.

(٢) حنبل بن عبدالله بن فرج الرُّصافي المتوفى سنة ٦٠٤.

فسلك ابن طَبَرْزَذ سبيله في استعمال كاغد وعتّابي، فمرض مدة ومات ورجع ما حصل له إلى بيت المال كحَنْبَل.

[لا يفهم شيئاً من العلم ويتهاون بأمور الدين]

قال ابن النجار: هو آخر من حدَّث عن ابن الحُصَين وابن البَنّاء، وابن مُلُوك، وهبة الله الواسطي، وابن الزاغوني، وأبي بكر وعمر ابني أحمد ابن دُحروج، وعلي ابن طِراد، وطُلب من الشام فتوجه إليها، وأقام بدمشق مدة طويلة، وحصَّل مالاً حَسَناً، وعاد إلى بغداد، فأقام يحدِّث، سمعت منه الكثير، وكان يعرف شيوخه ويذكر مسموعاته، وكانت أصوله بيده، وأكثرها بخط أخيه، وكان يؤدِّب الصبيان، ويكتب خطاً حسناً، ولم يكن يفهم شيئاً من العلم، وكان متهاوناً بأمور الدين، رأيته غير مرة يبول من قيام، فإذا فرغ من الإراقة أرسل ثوبه وقَعَد من غير استنجاء بماء ولا حجر.

قلت: لعله يرخص بمذهب من لا يوجب الاستنجاء.

قال: وكنا نسمع منه يوماً أجمع، فنصلي ولا يُصلي معنا، ولا يقوم لصلاة، وكان يطلب الأجرَ على رواية الحديث، إلى غير ذلك من سوء طريقته، وخَلَّف ما جمعَهُ من الحطام، لم يُخْرِج منه حقاً لله عز وجل.

[رؤيا]

وسمعت القاضي أبا القاسم ابن العَديم يقول: سمعت عبدالعزيز بن هلالة يقول، وغالب ظني أنني سمعته من ابن هِلالة بخراسان، قال: رأيتُ عُمرَ بن طَبَرْزَذ في النوم بعد موته وعليه ثوب أزرق، فقلت له: سألتُك بالله ما لقيتَ بعد موتك؟ فقال: أنا في بيت من نار داخل بيت من نار، فقلتُ: ولِمَ؟ قال: لأخذ الذهب على حديث رسول الله ﷺ.

[من فقه الذهبي]

قلت: الظاهر أنه أَخَذَ الذهب وكَنَزَهُ ولم يزكه، فهذا أشدُّ من مجرد الأخذ، فمن أخذ من الأمراء والكبار بلا سؤال وهو محتاج فهذا مُغْتَفَرٌ له، فإن أخذ بسؤال رُخِّص له بقَدَر القوت، وما زاد فلا، ومن سأل وأخذ فوق الكفاية ذُمّ، ومن سأل مع الغِنى والكفاية حَرُمَ عليه الأخذ، فإنْ أخذ المال والحالة هذه وكنَزَه ولم يؤدِّ حق الله فهو من الظالمين الفاسقين، فاستفتِ قلبك، وكن خصماً لربك على نفسك.

وأما تركه الصلاة فقد سمعتَ ما قيل عنه، وقد سمعتُ أبا العباس ابن الظاهري يقول: كان ابن طَبَرْزَذ لا يصلي[١].

وأما التخليط من قبيل الرواية، فغالب سماعاته منوط بأخيه المفيد أبي البقاء وبقراءاته وتسميعه له، وقد قال ابن النجار: قال عمر بن المبارك بن سهلان: لم يكن أبو البقاء بن طَبَرْزَذ ثقة، كان كَذاباً يضع للناس أسماءَهم في الأجزاء ثم يذهب فيقرأ عليهم، عرف بذلك شيخُنا عبدالوهاب[٢] ومحمد بن ناصر وغيرهما.

قلت: عاش أبو البقاء نحواً من أربعين سنة، ومات في سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة، وتوفي أبو حفص بن طَبَرْزَذ في تاسع رجب سنة سبع وست مئة، ودفن بباب حرب، والله يسامحه، فمع ما أبدينا من ضعفه قد تكاثر عليه الطلبة، وانتشر حديثه في الآفاق وفرح الحُفّاظ بعواليه، ثم في الزمن الثاني تزاحموا على أصحابه، وحملوا عنهم الكثير وأحسنوا به الظن، والله الموعد، ووثّقه ابن نُقطة.

---

(١) قال بشار بن عوّاد: ابن الظاهري لم يعاصر ابن طبرزذ، فقد ولد بعد وفاة ابن طبرزذ بتسع عشرة سنة، أعني سنة ٦٢٦، وهو إنما سمع أو قرأ ذلك واعتقده، فهذا لا يقوّي الحجة، رحمهم الله تعالى.

(٢) يعني ابن سُكينة الأمين.

البكري[1]

الشيخ الإمام المحدِّث المفيد الرحّال المسنِد جمال المشايخ صدر الدين أبو عليٍّ الحسن بن محمد ابن الشيخ أبي الفتوح محمد بن محمد بن محمد بن عَمروك بن محمد ابن عبدالله بن حسن بن القاسم بن علقمة بن النضر بن معاذ ابن فقيه المدينة عبدالرحمن ابن القاسم بن محمد ابن الصديق أبي بكر القُرشي التيمي البكري النيسابوري ثم الدمشقي الصوفي.

وُلد بدمشق في سنة أربعٍ وسبعين وخمس مئة.

وسَمِع بمكة من جده، ومن أبي حفص الميانشيّ، وبدمشق من حنبل، وابن طَبَرْزَد، وأسمع منهما بنتَه شامية، ورحل فسمع بهراة من أبي رَوْح الهَرَوِيّ، وبنيسابور من المؤيد الطوسي، وبأصبهان من أبي الفتوح محمد بن محمد بن الجُنَيد، وعين الشمس الثقفية، وعدةٍ، وبمرو من أبي المظفر ابن السمعاني، وببغداد من ابن الخضر، وبالموصل وإربل وحلب ومصر وأماكن، وعمل «الأربعين البلدية» وعُني بهذا الشأن، وكتب العالي والنازل، وجمع وصنّف، وشرع في تأريخٍ لدمشق ذيلاً على «تاريخ ابن عساكر» وعُدمت المسودة. روى الكثير، وسمع منه ابن الصلاح، والبِرْزالي، والكبار.

وولي حِسبة دمشق، ومشيخة الخوانك، ونفق سوقُه في دولة المُعظَّم. وكان جدّهم عَمروك بن محمدٍ من أهل المدينة النبوية، فتحول وسكن نيسابور.

مرض أبو علي بالفالج مدةً، ثم تحوَّل في أواخر عُمره إلى مصر فلم يُطلْ مقامُهُ بها، وتوفي في حادي عشر ذي الحجة سنة ست وخمسين، وما هو بالبارع في الحفظ، ولا هو بالمتقن.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٢٦.

قال ابن الحاجب: كان إماماً عالماً، لَسِناً، فصيحاً، مليح الشكل إلا أنه كثير البهت كثير الدعاوي، عنده مداعبةٌ ومجون، داخل الأمراء، وولي الحِسْبَة، إلى أن قال: ولم يكن محموداً، جدّد مظالمِ، وعنده بذاءة لسانٍ. سألتُ الحافظ ابن عبدالواحد عنه فقال: بلغني أنه كان يقرأ على الشيوخ، فإذا أتى إلى كلمة مشكلةٍ تركها ولم يُبيِّنها، وسألت أبا عبدالله البِرْزاليَّ عنه فقال: كان كثير التخليط.

قلت: روى «صحيح مسلمٍ» و«مسند أبي عَوانة» وكتاب «الأنواع» لابن حِبان، وأشياء؛ أكثر عنه ابن الزرّاد.

أنبأني أبو محمد الجزائري أنه قرأ على أبي علي البكري «أربعين البلدان» للبكري، يقول فيها: اجمع لي في رحلتي وأسفاري ما يزيد على مئة وستين بلداً وقريةً أفردت لها معجماً فسألني بعض الطلبة أربعين حديثاً للبلدان فجمعتُها في أربعين من المدن الكبار عن أربعين صحابياً لأربعين تابعياً. نعم.

الشيخ أبو عمر(١)

الإمام العالِم الفقيه المقرئ المحدِّث البركة شيخ الإسلام أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مِقدام بن نمر المقدسي الجمَّاعيلي الحنبلي الزاهد، واقف المدرسة.

مولده في سنة ثمان وعشرين وخمس مئة بقرية جَمَّاعيل من عمل نابلس، وتحوَّل إلى دمشق هو وأبوه وأخوه وقرابته مهاجرين إلى الله، وتركوا المال والوطن لاستيلاء الفرنج، وسكنوا مدة بمسجد أبي صالح بظاهر باب شرقي ثلاث سنين، ثم صعدوا إلى سفح قاسيون، وبنوا الدير المبارك والمسجد العتيق، وسكنوا ثَمَّ، وعُرفوا بالصالحية نسبةً إلى ذاك المسجد.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٥.

سمع أباه، وأبا المكارم بن هلال، وسَلْمان بن عليّ الرحبي، وأبا الفَهْم بن أبي العَجائز، وعدة، وبمصر ابن بَرِّي، وإسماعيل الزِّيات، وكَتَبَ وقرأ، وحَصَّل، وتقدَّم، وكان من العلماء العاملين، ومن الأولياء المتقين.

حَدَّث عنه أخوه الشيخ موفق الدين وابناه عبدالله وعبدالرحمن، والضياء، وابن خليل، والزكي المنذري، والقوصي، وابنُ عبدالدائم، والفخر عليٌّ، وطائفة.

وقد جمع له الحافظ الضياء سيرة في جزءين فشفى وكفى، وقال: كان لا يسمع دعاءً إلا ويحفظه في الغالب، ويدعو به، ولا حديثاً إلا وعمل به، ولا صلاة إلا صلاها، كان يصلي بالناس في النصف[1] مئة ركعة وهو مسنّ، ولا يترك قيام الليل من وقت شبوبيته، وإذا رافق ناساً في السفر ناموا وحَرَسهم يصلي.

قلت: كان قدوة صالحاً، عابداً قانتاً لله، ربَّانياً، خاشعاً مخلصاً، عديم النظير، كبير القدر، كثير الأوراد والذكر، والمروءة والفُتوة والصفات الحميدة، قلَّ أن ترى العيون مثله. قيل: كان ربما تهجَّد فإن نَعَسَ ضرب على رجليه بقضيب حتى يطير النعاس، وكان يُكثِر الصيام، ولا يكاد يسمع بجنازة إلا شهدها، ولا مريض إلا عادَهُ، ولا جهاد إلا خرج فيه، ويتلو كل ليلة سُبْعاً مُرتّلاً في الصلاة، وفي النهار سُبعاً بين الصلاتين، وإذا صلّى الفجر تلا آيات الحرس ويسّ والواقعة وتبارك، ثم يُقرئ ويُلقِّن إلى ارتفاع النهار، ثم يصلي الضحى، فيطيل ويصلي طويلاً بين العشائين، ويصلي صلاة التسبيح كل ليلة جمعة، ويصلي يوم الجمعة ركعتين بمئة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١]؛ فقيل: كانت نوافله في كل يوم وليلة اثنتين وسبعين ركعة، وله أذكار طويلة، ويقرأ بعد العشاء آيات الحرس، وله أوراد عند النوم واليقظة، وتسابيح، ولا يترك غُسل الجمعة، وينسخ «الخِرَقي» من حفظه، وله معرفة بالفقه والعربية والفرائض. وكان قاضياً لحوائج الناس، ومن سافر من الجماعة يتفقد

---

(١) يعني في نصف شعبان.

أهاليهم، وكان الناس يأتونه في القضايا فيُصلح بينهم، وكان ذا هيبة ووقع في النفوس.

قال الشيخ الموفق: ربانا أخي، وعلَّمنا، وحرص علينا، كان للجماعة كالوالد يحرصُ عليهم ويقوم بمصالحهم، وهو الذي هاجر بنا، وهو سفَّرنا إلى بغداد، وهو الذي كان يقوم في بناء الدير، وحين رجعنا زوَّجنا وبنى لنا دُوراً خارج الدير، وكان قلما يتخلف عن غَزاة.

قال الشيخ الضياء: لما جَرَى على الحافظ عبدالغني محنته جاء أبا عمرَ الخَبَرُ، فَخَرَّ مغشياً عليه، فلم يُفق إلا بعد ساعة، وكان كثيراً ما يتصدق ببعض ثيابه، وتكون جبته في الشتاء بلا قميص، وربما تصدَّق بسراويله، وكانت عِمامته قطعة بطانة، فإذا احتاج أحدٌ إلى خِرقة، قطع له منها، يلبَسُ الخشن، وينام على الحصير، وربما تصدَّق بالشيء وأهلُهُ محتاجون إليه، وكان ثوبُه إلى نصف ساقِه، وكُمُّه إلى رُسْغِه، سمعتُ أمي تقول: مكثنا زماناً لا يأكل أهل الدير إلا من بيت أخي أبي عمر، كان يقول: إذا لم تتصدقوا من يتصدق عنكم، والسائل إن لم تعطوه أنتم أعطاه غيرُكم، وكان هو وأصحابُه في خيمة على حصار القدس فزاره الملك العادل، فلم يجده، فجلس ساعةً، وكان الشيخ يصلِّي فذهبوا خلفه مرتين فلم يَجِئ، فأحضروا للعادل أقراصاً فأكل وقام وما جاء الشيخ.

قال الصريفيني: ما رأيتُ أحداً قط ليس عنده تكلف غير الشيخ عمر.

قال الشيخ العماد: سمعتُ أخي الحافظ[1] يقول: نحن إذا جاء أحد اشتغلنا به عن عملنا، وإن خالي أبو[2] عمر فيه للدنيا والآخرة يخالط الناس ولا يخلي أوراده.

---

(١) يعني عبدالغني المقدسي.

(٢) كذا في الأصل، وهي على الحكاية.

قلتُ: كان يخطب بالجامع المظفري، ويُبكي الناس، وربما ألف الخُطبة، وكان يقرأ الحديث سريعاً بلا لحن، ولا يكاد أحد يرجع من رحلته إلا ويقرأ عليه شيئاً من سماعه، وكتب الكثير بخطه المليح كـ «الحلية» و«إبانة ابن بَطّة» و«معالم التنزيل» و«المُغني» وعدة مصاحف. وربما كتب كراسين كباراً في اليوم، وكان يشفع برقاع يكتبها إلى الوالي المعتمد وغيره. وقد استسقى مرة بالمغارة فحينئذ نزل غيث أجرى الأودية. وقال: مذ أممتُ ما تركتُ بسم الله الرحمن الرحيم.

وقد ساق له الضياء كرامات ودَعَوات مُجابات وذكر حكايتين في أنه قُطّب[١] في آخر عمره. وكان إذا سمع بمنكر اجتهد في إزالته، ويكتب فيه إلى المَلِك، حتى سمعنا عن بعض الملوك أنه قال: هذا الشيخ شريكي في ملكي.

وكان ليس بالطَّويل، صبيح الوجه، كثَّ اللحية، نحيفاً، أبيض، أزرق العين، عاليَ الجبهة، حَسَنَ الثَّغر، تزوج في عمره بأربع، وجاءه عدة أولاده أكبرهم عمر، وبه يُكْنَى، وأصغرُهم عبدالرحمن الشيخ شمس الدين. ومن شعره:

أَلَمْ تَـكُ مَنْهَـاةً عَـنِ الزهـو أَنَّنـي ... بَدَا لِيَ شَيْبُ الرَّأْسِ والضَّعْفُ والأَلَمْ

أَلَمَّ بِيَ الخَطْـبُ الـذِي لَـوْ بَكَيْتُـهُ ... حيـاتِيَ حَتَّـى يَنْفَـدَ الـدَّمْعُ لم أُلَمْ

وقد مات ابنه عُمر فرثاه بأرجوزة حسنة.

توفي أبو عمر فقال الصريفيني: حَزَرتُ الجَمْعَ بعشرين ألفاً.

قلت: ورثاه ابن سعد، وأحمد ابن المَزدقانيّ. وتوفي إلى رضوان الله عشية الاثنين في الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة سبع وست مئة، وقد استوفيت سيرته في «تاريخ الإسلام».

---

(١) يعني صار قطباً للصوفية، وانظر أيضاً تاريخ الإسلام: ١٨/ ١/ ٢٩٤-٢٩٥.

ابن زَرْقون[1]

الشيخ الفقيه، الإمام، المُعَمَّر، المقرئ، بقيةُ السلف أبو عبدالله محمد بن أبي الطيب سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبدالبر بن مجاهد بن زرْقون[2] الأنصاري الأندلسي الإشبيلي المالكي.

أجاز له عام اثنتين وخمس مئة أبو عبدالله أحمد بن محمدٍ الخَوْلانيُّ راوي «الموطأ»، وفيها وُلد[3]، وتفرَّد في وقته عنه. وسَمِعَ بمراكش من أبي عمران موسى ابن أبي تليد، فتفرَّد عنه أيضاً[4].

وسَمِعَ بسبتةَ من القاضي عبدالله بن أحمد الوحيدي، وسَمِعَ من عبدالمجيد بن عَيْذون[5]، وخَلَف بن يوسف الأبرش، والقاضي عياض بن موسى، وحدَّث عنهم، وعن أبي بحر بن العاص، ومحمد بن شِبْرين، وأبي الحسن شُرَيْح بن محمد.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٤٧.

(٢) قال المنذري: «وزرقون: لقب لسعيد والد جده، لقب به لشدة حمرته»، وسيأتي مثل هذا في الترجمة.

(٣) يعني في سنة ٥٠٢ وكان مولده بشريش في ربيع الأول منها.

(٤) تفرد عنه بالسماع كما ذكر المنذري في «التكملة»، وتوفي موسى هذا سنة ٥١٧ كما ذكر ابنُ بشكوال في الصلة: ٢/ ٥٧٦.

(٥) هكذا في الأصل: «عيذون»، ووضع الناسخ فوقها كلمة «صح» فلعله «عَبْدُون» بفتح العين المهملة وسكون الباء الموحدة وضم الدال المهملة، وهو الاسم الشائع، أما عيذون فهو اسم نادر لذا استقصاه أصحاب كتب المشتبه. وقد ذكر الذهبي في «عيذون» من المشتبه (ص٤٣٤) شخصاً واحداً هوالقالي صاحب الأمالي: إسماعيل بن القاسم بن عيذون. وذكر ابن ناصر الدين في «توضيحه» لمشتبه الذهبي شخصاً آخر من أهل المغرب اسمه علي بن عبدالجبار بن سلام بن عيذون اللغوي المتوفى سنة ٥١٩ (٢/ الورقة ١٣٥ من نسخة الظاهرية) وزاد ابن حجر في «تبصير المنتبه» فذكر ابن صاحب الأمالي جعفراً القالي (٣/ ٩٠٩) فلو كان هذا منهم لذكروه بلا ريب، فضلاً عن أنه مشهور: ذكره ابن بشكوال في الصلة: ١/ ٣٨٢، والمراكشي في المعجب: ٧٦، وابن سعيد في المغرب: ١/ ٣٧٤ وابن شاكر في الفوات: ٢/ ٣٨٨، وراجع هامش الكتاب الأخير ففيه مصادر أخرى، ومع ذلك قد يكون «عيذون» هو الصواب.

وقرأ «التقصِّي» على ابن أبي تليد، أخبرنا أبو عمر مؤلفُهُ.

وسمع «الموطأ» من عياضٍ، ولازمَه زماناً.

قال الأبَّار: ولي قضاء سَبْتَة فشُكِرَ. وكان من سَرَوات الرجال، فقيهاً، مُبرزاً، وأديباً كاملاً، حسن البزَّة، ليِّن الجانب، جَمَعَ بين «سُنَن أبي داود»، و«جامع الترمذي»، وارتحل الناس إليه لعلوِّه.

مات في رجب سنة ستٍّ وثمانين وخمس مئة.

[لماذا لُقِّبَ بزرقون]

قال أبو الربيع بن سالم الحافظ: ومن شيوخي: الفقيه المشاور الحافظ ابن زَرْقون، وزَرْقون لقبٌ لسعيدٍ أبي جدِّه، لُقِّبَ به لشدة حمرته. كان شيخنا أبو عبدالله من جلَّة العلماء الحافظين للمذهب، مع متانة الأدب، وجلالة القدر، وكرم الخلق، وسعة الصدر، واتساع جانب البر، لقيتُه بإشبيلية وقت لقائي لابن الجَدّ، فقرأ عليه «الموطأ» عن الخولانيّ إجازةً بسماعه من عثمان بن أحمد اللخمي، عن أبي عيسى الليثي، وقرأته عليه بسماعه سنة عشرين على القاضي عبدالله بن أحمد بن عمر القيسي الوحيدي بسماعه من مولى الطلاَّع، وقرأت عليه «التقصِّي» لابن عبدالبر بسماعه بمراكش سنة ٥١٦ من موسى بن أبي تَليد، قال: سمعتُه منه سنة ستين وأربع مئة، وقرأتُ عليه «المنتقى» لابن الجارود، عن الخولاني، عن أبي عُمر الطَّلَمَنْكيّ، عن أبي جعفر بن عبدالله بن محمد بن نافع الخزاعي، عنه، و«التيسير» قرأتُه عليه، عن الخَوْلاني، عن المؤلف إجازةً، و«النوادر» للقالي قرأته عليه بقراءته على ابن عَيْذون، وخَلَف بن فرتون، عن الوزير أبي بكر عاصم بن أيوب، عن ابن العزَّاب، عن هارون بن موسى، عنه، وبإجازته من الخولاني، أنبأنا الحسن بن أيوب الحداد الفقيه، عن القالي، وهذا نهاية في العلو.

صدقة بن الحسين[1]

العلامة أبو الفرج ابن الحداد البغدادي الحنبلي الفرضي المتكلم المتهم في دينه.

وأخذ عن ابن عقيل، وابن الزّاغونيّ، وسمع من ابن مَلَّة، واشتغل مدةً، وأَمَّ بمسجدٍ كان يسكنُه، وناظَرَ، وأفتى.

قال ابن الجوزي: يظهَرُ مِن فَلَتات لسانه ما يدلُّ على سوء عقيدته، وكان لا ينضبط، وله ميلٌ إلى الفلاسفة، قال لي مرةً: أنا الآن أُخاصِمُ فَلَكَ الفلك[2]. وقال لي القاضي أبو يَعْلَى الصغير: مُذْ كَتَبَ صَدَقَةُ «الشفاء» لابن سينا تغيَّر. وقال للظهير الحنفي: إني لأفْرَحُ بتعثيري لأن الصانع يقصدني.

مات في ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وسبعين وخمس مئة، وهو في عشر الثمانين.

وكان يطلب من غير حاجةٍ[3]، وخلَّف ثلاث مئة دينار، ورُويت له مناماتٌ نجسة أعاذنا الله من الشقاوة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٦٦.

(٢) كذا وردت في الأصل، وفي «المنتظم» لابن الجوزي الذي ينقل عنه: «أنا لا أخاصم إلا مَنْ فوق الفلك» وفي «تاريخ الإسلام»: «أنا أخاصم الآن فوق الفلك.»

(٣) نقل ابن رجب عن ابن النجار قوله: «وقد نسخ بخطه كثيراً للناس من سائر الفنون، وكان قوته من أجر نسخه، ولم يطلب من أحد شيئاً، ولا سكن مدرسة، ولم يزل قليل الحظ، منكسر الأغراض، متنغص العيش، مقتراً عليه أكثر عمره... فكان ربما شكا حاله لمن يأنس به، فيشنع عليه من له فيه غرض، ويقول: هو يعترض على الأقدار، وينسبه إلى أشياء الله أعلم بحقيقتها» (الذيل: ١/ ٣٣٩-٣٤٠)، ويظهر لنا أن ابن الجوزي قد حطّ عليه في تاريخه حطاً بليغاً لم يكن كله من الحق، قال أبو الحسن القطيعي في ما نقل عنه الحافظ ابن رجب: «كان بينه وبين ابن الجوزي مباينة شديدة، وكل واحد يقول في صاحبه مقالة الله أعلم بها» (الذيل: ١/ ٣٤٠) وقد أثنى عليه محدث بغداد المحبُّ ابن النجار في تاريخه، وقال: «وله مصنَّفات حسنة في أصول الدين، وقد جمع تاريخاً على السنين بدأ فيه وقت وفاة شيخه ابن الزاغوني سنة سبع وعشرين وخمس مئة، مذيلاً به على تاريخ شيخه، ولم يزل يكتب فيه إلى قريب من وقت وفاته، يذكر فيه الحوادث والوفيات» (الذيل: ١/ ٣٣٩) وتاريخ صدقة هذا من مصادر ابن الدبيثي الرئيسة في تاريخه الذي ذيل به على ذيل ابن السمعاني، (انظر مقدمة «ذيل تاريخ مدينة السلام» لابن الدبيثي: ١/ ٤٠).

حمزة بن علي[1]

ابن حمزة بن فارس الإمام شيخ القراء أبو يَعْلَى ابن القُبَّيْطيِّ الحَرانيُّ، ثم البغدادي، أخو المحدِّث أبي الفرج محمد.

وُلد سنة أربع وعشرين وخمس مئة.

قرأ بالروايات على أبيه، وسِبْط الخَيّاط، وأبي الكرم الشَّهْرزوري، وعمر بن ظَفَر، وعلي بن أحمد اليَزْدِيّ.

وكتبَ، وتعبَ، وحَصّل الأصول، لكن احترقت كتبه، وكان مليح الكتابة، مُتْقِناً، إماماً.

قال ابن النَّجار: أكثرت عنه، ولازمته، وسمعتُ منه من كتب القراءات والأدب، وكان ثقةً حجةً نبيلاً موصوفاً بحُسن الأداء وطيب النغمة، يقصده الناس في التراويح، ما رأيتُ قارئاً أحلى نَغْمَةً منه، ولا أحسن تجويداً، مع علو سِنِّه، وانقلاع ثنيَّته، وكان تامّ المعرفة بوجوه القراءات وعِلَلها وحِفْظ أسانيدها وطُرقِها، وكانت له معرفةٌ حسنة بالحديث، وكان دَمِثاً لطيفاً متودِّداً، وكان في صباه من أحسن أهل زمانه وأظرفهم، مع صيانة ونزاهة، وكان من أحسن الشيوخ صورةً، وقد أكثر الشعراء في وصفه فأنشدني يحيى بن طاهر، أنشدنا أبو الفتح محمد بن محمد الكاتب لنفسه في حمزة بن القُبَّيْطي:

تَمَلَّكَ مُهْجَتي ظَبْيٌ غَريرٌ ... ضَنِيتُ بِهِ وَلَمْ أَبْلُغْ مرَادِي

فَتَصْحِيفُ اسْمِهِ في وَجْنَتَيهِ ... وَمِنْ رِيقٍ بِفِيهِ وفي فُؤَادِي

توفي في ثامن عشر ذي الحجة سنة اثنتين وست ومئة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٤١.

[مناهج العلماء فيما يأخذون به أنفسهم في دروسهم ومجالسهم]

قال عبدالقادر الحافظ: وكان أبو طاهر السِّلفي لا تبدو منه جفوة لأحد، ويجلس للحديث، فلا يشرب ماءً، ولا يبزق، ولا يتورك، ولا تبدو له قدم، وقد جاوز المائة، بلغني أنَّ سلطان مصر حضر عنده للسماع، فجعل السلطان يتحدث مع أخيه، فزبرهما، وقال: أيش هذا؟ نحن نقرأ الحديث، وأنتما تتحدثان، وبلغني أن مدة مقامه بالإسكندرية ما خرج منها إلى بستان ولا فرجة سوى مرة واحدة، بل كان ملازماً مدرسته، وما كنا نكاد ندخل عليه إلا ونراه مطالعاً في شيء، وكان حليماً متحملاً لجفاء الغرباء[1].

[علماء فقراء تزوجوا بنساء ثريات]

من العلماء الذين تزوجوا بزوجات ثريات الحافظ السلفي رحمه الله تعالى، قال الذهبي: «استوطن السلفي الإسكندرية، وتزوَّج بها امرأة ذات يسار، وحصلت له ثروة بعد فقر وتصوف، وصارت له بالإسكندرية وجاهة»[2].

[ضيع كتبه لعدم اعتنائه بها]

كان الحافظ السلفي رحمه الله تعالى مغرًى بجمع الكتب والاستكثار منها، وما كان يصل إليه من المال كان يخرجه في شرائها، وكان عنده خزائن كتب، ولا يتفرغ للنظر فيها، فلما مات وجدوا معظم الكتب في الخزائن قد عفنت، والتصق بعضها ببعض لنداوة الإسكندرية، كانوا يستخلصونها بالفأس، فتلف أكثرها[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٢٨.

ابن الحمامي[1]

الإمام المُحدِّث المتقن الواعظ الصالح تقي الدين أبو جعفر وأبو عبدالله محمد ابن محمود بن إبراهيم بن الفرج الهَمَذانيُّ ابن الحَماميّ.

وُلد في أول سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة.

قال ابن النجار: حضرت مجلس إملائه، وكان له القبول التام والصِّيت الشائع، ويتبركون به. قال: وكان من أئمة الحديث وحُفّاظه، وله المعرفة بفقه الحديث، ولغته، ورجاله. وكان فصيحاً حُلو العبارة، منقح الألفاظ، مع تعبّد وزُهد، وكان أمّاراً بالمعروف، ناصراً للسنة، متواضعاً، متودداً، سمحاً، جواداً، استولت التتار في جمادى الآخرة سنة ثماني عشرة وست مئة على هَمَذان فبرز لقتالهم بابنه عُبيد الله فاستُشهدا. عاش سبعين سنة.

[الحافظ السِّلَفي]

الإمام العلامة المحدث الحافظ المفتي شيخ الإسلام شرف المُعَمِّرين، أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهانيُّ الجَرْواني.

ويلقب جدّه أحمد سِلَفه، وهو الغليظ الشفة، فالسِّلَفي مستفاد مع السَّلَفي وهو من كان على مذهب السلف، وُلد سنة خمس وسبعين وأربع مئة، وهو من العلماء المعمرين، توفي وقد بلغ عمره مائة وست سنين، وقد كان يتمنى أن يجوز المائة سنة قبل أن يبلغها، فقد قال في ذلك[2]:

أنـــا مـــن أهـــل الحديـــ ـــث وهـــم خـــير فئـــة

جُـــــزْت تســـــعين وأر جـــو أن أجـــوزنَّ المائـــة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٦١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥-٧.

قال فيه أبو سعد السمعاني «السلفي ثقة، ورع، متقن، متثبت، فهم، حافظ، له حظٌّ من العربية، كثير الحديث، حسن الفهم والبصيرة فيه»[1].

وقد ساق الذهبي قصيدة للسلفي وأثنى فيها على العلماء المحدثين، كمالك، ومعمر، وشعبة، وسفيان، والليث، والأوزاعي، وأحمد بن حنبل وغيرهم، وذكر أئمة الزيغ وحذر منهم كمعبد وواصل بن عطاء، وغيلان، والجعد بن درهم، وغيرهم، وأوصى من يقرأ قصيدته فقال[2]:

فلا تصحب سوى السُّني ديناً ... لتحمد ما نصحتُك في المآلِ

وجانِبْ كلَّ مبتدعٍ تراه ... فما إنْ عندَهم غيرُ المحالِ

ودع آراء أهل الزيغ رأساً ... ولا تغررك حذلقة الرُّذالِ

وقال في ختامها:

فهذا ما أدين به إلهي ... تعالى عن شبيه أو مِثالِ

وما نافاه من خُدعٍ وزورٍ ... ومن بدعٍ فلم يخطرْ ببالي

وأثنى على علماء الحديث بقوله[3]:

إنَّ عِلْمَ الحديث عِلْمُ رجالٍ ... تركوا الابتداعَ للاتّباعِ

فإذا جَنَّ ليلُهم كتبُوه ... وإذا أصبحوا غَدَوا للسماع

وأثنى على نفسه لاشتغاله بعلم الحديث فقال[4]:

ليس على الأرض في زماني ... من شأنه في الحديث شاني

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦.

نظـــماً وضـــبطاً يـــلي عُلُـــوّاً فيـــه عـــلى رغـــم كـــل شـــاني

وقال السلفي رحمه الله تعالى مبيناً المزية التي تجعل الحديث عالي الرتبة[1]:

لـيس حسـنُ الحـديثِ قـربَ رجـالٍ عنـــد أرْبـــابِ علمِـــهِ النقَّـــادِ
بـل عُلُـوُّ الحـديث عنـد أولى الإتـــ ـــقانِ والحفـــظ صـــحة الإســـنادِ
فـــإذا مـــا تجمَّعـــا في حـــديثٍ فاغتنِمْـــه فـــذاك أقـــصى المـــرادِ

[من العلماء السيئين]

[أحمد بن وقشي[2]]

مؤلِّف كتاب «خلع النعلين» فيه مصائب وبدع.

وكان أولاً يدَّعي الولاية، وكان ذا مكر وفصاحة وبلاغةٍ وحِيَلٍ وشَعْبذةٍ، فالتفَّ عليه خلقٌ، ثم خرج بحصن مارْتُلة، ودعا إلى نفسه، وبايعوه، ثم اختلف عليه أصحابه، ودسّوا عليه مَنْ أخرجه من الحصن بحيلةٍ، فقبض عليه أعوان عبدالمؤمن، وأتوه به، فقال له: بلغني أنه دعوتَ إلى الهداية؟! فكان من جوابه أن قال: أليس الفجرُ فجرَين كاذب وصادق؟ قال: بلى. قال: فأنا كنتُ الفجرَ الكاذبَ. فضحكَ، وعفا عنه، وبقي في حضرة السلطان عبدالمؤمن، ثم لم ينشب أن قتله صاحبٌ له على شيءٍ رآه منه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣١٦. وفي كثير من المصادر: أحمد بن قسي.

الزَّبيدي(1)

الإمام القدوة العابد الواعظ، أبو عبدالله، محمد بن يحيى بن علي ابن مسلم بن موسى بن عمران القرشي اليمني الزبيدي، نزيل بغداد، وَجَدُّ المشايخ الرواة.

مولده سنة ستين وأربع مئة.

وقدم دمشق بعد الخمس مئة، فوعظ بها، وأخذ يأمر بالمعروف، فلم يحتمل له الملك طُغْتِكين، وكان نحوياً فقيراً قانعاً مُتألِّهاً، ثم قدم دمشق رسولاً من المسترشد في شأن الباطنية، وكان حنفياً سلفياً.

قال ابنُ هُبيرة: جلستُ معه من بكرة إلى قريب الظهر وهو يَلوك شيئاً، فسألته، فقال: نواةٌ أتعلّل بها لم أجد شيئاً.

قال ابن الجوزي: كان يقول الحق وإن كان مُرّاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، قيل: دخل على الوزير الزَّينبيِّ وعليه خِلْعَةُ الوزارة، وهم يُهَنِّئونه، فقال: هو ذا يومُ عَزاءٍ، لا يومُ هَناء، فقيل: ولم؟ قال: أُهَنِّئُ على لبس الحرير؟!

قال ابن الجوزي: حدثني الفقيه عبدالرحمن بن عيسى، سمعتُ الزبيدي قال: خرجت إلى المدينة على الوحدة، فآواني الليل إلى جبلٍ، فصعدتُ، وناديتُ: اللهم إني الليلةَ ضيفُك. ثم نوديت: مرحباً بضيف الله، إنك مع طلوع الشمس تمر بقومٍ على بئرٍ يأكلون خُبزاً وتمراً، فإذا دعوكَ فأجبْ، فسِرْتُ من الغد، فلاحَتْ لي أهدافُ بئر، فجئتُها، فوجدت عندها قوماً يأكلون خبزاً وتمراً، فدَعوني، فأجبتُ.

قال السمعانيُّ: كان يعرف النحو، ويعظُ، ويسمعُ معنا من غير قصدٍ من القاضي أبي بكر وغيره، وكان فنّاً عجيباً، وكان في أيام المُسترشد يخضب بالحناء،

---

(1) سير أعلام النبلاء ٢٠/٣١٦.

ويركب حماراً مخضوباً بالحِنّاء، وكان يجلس ويجتمع عنده العوامُّ، ثم فتر سوقُهُ، ثم إنّ الوزير ابنَ هُبيرة رغب فيه، ونَفَقَ عليه.

[فتاوى غريبة]

سمعتُ جماعةً يحكون عنه أشياء السكوت عنها أولى، وقيل: كان يذهب إلى مذهب السالمية، ويقول: إنَّ الأموات يأكلون ويشربون وينكحون في قبورهم، وإنَّ الشاربَ والزاني لا يُلام، لأنه يفعلُ بقضاء الله وقَدَرِه.

قلتُ: يحتجُّ بقصة آدم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وبقول آدم: أتلومُني؟ وأنه حجَّ موسى، ولو سلَّمنا أن الزاني لا يُلام، فعلينا أن نحدَّهُ ونُغَرِّبه، ونَذُمَّ فعلَه، ونردَّ شهادته، ونكرهَه، فإنْ تاب واتقى أحببناه واحترمناه، فالنزاعُ لفظيٌّ.

قال: وسمعتُ عليَّ بن عبدالملك يقول: زاد الزبيديُّ في أسماء الله أسامي: الزارع، والمُتمم، والمُبهم، والمُظْهِر.

قال ابن عساكر: قال ولدُه إسماعيل: كان أبي في كل يوم وليلة من أيام مرضه يقول: الله الله، نحواً من خمسة عشر ألف مرة، فما زال يقولها حتى طُفِئ.

وقال ابن شافع: كان له في علم العربية والأصول حظٌّ وافر، وصنَّف في فنون العلم نحواً من مئة مصنَّف، ولم يُضيِّع شيئاً من عمره، وكان يخضب بالحنّاء، ويعتمُّ مُلتحياً دائماً، حُكيتْ لي عنه من جهاتٍ صحيحة غيرُ كرامة، منها رؤيتُهُ للخضر، توفي في ربيع الآخر سنة خمسٍ وخمسين وخمسمئة رحمه الله.

القاضي عياض[1]

الإمام العلامة الحافظ الأوحد، شيخ الإسلام، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليَحْصَبي الأندلسي، ثم السَّبْتي المالكي.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢١٢.

وُلد في سنة ستٍّ وسبعين وأربع مئة.

تحول جدُّهم من الأندلس إلى فاس، ثم سكن سَبْتَة.

وتفقه بأبي عبدالله محمد بن عيسى التميمي، والقاضي محمد بن عبدالله المَسيلي.

واستبحرَ من العلوم، وجمع وألَّف، وسارت بتصانيفه الركبانُ، واشتهر اسمُه في الآفاق.

قال خَلَف بنُ بَشْكُوال: هو من أهل العلم والتفنُّن والذكاء والفهم، واستُقضي بسَبْتَة مدةً طويلة حُمِدَتْ سيرتُه فيها، ثم نُقل عنها إلى قضاء غرناطة، فلم يُطوّل بها، وقدم علينا قرطبة، فأخذنا عنه.

وقال الفقيه محمد بن حمّادُه السَّبْتي: جلس القاضي للمناظرة وله نحوٌ من ثمانٍ وعشرين سنة وولي القضاء وله خمسٌ وثلاثون سنة، كان هَيِّناً من غير ضعفٍ، صليباً في الحق، تفقَّه على أبي عبدالله التميمي، وصحب أبا إسحاق بن جعفر الفقيه، ولم يكن أحدٌ بسَبْتَة في عصرٍ أكثرَ توالفَ من تواليفه، له كتاب «الشفا في شرف المصطفى» مجلد، وكتاب «ترتيب المدارك وتقريب المسالك في ذكر فقه مذهب مالك» في مجلدات، وكتاب «العقيدة»، وكتاب «شرح حديث أم زرع»، وكتاب «جامع التاريخ» الذي أربى على جميع المؤلفات، جمع فيه أخبار ملوك الأندلس والمغرب، واستوعَب فيه أخبار سَبْتَة وعلماءها، وله كتاب «مشارق الأنوار في اقتفاء صحيح الآثار»: «الموطأ» و«الصحيحين»...

إلى أن قال: وحاز من الرئاسة في بلده والرفعة ما لم يصل إليه أحدٌ قطُّ من أهل بلده وما زاده ذلك إلا تواضعاً وخشيةً لله تعالى، وله من المؤلفات الصغار أشياء لم نذكرها.

قال القاضي شمس الدين في «وفيات الأعيان»: هو إمام الحديث في وقته، وأعرف الناس بعلومه، وبالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم.

قال: ومن تصانيفه كتابُ «الإكمال في شرح صحيح مسلم» كَمَّلَ به كتاب «المُعْلَم» للمازَري، وكتاب «مشارق الأنوار» في تفسير غريب الحديث، وكتاب «التنبيهات» فيه فوائد وغرائب، وكلُّ تواليفه بديعة، وله شِعر حسن.

[رأي الذهبي]

قلت: تواليفُه نفيسةٌ، وأجلُّها وأشرفُها كتاب «الشِّفا» لولا ما قد حشاهُ بالأحاديث المفتعلة، عَمَلَ إمامٍ لا نَقْدَ له في فنِّ الحديث ولا ذوق، والله يُثيبُه على حُسن قصده، وينفعُ بـ «شفائه»، وقد فَعَلَ، وكذا فيه من التأويلات البعيدة ألوانٌ، ونبيُّنا صلوات الله عليه وسلامُه غنيٌّ بمدْحَةِ التنزيلِ عن الأحاديث، وبما تواتر من الأخبار عن الآحاد، وبالآحاد النظيفة الأسانيد عن الواهيات، فلماذا يا قوم نتشبَّع بالموضوعات، فيتطرقُ إلينا مقالُ ذوي الغِلِّ والحسد، ولكن مَنْ لا يعلم معذورٌ، فعليك يا أخي بكتاب «دلائل النبوة» للبيهقي، فإنه شفاءٌ لما في الصدور وهدىً ونور.

قال القاضي ابن خلِّكان: شيوخ القاضي يقاربون المئة، توفي في سنة أربع وأربعين وخمس مئة في رمضانها، وقيل: في جمادى الآخرة منها بمراكش، ومات ابنُه في سنة خمس وسبعين وخمس مئة.

قال ابنُ بَشْكُوال: توفي القاضي مُغرَّباً عن وطنِه في وسط سنة أربع.

وقال ولدُه القاضي محمد: توفي في ليلة الجمعة نصف الليلة التاسعة من جمادى الآخرة، ودُفن بمراكش سنة أربع[1].

---

(١) أي: وخمس مئة «التعريف بالقاضي عياض» ص١٣ بتحقيق د. محمد بن شريفة طبع المغرب سنة ١٩٨٢م وجاء في حاشية الأصل بخط مغاير ما نصُّه:
أخبرني الشيخ الإمام أبو عمرو بن حماج أن قبر القاضي عياض بناحية باب أغمات من مراكش بإزاء كنيسة كانت هناك، وكان لا يُعرف لدُروسِهِ واستيلاء النصارى على مدفنه وما حولَه حين أباحه لهم بعض الملوك، وأن في سنة اثنتي عشرة وسبع مئة أو قبلَها أو بعدَها بقليل أراد اللهُ تعالى إظهارَ قبره، فغضب أبو يعقوب المَريني على نصارى مراكش، وأباح أموالَهم للمسلمين، =

قلتُ: بلغني أنه قُتل بالرماح لكونِه أنكر عصمة ابنِ تومَرْت.

التيمي[1]

الإمام العلاّمة الحافظ، شيخُ الإسلام، أبو القاسم، إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي بن أحمد بن طاهر القرشيُّ التيميُّ، ثم الطَّلْحيُّ[2] الأصبهاني المُلقّب بقوام السُّنة، مصنِّف كتاب «الترغيب والترهيب».

مولده في سنة سبعٍ وخمسين وأربع مئة.

قال أبو موسى المديني: والدتُه كانت من ذرية طلحة بن عُبيد الله التَّيمي أحد العشرة رضي الله عنهم.

قال أبو موسى: ولا أعلمُ أحداً عابَ عليه قولاً ولا فعلاً، ولا عانده أحدٌ إلا ونصره الله، وكان نَزِهَ النَّفْس عن المطامع، لا يدخل على السلاطين، ولا على من اتصل بهم، قد أخلى داراً من مُلكِهِ لأهلِ العلم مع خِفَّة ذات يده، ولو أعطاهُ الرجل الدنيا بأسرِها لم يرتفع عنده، أملى ثلاثة آلاف وخمس مئة مجلس، وكان يُملي على البديهة.

وقال الحافظ يحيى بنُ مَنْدة: كان أبو القاسم حسن الاعتقاد، جميل الطريقة، قليل الكلام، ليس في وقته مِثْلُه.

مات يوم النحر سنة خمس وثلاثين.

= فنهبت ديارُهم، وتخيّلوا أن النصارى يَدْفِنون الحُلِيَّ التي لهم مع موتاهم، فحملهم ذلك على نبش القبور التي حولَ الكنيسة، فبيناهم كذلك إذ ظهرت علامةُ قبر القاضي وتاريخُه، ففرح الفقهاء بذلك، وأمر القاضي أبو سحاق بن الصباغ بتسوية ما حولَ القبر وإشهاره وإظهاره، وبنى عليه قبة عظيمة ذات أربعة أوجه، وألزم الفقهاء بالتردد إلى هناك لتلاوة القرآن ليشتهر القبرُ. قال لي أبو عمر: أنا جئتُ إلى القبة المذكورة ودعوتُ الله تعالى، فاستجابَ لي. والله أعلم.

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٨٠.

(٢) نسبةً إلى الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله من جهة أمه كما سيذكر المؤلف

ابن العربي[1]

الإمام العلامة الحافظ القاضي، أبو بكر، محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله، ابنُ العربي الأندلسيُّ الإشبيليُّ المالكي، صاحب التصانيف.

سأله ابنُ بَشْكُوال عن مولدِه، فقال: في سنة ثمانٍ وستين وأربع مئة.

سمع من خالِهِ الحسن بن عمر الهَوْزَنيّ وطائفةٍ بالأندلس.

وكان أبوه أبو محمدٍ من كبار أصحاب أبي محمد بن حزم الظاهري بخلاف ابنِهِ القاضي أبي بكر، فإنه مُنافِرٌ لابن حزم، مُحِطٌّ عليه بنفسٍ ثائرة.

وتَفَقَّهَ بالإمام أبي حامدٍ الغزّالي، والفقيه أبي بكرٍ الشاشي، والعلاّمة الأديب أبي زكريا التِّبْريزيِّ، وجماعة.

رجع إلى الأندلس في سنة إحدى وتسعين وأربعمئة.

قلتُ: رجع إلى الأندلس بعد أن دفنَ أباهُ في رحلتِهِ -أظنُّ ببيت المَقْدس- وصنَّف، وجمع، وفي فنون العلم بَرَعَ، وكان فصيحاً بليغاً خطيباً.

صنّف كتاب «عارضة الأحوذي في شرح جامع أبي عيسى الترمذي»، وفسَّر القرآن المجيد، فأتى بكل بديع، وله كتاب «كوكب الحديث والمسلسلات»، وكتاب «الأصناف» في الفقه، وكتاب «أمهات المسائل»، وكتاب «نزهة الناظر» وكتاب «ستر العورة»، و«المحصول» في الأصول، و«حسم الداء في الكلام على حديث السوداء»، كتاب في الرسائل وغوامض النحويين، وكتاب «ترتيب الرحلة للترغيب في الملة» وأشياء سوى ذلك لم نشاهدها.

واشتهر اسمُهُ، وكان رئسياً مُحتشماً، وافرَ الأموال بحيث أنشأ على إشبيلية سوراً من ماله.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٩٧.

وكان ثاقبَ الذهن، عذبَ المنطق، كريم الشمائل، كامل السُّؤدُد، ولي قضاء إشبيلية، فحُمِدَتْ سياسَتُهُ، وكان ذا شِدَّةٍ وسطوة، فعُزِلَ، وأقبل على نشر العلم وتدوينه.

وصفه ابن بَشْكُوال بأكثر من هذا، وقال: أخبرني أنه ارتحل إلى المشرق في سنة خمسٍ وثمانين وأربع مئة، وسمعتُ منه بقرطبة وبإشبيلية كثيراً.

وقال غيرُه: كان أبوه رئيساً وزيراً عالماً أديباً شاعراً ماهراً، اتفق موتُه بمصر في أول سنة ثلاثٍ وتسعين، فرجع ابنه إلى الأندلس.

قال أبو بكر محمدُ بن طرخان: قال لي أبو محمد بنُ العربي: صحبتُ ابن حزم سبعة أعوام، وسمعتُ منه جميع مُصنَّفاته سوى المُجَلَّد الأخير من كتاب «الفِصَل» وقرأنا من كتاب «الإيصال» له أربع مجلدات، ولم يَفُتني شيءٌ من تواليفه سوى هذا.

كان القاضي أبو بكر ممن يقال: إنه بلغ رتبة الاجتهاد.

قال ابنُ النجار: حدَّث ببغداد بيسيرٍ وصنَّف في الحديث والفقه والأصول وعلوم القرآن والأدب والنحو والتواريخ، واتَّسع حالُه، وكثُر إفضالُه، ومدحَته الشعراء، وعلى بلده سورٌ أنشأهُ من ماله.

وقد ذكره الأديب أبو يحيى اليسعُ بنُ حزم، فبالغ في تقريظه، وقال: وليَ القضاء فمحن، وجرى في أعراض الإمارة فلحن، وأصبح تتحركُ بآثارِه الألسنة، ويأتي بما أجراه عليه القَدَرُ النومُ والسِّنَة، وما أراد إلا خيراً، نصَبَ السلطانُ عليه شِباكه، وسكَّن الإدبارُ حَراكَه، فأبداه للناس صورةً تُذَمُّ، وسورةً تُتلى، لكونه تعلَّق بأذيال المُلك، ولم يجرِ مجرى العُلماء في مُجاهرة السلاطين وحِزبهم، بل داهن، ثم انتقل إلى قرطبة مُعظَّماً مُكرَّماً حتى حُوِّل إلى العُدْوة، فقضى نحبَه.

قرأتُ بخط ابن مَسْدي في «معجمه»، أخبرنا أحمد بن محمد بن مُفرج النَّباتيّ، سمعتُ ابنَ الجَدِّ الحافظ وغيرَه يقولون: حضر فقهاء إشبيلية: أبو بكر بن المُرَجّى

وفلان وفلان، وحضر معهم ابنُ العربي، فتذاكروا حديث المِغْفَر، فقال ابنُ المُرَجّى: لا يُعرف إلا من حديث مالكٍ عن الزُّهري. فقال ابنُ العربي: قد رويتُه من ثلاثة عشر طريقاً غير طريق مالك. فقالوا: أفِدْنا هذا. فوعدَهم، ولم يُخرِج لهم شيئاً، وفي ذلك يقول خلَفُ بنُ خير الأديب:

يا أهلَ حِمْصَ ومَنْ بها أُوصيكُمُ ... بالبِرِّ والتقوى وصيَّةَ مُشْفِقِ
فخُذُوا عن العَرَبِيِّ أسمارَ الدُّجى ... وخُذُوا الرِّوايةَ عن إمامٍ مُتَّقِ
إنَّ الفتى حُلْوُ الكَلامِ مُهذَّبٌ ... إن لم يَجِدْ خَبَراً صحيحاً يَخْلُقِ

قلت: هذه حكاية ساذجةٌ لا تدلُّ على تعمُّد، ولعل القاضي رحمه الله وَهِمَ، وسرى ذهنُه إلى حديثٍ آخر، والشاعرُ يخلُقُ الإفك، ولم أَنْقُمْ على القاضي رحمه الله إلا إقذاعَه في ذَمِّ ابن حزم واستجهالَه له، وابنُ حزم أوسعُ دائرةً من أبي بكر في العلوم، وأحفَظُ بكثير، قد أصابَ في أشياء وأجاد، وزَلَق في مضايق كغيره من الأئمة، والإنصافُ عزيز.

قال أبو القاسم بن بشكوال: توفي ابنُ العربي بفاس في شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وأربعين وخمس مئة. وفيها ورَّخهُ الحافظ أبو الحسن بن المُفَضَّل وابنُ خَلِّكان.

المازَري[1]

الشيخ الإمام العلاّمة البحرُ المُتفنّن، أبو عبدالله، محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري المالكي.

مصنِّف كتاب «المُعْلِم بفوائد شرح مسلم» ومصنف كتاب «إيضاح المحصول» في الأصول، وله تواليف في الأدب، وكان أحد الأذكياء، الموصوفين

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٠٤.

والأئمة المُتبحِّرين، وله شرحُ كتاب «التلقين» لعبدالوهاب المالكي في عشرة أسفار، هو من أنفس الكتب.

وكان بصيراً بعلم الحديث.

حدث عنه: القاضي عياض، وأبو جعفر بن يحيى القرطبي الوزغي.

مولدُه بمدينة المَهْدِيّة من إفريقية، وبها مات في ربيع الأول سنة ستٍّ وثلاثين وخمس مئة، وله ثلاث وثمانون سنة.

ومازَر: بُليدة من جزيرة صَقَلّية بفتح الزاي وقد تُكسر. قيَّده ابنُ خلِّكان.

قيل: إنه مرض مرضةً، فلم يجد من يُعالجه إلا يهوديٌّ، فلما عُوفي على يده، قال: لولا التزامي بحفظ صناعتي لأعدمتُكَ المسلمين. فأثَّر هذا عند المازَري، فأقبل على تعلُّم الطب حتى فاقَ فيه، وكان ممن يُفتي فيه كما يُفتي في الفقه.

وقال القاضي عياض في «المدارك»: المازَريُّ يُعرف بالإمام، نزيلُ المهديّة قيل: إنه رأى رؤيا، فقال: يا رسول الله، أحقٌّ ما يدعُونني به؟ إنهم يدعونني بالإمام. فقال: وسِّعْ صدرَكَ للفُتيا.

ثم قال: هو آخر المتكلمين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه، ورتبة الاجتهاد، ودقة النظر، أخذ عن اللَّخمي، وأبي محمد عبدالحميد السوسي وغيرهما بإفريقية، ودرس أصول الفقه والدين، وتقدَّم في ذلك، فجاء سابقاً، لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض أفقهُ منه ولا أقْوَمُ بمذهبهم. سمع الحديث، طالع معانيه، واطَّلع على علوم كثيرةٍ من الطبّ والحساب والآداب وغير ذلك، فكان أحد رجال الكمال، وإليه كان يُفزَعُ في الفُتيا في الفقه، وكان حسن الخُلُق، مليح المُجالسة، كثير الحكاية والإنشاد، وكان قلمُه أبلغَ من لسانه، ألَّف في الفقه والأُصول، وشرح كتاب مسلم، وكتاب «التلقين»، وشرح «البرهان» لأبي المعالي الجُويني.

ابن الفارض(1)

شاعر الوقت شرفُ الدين عمر بن عليّ بن مُرْشِد الحَمَوِيُّ ثم المِصْريُّ صاحب الاتحاد(2) الذي قد ملأ به التائية(3).

توفي سنة اثنتين وثلاثين وست مئة، وله ست وخمسون سنة.

روى عن القاسم بن عساكر.

[رأي الذهبي فيه]

حَدَّث عنه المُنذِريُّ. فإن لم يكن في تلك القصيدة صريح الاتحاد الذي لا حيلةَ في وجوده، فما في العالم زندقة ولا ضلال، اللهم ألهمنا التقوى، وعذنا من الهوى فيا أئمة الدين ألا تغضبون لله؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله.

توفي في جمادى الأولى سنة ٦٣٢هـ، وقد حج وجاور، وكان بزَنق الفقر. وشعره في الذروة لا يُلْحَق شأوُه.

غلام ابن المَنِّيّ(4)

العلاّمة الأصوليُّ الفيلسوف فخر الدين إسماعيل بن علي بن الحسين الأزَجِيُّ المأمونيُّ الحنبلي، صاحب العلاّمة ناصح الإسلام ابن المَنِّي(5).

مولده في صفر سنة تسع وأربعين وخمس مئة، وتفقه على ابن المَنِّي وسَمِعَ منه. وسمع «مشيخة شُهْدَة» منها. وسمع من لاحق بن كارِه، وأشغل بمسجد المأمونية بعد شيخه، وكانت له حلقة بجامع القصر للنظر، وكان يتوقَّد ذكاء.

---

(1) سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٦٨.

(2) يعني ما يعرف في عصرنا: بوحدة الوجود.

(3) ومطلعها:

نعـم بالصـبا قلبـي صـبا لأحبتـي فيـا حبـذا ذاك الشـذا حـين هبـت

وقد أورد الذهبي منها جملة في «تاريخ الإسلام» دلل بها على اتحاده.

(4) سير أعلام النبلاء ٢٢/٢٨.

(5) نصر بن فتيان ابن المني.

له تصانيف في المعقول، وتعليقة في الخلاف. وتخرج به الأصحاب، ورُتِّب ناظراً في ديوان المُطَبّق، فذُمَّت سيرتُهُ، فعُزِلَ، وبقي محبوساً مدة، وأُخرج، وتمرَّض أشهراً.

قال ابن النجار: برعَ الفخر إسماعيل في المذهب والأصلين والخِلاف، وكان حسن العبارة، مُقتدراً على رد الخُصوم، كانت الطوائف مجمعة على فضله وعِلمِه. إلى أن قال: ولم يكن في دينه بذاك، حكى لي ابنُهُ عبدالله في معرض المدح له: أنه قرأ المنطق والفلسفة على ابن مرقش النصراني، فكان يتردد إلى البيعة.

قال ابن النجار: سمعتُ من أثِقُ به أن الفخر صنَّف كتاباً سمّاه: «نواميس الأنبياء» يذكر فيه أنهم كانوا حكماء كهُرمس وأرسطو، فسألتُ بعض تلامذته الخصيصين به عن ذلك فما أنكره، وقال: كان مُتَسمحاً في دينه، متلاعباً به.

لما ظهرت الإجازة للناصر لدين الله كتب ضراعة يسأل فيها أن يُجاز، فوقَّع الناصر فيها: لا يصلح للرواية، فطال ما كانت السعاياتُ بالناس تصدر منه إلينا. ثم شُفِعَ فيه، فأُجيز له. وكان دائماً يقع في رواة الحديث، ويقول: هم جُهَّال لا يعرفون العلوم العقلية، ولا معاني الحديث الحقيقية، بل هم مع اللفظ الظاهر. سمع منه جماعة ولم أسمع منه، ولا كلَّمتُهُ كلمة. مات في ثامن ربيع الأول سنة عشر وست مئة.

قلت: أخذ عنه الشيخ مجد الدين ابن تيمية.

[عالم فاسد العقيدة]

عبدالسلام

ابن الفقيه عبدالوهاب ابن الشيخ عبدالقادر الجِيليِّ[1]، الركن أبو منصور الفاسد العقيدة التي أُحرِقت كتبه، وكان خِلاً لعلي ابن الجوزي يجمعهما عدمُ الورع!

وُلد سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٥٥.

وسمع من جدِّه، وابن البَطِّي، وأحمد بن المُقَرَّب، وما سمعوا منه شيئاً. دَرَّس بمدرسة جده، ووليَ أعمالاً.

قال ابن النجار: ظهر عليه بخطه بتخير الكواكب ومخاطبتها بالإلهية، وأنها مُدبِّرة، فأُحضِرَ، فقال: كتبتُه تعجّباً لا مُعْتَقِداً. فأُحرِقَتْ مع كتب فلسفية بخطه في ملأ عظيم سنة ٥٨٨، وأُعطيت مدارسه لابن الجوزي، فهذا كان السبب في اعتقال ابن الجوزي خمسة أعوام بواسط، ولي وزيرٌ شيعيٌّ، فمكَّن الرُّكن من ابن الجوزيِّ، وبعد سنة ست مئة أُعيد إلى الركن المدارس، ثم رتب عميداً ببغداد ومستوفياً للمكس، وتمكن، فظلمَ وعَسَفَ، ثم حُبِسَ وخَمَلَ.

قال ابن النجار: كان ظريفاً، لطيفَ الأخلاق، إلا أنه كان فاسد العقيدة.

مات في رجب سنة إحدى عشرة وست مئة.

السائح[1]

الزاهد الفاضل الجَوَّال الشيخ عليُّ بن أبي بكر الهَرَويُّ الذي طَوَّفَ غالب المَعْمُور، وقل أن تجد موضعاً معتبراً إلا وقد كتب اسمَه عليه.

مولده بالموصل، واستوطن في الآخر حلب، وله بها رباط. وجمع تواليف وفوائد وعجائب. وكان حاطب ليلٍ دخل في السِّحْر والسِّيمياء ونفق على الظاهر صاحب حلب، فبنى له مدرسة، فدرَّس بها وخطب بظاهر حلب وكان غريباً مشعوذاً، حلو المجالسة.

قال ابنُ خلِّكان: كاد أن يُطبق الأرض بالدوران براً وبحراً وسهلاً ووعراً، حتى ضُرِبَ به المثل، فقال ابنُ شمس الخلافة في رجل[2]:

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٥٦.

(٢) كان يستجدي الناس بأوراقه.

أوْرَاقُ كذبتِـهِ[1] في بَيْـتِ كُـلِّ فتـىً عَـلَى اتِّفَـاقِ مَعَـانٍ واخْـتِلافِ رَوِي
قَدْ طَبَّـقَ الأرْضَ مِـن سَـهْلٍ إلى جَبَـلٍ كأنَّـهُ خَـطُّ ذَاكَ السّـائحِ الهَـرَوي

قال ابنُ واصل: كان عارِفاً بأنواع الحيل والشعبذة، ألّف خُطباً وقدّمها للناصر لدين الله، فوقَّع له بالحِسْبَة في سائر البلاد فبقي له شرفٌ بهذا التوقيع معه، ولم يُباشر شيئاً من ذلك.

قلتُ: سَمِعَ من عبدالمنعم ابن الفُرَاوي سُباعياته. ورأيتُ له كتاب المزارات والمشاهد التي عاينها[2]، ودخل إلى جزائر الفرنج ،وكاد أن يُؤْسَرَ. وقبرُه في قبة بمدرسته بظاهر حلب.

مات في رمضان سنة إحدى عشرة وست مئة، وقد شاخ.

[من العلماء الضالين]

العزّ الضرير[3]

العلاّمة المتفنن الفيلسوف الأصولي عز الدين حسن بن محمد بن أحمد بن نجا الإربليُّ الضرير الرافضي نزيل دمشق.

كان باهراً في علوم الأوائل. أقرأ في بيته مدةً، وكان يقرئ الفلاسفة والمسلمين والذمة، وله هيبةٌ وصولةٌ، إلا أنه كان يُخِلّ بالصلوات، وطويّتُهُ خبيثةٌ، وكان قَذِراً، لا يتوقَّى النجاسات، ابتلي بأمراض وعُمِّرَ، كان أحد الأذكياء.

مات سن ستين وست مئة وله أربعٌ وسبعون سنة.

---

(١) في وفيات الأعيان: كُديته.

(٢) اسمه: «الإشارات إلى معرفة الزيارات»، وهو مطبوع مشهور.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٥٣.

[توفي على طريقة حميدة بعد أن سلك الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية]

فخر الدين الرازي[1]

العلاّمة الكبير ذو الفنون فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الطَّبَرَستاني الأصولي المفسِّر كبير الأذكياء والحكماء والمصنفين.

وُلد سنة أربع وأربعين وخمس مئة.

واشتغل على أبيه الإمام ضياء الدين خطيب الرَّي، وانتشرت تواليفه في البلاد شرقاً وغرباً، وكان يتوقَّدُ ذكاءً، وقد سُقتُ ترجمتَهُ على الوجه في «تاريخ الإسلام». وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائِم وسحرٌ وانحرافات عن السنُّة، والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة، والله يتولى السرائر.

مات بهَرَاة يوم عيد الفِطْر سنة ست وست مئة، وله بضعٌ وستون سنة، وقد اعترف في آخر عُمره حيث يقول[2]:

لقد تأملتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عَليلاً ولا تَروي غليلاً، ورأيتُ أقربَ الطرق طريقة القرآن، أقرأُ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ﴾ [فاطر:١٠] وأقرأُ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] ومَن جَرَّبَ مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٠٠.

(٢) هذا جزء من وصيته التي أوصى بها لما احتضر لتلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصبهاني، وقد أوردها المؤلف في «تاريخ الإسلام»، كما أوردها التاج السبكي في «طبقات الشافعية» وغيره.

[الفيلسوف الفقيه الطبيب]

ابن رُشْد الحفيد(1)

العلاّمة. فيلسوف الوقت، أبو الوليد، محمد بن أبي القاسم أحمد ابن شيخ المالكية أبي الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رُشْدٍ القرطبي.

مولدُه قبل موت جدِّه بشهرٍ سنة عشرين وخمس مئة.

عرض «الموطأ» على أبيه.

وأخذ عن أبي مروان بن مسرَّة وجماعةٍ، وبرع في الفقه، وأخذ الطب عن أبي مروان بن حزْبُول، ثم أقبَل على علوم الأوائل وبلاياهم، حتى صار يضربُ به المثل في ذلك.

قال الأبَّار: لم ينشأ بالأندلس مثله كمالاً وعلماً وفضلاً، وكان متواضعاً، منخفض الجناح، يقال عنه: إنه ما ترك الاشتغال مذْ عَقَلَ سوى ليلتين: ليلة موت أبيه، وليلة عرسه وإنه سوَّد في ما ألَّف وقيَّد نحواً من عشرة آلاف ورقةٍ، ومالَ إلى علوم الحكماء، فكانتْ له فيها الإمامةُ. وكان يُفْزَعُ إلى فُتْياهُ في الطب، كما يُفْزَعُ إلى فُتْياهُ في الفقه، مع وفور العربية، وقيل: كان يحفظ ديوان أبي تمام والمتنبي.

وله من التصانيف: «بداية المجتهد» في الفقه، و«الكليات» في الطب، و«مختصر المستصفى» في الأصول، ومؤلَّفٌ في العربية.

وولي قضاء قرطبة، فحُمِدَتْ سيرتُه.

قال ابنُ أبي أُصَيْبِعَة في «تاريخ الحكماء»: كان أوحدَ في الفقه والخلاف، وبرع في الطب، وكان بينه وبين أبي مروان بن زهرٍ مودَّةٌ، وقيل: كان رَثَّ البِزَّة، قويَّ النفس، لازم في الطب أبا جعفر بن هارون مدةً، ولما كان المنصور صاحبُ المغرب بقرطبة، استدعى ابن رشدٍ، واحترمَهُ كثيراً، ثم نَقَمَ عليه بعدُ، -يعني لأجل

---

(1) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٠٧.

الفلسفة-. وله «شرح أرجوزة ابن سينا» في الطب، و«المقدمات» في الفقه، كتابُ «الحيوان»، كتاب «جوامع كتب أرسطوطاليس»، «شرح كتاب النَّفس»، كتابٌ «في المنطق»، كتاب «تلخيص الإلاهيات» لنيقولاوس، كتاب «تلخيص ما بعد الطبيعة» لأرسطو، كتابُ «تلخيص الاستقصات» لجالينوس، ولخَّص له كتاب «المزاج»، وكتاب «القوى»، وكتابَ «العلل»، وكتاب «التعريف»، وكتاب «الحُمَّيَاتِ»، وكتاب «حيلة البرءِ» ولخَّص كتاب «السماع الطبيعي»، وله كتاب «تهافت التهافت»، وكتاب «منهاج الأدلة» أصول، وكتاب «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»، كتاب «شرح القياس» لأرسطو، «مقالة في العقل»، «مقالةٌ في القياس»، كتاب «الفحص في أمر العقل»، «الفحص عن مسائل في الشفاء»، «مسألةٌ في الزمان»، «مقالةٌ فيما يعتقده المشاؤون وما يعتقدُهُ المتكلِّمون في كيفية وجود العالم»، «مقالة في نظر الفارابي في المنطق ونظر أرسطو»، «مقالةٌ في اتصال العقل المُفارِق للإنسان»، «مقالةٌ في وجود المادة الأولى»، «مقالة في الرد على ابن سينا»، «مقالة في المزاج»، «مسائل حكمية»، «مقالة في حركة الفَلَك»، كتاب «ما خالف فيه الفارابي أرسطو».

قال شيخ الشيوخ ابنُ حمُّويه: لما دخلتُ البلاد، سألتُ عن ابن رُشْدٍ، فقيل: إنه مهجورٌ في بيته من جهة الخليفة يعقوب، لا يدخلُ إليه أحدٌ؛ لأنه رُفعتْ عنه أقوالٌ رديَّةٌ، ونُسبتْ إليه العلوم المهجورة، ومات محبوساً بدارِه بمراكش في أواخر سنة أربع.

وقال غيرُه: ماتَ في صفر، وقيل: ربيع الأول سنة خمسٍ [وتسعين وخمس مئة].

السَّهْرَوَرْدِيّ الفيلسوف(١)

العلاّمة، الفيلسوف السيماوي المنطقي، شهاب الدين يحيى بن حَبَش بن أميرك السهروردي، من كان يتوقَّد ذكاءً، إلا أنه قليل الدين.

وقال ابن أبي أصيبعة: اسمه عُمَر، وكان أوحدَ في حكمةِ الأوائل، بارعاً في أصول الفقه، مفرط الذكاء، فصيحاً، لم يناظر أحداً إلا أرْبى عليه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٠٧.

قال الفخر المارديني: ما أذكى هذ الشاب وأفصحَه، إلا أني أخشى عليه لكثرة تهوُّرِه واستهتارِه.

قال: ثم إنه ناظر فقهاء حلب، فلم يُجارِه أحدٌ، فطلبه الظاهر، وعقد له مجلساً، فبانَ فضلُهُ، فقرَّبَهُ الظاهر، واختصَّ به، فشنَّعوا، وعملوا محاضر بكُفرِهِ، وبعثُوها إلى السلطان، وخوَّفوه أن يُفسِدَ اعتقاد ولده، فكتب إلى ولده بخط الفاضل[1] يأمره بقتله حتماً، فلما لم يبقَ إلا قتلُه، اختارَ لنفسه أن يُمات جوعاً، ففعل ذلك في أواخر سنة ستٍّ وثمانين وخمس مئة[2] بقلعة حلب، وعاش ستاً وثلاثين سنة.

قال ابن أبي أُصيبعة: وحدثني إبراهيم بن صدقة الحكيم، قال: خرجنا من باب الفرج معه، فذكرنا السيمياء، فقال: ما أحسن هذه المواضع، فنظرنا من ناحية الشرق جواسق مبيضةً كبيرة مزخرفةً، وفي طاقاتها نساءٌ كالأقمار ومغاني فتعجبنا، وانذهلنا، فبقينا ساعةً، وعدنا إلى ما كنا نعهده، إلا أني عند رؤية ذلك بقيتُ أُحسُّ من نفسي كأنني في سِنَةٍ خفيةٍ، ولم يكن إدراكي كالحالة التي أتحققها مني. وحدثني عجميٌّ قال: كنا مع السهروردي بالقابون[3]، فقلنا: يا مولانا، نريد رأس غنم، فأعطانا عشرة دراهم، فاشترينا بها رأساً، ثم تنازعنا نحن والتركماني[4]، فقال الشيخ: روحوا بالرأس، أنا أُرضيه، ثم تَبِعَنا الشيخ، فقال التركماني: أرضني، فما كلَّمه، فجاء، وجذب يَدَه، فإذا بيد الشيخ قد انخلعت من كتِفِهِ، وبقيت في يد ذاك، ودمها يشخب، فرماها، وهرب، فأخذ الشيخ يده باليد الأخرى، وجاء، فرأينا في يده منديله لا غير.

---

(١) يعني القاضي الفاضل.

(٢) سيأتي القول بأنَّ مقتله كان في أوائل سنة ٥٨٧.

(٣) قرية على باب دمشق في طريق من يتوجه إلى حلب.

(٤) كأن التركماني في هذه الحكاية هو صاحب الغنم.

قال الضياء صقر: في سنة تسعٍ وسبعين قَدِمَ السُّهْرَوردي، ونزل في الحلاوية[1]، ومُدرِّسها الافتخار الهاشمي، فبحث، وعليه دلق[2] وله إبريقٌ وعُكَّازٌ، فأخرج له الافتخار ثوبَ عتابيٍّ[3]، وبقياراً[4]، وغلالةً، ولباساً مع ابنه إليه، فقال: اقضِ لي حاجةً، وأخرج فَصّاً كالبيضة، وقال: نادِ لي عليه، قال: فجابَ خمسةً وعشرين ألفاً، فطلع به العريف إلى الظاهر، فدفع فيه ثلاثين ألفاً، فجاء وشاوره، فغضب، وأخذ الفَصَّ، وضربَهُ بحجرٍ فتَّتَهُ، وقال: خُذ الثياب، وقَبِّلْ يد والدك، وقل له: لو أردنا الملبوس ما غُلبنا، وأما السلطان، فطلب العريف، وقال: أُريد الفَصَّ، قال: هو لابن الافتخار، فنزل السلطان إلى المدرسة، ثم اجتمع بالسهروردي، وأخذه معه، وصار له شأنٌ عظيم، وبحث مع الفقهاء، وعجَّزهم. إلى أن قال: فأفتوا في دمه، فقيل: خُنِقَ، ثم بعد مدةٍ حَبَس الظاهرُ جماعةً ممن أفتى، وصادرهم. وحدثني السديد محمود بن زقَيْقَة[5]، قال: كنتُ أتمشى مع السهروردي في جامع ميَّافارقين، وعليه جُبَّةٌ قصيرة، وعلى رأسه فوطةٌ، وهو بزربول كأنه خَرْبَندا[6].

---

(١) يعني المدرسة الحلاوية.

(٢) الدلق شيء يلبس، وفي «تاريخ الإسلام»: «فحضر وبحث وهو لابس دلق».

(٣) هكذا في النسختين «وتاريخ الإسلام» والصواب فيها: «ثوباً عتابياً» وكأن الذهبي نقل الحكاية كما هي.

(٤) قال الفيروز آبادي في «بقر» من القاموس: «والبقير المشقوق كالمبتور، وبُرْدٌ يلبس يُشق فيلبس بلا كُمّين كالبقيرة».

(٥) قال الذهبي في «المشتبه»: «وبزاي - ابن زقيقة الطبيب سديد الدين محمود بن عمر الشيباني المعروف بابن زقيقة، له شعر جيد، روى عنه منه القوصي في معجمه (ص٣٢٢)، وذكره ابن ناصر الدين في «توضيح المشتبه»: ٢ / الورقة ٣٥ من نسخة الظاهرية، وترجم له الذهبي في وفيات سنة ٦٣٥ من «تاريخ الإسلام»، الورقة ١٦٩ (أيا صوفيا ٣٠١١).

(٦) كلمة فارسية تعني: حارس الحمار وجمعها خربندكان، ومعناها في ذلك الوقت: الحمّار. ونقل هذا الحديث ابن أبي أصيبعة في طبقاته، فلفظة «حدثني» تعود إليه. وأما «الزربول» فشيء يلبس في الرجل.

وللشهاب شعرٌ جيد.

وله كتاب «التلويحات اللوحية والعرشية»، وكتاب «اللَّمْحة» وكتاب «هياكل النور»، وكتاب «المارج والمطارحات»، وكتاب «حكمة الإشراق»، وسائرها ليست من علوم الإسلام.

وكان قد قرأ على المجد الجيلي بمراغة، وكان شافعياً، ويلقَّبُ بالمؤيَّد بالملكوت.

[عقيدته]

قال ابنُ خلكان: وكان يُتَّهَمُ بالانحلال والتعطيل، ويعتقد مذهب الأوائل اشتهر ذلك عنه، وأفتى علماء حلب بقتله، وأشدُّهم الزين والمجد ابنا جَهْبَل.

قلتُ: أحسنَوا وأصابوا.

قال الموفَّق يعيش النحوي[1]: لما تكلموا فيه، قال له تلميذه: إنك تقول: النبوة مكتسبة، فانزحْ بنا، قال: حتى نأكل بطيخ حلب، فإن بي طرفاً من السل، ثم خرج إلى قريةٍ بها بطيخ، فأقمنا أياماً، فجاء يوماً إلى مَحْفرةٍ لتراب الرأس، فحَفَرَ حتى ظَهَرَ له حصيً، فدهنَه بدهنٍ معه، ولفَّهُ في قطنٍ، وحمله في وسطه أياماً، ثم ظهر كلُّه ياقوتاً أحمر، فباع منه، ووهب أصحابه، ولما قُتِلَ كان معه منْه.

قلتُ: كان أحمقَ طيَّاشاً مُنحلاً.

---

(١) الموفق يعيش بن علي بن يعيش الأسدي الحلبي المتوفى سنة ٦٤٣، ذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام» و«العبر»: ٤/ ١٨١.

حكى السيف الآمديُّ[1] عنه أنه قال: لا بد لي أنْ أملكَ الدنيا. قلتُ من أينَ لك هذا؟ قال: رأيت[2] كأني شربتُ ماء البحر، قلتُ: لعل يكون اشتهارُ علمِك، فلم يرجعْ عما في نفسه ووجدتُه كثير العلم، قليل العقل. وله عدة مصنفات.

قلت: قُتِلَ في أوائل سنة سبعٍ وثمانين وخمس مئةٍ.

من الحكام العلماء

ابن عبد المؤمن[3]

السلطان الكبير، أبو يعقوب يوسف ابنُ السلطان عبد المؤمن بن عليّ، صاحب المغرب.

تملَّكَ بعد أخيه المخلوع محمدٍ[4] لطيشه، وشربه الخمر، فخُلع بعد شهر ونصف، وبويع أبو يعقوب، وكان شاباً مليحاً، أبيض بحمرةٍ. مستديرَ الوجه، أفوَه، أعين، تامَّ القامة، حُلْوَ الكلام فصيحاً، حلو المفاكهة، عارفاً باللغة والأخبار والفقه، متفنناً، عاليَ الهمَّة، سخيّاً، جواداً، مهيباً، شجاعاً، خليقاً للملك.

قال عبدالواحد بن علي التميمي: صحَّ عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين، أظنُّه البخاري. قال: وكان سديد الملوكية، بعيد الهمَّة، جواداً، استغنى الناس في أيامه. ثم إنه نظر في الطب والفلسفة، وحفظ أكثر كتاب «الملكي»، وجمع كتب الفلاسفة، وتطلَّبها من الأقطار، وكان يصحَبُه أبو بكر محمد بن طُفَيْلٍ الفيلسوف، فكان لا

---

(١) أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الأصولي المتوفى سنة ٦٣١ ولعل الذهبي نقل هذه الحكاية عن ابن خلكان أيضاً: ٦/ ٢٧٢.

(٢) يعني في المنام.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٩٨.

(٤) توفي عبد المؤمن سنة ٥٥٨، وكان قد عهد في حياته لولده محمد، وبقي محمد هذا بعد وفاة والده خمسة وأربعين يوماً. خلع بعدها في شعبان من السنة نفسها للأسباب التي ذكرها الذهبي.

يصبر عنه، وسمعتُ أبا بكر بن يحيى الفقيه، سمعتُ الحكَمَ أبا الوليد بن رشدٍ الحفيد يقول: لما دخلتُ على أمير المؤمنين أبي يعقوب، وجدتُه هو وابن طُفَيْل فقط، فأخذ ابنُ طُفيل يُطريني، فكان أول ما فاتحني أن قال: ما رأيهم في السماء؟ أقديمةٌ أم حادثةٌ؟ فخفتُ، وتعللتُ، وأنكرتُ الفلسفة، ففَهِمَ، فالتفت إلى ابن طُفَيْلٍ، وذكر قول أرسطو فيها، وأورد حجج أهل الإسلام، فرأيتُ منه غزارة حفظٍ، لم أكن أظنُّها في عالمٍ، ولم يزلْ يبسطُني حتى تكلَّمتُ، ثم أمر لي بخلعةٍ ومالٍ ومركوبٍ.

وَزَرَ له أخوه عُمَرُ أياماً، ثم رفع منزلته عن الوزارة، وولّى إدريس ابن جامعٍ، إلى أن استأصله سنة ٥٧٧، ثم وَزرَ ولدُهُ يعقوب[1] الذي تسلطن، وكان له من الولد ستة عشر ابناً.

[الصراع على الحكم]

وفي وسط أيامه خرج عليه سَبُعُ بن حيان ومَزَزْدَغْ في غُمارَة[2]، فحاربهما، وأسرهما، ودخل الأندلس في سنة سبعٍ وستين للجهاد، ويُضْمر الاستيلاء على باقي الجزيرة، فجهَّز الجيش إلى محمد بن سعد بن مَرْدنيش، فالتقوا بقرب مُرْسِيَةَ، فانكسر محمدٌ، ثم ضايقَهُ الموحِّدون بمرسية مدةً، فمات، وأخذ أبو يعقوب بلاده، ثم سار، فنازل مدينة وَبْذَى، فحاصرها أشهراً، وكادوا أن يُسلموها من العطش، ثم استَسْقوا -لعنهم الله- فسُقُوا، وامتلأت صهاريجهم، فرَحَلَ، وهادَنَ الفُنش[3]، وأقام بإشبيلية سنتين ونصفاً، ودانت له بالأندلس.

مات في سابع رجب سنة ثمانين وخمس مئة. وبايعوا ابنه يعقوب.

---

(١) وبقي إلى حين وفاته سنة ٥٨٠.

(٢) اسم القبيلة التي ثار فيها سبع بن حيان، وقال عبدالواحد: «والقبيلة المذكورة لا يكاد يحصرها ولا يحدها حزر لكثرتها» (ص٣٢٥).

(٣) وفي «المعجب»: (الأذفنش) وهو (ألفونس).

السيف الآمدي[1]

العلاّمة المصنِّف فارس الكلام سيف الدين علي بن أبي عليّ بن محمد بن سالم التغلبي الآمدي الحنبلي ثم الشافعي.

وُلد سنة نيف وخمسين وخمس مئة.

وقرأ بآمد القراءات على عمّار الآمدي، ومحمد الصفار. وتلا ببغداد على ابن عَبيدة. وحفظ «الهداية» وتفقه على ابن المَنِّي. وسمع من ابن شاتيل وغيره، ثم صحب ابن فَضْلان، واشتغل عليه في الخلاف. وبرع، وحفظ طريقة الشريف ونظر في طريقة أسعد المِيْهَنيّ، وتفنن في حكمة الأوائل فَرَقَّ دينه وأظلَمَ، وكان يتوقد ذكاء.

قال عليُّ بنُ أنجب في «أسماء المصنفين»: اشتغل بالشام على المُجير البغدادي، ثم ورد إلى بغداد واشتغل بـ «الشفاء» وبـ «الشامل» لأبي المعالي، وحفظ عدة كتب وكرَّر على «المستصفى» وتبحَّر في العلوم، وتفرَّد بعلم المعقولات والمنطق والكلام، وقصده الطلاب من البلاد، وكان يواسيهم بما يقدر، ويُفْهِم الطلاب ويطوّل روحه.

قلت: ثم أقرأ الفلسفة والمنطق بمصر بالجامع الظافري، وأعاد بقُبّة الشافعي، وصنَّف التصانيف، ثم قاموا عليه، ورموه بالانحلال، وكتبوا محضراً بذلك.

قال القاضي ابن خلكان[2]: وضعوا خطوطهم بما يستباح به الدم، فخرج مستخفياً، ونزل حماة. وألّف في الأصلين، والحكمة المشؤومة[3]، والمنطق، والخلاف، وله كتاب «أبكار الأفكار» في الكلام، و«منتهى السول في الأصول»

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٦٤.

(٢) وفيات الأعيان ٣/ ٢٩٣-٢٩٤ باختصار.

(٣) قوله «المشؤومة» من إضافات الذهبي، فابن خلّكان لم يقلها!

و«طريقةٌ في الخلاف»، وله نحو من عشرين تصنيفاً. ثم تحوَّل إلى دمشق، ودرَّس بالعزيزية مدة، ثم عُزل عنها لسبب اتهم فيه، وأقام بطالاً في بيته.

قال: ومات في رابع صفر سنة إحدى وثلاثين وست مئة، وله ثمانون سنة.

[من طرائفه]

وقال سِبْط الجوزي[1]: لم يكن في زمانه من يجاريه في الأصلين وعلم الكلام، وكان يظهر منه رقّة قلب وسرعة دمعة، أقام بحماة، ثم بدمشق. ومن عجيب ما يُحكى عنه أنه ماتت له قطّة بحماة فدفنها فلما سكن دمشق بعث ونقل عظامها في كيس ودفنها بقاسيون.

قال: وكان أولاد العادل كلهم يكرهونه لما اشتهر عنه من علم الأوائل والمنطق، وكان يدخل على المُعَظَّم فلا يتحرك له، فقلت: قم له عوضاً عني[2]، فقال: ما يقبله قلبي. ومع ذا ولاّه تدريس العزيزية، فلما مات أخرجه منها الأشرف، ونادى في المدارس: مَن ذكر غير التفسير والفقه، أو تعرض لكلام الفلاسفة نفيته، فأقام السيف خاملاً في بيته إلى أن مات، ودفن بتربته بقاسيون.

قلت: أخذ عنه القاضيان ابن سَنِيّ الدولة صدر الدين ومحيي الدين ابن الزكي. وكان القاضي تقي الدين سليمان بن حمزة يحكي عن شيخه ابن أبي عمر، قال: كنا نتردد إلى السيف، فشككنا هل يصلي أم لا؟ فنامَ، فعلَّمْنا على رجله بالحِبْر فبقيت العلامة يومين مكانها، فعلِمنا أنه ما توضأ، نسأل الله السلامة في الدين!

وقد حدَّث السيف بـ «الغريب» لأبي عُبيد عن أبي الفتح بن شاتيل.

---

(١) مرآة الزمان ٨/ ٦٩١.

(٢) أصل كلام السبط الذي اختصره الذهبي: «وكان إذا دخل على المعظم والمجلس غاص لا يتحرك له، فكنت أخجل من الآمدي حتى قلت للمعظم يوماً: عوض ما تقوم لي قم للآمدي».

قال لي شيخنا ابن تيمية: يغلب على الآمدي الحيرة والوَقف، حتى إنه أورد على نفسه سؤالاً في تسلسل العِلل، وزعم أنه لا يعرف عنه جواباً وبنى إثبات الصانع على ذلك، فلا يُقَرِّر في كتبه إثبات الصانع، ولا حدوث العالم ولا وحدانية الله، ولا النبوات، ولا شيئاً من الأصول الكبار.

قلت: هذا يدل على كمال ذهنه، إذ تقرير ذلك بالنظر لا ينهض، وإنما ينهض بالكتاب والسنّة[1]، وبكلٍّ قد كان السيف غاية، ومعرفته بالمعقول نهاية، وكان الفضلاء يزدحمون في حلقته.

قال ابن خلِّكان، سمعت ابن عبدالسلام يقول: ما سمعتُ من يُلقي الدرس أحسن من السيف، كأنه يخطب، وكان يُعظمه.

الشهرستاني[2]

الأفضل محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني، أبو الفتح، شيخ أهل الكلام والحكمة، وصاحب التصاينف.

برع في الفقه على الإمام أحمد الخوافي الشافعي، وقرأ الأصول على أبي نصر بن القُشيري، وعلى أبي القاسم الأنصاري.

وصنّف كتاب «نهاية الإقدام»، وكتاب «المِلَل والنحل».

وكان كثير المحفوظ، قوي الفهم، مليحَ الوعظِ.

سمع بنيسابور من أبي الحسن بن الأخرم.

---

(١) هذا هو الحق، ورأي الذهبي هو الصواب إن شاء الله تعالى، فالعقل قاصر عن إدراك مثل هذه الأمور.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٨٦.

قال السمعاني: كتبتُ عنه بمرو، وحدثني أنه وُلد سنة سبع وستين وأربع مئة. ومات في شعبان سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة. ثم قال: غير أنه كان مُتَّهماً بالميل إلى أهل القِلاع والدعوة إليهم، والنُّصرة لطامَّاتهم.

وقال في «التحبير»: هو من أهل شَهْرَستانة، كان إماماً أصولياً، عارفاً بالأدب وبالعلوم المهجورة. قال: وهو مُتَّهمٌ بالإلحاد، غالٍ في التشيُّع.

[ميله إلى الإلحاد وتخبطه في الاعتقاد]

وقال ابنُ أرسلان في «تاريخ خُوارزم»: عالم كَيِّسٌ متفنِّنٌ، ولولا ميلُهُ إلى أهل الإلحاد وتخبُّطهُ في الاعتقاد، لكان هو الإمام، وكثيراً ما كنا نتعجب من وفور فضله كيف مالَ إلى شيءٍ لا أصلَ له؟! نعوذ بالله من الخذلان، وليس ذلك إلا لإعراضه عن علم الشرع، واشتغاله بظلمات الفلسفة، وقد كانت بيننا محاورات، فكيف يبالغ في نصرة مذاهب الفلاسفة والذَّبِّ عنهم، حضرتُ وعظَه مرات، فلم يكن في ذلك قال اللهُ ولا قال رسولُه، سأله يوماً سائلٌ، فقال: سائرُ العلماء يذكرون في مجالسهم المسائل الشرعية، ويجيبون عنها بقول أبي حنيفة والشافعي، وأنت لا تفعل ذلك؟! فقال: مَثَلي ومَثَلُكُم كمَثَل بني إسرائيل يأتيهم المنُّ والسلوى، فسألوا الثومَ والبصل.

إلى أن قال ابن أرسلان: مات بشهرستانة سنة تسع وأربعين وخمس مئة. قال: وقد حجَّ سنة عشر وخمس مئة، ووعظ ببغداد.

أبو البركات[1]

العلامة الفيلسوف، شيخ الطب، أوحد الزمان، أبو البركات، هبةُ الله بن علي ابن ملكا البلديُّ، اليهوديُّ كان، ثم أسلم في أواخر عمره، خَدَمَ الخليفة المُسْتَنجد.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١٩.

قال الموفق بن أبي أُصيبعة[1]: تصانيفه في غاية الجودة، وله فطرة فائقة، أضرَّ بأَخَرَة، وكان يُملي على الجمال بن فَضْلان، وابن الدهَّان، والمُهذَّب ابن النقَّاش، ووالد الموفَّق عبداللطيف، كتابَه المسمى بـ «المعتبر».

قيل: سبب إسلامه أنه دخل إلى الخليفة، فقام له الكل سوى القاضي، فقال: يا امير المؤمنين، إن كان القاضي لم يَقُمْ لأني على غير ملَّته، فأنا أُسلمُ. فأسلم.

خلَّف ثلاث بنات، وعاش نحو الثمانين.

وهو صاحب ترياق برشعثا، وله رسالةٌ في ماهية العقل[2].

ومن تلامذته المهذَّبُ عليُّ بن هبل.

مات سنة نيف وخمسين وخمس مئة. وبرع في علم الفلسفة إلى الغاية.

[فيلسوف الأندلس]

ابن باجة[3]

فيلسوف الأندلس، أبو بكر، محمد بن يحيى بن الصائغ السَّرَقُسْطي الشاعر.

كان يُضرَبُ به المَثَلُ في الذكاء، وآراء الأوائل، والطب، والموسيقا، ودقائق الفلسفة.

يُنظَّرُ بالفارابي، وقد سَعَوْا في قتله.

وعنه أخذ ابنُ رُشْد الحفيد، وابنُ الإمام الكاتب.

مات بفاس سنة ثلاث وثلاثين وخمس مئة ولم يتكهَّل.

---

(١) في «طبقات الأطباء»: ٣٧٤-٣٧٦.

(٢) انظر بقية تصانيفه في «عيون الأنباء» ٣٧٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٩٣.

الشَّلَوْبين[1]

الأستاذ العلاّمة إمام النحو أبو علي عمر بن محمد بن عمر الأزْديُّ الإشبيلي الأندلسي النحويُّ المقلب بالشَّلَوْبين.

والشَّلَوْبين في لغة الأندلسيين: هو الأبيض الأشقر.

مولده في سنة اثنتين وستين وخمس مئة بإشبيلية.

سمع من أبي بكر ابن الجدّ، وأبي عبدالله بن زَرْقون، وأبي محمد بن بُونُهْ، وأبي زيدٍ السُّهَيْلِيّ، وعبدالمنعم بن الفَرَس، وطائفةٍ.

وله إجازةٌ خاصةٌ من أبي طاهر السِّلَفِيِّ، وأبي بكر بن خَيْر، وأبي القاسم بن حُبَيش.

اختصّ بابن الجد، ورُبّي في حجره؛ لأن أباه كان خادماً لابن الجدّ، وله سماع كثير. وأخذ النحو عن ابن مُلكون، وأبي الحسن نجَبة.

وكان إماماً في العربية لا يُشَقُّ غبارُه ولا يُجارى. تصدَّر لإقرائها ستين سنةً، ثم في أواخر عمره ترك الإقراء لإطباق الفتن واستيلاء العدو.

وله تصانيف مفيدة، وعمل لنفسه «مشيخة» نصَّ فيها على اتساع مسموعاته، فقال الأبّار: سمعتُ من يُنْكِر ذلك ويدفعه -يعني الاتساع- وكان أنيق الكتابة، أخذ عنه عالَمٌ لا يُحصون.

[من طرائفه]

قال ابن خلِّكان: قد رأيت جماعة من أصحابِهِ، وكلٌّ منهم يقول: ما يتقاصر أبو عليٍّ شيخنا عن الشيخ أبي عليٍّ الفارسي، وقالوا: كان فيه مع فضيلته غفلةٌ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠٧.

وصورة بَلَهٍ حتى قالوا: كان إلى جانب نهر، وبيده كرّاس، فوقع في الماء فاغترفه بكراس آخر فتلفا.

وله على «الجزولية» شرحان. عاش ثلاثاً وثمانين سنة.

توفي في صفر سنة خمسٍ وأربعين وست مئةٍ.

الجُوَيْنيّ[1]

الكاتب المجوِّدُ الأوحَدُ، أبو عليٍّ حسن بن عليٍّ الجويني، الأديب الشاعر، ويُعرَف بابن اللعيبة.

قال العماد: هو من أهل بغداد، له الخطُّ الرائق، والفضلُ الفائق، واللفظ الشائق، والمعنى اللائق، له فصاحةٌ ولَسَنٌ وخطٌّ كاسمه حسنٌ، من ندماء الأتابك زنكي، ثم ابنه، ثم سافر إلى مصر، وليس بها من يكتُبُ مثلَهُ.

قلتُ: مدح صلاح الدين والفاضل.

[توبته]

قال العماد: حدثني سعدٌ الكاتب بمصر، قال: كان الجويني صديقي، وكان يشرب الخمر، فحدَّثني أنه كان يكتبُ مصحفاً، وبين يديه مجْمَرةٌ وقنينةُ خمر، ولم يكن بقربي ما أندِّي به الدواة، فصَبَبْتُ من القنينة في الدواة، وكتبتُ وجهةً، ونشَّفْتُها على المِجْمَرة، فصعدت شرارةٌ أحرقت الخط دون بقية الورقة، فرعبتُ، وقمتُ، وغسلتُ الدواة والأقلام، وتبتُ إلى الله.

مات سنة ستٍّ وثمانين وخمس مئة.

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٣٣.

رَتن[1]

الهِندي، شيخ كبير من أبناء التسعين.

تجرّأ على الله، وزعم بقلة حياء أنه من الصحابة، وأنه ابن ست مئة سنة وخمسين سنة، فراجَ أمرُه على من لا يدري.

وقد أفردتُه في جزء، وهتكتُ باطله[2].

بلغني أنه توفي في حدود سنة اثنتين وثلاثين وست مئة.

ابن الطَّلاَّية[3]

الشيخ الصادق الزاهد القدوة، بركة المسلمين، أبو العباس أحمد بن أبي غالب ابن أحمد بن عبدالله بن محمد، عُرف بابن الطَّلاَّيَة، الكاغديُّ البغدادي

وُلد سنة اثنتين وستين وأربع مئة.

روى جزءاً عن عبدالعزيز بن علي الأنماطي، وتفرَّد به، وهو التاسع من «المُخَلِّصيّات» انتقاء ابنِ البقّال، وحفظ القرآن.

قال السمعاني: شيخٌ كبير، أفنى عمره في العبادة والقيام والصيام، لعله ما صرف ساعةً من عمره إلا في عبادة، وانحنى حتى لا يُتبين قيامُهُ من ركوعه إلا بيسير، وكان حافظاً للقرآن لا يقبلُ من أحدٍ شيئاً، وله كفاية يتقنَّع بها، دخلتُ عليه في مسجده مراتٍ، بالعَتّابِيّين، وسألتُهُ: هل سمعتَ شيئاً؟ فقال: سمعتُ من أبي القاسم عبدالعزيز الأنماطي.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٦٧.

(٢) سماه: «كسر وثن رتن» كما صرّح بذلك في تاريخ الإسلام. وانظر تفاصيل عنه في كتاب: الذهبي ومنهجه لأفقر عباد الله بشار بن عواد: ٢١٣-٢١٤ تجد فائدة إن شاء الله تعالى.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٦٠.

قال أبو المظفر بنُ الجوزي: سمعتُ مشايخ الحربية يَحْكُونَ عن آبائهم وأجدادِهم أن السلطان مسعوداً لما أتى بغداد، كان يحبُّ زيارة العلماء والصالحين، فالتمس حضور ابن الطلاَّية، فقال للرسول: أنا في هذا المسجد أنتظرُ داعيَ الله في النهار خمس مرات. فذهب الرسول، فقال السلطان: أنا أولى بالمشي إليه. فزارهُ، فرآه يصلي الضُّحى وكان يطوِّلُها يصلِّيها بثمانية أجزاء، فصلى معه بعضَها، فقال له الخادم: السطانُ قائمٌ على رأسكَ. فقال: أين مسعود؟ قال: ها أنا: قال: يا مسعود، اعدلْ، وادعُ لي، اللهُ أكبر. ثم دخل في الصلاة، فبكى السلطان، وكتب ورقةً بخطِّه بإزالة المُكوس والضرائب، وتاب توبةً صادقة.

ماتَ ابنُ الطلاَّية في حادي عشر رمضان سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة، وحُمِلَ على الرؤوس.

عطاء بن أبي سعد[1]

ابن عطاء، الإمام المحدث الزاهد، أبو محمد الثعلبي الهَرَويُّ الفُقَّاعي الصوفي، تلميذُ شيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري.

مولدُه سنة أربع وأربعين وأربع مئة بمالِينَ.

قال السمعاني: كان ممن يُضرَبُ به المَثَل في إرادة شيخ الإسلام والجدِّ في خِدمته، وله حكاياتٌ ومقامات في خروج شيخه إلى بَلْخ في المِحنة، وجرى بينه وبين الوزير نظام المُلك محاورةٌ ومُرادَدةٌ، واحتمل له النظام.

[من طرائفه]

قال: وسمعتُ أنَّ عطاءً قُدِّم للخَشَبة ليُصْلَب، فنجاه الله لحُسْن نيِّته، فلما أُطلق، عادَ إلى التظلُّم، وما فتَر، وخرج مع النظام ماشياً إلى الروم، فما رَكِبَ، وكان

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٤.

يخوض الأنهار مع الخيل، ويقول: شيخي في المِحنة، فلا أستريحُ، قال لي ابنه محمدٌ عنه قال: كنتُ أعدو في موكب النظام، فوقع نعلي، فما التفتُّ، ورميتُ الأخرى، فأمسكَ النِّظامُ الدابة، وقال: أينَ نعلاكَ؟ فقلتُ: وقع أحدُهما، فخشيتُ أن تسبقَني إن وقفتُ. قال: فلمَ رميتَ الأخرى؟ فقلتُ: لأنَّ شيخي أخبرنا أن النبي ﷺ نهى أن يمشِيَ الرجلُ في نعلٍ واحد، فما أردتُ أن أُخالف السنَّة. فأعجبه، وقال: أكتُبُ إن شاء الله حتى يرجِعَ شيخُك إلى هَراة. وقال لي: اركب بعض الجنائب، فأبيتُ وعرضَ عليّ مالاً، فأبيتُ.

قال لي ابنُه: وقُدِّم أبي بأصبهان ليُصْلَب بعد أن حبسوه مدةً، فقال له الجلاَّدُ، صلِّ ركعتين. قال: ليس ذا وقتَ صلاة، اشتغلْ بما أُمرتَ به، فإني سمعتُ شيخي يقول: إذا علَّقتَ الشعير على الدابة في أسفل العقَبة، لا توصِلُكَ في الحال إلى أعلاها، الصلاةُ نافعة في الرخاء لا في حالة البأس. فوصل مسرعٌ من السلطان ومعه الخاتمُ بتسريحه، كانت الخاتون مَعنيَّةً في حقّه، فلما أُطلق، رجع إلى التظلُّم والتشنيع

قال السمعاني: سمعتُ عبدالخالق بن زياد يقول: أمَر بعضُ الأمراء أن يُضرب عطاءٌ الفُقّاعيُّ في محنة الشهيد عبدالهادي بن شيخ الإسلام مئةً، فبُطِحَ على وجهه، فكان يُضرب إلى أن ضُرب ستين، فشكُّوا كم ضُرِبَ خمسين أو ستين؟ فقال عطاء: خُذوا بالأقل احتياطاً، وحُبِسَ مع نساءٍ، وكان في الموضع أترسةٌ، فقام بجهد من الضرب، وأقام الأترسة بينه وبينهن، وقال: نهى رسولُ الله ﷺ عن الخَلوة بالأجنبية.

قال محمد بن عطاء: توفي أبي تقديراً سنة خمس وثلاثين وخمس مئة.

ابن فُطَيْمَة[1]

الشيخ الإمام الفقيه، المسند القاضي، أبو عبدالله، الحسين بن أحمد بن علي بن حسن بن فُطيمة، الخُسْرَوْجِرْديُّ الشافعي، قاضي بَيْهَق.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٦٠.

وُلد سنة بضع وأربعين وأربع مئة.

وسَمِعَ كتاب «السُّنَن والآثار» من البيهقي.

قال السمعاني: كثير السماع، حسنُ السيرة، مليحُ المجالسة، ما رأيت أخفَّ روحاً منه مع السخاء والبذل، سمعتُ منه الكثير، وكتب لي أجزاء، ومن العجب أنه قُطِعَتْ أصابعُه بكَرْمان من عِلَّة، فكان يأخُذُ القلم، ويترك الورق تحت رجلِه، ويُمسِكُ القلم بكفَّيه، فيكتُب خطاً مليحاً سريعاً، يكتبُ في اليوم خمس طاقات خطاً واسعاً، تفقَّه بمرو على جدِّي أبي المظفَّر، وحجَّ، خرجتُ نحو أصبهان، فتركتُ القافلة، ومضيت إلى خُسْرَوْجِرْد مع رفيقٍ لي راجِلَيْن، فدخلنا داره، وسلَّمنا على أصحابه، فما التفتوا علينا، ثم خرج الشيخ، فاستقبلناه، فأقبل علينا، وقال: لم جئتم؟ قلنا: لنقرأ عليك جزءين من «معرفة الآثار» للبيهقي. فقال: لعلكم سمعتُم الكتاب من الشيخ عبدالجبار[1]، وفاتكم هذا القدر؟ قلنا: بلى، وكان الجزءان فوتاً لعبدالجبار، فقال: تكونون عندي الليلة، فإنَّ لي مُهِمّاً، أريد أن أخرجَ إلى سَتْرَوار[2]، فإنَّ ابني كتب إليَّ أنَّ ابنَ أستاذي جائي[3] في هذه القافلة، فأريدُ أن أُسلِّم عليه، وأسأله أن يقيم عندي أياماً، وسمَّاني، فتبسمتُ، فقال لي: تعرفه؟ قلتُ: هو بينَ يديك، فقام ونزل وبكى، وكاد أن يقبِّل رجلَيَّ، ثم أخرج الكتب والأجزاء، ووهبَني بعض أصوله، فكنتُ عنده ثلاثة أيام[4].

توفي بخسروجرد في ثالث عشر رمضان سنة ست وثلاثين وخمس مئة.

---

(١) هو الشيخ أبو محمد عبدالجبار بن محمد بن أحمد الخُواري المنيعي.

(٢) في الأصل سنزوار، وذكرها ياقوت في مادة خسروجرد، بالباء الموحدة، ولم يفرد لها ترجمة مستقلة، وانظر: معجم البلدان ٢/ ٣٧٠.

(٣) كذا الأصل بإثبات الياء، وله وجه في العربية، والجادة (جاءٍ) بحذفها، انظر: الرسالة للإمام الشافعي فقرة رقم (١٨٥).

(٤) الخبر بطوله بنحوه في «التحبير» ١/ ٢٢٢-٢٢٥.

حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، من أصل كتابه، حدثنا أبو أمية محمد بن إبراهيم الطرسوسيّ، حدثنا عمر بن يونس بن القاسم اليماميّ، حدثنا عكرمة بن عمّار العِجْليّ، حدثنا أبو زُمَيْل سماك الحنفي، حدثنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: لما خرجت الحَرُورِيَّة اجتمعوا في دار، وهم ستة آلاف، أتيت عليّاً، فقلت: يا أمير المؤمنين أبرد بالظهر، لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم، قال: إني أخاف عليك، قلت: كلا! قال ابن عباس: فخرجت إليهم، ولبست أحسن ما يكون من حُلَل اليمن، قال أبو زميل: كان ابن عباس جميلاً جَهيراً، قال ابن عباس: فأتيتهم وهم مجتمعون في دارهم قائلون، فسلمت عليهم، فقالوا: مرحباً بك يا ابن عباس فما هذه الحُلَّة؟ قال: قلت: ما تعيبون عليَّ؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحُلَل، ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢] قالوا: فما جاء بك؟ قلت: أتيتكم من عند صحابة النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار، لأُبلغكم ما يقولون، وتخبروني بما تقولون، فعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بالوحي منكم، وفيهم أُنزل، وليس فيكم منهم أحد، فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشاً فإن الله يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزخرف:٥٨] قال ابن عباس: وأتيت قوماً لم أرَ قوماً قط أشد اجتهاداً منهم، مُسَهَّمَة وجوههم من السهر، كأن أيديهم وركبهم تثني عليهم، فمضى من حضر، فقال بعضهم: لنكلمنه ولننظرن ما يقول، قلت: أخبروني: ماذا نقمتم على ابن عم رسول الله ﷺ وصهره والمهاجرين والأنصار؟ قالوا: ثلاثاً، قلت: ما هن؟ قالوا: أما إحداهن فإنه حَكَّم الرجال في أمر الله، وقال الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧] وما للرجال وما للحكم، فقلت هذه واحدة، قالوا: وأما الأخرى فإنه قاتل ولم يَسْبِ، ولم يغنم، فلئن كان الذي قاتل كفاراً لقد حل سبيهم وغنيمتهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم، قلت: هذه اثنتان، فما الثالثة؟ قال: إنه محا نفسه من أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين، قلت أعندكم سوى هذا؟ قالوا: حسبنا هذا، فقلت لهم: أرأيتم إن قرأت عليكم من

كتاب الله ومن سُنَّة نبيِّه ﷺ ما يُرَدُّ به قولكم أترضون؟ قالوا: نعم، فقلت: أما قولكم: حَكَّمَ الرجال في أمر الله، فأنا أقرأ عليكم ما قد رَدَّ حكمَه إلى الرجال في ثمن ربع درهم، في أرنب ونحوها من الصيد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:٩٥] إلى قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فنشدتكم الله: أحُكْمُ الرجال في أرنب ونحوها من الصيد أفضل أم حكمهم في دمائهم وصلاح ذات بينهم؟ وأنْ تعلموا أن الله لو شاء لحَكَمَ ولم يُصَيِّرْ ذلك إلى الرجال، وفي المرأة وزوجها، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء:٣٥] فجعل الله حكم الرجال سنَّة مأمونة، أخَرَجْتُ عن هذه؟ قالوا: نعم! قال: وأما قولكم: قاتل ولم يَسْبِ، ولم يغنم، أتَسْبون أمَّكم عائشة، ثم يستحلون منها ما يستحل من غيرها؟ فلئن فعلتم لقد كفرتم، وهي أمكم، ولئن قلتم ليست أمنا لقد كفرتم، فإن كفرتم فإن الله يقول: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب:٦] فأنتم تدورون بين ضلالتين، أيهما صرتم إليها صرتم إلى ضلالة، فنظر بعضهم إلى بعض، قلت: أخَرَجْتُ من هذه؟ قالوا: نعم! وأما قولكم: محا اسمه من أمير المؤمنين فأنا آتيكم بمن ترضون وأريكم، قد سمعتم أن النبي ﷺ يوم الحديبية كاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب، فقال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين: اكتب يا علي: هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله، فقال المشركون: لا والله ما نعلم أنك رسول الله، لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنك تعلم أني رسول الله، اكتب يا علي: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبدالله، فوالله لرسول الله خير من عليّ، وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه، قال عبدالله بن عباس: فرجع من القوم ألفان، وقتل سائرهم على ضلالة.

رواهُ الحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

[النساء العالمات الواعظات المحدثات]

اشغل عدد كبير من نساء الأمة الإسلامية بالعلم، وأخذن على عاتقهن مهمة التعليم، فقد ذكر السِّلَفي أبو طاهر أحمد بن محمد أنه حضر كثيراً في أصبهان عند الواعظة أروى بن محمد، وهي ابنة عم جدته فاطمة الشعبية مُقدّمة الواعظات، رأيتها، وحضرت عندها كثيراً[1].

وذكر أنه سمع من النساء بأصبهان من أمِّ سعد أسماء بنت أحمد بن عبدالله بن أحمد، ومن أمَةِ العزيز بنت محمد بن الجنيد، ومن سارة أخت شيخه أبي طالب الكُنْدُلانيّ، وفاطمة بنت ماجه، ومن لامعة بنت سعيد البقال[2].

ورحل السِّلَفي إلى بغداد ولم يسمع ببغداد من النساء سوى ثماني شيخات[3].

وسمع السِّلَفي في مدينة حانِيّ في ديار بكر من مباركة بنت أبي الحسن الحنبلية[4].

كما سمع الشيخ مُسْند الوقت أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر الأصبهاني الصيدلاني من فاطمة بنت عبدالله الجوزدانية «المعجم الكبير للطبراني» بكماله وهو ابن إحدى عشرة سنة. وكان يُعرف بسِلَفَة[5].

١ - الشيخة عجيبة[6]

الشيخة المُعمَّرةُ المُسنِدة ضوء الصباح بنتُ الحافظ أبي بكر محمد بن أبي غالب ابن أحمد بن مرزوق الباقداريُّ البغدادية.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٠
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٢.
(٤) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٥.
(٥) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٣٠.
(٦) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٣٢.

سمعت من عبدالله بن منصور الموصلي، وعبدالحق اليوسفي. وأجازَ لها أبو عبدالله الرُّسْتُمي، ومسعود الثقفي، وأبو الخير الباغبان وابن عمه أبو رشيد، وهبةالله بن أحمد الشِّبْلي، ورجاء بن حامد المَعْداني، وعدةٌ. وتفردّت في الدنيا، وخرجوا لها «مشيخةً» في عشرة أجزاء.

مولدها في صفر سنة أربعٍ وخمسين وخمس مئة.

والعجبُ من والدها كيف لم يُسْمِعْها من أبي الفتح بن البَطّي وطبقته.

وكانت امرأةً صالحة.

حدَّث عنها المحبّ عبدالله وموسى بن أبي الفتح، وأحمد بن عبدالله بن عبدالهادي، والشيخ عبدالصمد المُقرئ، ومحمد بن أبي بكر الجَعْفَريّ، وعبدالرحيم ابن الزَّجاج، ومحمد بن عبدالمحسن الواعظ، وجماعة. وتفردت زينب بنت الكمال بإجازتها.

توفيت في صفر سنة سبعٍ وأربعين وستِّ مئةٍ.

ومن مسموعها: الثاني من حديث أبي أحمد حُسَيْنَك من يحيى بن ثابت البقّال، و«مختلف الحديث» للشافعي من عبدالحق اليوسفي، و«تاريخ البخاري الكبير» من عبدالحق أيضاً.

٢- المحدثة صفية[١]

بنتُ العدل عبدالوهاب بن علي بن الخَضِر، المُعَمَّرةُ الجليلة أم حمزة الأسديةُ، الزبيرية الدمشقية، ثم الحَمَوِيّة، أختُ الشيخة كريمة.

---

(١) سير علام النبلاء ٢٣/ ٢٧٠.

تهاوَن أبوها ولم يُسمِعها شيئاً، ولكن عمَّها الحافظ عمر بن علي استجازَ لها، فروتْ عن مسعودٍ الثقفي، وأبي عبدالله الرُّسْتُميّ، والقاسم بن الفضل الصيدلاني، ورجاء بن حامد، وعليّ بن عبدالرحمن ابن تاج القُرّاء، وعدةٍ، وطال عمرها، واحتيج إليها، وروتْ أشياء.

حدّث عنها مجدُ الدين ابن الحُلوانية والدمياطي، وتقي الدين ابنُ مُزَيز، والأمين محمد بن النحاس، أبو بكر الدشتيّ، وأبو العباس ابنُ الظاهري، وطائفةٌ، وبالحضور حَفيدُها عبدالله بن عبدالوهاب الشاهد، والتاج أحمد بن مُزيزٍ، وقد سَمِعَ التقيُّ ابنُ الأنماطيِّ منها قديماً.

قال الدمياطي: حضَرتُ جنازتَها بحماة في خامس رجب سنة ست وأربعين وستة مئة.

قلت: قاربتْ تسعينَ سنة.

٣- تقية[١]

بنت المحدث غيث بن عليٍّ الأرْمَنَازيِّ، ثم الصُّوري.

شاعرة محسنة مشهورة.

وهي والدة المُحدِّث علي[٢] بن فاضل بن صَمْدُون.

مَدَحت السِّلَفي، وتقي الدين صاحبَ حماة.

روى عنها أبو القاسم بن رواحة من شعرها.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٩٤.

(٢) توفي سنة ٦٠٣ وهو مشهور (الذهبي: «تاريخ الإسلام»: م١٨ ق١ ص١٣٧ تحقيق: بشار).

توفيت سنة تسعٍ وسبعين وخمس مئة، ولها ستٌّ[1] وسبعون سنة.

٤ - ستُّ الكَتَبة[2]

اسمها نِعْمة بنت علي بن يحيى بن علي ابن الطَّرّاح.

سمعت من جدها كتاب «الكفاية» للخطيب، وكتاب «البخلاء» له، وكتاب «الجامع» وكتاب «السابق واللاحق» وكتاب «القنوت» وأشياء.

وسمعت من أبي شجاع البِسطاميّ. وأجازَ لها محمد بن علي بن أبي ذَر الصالحاني والفُراويُّ.

حَدَّثَ عنها الضياء وابنُ خليل، واليَلْدانيُّ، والمُنذريُّ، وابن أبي عمر، والفخر عليّ، وجماعة.

وُلدت سنة ثلاث وعشرين وخمس مئة، وقيل: سنة ثماني عشرة، وقيل سنة أربع وعشرين.

وتوفيت بدمشق في الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة أربع وست مئة.

٥ - بنت مَعْمَر[3]

الشيخة المعمَّرة المُسْنِدة أمُّ حبيبة عائشة بنت الحافظ مَعْمَر بن الفاخر القرشية العَبْشَمية الأصبهانية.

---

(١) هكذا في الأصل. وفي «العبر»: «وعاشت أربعاً وسبعين سنة» وهو الصواب؛ فقد ذكر السلفي أنها ولدت في المحرم سنة ٥٠٥ كما جاء في «تكملة» ابن الصابوني و«تاريخ الإسلام» للذهبي و«وفيات» ابن خلكان.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٣٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٩٩.

سمعت حضوراً من فاطمة الجُوزدانية، وسماعاً كثيراً من زاهر بن طاهر، وسعيد بن أبي الرجاء، وطائفة.

حَدَّث عنها ابنُ نُقطة، والشيخ الضياء، والتقي ابن العِزّ، وآخرون.

وأجازت للشيخ ابن أبي عمر، وابن شيبان، والكمال عبدالرحيم، والفخر علي.

قال أبو بكر بن نقطة: سمعنا منها «مُسند أبي يَعْلَى الموصلي» بسماعها من سعيد بن أبي الرجاء الصيرفي، وكان سماعها صحيحاً بإفادة أبيها.

توفيت عائشة في شهر ربيع الآخر سنة سبع وست مئة عن بضع وثمانين سنة.

٦- عفيفة[١]

بنت أبي بكر أحمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن حَسَن بن مهران، الشيخة الجليلة المُعَمَّرة، مُسْندة أصبهان، أم هاني الأصبهانية الفارفانية[٢] بفائَيْن.

وُلدت سنة عشر وخمس مئة.

وكانت آخر من حدَّث بالسَّماع عن عبدالواحد بن محمد الدَّشْتَج[٣] وسمعت أيضاً من حمزة بن العباس العَلَوي، وإسحاق بن أحمد الأُشناني، وفاطمة الجُوْزدانية؛

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٨١.

(٢) منسوبة إلى فارفان، قرية من قرى أصبهان، قيدها الزي المنذري في «التكملة» فقال: «وهي بفتح الفاء وسكون الراء المهملة والألف وفتح الفاء الثانية وسكون الألف وآخره نون»، ولكن قيدها ياقوت بكسر الراء المهملة.

(٣) عبدالواحد الدشتج آخر من حدَّث عن أبي نعيم الحافظ وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ٥١٨.

سمعت منها «المعجم الكبير» بكماله و«المعجم الصغير»[1] و«الفتن» لنُعَيم بن حَمّاد. وأجاز لها أبو علي الحَدّاد[2].

وسمعت أيضاً من جعفر بن عبدالواحد الثقفي، وانتهى إليها عُلو الإسناد.

وقد أجازَ لها من بغداد أبو عليّ بن المَهْدِيّ، وأبو الغنائم بن المُهتدي بالله، وأبو سعد ابن الطُّيوري، وأبو طالب اليوسفي، وطائفة[3].

حدَّث عنها أبو موسى بن عبدالغني، والشيخ الضياء، والرَّفيع إسحاق الأبرقوهِيُّ، وأبو بكر بن نُقْطَة، وقال: سمعت منها «المعجم الكبير» و«الفتن» لنُعَيم، وغير ذلك.

قلت: وروى عنها بالإجازة أحمد بن سلامة، والبرهان ابن الدَّرَجي، وابن شيبان، والفخر علي، وخديجة بنت الشهاب بن راجح.

قال الضياء: ولِدَت في ذي الحجة سنة عشر وخمس مئة، وماتت في ربيع الآخر سنة ست وست مئة.

وقال ابن نُقطة: توفيت في ربيع الآخر أو جُمادى الأُولَى.

٧- زينب بنت مكي[4]

أم أحمد الزاهدة العابدة المسندة.

سمعت من حنبل بن عبدالله بن فرج بن سعادة، وعمر بن محمد بن معمر البغدادي المعروف بابن طبرزذ، وأبي المجد الكرابيسي والشمس العطار. وسمعت من ست الكتبة.

---

(١) اللذانِ للطبراني.

(٢) مات أبو علي الحداد سنة ٥١٥.

(٣) قال الذهبي في «تاريخ الإسلام»: «نقلت إجازة البغاددة لها من خط شيخنا المزي».

(٤) تاريخ الإسلام ٥١/ ٣٢٧، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٣١، ٥٠٩.

وأجاز لها عبدالوهاب بن سكينة وأبو الفخر أسعد بن سعيد وعفيفة الفارفانية وأبو المجد زاهر الثقفي.

وروت الكثير وطال عمرها، وكانت أسند من بقي من النساء في الدنيا. وروت الحديث نيفاً وستين سنة.

سمع منها الحافظان أبو عبدالله البرزالي ونافلته أبو محمد، سمع منها أيضاً عمر ابن الحاجب، وروى عنها الدمياطي وسعد الدين الحارثي وخلق كثير.

وعاشت أربعاً وتسعين سنة، وتوفيت في شوال سنة ٦٨٨ في دمشق.

٨- بنت سعد الخير[1]

الشيخة الجليلة، المُسْنِدَةُ، أم عبدالكريم، فاطمة بنت المحدِّث التاجر أبي الحسن سَعْد الخير بن محمد بن سهلٍ الأنصاري البَلَنسيِّ.

مولدها بأصبهان في سنة اثنتين وعشرين وخمس مئة.

وسمعت حضوراً في الثالثة من فاطمة الجُوزْدانية جملةً من «المعجم الكبير»، وحضرت ببغداد في سة خمسٍ وعشرين على هبة الله ابن الحُصَيْن، وزاهر بن طاهرٍ، وأبي غالبٍ ابن البَنَّاء.

وسمعتْ بعدُ من أبيها، ومن هبة الله بن الطَّبَر، والقاضي أبي بكر، ويحيى بن حُبَيْشٍ الفارقيِّ، ويحيى ابن البَنَّاء، وأبي منصور القزَّاز، وإسماعيل السمرقندي وعدةٍ. وأجاز لها خلقٌ.

وحدَّثَتْ بدمشق، وبمصر.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤١٢.

تزوَّج بها الرئيس زين الدين ابنُ نجية الواعظ، وسكن بها بدمشق ثم بمصر، ورأت عزّاً وجاهاً.

حدَّث عنها: أبو موسى ابن الحافظ، وعبدالرحمن بن مقرّبٍ، ومحمد بن محمد ابن الوزَّان الحنفي، ومحمد ابن الشيخ الشاطبي، والحافظ الضياء، وخطيب مَرْدا، وعبدالله بن علاَّن، وخلقٌ سواهم.

وروى عنها بالإجازة: الحافظ زكيُّ الدين عبدالعظيم، وقال: توفيت في ثامن ربيع الأول سنة ستٍّ مئة.

قلتُ: عاشت ثمانياً وسبعين سنة، وأجازت لشيخنا أحمد بن أبي الخير سلامة.

٩- ياسمين(١)

الشيخة المعمِّرة المباركة أم عبدالله ياسمين بنت سالم بن علي بن سَلامة ابن البيطار الحَريمية أخت المُسْنِد ظَفَر الدين الذي روى لنا عنه الأَبَرْقُوهي.

رَوَتْ جزءاً عن أبي المظفر هبة الله ابن الشِّبْليّ، تَفَرّدت به.

حدث عنها تقي الدين ابن الواسطي، وابن الزَّين، وجمال الدين أبو بكر الشَّرِيْشي، وابن بَلْبان، وجماعة.

وبالإجازة: القاضي وابن سعْد، والمُطَعِّم، وأبو بكر بن عبدالدائم، والبهاء ابن عساكر، وابن الشِّحنة وآخرون.

توفيت يوم عاشورا سنة أربع وثلاثين وست مئة في عشر التسعين.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٣.

١٠- كريمة[١]

بنتُ المحدِّث العدل أبي محمد عبدالوهاب بن علي بن الخَضِرِ بن عبدالله بن عليٍّ، الشيخة الصالحة المعمرة، مُسنِدة الشام، أم الفضل القُرَشية، الأسدية، الزُّبيرية، الدمشقية، وتعرَف ببنت الحبقبق.

وُلدت سنة ستٍّ وأربعين وخمس مئة.

وسمعت أجزاءً قليلة من أبي يَعْلَى ابن الحُبُوبيِّ، وعبدالرحمن بن أبي الحسن الداراني، وحسان بن تميم الزَّيات، وعليٍّ بن مهديٍّ الهلالي، وعلي بن أحمد الحَرَستاني، وتفرّدت في الدنيا عنهم، وتفردت بإجازة أبي الوقت السِّجْزِيِّ، فرَوَت «الصحيح» غير مرة، وروتْ بالإجازة عن مسعود الثقفي، وأبي عبدالله الرُّسْتميِّ، وأبي الخير الباغبان، ورجاء بن حامد، وخلقٍ.

خرَّج لها زكيُّ الدين البِرْزاليُّ مشيخةً في ثمانية أجزاء سمعناها.

حدّث عنها خلقٌ كثير، منهم: الضياء، وابنُ خليلٍ، وابنُ هاملٍ، وأبو العباس ابنُ الظاهري، وخديجة بنتُ غَنيمة، وخطيبُ كفر بَطْنا جمال الدين الدِّيْنَوَرِيُّ، والشَّرَف الناسخ، والصدر الأُرْمويُّ، والقاضي الحنبلي، وفاطمة بنت سليمان، ومحمد بن يوسف الإرْبِليُّ، وعيسى المُطَعِّم، وستُّ القضاة بنت الشيرازي، وبنت عمها ستُّ الفخر، وأخوها زينُ الدين عبدالرحمن. وكانت امرأةً صالحة جليلة، طويلة الروح على الطلبة، لا تملُّ من الرواية.

ماتتْ ببستانها بالميطور في رابع عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين وست مئة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٩٢.

١١ - عين الشمس[١]

بنت أحمد بن أبي الفرج، أم النور الثَّقَفِيّة الأصبهانية مُسْنِدةُ وقتها.

سمعت حضوراً في سنة أربع وعشرين وخمس مئة من إسماعيل بن الإخشيذ، وسمعت «جزء أبي الشيخ» من محمد بن علي بن أبي ذر الصالحاني، وتفردت في الدنيا عنها. وكانت صالحةً عفيفةً من بيت الرِّواية والإسناد.

حدث عنها الضياء محمد، والزكي البِرْزالي، والتقي ابن العز، وعدّة.

وبالإجازة: الشمس عبدالواسع الأبهريُّ، والفخر عليّ، والشمس ابن الزين، وطائفة، وعاشت تسعين عاماً.

توفيت في نصف ربيع الآخر سنة عشر وست مئة.

ومن سماعها على ابن أبي ذر كتاب «الدِّيات» لابن أبي عاصم، و«التَّوْبَة»، و«عوالي القَبّاب» و«أحاديث بكر بن بَكّار» و«جزء أبي الزبير عن غير جابر»، وأشياء.

١٢ - مسندة خراسان الشَّعْرية[٢]

الشيخة الجليلة مُسنِدةُ خراسان أمُّ المؤيَّد حُرَّة ناز زينب بنت أبي القاسم عبدالرحمن بن الحسن بن أحمد بن سَهْل بن أحمد بن عبدوس الجُرجانية الأصل النيسابورية الشعرية.

سمعت من إسماعيل بن أبي القاسم بن أبي بكر القارئ، وفاطمة بنت زَعْبَل، وعبدالمنعم ابن القُشَيري، وزاهر بن طاهر، وأخيه وجيه، وأبي المعالي محمد بن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٨٥.

إسماعيل الفارسي، وعبدالجبار بن محمد الخُواريّ، وعبدالوهاب بن شاه، وفاطمة بنت خَلَف الشَّحامِيّ، وعبدالله بن الفُراوي، وعبدالرزاق الطَّبَسيّ.

وأجاز لها عبدالغافر بن إسماعيل، وأبو القاسم الزمخشري النحوي.

وسمعت «الصحيح» من الفارسي ووجيه.

حَدَّثَ عنها ابنُ هلالة، وابنُ نُقْطَةَ، والبِرْزالِيُّ، والضياء، وابنُ الصَّلاح، والمرسي، وإبراهيم الصريفينيُّ، ومحمد بن سعد الهاشميُّ، والصدر البكري، وابنُ النجار.

وسَمِعتُ بإجازتها من جماعة.

وكانت صالحة مُعَمَّرة مُكثِرة.

توفيت في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وست مئة بنيسابور.

١٣ - المحدثة شُهْدَة[١]

بنتُ المحدث أبي نصرٍ أحمد بن الفرج الدينوريِّ، ثم البغدادي الإبَري الجهة، المعمَّرة، الكاتبة، مُسندةُ العراق، فخرُ النساء.

ولدت بعد الثمانين وأربع مئة.

وسمعت من: أبي الفوارس طِرادٍ الزَّينبي، وابن طلحة النِّعالي، وأبي الحسن ابن أيوب، وأبي الخطاب بن البَطِر، وعبدالواحد بن علوان، وأحمد بن عبدالقادر اليوسفي، وثابت بن بُنْدار، ومنصور بن حِيْد، وجعفر السرّاج، وعدة.

ولها مشيخةٌ سمعناها.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٤٢.

حدث عنها: ابن عساكر، والسمعانيُّ، وابن الجوزي، وعبدالغني، وعبدالقادر الرُّهاويُّ، وابن الأخضر، والشيخ الموفَّق، والشيخ العماد، والشهاب بن راجح، والبهاء عبدالرحمن، والناصح، والفخر الإرْبِليُّ، وتاج الدين عبدالله بن حَمُّويه، وأعزُّ بن العُلَّيق، وإبراهيم بن الخَيِّر، وبهاء الدين بن الجُمَّيزي، ومحمد بن المنيِّ، وأبو القاسم بن قميرة، وخلقٌ كثير.

قال ابن الجوزي: قرأتُ عليها، وكان لها خطٌّ حسن، وتزوَّجتْ ببعض وكلاء الخليفة، وخالطتِ الدُّورَ والعلماء، ولها بِرٌّ وخير، وعُمِّرت حتى قاربت المئة، توفيت في رابع عشر المحرَّم سنة أربع وسبعين وخمس مئة، وحضَرها خلقٌ كثير وعامة العلماء.

وقال الشيخ الموفَّق: انتهى إليها إسنادُ بغداد، وعُمِّرت حتى ألحقت الصغار بالكبار، وكانت تكتُب خَطّاً جيداً، لكنه تغيَّر لكِبَرِها.

١٤- المحدثة تَجَنِّي[1]

بنتُ عبدالله، أُمُّ عتب الوَهْبانية، عتيقة أبي المكارم بن وَهْبان.

هي آخرُ من سمع مِن طِرادٍ الزَّينبي وأبي عبدالله بن طلحة النِّعالي موتاً ببغداد.

حدث عنها: السمعاني، وابن عساكر، والشيخ الموفَّق، والناصح ابنُ الحنبلي، والبهاء عبدالرحمن، وأبو الفتوح بن الحُصري، وهبةُ الله بن الحسن الدَّوامي، ومحمد ابن عبدالكريم السَّيِّدي، وفخر النساء بنتُ الوزير محمد بن رئيس الرؤساء، وإبراهيم بن الخَيِّر، ويحيى بن قُميرة، وآخرون.

قال ابنُ الدُّبيثي: أجازت لنا، وتوفيت في شوال سنة خمس وسبعين وخمس مئة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٥٠.

١٥ - المُحدِّثة خديجة[1]

بنت أحمد بن الحسن بن عبدالكريم، فخرُ النساء، بنتُ النَّهْرُواني، امرأةً صالحة معمَّرة.

روت عن: ابن طلحة النِّعالي.

حدث عنها: ابنُ اخيها عليُّ بنُ رَوْح، والشيخ الموفَّق، ونصرُ بن عبدالرزاق، والشيخ العِماد المقدسي، وآخرون.

توفيت في رمضان سنة سبعين وخمس مئة.

وآخر من تبقى من أصحابها بالسماع المقرئ إبراهيم بن الخَيِّر.

[تلاعب القواد بالحكام]

عبدالواحد[2]

ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبدالمؤمن صاحب المغرب.

كان شيخاً عاقلاً، لكنه لم يدار القواد، فقاموا عليه وخلعوه، وخنقوه في سنة إحدى وعشرين وست مئة، فكانت دولته تسعة أشهر.

حوادث سنة ٦١٥

ودخلت سنة ٦١٥[3]: فنازلت الفرنجُ دمياط، وأقبل الكامل ليكشف عنها فدام الحصار أربعة أشهر، ومات العادل وخلص واستراح.

---

(١) سير علام النبلاء ٢٠/ ٥٥١.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٤١.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٣٢.

وفيها كَسَرَ الأشرفُ صاحبَ الروم، ثم أقبل وأخذ معه عسكر حلب مُغيراً على سواحل الفرنج.

وأخذت الفرنج بُرج السلسلة من دمياط، وهو قُفْل على مصر؛ برج عظيم في وسط النيل فدمياط بحذائه، والجيزة من الحافة الغربية، وفيه سلسلتان تمتد كل واحدة على وجه النيل إلى سور دمياط وإلى الجيزة يمنعان مركباً يدخل من البحر في النيل، وَعَدَت الفرنج إلى بَرّ دمياط، ففرّ العساكرُ من الخيام، فطمع العدو، ثم كر عليهم الكامل فطَحَنَهُم، فعادوا إلى دمياط.

ومات كيكاوس صاحب الروم، وكان جباراً ظَلُوماً.

ومات القاهر مسعود صاحب الموصل.

ورجع من بلاد بُخارى خوارزم شاه إلى نيسابور، وقد بلغه أن التتار قاصدوه، وجاءه رسول جنكز خان يطلب الهدنة يقول: إن القان العظم يسلّم عليك ويقول: ما يخفى عليَّ عظم سطانك وأنت كأعزّ أولادي وأنا بيدي ممالك الصين، فاعقد بيننا المَوَدَّة، وتأذن للتجار وتنعمر البلاد، فقال السلطان لمحمود الخوارزمي الرسول: أنت منا وإلينا، وأعطاه جواهر وطلب أن يكون مناصحاً له فأجابه، فقال: اصدقني، تَمَلَّكَ جنكز خان طمغاج؟ قال: نعم، قال: فما المصلحة؟ قال: الصُّلح. فأجاب. فأعجب ذلك جنكز خان ومشى الحال. ثم جاء من جهة التتار تجار فشرهت نفس خال السلطان متولي ما وراء النهر إلى أخذ أموالهم، وقبض عليهم وظنهم جواسيس للتتار، فجاء رسول جنكز خان يقول: إنك أمّنت تجارنا والغدر قبيح، فإن قلت: فعلَهُ خالي فسلِّمه إلينا وإلا سترى مني ما تعرفني به، فحارت نفس خوارزم شاه، وتجَلَّد، وأمر بقتل الرُّسل، فيا بئس ما صنع، وحصَّن سمرقند وشحنها بالمقاتلة فما نفع، وقضي الأمر.

حوادث سنة ٦١٦

[زالت عنهم الدنيا بعد عزّ]

ودخلت سنة ٦١٦[1]: فتقهقر خوارزم شاه، وأقبلت المُغْل كالليل المظلم، وما زال أمرُ خوارزم شاه في إدبار، وسَعْدُهُ في سَفال، ومُلكه في زوال، وهو في تقهقر واندفاع إلى أن قارب هَمَذان، وتفرّق عنه جمعُه، حتى بقي في عشرين ألفاً، فما بلع ريقَه إلا وطلائعُ المُغل قد أظلَّته، وأحدقوا به، فنجا بنفسه، واستحرَّ القتل بجنده، وفَرَّ إلى الجَبَل، ثم إلى مازَندران، ونزل بمسجد على حافة البحر يصلي بجماعة ويتلو ويبكي، ثم بعد أيام كَبَسَهُ العدو، فهرب في مركب صغير، فوصل إليه نشابهم وخاض وراءه طائفة، فبقي في لجّة، ومرض بذات الجَنْب، فقال: سبحان الله ما بقي لنا من مملكتنا قدر ذراعين نُدفن فيها، فوصل إلى جزيرة فأقامَ بها طريداً وحيداً مجهوداً، ومات فكفنه فَرّاشُهُ في عمامته سنة سبع عشر وست مئة.

وفي أول سنة ٦١٦: خَرَّب أسوار القدس المُعظَّمُ خوفاً من تَمَلّك الفرنج، وَهَجَّ الناس منه على وجوههم، وكان يومئذ أحصن ما يكون، وأعْمَرَهُ، وذاك لأنه كان في نجدة أخيه على دِمياط، وسمع أن الفرنج على قَصْدِه، وكان به أخوه الملك العزيز وعزُّ الدين أَيْبَك صاحبُ صَرْخَد، فشرعوا في هدمه، وتَمَزَّقَ أهلُهُ وتعثَّروا ونهبوا وبيع رطل النحاس بنصف والزيت عشرة أرطال بدرهم، ونحو ذلك.

قال ابن الأثير: لما أخذت الفرنج بُرج السِّلْسِلة عملَ الكاملُ على النيل جسْراً عظيماً، فالتحم القتال حتى قطعته الفرنج، فعمد الكامل إلى عدة مراكب وملأها حجارةً وغرَّقها في الماء ليمنع مركباً من سلوك، فحَفَرت الفرنجُ خليجاً وأخروه وأدخلوا مراكبهم منه حتى دخلوا بُورة وحاذوا الكامل، وقاتلوه مرات في الماء ولم يتغير عن أهل دمياط شيء، لأن الميرة واصلة إليهم. ومات العادل فهمَّ جماعة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٣٣.

بتمليك الفائز بمصر، فبادر الكامل وأصبح الجيش في خَبْطَة وقد فقدوا الكامل، فشدت الفرنج على دمياط وأخذوا برها بلا كُلْفة ولولا لُطف الله وقُدوم المُعَظَّم بعد يومين لراحت مصر، ففرحَ به الكامل، وبعثوا عماد الدين أحمد بن المَشْطوب الذي سعى للفائز إلى الشام، وتمادىَ حصار الفرنج لدمياط وصَبَرَ أهلُها صبراً عظيماً، وقُتِلَ منهم خلق، وقلّوا وجاعوا فسلَّموها بالأمان، فحصّنها العدو وأشرف الناس على خطة صَعْبة وهَمَّ أهلُ مصر بالجلاء، وأُخِذت في شعبان سنة ست عشرة، ودامَ الكامل مُرابطاً إلى سنة ثماني عشرة، وأقبل الأشرف مُنجداً لأخيه وقوي المسلمون وحاربوا الفرنج مرات، وترددت الرسل في هُدْنة وبذلوا للفرنج القدس وعسقلان وقِلاعاً سوى الكَرَك، فأبوا، وطلبوا ثلاث مئة ألف دينار عوضاً عن تخريب سور القدس، فاضطر المسلمون إلى حربهم، فقلَّت الميرة على الفرنج ففجَّر المسلمون النيل على منزلة الفرنج، ولم يبقَ لهم مسلك غير جهة ضيِّقة، فنصب الكامل الجسور على النيل ودخلت العساكر فملكوا المضيق وسُقط في أيدي الفرنج وجاعوا، فأحرقوا خيامَهم وأثقالهم ومجانيقَهم، وعزموا على الزَّحف إلى المسلمين فعجزوا وذلوا وعزَّ المسلمون عليهم، فطلبوا من الكامل الأمان، ويتركوا له دمياط، فبينما هم في ذلك إذا رَهَجٌ عظيم وضجة من جهة دمياط فظنوها نجدة للفرنج جاءت، وإذا به الملك المُعَظَّم في جنده، فخُذِلت الملاعين وسلَّموا دمياط في رجب سنة ثماني عشرة ودخلها المسلمون، وقد بالغت الكلاب في تحصينها ولله الحمد.

أنبأني مسعود بن حمويه، قال: لما تقرر الصلح جلس السلطان في مخيمه: عن يمينه المجاهد شيركوه، ثم الأشرف، ثم المعظَّم، ثم صاحب حَماة، ثم الحافظ صاحب جَعْبر، ومُقدَّم عسكر حلب، ومُقَدَّم المواصلة والماردانين، ومقدَّم جند إربل وميافارقين، وعن شماله نائب البابا ثم صاحب عكا ثم صاحب قبرص وصاحب طرابلس وصاحب صيدا ثم أرباب القلاع ومقدم الديوية، ومقدّم الإسبتار، كان يوماً مشهوداً، فأذن السلطان بأن يباع عليهم المأكول فكان يدخل إليهم كل يوم خمسون ألف رغيف، ومئتا أردب شعير، وكانوا يبيعون سلاحهم بالخبز.

من حوادث سنة ٦٢٤

وفي سنة أربع وعشرين وست مئة: التقى خوارزم شاه التتار ببلاد أصبهان فهزمهم ومزَّقهم، ثم تناخوا وكرُّوا عليه، فانفلّ جمعه، وبقي في أربعة عشر فارساً وأُحيط به، فخرقهم على حمية، فكانت وقعة مُنكئة للفريقين، فتحصَّن بأصبهان[1].

وقتلت الإسماعيلية أمير كنجة، فتألَّم جلال الدين، وقصد بلاد الإسماعيلية، فقتل وسبى، ثم تحزَّبوا له، وسار جيش الأشرف مع الحاجب عليٍّ فافتتح مِرَند وخُوَي، ورَدُّوا إلى خِلاط، وأخذوا زوجة خوارزم شاه، وهي بنت السلطان طغرل ابن رسلان السلجوقي، وكان تزوج بها بعد أزبك بن البهلوان صاحب تِبريز، فأهملها فكاتبت الحاجب، وسلَّمت إليه البلاد.

ومرض المُعَظّم فتصدّق بألف غرارة وثمانين ألف درهم، وحَلَّف الأمراء لولده الناصر داود، ومات في ذي القعدة.

وفيها مات القان جنكزجان المَغُلي، طاغيةُ التتار، في رمضان، وكانت أيامه المشؤومة خمساً وعشرين سنة. وقيل: كان أول أمره حَدَّاداً يُدعى تمرجين وتسلطن بعدَه ابنه أوكتاي.

وعاش المُعَظَّم تسع وأربعين سنة، وكان يعرفُ مذهب أبي حنيفة والقرآن والنحو، وشرح «الجامع» في عدة مجلدات بإعانة غيره.

حوادث سنة ٦٢٥

وفي سنة خمس وعشرين وست مئة: جاء المنشور من الكامل لابن أخيه الناصر بسلطنة دمشق، ثم بعد أشهر قَدِمَ الكامل ليأخذ دمشق، وأتاهُ صاحب حمص والعزيز أخوه فاستنجد الناصر بعمِّه الأشرف، فسار ونزل بالدهشة، فرجع

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٥٨.

الكامل، وقال: لا أُقاتل أخي، فقال الأشرف: المَصْلحة أن أدرك السلطان وأُلاطِفه، فاجتمع به بالقدس، واتفقا على الناصر وأن تكون دمشق للأشرف، وتبقى الكركُ للناصر، فلما سمع الناصر، حَصَّن البَلَد.

وفيها عُزِلَ الصَّدرُ البَكْرِيُّ عن حسْبة دمشق، ومشيخة الشيوخ.

وفيها جرى الكُوَيز الساعي من واسط إلى بغداد في يوم وليلة ورُزق قبولاً وحصل له ستة آلاف دينار ونيّف وعشرون فَرَساً.

وشرعوا في أساس المستنصرية، ودام البناء خمس سنين، وكان مشد العمارة أستاذ دار الخليفة.

وكانت فرقةٌ من التتار قد أبعدهم جنكزخان، وغضب عليهم فأتوا خُراسان، فوجدوها بلاقع، فقصدوا الريَّ فالتقاهم خوارزم شاه مرتين وينهزم، فنازلوا أصبهان، ثم أقبل خوارزم شاه، وخرق التتار، ودخل إلى أصبهان وأهلها من أشجع الرجال، ثم خرج بهم فهزم التتارَ وطَحَنَهُم، وساق خلفهم إلى الري قَتْلاً وأَسْراً، ثم أتته رُسُلٌ من القان بأن هؤلاء أبعدناهم، فاطمأن لذلك وعاد إلى تِبْرِيز.

خيانة الحكام

واستولى الفرنج على صَيْدا، وقويت نفوسهم، وجاءهم ملك الألمان الأنبرور وقد استولى على قبرص، فكاتبه الكامل ليعينه على الناصر، وكاتب ملوكُ الفرنج الكامل: إذا حصل مصاف نمسك الأنبرور، فسيَّر الكامل إلى الأمبرور كتبهم وأوقفه عليها، فعرف الأنبرور ذلك للكامل، وأجابه إلى كل ما يريد.

السلطان محمد بن يوسف بن هود[1] الأندلسي أبو عبدالله

قراتُ بخط أبي الوليد بن الحاج، قال: لما قضى الله تعالى بهلاك الموحِّدين بالأندلس، وذلك أنهم ابتلوا بالصَّلاح في الظاهر، والأعمال الفاسدة في الباطن،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠.

فأبغضهم الناس بُغضاً شديداً، وتربّصوا بهم الدوائر، إلى أن نَجَمَ ابن هود في سنة خمس وعشرين وست مئة بشرق الأندلس فقامَ الناس كُلُّهم بدعوته، وتعصَّبوا معه، وقاتلوا الموحدين في البلدان، وحَصَروهم في القلاع، وقهروهم، وقتلوا فيهم ونُصِرَ على الموحِّدين، وخَلُصت الأندلس كلها له، وفَرِحَ الناس به فرحاً عظيماً، فلما تمهّد أمرُهُ أنشأ غزوةً للفرنج على مدينة ماردة بغرب الأندلس، واستدعى الناس من الأقطار، فانتدب الخلق له بجِدّ واجتهاد وخُلُوص نية المرتزقة والمُطّوعة، واجتمع عليه أهلُ الأندلس كلُّهم، ولم يبقَ إلا من حَبَسَهُ العُذرُ، فدخل بهم إلى الإفرنج، فلما تراءَى الجمعان وقعت الهزيمة على المسلمين أقبح هزيمة فإنا لله وإنا إليه راجعون، وكانت تلك الأرض مَدْيَسَة بماء وعَزْق تَسَمَّرَت فيها الخيل إلى آباطها، وهلك الخَلْقُ، وأتبعهم الفرنج بالقَتْل والأسر ولم يبق إلا القليل، ورجع ابن هود في أسوأ حال إلى إشبيلية، فنعوذ به من سوء المُنْقَلَب، فلم تبق بقعة من الأندلس إلا وفيها البكاء والصياح العظيم والحُزن الطويل، فكانت إحدى هَلَكات الأندلس، فمقتَ الناسُ ابنَ هود، وصاروا يسمّونه «المَحْرُوم»، ولم يقدر أن يفعل مع الفرنج كبير فعل قط إلا مرة أخذ لهم غنماً كثيرة جداً، ثم قام عليه شُعَيب بن هلالة بلَبْلَة، فصالح ابنُ هود الأدفوش على محاصرة لَبْلَة ومعاونته على أن يعطيه قرطبة، واتفقا على ذلك، وقال له: لا يسوغ أن يدخلها الفرنج على البديهة، وإنما تُهمل أمرها، وتخليها من حرس، ووجّه أنت الفرنج يتعلقون بأسوارها بالليل ويغدرون بها، ففعلوا كذلك. ووجه ابن هود إلى واليه بقرطبة فأعلمه بذلك، وأمره بضياعها من حيّز الشرقية فجاء الفرنج، فوجدوه خالياً، فجعلوا السلالم واستووا على السور فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وكانت قرطبة مدينتين: إحداهما الشرقية والأخرى المدينة العظمى، فقامت الصيحة والناس في صلاة الفجر، فركب الجند وقالوا للوالي: اخرج بنا للمُلْتَقَى، فقال: اصبروا حتى يضحي النهار، فلما أَضْحى ركب وخرج معهم، فلما أشرف على الفرنج قال: ارجعوا حتى ألبس سلاحي! فرجع بهم وهم يصدّقونه، وذا أمرٌ قد دُبر

بليل، فدخل الفرنج على أثرهم، وانتشروا، وهَرَبَ الناسُ إلى البلد، وقُتِلَ خَلْقٌ من الشيوخ والولدان والنسوان، ونُهب للناس ما لا يُحصى، وانحصرت المدينة العظمى بالخَلْق فحاصرهم الفرنج شهوراً، وقاتلوهم أشد القتال، وعدم أهلُها الأقوات، ومات خلق كثير جوعاً، ثم اتفق رأيهم مع أدفونش -لعنه الله- على أن يسلموها ويخرجوا بأمتعتهم كلها، ففعل، ووَفَّى لهم ووصّلهم إلى مأمنهم في سنة أربع وثلاثين وست مئة.

قلت: ولم يُمتّع بعدها ابن هود بل أخذه الله في سنة خمس فكانت دولته تسعة أعوام وتسعة أشهر وتسعة أيام، وهلك بالمرية جُهّز عليه مَن غَمَّهُ وهو نائم، وحُمِلَ إلى مرسية فدُفِنَ هناك، ولم يمت حتى قوي أمر الموحِّدين وقام بعده محمد بن يوسف بن نصر ابن الأحمر، ودام الملك في ذريته.

وقَدِمَ علينا دمشق ابن أخيه الزاهد الكبير بدر الدين بن هود، ورأيتُهُ، وكان فلسفي التصوف يشرب الخمر أخذه الأعوانُ مخموراً[1]!

[من الحكام المجاهدين]

الملك الكامل[2]

الملك الكامل الشهيد ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن السلطان الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب.

تملَّك ميّافارقين وغيرَها بعد أبيه سنة خمس وأربعين وست مئة، وكان شاباً، عاقلاً، شجاعاً، مَهيباً، مُحْسِناً إلى رعيَّته، مجاهداً، غازياً ديِّناً، تقيّاً، حميد الطريقة، حاصره عسكر هولاكو نحواً من عشرين شهراً حتى فَنِيَ الناس جوعاً ووباءً، حتى

---

(١) هذا الفاسد من صُلب ذاك الفاسد الذي باع المسلمين بثمن بخس فإنا لله وإنا إليه راجعون فأي تصوف هذا؟!

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠١.

لم يبقَ بالبلد سوى سبعين رجلاً فيما قيل؛ فحدثني الشيخ محمود بن عبدالكريم الفارقيّ قال:

سار الكامل إلى قلاعٍ بنواحي آمِد فأخذها، ثم نقل إليها أهله، وكان أبي في خدمته، فرحل بنا إلى قلعة منها، فعبرت التتار علينا، فاستنزلوا أهل الملك الكامل بالأمان من قلعة أخرى، وردوا بهم علينا، وأنا صبيٌّ مميز، وحاصروا ميَّافارقين أشهراً، فنزل عليهم الثلج، وهلك بعضهم، وكان الكامل يبرزُ إليهم يُقاتلهم، ويُنْكِي فيهم فهابوه، ثم بنوا عليهم سوراً بإزاء البلد، بأبرجة، ونَفَدَتِ الأقوات، حتى كان الرجل يموت فيُؤكل، وقع فيهم الموت، وفتر عنهم التتار وصابروهم، فخرج إليهم غلام أو أكثر وجَلَوْا للتتار أمرَ البلد، فما صدقوا، ثم قربوا من السور وبقوا أياماً لا يجسرون على الهجوم، فدلى إليه مملوك للكامل حبالاً فطلعوا إلى السور فبقوا أسبوعاً لا يجسرون، وبقي بالبلد نحو التسعين بعد ألوف من الناس، فدخلت التتار دار الكامل وأمنوه، وأتوا به هولاكو بالرُّها فإذا هو يشرب الخمر، فناول الكامل كأساً فأبى، وقال: هذا حرام، فقال لامرأته: ناوليه أنتِ، فناولته فأبى، وشتم وبصق -فيما قيل- في وجه هولاكو. وكان الكامل ممن سار قبل ذلك ورأى القان الكبير، وفي اصطلاحهم من رأى وجه القان لا يُقتل، فلما واجه هولاكو بهذا استشاط غضباً وقتله.

ثم قال: وكان الكاملُ شديد البأس، قويّ النفس، لم ينقهر للتتار بحيث إنهم أخذوا أولادَه من حصنهم، وأتَوْهُ بهم إلى تحت سور ميافارقين، وكلموه أن يُسَلِّم البلد بالأمان فقال: ما لكم عندي إلا السيف.

قلت: طِيفَ برأسه بدمشق بالطبول، وعُلّق على باب الفراديس، فلما انقلعوا، وجاء المظفر دُفِنَ الرأس. وكان في سنة ست وخمسين قدم دمشق مستنجداً بالناصر فبالغ في إكرامه واحترامه، ووعده بالإنجاد، ورجع إلى ميّافارقين وقُتل في سنة ثمانٍ وخمسين وست مئة رحمه الله.

[من الملوك الصبيان]

العزيز[1]

السلطان الملك العزيز غِياث الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر ابن السلطان الكبير صلاح الدين.

ملّكوه حلب بعد أبيه، وهو ابن أربع سنين، وجُعل أتابكه الطواشي طُغريل، فأجاز ذلك السلطان الملك العادل، لمكان بنته الصاحبة ضَيْفة أم العزيز، وكان شاباً عادلاً شفوقاً على الرعيَّة متودّداً لا بأس به.

توفي في ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وست مئةٍ، وملكوا بعده ابنة الناصر.

الناصر[2]

السلطان الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب ودمشق.

مولدُهُ في رمضان سنة سبعٍ وعشرين وستٍّ مئةٍ.

وملّكه خالُه السلطان الملك الكامل في سنة أربعٍ وثلاثين رعاية لأخته الصاحبة جدة الناصر، فدبّر دولته المقر شمس الدين لؤلؤ الأميني، وإقبال، والجمال القفطيُّ الوزير، والأمور كلُّها مَنوطة بالصاحبة، وتوجه رسولاً قاضي حلب زين الدين ابن الأستاذ إلى الكامل ومعه سلاح العزيز وعدته فحزن عليه الكامل.

وفي سنة ثمانٍ وأربعين في ربيع الآخر نازل السلطان دمشق ففتحت له واستولى عليها وجعلها دار مُلكه، ثم سار ليأخذ مصر فانكسر وقُتل نائبه لؤلؤ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠٤.

وفي سنة اثنتين وخمسين وست مئة كان عرسه على بنت صاحب الروم وأولدها.

وكان جواداً مُمَدَّحاً، حسن الأخلاق، مَزّاحاً، لعاباً، كثير الحِلْم، مُحباً للأدب والعلم وفي دولته انحلال وانخناث؛ لعدم سطوته، وكان يمدّ سماطه باهراً من الدجاج المحشي ويُذبح له في اليوم أربع مئة رأسٍ، فيبيع الفراشون من الزبادي الكبار الفاخرة الأطعمة شيئاً كثيراً؛ بحيث إن الناصر زار يوماً العزّ المُطَرِّز فمدّ له أطعمة فاخرة فتعجب كيف تهيأ ذلك، فقال: يا خوند لا تعجب فكله من فضلة سماط السلطان أيده الله.

وكان السلطان يحفظ كثيراً من النوادر والأشعار، ويباسط جلساءه، وقيل: ربما غَرِمَ على السماط عشرين ألفاً. أنشأ مدرسته بدمشق، وحضرها يوم التدريس، وأنشأ الرباط الكبير، وأنشأ خان الطعم، ولما أقبلت التتار، تأخر إلى قطيا، ثم خاف من المصريين، فشَرَّق نحو التيه، ورَدَّ إلى البلقاء فكبسته التتار فهرب، ثم انخدع واغتر بأمانهم، فذهب وندم، وبقي في هوان وغُربة، هو وأخوه الملك الظاهر. وقيل: لما كبسوه دخل البرية فضايقوه حتى عطش فسلَّم نفسَهُ، فأتوا به إلى كتبغا وهو يحاصر عَجْلون فوعده وكذبه وسقاه خمراً، وقيل: أكرمه هولاوو[1] مُدَّةً، فلما جاءه قَتْل كتبغا انزعج وأخرج غيظه في الناصر وأخيه، فيقال: قُتل بالسيف بتِبريز رماه بسهمٍ، وضُربت عنق أخيه وجماعة ممن معه في أواخر سنة ثمانٍ وخمسين وستّ مئةٍ، وعاش إحدى وثلاثين سنةً رحمه الله. وقيل: إنه ما سلَّم نفسه إلى التتار حتى بلغت عنده الشربة مئة دينار[2].

---

(١) يعني: هولاكو، فيرسمها البعض ويلفظها هكذا وهي معروفة في الكتب.

(٢) في تاريخ الإسلام: «وكان قد هرب إلى البراري فساقوا خلفه فأخذوه وقد بلغت عنده شربة الماء نحو مئة دينار...».

ذكر قطب الدين: إن هولاكو لما سمع بهزيمة عين جالوت غضب وتنكَّر للناصر، ولما بلغه وقعة حِمْص انزعج، وقتله، وقيل: خصَّه بعذاب دون رفاقه، وله شعر جيد.

قال ابن واصل: عُمِلَ عزاؤه بدمشق في جمادى الأولى سنة تسعٍ، قال: وصورةُ ذلك ما تواتر أن هولاكو لما بلغه كسرة جيشِه بعين جالوت وحمص، أحضر الناصر وأخاه وقال للترجمان: قل أنتَ زعمت البلاد ما فيها أحد وهُم في طاعتك حتى غررت بي، فقال الناصر: هم في طاعتي لو كنتُ هناك، وما كان يشهر أحدٌ سيفاً، أما من هو بتوريز كيف يحكم على الشام؟ فرماه هولاكو بسهمٍ أصابه، فاستغاث، فقال أخوه: اسكت ولا تَطْلُب مِن هذا الكلب عفواً، فقد حضرت، ثم رماه بسهم آخر أتلفه، وضُربت عنق الظاهر وأتباعهما.

وفيها قُتل السلطان قُطز بعد المصاف مئة وصاحب الصُّبيبة[1] الملك السعيد حسن ابن العزيز عثمان ابن السلطان الملك العادل، تملك الصبيبة بعد أخيه الملك الظاهر سنة إحدى وثلاثين، ثم أخذها منه السكان الملك الصالح بن سنين، وأعطاه خُبزاً[2] بمصر، فلما قتلوا المُعَظَّم ساق إلى غزة، وأخذ ما فيها، ثم تسلَّم الصُّبيبة، فلما تملك الناصر دمشق، أخذ السعيد، وسجنه بقلعة إلبيرة، فلما أخذ أصحاب هولاكو إلبيرة أحضروه مُقيّداً عند القان، فأطلقه، وخلع عليه بسراقوج وصار تترياً، فردُّوا إليه الصُّبيبة، ولازم خدمة كتبغا وقاتل معه يوم عين جالوت، ثم جاء بوجه بسيط إلى بين يدي قُطز، فأمر بضرب عنقه في آخر رمضان. وكان بطلاً شجاعاً[3].

---

(١) كان صاحب الصُّبيبة وبانياس (انظر تاريخ الإسلام، الورقة ١٧٧-١٧٨ (أيا صوفيا ٣٠١٣).

(٢) خبزاً، يعني: عطاءً معلوماً، يدر عليه.

(٣) وأيش فائدة بطولته وشجاعته وقد عضد الكفرة ضد المسلمين؟!

العادل وبنوه[1]

السلطان الكبير الملك العادل سيف الدين أبو الملوك وأخو الملوك أبو بكر محمد ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدُّويني الأصل التكريتي ثم البَعْلَبَكّيّ المولد. وُلد بها إذ والده ينوب بها للأتابك زنكي بن آقسنقر في سنة أربع وثلاثين وخمس مئة.

كان أصغر من أخيه صلاح الدين بعامين، وقيل: بل مولده في سنة ثمانٍ وثلاثين فالله أعلم.

نشأ في خدمة الملك نور الدين، ثم شهد المغازي مع أخيه. وكان ذا عقل ودهاء وشجاعة وتؤدة وخبرة بالأمور، وكان أخوه يعتمد عليه ويحترمه، استنابه بمصر مدةً ثم ملَّكه حلب، ثم عوَّضَه عنها بالكرك وحرَّان، وأعطى حلب لولده الظاهر.

قيل: إنَّ العادل لما سار مع أخيه[2] قال: أخذت من أبي خُرْمدان[3] فقال: يا أبا بكر إذا أخذتُم مصر أملأهُ لي ذهباً، فلما جاء إلى مصر، قال: وأين الخرمدان؟ فملأته دراهم وجعلت أعلاه دنانير، فلما قلَّبَهُ قال: فعلت زَغَل المصريين.

ولما نابَ بمصر استحبه صلاح الدين في الحَمْل، حتى قال: يُسَيِّر الحَمْل من مالنا أو من ماله، فشقَّ عليه، وحكاها للقاضي الفاضل، فكتب جوابه: وأما ما ذكره السلطان فتلك لفظة ما المقصود بها من المالك النُّجعة بل قصد بها الكاتب السَّجعة،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١١٥.

(٢) يعني إلى مصر صحبة عمهما أسد الدين شيركوه.

(٣) من الفارسية «خُرمدان» بالخاء المعجمة لكنها غالباً ما ترد بالحاء المهملة بالعربية، وهي حقيبة من الجلد - يحملها الرجل على جنبه ويضع فيها أوراق ودراهمه وغير ذلك كما في معجم دوزي (٣/ ١٥٠ من الترجمة العربية).

وكم من كلمةٍ فظةٍ ولفظةٍ فيها غلظة جَبَرت عِيّ الأقلام وسدت خلَلَ الكلام، وعلى المملوك الضمان في هذه النكتة، وقد فات لسان القلم، أي سكتة.

قلت: وكان سائِساً، صائب الرأي، سعيداً، استولى على البلاد، وامتدت أيامه، وحكم على الحجاز، ومصر، والشام، واليمن، وكثير من الجزيرة، وديار بكر، وأرمينية. وكان خَليقاً للمُلك، حَسَن الشكل، مَهيباً، حليماً، دَيِّناً، فيه عِفّة وصَفْح وإيثار في الجملة. أزال الخمور والفاحشة في بعض أيام دولته، وتصدَّق بذهبٍ كثير في قحط مصر حتى قيل: إنه كفَّن من الموتى ثلاث مئة ألف، والعُهدة على سِبط الجوزي في هذه.

وسيرتُه مع أولاد أخيه مشهورة، ثم لم يزل يراوغهم ويلقي بينهم حتى دَحاهم، وتمكن واستولى على ممالك أخيه، وأبعدَ الأفضل إلى سُمَيساط، ووَدَعَ الظاهر وكاسر عنه لكون بنته زوجته، وبعث على اليمن حفيده المسعود أطسِز ابن الكامل، وناب عنه بميافارقين ابنه الأوحد، فاستولى على أرمينية. ثم إنه قَسَّم الممالك بين أولاده، وكان يصيّف بالشام غالباً ويشتو بمصر.

جاءته خِلَع السلطنة من الناصر لدين الله وهي: جُبَّة سوداء بطرز ذهب وجواهر في الطوق وعمامة سوداء مذهّبة، وطَوْق، وسيف، وحصان بمركب ذهب، وعَلَمٌ أسود، وعدة خلع لبنيه مع السُّهْرَوَردي[1]، فقرئ تقليده على كرسي، قرأه وزيرُه، وخوطب فيه: بالعادل شاه أرمن ملك الملوك خليل أمير المؤمنين.

وخاف من الفرنج فصالحهم وهادَنَهم وأعطاهم مَغَلّ الرملة[2] ولدّ، وسلم إليهم يافا، فقويت نفوسهم، فالأمر لله.

---

(١) شهاب الدين عمر المشهور المتوفى سنة ٦٣٢، وانظر تفاصيل هذا الأمر في مفرج الكروب لابن واصل: ٣/ ١٨٠-١٨٢.

(٢) في الأصل: «الرحلة» مُحَرَّف، وهذا الصلح معروف كان في سنة ٦٠١ ذكره ابن واصل في «مفرج الكروب» (٣/ ١٦٢) وغيره.

ثم أمر بتجديد قلعة دمشق، وألزم كل مَلك من آلِهِ بعمارة بُرج في سنة أربع وست مئة، وعَمَّرَ عدة قلاع.

قال الموفق عبداللطيف: كان أعمق إخوته فِكراً، وأطولهم عُمراً، وأنظرهم في العواقب، وأحبهم للدرهم، وكان فيه حلم وأناة وصبر على الشدائد، سعيد الجَدّ[1]، عالي الكعب، مُظَفّراً، أكولاً، نهماً، يأكل من الحلواء السكرية رطلاً بالدمشقي. وكان كثير الصلاة، ويصوم الخميس، يُكثر الصدقة عند نزول الآفات، وكان قليل المرض. لقد أُحضر إليه أربعون حملاً من البطيخ فكسَرَ الجميع وبالغ في الأكل فحمّ يوماً. وكان كثير التمتع بالجواري، ولا يدخل عليهن خادماً إلا دون البلوغ.

نجبَ له عدة أولاد سَلْطَنَهُم وزوَّج بناته بملوك الأطراف.

وقد احتيل على الفَتك به مرات، ويسلِّمه الله.

وكان شديد الملازمة لخدمة أخيه صلاح الدين، وما زال يتحيل حتى أعطاه العزيز دمشق، فكانت السبب في أن تملَّك البلاد، ولما جاءه بمنشورها ابن أبي الحَجَّاج أعطاه ألف دينار، ثم جرت أمور يطول شرحُها وقتال على المُلك، ولو كان ذلك التعب والحرب جهاداً للفرنج لأفلح.

وتملك ابنه الأوحد خِلاط فقتل خَلْقاً من عسكرها.

قال الموفق: فقال لي بعض خواصة: إنَّه قَتَل في مدةٍ ثمانية عشر ألفاً من الخواص كان يقتلهم ليلاً ويلقيهم في الآبار، فما أُمهل واختل عقلُهُ ومات. قد بعث إليه أبوه مُعَزِّماً ظَنَّهُ جُنَّ. فتملَّك بعده الأشرف إلى أن قال: ورد العادل ورماح الفِرنج في أثره حتى وصل دمشق ولم يدخلها، وشجعه المعتمد. وأما الفِرنج فظنوا هزيمته مكيدة فرجعوا بعدما عاثوا وقصدوا دمياط. وقيل: عرض له ضَعْف ورعشة واعتراه ورم الأُنثيين فمات بظاهر دمشق.

---

(١) الجَد: الحظ أو البخت.

كانت خزانته بجَعْبَر وبها ولدُه الحافظ ثم نقلها إلى دمشق، فحصلت في قبضة ولده المُعظَّم، وكان قد مكر وحسَّن لأخيه العصيان ففعل، فبادر أبوه وحوَّل الأموال.

وقد حدث العادل بجزء السابع من «المحامليات» عن السِّلَفي، رواه عنه ابنه الصالح إسماعيل، والشهاب القوصي، وأبو بكر ابن النُّشْبِيِّ، ومات وفي خزانته سبع مئة ألف دينار عَيْناً.

توفي بعالقين في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وست مئة، ودفن بالقلعة أربع سنين في تابوت ثم نقل إلى تُربته.

وخلَّف عدة أولاد: الكامل صاحب مصر، والمُعَظَّم صاحب دمشق، والأشرف صاحب أرمينية ثم دمشق، والصالح عماد الدين، وشهاب الدين غازياً صاحب ميَّافارقين، وآخِرُ من مات منهم تقيُّ الدين عباس، وعاشت بنته مؤنسة بنت العادل بمصر إلى سنة ثلاث وتسعين وست مئة، وحدثت بإجازة عفيفة[1].

قال ابن خلّكان[2]: كان مائلاً إلى العلماء حتى صَنَّفَ له الرازي كتاب «تأسيس التقديس»[3] فذكر اسمه في خطبته.

حوادث سنة ٦٥٤

وفي سنة أربع وخمسين وست مئة: كان ظهور الآية الكبرى وهي النار بظاهر المدينة النبوية ودامت أياماً تأكل الحجارة، واستغاث أهلُ المدينة إلى الله وتابوا، وبَكَوْا، ورأى أهلُ مكة ضوءَها من مكة، وأضاءت لها أعناق الإبل ببُصرى، كما وعد بها رسول الله ﷺ فيما صحّ عنه. وكُسِف فيها الشمس والقمر، وكان فيها الغَرَقُ العظيم ببغداد، وهلك خلقٌ من أهلها، وتهدمت البيوت، وطَفَحَ الماء على السور.

(١) كان للعادل ستة عشر ولداً سوى البنات على ما ذكر ابن واصل (٣/ ٢٧٣).
(٢) وفيات الأعيان ٥/ ٧٦.
(٣) ولشيخ الإسلام ابن تيمية رد مطول نفيس عليه، وقد طبع في الرياض في مجلدين واسمه «بيان تلبيس الجهمية ونقض بدعهم الكلامية».

وفيها سار الطاغية هولاكو بن تولي بن جنكزخان في مئة ألف، وافتتح حصن الألموت، وأبادَ الإسماعيلية وبعث جيشاً عليهم باجونَوِين، فأخذوا مدائن الروم، وذلّ لهم صاحبُها، وقتل خلق كثير.

وفيها كان حريق مسجد النبي ﷺ جميعه في أول رمضان من مسرجة القَيّم، فلله الأمر كُلُّه.

وفي سنة خمس وخمسين وست مئة: مات صاحب مصر الملكُ المعزّ أيبك التُّركماني، قتلتْه زوجته شجرُ الدُّرّ في الغير، فوُسّطتْ.

[الرافضي ابن العلقمي وهولاكو]

وجرت فتنةٌ مهولةٌ ببغداد بين الناس وبين الرافضة، وقُتل عدة من الفريقين، وعظُمَ البلاء، ونُهبَ الكَرْخُ، فحنق ابن العَلْقَميّ الوزيرُ الرافضيُّ، وكاتب هولاكو، وطمَّعَهُ في العراق، فجاءت رسل هولاكو إلى بغداد، وفي الباطن معهم فرمانات لغير واحد، والخليفة لا يدري ما يتم، وأيامه قد ولّت، وصاحب دمشق شابٌّ غرٌّ جبانٌ، فبعث ولدَهُ الطفل مع الحافظيّ بتقادم وتحفٍ إلى هولاكو فخضع له، ومصر في اضطراب بعد قتل المُعزّ، وصاحب الروم قد هرب إلى بلاد الأشكري، فتمرّد هولاكو وتجبّر، واستولى على الممالك، وعاث جُنده الكَفَرةُ يقتلون ويأسرون ويُحرقون.

[اقتتال الحكام على الملك]

سلطان شاه[1]

صاحب مَرْو، محمود بن خُوارزمشاه أرسلان بن أتسز بن محمد بن نُوشتكينَ الخوارزميُّ، أخو السلطان علاء الدين خوارزمشاه تكش.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢١٨.

تملَّك بعد أبيه سنة ٥٤٨، وجَرَتْ له حروبٌ وخُطوبٌ. وكان أخوه قد ملَّكه أبوه بعض خراسان، فحَشَدَ، وأقْبَل، وحارب أخاه، وكان كفرسيْ رهانٍ في الحَزْمِ والعَزْم والشجاعة والرأي.

حضر محمود غير مَصافٍّ، واستعانَ بالخَطا، وافتتح مدناً، وقد أسر أخو تكش والدة محمودٍ، وذَبَحها، واستولى على خزائن أبيه.

ولهم سِيَرٌ وأحوال.

وقيل: إنَّ محموداً طَرَدَ الغُزَّ عن مرو، وتملَّكه، ثم تحزَّبوا عليه، وكسروه، وقتلوا فرسانه، فاستنجد بالخَطا، وأقبل بعسكرٍ عظيم، وأخرج الغُزَّ عن سرخَس، ونسا، ومرو، وأبيورد، وتملَّك ذلك.

ثم إنه كاتَبَ غياث الدين الغوري، ليُسَلِّم إليه هراة، وبعث إليه الغياث يأمُرُهُ أن يخطبَ له، فأبَى، وشنَّ الغارات، وظلم، وتمرَّد، فأقبل الغُوريُّ لحرب محمودٍ، فتقهقر، وجمع، فتحزَّبَ له غياثُ الدين، وأخوه صاحبُ الهند شهاب الدين، ثم التقى الجمعان، فتفلَّل جمعُ محمود، وتحصَّنَ هو بمَرْو، فبادرَ أخوهُ تكش، وآذى محموداً، وضايَقَهُ حتى كَلَّ، وخاطَرَ، وسار إلى خدمة الغياث، فبالغ في احترامه، وأنزله معه، فبعث تكش إلى الغياث يأمُرُه باعتقال أخيه، فأبى، فبعث يتوعَّده، فتهيَّأ الغياثُ لقصده. وأما محمودٌ، فمات في سَلْخ رمضان سنة تسعٍ وثمانين وخمس مئة، فأحسن الغياث إلى أجناد محمود، واستخدمهم.

ابن دِحيّة[1]

الشيخ العلاّمة المُحَدِّث الرَّحال المُتَفَنِّن مجدُ الدين أبو الخطاب عمر بن حَسَن ابن علي بن الجُمَيّل - واسم الجُمَيّل محمد بن فَرْح بن خلف بن قُومِس بن مَزْلال بن مَلاّل بن أحمد بن بدر بن دِحية بن خليفة الكَلْبيُّ الدَّاني ثم السَّبْتِيُّ.

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٨٩.

هكذا ساق نَسَبَهُ، وما أبعده من الصحة والاتصال وكان يكتب لنفسه: ذو النسبتين بين دحية والحسين.

قال أبو عبدالله الأبار: كان يذكر أنه من وَلَد دحية رضي الله عنه ، روى عنه ابن الدُّبَيْثِيّ، فقال: كان له معرفة حَسَنَة بالنحو واللغة، وأنسَة بالحدث، فقيهاً على مذهب مالك، وكان يقول: إنه حفظ «صحيح مسلم» جميعه، وإنه قرأه على شيخ بالمغرب من حفظه، ويدَّعي أشياء كثيرة.

قلتُ: كان هذا الرجل صاحب فنون وتوسّع ويد في اللغة، وفي الحديث على ضعفٍ فيه.

قال ابن مسْدي: رأيت بخطّه أنه سمع قبل سنة سبعين من جماعة كأبي بكر بن خليل، واللواتي، وابن حنين، قال: وليس يُنكر عليه، ثم لم يزل يسمع حتى سمع من أقرانه، وحَصَّلَ ما لم يحصله غيره.

قال الضياء: لقيتُهُ بأصبهان، ولم أسمع منه، ولم يعجبني حاله؛ كان كثير الوقيعة في الأئمة. وأخبرني إبراهيم السنهوري بأصبهان أنه دخل المغرب، وأن مشايخ المغرب كتبوا له جَرْحه وتضعيفه.

قال الضياء: وقد رأيت منه غير شيء مما يدل على ذلك.

[اختبار العلماء وكشفهم]

وقال ابن نُقْطَة: كان موصوفاً بالمعرفة والفضل ولم أره، إلا أنه كان يدّعي أشياء لا حقيقة لها، ذكر لي أبو القاسم بن عبدالسلام ثقة، قال: نزل عندنا ابن دحية فكان يقول: أحفظ «صحيح مسلم» و«الترمذي» قال: فأخذت خمسة أحاديث من «الترمذي» وخمسة من «المسند» وخمسة من الموضوعات فجعلتها في جزء، ثم عرضتُ عليه حديثاً من الترمذي، فقال: ليس بصحيح، وآخر فقال: لا أعرفه، ولم يعرف منها شيئاً!

[من حيل الحكام]

وقال ابن واصل الحموي: كان ابن دِحية مع فرط معرفته بالحديث وحفظه الكثير له متهماً بالمجازفة في النقل، وبلغ ذلك الملك الكامل فأمره أن يعلِّق شيئاً على كتاب الشهاب، فعلَّق كتاباً تكلَّم فيه على أحاديثه وأسانيده، فلما وقف الكامل على ذلك خلاّه أياماً وقال: ضاع ذاك الكتاب فعلِّق لي مثله، ففعل، فجاء الثاني فيه مناقضة للأول، فعَلِمَ السلطان صحة ما قيل عنه، ونزلت مرتبته عنده، وعزلَه من دار الحديث التي أنشأها آخراً، وولاها أخاه أبا عمرو[1].

قرأتُ بخط ابن مَسْدِي في «معجمه»، قال: كان والد ابن دحية تاجراً يُعرف بالكَلْبي -بين الفاء والباء- وهو اسم موضع بدانية، وكان أبو الخطاب أولاً يكتب «الكَلْبيّ معاً» إشارة إلى المكان والنسب، وإنما كان يُعرف بابن الجُمَيّل تصغير جَمَل. قال: وكان أبو الخطاب علاّمة زمانه، وقد وَلِيَ أولاً قضاء دانية.

قلت: وذكر أن سبب عزل ابن دحية أنه خَصَى مملوكاً له فغضب الملك، وهرب ابن دِحية. ولفظ ابن مَسْدِي، قال: كان له مملوك يسمى ريحان، فجبَّه واستأصل أنثييه وزُبَّه وأتى بزامر[2] فأمر بثقب شدقه، فغضب عليه المنصور، وجاءه النذير، فاختفى، ثم سار مُتَنكراً.

قلت: وكان ممن يترخص في الإجازة، ويطلق عليها «حدثنا». وقد سمع منه أبو عمرو بن الصلاح «الموطأ» بُعيد سنة ست مئة. وأخبره به عن جماعة منهم: أبو

---

(١) عثمان بن الحسن اللغوي، وبقي فيها إلى حين وفاته في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٦٣٤، فتولاها بعده حافظ الديار المصرية زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري، فبقي فيها إلى حين وفاته سنة ٦٥٦. (انظر المنذري وكتابه التكملة: ١٣٤ فما بعد).

(٢) لم يرض الجوهري عن هذا الاستعمال، فقال: كما جاء في مختار الرازي: «زَمَرَ الرجل من باب ضرب ونَصَرَ فهو زمّار، ولا يقال زامر، ويقال للمرأة زامرة ولا يقال: زمارة». ولكن الفيروزآبادي، قال: «وهي زامرة وهو زمّارٌ وزامر قليلٌ».

عبدالله بن زرقون بإجازته من أحمد بن محمد الخَوْلانيّ، أخبرنا أبو عمرو القيشطاليّ سماعاً، أخبرنا أبو عيسى يحيى بن عبدالله. وقال ابن دِحية مرة أخرى: حدثني القاضي عليّ بن الحسين اللواتي، وابن زرقون قالا: حدثنا الخَوْلاني.

وقد قرأتُ بخط الحافظ عَلَم الدين القاسم[1] أنه قرأ بخط ابن الصَّلاح: سمعتُ «الموطأ» على الحافظ ابن دِحية. وحدثنا به بأسانيد كثيرة جداً، وأقربها ما حدّثه به الفقيهان أبو الحسن عليّ بن حُنين الكِناني، والمُحدِّث أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن خليل القيسي، قالا: حدثنا محمد بن فرج بن الطَّلاّع، وأبو بكر خازم بن محمد، قالا: حدثنا يونس بن عبدالله بن مُغيث.

قال ابن الذهبي: لم يلق ابن دحية هذين، وبالجُهد أن تكون روايته عنهما إجازة، وكانا ببلاد العَدْوة، لم يكونا بالأندلس، فكان القيسي بمراكش، وكان ابن حُنَين بفاس، ولمتأخري المغاربة مذهب في إطلاق «حدثنا» على الإجازة، وهذا تدليس.

صاحب غَزْنَة[2]

السلطان غياثُ الدين محمود ابن السلطان الكبير غياث الدين محمد ابن سام الغُوريّ.

من كبار ملوك الإسلام، اتفق أن خوارزم مشاه علاء الدين هزم الخَطا مرات ثم وقع في أسرهم مع بعض أُمرائه، فبقي يخدم ذلك الأمير كأنه مملوكه، ثم قال الأمير للذي أسرهما: نَفِّذ غلمانك إلى أهلي ليَفْتَكُّوني بمالٍ، فقال: فابعث معهم غلامك هذا ليدلَّهم، فبعثه، ونجا علاء الدين بهذه الحيلة، وقَدِمَ فإذا أخوه علي شاه نائبُهُ على خراسان قد هَمَّ بالسلطنة ففزع فهرب إلى غياث الدين فبالغ في إكرامه فجهز علاء

(١) هو صاحبه العلاّمة البرزالي المتوفى سنة ٧٣٩.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/٥٠٦.

الدين مقدَّماً اسمه أمير ملك، فحارب غياث الدين إلى أن نزل إليه بالأمان فجاء الأمر بقتله وبقتل علي شاه فقُتلا معاً بغياً وعدواناً سنة خمس وست مئة.

الصالح[1]

السلطان الملك الصالح عماد الدين أبو الجَيْش إسماعيل ابن الملك العادل محمد بن أبي بن شاذي صاحب دمشق.

حدَّث عن أبيه بالسابع من «المحامليات» قرأه عليه السيف ابن المجد، وكان له ميلٌ إلى المقادسة وإحسانٌ.

تملَّك بُصرى وبَعْلَبَك، وتنقلت به الأحوال واستولى على دمشق أعواماً، فحاربه صاحب مصر ابن أخيه، وجرت له أمور طويلة، ما بين ارتفاع وانخفاض.

وكان قليل البَخْت بَطَلاً شُجاعاً مَهيباً شديد البطش، مليح الشكل، كان في خدمة أخيه الأشرف، فلما مات الأشرف توثَّب على دمشق وتملَّك، فجاء أخوه السلطان الملك الكامل، وحاصره، وأخذ منه دمشق، وردَّهُ إلى بعلبك. فلما مات الكامل، وتملَّك الجواد ثم الصالح نجم الدين، وسار نجم الدين يقصد مصر، هجم الصالح إسماعيل بإعانة صاحب حمص المجاهد، فتملَّك دمشق ثانياً في سنة سبع وثلاثين وست مئة، فبقي بها إلى سنة اثنتين وأربعين. وحاربه الصالح بالخوارزمية، واستعان هو بالفرنج، وبذل لهم الشَّقيف وغيرها فمُقِتَ لذلك. وكان فيه جور. واستقضى على الناس الرَّفيع الجيليّ، وتضرَّر الرعية بدمشق في حصار الخُوارزمية حتى أُبيع الخُبز رطل بستة دراهم، والجبن واللحم بنسبة ذلك، وأكلوا الميتة، ووقع فيهم وباء شديد.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٣٤.

قال المؤيد في تاريخه: سار الصالح نجم الدين من دمشق ليأخذ مصر، ففرَّ إليه عسكر من المصريين، وكان استناب بدمشق ولدَهُ المغيث عمر، وكاتَبَ عمَّه إسماعيل يستدعيه من بعلبك، فاعتذر وأظهر أنه معه، وهو عَمّال في السرِّ على دمشق، وفهم ذلك نجم الدين أيوب، فبعث طبيبه سعد الدين إلى بعلبك متفرِّجاً، وبعث معه قفص حمام نابلسي، ليُبطِق[1] إليه بأخبار إسماعيل فعلم إسماعيل بمجيئه، فاستحضره واحترمه، واختلس الحمام من القفص، ووضع مكانها من حمام بعلبك، ثم صار الطبيب يُبْطق: إن عمك قد جمع وعزم على قصد دمشق، فيُرسل الطير، فيقع في الحال بالقلعة، ويقرأ ذلك إسماعيل، ثم يكتب على لسان الطبيب: إنَّ عمك قد جمع ليُعاضِدَك وهو قادمٌ إليكَ، ويرسل ذلك مع طيرٍ نابلسيّ فيفرح نجم الدين، ويعرِضُ عن ما يسمع، إلى أن راحت منه دمشق. وأما الصالح إسماعيل فترك دمشق بعد ذاك الحصار الطويل، وقنع ببعلبك.

وفي «معجم» القُوصيّ في ترجمة الأشراف: فأخوه إسماعيل نصَرَ الكافرين وسلَّم إليه القِلاع، واستولى على دمشق سرقةً، وحَنَثَ في يمينه، وقتل من الملوك والأمراء من كان ينفع في الجهاد، وصادر على يد قُضاته العباد، وخَرَّبَ الأملاك، وطوَّل ذيل الظُّلم، وقصَّر ذيل العَدْل، وظنَّ أنَّ الفلك له مستمر، فسقط الدهر لغفلته، وأراه بَلايا وطوَّل القُوصيُّ.

ثم ذهبت منه بعلبك وبُصرى، وتلاشى أمره، فمضى إلى حلب، وافداً على ابن ابن اخته، وصار من أمرائه، وأتى به فتملكوا دمشق، فلما ساروا ليأخذوا مصر غُلب الشاميون، وأُسر جماعةٌ، منهم الملك الصالح، في سنة ثمان وأربعين وست مئة، فسُجن بالقاهرة، ومرُّوا به على تربة السلطان نجم الدين أيوب فصاحت البحرية يا خَوَند أين عينُك تنظر إلى عدوك؟

(١) من «البطاقة» وهي الرسالة التي ترسل بواسطة الحمام.

قال الخَضِر بن حَمويه: وفي سَلْخ ذي القعدة من سنة ثمان أخرجوا الصالح ليلاً، ومضوا به إلى الجبل فقتلوه وعُفِيَ أثرُهُ.

قلت: كُفِّر عنه بالقتل.

قال ابن واصل: لما أتوا بالصالح بُكْرة الواقعة أوقف إلى جانب المعز فقال لحسام الدين ابن أبي عليّ: يا خَوَنْد أما تُسَلِّم على المولى الملك الصالح؟! قال: فدنوتُ منه، وسلَّمتُ عليه.

قال ابن واصل: رأيتُ الصالح يوم دخول الجيش منصورين وهو بينَ يدي المعزّ، فحكى لي ابنُ أبي عليّ قال: قلت للصالح: هل رأيت القاهرة قبل اليوم؟ قال: نعم، وأنا صبيٌّ. ثم اعتقلوه أياماً، فقيل: خنقوه كما خَنَقَ الجواد.

وكا مَلِكاً شَهْماً، مُحْسِناً إلى جنده، كثير التجمل، وكان أبوه العادل يحب أمَ هذا، ولها تربة ومدرسة بدمشق.

ومن أولاده: الملك المنصور محمود الذي سَلْطَنَهُ أبوه بدمشق، والملك السعيد عبدالملك والد الملك الكامل. والملك المسعود والد صاحبنا ناصر الدين.

ووزر له أمين الدولة أبو الحسن بن غزال السامري ثم المُسلمانِيّ الطبيب واقف أمينية بعلبك، وكان رقيق الدين ظَلوماً يتفلسف، شُنِق بمصر في هذه الفتنة، وترك أموالاً عظيمة ومن الكتب نحو عشرة آلاف مجلد.

خُوارزمشاه(١)

السلطان الكبير علاء الدين خوارزمشاه محمد ابن السلطان خُوارزمشاه إيل رسلان ابن خُوارزمشاه أتْسِز ابن الأمير محمد بن نوشتكين الخوارزمي.

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٣٩.

قال ابن واصل: نَسَبُ علاء الدين ينتهي إلى إيلتكين مملوك السلطان ألب أرسلان بن جغريبك السلجوقي.

قلتُ: قد سُقت من أخباره في «التاريخ الكبير» في الحوادث، وأنه أباد ملوكاً، واستولى على عدة أقاليم، وخَضَعَت له الرقاب، وقد حارب الخَطا غيرَ مرة، فانهزم جيشُهُ في نوْبة وثبتَ هو، فأسر هو وأمير؛ أسَرَهما خطائي، فَصَيَّر نفسه مملوكاً لذلك الأمير، وبقي يقف في خدمته، فقال الأمير للخطائي: ابعث رسولك مع غلامي هذا إلى أهلي ليرسلوا مالاً في فكاكي، ففعل وتمَّت الحيلة، وعاد خوارزمشاه إلى مُلكه، ثم عرف الخطائي فسار مع ذلك الأمير إلى خدمة السلطان فأكرمه وأعطاه أشياء.

قال عز الدين علي ابن الأثير: كان صبوراً على التعب وإدمان السير غير مُتَنَعِّم ولا مُتلذِّذٍ إنما نهمته الملك. وكان فاضلاً، عالماً بالفقه والأصول، مكرِماً للعلماء يحب مناظرتهم، ويتبرك بأهل الدين، قال لي خادم الحجرة النبوية، أتيته فاعتنقني، ومشى لي وقال: أنت تخدم حجرة النبي ﷺ ؟ قلت: نعم، فأخذ يدي وأمَرَّها على وجهه، وأعطاني جملة.

قال سبط الجوزي: أفنَى ملوكَ خراسان وما وراء النهر، وأخلَى البلاد واستقل بها فكان سبباً لهلاكه، ولما نزل همذان كاتَبَ ابنُ القُمِّي نائبُ الوزارة أمراءَه ووعدَهم بالبلاد، فراموا قتله، فعرف وسار إلى مَرو وكان معه من الخطا سبعون ألفاً، وكان خاله منهم، فنمّ عليه فاختفى فنهبوا خزائنه، فيقال: كان فيها عشرة آلاف ألف دينار، وله عشرة آلاف مملوك، فركب إلى جزيرةٍ هارباً.

قلت: تسلطن في سنة ٥٩٦.

وقال الموفق: كان أبوه تِكش أعور قميئاً، كثير اللعب بالملاهي، بعث برأس طُغرل إلى بغداد، وطلب السلطنة، فتحركت الخطا، فاحتاج أن يرد خُوارزم، فتولى بعده ابنه محمد، وكان محمد شجاعاً، شهماً، مغواراً، غزاءً، سعيداً، يقطع المسافات

الشاسعة بسرعة، وكان هَجّاماً فاتكاً أُتِيَ برأس أخيه فلم يكترث[1]، وكان قليل النوم، طويل النصب، يخدم أصحابه، ويحرس، وثيابه وعدة فرسه لا تبلغ ديناراً، وكان كثير الإنفاق، له مشاركة للعلماء، صحب الفخر الرازي قبل المُلْك، ولكنه أفسده العُجْب، والثقة بالسلامة، واستهانَ بالأعداء، وكان يقول: «محمد ينصر دين محمد»، قطع خُطبة الخليفة وجاهر، وأراد أن يتشبه بالإسكندر، وأين الولي[2] من رجل تركيّ، فكل ملك لا يكون قصده إقامة الحق فهو وشيك الزوال، وجاهر هذا أمة الخطا فنازلهم بأمة التتر واستأصلهم إلا من خدم معه، ثم انتقل إلى التتر.

ثم ذكر الموفق أشياء، وقال: فكانت بلاد ما وراء النهر في طاعة الخَطا، وملوك بُخارى وسمرقند يؤدون الأتاوة إلى الخطا، وكانت هذه الأمم سداً بين تُرك الصين وبيننا ففتح هذا السد الوثيق وظنَّ أنه لم يبقَ من يقاومه، فانتقل إلى كِرمان، ثم العراق، ثم أذربيجان، وطمع في الشام ومصر، وكان عليه سهلاً لو قدّر. بات صاحب حلب ليله مهموماً لما اتصل به من أخبار هذا وطمعه في الشام، وقيل عنه: إنه يبقى أربعة أيام على ظهر فرسه لا ينزل إنما ينتقل من فرس إلى فرس ويطوي البلاد ويهجم المدينة في نفر يسير، ثم يصبّحه من عسكره عشرة آلاف ويمسِّيه عشرون ألفاً، وربما هجَم البلد في مئة، فيقضي الشغل قبلُ. قتل عدة ملوك، وإنما أخْذُه البلاد بالرُّعب والهيبة. وبعد موت الظاهر غازي جاء رسوله إلى حلب، فقال: سلطان السلاطين يُسلّم عليكم ويعتب إذ لم تهنئوه بفتح العراق وأذربيجان، وإن عدد جيشه سبع مئة ألف، ثم توجه رسوله إلى العادل بدمشق يقول: تعالَ إلى الخدمة فقد ارتضيناك أن تكون مُقدّم الركاب! فبقي الناس يهزؤون منه. وسمعنا أنه

---

(١) قال المؤلف في تارخ الإسلام: «فأول ما فتك بأخيه فأحضر رأسه إليه وهو على الطعام فلم يكترث».

(٢) يعني به: الإسكندر، فقد قال في تاريخ الإسلام نقلاً عن الموفق: «فإن الإسكندر مع فضله وعدله وإظهاره كلمة التوحيد كان في صحبته ثلاث مئة حكيم يسمع منهم ويطيع... فقد علم بالتجربة والقياس أن كل ملك...» إلخ.

جعل صاحب الروم أمير عَلَم له والخليفة خطيباً له! وكان له أربعة أولاد: جلال الدين الذي قام بعده، وغياث الدين تترشاه، وقطب الدين أزلاغ، وركن الدين غُورشاه يحيى، وكان أحسنهم، وضُربت النَّوبة بأمره لهم في أوقات الصلوات الخمس، على عادة الملوك السَّلجوقية، وانفرد هو بنوبة الإسكندر، فيضرب وقت المَطْلع والمَغيب، وكانت سبعاً وعشرين دبدبة من الذهب المرصع بالجوهر. وأما الملوك الذين كانوا في خدمته فكان يُذلهم ويهينهم، وجعلهم يضربون له طبول الذَّهَب[1]. ثم إنه نزل بهمذان وانتشرت جموعه، فاختلت عليه بلاد ما وراء النهر، فرجع بعد أن أهلكهم الثلج، ولما أباد أمتي الخطأ والتتر وهم أصحاب تُركستان وجَنْدَ وتَنْكُت ظهرت أمة يسمّون التتر أيضاً، وهم صنفان، وطمعوا في البلاد فجمع وعزم على لقائهم، فوقع جنكزخان رأس الطمغاجية على كمينه فطحنوه، وانهزم جلال الدين ابنه إليه، وخيل إليه تعس الجدّ أن في أمرائه مُخامِرين فمسَّكهم وضرب مع التتار مصافاً بعد آخر فتطحطح، وردّ إلى بخارى مُنهزماً. ثم جاء من بخارى ليجمع لعساكر بنيسابور فأخذت التتار بخارى، وجمعوا خراسان ففرّ، فما وصل إلى الري إلا وطلائعهم على رأسه، فانهزم إلى قلعة بَرَجِيْن، ومعه ثلاث مئة فارس عُراة مَضَّهم الجوع فاستطعموا من أكرادٍ فلم يحتفلوا بهم، ثم أعطوهم شاتين وقصعتي لبن، ثم رجع إلى نهاوند ثم إلى مازندران، وقعقعة سلاحهم قد ملأت سمعه وبصره، فنزل ببحيرة هناك فانسهل، وطلب دواء فأعوزه الخبز ومات.

مات في الجزيرة سنة سبع عشر وست مئة، وكُفِّن في عمامة لفراشه.

[والدته تركان خاتون]

وكانت أُمُّه -يعني خوارزمشاه السلطان الكبير علاء الدين- تُجيد الخط، وتُعَلِّم: اعتصمت بالله وحده، وحُكمها يساوي حكم ابنها، فمن ألقابها: «عصمة

---

(١) في تاريخ الإسلام أوضح مما هنا وهو: «يجعل طبول الذهب في أعناق الملوك وهم قيام يضربون».

الدنيا والدين ألغ تركان سيدة نساء العالمين»، وكانت سفَّاكة للدماء وهي من بنات ملوك التُّرك، ولها من الأموال والجواهر ما يقصر الوصف عنه، فأخذت التتار الجميع.

[ملوك صبيان ضيعوا أمر الأمة]

١ - السلطان المستنصر بالله

أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب المؤمني[1]

تملَّك المغرب سنة عشر، وكان بديع الحُسن، بليغ المنطق غارقاً في وادي اللهو والبطالة.

وُلد سنة أربع وتسعين وخمس مئة، فملّكوه وله ست عشرة سنة فضيَّعوا أمر الأمة، وأمّه أم وَلَد، اسمها قَمَر الرومية، وكان يُشَبَّه بجدّه. قام ببيعته عيسى بن عبدالمؤمن، فهو عم جده، وآخر من تبقى من أولاد السلطان عبد المؤمن، وقد حيّ إلى حدود العشرين، فقامَ يوم البيعة كاتب سره أبو عبدالله بن عيّاش، وبقي يقول للأعيان: تبايعون أمير المؤمنين ابن أمير المؤمين على ما بايع عليه الصحابة رسول الله ﷺ من السمع والطاعة في اليسر والعسر.

مات المستنصر في شوال سنة عشرين وست مئة ولم يخلف ولداً، فملّكت الموحدون بعده عم أبيه عبدالواحد.

٢ - صاحب حلب[2]

الملكُ الصالح، أبو الفتح إسماعيل ابنُ صاحب الشام نور الدين محمود ابن الأتابك.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٣٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١١٠.

عَمِلَ له أبوه ختاناً لم يُسمَعْ بمثله، وأطعم أهل دمشق حتى سائر أهل الغوطة، وبقي الهناء أسبوعاً، وفي الأسبوع الآتي انتقل نور الدين إلى الله، ووصَّى بمملكته لهذا، وهو ابن إحدى عشر سنةً، فملَّكوه بدمشق، وكذا حلفوا له بحلب، فأقبل من مصر صلاح الدين، وأخذ منه دمشق، فترحَّل إلى حلب، وكان شاباً، ديّناً، خيِّراً، عاقلاً، بديع الجمال، مُحَبَّباً إلى الرعية وإلى الأمراء، فنمت فتنةٌ، وجرتْ بحلب بين السنَّة والرافضة، فسارَ السلطان صلاح الدين، وحاصر حلب مُدَيْدَةً، ثم ترحَّل، ثم حاصرها، فصالحوه، وبذلوا له المَعَرَّة وغيرها، ثم نازل حلب ثالثاً، فبذل أهلُها الجهد في نصرة الصالح، فلما ضجر السلطان، صالحهم، وترحَّل وأخرجوا إليه بنت نور الدين فوهَبَها عَزاز، وكان تدبير مملكة حلب إلى أم الصالح وإلى شاذبخت الخادم وابن القيسراني.

تعلَّل الملك الصالح بقولنج خمسة عشر يوماً، وتوفي في رجب سنة سبعٍ وسبعين وخمس مئةٍ، وتأسَّفوا عليه.

قيل: عَرَضَ عليه طبيبُهُ خمراً للتداوي، فأبى، وقال: قد قال نبيُّنا ﷺ: «إن الله لم يجعل شفاءَ أمتي فيما حرَّم عليها» ولعلِّي أموتُ وهو في جوفي.

عاش عشرين سنة سوى أشهر.

من الحكام الصالحين

١ - المستضيء بأمر الله[١]

الخليفة أبو محمدٍ الحسن ابنُ المستنجد بالله يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر أحمد ابن المقتدي الهاشميُّ العباسيُّ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٦٨.

بويع بالخلافة وقتَ موت أبيه في ربيع الآخر سنة ستٍ وستين وخمس مئة، وقام بأمر البيعة عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، فاستوزره يومئذٍ.

وُلد سنة ستٍّ وثلاثين وخمس مئةٍ. وأمُّه أرمنيَّةٌ اسمُها غَضَّةُ.

وكان ذا حلمٍ وأناة ورأفة وبرٍّ وصدقات.

قال ابن الجوزي في «المنتظم»: بويع، فنوديَ برفع المكوس، وردِّ المظالم، وأظهر من العدل الكرم ما لم نَرَهُ من أعمارنا، وفرَّق مالاً عظيماً على الهاشميين.

قال ابن النجار: بويع وله إحدى وعشرون سنة - فأظنُّه وَهِمَ[١] - قال: وكان حليماً، رحيماً، شفيقاً، ليِّناً، كريماً، نقلتُ من خطِّ أبي طالب بن عبدالسميع، قال: كان المستضيء من الأئمة الموفَّقين، كثير السخاء، حَسَنَ السيرة، إلى أن قال: اتصل بي أنَّه وَهَبَ في يومٍ لحظايا وجهاتٍ أزيد من خسمين ألف دينارٍ.

عبدالعزيز بنُ دلَفٍ، حدثنا مسعود ابن النادر[٢]، قال: كنتُ أُنادِمُ أمير المؤمنين المستضيء، وكان صاحب المخزن ابنُ العطّار قد صنع شمعداناً ثمن ألف دينار، فحضر وفيه الشمعة، فلما قُمْتُ، قام الخادم بها بين يديَّ، فأطلق لي التَّوْرَ[٣].

قال ابن الجوزي: وفرَّق أموالاً في العلويين والعلماء والصوفية. كان دائم البَذْل للمال، ليس له عنده وقْعٌ. ولما استُخلف، خلع على أرباب الدولة، فحكى خيَّاطُ المخزن لي أنه فصَّل ألفاً وثلاث مئة قباء إبريسمٍ، وولى قضاء القضاة رَوْحَ بن

---

(١) الاعتراض للذهبي وهو على حق في اعتراضه؛ لأن الرجل ولد سنة ٥٣٦ وولي الخلافة سنة ٥٦٦ بإجماع جمهور المؤرخين، أي أنه بويع وله ثلاثون سنة.

(٢) في الأصل: (البادر) بالباء وكذلك في الكامل لابن الأثير (١٢/ ٢٥) وهو تصحيف، والصحيح ما أثبتناه، وقد قيده الزكي المنذري بالحروف فقال: «بالنون وبعد الألف دال وراء مهملتان» (التكملة: ١/ ٢٢٩) وتوفي مسعود هذا سنة ٥٨٦.

(٣) التور: قال صاحب القاموس: «الجريان، والرسول بين القوم، وإناء يشرب فيه» (مادة: تور)، والظاهر أن التور هنا تعني الجراية، أي: المعاش المخصص لبعض الناس.

الحديثي، وأمَّر سبعة عشر مملوكاً. قال: واحتجب عن أكثر الناس فلم يركب إلا مع الخدم، ولم يدخل عليه غيرُ الأمير قطب الدين قايماز. وفي خلافته زالت دولة العبيدية بمصر، وخُطب له بها، وجاء الخبر فغلقت الأسواق للمسرَّة، وعُملت القباب، وصنَّفتُ كتاباً سميته «النصر على مصر»، وعرضته على الإمام المستضيء.

قلتُ: وخُطب له باليمن، وبرقة، وتوْزَر، وإلى بلاد الترك، ودانت له الملوك، وكان يطلبُ ابنَ الجوزي، ويأمره أن يعظ بحيث يسمع، ويميل إلى مذهب الحنابلة، وضعُف بدولته الرفض ببغداد وبمصر وظهرت السنّة، وحصل الأمن، ولله المِنَّة.

مات المستضيء في شوال سنة خمسٍ وسبعين وخمس مئة وبايعوا بعده ولده الناصر لدين الله.

صلاح الدين وبنوه[1]

السلطان الكبير، الملك الناصر، صلاح الدين، أبو المظفَّر، يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان ين يعقوب، الدُّوِيْنيُّ، ثم التكريتي المولد.

وُلد في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة إذ أبوه نجم الدين متولي تِكْريتَ نيابةً.

ودُوِيْنُ: بُليدةٌ بطرف أذربيجان من جهة أران والكَرَج، أهلُها أكرادٌ هذَبانية.

سمع من أبي طاهر السِّلَفي، والفقيه علي ابن بنت أبي سعدٍ، وأبي الطاهر بن عوف، والقطب النيسابوري. وحدَّث.

وكان نور الدين[2] قد أمَّرَه، وبعثه في عسكره مع عمه أسد الدين شيركوه، فحكم شيركوه على مصر، فما لبث أن توفي، فقام بعده صلاح الدين، ودانت له العساكر، وقهر بني عبيد، ومحا دولتهم، واستولى على قصر القاهرة بما حوى من

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٧٨.

(٢) يعني نور الدين محمود بن زنكي.

الأمتعة والنفائس، منها الجبل الياقوت الذي وزنه سبعة عشر درهماً؛ قال مؤلف «الكامل» ابن الأثير[1]: أنا رأيته ووزنته.

وخلا القصر من أهله وذخائره. وأقام الدعوة العباسية.

وكان خليقاً للإمارة، مهيباً، شجاعاً حازماً، مجاهداً كثير الغزو، عالي الهمة، كانت دولته نيِّفاً وعشرين سنة.

وتملَّك بعد نور الدين، واتسعت بلاده.

ومنذ تسلطن، طلَّق الخمر واللذات، وأنشأ سوراً على القاهرة ومصر[2]، وبعث أخاه شمس الدين في سنة ثمانٍ وستين وخمس مئة، فافتتح برقة، ثم افتتح اليمن، وسار صلاح الدين، فأخذ دمشق من ابن نور الدين[3].

وفي سنة إحدى وسبعين وخمس مئة حاصر عَزاز[4]، ووثَبَتْ عليه الباطنية، فجرحوه.

وفي سنة ثلاثٍ كسرتْه الفرنج على الرملة، وفرَّ في جماعةٍ، ونجا.

وفي سنة خمسٍ التقاهم وكسرهم[5].

وفي سنة ستٍّ أمر ببناء قلعة الجبل.

---

(١) «الكامل»: حوادث سنة ٥٦٧، ١١/ ٣٦٩ (ط. بيروت) وأصل النص: «وزنه سبعة عشر درهماً، أو سبعة عشر مثقالاً، أنا لا أشك، لأنني رأيته ووزنته».

(٢) يعني فسطاط مصر، وكانت لفظة «مصر» وحتى اليوم تطلق على الفسطاط.

(٣) هو الملك الصالح إسماعيل.

(٤) بلدة تقع شمالي حلب، وفيها قلعة حصينة، وقد حاصرها السلطان ثمانيةً وثلاثين يوماً. (انظر تفاصيل ذلك في «الكامل» لابن الأثير: ١١/ ١٩٤-١٩٥).

(٥) قد أَسَر فيها صاحب الرملة وصاحب طبرية، وتعرف هذه الوقعة بمرج العُيون.

وفي سنة ثمانٍ عدّى الفرات، وأخذ حَرَّان، وسَروج، والرَّقة، والرها، وسِنْجار، والبيرة، وآمِد، ونصيبين، وحاصر الموصل، ثم تملَّك حلب، وعوَّض عنها صاحبها زنكي بسِنْجار، ثم إنه حاصر الموصل ثانياً وثالثاً، ثم صالحه صاحبها عز الدين مسعود، ثم أخذ شهرزور والبوازيج[1].

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين وخمس مئة فتح طبرية، ونازل عسقلان، ثم كانت وقعت «حطين» بينه وبين الفرنج، وكانوا أربعين ألفا، فحالَ بينهم وبين الماء على تلٍّ، وسلموا نفوسهم، وأُسِرَتْ ملوكُهم، وبادر، فأخذ عكًّا وبيروت وكوكب، وسار فحاصر القدس، وجَدَّ في ذلك فأخذها بالأمان.

وسار عسكرٌ لابن أخيه تقي الدين عمر فأخذوا أوائل المغرب، وخطبوا بها لبني العباس.

ثم إنَّ الفرنج قامت قيامتهم على بيت المقدس، وأقبلوا كقطع الليل المظلم براً وبحراً وأحاطوا بعَكّا ليستردوها وطال حصارهم لها، وبنوا على نفوسهم خندقاً، فأحاط بهم السلطان، ودام الحصار لهم وعليهم نيِّفاً وعشرين شهراً، وجرى في غضون ذلك ملاحم وحروب تُشيِّب النواصي، وما فكُّوا حتى أخذوها، وجرت لهم وللسلطان حروب وسِيَر. وعندما ضَرِسَ الفريقان، وكل الحزبان، تهادن المِلَّتان.

وكانت له همة في إقامة الجهاد، وإبادة الأضداد ما سُمِعَ بمثلها لأحدٍ في دهر.

قال ابن واصل في حصار عزاز[2]: كانت لجاولي خيمة كان السلطان يحضر فيها، ويحضُّ الرجال، فحضر باطنية في زي الأجناد، فقفز عليه واحد ضربه بسكين لولا المِغْفَرُ الزَّرَد[3] الذي تحت القلنسوة، لقتله فأمسك السلطان يد الباطني بيديه،

---

(١) راجع «معجم البلدان» لياقوت و«مراصد الاطلاع» عن هذه الأمكنة وغيرها مما يرد ذكره، وهي معروفة فيها.

(٢) مفرج الكروب ٢/ ٤٤-٤٥.

(٣) زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

فبقي يضرب في عنق السلطان ضرباً ضعيفاً، والزَّرَدُ تمنعُ، وبادر الأمير بازكوج، فأمسك السكين، فجرحته، وما سيَّبها الباطني حتى بضَّعوه، ووثب آخر، فوثب عليه ابنُ منكلان، فجرحه الباطني في جنبه، فمات، وقُتل الباطني، وقفز ثالث، فأمسكه الأمير علي بن أبي الفوارس، فضمَّه تحت إبطه[1]، فطعنه صاحب حمص[2]، فقتله، وركب السلطان إلى مخيَّمه، ودمه يسيل على خده، واحتجب في بيت خشبٍ، وعرض جنده، فمن أنكره، أبعده.

قال الموفَّق عبداللطيف: أتيتُ، وصلاح الدين بالقدس، فرأيت ملكاً يملأ العيون روعةً، والقلوب محبةً، قريباً بعيداً، سهلاً، محبَّباً، وأصحابه يتشبَّهون به، يتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ [الحجر:٤٧] وأول ليلةٍ حضرتُه وجدتُ مجلسه حَفْلاً بأهل العلم يتذاكرون، وهو يُحسنُ الاستماعَ والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار، وحفر الخنادق ويأتي بكل معنىً بديع، وكان مهتماً في بناء سور بيت المقدس وحفْر خندقه، ويتولى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به الخلقُ حتى القاضي الفاضل، والعماد إلى وقت الظهر، فيمد السماط، ويستريح، ويركب العصر، ثم يرجع في ضوء المشاعل، قال له صانع: هذه الحجارة التي تُقطع من أسفل الخندق رخْوَةٌ، قال: كذا تكون الحجارة التي تلي القرار والنداوة، فإذا ضربَتْها الشمسُ، صلُبَتْ. وكان يحفظ «الحماسة»، ويظنُّ أنَّ كل فقيهٍ يحفظها، فإذا أنشد، وتوقف، استطعم فلا يُطعَم، وجرى له ذلك مع القاضي الفاضل، ولم يكن يحفظها، وخرج، فما زال حتى حَفِظها، وكتب لي صلاح الدين بثلاثين ديناراً في الشهر، وأطلق أولاده لي رواتب، فأُشغلت بجامع دمشق.

وكان أبوه ذا صلاحٍ، ولم يكن صلاح الدين بأكبر أولاده.

---

(١) في «مفرج الكروب»: من تحت إبطيه.

(٢) يعني ناصر الدين ابن أسد الدين شيركوه.

وكان صلاح الدين شِحْنَة دمشق، فكان يشرب الخمر، ثم تاب، وكان محبَّباً إلى نور الدين يلاعِبُهُ بالكرة.

وكانت وقْعَتُهُ بمصر مع السودان، وكانوا نحو مئتي ألف، فنُصر عليهم، وقتل أكثرهم. وفي هذه الأيام استولى ملك الخَزَر على دُوِيْن، وقتل من المسلمين ثلاثين ألفاً.

حُمَّ صلاح الدين، فَفَصَده من لا خبرة له، فخارت القوة، ومات، فوجد الناس عليه شبيهاً بما يجدونه على الأنبياء، وما رأيتُ ملكاً حَزِنَ الناس لموته سواه، لأنه كان محبباً، يحبُّه البَرُّ والفاجر، والمسلم والكافر، ثم تفرَّق أولاده وأصحابه أيادي سبأٍ، وتمزّقوا. ولقد صدق العماد في مدحه حيث يقول:

وللنَّـــاسِ بالمَلِـــكِ النَّـــاصرِ الصَّـــلاَ ... حِ صَـــلاَحٌ ونَصْـــــرٌ كَبـــيرُ

هـــو الشَّـــمْسُ أفلاكُـــهُ في الـــبِلا ... دِ ومَطْلَعُـــهُ سَرْجُـــهُ والسَّـــرِيرُ

إذا مَـــا سَـــطَا أوْ حَبَـــا واحْتَبَـــى ... فَـــمَا اللَّيْـــثُ مِـــنْ حَـــاتِمٍ مَـــا ثَبِـــيْرُ

قال ابنُ خَلِّكان(١): بلغني أنَّ صلاح الدين قَدِمَ به أبوه وهو رضيع، فنابَ أبوه ببعلبك إلى آخِذِها أتابك زنكي(٢)، وقيل: إنهم خرجوا من تكريت في ليلة مولد صلاح الدين، فتطيَّروا به، فقال شيركوه أو غيره: لعل فيه الخير وأنتم لا تعلمون. إلى أن قال(٣): وكان شيركوه أرفَعَ منزلةً عند نور الدين، فإنه كان مُقدَّمَ جيوشه.

---

(١) وفيات ٧/ ١٤٣-١٤٥.

(٢) أصل الخبر عند ابن خَلِّكان: «فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك، جعل نجم الدين دزدارها» والدزدار كلمة أعجمية بمعنى حافظ القلعة، وهو الوالي، فجعلها الذهبي هنا «نائب».

(٣) الوفيات ٧/ ١٤٦ فما بعد، وقد تصرف الذهبي بالنص تصرفاً كبيراً، فلخص، وغير وقدم وأخر على عادته، لكنه احتفظ بالمعنى، وهذه طريقته، رحمه الله، وهي طريقة مربكة.

ووَلي صلاح الدين وزارة العاضد، وكانت كالسلطنة[1]، فولي بعد عمِّه سنة ٥٦٤، ثم مات العاضِد سنة ٥٦٧، فاستقلَّ بالأمر مع مداراة نور الدين ومراوغته، فإن نور الدين عزم على قصد مصر؛ ليقيم غيرَ صلاح الدين، ثم فَتَر، ولما مات نور الدين، أقبل صلاح الدين ليقيم نفسَه أتابكاً لولد نور الدين، فدخل البلد بلا كلفة، واستولى على الأمور في ربيع الأول سنة سبعين، ونزل بدار العقيقي، ثم تسلَّم القلعة، وشالَ الصبيَّ من الوسط ثم سارَ، فأخذ حمص، ثم نازل حلب، وهي الوقعة الأولى، فجهَّز السلطان غازي من الموصل أخاه عز الدين مسعوداً في جيش، فرحَّلَهُ، وقَدِمَ حمص، فأقبل مسعودٌ ومعه الحلبيون، فالتقوا على قرون حماة، فانهزم مسعود، وأُسر أمراؤه، وساق صلاح الدين فنازل حلب ثانياً، فصالحوه ببَذْل المعرَّة وكفر طاب، وبلغ غازي كَسْرَةُ أهله وأخيه، فعبر الفرات، وقَدِمَ حلب، فتلقَّاه ابن عمه الملك الصالح، ثم التقوا هم وصلاح الدين، فكانت وقعة «تلِّ السلطان»، ونُصر صلاح الدين أيضاً، ورجع صاحبُ الموصل. ثم أخذ صلاح الدين مَنْبِج وعَزاز، ونازل حلب ثالثاً، فأخرجوا إليه بنتَ نور الدين، فوهبها عَزاز. ورَدَّ إلى مصر، واستناب على دمشق أخاه صاحب اليمن تورانشاه، ثم خرج من مصر سنة ثلاثٍ وسبعين، فالتقى الفرنج، فانكسر.

ثم في سنة تسعٍ وسبعين نازل حلب، وأخذها، وعوَّض عنها عماد الدين زنكي بسِنْجار وسَروج، ورتَّب بحلب ولدهُ الملك الظاهر. ثم حاصر الكرك، وجاءت إمداداتُ الفرنج.

وفي شعبان سنة إحدى وثمانين نازَلَ صلاح الدين الموصل، وترددت الرسل بينَه وبين صاحبِها عز الدين، وتمرَّض، وتأخر إلى حرَّان، واشتد مرضُه، وحلفوا لأولاده بأمره[2]، وأوصى عليهم أخاه العادل[3]، ثم مرَّ بحمص، وقد مات

(١) يعني من حيث الصلاحيات والقوة.

(٢) يعني حلف الناس لأولاد صلاح الدين وذلك بسبب اشتداد المرض عليه.

(٣) يريد: جعله وصياً عليهم.

صاحبها ناصر الدين محمد[1]، ابن عمِّه، فأعطاها لولده المجاهد شيركوه وله ثنتا عشرة سنة.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين افتتح صلاح الدين بلاد الفرنج، وقهرهم، وأباد خضراءَهم، وأسر ملوكهم على «حِطِّين». وكان قد نَذَرَ أن يقتُل أرناط[2] صاحب الكرك، فأسرَه يومئذ، وكان قد مرَّ به قومٌ من مصر في حال الهُدنة، فغدرَ بهم، فناشدوه الصلح، فقال ما فيه استخفافٌ بالنبي ﷺ، وقتلهم، فاستحضر صلاح الدين الملوك، ثم ناول الملك جفري[3] شربة جلاب ثلج، فشرب، فناول أرناط، فشرب، فقال السلطان للترجمان: قل لجفري: أنتَ الذي سقيتَهُ، وإلا أنا فما سقَيْتُه، ثم استحضر البرنس أرناط في مجلس آخر، وقال: أنا أنتصر لمحمد ﷺ منك، ثم عرض عليه الإسلام، فأبَى، فحلَّ كتفه بالنيمجاه[4]. وافتتح عامَه ما لم يفتحْه ملكٌ، وطارَ صيتُه في الدنيا، وهابَتْهُ الملوك.

ثم وَقَعَ النوح والمأتم في جزائر البحر وإلى رومية، ونودي بالنفير إلى نُصرة الصليب، فأتى السلطان من عساكر الفرنج ما لا قِبَلَ له به، وأحاطوا بعكا[5].

وقال آخر: أولُ فتوحاته الإسكندريةُ في سنة اثنتين وستين، وقاتَلَ معه أهلُها لما حاصرتهم الفرنج أربعة أشهرٍ، ثم كشفهم عنه عمُّه أسَد الدين، فتركها، وقَدِما الشام. ثم تملَّك وزارة العاضد، واستتبَّ له الأمرُ، وأبادَ آل عُبيدٍ وعبيدَهم، وتملَّك دمشق ثم حمص، وحماة، وحلب، وآمِد، ومَيَّافارقين، وعدة بلادٍ بالجزيرة. وديار

---

(١) قيل: مات من كثرة شرب الخمر، وقيل إن السلطان دسَّ له من سَمَّه، وكلها إشاعات ترد عند المؤرخين.

(٢) هو الأمير رينو دي شاتيلون Prince Renaud de Chatillon.

(٣) وهو: Geoffri de Lusignan.

(٤) النيمجاه: خنجر مقوس يشبه السيف القصير، وهو معرب «نيمجه» (راجع تعليق المرحوم الشيال على سيرة صلاح الدين: ٧٩ وراجع مستدرك دوزي).

(٥) إلى هنا انتهى أخذ المؤلف عن ابن خَلِّكان.

بكرٍ. وبعث أخاه، فافتتح له اليمن، وسار بعض عسكره. فافتتح له بعض المغرب، ولم يزلْ سلطانه في ارتقاءٍ إلى أن كسر الفرنج نوبة الطين. ثم افتتح عكًّا، وبيروت، وصيدا، ونابلس، وقيسارية، وصفورية، والشَّقيف، والطُّور، وحيفا، وطبرية، وتِبْنِيْنَ، وجُبَيْل، وعسقلان، وغزة، والقدس، وحاصر صور مدةً، وافتتح أنْطَرْطوس، وهُوْنين، وكوكب، وجبلة واللاذقية، وصِهْيون، وبلاطُنُسَ والشُّغْر، وبَكاس، وسُرمانية، وبُرزية[1]، ودربسان[2]، وبَغْراس، ثم هادن برنس أنطاكية، ثم افتتح الكرك بالأمان، والشوبك وصفد وشقيف أرْنون، وحضر عدة وقعاتٍ.

وخلّف من الأولاد: صاحب مصر الملك العزيز عثمان، وصاحب حلب الظاهر غازياً، وصاحب دمشق الأفضل علياً، والملك المُعزّ فتح الدين إسحاق، والملك المؤيّد مسعوداً، والملك الأعزّ يعقوب، والملك المُظفَّر خَضِراً، والملك الزاهر مجير الدين داود، والملك المُفضَّل قطب الدين موسى، والملك الأشرف عزيز الدين محمداً، والملك المُحسِن جمال المحدثين ظهير الدين أحمد، والمُعظَّم فخر الدين تورانشاه، والملك الجواد ركن الدين أيوب، والملك الغالب نصير الدين ملكشاه، وعماد الدين شاذي ونصرة الدين مروان، والملك المظفَّر أبا بكرٍ، والسيدة مؤنسة زوجة الملك الكامل.

وحدَّث عنه: يونس الفارقي، والقاضي العماد الكاتب.

مرِضَ بحُمَّى صفراوية، واحتدّ المرض، وحَدَثَ به في التاسع رعشةٌ وغيبةٌ، ثم حُقن مرتين، فاستراحَ، وسربَ، ثم عرق حتى نفذَ من الفراش، وقضى في الثاني عشر.

---

(١) هكذا هي مقيدة بالأصل، وفي «معجم البلدان» لياقوت: بَرْزُوية - بالفتح وضم الزاي، وسكون الواو وفتح الياء، والعامة يقولون: برزية.

(٢) هكذا في الأصل، وفي «سيرة ابن شداد» (ص٩٣، ٢٤٨): «دربساك» وفي «الكامل» لابن الأثير: درب ساك.

توفي بقلعة دمشق بعد الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسعٍ وثمانين وخمس مئة.

محاسن صلاح الدين جَمَّةٌ، لا سيما الجهاد، فله فيه اليد البيضاء ببذل الأموال والخيل المُثَمَّنة لجنده. وله عقل جيد، وفهمٌ، وحزم، وعزمٌ.

قال العماد: أطلق في مدة حصار عكا اثني عشر ألف فرسٍ. قال: وما حضر اللقاء إلا استعار فرساً، ولا يلبس إلا ما يحلُّ لُبْسُهُ كالكتان والقطن، نزَّه المجالس من الهزل، ومحافلُهُ آهلةٌ بالفضلاء، ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد، حليماً، مقيلاً للعثرة، تقياً نقياً، وفياً صفياً، يُغضي ولايغضب، ما رَدَّ سائلاً، ولا خَجَّلَ قائلاً، كثير البِرِّ والصدقات، أنكر عليَّ تحلية دواتي بفضة، فقلتُ: في جوازه وجهٌ ذكره أبو محمد الجويني. وما رأيته صلى إلا في جماعةٍ.

قلتُ: وحضر وفاته القاضي الفاضل.

وذكر أبو جعفر القرطبي إمام الكلاَّسة[1]: إنني انتهيتُ في القراءة إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر:٢٢] فسمعتُ صلاح الدين، وهو يقول: صحيح. وكان ذهنُهُ قبل ذلك غائباً[2]، ثم مات، وغسَّله الخطيب الدوْلَعِيُّ، وأُخرج في تابوتٍ، فصلَّى عليه القاضي محيي الدين ابنُ الزكيِّ، وأُعيد إلى الدار التي في البستان التي كان مُتَمرِّضاً فيها، ودُفن في الصُّفَّة، وارتفعت الأصوات بالبكاء، وعَظُمَ الضجيج، حتى إنَّ العاقل ليُخيَّل له أن الدنيا كلها تصيحُ صوتاً واحداً، وغَشِيَ الناس ما شغلهُمْ عن الصلاة عليه، وتأسَّف الناس عليه حتى

---

(١) كان الشيخ أبو جعفر قد استدعي ليبيت عنده يقرأ القرآن، ويلقنه الشهادة عند حضور الوفاة، وتوفي أبو جعفر هذا سنة ٥٩٦.

(٢) وتمام الخبر أن القاضي الفاضل جاءه عند أذان الصبح، وكان في آخر رمق، فلما قرأ القارئ «لا إله إلا هو عليه توكلت»، تبسم، وتهلل وجهه، وأسلم روحه إلى ربه سبحانه.

الفرنج لما كان من صدق وفائه. ثم بنى ولدُهُ الأفضل قُبَّةً شمالي الجامع، ونقله إليها بعد ثلاث سنين، فجلس هناك للعزاء ثلاثاً.

وكان شديد القوى، عاقلاً، وقوراً، هيباً، كريماً، شجاعاً.

وفي «الروضتين» لأبي شامة[1]: أن السلطان لم يُخلِّف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعةً وأربعين درهماً، وديناراً صورياً، ولم يُخلِّف مِلْكاً ولا عقاراً رحمه الله، ولم يختلف عليه في أيامه أحدٌ من أصحابه، وكان الناس يأمنون ظلمَهُ، ويرجون رِفدَهُ، وأكثر ما كان يصل عطاؤه إلى الشجعان، وإلى العلماء، وأرباب البيوتات، ولم يكْن لمبطلٍ ولا لمَزَّاحٍ عنده نصيبٌ.

قال الموفَّق: وُجِدَ في خزانته بعد موته دينارٌ وثلاثون درهماً، وكان إذا نازل بلداً، وأشرف على أخذه، ثم طلبوا منه الأمان، آمَنهم، فيتألَّم لذلك جيشُه، لفوات حظِّهم.

قال القاضي بهاء الدين ابنُ شدَّادٍ[2]: قال لي السلطان في بعض محاوراته في عقد الصُّلح: أخاف أنْ أصالح، وما أدري أيش يكون مني، فيقوَى هذا العدو، وقد بقيتْ لهم بلادٌ، فيخرجون لاستعادة ما في أيدي المسلمين، وترى كل واحدٍ من هؤلاء -يعني أخاه وأولادَهم- قد قَعَدَ في رأس تلِّه -يعني قلعَته- ويقول: لا أنزل، ويهلك المسلمون.

قال ابن شداد: فكان -والله- كما قال، اختلفوا، واشتغل كلّ واحدٍ بناحيته، وبَعُدَ، فكان الصلح مصلحةً.

قلتُ: من لطف الله لما تنازع بنو أيوب، واختلفوا يسَّر اللهُ بنقص همَّة الأعداء، وزالت تلك الشهامةُ منهم.

---

(١) «الروضتين».

(٢) السيرة ٢٣٥ (ط. الدكتور الشيال، القاهرة ١٩٦٤).

وكتب القاضي الفاضل تعزيةً إلى صاحب حلب[1]: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]. ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج:١] كتبتُ إلى مولانا الملك[2] الظاهر أحسن اللهُ عزاءَه، وجَبَرَ مصابه، وجعل فيه الخلفَ من السَّلف في الساعة المذكورة[3]، وقد زُلزِلَ المسلمون زلزالاً شديداً، وقد حضرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودَّعتُ أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعدَه، وقبَّلتُ وجهه عني وعنكَ، وأسلمْتُهُ إلى الله وحده مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وبالباب من الجنودالمجنَّدة، والأسلحة المعمدة ما لم يدفع البلاء، ولا ما يردُّ القضاء، تدمَعُ العين، ويخشع القلبُ، ولا نقولُ إلا ما يُرضي الربَّ، وإنا بكَ يا يوسف لمحزونون. وأما الوصايا، فما تحتاج إليها والآراء، فقد شغلني المصاب عنها، واما لائح الأمر، فإنه إنْ وقع اتفاقٌ، فما عدِمْتُمْ إلا شخصَهُ الكريم، وإن كانَ غير ذلك، فالمصائب المستقبلة أهونُها موتُه.

٣- صاحب المغرب[4]

السلطان الكبير، الملقَّب بأمير المؤمنين المنصور، أبو يوسف، يعقوب ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن عليٍّ، القيسي، الكُوْميُّ، المغربي، المراكشي، الظاهري، وأُمُّه أَمَةٌ رومية اسمُها سَحَرُ.

عقدوا له بالأمر سنة ثمانين وخمس مئةٍ عند مهلك أبيه، فكان سِنُّه يومئذٍ ثنتين وثلاثين سنةً.

(١) هو ولده الملك الظاهر، وقدأوردها ابن خلكان وغيره.

(٢) ابن خلكان: «مولانا السلطان الملك».

(٣) ابن خلكان: «وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة» فهو يحذف: «من السلف».

(٤) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣١١.

وكان تامَّ القامة، أسمر، صافياً، جميل الصورة، أعْيَن، أفْوَه، أقْنى، أكحل، سميناً، مستدير اللحية، جهوريَّ الصوت، جَزْلَ العبارة، صادق اللهجة، فارساً، شجاعاً، قويّ الفراسة، خبيراً بالأمور، خليقاً للإمارة، ينطوي على دينٍ وخيرٍ وتألُّهٍ ورزانةٍ.

عمل الوزارة لأبيه، وخَبَرَ الخير والشر، وكشف أحوال الدواوين.

وزَرَ له عمر بن أبي زيدٍ، ثم أبو بكر بن عبدالله بن الشيخ عُمَرَ إِيْنتي، ثم ابن عم هذا محمدٌ الذي تزهَّد، واختفى، ثم أبو زيدٍ الهنْتاني، وزير ولده من بعده. وكتب له السر ابنُ مَحْشُوّة، ثم ابنُ عيَّاشٍ الأديب.

وقضى له ابنُ مضاءٍ، ثم الوهرانيُّ، ثم أبو القاسم بن بَقيٍّ.

[الصراع على الحكم]

ولما تملَّك، كان حوله منافسون له من عمومته وإخوته، ثم تحوَّل إلى سَلا، وبها تمَّت بيعتُه، وأرضى آله بالعطاء، وبنى مدينةً تلي مراكش على البحر، فما عتم أن خرج عليه عليُّ ابنُ غانية الملثَّم، فأخذ بجاية، وخطب للناصر العباسي، فكان الخطيب بذلك عبدالحق مصنِّف «الأحكام»، ولولا حضور أجله، لأهلكه المنصور.

ثم تملَّك ابنُ غانية قلعة حماد، فسار المنصور، واستردَّ بجاية، وجهز جيشه، فالتقاهم ابنُ غانيةَ فمزَّقهم، فسار المنصور بنفسه، فكسر ابن غانية، وذهب مُثْخَناً بالجراح، فمات في خيمة أعرابية، وقدَّم جيشُه عليهم أخاه يحيى، فانحاز بهم إلى الصحراء مع العرب، وجَرَتْ له حروبٌ طويلة، واستردَّ المنصور قَفْصة، وقتل في أهلها، فأسرف، ثم قتل عمَّيه سليمان وعُمرَ صبراً، ثم نَدِمَ، وتزهَّد، وتقشَّف، وجالس الصلحاء والمحدِّثين، ومالَ إلى الظاهر، وأعرض عن المالكية، وأحرق ما لا يُحْصى من كتب الفروع.

قال عبدالواحد بن عليٍّ: كنتُ بفاس، فشهدتُ الأحمال يؤتى بها، فتُحْرَق، وتهدَّد على الاشتغال بالفروع وأمر الحفَّاظ بجمع كتابٍ في الصلاة من «الكتب

الخمسة»، و«الموطأ»، و«مسند ابن أبي شيبة»، و«مسند البَزَّار»، و«سنن الدارقطني»، و«سنن البيهقي»، كما جمع ابنُ تومرتَ في الطهارة. ثم كان يُملي ذلك بنفسه على كبار دولته، وحفِظَ ذلك خلقٌ، فكان لمن يحفظُه عطاء وخلعةٌ. إلى أن قال: وكان قصْدُهُ محوَ مذهب مالكٍ من البلاد، وحَمْلَ الناس على الظاهر، وهذا المقصدُ بعينه كان مقصدَ أبيه وجدِّه، فلم يُظْهراه، فأخبرني غيرُ واحد أنَّ ابن الجدِّ أخبرهم قال: دخلتُ على أمير المؤمنين يوسف، فوجدتُ بين يديه كتاب ابن يونس، فقال: أنا أنظرُ في هذه الآراء التي أُحدثت في الدين، أرأيت المسألة فيها أقوالٌ، ففي أيها الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المُقَلِّد؟ فافتتحتُ أُبِينُ له، فقطع كلامي، وقال: ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا، وأشار إلى «سنن» أبي داود، أو هذا، وأشار إلى السيف.

قال يعقوب: يا معشر الموحِّدين، أنتم قبائل، فمن نابَه أمرٌ، فَزِعَ إلى قبيلته، وهؤلاء -يعني طلبة العلم[1]- لا قبيل لهم إلا أنا، قال: فعظموا عند الموحدين.

وفي سنة خمسٍ وثمانين وخمس مئة غزا الفرنج، ثم رجع، فمرِضَ، وتكلَّم أخوه أبو يحيى في الملك، فلما عوفيَ، قتَلَهُ، وتهدَّد القرابة.

وفي سنة تسعين وخمس مئة انتقضت الهدنة، فتجهَّز، وعرض جيوشه بإشبيلية، وأنفق الأموال، فقصده ألْفُنْش[2] فالتقوا، وكان نصراً عزيزاً، ما نجا ألْفُنْش إلا في شُريذِمَةٍ، واستشهد من الكبار جماعةٌ، واستولى يعقوب على قلاعٍ، ونازل طليطلة، ثم رجع، ثم غزا، ووغل، بحيث انتهى إلى أرضٍ ما وصلتْ إليها الملوك، فطلب ألْفُنْشُ المهادنة، فعُقدتْ عشراً، ثم رَدَّ السلطان إلى مراكش بعد سنتين، وصرَّح بقصد مصر.

وكان يتولى الصلاة بنفسه أشهراً، فتعوَّق يوماً، ثم خرج، وهم ينتظرونَه، فلامَهُمْ، وقال: قد قَدَّم الصحابة عبدالرحمن بن عوفٍ للعذر، ثم قرَّر إماماً عنه[3].

(١) يعني طلبة علم الحديث.

(٢) ويكتب: «الأدفنش» أيضاً، وهو ألفونس الثامن ملك قشتالة.

(٣) المعجب: ٣٦١.

وكان يجلس للحكم، حتى اختصم إليه اثنان في نصف[1]، فقضى، ثم أدَّبهما، وقال: أما كان في البلد حكامٌ؟

وكان يسمعُ حكم ابن بقيٍّ من وراء الستر، ويدخل إليه أمناء الأسواق، فيسألهم عن الأمور.

وتصدَّق في الغزوة الماضية[2] بأربعين ألف دينار.

وكان يجمع الأيتام في العام، فيأمر للصبي بدنيار وثوبٍ ورغيفٍ ورُمانة.

وبنى مارستان ما أظن أنَّ في الدنيا مثله، غرس فيه من جميع الأشجار، وزخرفه وأجرى فيه المياه، ورتَّب له كل يومٍ ثلاثين ديناراً للطعام غير ثمن الأدوية، وكان يعود المرضى في الجمعة.

وورد عليه أمراء من مصر، فأقطع واحداً تسعة آلاف دينار[3].

وكان لا يقول بالعصمة في ابن تومرت[4].

وسأل فقيهاً[5]: ما قرأتَ؟ قال: تواليف الإمام[6]، قال: فزَوَرَني[7]، وقال: ما ما كذا يقول الطالب! حكمك أنْ تقول: قرأتُ كتابَ الله، وقرأتُ من السنة، ثم بعد ذا قل ما شئتَ.

---

(١) يعني في نصف درهم.

(٢) وهي الغزوة الثانية سنة ٥٩٢.

(٣) انظر تفاصيل ذلك في «المعجب»: ٣٦٥-٣٦٦.

(٤) كانت العامة تعتقد أن ابن تومرت هو المهدي.

(٥) هذا الفقيه هو أبو بكر بن هاني الجيّاني، وأصل الحكاية مفصلة عند عبدالواحد في «المعجب» وهو الذي رواها عن هذا الفقيه: ٣٦٩.

(٦) يعني ابن تومرت.

(٧) في أصل «المعجب»: فنظر إليّ نظرة المُغْضَب.

قال تاج الدين ابن حمُّويه: دخلتُ مراكش في أيام يعقوب[1]، فلقد كانت الدنيا بسيادته مجملةً، يُقْصَد لفضله ولعدله ولبذله وحسن معتقده، فأعذَبَ موردي، وأنجح مقصدي، وكانت مجالسه مُزَيَّنةً بحضور العلماء والفضلاء، تُفتتح بالتلاوة ثم بالحديث، ثم يدعو هو، وكان يُجيد حفظ القرآن ويحفظ الحديث، ويتكلم في الفقه، ويناظر، وينسبونه إلى مذهب الظاهر. وكان فصيحاً، مَهيباً، حسن الصورة، تامَّ الخلقه، لا يُرى منه اكفهرارٌ، ولا عن مجالسه إعراضٌ، بزيِّ الزُّهَّاد والعلماء، وعليه جلالةُ الملوك، صنَّف في العبادات، وله «فتاوٍ»، وبلغني أنَّ السودان قدَّموا له فيلاً فوصلهم، وردَّه، وقال: لا نريد أن نكون أصحاب الفيل، ثم طَوّلَ التاج في عدله وكرمه، وكان يجمع الزكاة، ويُفرِّقها بنفسه، وعمل مكتباً للأيتام، فيه نحو ألف صبيٍّ، وعشرةٌ معلِّمون. حكى لي بعض عُماله: أنه فرّق في عيدٍ نَيِّفاً وسبعين ألف شاةٍ.

وقال عبدالواحد[2]: كان مهتماً بالبناء، كل وقتٍ يُجدِّد قصراً أو مدينةً، وأنَّ الذين أسلموا كرهاً أمرهم بلبسٍ كحليٍّ وأكمامٍ مفرطة الطول، وكلوتاتٍ ضخمة بشعة، ثم ألبَسهم ابنه العمائم الصُّفْرَ، حمل يعقوب على ذلك شكُّه في إسلامهم، ولم تنعقد عندنا ذمَّةٌ ليهودي ولا نصراني منذ قام أمرُ المَصامِدَة، ولا في جميع المغرب كنيسة، وإنما اليهود عندنا يُظْهِرون الإسلام، ويصلُّون، ويقرئون أولادهم القرآن جارين على مِلَّتِنا[3].

---

(١) زار تاج الدين عبدالله بن عمر بن حمويه المغرب سنة ٥٩٣ وعاش في بلاط الموحدين وكان على صلة وثيقة بيعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبقي هناك إلى سنة ٦٠٠ فدوَّن مذكراته في كتاب نقل منه الذهبي كثيراً في كتبه (الذهبي ومنهجه: ٤٠٨) وقد وقف عليه ابن خلكان أيضاً سنة ٦٦٨ ونقل منه في «الوفيات» (راجع «الوفيات»: ٧/ ٥) وتوفي تاج الدين هذا سنة ٦٤٢ (السبط في «المرآة»: ٨/ ٧٤٨ والمقري في «نفح الطيب»: ٢/ ٧٠٧ وكتب الذهبي في سنة وفاته).

(٢) «المعجب»: ٣٨٣، ولكن النص الذي يشير إلى اهتمامه بالبناء لم يقله عبدُ الواحد، ولعله من استنتاج الذهبي لما ذكره عبدالواحد من الأبنية: ٣٤١.

(٣) ثم قال: «والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم».

قلتُ: هؤلاء مسلمون، والسلام.

وكان ابنُ رشدٍ الحفيد قد هذَّب له كتاب «الحيوان»[1] وقال: الزُّرافة رأيتُها عند ملك البربر، كذا قال غير مُهتبل، فأحنَقَهم هذا، ثم سعى فيه من يُناوئه عند يعقوب، فأرَوْه بخطِّه حاكياً عن الفلاسفة أنّ الزُّهرة أحد الآلهة، فطلبه، فقال: أهذا خطُّك؟ فأنكر، فقال: لعن اللهُ من كتبه، وأمر الحاضرين بلعنه، ثم أقامه مهاناً، وأحرق كتب الفلسفة سوى الطب والهندسة. وقيل: لما رجع إلى مراكش، أحبَّ النظر في الفلسفةِ، وطلب ابن رشدٍ ليُحسنَ إليه، فحضر، وماتَ، ثم بعد يسيرٍ مات يعقوب.

وقد كتب صلاح الدين إلى يعقوب يستنجد به في حصار عكا، ونفَّذ إليه تقدمةً، وخضع له، فما رضي لكونه ما لقَّبه بأمير المؤمنين ولقد سمح بها، فامتنع منها كاتبُه القاضي الفاضل[2].

وقيل: إنَّ يعقوب أبطل الخمر في ممالكه، وتوعَّد عليها فعدمت، ثم قال لأبي جعفر الطبيب: ركِّب لنا ترياقاً، فأعوزَه خمرٌ، فأخبره بذلك، فقال: تلطَّفْ في تحصيله سرّاً، فحرص، فعجز، فقال الملك: ما كان لي بالترياق حاجةٌ، لكن أردتُ اختبارَ بلادي.

قيل: إن الأدفنش كتب إليه يُهدِّدُه، ويُعنِّفه، ويطلب منه بعض البلاد، ويقول: وأنت تماطل نفسك، وتقدم رِجْلاً، وتؤخر أخرى، فما أدري الجبنُ بطَّأَ بك، أو

(١) كتاب «الحيوان» لأرسطاطاليس.

(٢) كان ذلك في أواخر ٥٨٧، وكان السفير شمس الدين عبدالرحمن بن منقذ حيث وصل هناك في العشرين من ذي الحجة، وبقي إلى عاشوراء من المحرم سنة ٥٨٨، وكان طلبُ صلاح الدين يتلخص في إرسال مراكب في البحر تكون عوناً للمسلمين على مراكب الصليبيين، وكان القاضي الفاضل قد نصح صلاح الدين بعدم الإرسال، لكنها كانت محاولةً، وفشلت. وقد أورد أبو شامة نصَّ الكتاب الذي أرسله السلطان من إنشاء القاضي الفاضل، وأراد أن يذكر فيه لقب «أمير المؤمنين»، لكن القاضي الفاضل امتنع خوفاً من إغضاب العباسيين. (وانظر ابن كثير في «البداية»: ١٢/ ٣٣٩، وابن واصل في «مفرج الكروب»: ٢/ ٤٩٦).

التكذيب بها وعدَك نبيُّك؟ فلما قرأ الكتاب، تنمَّر، وغضب، ومزَّق، وكتب على رقعةٍ منه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا...﴾ الآية [النمل:٣٧]، الجواب ما ترى لا ما تسمع.

ولا كُتْبَ إلاَّ المشرفِيَّةُ عندنا ولا رُسْلَ إلاَّ للخَمِيْسِ العَرَمْرَمِ

ثم استنفرَ سائر الناس، وحشَد، وجمع، حتى احتوى ديوان جيشه على مئة ألفٍ، ومن المُطَّوِّعة مثلهم، وعدَّى إلى الأندلس، فتمَّت الملحمة الكبرى، ونزل النصر والظفر، فقيل: غنموا ستين ألف زرديةٍ.

قال ابنُ الأثير: قُتِلَ من العدوِّ مئة ألف وستةٌ وأربعون ألفاً، ومن المسلمين عشرون ألفاً.

وذكره أبو شامة، وأثنى عليه، ثم قال: وبعد هذا فاختلفت الأقوال في أمرِهِ، فقيل: إنه ترك ما كان فيه، وتجرَّد، وساحَ، حتى قدِمَ المشرق مُتَخَفِّياً، وماتَ خاملاً، حتى قيل: إنه مات ببعلبكَّ. ومنهم من يقول: رَجَعَ إلى مراكش، فمات بها، وقيل: مات بسَلا، وعاش بِضْعاً وأربعين سنةً.

قلتُ: إليه تُنْسَبُ الدنانير اليعقوبية.

قال ابنُ خلِّكان: حكى لي جمعٌ كبيرٌ بدمشق أنَّ بالبقاع بالقرب من المجدل قريةً يقال لها: حَمَّارة، بها مشهدٌ يعرَف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب، وكلُّ أهل تلك الناحية متفقون على ذلك.

قيل: الأظهر موتُه بالمغرب، فقيل: مات في أول جُمادى الأولى، وقيل: في ربيع الآخر، وقيل: مات في صفر سنة خمسٍ وتسعين وخمس مئة.

وقد يقال: لو مات مثل هذا السلطان في مقرِّ عزِّه، لم يُخْتَلَف هكذا في وفاته، فالله أعلم، لكن بويع في هذا الحين ولدُه محمد بن يعقوب المؤمنيُّ.

٤- صاحب إرْبل[1]

السلطان الدَّيِّن الملك المُعظَّم مظفَّر الدين أبو سعيد كوكْبُري بن عليّ ابن بكتكين بن محمج التركماني صاحب إرْبِل وابن صاحبها وممصّرها الملك زين الدين عليّ كوجك، وكوجك هو اللطيف القدّ، كان كوجك شهماً شجاعاً مهيباً، تملّك بلاداً كثيرة، ثم وهبها لأولاد صاحب الموصل، وكان يوصف بقوة مفرطة، وطال عمره، وحج هو والأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي، وتوفي في سنة ثلاث وستين وخمس مئة، وله أوقاف وبرّ ومدرسة بالموصل. فلما مات تملك إرْبِل ابنه هذا وهو مراهق، وصار أتابكه مُجاهد الدين قيماز، فعمل عليه قيماز وكتب مَحْضراً بأنه لا يصلح للمُلْك وقبضَ عليه وملَّكَ أخاه زين الدين يوسف، فتوجه مظفر الدين إلى بغداد فما التفتوا عليه، فقَدِمَ الموصل على صاحبها سيف الدين غازي بن مودود، فأقطعه حرّان، فبقي بها مُدَيْدَة، ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين، وغزا معه، وتمكَّن منه، وأحبه، وزادَه الرُّها، وزوجه بأخته ربيعة واقفة الصاحبية. وأبان مظفر الدين عن شجاعة يوم حطين، وبيَّن، فوفد أخوه صاحب إرْبل على صلاح الدين نجدة فتمرَّض ومات على عكا فأعطى السلطان مظفر الدين إرْبل وشهْرزور، واسترد منه حرّان والرُّها.

وكان مُحِباً للصدقة، له كل يوم قناطير خبز يفرقها، ويكسو في العام خلقاً ويعطيهم ديناراً ودينارين، وبنى أربع خوانك للزَّمْنَى والأضراء، وكان يأتيهم كل اثنين وخميس ويسأل كل واحد عن حاله ويتفقده ويباسطه ويمزح معه. وبنى داراً للنساء، وداراً للأيتام، وداراً للّقطاء، ورتَّبَ بها المراضع. وكان يدور على مرضى البيمارستان. وله دار مضيف ينزلها كل وارد، ويُعْطَى كل ما ينبغي له. وبَنى مدرسة للشافعية والحنفية وكان يمد بها السماط، ويحضر السماع كثيراً، لم يكن له لذة في شيء غيره. وكان يمْنَع من دخول مُنْكر بلدَه، وبنى للصوفية رباطين، وكان ينزل إليهم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٣٤.

لأجل السماعات. وكان في السنّة يفْتِكُ أسرى بجملة ويُخرج سبيلاً للحج، ويبعث للمجاورين بخمسة آلاف دينار، وأجرى الماء إلى عرفات.

وأما احتفاله بالمولد[1] فيقصر التعبير عنه؛ كان الخلق يقصدونه من العراق والجزيرة وتُنْصَب قِباب خشب له ولأمرائه وتُزَيَّن، وفيها جوق المغاني واللعب، وينزل كل يوم العصر فيقف على كل قبة ويتفرج، ويعمل ذلك أياماً، ويُخرِجُ من البقر والإبل والغنم شيئاً كثيراً فتُنْحَر وتُطْبَخ الألوان، ويَعْمَل عدة خِلَع للصوفية، ويتكلم الوُعّاظ في الميدان، فينفق أموالاً جزيلة. وقد جمع له ابن دحية «كتاب المولد» فأعطاه ألف دينار.

وكان متواضعاً، خيِّراً، سُنّيّاً، يحب الفقهاء والمحدثين، وربما أعطى الشعراء، وما نُقل أن انهزم في حرب، وقد ذكر هذا وأمثاله ابن خَلِّكان واعتذر من التقصير.

مولده في المحرم سنة تسع وأربعين وخمس مئة بإِرْبل.

قال ابن الساعي: طالت عليه مُداراة أولاد العادل، فأخذ مفاتيح إرْبِل وقلاعها وسلَّم ذلك إلى المستنصر في أول سنة ثمانٍ وعشرين، قال: فاحتفلوا له، واجتمع بالخليفة وأكرمه، وقلَّده سيفين ورايات وخِلَعاً وستين ألف دينار.

وقال سِبط الجوزي: كان مظفر الدين ينفق في السنة على المولد ثلاث مئة ألف دينار، وعلى الخانقاه مئتي ألف دينار، وعلى دار المضيف مئة ألف. وعَدَّ من هذا الخسف أشياء.

وقال: قال من حضر المولد مرة: عددت على سماطه مئة فرس[2] قشلميش، وخمسة آلاف رأس شوي، وعشرة آلاف دجاجة، ومئة ألف زُبدية، وثلاثين ألف صحن حلواء.

---

(١) يعني المولد النبوي الشريف.

(٢) في المطبوع من المرآة: «قرش» مصحف.

قلت: ما أعتقد وقوع هذا، فعُشر ذلك كثير جداً[1].

قال ابن خلِّكان: مات ليلة الجمعة رابع عشر رمضان سنة ثلاثين وست مئة، وعُمِلَ في تابوت، وحُمِلَ مع الحجاج إلى مكة[2]، فاتفق أن الوفد رجعوا تلك[3] السنة لعدم الماء، فدفن بالكوفة رحمه الله تعالى، وعاش اثنين وثمانين سنة[4].

وعاش أبوه فوق المئة، وعمي وأصمّ، وكان من كبار الدولة الأتابكية، ما انهزم قط. ومدَحَهُ الحَيْص بَيْص، فقال: ما أعرف ما تقول، ولكني أدري أنك تريد شيئاً! وأمر له بخلْعة وفرس وخمس مئة دينار.

٥- صاحب حماة[5]

الملك المظفر تقي الدين محمود ابن المنصور محمد ابن المظفر تقي الدين عمر ابن شاهنشاه الأيوبي الحموي.

كانت دولته خمساً وعشرين سنة.

تملَّك بعد أخيه خمسة عشر عاماً وأشهراً، وكان بطلاً شجاعاً إلى الغاية، وكان دائماً يركب باللتّ على كتفه، قلَّ من يقدرُ أنْ يحمِلَهُ، له مواقف مشهودة.

ذكره ابن واصل وبالغ.

وكان فطناً قويَّ الفراسة، طيب المفاكهة، وكان ناقص الحظ مع جيرانه الملوك، وحرص جداً على قيام مُلْك الملك الصالح نجم الدين، وخُطِبَ له بحماة،

---

(١) وقال في تاريخ الإسلام: «والعهدة عليه فإنه خَسّاف مجازف لا يتورع في مقاله»!

(٢) وكان قد أعد له بها قبة تحت الجبل يدفن فيها.

(٣) وهي سنة إحدى وثلاثين.

(٤) لم يذكر ابن خلكان عمره، لكن ذكر انه ولد سنة ٥٤٩.

(٥) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢١٠.

ثم تعلل طويلاً أزيد من سنتين، وفُلِج، ثم مَرِضَ بحمّى، ومات، وقامت بالأمور زوجته أخت الملك الصالح، وحزن الصالح لموته كثيراً، وجلس للعزاء ثلاثة أيام.

مات في جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وست مئة، وعاش ثلاثاً وأربعين سنةً، فتملَّك بعده ابنه المنصور محمدٌ، وله عشر سنين وأيامٌ.

٦- أبو عبدالله مَرْدَنيش(١)

الزاهد المجاهد، أبو عبدالله، محمد الجُذامي المغربي.

كان معه عدة رجال أبطالٍ يُغير بهم يمنةً ويسرةً، وكانوا يحرثون على خليِهم كما يحرثُ أهل الثَّغر وكان أمير المسلمين ابنُ تاشفين يمدُّهم بالمال والآلات، ويبرُّهم.

ولمردنيش مغازي ومواقف مشهودة وفضائل،وهو جدُّ الملك محمد بن سعد ابن محمد صاحب شرق الأندلس.

فمن عجيب ما صحّ عندي من مغازيه -يقول ذلك اليَسَعُ بنُ حزم- أنه أغار يوماً، فغنم غنيمةً كثيرة، واجتمع عليه من الروم أكثر من ألف فارس، فقال لأصحابه وكانوا ثلاث مئة فارس: ما تَرون؟ فقالوا: نَشْغَلُهُم بترك الغنيمة. فقال: ألم يقل القائل: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٥] فقال له ابنُ مورين: يا رئيس، اللهُ قال هذا. فقال: اللهُ يقول هذا وتقعُدون عن لقائهم؟! قال: فثبتوا، فهزموا الروم.

ومن غريب أمره أنه نزل ملك الروم ابنُ رُذمير، فأفسدوا الزروع، فبعث يقولُ له: مثلُكَ لا يرضى بالفساد، ولا بد لك من الانصراف، فأُفْسِدُ في بلدك في يوم واحد ما لا تُفْسِده في جمعة. فأمر اللعين أصحابه بالكف، وبعث إليه يرغب في

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٣٢.

رؤيته لسُمعته عندهم. قال ابنُ مورين: فجئنا مع الرئيس، فقدَّمناه، فأكرمه، وأجلسه إلى جنبه، وجعل يطَّلعُ إليه ويقول بلسانه: اسمُكَ عظيم، وطلعتُكَ دون اسمِك، وما شخصُك بشخص فارس. وكان قصيراً، وأراد ممازحته، وكذا وجَّه إليه أمير المسلمين عليُّ بن يوسف، فمضى واجتمع به، واستناب موضعَه ولدَه سعداً إلى أن رجع.

وفي سنة سبع عشرين وخمس مئة سار ابن رُذمير، فنازل مدينة إفراغة وبها ابنُ مَردنيش، وطال الحصار، فكتبوا إلى أمير المسلمين ابن تاشفين ليُغيثَهُم، فكتب إلى ابنه تاشفين بن علي، وإلى الأمير يحيى بن غانية بإغاثتهم، وإدخال الميرة إليهم، فتهيأ لنجدتهم أربعةُ آلاف، فما وصلوا إلى إفراغة إلا وقد فني ما بها، ولم يبقَ لابن مَردنيش سوى حصان، فذبحه لهم، فحصل لكل واحدٍ أوقية أوقية.

قال اليسع: فحدثني الملكُ المجاهد ابنُ عياض حديث هذه الغَزاة، قال: لما وصل أبو زكريا يحيى بن غانية مدينة زيتونة، خرجتُ إليه من لارِدة مع فرساني، فقال: أشيروا عليَّ. فقلتُ: الصواب جمع جُند الأندلس تحت راية واحدة، وهلال وسُليم تحت راية أخرى، ويتقدم الزبير بن عمر بأهل المغرب وبالدواب التي تحملُ الأقوات، معهم الطبول والرايات، ونبقى نحن والعرب كميناً عن يمين الجيش ويساره، فإذا أبصر اللعين الرايات والطبول والزَّمْر حمل عليه، فنكرُّ عليه من الجهتين. قال: فصلّينا الصبح في ليلة سبعٍ وعشرين من رمضان سنة سبع وعشرين وخمس مئة وأبصر اللعين الجيش وقد استراح من جراحاته، كان عسكرُهُ إذ ذاك أربعةً وعشرين ألف فارس سوى أتباعهم، فقصدوا الطبول، فانكسروا وتفرَّقوا -يعني المسلمين- فأتينا الروم عن أيمانهم، ونزل النصر وعمل السيف في الروم حتى بقي ابنُ رُذمير في نحو أربع مئة فارس، فلجؤوا إلى حصنٍ لهم، وباتَ المسلمون عليهم، ثم هلك غمّاً، وأصابه مرض مات بعد خمسة عشر يوماً من هزيمته، فلا رحمه الله.

سَنْجَر[1]

السلطان، ملك خراسان، مُعِزُّ الدين، سَنْجَرُ بنُ السلطان ملكشاه بن ألْب أرسلان بن جغريبَك بن ميكائيل بن سَلجوق الغُزّي التركي السلجوقي، صاحب خراسان وغَزْنَة وبعض ما وراء النهر.

خُطِب له بالعراق وأذربيجان والشام والجزيرة وديار بكرٍ وأرّان والحرمين.

واسمه بالعربي أبو الحارث أحمد بن حسن بن محمد بن داود. كذا قال السمعاني، لكن قال في أبيه: حسن إن شاء الله.

ولد بسِنْجار[2] من الجزيرة في رجب سنة تسعٍ وسبعين وأربع مئة إذ توجَّه أبوه لغزو الروم، ونشأ ببلاد الخُوز، ثم سكن خراسان، وتديَّر مرْو.

قال ابن خَلِّكان: ولي نيابةً عن أخيه السلطان بَرْكِيارُوق سنة تسعين وأربع مئة، ثم استقل بالمُلك في سنة اثنتي عشرة وخمس مئة.

قال السمعاني: كان في أيام أخيه يُلقَّب بالملك المُظَفَّر إلى أن توفي أخوه محمدٌ بالعراق في آخر سنة إحدى عشرة، فتسلطن، وَرِثَ المُلك عن آبائه، وزاد عليهم، وملك البلاد، وقهر العباد، وخُطب له على أكثر منابر الإسلام.

وكان وَقوراً حَيِيّاً، كريماً سخياً، مُشفِقاً، ناصحاً لرعيته، كثير الصفح، جلس على سرير الملك قريباً من ستين سنة.

قال: وحكى أنه دخل مع أخيه محمدٍ على المستظهر بالله، قال: فلما وقفنا ظَنَّني السلطان، فافتتح كلامه معي، فخدمتُ، وقلتُ: يا مولانا، هو السلطان، وأشرتُ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٦٢.

(٢) فقيل له: سنجر باسم هذا البلد على ما جرت به عادة الأتراك، فإنهم يسمون أولادهم بأسماء المواضع. انظر «الأنساب» ٧/ ١٥٩، و«وفيات الأعيان» ٢/ ٤٢٨.

إلى أخي، ففوَّض إليه السلطنة، وجعلني وليَّ عَهده. أجاز أبو الحسن عليُّ بنُ أحمد المديني لسَنْجَر مسموعاته، فقرأتُ عليه بها أحاديث، وقد ثَقُل سمعُهُ.

قال ابن الجوزي: حارب سنجر الغُزَّ -يعني قبل سنة خمسين وخمس مئة- فأسروه، ثم تخلَّص بعد مدة.

وقال ابن خلّكان: كان من أعظم الملوك همَّةً، وأكثرهم عطاءً، ذكر أنه اصطبح خمسة أيام متوالية ذهب بها في الجود كل مذهب، فبلغ ما وهب من العين سبع مئة ألف دينار سوى الخِلع والخيل.

قال: وقال خازنُهُ: اجتمع في خزائنه من الأموال ما لم يُسمع أنه اجتمع في خزائن مَلِكٍ، قلت له يوماً: حصل في خزائنك ألفُ ثوب ديباج أطلس، وأُحبُّ أن تراها، فسكت، فأبرزتُ جميعها، فحمد الله، ثم قال: يقبُح بمثلي أن يقال: مالَ إلى المال. وأذِنَ للأمراء في الدخول، وفرَّق عليهم الثياب. قال: واجتمع عندَه من الجواهر ألفُ رطل ونيِّف، ولم يُسمع عند ملكٍ ما يقارب هذا.

[زال الملك عنهم بعد عزّ]

قال ابن خلّكان: لم يزل في ازديادٍ إلى أن ظهرت عليه الغُزُّ في سنة ٥٤٨ وهي وقعةٌ مشهورةٌ استُشهد فيها الفقيه محمد بن يحيى، فكسروه، وانحلَّ نظامُ مُلكه، وملكوا نيسابور، وقتلوا خلْقاً كثيراً، وأخذوا السلطان، وضربوا رقاب عدةٍ من أمرائه، ثم قَبَّلوا الأرض، وقالوا: أنت سلطانُنا، وبقي معهم مثل جنديٍّ يركب إكديشاً، ويجوع وقتاً، وأتوا به، فدخلوا معه مرو، فطلبها منه أميرهم بختيار إقطاعاً، فقال: كيف يصير هذا؟! هذه دار الملك. فصفى له، وضحكوا، فنزل عن الملك، ودخل إلى خانقاه مَرْو، وعملت الغُزّ ما لا تعمله الكفار من العظائم، وانضمت العساكر، فمَلّكوا مملوك سَنْجَر أَيبَه، وجرت مصائب على خراسان، فبقي في أسرهم ثلاث سنين وأربعة أشهر، ثم أفلت منهم، وعاد إلى خراسان، وزال بموته ملك بني

سلجوق عن خراسان، واستولى على أكثر مملكته خُوارزم شاه أُتسِزُ بن محمد بن نوشتكين، ومات أُتسِز قبل سنجر.

قال السمعاني: مات في الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة، ودُفن في قبةٍ بناها، وسماها دار الآخرة.

قال ابن الجوزي: لما جاء خبرُ موته إلى بغداد، قُطعت خطبَتُهُ، ولم يُعقد له عزاء.

قال السمعاني: تسلطن بعده ابنُ أخته الخاقان محمود بن محمد بن بغراجان.

قلتُ: وقد عَمِلَ في أثناء دولته مصافاً ما سُمع بمثله أبداً مع كافر ترك، انكسر سَنْجَرُ فيها، وقُتِلَ من جُنده سبعون ألفاً.

عبد المؤمن بن علي[1]

ابن عَلَوي، سلطان المغرب الذي يُلَقَّبُ بأمير المؤمنين، الكُومِيُّ القيسي، المغربي.

مولده بأعمال تِلِمْسان. وكان أبوه يصنع الفخَّار.

قيل: إنه قال -أعني عبد المؤمن- : إنما نحن من قيس غيْلان بن مُضر بن نزار، ولكومية علينا حقُّ الولادة، والمنشأ فيهم، وهم أخوالي.

وكان الخطباء إذا دعوا له بعد ابن تُومرت، قالوا: قسيمُهُ في النَّسَب الكريم.

مولده سنة سبعٍ وثمانين وأربع مئة[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٦٦.

(٢) قال ابن خلكان: وقيل: إن ولادته سنة خمس مئة. وقيل: سنة تسعين وأربع مئة. «وفيات الأعيان» ٣/ ٢٣٩.

وكان أبيض جميلاً، ذا جسم عَمَمٍ[1]، تعلوه حُمرةٌ، أسود الشعر، معتدل القامة، جهوريَّ الصوت، فصيحاً جَزْل المنطق، لا يراهُ أحدٌ إلا أحبَّه بديهة، وكان في كِبَرِهِ شيخاً وقوراً، أبيض الشعر، كثَّ اللحية، واضح بياض الأسنان، وكان عظيم الهامة، طويل القعدة، شَثْن الكفِّ، أشهَلَ العين، على خدِّه الأيمن خالٌ، يقال: كان في صباه نائماً، فسَمِعَ أبوه دوياً فإذا سحابةٌ سمراءُ من النحل، قد أهوت مطبقةً على بيته، فنزلت كلُّها على الصبي، فما استيقظ، فصاحت أمُّه، فسكَّنها أبوه، وقال: لا بأس، لكني متعجِّبٌ مما تدلُّ عليه، ثم طارت عنه، وقعد الصبيُّ سالماً، فذهب أبوه إلى زاجرٍ، فذكر له ما جرى، فقال: يوشك أن يكون لابنك شأنٌ، يجتمع عليه طاعةُ أهل المغرب.

وكان محمد بن تومرت قد سافر في حدود الخمس مئة إلى المشرق، وجالس العلماء، وتزَهَّد، وأقبل على الإنكار على الدولة بالإسكندرية وغيرها، فكان يُنفَى ويؤذَى، ففي رَجْعَته إلى إفريقية هو ورفيقُهُ الشيخ عمر الهِنْتاتي[2] صادف عبدالمؤمن، فحدَّثه وانَسَهُ وقال: إلى أين تسافر؟ قال: أطلبُ العلمَ. قال: قد وجدتَ طلِبَتَكَ. ففقَّهه، وصحبه، وأحبَّه، وأفضى إليه بأسراره لما رأى فيه من سمات النُّبْل، فوجد همَّته كما في النفس، فقال ابنُ تُومرت يوماً لخواصه: هذا غلاّبُ الدول. ومضوا إلى جبل تِيْنمَلّ بأقصى المغرب، فأقبل عليهم البربر، وكثروا، وعسكروا، وشَقُّوا العصا على ابن تاشفين، وحاربوه مراتٍ، وعظُمَ أمرُهُم، وكثرت جموعُهُم، واستفحل أمرُهم، وخافتهم الملوك، وآل بهم الحالُ إلى الاستيلاء على الممالك، ولكن مات ابن تومرت قبل تمكُّنهم في سنة أربع وعشرين وخمس مئة. وكانت وقعة البُحيرة بظاهر مراكش بين ابن تاشفين صاحب المغرب وبين أصحاب ابن تومرت في سنة إحدى وعشرين، فانهزم فيها الموحِّدون، واستحرَّ بهم القتل، ولم ينجُ منهم إلا نحو من أربع

---

(١) في «القاموس»: العَمَمُ محركة: عِظَمُ الخلق في الناس وغيرهم.

(٢) بكسر الهاء وسكون النون وبعد الألف تاء ثانية، نسبةً إلى قبيلة كبيرة من البربر يقال لها: هنتاتة. «اللباب» ٣/ ٣٩٣.

مئة مقاتل، ولما توفي ابن تومرت كتموا موته، وجعلوا يخرجون من البيت، ويقولون: قال المهدي كذا، وأمَرَ بكذا، وبقي عبد المؤمن يُغيرُ في عسكره على القرى، ويعيشون من النهب، وضعُفَ أمرُهُم، وكذلك اختلف جيش ابن تاشفين الذين يقال لهم: المرابطون، ويقال لهم: المُلَثَّمون، فخامر منهم الفلاكيُّ من كبارهم، وسار إلى عبد المؤمن، فتلقّاه بالاحترام، واعتضد به، فلما كان بعد خمسة أعوام أفصحوا بموت ابن تُومرت، ولقَّبوا عبد المؤمن أمير المؤمنين، وصارت حصون الفلاكي للموحدين، وأغاروا على نواحي أغْمات والسوس الأقصى، واستفحل بهم البلاء.

وقال صاحب «المعجب» عبدالواحد المراكشي: استدعى ابن تومرت قبل موته الرجال المُسمِّين بالجماعة وأهل الخمسين والثلاثة عمر أرتاج، وعمر إيْنْتي، وعبدالله بن سليمان، فحمد الله، ثم قال: إنَّ الله -سبحانه، وله الحمد- منَّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصَّكُم بحقيقة توحيده، وقيَّض لكم من ألفاكم ضُلاّلاً لا تهتدون، وعُمياً لا تُبصرون، قد فشت فيكم البِدَع، واستهوتكم الأباطيل، فهداكم الله به، ونصركم، وجمعكم بعد الفرقة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورِثُكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبت أيديهم، فجدِّدوا لله خالص نياتكم، وأرُوه من الشكر قولاً وفعلاً مما يُزكِّي به سعيَكُم، واحذروا الفرقة، وكونوا يداً واحدة على عدوِّكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس، وأسرعوا إلى طاعتكم، وإن لا تفعلوا شملكم الذُّلُ، واحتقرتكم العامة. وعليكم بمَزْجِ الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً بعد أن بلوناه، فرأيناه ثَبْتاً في دينه، متبصراً في أمره، وهو هذا -وأشار إلى عبد المؤمن- فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع ربَّه، فإن بَدَّل ففي الموحِّدين بركةٌ وخير، والأمر أمرُ الله يقلِّده من يشاء. فبايع القومُ عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت.

وقال ابن خلكان: ما استخلفَهُ بل أشارَ به. قال: فأول ما أخذ من البلاد وَهران، ثم تلمسان، ثم فاس، ثم سَلا، ثم سَبْتَة، ثم حاصر مراكش أحد عشر

شهراً، فأخذها في سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة، وامتدّ مُلكُه، وافتتح كثيراً من الأندلس، وقصدته الشعراء، ولما قال فيه التِّيفاشيُّ قصيدته:

مـا هَـزَّ عِطْفَيْـهِ بَـيْنَ البِيْضِ والأسَـلِ مثـلُ الخَليفَـةِ عبـدِ المـؤمنِ بـنِ عـلي

أشار إليه أن يقتصر على هذا المطلع، وأمر له بألف دينار، وانقطعت الدعوة العباسية بموت أمير المسلمين عليِّ بن تاشفين وولدِهِ تاشفين، وكانت دولةُ تاشفين ثلاث سنين.

قال ابن الجوزي في «المرآة»: استولى عبد المؤمن على مراكش، فقتل المُقاتلة، وكفَّ عن الرعية، وأحضر اليهود والنصارى، وقال: إنَّ المهديَّ أمرني أن لا أُقِرَّ الناس إلا على ملة الإسلام، وأنا مُخَيِّرُكُم بين ثلاثٍ، إما أن تسلموا، وإما أن تلحقوا بدار الحرب، وإما القتل. فأسلم طائفةٌ ولحقت أُخرى بدار الحرب، وخرَّب كنائسهم، وعملها مساجد، وألغى الجزية، فعل ذلك في جميع مدائنه، وأنفق بيوت الأموال، وصلَّى فيها اقتداءً بعليٍّ، وليُري الناس أنه لا يكنِزُ المال، وأقام كثيراً من معالم الإسلام مع سياسةٍ كاملة، نادى: من ترك الصلاة ثلاثاً فاقتُلوه، وأزال المنكر، وكان يؤُمُّ بالناس، ويتلو في اليوم سُبعاً، ويلبَسُ الصوف الفاخر، ويصوم الاثنين والخميس، ويقسم الفيء بالشرع، فأحبوه.

قال عزيز في كتاب «الجمع»: كان عبد المؤمن يأخذ الحق إذا وجب على ولده، ولم يَدَعْ مُشرِكاً في بلاده لا يهودياً ولا نصرانياً، فجميع رعيَّته مسلمون.

وقال عبد الواحد بن علي: وزر له أولاً عمر أرتاج، ثم رفعهُ عن الوزارة، واستوزر أبا جعفر أحمد بن عطيَّة الكاتب، فلما أخذ بجاية استكتَب من أهلها أبا القاسم القالمي، ثم في سنة ٥٥٣ قتل ابن عطية، وأخذ أموله، واستوزر عبدالسلام الكومي، ثم قتله سنة سبع، واستوزر ابنه عُمَرَ، وولَّى قضاءَه ابنَ جَبَل الوَهْرانيَّ، ثم عبدالله بن عبدالرحمن المالَقي، وأسر يحيى الصُّنهاجي صاحب بجاية، وكان هو وآباؤه من بقايا نواب بن عُبيد الرافضة، ثم أحسن إلى يحيى، وصيَّره من قُوادِهِ،

وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم، مُحبّاً لهم، ويُجزِلُ صِلاتهم، وسُمِّيت المصامدةُ بالموحدين لأجل خوض المهديِّ بهم في علم الاعتقاد والكلام.

وكان عبد المؤمن رزيناً وقوراً، كامل السؤدد، سرياً، عاليَ الهمة، خليقاً للإمارة، واختلَّت أحوال الأندلس، وتخاذل المرابطون، وآثروا الراحة، واجترأ عليهم الفرنج، وانفرد كلُّ قائدٍ بمدينة، وهاجت عليهم الفرنج، وطمعوا، فجهَّز عبد المؤمن عمر إينتي، فدخل إلى الأندلس، فأخذ الجزيرة الخضراء، ثم رُندة، ثم إشبيلية وقرطبة وغرناطة، ثم سار عبد المؤمن بجيوشه، وعدى البحر من زقاق سَبْتة، فنزل جبل طارق، وسمّاه جبل الفتح، فقام أشهراً، وبنى هناك قصوراً ومدينة، ووفد إليه كُبراء الأندلس، وقام بعض الشعراء منشداً:

مـا للعِـدى جُنَّـةٌ أوقـى مِـنَ الهَـرَبِ ... أيـنَ المَفَـرُّ وخيـلُ الله في الطَّلَـبِ
وأيـنَ يَـذْهَبُ مَـن في رَأْسِ شـاهِقَةٍ ... وقـد رمَتْـهُ سِـهامُ الله بالشُّـهُبِ
حَـدِّثْ عَـنِ الـرُّومِ في أقْطـارِ أنـدلُسٍ ... والبحـرُ قَـدْ مـلأَ الـبَرَّيْنِ بـالعَرَبِ

فأُعجب بها عبد المؤمن، وقال: بمثل هذا يُمدح الخلفاء. ثم أمَّر على إشبيلية ولده يوسف، وعلى قرطبة أبا حفص عمر إينتي وعلى غرناطة عثمان ولده، وقرَّر بالأندلس جيشاً كثيفاً من المصامدة والعرب وقبائل بني هلال، وكان قد حاربَهم مدةً، وظَفِرَ بهم، وأذلَّهم، ثم كاتبهم ولاطفَهم، فخدموا معه، وخلع عليهم، وكان دخوله إلى الأندلس في سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة، ومما لاطف به العرب واستمالهم قصيدةٌ له وهي:

أقيمُـوا إلى العَلْيـاءِ هُـوْجَ الرَّواحِـلِ ... وقُـودُوا إلى الهَيْجـاءِ جُـرْدَ الصَّـواهِلِ
وقُومُـوا لنَصْـرِ الـدِّينِ قَوْمَـةَ ثـائرٍ ... وشُـدُّوا عـلى الأعْـداءِ شَـدَّةَ صَـائِلِ
فـما العِـزُّ إلا ظَهْـرُ أجْـرَدَ سَـابح ... وأبْـيَضُ مـأثورٌ ولَـيْسَ بسـائِلِ
بني العَـمِّ مـن عَليـا هـلالِ بـن عـامرٍ ... ومـا جَمَعَـتْ مـن باسِـلٍ وابـنِ باسِـلِ

تعــالَوْا فقــد شُــدَّتْ إلى الغَــزْوِ نيَّــةٌ عواقِبُهــا منصــورةٌ بالأوائِــلِ
هــي الغَــزْوَةُ الغَــرَّاءُ والموعــدُ الــذي تَنَجَّــزَ مِــن بَعْــدِ المَــدَى المُتطــاوِلِ
بِهــا نَفْــتَحُ الــدُّنيا بهــا نبلُــغُ المُنَــى بها نُنْصِفُ التَّحقيقَ مِنْ كُلِّ باطِلِ
فــلا تَتَوانَــوْا فالبِــدارُ غَنيمــةٌ وللمُــدلجِ السَّــارِي صَـفاءُ المَنَاهِــلِ

قال عبد الواحد المراكشي: حدثني غير واحدٍ أنَّ عبد المؤمن لما نزل سَلا - وهي على البحر المحيط ينصبُّ إليها نهرٌ عظيم، ويمرُّ في البحر- عَبَرَ النهر، وضُربت له خيمة، وجعلتْ جيوشه تعبر قبيلةً قبيلة، فخرَّ ساجداً، ثم رفع وقد بلَّ الدمع لحيته، فقال: أعرف ثلاثة وردوا هذه المدينة، لا شيء لهم إلا رغيفٌ واحد، فراموا عُبور هذا النهر، فبذلوا الرغيف لصاحب القارب على أن يُعَدِّي بهم، فقال: لا آخذُه إلا عن اثنين، فقال أحدهم وكان شاباً: تأخذ ثيابي وأنا أسبح، ففعل فكان الشابُّ كلما أعيا، دنا من القارب، ووضع يده عليه يستريح، فيضربه بالمِجذاف، فما عدَّى إلا بعد جُهد. فما شكَّ السامعون أنه هو السابح، والآخران ابنُ تومرت، وعبدالواحد الشرقي.

قال: ثم نزل عبد المؤمن مراكش، وأقبل على البناء والغِراس وترتيب مُلكه، وبسط العدل، وبقي ابنُه عبدالله ببجاية يشنُّ الغارات على نواحي إفريقية، وضايق تونس، ثم حاصرها مدةً، وأفسد مياهها، وقطع أشجارها، وبها ابن خراسان نائب صاحب صقلية لوجار بن الدوقة الرومي، فطال على ابن خراسان الحصار، فبرز، والتقى الموحِّدين، فهزمهم، وقتل خلقاً منهم، فبعث عبدالله يستمدُّ أباه، فتهيَّأ في سنة ٥٥٣ لتونس، وأقبل في جيوشه حتى نازلَها، فأخذها عَنوةً، وانتقل إلى المهدية وهي للنصارى لكن رعيَّتها مسلمون، فطال الحصار لحصانتها، يقال: عَرْضُ سورِها ممر ستة أفراس، وأكثرها في البحر، فكانت النجداتُ تأتيها من صقلية.

قال ابن الأثير: نازل عبدالمؤمن المهدية، فبرز شجعان الفرنج، فنالوا من عسكره، فأمر ببناء سورٍ عليهم، وصابرها، وأخذ سَفاقِس وطرابلس وقابِس،

وجرت أمورٌ وحروب يطولُ شرحُها، وجهَّز من افتتح تَوْزَرَ وبلاد الجَريد، وطرد عنها الفرنج، وطهَّر إفريقية من الكفر، وتكمَّل له ملك المغرب من طرابلس إلى السوس الأقصى وأكثر مملكة الأندلس، ولو قصد مصر لأخذَها، ولما صَعُبت عليه.

وقيل: إنه مرَّ بقريته ليصل بها ذوي رحمه، ويزور قبرَ أمِّه، فلما أطلَّ عليها وجيوشه قد ملأت الفضاء، والرايات والبنود على رأسه، وضرب نحو من مئتي طبل، وطبولُهم كبارٌ جداً تُزعج الأرض، فقالت عجوزٌ منهم: وهكذا يعود الغريب إلى بلده؟! وصاحت بذلك.

ولما دخلت سنة ثمانٍ وخمسين وخمس مئة أمر الجيش بالجهاز لجهاد الروم، واستنفر الناس عاماً، ثم سار حتى نزل بسَلا، فمرض، وجاءه الأجل بها في السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وارتجَّت المغرب لموته، وكان قد جعل وليَّ عهده ابنَه محمداً، وكان لا يصلح لطيشه وجُذامٍ به ولشُرْبه الخمر، فتملَّك أياماً، وخلعوه، واتفقوا على تولية أخيه يوسف بن عبد المؤمن، فبقي في الملك اثنتين وعشرين سنة. وخلَّف عبد المؤمن ستة عشر ولداً ذكراً.

قال صاحب كتاب «الجمع»: وقفت على كتابٍ كتبَهُ عن عبدالمؤمن بعض كُتّابه: من الخليفة المعصوم الرضيِّ الزكيِّ، الذي بشَّر به النبي العربي، القامعُ لكل مُجَسِّم غَوِيّ، الناصر لدين الله العلي، أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي.

نور الدين(١)

صاحب الشام، الملك العادل، نور الدين، ناصر أمير المؤمنين، تقيُّ الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم، محمود بن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد زنكي بن الأمير الكبير آقسُنْقُر، التركي السلطاني الملكشاهيُّ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣١.

مولده في شوال سنة إحدى عشرة وخمس مئة.

ولي جدُّه نيابة حلب للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي.

ونشأ قسيمُ الدولة بالعراق، وندبه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بإشارة المسترشد لإمْرة الموصل وديار بكر والبلاد الشامية، وظهرت شهامتُه وهيبتُه وشجاعتُه، ونازل دمشق، واتسعت ممالكُه، فقُتل على حصار جَعْبَر سنة إحدى وأربعين وخمس مئة، فتملَّك ابنه نور الدين هذا حلب، وابنه الآخر[1] الموصل.

وكان نور الدين حامل رايتي العدل والجهاد، قلَّ أن ترى العيون مثلَهُ، حاصر دمشق، ثم تملَّكها، وبقي بها عشرين سنة.

افتتح أولاً حصوناً كثيرة، وفامية، والراوندان، وقلعة إلبيرة، وعزاز، وتل باشر، ومرعش، وعين تاب، وهزم البرنسَ صاحب أنطاكية، وقتله في ثلاثة آلاف من الفرنج، وأظهر السُّنَّة بحلب وقمع الرافضة.

وبنى المدارس بحلب وحمص ودمشق وبعلبك والجوامع والمساجد، وسُلِّمت إليه دمشق للغلاء والخوف، فحصَّنها، ووسَّع أسواقها، وأنشأ المارستان ودار الحديث والمدارس ومساجد عدة، وأبطل المكوس من دار بطيخ وسوق الغنم والكيالة وضمان النهر والخمر، ثم أخذ من العدو بانياس والمُنَيطِرة[2]، وكسر الفرنج مراتٍ، ودوَّخهم، وأذلَّهم.

وكان بطلاً شجاعاً، وافر الهيبة، حسنَ الرمي، مليح الشكل، ذا تعبُّدٍ وخوفٍ وورعٍ، وكان يتعرض للشهادة، سمعه كاتبُه أبو اليسر يسأل الله أن يحشُره من بطون السباعِ وحواصِلِ الطير.

---

(١) غازي.

(٢) وهو حصن بالشام قريب من طرابلس. «معجم البلدان» ٥/ ٢١٧.

وبنى دار العدل، وأنصفَ الرعيَّة، ووقف على الضُّعفاء والأيتام والمجاورين، وأمر بتكميل سور المدينة النبوية، واستخراج العين بأُحُد دَفَنَها السيلُ، وفتح دَرْبَ الحجاز، وعمَّر الخَوانِقَ والرُّبُط والجسور والخانات بدمشق وغيرها. وكذا فعل إذ ملك حَرَّان وسِنْجار والرُّها والرَّقَّة ومَنْبج وشَيْزَر وحمص وحماة وصَرْخد وبعلبك وتدمر. ووقف كتباً كثيرة مثمنة، وكسر الفرنج والأرمن على حارِم وكانوا ثلاثين ألفاً، فقلَّ مَنْ نجا، وعلى بانياس.

وكانت الفرنج قد استضرَّتْ على دمشق، وجعلوا عليها قطيعةً، وأتاه أمير الجيوش شاور مستجيراً به، فأكرمه، وبعث معه جيشاً ليُردَّ إلى منصبه، فانتصر، لكنه تخابثَ وتلاءم، ثم استنجد بالفرنج، ثم جهز نور الدين رحمه الله جيشاً لَجِباً مع نائبه أسد شيركوه، فافتتح مصر، وقهر دولتَها الرافضية، وهربت منه الفرنج، وقُتل شاور، وصَفَت الديار المصرية لشيركوه نائب نور الدين، ثم لصلاح الدين، فأباد العُبيدين واستأصلهم، وأقام الدعوة العباسية.

وكان نور الدين مليحَ الخطِّ، كثير المطالعة، يصلي في جماعة، ويصوم، ويتلو ويسبِّح، ويتحرى في القوت، ويتجنب الكِبر، ويتشبَّهُ بالعلماء والأخيار، ذكر هذا ونحوه الحافظ ابنُ عساكر، ثم قال: روى الحديث، وأسمعه بالإجازة، وكان من رآه شاهد من جَلال السلطنة وهيبة المُلْكِ ما يَبْهَرُهُ، فإذا فاوضه، رأى من لطافته وتواضعه ما يُحيِّره. حكى من صحبه حَضَراً وسفراً أنه ما سمع منه كلمة فُحشٍ في رضاه ولا في ضجره، وكان يواخي الصالحين، ويزورهم، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوَّجهم بجواريه، ومتى تشكّوا من وُلاته عزلَهم، وغالب ما تملَّكه من البلدان تسلَّمه بالأمان، وكان كلما أخذ مدينةً، أسقط عن رعيَّته قسطاً.

وقال أبو الفرج بن الجوزي: جاهد، وانتزع من الكفار نيِّفاً وخمسين مدينةً وحِصناً، وبنى بالموصل جامعاً غرِمَ عليه سبعين ألف دينار، وترك المكوس قبل موته، وبعث جنوداً فتحوا مصر، وكان يميل إلى التواضع وحب العلماء والصلحاء،

وكاتبني مراراً، وعزم على فتح بيت المقدس، فتوفي في شوال سنة تسعٍ وستين وخمس مئة.

وقال الموفق عبداللطيف: كان نور الدين لم ينشَفْ له لِبدٌ من الجهاد، وكان يأكل من عمل يده، ينسخُ تارة، ويعمل أغلافاً فتارة، ويلبسُ الصوف، ويُلازم السجادة والمصحف، وكان حنفياً يراعي مذهب الشافعي ومالك، وكان ابنه الصالح إسماعيل أحسن أهل زمانه.

وقال ابن خلِّكان: ضُرِبَت السكة والخطبة لنور الدين بمصر، وكان زاهداً عابداً، متمسكاً بالشرع، مجاهداً، كثير البِرِّ والأوقاف، له من المناقب ما يستغرق الوصف، توفي في حادي عشر شوال بقلعة دمشق بالخوانيق، وأشاروا عليه بالفَصْدِ، فامتنع، وكان مَهيباً فما رُوجِعَ، وكان أسمرَ طويلاً، حسن الصورة، ليس بوجهه شعرٌ سوى حنكِه، وعهِدَ بالمُلك إلى ابنه وهو ابن إحدى عشرة سنة.

وقال ابن الأثير: كان أسمر، له لحيةٌ في حنكِه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حُلْوَ العينين، طالعتُ السِّيَر، فلم أرَ فيها بَعْدَ الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن من سيرتهِ، ولا أكثر تحرياً منه للعدل، كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا من مُلك له قد اشتراه من سهمِهِ من الغنيمة، لقد طلبتْ زوجتُه منه، فأعطاها ثلاثةَ دكاكين، فاستقلَّتْها، فقال: ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازنٌ للمسلمين، وكان يتهجد كثيراً، وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة، لم يترك في بلاده على سَعَتِها مَكْساً، وسمعتُ أن حاصل أوقافه في البر في كل شهر تسعةُ آلاف دينار صورية.

قال له القطب النيسابوري: بالله لا تخاطر بنفسك، فإن أُصبتَ في معركةٍ لا يبقى للمسلمين أحدٌ إلا أخذه السيف، فقال: ومن محمود حتى يقال هذا؟! حفظ الله البلاد قبلي لا إله إلا هو.

قلت: كان دَيِّناً تقياً، لا يرى بذل الأموال إلا في نفعٍ، وما للشعراء عنده نَفَاقٌ، وفيه يقول أسامة بن منقذ:

سلطانُنا زاهدٌ والناسُ قد زَهِدوا ... له فكُلٌّ على الخيرات مُنْكَمِشُ

أيامه مثلُ شهرِ الصَّومِ طاهِرةٌ ... من المعاصي وفيها الجوعُ والعَطَشُ

قال مجدُ الدين ابنُ الأثير في نقل سبط الجوزي عنه: لم يلبس نور الدين حريراً ولا ذهباً، ومنع من بيع الخمر في بلاده -قلتُ: قد لبس خِلعةَ الخليفة والطوق الذهب- قال: وكان كثير الصوم، وله أورادٌ في الليل والنهار، ويُكثِرُ اللعب بالكرة، فأنكر عليه فقيرٌ، فكتب إليه، والله ما أقصد اللعب، وإنما نحن في ثَغْرٍ، فربما وقع الصوت، فتكون الخيل قد أدْمَنت على الانعطاف والكرِّ والفر. وأُهديت له عِمامةٌ من مصر مُذهَّبةٌ، فأعطاها لابن حَمُّويه شيخ الصوفية، فبيعت بألف دينار.

قال: وجاءه رجلٌ طلبه إلى الشَّرع، فجاء معه إلى مجلس كمال الدين الشهرزوري، وتقدمه الحاجب يقول للقاضي: قد قال لكَ: اسْلُكْ معه ما تَسْلُكُ مع آحاد الناس. فلما حضر سوَّى بينه وبين خَصْمِه، وتحاكما، فلم يثبت للرجل عليه حق، وكان مِلْكاً، ثم قال السلطان: فاشهدوا أني قد وهبتُه له.

وكان يقعُدُ في دار العدل في الجمعة أربعة أيام، ويأمر بإزالة الحاجب والبوابين، وإذا حضرت الحرب، شدَّ قوسين وتَرْكاشين، وكان لا يَكِلُ الجُندَ إلى الأُمراء، بل يباشر عدَدهم وخيولهم، وأسر إفرنجياً، فافتكَّ نفسه منه بثلاث مئة ألف دينار، فعند وصوله إلى مأمنه مات، فبنى بالمال المارستان والمدرسة.

قال العماد في «البرق الشامي»: أكثر نور الدين عام موته من البر والأوقاف وعمارة المساجد، وأسقط ما فيه حرام، فما أبقى سوى الجِزية والخراج والعُشْر، وكتب بذلك إلى جميع البلاد، فكتبتُ له أكثر من ألف منشور.

قال: وكان له بِرَسْمِ نفقةٍ خاصة في الشهر من الجزية ما يبلغ ألفي قرطاس يصرفها في كسوته ومأكوله وأجرة طبَّاخه وخيَّاطه كل ستين قرطاساً بدينار.

قال سبط الجوزي: كان له عجائز، فكان يَخيط الكوافي، ويعمل السكاكر[1]، فيبِعْنها له سرّاً، ويُفطِرُ على ثمنها.

قال ابن واصل: كان من أقوى الناس قلباً وبَدَناً، لم يُر على ظهر فرسٍ أحدٌ أشدَّ منه، كأنما خُلق عليه لا يتحرك، وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة، يجري الفرس ويخطِفها من الهواء، ويرميها بيده إلى آخر الميدان، ويُمسِك الجُوكان[2] بكُمِّه تهاوناً بأمره، وكان يقول: طالما تعرضْتُ للشهادة، فلم أُدْرِكْها.

قلتُ: قد أدركها على فراشِه، وعلى ألسنة الناس: نور الدين الشهيد، والذي أسقط من المكوس في بلاده ذكرته في «تاريخنا الكبير» مُفَصَّلاً، ومبلغه في العام خمس مئة ألف دينار، وستةٌ وثمانون ألف دينار، أربعةٌ وسبعون ديناراً من نَقْد الشام، منها على الرحبة ستة عشر ألف دينار، وعلى دمشق خمسون ألف وسبع مئة ونيف، وعلى الموصل ثمانية وثلاثون ألف دينار، وعلى جَعْبَر سبعةُ آلاف دينار ونيف وفي الكتاب: فأيقنوا أنَّ ذلك إنعامٌ مستمرٌّ على الدهور، باقٍ إلى يوم النشور، فـ ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ:١٥]، ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ [البقرة:١٨١]. وكتب في رجب سنة سبعٍ وستين وخمس مئة.

[رؤيا]

قال سبط الجوزي: حكى لي نجم الدين بن سلام عن والده أنَّ الفرنج لما نزلتْ على دمياط، ما زال نور الدين عشرين يوماً يصوم، ولا يُفطِرُ إلا على الماء،

---

(١) في كتب اللغة: السكر: ما يسد به النهر ونحوه والمسناة، وكل ما يسد من شق أو بثق والجمع سكور، وقد يكون المراد المزلاج الذي يوضع خلف الباب لإغلاقه، ولا زال أهل الشام إلى يومنا هذا يستعملون كلمة السِّكر للمزلاج وفي مرآة الزمان: ويعمل الكساكير للأبواب.

(٢) الجوكان: كلمة فارسية، وهي عصا لعبة الكولف، وكل عصا معكوفة، وتعريبها: الصولج والصولجانة. انظر «معجم الألفاظ الفارسية المعربة» ١٠٩.

فضعُف وكاد يتْلَفُ، وكان مَهيباً، ما يجسُرُ أحدٌ يخاطبه في ذلك، فقال إمامُه يحيى: إنه رأى النبي ﷺ في النوم يقول: يا يحيى، بشِّر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط. فقلتُ: يا رسول الله، ربما لا يُصدِّقني. فقال: قل له: بعلامة يوم حارِم. وانتبه يحيى، فلما صلى نور الدين الصبح، وشرع يدعو، هابه يحيى، فقال له: يا يحيى، تحدثني أو أحدثك؟ فارتعد يحيى، وخرس، فقال: أنا أُحدِّثك، رأيتَ النبي ﷺ هذه الليلة، وقال لك كذا وكذا. قال: نعم، فبالله يا مولانا، ما معنى قوله: بعلامة يوم حارِم؟ فقال: لما التقينا العَدُوَّ، خِفْتُ على الإسلام، فانفردتُ، ونزلتُ، ومَرَّغتُ وجهي على التراب، وقلت: يا سيدي مَنْ محمودٌ في البين، الدين دينُك، والجُنْدُ جندُك، وهذا اليوم افْعَلْ ما يَليق بكَرَمِك. قال: فنصرنا الله عليهم.

وحكى لي تاج الدين قال: ما تبسَّم نور الدين إلا نادراً، حكى لي جماعةٌ من المحدثين أنهم قرؤوا عليه حديث التبسُّم، فقالوا له: تبسَّم، قال: لا أتبسَّم من غير عجب.

قلتُ: الخبر ليس بصحيح، ولكن التبسُّم مستحبٌّ، قال النبي ﷺ: «تَبَسُّمُكَ في وجه أخيك صدقة»، وقال جرير بن عبدالله: ما حَجَبني رسول الله ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا تبسَّم.

وقبرُ نور الدين بتربته عند باب الخوّاصين يُزار[1].

وتملَّك بعده ابنه الملك الصالح أشهراً، وسلَّم دمشق إلى السلطان صلاح الدين، وتحول إلى حلب، فدام صاحبها تسع سنين، ومات بالقولنج وله عشرون سنةً، وكان شابا دَيِّناً رحمه الله.

---

(١) وقد بُني بجوار القبر مسجد باسمه، ويقع اليوم في سوق الخياطين بدمشق.

أبو موسى المَدِيْنِيّ(١)

الإمام العلاّمة، الحافظ الكبير، الثقة، شيخ المحدِّثين، أبو موسى محمد بن أبي بكر عمر بن أبي عيسى أحمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن أبي عيسى المَدِيْنِيُّ الأصبهاني الشافعي صاحب التصانيف.

مولده في ذي القعدة سنة إحدى وخمس مئة.

ومولد أبيه المقرئ أبي بكر في سنة خمسٍ وستين وأربع مئة.

حرص عليه أبوه، وسمَّعه حضوراً، ثم سماعاً كثيراً من أصحاب أبي نُعَيْمٍ الحافظ، وطبقتهم.

وعمل أبو موسى لنفسه معجماً روى فيه عن أكثر من ثلاث مئة شيخٍ.

روى عن: أبي سعدٍ محمد بن محمد بن محمد المُطَرِّز حضوراً وإجازة، وعن أبي نهشلٍ عبدالصمد بن أحمد العنبري، ومحمود بن إسماعيل الصيرفي الأشقر، والهيثم ابن محمد بن الهيثم الأشعري، وعن كثير غيرهم، وروى أيضاً عن خجستة بنت علي ابن أبي ذرٍّ الصالحانية، وأم الليث دَعْجاء بنت أبي سهلٍ الفضل بن محمد، وفاطمة بنت عبدالله الجُوْزْدانية.

وارتحل، فسمع من أبي القاسم بن الحُصَيْن، وهبة الله بن أحمد بن الطَّبَر، وقاضي المارستان أبي بكرٍ، وأبي الحسن ابن الزاغوني، وأبي العز بن كادِشٍ، وخلقٍ سواهم.

وصنَّف كتاب «الطوالات» في مجلدين، يُخْضَعُ له في جَمْعِهِ، وكتاب «ذيل معرفة الصحابة» جمع فأوْعَى، وألَّف كتاب «القُنوت» في مجلد، وكتاب «تتمة الغريبين» يدلُّ على براعته في اللغة، وكتاب «اللطائف في رواية الكبار ونحوهم عن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٥٢.

الصغار»، وكتاب «عوالي» يُنْبِئ بتقدُّمه في معرفة العالي والنّازل، وكتاب «تضييع العمر في اصطناع المعروف إلى اللئام» وأشياء كثيرة.

وحَفِظ «علوم الحديث» للحاكم، وعَرَضَه على إسماعيل التيمي.

ولو سَلِمَتْ أصبهان من سيف التتار في سنة اثنتين وثلاثين وست مئة، لعاش أصحابُ أبي موسى إلى حدود نيفٍ وستين وست مئةٍ.

قال ابن الدُّبَيْثِيِّ: عاش أبو موسى حتى صار أوْحَدَ وقته، وشيخ زمانه إسناداً وحفظاً.

وقال أبو سعد السَّمْعاني: سمعتُ من أبي موسى، وكتب عني، وهو ثقةٌ صدوق.

وقال عبدالقادر الحافظ [الرهاويّ]: حصل أبو موسى من المسموعات بأصبهان ما لم يحصل لأحدٍ في زمانه، وانضمَّ إلى ذلك الحفظ والإتقان، وله التصانيف التي أربَى فيها على المتقدمين، مع الثقة، والعفة، كان له شيءٌ يسيرٌ يتربَّح به، ويُنْفِقُ منه، ولا يقبل من أحدٍ شيئاً قط، أوصى إليه غير واحدٍ بمال، فيردُّه، فكان يقال له: فَرِّقْهُ على مَنْ ترى، فيمتنعُ، وكان فيه من التواضع بحيث إنه يُقرئ الصغير والكبير، ويُرشِدُ المبتدئ، رأيته يُحفِّظ الصِّبيان القرآن في الألواح، وكان يمنع من يمشي معه، فعلتُ ذلك مرةً، فزجرني، وترددتُ إليه نحواً من سنةٍ ونصف، فما رأيت منه، ولا سمعتُ عنه سقطةً تُعابُ عليه.

وكان أبو مسعود كُوتاه يقول: أبو موسى كنزٌ مَخْفِيٌّ.

[رؤيا]

قال الحسين بن يَوْحن الباوَرّي: كنتُ في مدينة الخان، فسألني سائلٌ عن رؤيا، فقال: رأيتُ كأنّ رسول الله ﷺ توفيَ، فقال: إنْ صدقت رؤياك، يموتُ إمامٌ

لا نظير له في زمانه؛ فإنَّ مثل هذا المنام رُئِيَ حالَ وفاة الشافعي والثوري وأحمد بن حنبل، قال: فما أمسينا حتى جاءنا الخبرُ بوفاة الحافظ أبي موسى المَدِيْنِيِّ.

وعن عبدالله بن محمد الخُجَنْدِيِّ، قال: لما مات أبو موسى، لم يكادوا أنْ يفرغوا منه، حتى جاء مطرٌ عظيم في الحر الشديد، وكان الماء قليلاً بأصبهان، فما انفصل أحدٌ عن المكان مع كثرة الخلق إلا قليلاً، وكان قد ذكر في آخر إملاءٍ أملاه: أنه متى مات من له منزلةٌ عند الله، فإنَّ الله يبعثُ سحاباً يوم موته علامةً للمغفرة له، ولمن صَلَّى عليه.

[المفاضلة بين العلماء]

سمعتُ شخينا العلاَّمة أبا العباس بن عبدالحليم -يعني ابن تيمية الحراني المتوفى مسجوناً سنة ٧٢٨هـ- يُثني على حفظ أبي موسى ويقدِّمه على الحافظ ابن عساكر باعتبار تصانيفه ونفعها.

وقال محمد بن محمود الرُوَيْدَشْتِيُّ: توفي أبو موسى في تاسع جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وخمس مئةٍ.

قلت: كان حافظ المشرق في زمانه.

ابن ناصر(١)

الإمام المحدث الحافظ، مفيد العراق، أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي بن عمر السَّلاَميُّ البغدادي.

مولده في سنة سبع وستين وأربع مئة.

ورُبِّي يتيماً في كفالة جده لأمِّه الفقيه أبي حكيم الخَبْري.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٦٥.

[أخذ المال على إقراء الشعر]

قال ابن النجار: سمعتُ ابن سُكَينة يقول: قلتُ لابن ناصر: أريد أن أقرأ عليكَ «ديوان المتنبي»، و«شرحَه» لأبي زكريا التبريزي. فقال: إنك دائماً تقرأُ عليَّ الحديث مجاناً، وهذا شعرٌ، ونحن نحتاجُ إلى نَفَقَة. قال: فأعطاني أبي خمسة دنانير، فدفعتُها إليها، وقرأتُ الكتاب.

وقال أبو طاهر السِّلَفي: سمع ابنُ ناصر معنا كثيراً، وهو شافعي أشعريٌّ، ثم انتقل إلى مذهب أحمد في الأصول والفروع، ومات عليه، وله جودةُ حفظٍ وإتقانٍ، وحُسنُ معرفةٍ، وهو ثَبْتٌ إمام.

وقال أبو موسى المَديني: هو مقدم أصحاب الحديث في وقته ببغداد.

أنبؤونا عن ابن النجار قال: قرأتُ بخط ابن ناصر وأخبرنيه عنه سماعاً يحيى ابن الحسين قال: بقيتُ سنين لا أدخل مسجد أبي منصور الخيّاط، واشتغلتُ بالأدب على التبريزي، فجئتُ يوماً لأقرأ الحديث على الخياط، فقال: يا بُني، تركتَ قراءة القرآن، واشتغلتَ بغيره؟! عُدْ. واقرأ عليَّ ليكون لك إسنادٌ، فعدتُ إليه في سنة اثنتين وتسعين، وكنتُ أقول كثيراً اللهمَّ بيِّن لي أيُّ المذاهب خيرٌ. وكنتُ مراراً قد مضيتُ إلى القيرواني المتكلِّم في كتاب «التمهيد» للباقلاني، كأنَّ من يردُّني عن ذلك.

[رؤيا]

قال: فرأيتُ في المنام كأني قد دخلتُ المسجد إلى الشيخ أبي منصور، وبجنبه رجلٌ عليه ثيابٌ بيضٌ ورداء على عمامته يُشبه الثياب الريفية، دُرِّيُّ اللون، عليه نورٌ وبهاء، فسلَّمتُ، وجلستُ بين أيديهما، ووقع في نفسي للرجل هيبةٌ وأنه رسول الله ﷺ، فلما جلستُ التفتَ إليّ، فقال لي: عليكَ بمذهب هذا الشيخ، عليكَ بمذهب هذا الشيخ. ثلاث مرات، فانتبهتُ مرعوباً، وجسمي يرجفُ، فقصصتُ ذلك على والدتي، وبكرتُ إلى الشيخ لأقرأ عليه، فقصصتُ عليه الرؤيا، فقال: يا ولدي، ما مذهبُ

الشافعي إلا حسنٌ، ولا أقول لك: اتركه، ولكن لا تعتقد اعتقادَ الأشعري. فقلتُ: ما أريد أن أكون نصفين، وأنا أُشهِدك وأُشهد الجماعة أنني منذ اليوم على مذهب أحمد بن حنبل في الأصول والفروع. فقال لي: وفقكَ الله. ثم أخذتُ في سماع كتب أحمد ومسائله والتفقُّه على مذهبه، وذلك في رمضان سنة ثلاث وتسعين وأربع مئة.

قال ابن الجوزي وغيره، توفي ابنُ ناصر في ثامن عشر شعبان سنة خمسين وخمس مئة.

[رؤيا]

ثم قال ابن الجوزي: حدثني الفقيه أبو بكر بنُ الحُصري، قال: رأيتُ ابنَ ناصر في النوم، فقلتُ له: ما فعل اللهُ بك؟ قال: غفر لي، وقال لي: قد غفرتُ لعشرةٍ من أصحاب الحديث في زمانك لأنك رئيسُهم وسيِّدهم.

ابن مَحْمُويه[1]

الإمام العلاّمة الفقيه المقرئ، أبو الحسن، عليُّ بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن محمويه، اليَزْديُّ الشافعي، نزيل بغداد.

مولده بيَزْد في سنة ثلاثٍ وسبعين وأربع مئة، أو أربع.

وكان يسكن بقَراح ظَفَر[2]، وصنّف كتباً نافعة في الفقه والحديث والزهد، وحدَّث بها وبـ «سُنَن» النسائي.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٣٤.

(٢) قال ياقوت: المراد بالقراح ههنا اصطلاح بغدادي، فإنهم يسمون البستان قراحاً، وفي بغداد عدة محال عامرة آهلة، يقال لكل واحدة منها: قراح، إلا أنها تضاف إلى رجل تُعرف باسمه،... ثم ذكر ياقوت هذه المحال، ومنها قراح ظفر هذا. انظر «معجم البلدان» ٤/ ٣١٥.

قال ابن النجار: كان من أعيان الفقهاء، ومشهوري الزُّهاد والعُبَّاد وأهل الورع والاجتهاد، روى لنا عنه أبو أحمد بنُ سُكينة، ابنُ الأخضر.

وقال السمعاني: نزل بغداد، فقيهٌ فاضل زاهد، حسنُ السيرة، جميل الطريقة، عزيز النفس، سخيُّ الطبع بما يملكُه، قانعٌ بما هو فيه، كثير الصوم والعبادة، صنَّف تصانيف في الفقه، وأورد فيه أحاديث مُسندةً عن شيوخه، سمعتُ منه، وسمع مني، وكان دائمَ البشر، متواضعاً، كثير المحفوظ، وكان له عِمامةٌ وقميص بينَه وبين أخيه، إذا خرج ذاك قعد هذا في البيت، ودخلتُ عليه مع الواعظ الغَزْنويِّ، فوجدناه عُرياناً مُتَّزراً، فاعتذر، وقال: نحن كما قال أبو الطيب الطبري:

قَــومٌ إذا غَسَــلُوا ثِيَــابَ جَمَــالِهِمْ   لَبِسُــوا البُيُــوتَ إلى فَــرَاغِ الغَاسِــلِ

[رؤيا]

قال ابنُ النجار: سمعتُ حمزة بن علي الحرّاني يقول: كان شيخُنا عليٌّ اليزديُّ يقول لنا: إذا مُتُّ فلا تَدْفِنوني إلا بعد ثلاث، فإني أخافُ أن يكون بي سكتةٌ. قال: وكان جَثِيثاً صاحبَ بلغم، وكان يصوم شهر رجب فقَبْلَ أيام منه قال لنا: قد رجعتُ عن قولي، فإذا مُتُّ فادفِنوني في الحال، فإني رأيتُ النبي ﷺ في النوم يقول: يا عليُّ، صُم رجباً عندنا. قال: فماتَ ليلةَ رجب.

قال ابن شافع: مات تاسع وعشرين، سنة إحدى وخمسين وخمس مئة.

ابن هُبيرة[1]

الوزير الكامل، الإمام العالمُ العادل، عون الدين، يمين الخلافة، أبو المُظَفَّر يحيى بن محمد بن هُبيرة بن سعيد بن الحسن بن جَهْم، الشيباني الدُّورِيُّ العراقي الحنبلي، صاحب التصانيف.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٢٦.

مولدُه بقرية أوْقر من الدُّور أحد أعمال العراق في سنة تسع وتسعين وأربع مئة.

ودخل بغداد في صِباه، وطلب العلم، جالس الفقهاء، وتفقَّه بأبي الحسين بن القاضي أبي يعلى والأدباء، وسَمِعَ الحديث، وتلا بالسَّبْع، وشارك في علوم الإسلام، ومَهَرَ في اللغة، وكان يعرف المذهب والعربية والعَروض، سَلَفياً أثرياً، ثم إنه أمضَّه الفقرُ، فتعرَّض للكتابة، وتقدَّم، وترقَّى، وصار مشارف الخِزانة، ثم ولي ديوان الزِّمام للمقتفي لأمر الله، ثم وزر له في سنة ٥٤٤، واستمر ووزر من بعده لابنه المُستنجد.

وكان ديِّناً خيِّراً مُتعبِّداً عاقلاً وقوراً متواضعاً، جزل الرأي، باراً بالعلماء، مُكِبّاً مع أعباء الوزارة على العلم وتدوينه، كبير الشأن، حسنةَ الزمان.

سمع أبا عثمان بن ملَّة، وهبة الله بنَ الحُصَين، وخلقاً بعدهما.

وسمع الكثير في دولته، واستحضر المشايخ، وبجَّلَهم، وبذل لهم.

قال ابن الجوزي: كان يجتهدُ في اتباع الصواب، ويحذر من الظُّلم ولا يلبسُ الحرير، قال لي: لما رجعتُ من الحِلَّة، دخلتُ على المقتفي، فقال لي: ادخُل هذا البيت، وغيِّر ثيابَك، فدخلتُ، فإذا خادِمٌ وفرّاشٌ معهم خِلَعُ الحرير، فقلتُ: والله ما ألبَسُها. فخرج الخادمُ، فأخبرَ الخليفة، فسمعتُ صوتَه يقول: قد والله قلتُ: إنه ما يلبَسُه. وكان المقتفي مُعجَباً به، ولما استُخلف المستنجد، دخل ابنُ هُبَيرة عليه، فقال: يكفي في إخلاصي أني ما حابيتُك في زمن أبيك، فقال: صدقتَ.

قال: وقال مرجان الخادم: سمعتُ المستنجد بالله ينشِدُ وزيرَه وقد قام بين يديه في أثناء مفاوضةٍ ترجعُ إلى تقرير قواعد الدين والصلاح، وأنشدهُ لنفسه:

ضَفَتْ نِعمتانِ خصَّتاكَ وعَمَّتا ... فَذِكْرُهُما حَتَّى القِيامَةِ يُذْكَرُ
وُجُودُكَ والدُّنيا إليْكَ فَقِيرَةٌ ... وجُودُكَ والمَعْرُوفُ في النَّاسِ يُنكَرُ
فَلَوْ رَامَ يا يحيى مَكانَكَ جَعْفَرٌ ... ويحيى لكَفَّا عَنْهُ يحيى وجَعْفَرُ
ولم أرَ مَنْ يَنْوي لكَ السُّوءِ يا أبا الـ ... ـمُظَفَّر إلا كُنْتَ أنْتَ المُظَفَّرُ

قال ابن الجوزي: وكان مبالغاً في تحصيل التعظيم للدولة، قامِعاً للمخالفين بأنواع الحِيَل، حسمَ أمور السلاطين السَّلجوقية، وقد كان آذاهُ شحنةٌ في صِباه، فلما وزر، استحضرهُ وأكرمهُ، وكان يتحدَّثُ بنعم الله ويذكر في منصبه شدةَ فقرِهِ القديم، وقال: نزلتُ يوماً إلى دجلة وليس معي رغيفٌ أعبُر به. وكان يُكْثِرُ مجالسةَ العلماء والفقراء، ويبذُلُ لهم الأموال، فكانت السَّنَةُ تدور وعليه ديونٌ، وقال: ما وجبتْ عليَّ زكاةٌ قطُّ. وكان إذا استفاد شيئاً من العلم، قال: أفادنيه فُلان. وقد أفدتُه معنى حديث، فكان يقول: أفادنيهِ ابنُ الجَوزي، فكنتُ أستحيي، وجعلَ لي مجلساً في داره كُلَّ جمعة، ويأذَنُ للعامة في الحضور، وكان بعض الفقراء يقرأُ عندهُ كثيراً، فأعجبه، وقال لزوجته: أريد أن أزوّجه بابنتي، فغضبت الأمُّ. وكان يُقرأ عنده الحديث كل يومٍ بعد العصر، فحضر فقيهٌ مالكي، فذُكِرَتْ مسألةٌ، فخالَفَ فيها الجمعَ، وأصرَّ، فقال الوزير: أحمارٌ أنتَ! أما ترى الكُلَّ يخالفونك؟! فلما كان من الغد، قال للجماعة: إنه جرى مني بالأمس في حقِّ هذا الرجل ما لا يليقُ، فليقُلْ لي كما قلتُ له، فما أنا إلا كأحدكم، فضجَّ المجلسُ بالبكاء، واعتذرَ الفقيه، قال: أنا أولى بالاعتذار، وجعل يقول: القِصاص القِصاص، فلم يزل حتى قال يوسف الدمشقي: إذْ أبى القصاص فالفداء، فقال الوزير: له حُكْمُهُ. فقال الفقيه: نِعمُكَ علي كثيرةٌ، فأيُّ حكمٍ بقي لي؟ قال: لا بد. قال: عليَّ دينٌ مئة دينار. فأعطاهُ مئتي دينار، وقال: مئةٌ لإبراء ذمَّته، ومئةٌ لإبراء ذمَّتي.

وما أحلى شِعْرَ الحَيْص بَيص فيه حيث يقولُ:

يَهُزُّ حَدِيثُ الجُودِ ساكِنَ عِطْفِهِ ... كما هَزَّ شَرْبَ الحَيِّ صَهْباءُ قَرْقَفُ

إذا قيل عَونُ الدين يحيى تألَّق الـ ... ـغمامُ وماسَ السَّمهريُّ المُثَقَّفُ

قال ابن الجوزي: كان الوزير يتأسَّفُ على ما مضى، ويندَمُ على ما دخل فيه، ولقد قال لي: كان عندنا بالقرية مسجدٌ فيه نخلةٌ تحملُ ألفَ رطل، فحدثتُ نفسي أن أُقيم في ذلك المسجد، وقلتُ لأخي مجد الدين: أقعُدُ أنا وأنت، وحاصِلُها يكفينا،

ثم انظُرُ إلى ما صِرتُ. ثم صار يسألُ اللهَ الشهادةَ، ويتعرَضُ لأسبابِها، وفي ليلة ثالث عشر جمادى الأولى سنة ستين وخمس مئة استيقظ وقت السَّحَر، فقاءَ، فحضر طبيبُه ابنُ رشادة، فسقاهُ شيئاً، فيقال: إنه سَمَّه، فمات، وسُقي الطبيب بعده بنصف سنة سُمّاً، فكان يقول: سَقَيْتُ فسُقِيت، فماتَ.

[رؤيا]

ورأيتُ أنا وقتَ الفجر كأني في دار الوزير وهو جالسٌ، فدخل رجلٌ بيده حربةٌ، فضربه بها، فخرج الدمُ كالفَوَّارة، فالتفتُّ فإذا خاتم ذهب، فأخذتُه، وقلتُ: لمن أُعطيه؟ أنتظرُ خادماً يخرُجُ فأُسَلِّمه إليه، فانتبهتُ، فأخبرتُ من كان معي، فما استتممت الحديثَ حتى جاء رجلٌ، فقال: مات الوزير، فقال رجلٌ: هذا مُحال، أنا فارقتُه في عافيةٍ أمس العصر، فنفَّذوا إليَّ، وقال لي ولدُهُ: لا بد أن تُغَسِّله، فغسَّلْتُهُ، ورفعتُ يده ليدخل الماء في مغابِنِه، فسقط الخاتمُ من يده حيث رأيتُ ذلك الخاتم، ورأيتُ آثاراً بجسده ووجه تدل على أنه مسمومٌ، وحُمِلَتْ جنازته إلى جامع القصر، وخرج معه جمعٌ لم نرهُ لمخلوقٍ قط، وكثر البكاء عليه لما كان يفعله من البر والعدل. ورثَتْهُ الشعراء.

قلت: له كتابُ «الإفصاح عن معاني الصحاح» شرح فيه «صحيحي» البخاري ومسلم في عشر مجلدات، وألَّف كتاب «العبادات» على مذهب أحمد، وله أُرجوزة في المقصور والممدود، وأخرى في علم الخط، واختصر كتاب «إصلاح المَنْطِق» لابن السِّكِّيت.

العماد[1]

القاضي الإمام، العلاّمة المفتي، المنشئ البليغ، الوزير، عماد الدين، أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبدالله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أُلُه الأصبهاني الكاتب، ويعرف بابن أخي العزيز.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٤٥.

وُلد سنة تسع عشرة وخمس مئة بأصبهان.

وقَدِمَ بغداد، فنزل بالنظامية، وبرع في الفقه على أبي منصور سعيد بن الرَّزاز. وأتقن العربية والخلاف، وساد في علم التَّرسُّل، وصنف التصانيف، واشتهر ذِكْرُهُ.

وأَلُهْ: فارسيٌّ معناه عُقاب، وهو بفتح أوَّل وضم ثانيه وسكون الهاء.

اتصل بابن هبيرة، ثم تحوَّل إلى دمشق سنة اثنتين وستين وخمس مئة، واتصل بالدولة، وخدمَ بالإنشاء الملكَ نورَ الدين. وكان يُنشئ بالفارسي أيضاً، فنفَّذَهُ نور الدين رسولاً إلى المستنجد، وولاه تدريس العمادية سنة سبعٍ وستين، ثم رتَّبه في إشراف الديوان. فلما توفي نور الدين، أُهْمِل، فقصد الموصل، ومرض، ثم عاد إلى حلب، وصلاح الدين محاصِرٌ لها سنة سبعين، فمدحه، ولزم ركابَه، فاستكتبه، وقرَّبَهُ، فكان القاضي الفاضل ينقطع بمصر لمهمَّاتٍ، فيسدُّ العماد في الخدمة مَسَدَّهُ.

[مؤلفاته]

صنَّف كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر» ذيلاً على «زينة الدهر» للحظيري، وهي ذيلٌ على «دمية القصر وعصرة أهل العصر» للباخرزيِّ التي ذيَّل بها على «يتيمة الدهر» للثعالبي التي هي ذيل على «البارع» لهارون بن علي المُنجِّم، فالخريدةُ مشتملٌ على شعراء زمانه من بعد الخمس مئة[1]، وهو عشر مجلدات.

وله «البرق الشامي» سبع مجلدات، و«الفَتْح القُسِّي في الفتح القدسي» مجلدان، وكتاب «السيل والذيل» مجلدان، و«نصرة الفترة» في أخبار بني سلجوق، وديوان رسائل كبير، وديوانه في أربع مجلدات.

(١) قوله من بعد الخمس مئة فيه نظر، وإنما أراد فيه تقديراً، وإلا فإنه ترجم لبعض من توفي قبلها (راجع ما كتبه شيخنا محمد بهجة الأثري في مقدمة القسم العراقي من الخريدة تحليلاً لهذا الموضوع: ١/ ٩٦ فما بعد).

وكان بينه وبين الفاضل مخاطباتٌ ومكاتبات. قال مرَّةً للفاضل مما يُقرأُ منكوساً: سِرْ فلا كَبَا بِكَ الفَرَسُ، فأجابَهُ بمثله فقال: دامَ عُلا العِمادِ.

قال ابنُ خلِّكان: ولم يزل العمادُ على مكانته إلى أن توفي صلاحُ الدين، فاختلت أحوالُه، فلزم بيتَه، وأقبل على تصانيفه.

قال الموفَّقُ عبداللطيف: حكى لي العماد، قال: طلبني كمالُ الدين لنيابته في الإنشاء، فقلتُ: لا أعرف الكتابةَ، قال: إنما أُريدُ منك أن تُثْبِتَ ما يجري، فتُخبرني به، فصِرْتُ أرى الكتب تُكْتَبُ إلى الأطراف، فقلتُ: لو طُلِبَ مني أن أكتب مثل هذا، ما كنتُ أصنع؟ فأخذتُ أحفظُ الكتب، وأُحاكيها، وأُروِّض نفسي، فكتبتُ إلى بغداد كتباً، ولم أُطلعْ عليها أحداً، فقال كمال الدين يوماً: ليتنا وجدنا من يكتبُ إلى بغداد، ويريحنا، فقلتُ: أنا، فكتبتُ، وعرضتُ عليه، فأعجبه، واستكتبني، فلما توجَّه أسد الدين إلى مصر المرة الثالثة، صحبتُه.

قال الموفَّق، وكان فقهه على طريقة أسعد المِيْهَنِيّ. ويوم تدريسِهِ تسابق الفقهاء لسماع كلامِهِ، وحُسْنِ نُكَتِهِ، وكان بطيء الكتابة، لكنه دائم العمل، وله توسُّعٌ في اللغة لا النحو. توفي بعد ما قاسى مُهانات ابن شُكرٍ، وكان فريد عصره نظماً ونثراً، وقد رأيتُه في مجلس ابن شُكرٍ مزحوماً في أُخريات الناس.

وقال زكي الدين المُنْذِري: كان العماد جامعاً للفضائل: الفقه، والأدب، والشعر الجيد وله اليد البيضاء في النثر والنظم. صنَّف تصانيف مفيدةً، وللسلطان الملك الناصر معه من الإغضاء والتجاوز والبسط وحسن الخلق ما يُتعجَّبُ من وقوع مثله. توفي في أول رمضان سنة سبعٍ وتسعين وخمس مئة، ودُفن بمقابر الصوفية رحمه الله.

أنبأني محفوظ ابنُ البُزوريِّ في «تاريخه»، قال: العماد إمام البلغاء، شمسُ الشعراء، وقطبُ رحى الفضلاء، أشرقت أشعَّةُ فضائله وأنارت، وأنجدت الركبان

بأخباره وأغارَتْ، هو في الفصاحة قُسُّ دهرِه، وفي البلاغة سحبانُ عصرِه، فاقَ الأنامَ طُرّاً، نظماً ونثراً.

الحازميُّ[1]

الإمام الحافظ، الحُجةُ الناقد، النَّسّابةُ البارع، أبو بكرٍ محمد بن موسى بن عثمان بن موسى بن عثمان بن حازمٍ الحازميُّ الهمذاني.

مولِدُه في سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة.

جَمَعَ، وصنَّف، وبرع في فن الحديث خصوصاً في النسب. واستوطن بغداد.

قال أبو عبدالله الدُّبَيْثِيُّ: تفقَّه ببغداد في مذهب الشافعي، وجالسَ العلماء، وتميَّز، وفهم، وصار من أحفظ الناس للحديث ولأسانيده ورجالِهِ، مع زُهْدٍ، وتَعَبُّدٍ، ورياضةٍ، وذِكْرٍ. صنَّف في الحديث عدة مُصنفات، وأملى عدة مجالس، وكان كثير المحفوظ حلو المذاكرة، يغلب عليه معرفة أحاديث الحكام أمْلى طرق الأحاديث التي هي «المُهَذَّب» للشيخ أبي إسحاق، وأسنَدَها، ولم يُتِمَّهُ.

وقال أبو عبدالله بن النجار في «تاريخه»: كان الحازميُّ من الأئمة الحُفَّاظ العالمين بفقه الحديث ومعانيه ورجاله. أَلَّف كتاب «الناسخ والمنسوخ»، وكتاب «عجالة المبتدئ في النسب»، وكتاب «المؤتلف والمختلف في أسماء البلدان». وأسْنَدَ أحاديث «المهذب»، وكان ثقةً، حجةً، نبيلاً، زاهداً، عابداً، ورعاً، ملازماً للخلوة والتصنيف وبثِّ العلم أدركَهُ الأجل شاباً، وسمعتُ محمد بن محمد بن محمد بن غانمٍ الحافظ يقول: كان شيخُنا الحافظ أبو موسى المدينيُّ يُفَضِّلُ أبا بكرٍ الحازمي على عبدالغني المقدسي، ويقول: ما رأينا شاباً أحفظ من الحازمي، له كتاب «في الناسخ والمنسوخ» دالٌّ على إمامتِهِ في الفقه والحديث ليس لأحدٍ مثلُه.

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٦٧.

قال ابن النجار: وسمعتُ بعض الأئمة يذكُرُ أنَّ الحازميَّ كان يحفظُ كتاب «الإكمال»[1] في المؤتلَف والمختَلَف ومُشْتَبِهِ النسبة، كان يُكَرِّر عليه، ووجدتُ بخط الإمام أبي الخير القزويني وهو يسأَلُ الحازميَّ: ماذا يقول سيدنا الإمام الحافظ في كذا وكذا؟ وقد أجاب أبو بكرٍ الحازميُّ بأحسن جوابٍ.

ثم قال ابنُ النجار: سمعت أبا القاسم المقرئ جارنا يقول، وكان صالحاً: كان الحازميُّ رحمه الله في رباط البَديع، فكان يدخل بيته في كل ليلة، ويطالع، ويكتبُ إلى طلوع الفجر، فقال البديع للخادم: لا تدفعْ إليه الليلةَ بزراً للسراج لعله يستريحُ الليلة. قال: فلما جَنَّ الليلُ، اعتذر إليه الخادمُ لأجل انقطاع البزرِ، فدخل بيتَه، وصفَّ قَدَمَيْهِ يُصلِّي، ويتلو، إلى أن طلع الفجرُ، وكان الشيخُ قد خرج ليعرفَ خبرَه، فوجده في الصلاة.

مات أبو بكرٍ الحازميُّ في شهر جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وخمس مئة، وله ستٌّ وثلاثون سنة.

قرأتُ على أبي الحَمْدِ أَقُش الافتخاريِّ، أخبركم عبدالله بن الحسن الدمياطي الخطيبُ سنة ستٍّ وأربعين وست مئة، أخبرنا محمدُ بن موسى الحافظ، أخبرنا محمد ابن ذاكرٍ بقراءتي، أخبركم حَسَنُ بن أحمد القارئ، أخبرنا محمد بن أحمد الكاتب، أخبرنا عليُّ بن عمر، حدثنا يعقوب بن إبراهيم البزاز، حدثنا العباس بن يزيد، حدثنا غسان بن مُضَرَ، حدثنا أبو مَسْلَمة، قال: سألتُ أنسَ بن مالكٍ: أكان رسول الله ﷺ يستفتحُ بالحمد لله رب العالمين؟ فقال: إنك لتسألني عن شيء ما أحفظه، ما سألني عنه أحدٌ قبلَك، قلت: أكان رسول الله ﷺ يصلي في النعلين؟ قال: نعم.

---

(١) للأمير ابن ماكولا وهو مشهور قتل سنة ٤٧٥، وهو كتاب ضخم حقق منه المرحوم الشيخ عبدالرحمن المعلمي اليماني ستة أجزاء طبعت في الهند، وبقي الجزء السابع بدون تحقيق، ثم طبع بعناية الأستاذ نايف العياش.

[فقه الذهبي]

هذا حديثٌ حسن غريب، وهو ظاهر في أنَّ أبا مسلمة سعيد بن يزيد سأل أنساً عن الصلوات الخمس، أكان النبي ﷺ يستفتح يعني أول ما يُحْرِمُ بالصلاة بدعاء الاستفتاح أم بالاستعاذة، أم بالحمد لله رب العالمين؟ فأجابه أنه لا يحفظ في ذلك شيئاً.

فأما الجهر وعَدَمُه بالبسملة، فقد صحَّ عنه من حديث قتادة وغيرِه [عن أنس] أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا لا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم.

محنة الحافظ عبدالغني بن عبدالواحد الجمّاعيلي[1]

قال [أبو المظفر]: وكان يصلي كل يوم وليلة ثلاث مئة ركعة ويقوم الليل، ويحمل ما أمكنه إلى بيوت الأرامل واليتامى سراً، وضَعف بصره من كثرة البُكاء والمطالعة، وكان أوحد زمانه في علم الحديث.

قال أيضاً: وفي ذي القعدة سنة ست وتسعين وخمس مئة كان ما اشتهر من أمر الحافظ عبدالغني وإصراره على ما ظهر من اعتقاده وإجماع الفقهاء على الفُتيا بتكفيره، وأنه مُبْتَدِعٌ لا يجوز أن يُترك بين المسلمين، فسأل أن يُمْهَل ثلاثة أيام لينفصل عن البلد فأجيب.

[فقه الذهبي]

قلتُ -القائل هو الذهبي- قد بلوتُ على أبي المظفر المُجازفة وقلة الوَرَع فيما يؤرخه والله الموعد، وكان يترفَّض، رأيت له مصنّفاً في ذلك فيه دواهٍ، ولو أجمعت الفقهاء على تكفيره كما زعم لما وسعهم إبقاؤه حياً، فقد كان على مقالته بدمشق أخوه الشيخ العماد والشيخ موفق الدين، وأخوه القدوة الشيخ أبو عمر، والعلاّمة

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٦٤.

شمس الدين البخاري، وسائر الحنابلة، وعِدة من أهل الأثَر، وكان بالبلد أيضاً خَلْقٌ من العلماء لا يكفرونه، نعم، ولا يصرِّحون بما أطلقه من العبارة لما ضايَقوه، ولو كف عن تلك العبارات، وقال بما وردت به النصوص لأجاد ولسلم، فهو الأولى، فما في توسيع العبارات الموهِمَة خيرٌ، وأسوأ شيء قاله أنه ضلل العلماء الحاضرين، وأنه على الحق، فقال كلمة فيها شر وفساد وإثارة للبلاء، رحم الله الجميع وغَفَرَ لهم، فما قصدهم إلا تعظيم الباري عز وجل من الطرفين، ولكن الأكمل في التعظيم والتنزيه الوقوف مع ألفاظ الكتاب والسنّة، وهذا هو مذهب السَّلَف رضي الله عنهم.

وبكل حال فالحافظ عبدالغني من أهل الدِّين والعلم والتألُّه والصَّدع بالحق، ومحاسنه كثيرة، فنعوذُ بالله من الهوى والمراء والعصبية والافتراء، ونبرأ من كل مُجَسِّم ومُعَطِّل[1].

من فراسة الحافظ وكراماته:

قال الحافظ الضياء: سمعت الحافظ أبا موسى بن عبدالغني يقول: كنت عند والدي بمصر، وهو يذكر فضائل سفيان الثوري، فقلت في نفسي: إن والدي مثله، فالتفت إليَّ، وقال: أين نحن من أولئك؟

---

(١) هذا هو رأي الإمام الذهبي، وهو الصواب، إذ لا فائدة في الدخول في كل هذه المتاهات، وقد قال في «تاريخ الإسلام» رداً على السبط: «قلت: وإجماع الفقهاء على الفتيا بتكفيره كلام ناقص وهو كذب صريح إنما أفتى بذاك بعض الشافعية الذين تعصبوا عليه، وأما الشيخ موفق الدين وأبو اليمن الكندي شيخا الحنفية والحنابلة فكانا معه، ولكن نعوذ بالله من الظلم والجهل» (الورقة: ٢٧٣ أحمد الثالث). وقال ابن رجب: «قرأت بخط الإمام الحافظ الذهبي رداً على مَن نَقَلَ الإجماع على تكفيره: أما قوله «أجمعوا» فما أجمعوا بل أفتى بذلك بعض أئمة الأشاعرة ممن كفروه وكفّرهم هو، ولم يبد من الرجل أكثر مما يقوله خلق من العلماء الحنابلة والمحدثين من أن الصفات الثابتة محمولة على الحقيقة لا على المجاز، أعني أنها تجري على مواردها لا يعبر عنها بعبارات أخرى كما فعلته المعتزلة أو المتأخرون من الأشعرية، هذا مع أن صفاته تعالى لا يماثلها شيء» (الذيل: ٢/ ٢٤).

سمعت نصر بن رضوان المقرئ يقول: كان منبر الحافظ فيه قِصَر، وكان الناس يشرفون إليه، فخطرَ لي لو كان يُعَلَّى قليلاً، فترك الحافظُ القراءة من الجزء، وقال: بعضُ الإخوان يشتهي[1] أن يُعَلَّى هذا المنبر قليلاً، فزادوا في رجليه.

الشهاب الطوسي[2]

الشيخ الإمام، العالِم العلاّمة، شيخ الشافعية، شهاب الدين، أبو الفتح، محمد ابن محمود بن محمد الخراساني الطوسي صاحب الفقيه محمد بن يحيى.

وُلد سنة اثنتين وعشرين وخمس مئةٍ.

وحدَّث عن أبي الوقت السِّجْزِيِّ، وغيره.

وقَدِمَ بغداد، وعَظُمَ قدرُهُ، وصاهَرَ قاضي القضاة أبا البركات ابن الثقفي، ثم حَجَّ، وأتى مصر سنة تسعٍ وسبعين، نزل بالخانقاه، وتردد إليه الفقهاء.

ثم درَّس بمنازل العزِّ، وتخرَّج به أئمةٌ، وكان جامعاً للفنون، غير مُحتفلٍ بأبناء الدنيا. وَعَظَ بجامع مصر مدة.

قال الإمام أبو شامة: قيل: إنه قدم بغداد، فكان يركب بالسنجق والسيوف المسلّلة والغاشية والطوق في عنق البغلة، فمُنع من ذلك، فسافر إلى مصر، ووعظ، وأظهر مقالة الأشعري، فثارت الحنابلة، وكان يجري بينه وبين زين الدين ابن نُجَيّة كبيرهم العجائب والسبُّ.

قال: وبلغني أنه سئل: أيما أفضلُ دم الحسين، أو دم الحلاَّج؟ فاستعظم ذلك، قالوا: فَدَمُ الحلاَّج كتب على الأرض: الله، الله، ولا كذلك دمُ الحسين؟! قال: المتهم يحتاج إلى تزكيةٍ!

---

(١) تحرفت العبارة في «الذيل» لابن رجب بفعل عدم فهم ناشر الكتاب للحكاية فجاءت كما يأتي: «فقال بعض الأخوان: نشتهي...». والمقصود ببعض الإخوان هنا هو «نصربن رضوان المقرئ».

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٨٧.

[فقه الذهبي]

قلتُ -القائل هو الذهبي-: لم يصحَّ هذا عن دم الحَلاَّج، وليسا سواءً: فالحسين ﵁ شهيدٌ قُتل بسيف أهل الشر، والحَلاَّجُ فقُتل على الزندقة بسيف أهل الشرع.

وقال الموفَّق عبداللطيف: كان طُوالاً، مَهيباً، مقداماً، سادَّ الجواب في المحافل، أقبل عليه تقي الدين عمر، وبنى له مدرسة كان يُلقي الدرس من كتابٍ، وكان يرتاعه كلُّ أحد، وهو يرتاع من الخُبُوشاني، ويتضاءل له، وكان يحمق بظرافةٍ، ويتيه على الملوك بلباقةٍ، ويخاطب الفقهاء بصرامة، عَرَضَ له جدريٌّ بعد الثمانين عمَّ جسده، وجاء يوم عيدٍ، والسلطان بالميدان، فأقبل الطوسي وبين يديه منادٍ ينادي: هذا ملكُ العلماء، والغاشية على الأصابع، فإذا رآها المُجّان، قرؤوا: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية:١] فتفرَّق الأمراء غيظاً منه. وجرى له مع العادل ومع ابن شكرٍ قضايا عجيبةٌ، لما تعرضوا لأوقاف المدارس. فذبَّ عن الناس، وثَبَتَ.

قال ابن النجار: مات بمصر في ذي القعدة سنة ستٍّ وتسعين وخمس مئة وحَمَلَهُ أولاد السلطان على رقابهم، رحمه الله.

حوادث سنة ٦١٢-٦١٥[1]

وفي سنة ٦١٢: أغارت الكُرْج على أذربيجان وغنموا الأموال وأزيد من مئة ألف أسير، قاله أبو شامة.

وبعث الملك الكامل ولده المسعود فأخذ اليمن بلا كُلفة وظَلَمَ وعَتَا وتمرّد.

وتَوَثَّب خوارزم شاه على غَزْنَة فتملّكها، وجعل بها ولده جلال الدين منكُوبري.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٣٠.

وهزم صاحبُ الروم كيكاوس الفرنجَ وأخذ منهم أنطاكية، ثم صارت لبِرِنْس طرابلس.

وفيها كُسِرَ مَنْكلي صاحب أصبهان والري وهمذان وقُتل.

وفي سنة ٦١٣: أحضرت أربعة أوتار لنسر القبة[1] طول اثنين وثلاثين ذراعاً أُدخلت من باب الفرج إلى باب الناطفيين، وأُقيمت لأجل القرنة، ثم مددت. وحرِّرَ خندق القلعة وعمل فيه كل أحد، والفقهاء والصوفية والمُعَظَّم بنفسه، وأُنشِئ المصلى وعمل به الخطبة.

ووقع بالبصرة بَرَد صغاره كالنارنج.

وفي سنة ٦١٤: كان الغرق. قال سِبْط الجوزي -بقلّة وَرَع-: فانهدمت بغداد بأسرها ولم يبق أن يطفح الماء على رأس السور إلا قدر إصبعين. إلى أنْ قال: وبقيت بغداد من الجانبين تلولاً لا أثر لها.

قلت: العجب من أبي شامة ينقل أيضاً هذا ولا يبالي بما يقول.

وقال أبو المظفر: نزل خوارزم شاه في أربع مئة ألف قاصداً بغداد فاستعدّ الناصر، وفَرَّق الأموال والعُدَدَ، نفذ إليه رسولاً السهروردي [شهاب الدين عمر المتوفى سنة ٦٣٢هـ]، فأهانه فاستوقفه ولم يجلسه، وفي الخدمة ملوك العَجم، قال: وهو شاب على تخت، وعليه قباء يساوي خمسة دراهم، وعلى رأسه قُبع جلدٍ يساوي درهماً، فسلَّمتُ فما ردّ، فخطبت وذكرت فضل بني العباس، وعظَّمتُ الخليفة والتُّرجمان يعيد عليه، فقال للترجمان: قل هذا الذي يصفه: ما هو في بغداد، بلى أنا أُقيم خليفةً كما تَصِفُ، وردَّنا بلا جواب. ونزل ثلج عظيم فهلكت خيلهم وجاعوا،

---

(١) يعني: لقبة النسر في جامع دمشق الأموي، وقد قال المؤلف في «تاريخ الإسلام» -ونقلتُ من خطه-: «قال أبوشامة: فيها أحضرت أوتار الخشب لأجل نسر قبة الجامع» (الورقة: ٢٣٠ أيا صوفيا: ٣٠١١) وقارن: ذيل الروضتين: ٩٢.

وكان معه سبعون ألفاً من الخَطا، فصرفه الله عن بغداد، وقيل: إنه قال: أنا ما آذيت أحداً من بني العباس؟ بل في جيش الخليفة خلق منهم، فأعِد هذا على مسامع الخليفة، ومنعه الله بثلوج لا تُوصف.

وفيها أقبلت جيوش الفرنج لقصد بيت المقدس والأخذ بالثأر، ووصلوا إلى بيسان، وتأخر العادل فتبعوه، ونزل بمرج الصُّفَّر واستحثَّ العساكر والملوك وضجَّ الخَلْقُ بالدعاء وكانت هُدنة فانفسخت ونهبت الفرنج بلاد الشام ووصلوا إلى الخربة[1]، وحاصروا قلعة الطور التي بناها المعظم مدةً، وعجزوا عنها، ورجعوا فجاء المُعَظَّم، وخلع على من بها، ثم اتفق هو وأبوه على هدمها، وأخذت خمس مئة من الفرنج جزين وفَرَّ رجالها في الجبل، ثم بيّتوا الفرنج، فاستحر بهم القتل حتى ما نجا من الفرنج سوى ثلاثة. وبادرت الفرنج إلى قصد مِصْرَ لخلوها من العساكر، وأشرف الناس على التَّلَف وما جَسَرَ العادل على الملتقى لقلة من عنده من العساكر، فتقهقر.

ودخلت سنة ٦١٥: فنازلت الفرنج دمياط، وأقبل الكامل ليكشف عنها فدام الحصار أربعة أشهر، ومات العادل وخلص واستراح.

وفيها كَسَرَ الأشرف صاحب الروم، ثم أقبل وأخذ معه عسكر حلب مُغيراً على سواحل الفرنج.

وأخذت الفرنج برج السلسلة من دِمياط، وهو قُفْل على مصر؛ برج عظيم في وسط النيل فدمياط بحذائه، والجيزة من الحافة الغربية، وفيه سلسلتان تمتد كل واحدة على وجه النيل إلى سور دِمياط وإلى الجزيرة يمنعان مركباً يدخل من البحر في النيل، عَدَت الفرنج إلى بَرّ دمياط، ففَرَّ العساكرُ من الخيام، فطمعَ العدو، ثم كرّ عليهم الكامل فطَحَنَهُم، فعادوا إلى دمياط.

---

(١) وتُعرف بخربة اللصوص.

ومات كيكاوس صاحب الروم، وكان جباراً ظَلُوماً.

ومات القاهر مسعود صاحب الموصل.

ورجع من بلاد بُخارى خوارزم شاه إلى نيسابور.

السُّهروردي المحدث[1]

الشيخ الإمام العالِم القدوة الزاهد العارف المحدِّث شيخ الإسلام أوحد الصوفية شهاب الدين أبو حفص وأبو عبدالله عمر بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله -وهو عمويه- بن سعد بن حسين بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد ابن عبدالله ابن فقيه المدينة وابن فقيهها عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق القُرَشيّ التَّيْميُّ البكري السُّهْرَوَرْدِيُّ الصوفي ثم البغدادي.

وُلد في رجب سنة تسع وثلاثين وخمس مئة، وقَدِمَ من سُهْرَوَرْد وهو شاب أمْرَد، فصحب عمَّه الشيخ أبا النجيب ولازَمَه وأخذ عنه الفقه والوعظ والتصوف، وصحب قليلاً الشيخ عبدالقاهر، وبالبصرة الشيخ أبا محمد بن عبدٍ. وسمع من هبةالله بن أحمد الشِّبليّ، وهو أعلى شيخ له.

قال ابن الدُّبيثيّ: قَدِمَ بغداد وكان له في الطريقة قَدَمٌ ثابت ولسان ناطق، وولي عدة رُبُط للصوفية، ونُفِّذَ رسولاً إلى عدة جهات.

وقال ابن النجار: كان أبوه أبو جعفر تفقه ببغداد على أسعد المِيْهَنيّ ووعظ، قال لي ابنه: قُتِل أبي بسُهْرَوَرد، ولي ستة أشهر، كان ببلدنا شحنة ظالم فاغتاله جماعة وادعوا أن أبي أمَرَهم، فجاء غلمان المقتول ففتكوا بأبي، فوثبَ العوام على الغِلمان فقتلوهم، وهاجت الفتنة فصلب السلطان أربعة من العوام، فكَبُر ذلك على عمي أبي النجيب، ولبس القباء وقال: لا أريد التصوف، حتى استُرضي.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٧٣.

ثم قال ابن النجار: وكان شهاب الدين شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعاء الخلق إلى الله، والتسليك. صحب عَمَّه وسلكَ طريق الرياضات والمجاهدات، وقرأ الفقه والخلاف والعربية، وسمع ثم لازم الخلوة والذكر والصوم إلى أن خطر له عند علو سنه أن يظهرَ للناس ويتكلم، فعَقَد مجلس الوعظ بمدرسة عمِّه، فكان يتكلم بكلام مفيد من غير تزويق، ويحضر عنده خلقٌ عظيم، وظهر له القبول من الخاص والعام واشتهر اسمه، وقُصِدَ من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه على خلقٍ من العصاة فتابوا، ووصل به خلقٌ إلى الله، وصار أصحابه كالنجوم، ونُفِّذ رسولاً إلى الشام مرات، وإلى السلطان خوارزم شاه، ورأى من الجاه والحرمة ما لم يره أحد، ثم رُتِّب بالرباط الناصري، وبرباط المأمونية، ورباط البِسطاميّ، ثم أنه أضرّ وأقعد، ومع هذا فما أخلّ بالأوراد ودوام الذكر وحضور الجُمَع في مَحَفّة، والمضي إلى الحج، إلى أن دخل في عشر المئة وضعف فانقطع.

قال: وكان تامّ المروءة، كبير النفس، ليس للمال عنده قدر؛ لقد حصل له ألوفٌ كثيرة، فلم يدَّخر شيئاً، ومات ولم يخلِّف كفناً. وكان مليح الخَلْق والخُلُق، متواضعاً كامل الأوصاف الجميلة. قرأت عليه كثيراً، وصحبته مدة، وكان صَدوقاً نبيلاً، صَنَّف في التصوف كتاباً شرح فيه أحوال القوم، وحدث به مراراً -يعني «عوارف المعارف»-.

قال: وأملَى في آخر عمره كتاباً في الرد على الفلاسفة، وذكر أنه قَدِمَ بغداد بعد وفاة أبي الوقت المحدث.

وقال ابن نُقطة: كان شيخ العراق في وقته، صاحب مجاهدة وإيثار وطريق حَميدة ومروءة تامة، وأوراد على كبر سنّه.

قال يوسف الدمشقي: سمعت وَعْظَ أبي جعفر والد السَّهْرَوَرْدِيّ ببغداد في جامع القصر وفي النظامية، تولى قضاء سُهْرَوَرْد وقُتل.

قال ابن الحاجب: يلتقي السهروردي وابن الجوزي في النسب في القاسم بن النضر.

أخبرنا مسعود بن حَمُّويه إجازة أن قاضي القضاة بدر الدين يوسف السِّنْجاريّ حكى عن المَلِك الأشرف موسى أن السُّهروردي جاءه رسولاً فقال في بعض حديثه: يا مولانا تطلبتُ كتاب «الشفاء» لابن سينا من خزائن الكتب ببغداد وغسلتُ جميع النُّسخ، ثم في أثناء الحديث قال: كان السَّنة ببغداد مرض عظيم وموت. قلت: كيف لا يكون وأنت قد أذهبت «الشفاء» منها؟!

ألبسني خرق التصوف شيخُنا المُحدِّث الزاهد ضياء الدين عيسى بن يحيى الأنصاري بالقاهرة، وقال: ألبسنيها الشيخ شهاب الدين السهروردي بمكة عن عمِّه أبي النجيب.

توفي الشيخ شهاب الدين رحمه الله بغداد في أول ليلة من سنة اثنتين وثلاثين وستة مئة. وفي ذريته فضلاء وكبراء، ومات ولده العماد أبو جعفر محمد بن عمر سنة خمس وخمسين وست مئة.

أبو محمد الروابطي[1]

من كبار الزهّاد بالأندلس

أخذ عنه ابن مَسْدِيّ، وقال: مات سنة سبع وعشرين وست مئة، كان يسيح بثغور الأندلس، يأوي في مساجد البِرّ، له كرامات، أُسر إلى طرطوشة وقيّدوه، فقام النصرانيُّ ليلة فرآه يصلي، وقيْده إلى جنبه، فتعجّب، فلما أصبح رآه في رجله، فرقبه ثاني ليلة فكذلك، فذهب فأخبرَ القُسَس، فقالوا: أحضره، فجاء به، وجرت بينه وبينهم محاورة، ثم قالوا: لا يحل أن نأسرك، فاذهب، ولطرطوشة نهر تُعمل فيه

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٢٩.

السفن، فلقيه أسير فقال: بالله خذني فأخذ بيده وخاض إلى نصف الساق، فتعجبت النصارى، وشاعت القصة.

يونس بن يوسف[1]

ابن مساعد الشيباني المُخارِقيُّ الجَزَرِيُّ القُنَّيي الزاهد، أحد الأعلام، شيخ اليونسية أولي الزَّعارة والشَّطح والخَواثة[2] وخفة العقل.

[الذهبي وموقفه من الزهاد الصوفية]

كان ذا كشف وحال، ولم يكن عنده كبيرُ علم، وله شَطحٌ، وشعرٌ ملحون ينظمه على لسان الربوبية، وبعضه كأنه كذب، والله أعلم بسره، فلا يغتر المسلم بكشف ولا بحال ولا بإخبار عن مُغَيَّب، فابن صائد[3] وإخوانه الكهنة لهم خوارق، والرهبان فيهم من قد تمزق جوعاً وخلوة ومراقبة على غير أساس ولا توحيد، فصَفَت كُدورات أنفسهم وكاشفوا وفَشروا، ولا قدوة إلا في أهل الصَّفوة وأرباب الولاية المنوطة بالعلم والسُّنن، فنسأل الله إيمان المتقين، وتألّه المخلصين، فكثير من المشايخ نتوقَّف في أمرهم حتى يتبرهن لنا أمرُهم، وبالله الاستعانة.

توفي الشيخ يونس بالقُنَيَّة سنة تسع عشرة وست مئة.

والقُنَيَّةُ: قرية من أعمال دارا من نواحي ماردين.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٧٨.

(٢) أظنه من «الخَوَث» وهو استرخاءا لبطن والامتلاء، كما في القاموس المحيط.

(٣) ابن صائد هذا كان على عهد رسول الله ﷺ، وقد أبان الرسول كذبه.

نجم الدين الكبرى[1]

الشيخ الإمام العلاَّمة القدوة المحدِّث الشهيد شيخ خراسان نجم الكُبَراء، ويقال: نجم الدين الكُبْرَى، الشيخ أبو الجَنّاب أحمد بن عمر بن محمد الخوارزمي الخِيْوَقي الصوفي، وخِيْوَق: من قرى خوارزم.

قال ابن نُقطة: هو شافعيٌّ إمامٌ في السُّنة.

وقال عمر بن الحاجب: طاف البلاد وسمع واستوطن خوارزم، وصار شيخ تلك الناحية، وكان صاحب حديث وسنّة، ملجأ للغرباء، عظيم الجاه، لا يخاف في الله لومة لائم.

وقال ابن هِلالة: جلستُ عنده في الخلوة مراراً وشاهدت أموراً عجيبةً، وسمعت من يخاطبني بأشياء حسنة.

قلتُ: لا وجود لمن خاطبك في خلوتك مع جوعك المُفرط، بل هو سماع كلام في الدماغ الذي قد طاشَ وفاشَ وبقي قَرعة كما يَتِمُّ للمُبَرْسَم[2] والمغمور بالحُمّى والمجنون، فاجزِم بهذا واعبد الله بالسنن الثابتة تفلح.

وقيل: إنه فسَّر القرآن في اثني عشر مجلداً وقد ذهب إليه فخر الدين الرازي صاحب التصانيف، وناظر بين يديه فقيهاً في معرفة الله وتوحيده، فأطالا الجدال، ثم سألا الشيخ عن علم المعرفة، فقال: هي واردات ترد على النفوس، تعجز النفوس عن ردِّها. فسأله فخر الدين: كيف الوصول إلى إدراك ذلك؟ قال: بتَرْكِ ما أنت فيه من الرئاسة، والحظوظ. قال: هذا ما أقدر عليه. وأما رفيقُه فزهد، وتجرَّد، وصحب الشيخ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١١١.

(٢) البرسام: عِلّة يُهذَى فيها.

نزلت التتار على خوارزم في ربيع الأول سنة ثماني عشرة وست مئة، فخرج نجم الدين الكبرى فيمن خرج للجهاد، فقاتلوا على باب البلد حتى قُتِلوا رضي الله عنهم، وقُتل الشيخ وهو في عشر الثمانين[1].

وفي كلامه شيء من تصوف الحكماء[2].

العماد[3]

الشيخ الإمام العالِم الزاهد القدوة الفقيه بركة الوقت عماد الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي، نزيل سفح قاسيون، وأخو الحافظ عبدالغني.

وُلد بجمَّاعيل سنة ٥٤٣. وهاجروا به سنة إحدى وخمسين، وله ثمان سنين.

قال الشيخ الضياء: كان ليس بالآدَم كثيراً، ولا بالطويل، ولا بالقصير، واسع الجَبهة، معروقَ الجبين، أشهل العين، قائم الأنف، يَقُصُّ شعره، وكان في بصره ضعف. سافر إلى بغداد مرتين، وحفظ القرآن و«غريب» العُزَيري فيما قيل، وحفظ الخِرَقيّ، وألقى الدرس من «التفسير» ومن «الهداية»، واشتغل في الخلاف، شاهدته يُناظِرُ غير مرة، وكان عالماً بالقراءات والنحو والفرائض، قرأ بالروايات على أبي الحسن بن عساكر البطائحي، وأقرأ بها، وصنف «الفروق في المسائل الفقهية»، وصنف

---

(١) حينما أراد الكفار التتار دخول البلد، نادى الشيخ نجم الدين وأصحابه الباقون: الصلاة جامعة، ثم قال: قوموا نقاتل في سبيل الله، ودخل البيت ولبس خرقة التصوف التي ألبسها له شيخه، وحمل على العدو فرماهم حتى بالحجارة، ثم أصابه سهم في صدره قتله، رضي الله عنه وعن الشهداء المدافعين عن بيضة الإسلام ضد الكافرين والمارقين والمشعوذين والدجالين.

(٢) قال المؤلف في «تاريخ الإسلام»: «وكان شيخنا عماد الدين الحَزَّامي يعظمه ولكن في الآخر أراني كلاماً فيه شيء من لوازم الاتحاد، وهو إن شاء الله سالم من ذلك، فإنه محدث معروف بالسّنة والتعبد كبير الشأن، ومن مناقبه أنه استشهد في سبيل الله.. قتلوا مقبلين غير مدبرين».

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٤٧.

كتاباً في الأحكام لم يتمّه، ولا كان يتفرغ للتصنيف من كثرة اشتغاله وإشغاله، أقام بحرّان مدة فانتفعوا به، وكان يشغل بالجبل إذا كان الشيخ موفق الدين بالمدينة، فإذا صَعِدَ الموفق، نزل هو وأشغل، فسمعتُ الشيخ الموفق يقول: ما نقدر نعمل مثل العماد، كان يتألَّف الناس، وربما كرَّر على الطالب من سحر إلى الفجر.

قال الضياء: وكان يجلس في جامع البلد من الفجر إلى العشاء، لا يخرج إلا لحاجة، يُقرئ القرآن، والعِلم، فإذا فرغوا اشتغل بالصلاة، فسألتُ الشيخ موفق الدين عنه فقال: كان من خيار أصحابنا، وأعظمِهم نفعاً، وأشدهم وَرَعاً، وأكثرِهم صبراً على التعليم. وكان داعية إلى السنّة، أقام بدمشق مدة يعلِّم الفقراء ويُقرئهم، ويطعمهم، ويتواضع لهم، كان من أكثر الناس تواضعاً، واحتقاراً لنفسه، وخوفاً من الله، ما أعلم أنني رأيتُ أشد خوفاً منه. وكان كثير الدعاء والسؤال لله، يطيل السجود والركوع، ولا يقبل ممن يَعْذُلُهُ، ونُقِلت له كرامات.

ثم قال الضياء: لم أرَ أحداً أحسن صلاةً منه ولا أتمّ، بخشوع وخضوع، قيل: كان يسبح عشراً يتأنَّى فيها، وربما قضى في اليوم والليلة صلواتٍ عدة، وكان يصوم يوماً، ويُفطر يوماً، وكان إذا دعا كان القلب يشهد بإجابة دعائه من كثرة ابتهاله وإخلاصه، وكان يمضي يوم الأربعاء إلى مقابر باب الصغير عند الشهداء، فيدعو ويجتهد ساعة طويلة.

ومن دعائه المشهور: «اللهم اغفر لأقسانا قلباً، وأكبرنا ذنباً، وأثقلنا ظهراً، وأعظمنا جرماً».

وكان يدعو: «يا دليل الحيارَى دُلَّنا على طرق الصادقين، واجعلنا من عبادك الصالحين».

وكان إذا أفتى في مسألة يحترز فيها احترازاً كثيراً.

قال: وأما زُهده، فما أعلم أنه أدخل نفسه في شيء من أمر الدنيا، ولا تعرَّض لها، ولا نافس فيها، وما علمتُ أنه دخل إلى سلطان ولا والٍ، وكان قوياً في أمر الله،

ضعيفاً في بَدنه، لا تأخذه في الله لومة لائم، أماراً بالمعروف، لا يرى أحداً يُسيء صلاته إلا قال له وعلَّمه.

قال: وبلغني أنه أتى فُسّاقاً، فكسر ما معهم، فضربوه حتى غُشِيَ عليه، فأراد الوالي ضربهم، فقال: إن تابوا ولازموا الصلاة، فلا تؤذهم، وهم في حلٍّ فتابوا.

قال الضياء: سمعتُ خالي موفق الدين يقول: من عمري أعرفه -يعني العماد- ما عرفتُ أنه عصى الله معصية.

وسمعتُ الإمام محاسن بن عبدالملك يقول: كان الشيخ العماد جوهرة العصر.

ثم قال الضياء: أعرف وأنا صغير أن جميع من كان في الجَبَل يتعلم القرآن كان يقرأ على العماد، وخَتَمَ عليه جماعةٌ، وكان يبعث بالنفقة سراً إلى الناس، ويأخذ بقلب الطالب، وله بشر دائم.

[رؤى]

وحدثني الشيخ المقرئ عبدالله بن حسن الهَكَّاري بحران قال: رأيتُ في النوم قائلاً يقول لي: العماد من الأبدال، فرأيتُ خمس ليالٍ كذلك.

وسمعت التقي أحمد بن محمد ابن الحافظ يقول: رأيتُ الشيخ العماد في النوم على حصان، فقلتُ: يا سيدي الشيخ، إلى أين؟ قال: أزور الجبار عز وجل.

قال أبو المظفر في «المرآة»: كان الشيخ العماد يحضر مجلسي دائماً، ويقول: صلاح الدين يوسف فتح الساحل، وأظهر الإسلام، وأنت يوسف أحييتَ السنَّة بالشام.

[عقيدته]

قال أبو شامة: يشير أبو المظفر إلى أنه كان يورد في الوعظ كثيراً من كلام جدِّه ومن خُطَبه ما يتضمن إمرار آيات الصفات وما صَحَّ من الأحاديث على ما ورد من غير ميلٍ إلى تأويلٍ ولا تشبيه ولا تعطيل، ومشايخ الحنابلة العلماء هذا مختارهم،

وهو جيد. وشاهدتُ العماد مُصَلياً في حلقة الحنابلة مراراً وكان مُطيلاً لأركان الصلاة قياماً وركوعاً وسجوداً، كان يصلي إلى جُرانتين، ثم عَمِل المحراب سنة سبع عشرة وست مئة.

قال الضياء: توفي العماد رحمة الله عليه ليلة الخميس سابع عشر ذي القعدة سنة أربع عشرة وست مئة عشاء الآخرة فجأة وكان صلَّى المغرب بالجامع وكان صائماً، فذهب إلى البيت وأفطر على شيء يسير، ولما أُخرجت جنازته اجتمع خلقٌ فما رأيتُ الجامع إلا كأنه يوم الجمعة من كثرة الخَلْق، وكان الوالي يَطْرُدُ الخلق عنه، وازدحموا حتى كاد بعض الناس أن يهلِكَ، وما رأيتُ جنازة قط أكثر خَلْقاً منها.

وحُكِي عنه أنه لما جاءه الموت جعل يقول: يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، واستقبل القبلة وتَشَهَّد.

[من فقه الذهبي]

أورد الذهبي رحمه الله تعالى قصيدة السِّلَفي التي ذكر فيها أئمة أهل الحديث[1]، ثم ذكر فيها أئمة أهل الزيغ والضلال، ثم قال: «صدق الناظم، وأجاد، فلأن يعيش المسلم أخرسَ أبكم، خير له من أن يمتلئ باطنُه كلاماً وفلسفة»[2].

جعفر بن زيد[3]

ابن جامع بن حسين، الإمام الفاضل، أبو الفضل الطائي الشامي الحموي، ويُلَقَّب بأبي زيد.

سكن بغداد بقَطُفْتا.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٩-٣٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٤٠.

قال ابنُ النجار: سمع الكثير من أبي الحسين المبارك، وأبي سعدٍ أحمد ابني عبدالجبار الصيرفي، وغيرهما، وكتب بخطِّه كثيراً، وخطُّه مضبوطٌ، وخرَّج تخاريج، وسمع منه القدماء، وكان مشهوراً بالدين والصلاح وحُسْنِ الطريقة، روى عنه أبو الفرج بن الجوزي، وأبو عبدالله بن الزَّبيدي.

وقال السمعاني: أبو زيد الحموي شيخ صالح خير، كثير العبادة، دائم التلاوة، مشتغلٌ بنفسه، لا يخرُجُ إلا من جمعةٍ إلى جمعة، كتبتُ عنه.

قال: ولدتُ سنة ثلاثٍ أو خمس وثمانين وأربع مئة.

ومات في ذي الحجة سنة أربعٍ وخمسين وخمس مئة.

قلتُ: له كتاب «البرهان»[1] في السنة، سمعناه، وعليه فيه مآخذ رحمه الله.

أخبرنا ابن مؤمن، أخبرنا الحسين بن أبي بكر، أخبرنا جعفر بن زيد، أخبرنا أحمد بن عبيد الله العُكْبَرِيُّ، أخبرنا أبو طالب الحربي، أخبرنا ابنُ مَرْدَك، أخبرنا عبدالرحمن بن أبي حاتم، حدثنا يونس، سمعتُ الشافعي يقول: نثبتُ هذه الصفات التي جاء بها القرآن ووردت بها السنَّة، وننفي التشبيه عنه كما نفى عن نفسه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

الشيخ رسلان[2]

هو الشيخ الزاهد العابد، بقية المشايخ، رسلان بن يعقوب بن عبدالرحمن الجعْبَرِيُّ، ثم الدمشقي، النَّشّار، من أولاد الأجناد الذين بقلعة جَعْبَر.

صَحِبَ الشيخ أبا عامر المؤدِّب الذي هو مدفونٌ مع الشيخ رسلان في قُبَّته بظاهر باب توما - ودُفن عندهما ثالثٌ وهو أبو المجد خادم رسلان- وكان أبو عامر

(١) قال الصفدي: ينتصر فيه لقِدَم القرآن ويرد على المخالفين. «الوافي» ١١/ ١٠٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٧٩.

قد صَحِبَ الشيخ ياسين تلميذ الشيخ مَسْلمة. وقيل: إن مَسْلمة الزاهد صَحِبَ الشيخ عقيلاً، وهو صَحِبَ الشيخ عليَّ بن عُلَيم صاحب أبي سعيد الخراز.

كان نشاراً في الخشب، فقيل: بقي سنين يأخذ أجرته، ويدفعها لشيخه أبي عامر، وشيخه يُطعِمُه. وقيل: بل كان يقسِم أجُرته، فثلثٌ يتصدقُ به، وثلث لقوتِه، وثلث لباقي مصالحه.

وكان يتعبَّد بمسجدٍ داخل باب توما جوار بيته، ثم انتقل إلى مسجد دَرْب الحجر، فأقام بجهته الشرقية، وكان الشيخ أبو البيان في جانبه الغربي، فتعبَّدا مدةً، وصحب كُلاًّ منهما جماعةٌ، ثم خرج الشيخ بأصحابه، فقام بمسجد خالد بن الوليد الذي تجاه قُبَّتِه، وعَبَدَ الله إلى أن مات في حدود سنة خمسين وخمس مئة أو بعد ذلك.

وقد سُقْتُ من أخباره في «تاريخنا الكبير».

وكان وَرِعاً قانتاً، صاحب أحوالٍ ومقامات، ولم تبلُغني أخباره كما ينبغي، وما علمتُه كان له اشتغالٌ في العلم.

أبو الحسين الزاهد(١)

هو الزاهد القدوة الوليُّ، أبو الحسين بن أبي عبدالله بن حمزة المقدسي.

ألّف الحافظ الضياء سيرتَه في جزء، أنبأني به الشيخ أبو عبدالله بن الكمال وغيره بسماعهم منه، فقال: حدثني الإمام عبدالله بن أبي الحسن الجُبّائي قال: مضيتُ إلى زيارة أبي الحسين الزاهد بحلب، ولم تكن نيَّتي صادقةً، فقال: إذا جئتَ إلى المشايخ، فلتكن نيَّتُك صادقةً في الزيارة.

سألت خالي أبا عمر: هل رأيت أبا الحسين يأكل شيئاً؟ فقال: رأيته يأكل خرُّوباً يمصُّه ويرمي به، ورأيته يأكل بَقْلاً مصلوقاً.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٨٠.

قال أبو سعد السمعاني: سمعتُ سنان بن مُشيّع الرَّقِّي يقولُ: رأيتُ أبا الحسين المقدسي برأس عين في موضعٍ عُرياناً قد اتَّزر بقميصه ومعه حمارٌ، والناس قد تكابُّوا عليه، فقال: تعالَ: فتقدمتُ، فأخذ بيدي، وقال: نتواخى؟ قلتُ: ما لي طاقة. قال: أيش لك في هذا، وآخاني. وقال لواحدٍ من الجماعة: حماري يحتاجُ إلى رَسَن. فقالوا: ثمنُه أربعُ فلوس. فأشار إلى موضعٍ في الحائط، فإني جزتُ ها هنا، وخبأتُ ثم أربع فلوس، اشتروا لي بها حَبْلاً. ثم قال: أريد أن تشتري لي بدينارٍ سمكاً. قلتُ: كرامة ومن أين لك ذهب؟ قال: بلى معي ذهبٌ كثير. قلتُ: الذهبُ يكونُ أحمر. قال: أبصِرْ تحت الحشيش. فأخذتُ الحشيش، فخرج دينارٌ، فاشتريتُ له به سمكاً، فنظَّفَه، وشواه، ثم قلاهُ، ثم أخرج منه الجلد والعِظام، وجعله أقراصاً، وجفَّفه، وتركه في جِرابِه، ومضى وله سنون ما أكل الخبز. وكان يسكن جبال الشام، ويأكل البلوط والخرنوب.

قال الضياء: قرأت بخط يوسف بن محمد بن مُقلّد الدمشقي أنه سمع من الشيخ أبي الحسين أبياتاً، ثم قال: وكان عظيم الشأن، يقعُدُ خمسة عشر يوماً لا يأكل سوى أكلةٍ، ويتقوَّتُ من الخَرُّوب البري، ويُجفِّف السمك، وحدثني يوسف بن الشيخ أبي الحسين أنَّ الشيخ استفَّ من صُرَّة، فرآه رجلٌ، فأراد أن يستفَّ منه، فإذا هو مُرٌّ، فلما جاء الشيخ، قال: يا سيدي، ما في الصُرَّة؟ فناوله منها كفّاً، فإذا هو سكر وقلب لوز.

قال: وحدثني أبو تمام حَمْدُ بن تركي بن ماضي قال: حدثني جدي قال: كنا بعسقلان في يوم عيد، فجاء أبو الحسين الزاهد إلى امرأةٍ معها خُبْزٌ سُخْن، فقال: تشتهي لزوجك من هذا الخبز -وكان في الحج- فناولته رغيفين، فلفَّهما في مئزرٍ، ومضى إلى مكة، فقال: خُذْ هذا من عند أهلِكَ. وأخرجه سُخْناً، ورجع، فرأوه يومئذ بمكة وبعسقلان، وجاء الرجل. وقال: أما أعطيتني الرغيفين؟ فقال: لا تفعلْ. قد اشتبه عليك. فحدثني جدي ماضي قال: كان أبو الحسين بعسقلان،

فوصَّوْا عليه البوابين لا تُخَلُّوه يخْرُجُ خوفاً من الفرنج، فجاء وعدا وقميصه في فمه، فإذا هو في جبل لبنان، فقال لنفسه: ويلَكِ وأنتِ ممن بلغ هذه الرتبة؟!

وعن مسعود اليمني: قال الفرنج: لو أنَّ فيكم آخرَ مثل أبي الحسين لاتَّبعناكم على دينكم،مروا يوماً، فراوه راكباً على سَبُعٍ وفي يده حيةٌ، فلما رآهم، نزل ومضى.

السمعاني: سمعتُ عبدالواحد بالكَرَج يقول: سمعتُ الكفار يقولون: الأسود والنمور كأنها نَعَمُ أبي الحسين.

قال الضياء: سمعنا له غيرَ ذلك من مشي الأسد معه، وقيل: عمل حلاوةً من قشور البطيخ، فغرف حلاوةً من أحسن الحلاوة.

وحدثني عنه المحسن بن محمد بن الشيخ، حدثنا أبي قال: كان والدي يعملُ لنا الحلاوة من قشور البطيخ، ويسوطها بيده، فعملْنا بعده، فلم تنعمل، فقالت أمي: بقيت تُعْوِزُ المِغْرفة.

حدثني خالي أبو عمر قال: كان أبو الحسين يجيء إلينا، وكان يقطع البطيخ ويطبخه، واستعار مني سكيناً، فجرحَتْهُ، فقال: ما سكِّينُك إلا حمقى.

وعن امرأةٍ: أن أبا الحسين دخل تَنُّوراً، وخرج منه.

حدثنا محمد بن إسماعيل الإمام بمَرْدا[1]، حدثنا أبو يوسف حسنٌ قال: كنتُ مع أبي الحسين الزاهد، فقال لناسٍ: أعطوني من نارِكم، فملؤوا له قطعة جرَّة، فقال: صبُّوها في مِلْحفتي. فصبُّوها في مِلْحَفته، فأخذها ومضى. وقيل: إنه رشَّ ماءً على زَمِنَةٍ، فمشت. سمعتُ خالي موفَّق الدين يقولُ: حُكي أن أبا الحسين أراد لصٌّ أن يأخذ حمارَهُ، قال: فيبست يدُه، فلما أبعد عنه، عادت.

---

(١) مَرْدا: قرية قرب نابلس. «معجم البلدان» ٥/ ١٠٤.

قال الضياء: وبلغني عنه أنه كان يُلبِسُ سراويله حمارَه، ويقول: نواري عورَتَه. فيضحكُ الناس.

وقيل: كان إذا عُرف بمكان سافر، وقبرُه يُزار بظاهر حلب.

مات ظنّاً سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة.

وقيل: أعطت زوجة سلطان حلب لزوجة أبي الحسين شقَّة حرير، فعملها سراويل لحمارِه. ورأى حمَّالاً قد رمى قَفَصَ فَخّار، فتطحَّن، فجمعه له، وجاء معه إلى الفاخورة، فحطَّه، فوجده صِحاحاً.

المُسْتَنْجِد بالله[1]

الخليفة أبو المُظَفَّر بن المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر بن المُقْتدي العباسي.

عقد له أبوه بولاية العهد في سنة سبعٍ وأربعين، وعمره يومئذٍ تسعٌ وعشرون سنة.

فلما احتُضِرَ المقتفي رام طائفةٌ عزل المستنجد، وبعثت حَظِيَّةُ المقتفي أمُّ علي إلى الأمراء تَعِدُهم وتُمنِّيهم ليبايعوا ابنها عليّ بن المقتفي، قالوا: كيف هذا مع وجود ولي العهد يوسف؟ قالت: أنا أكفيكُموه، وهيأت جواريَ بسكاكين ليثِبْنَ عليه، فرأى خُويدمٌ ليوسف الحركة، ورأى بيد عليٍّ وأمِّه سيفين، فبادر مذعوراً إلى سيِّده، وبعثت هي إلى يوسف: أنِ احضُرْ موت أمير المؤمنين. فطلب أستاذ الدار، ولبس دِرعاً وشهر سيفَه، وأخذ معه جماعةً من الحواشي، والفراشين، فلما مرَّ بالجواري ضرب جاريةً بالسيف جرحَها، وتهاربَ الجواري، وأخذ أخاه وأُمَّه، فحبسَهما، وأباد الجواري تغريقاً وقتلاً، وتمكَّن. وأمُّه كرجية اسمُها طاووس.

قال الدُّبيثي: كان يقول الشعر، ونقش خاتمه: من أحب نفسَه عمل لها.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١٢.

قال ابنُ النجار: حكى ابنُ صفية أنَّ المقتفي رأى ابنه يوسف في الحر، فقال: أيشٍ في فمِك؟ قال: خاتم يَزْدَن عليه أسماءُ الاثني عشر، وذلك يسكِّن العطش. قال: ويلك يريد يَزْدَن أن يصيّرك رافضياً، سيدُ الاثني عشر الحسين رضي الله عنه، ومات عطشان.

وللمستنجد:

عيَّرتني بالشَّيْبِ وهو وَقارُ	ليتَها عَيَّرتْ بما هُو عارُ
إن تكُن شابَتِ الذَّوائِبُ مِنِّي	فالليالي تَزينُها الأقمارُ

[رؤيا]

نبّأني جماعةٌ عن ابنِ الجوزي، حدثني الوزير ابنُ هُبيرة، حدثني المستنجد قال: رأيتُ رسول الله ﷺ في النوم منذ خمس عشرة سنة، فقال لي: يبقى أبوك في الخلافة خمساً وعشرين سنة. فكان كما قال، فرأيته قبل موت أبي بأربعة أشهر، فدخل بي من باب كبير، ثم ارتفعنا إلى رأس جبل، وصلى بي ركعتين، وألبَسني قميصاً، ثم قال لي: قل: اللهم اهْدِني فيمَنْ هَدَيْتَ.

ثم قال ابنُ الجوزي: أقرَّ المستنجد أرباب الولايات، وأزال المكوس والضرائب.

ونقل صاحب «الروضتين» أنه كان موصوفاً بالعدل والرفق، وأطلق المكوس بحيث إنه لم يترك بالعراق مُكساً، وكان شديداً على المفسدين، سجن عوانياً كان يسعى بالناس مدةً، فبذل رجل فيه عشرة آلاف دينار، قال المستنجد: فأنا أَبْذُلُ عشرة آلاف دينار لتأتيني بآخر مثلِه أحبِسُه.

قال ابنُ الأثير في «كامله»: كان المستنجد أسمرَ، تامَّ القامة، طويل اللحية اشتد مرضُه، وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدولة ابنُ رئيس الرؤساء وقايماز المُقْتَفَوي كبيرُ الأمراء فواضعا الطبيب على أذيَّتِه، فوُصف له الحمَّام، فامتنع لضَعْفِه،

ثم أُدخل الحمام، وأُغلق عليه، فتلِفَ، هكذا سمعتُ غير واحد ممن يعلم الحال.
قال: وقيل: إن الخليفة كتب إلى وزيره مع ابن صفية الطبيب يأمره بالقبض على قايماز وعضد الدولة وصَلبِهما، فأرى ابنُ صفية الخطَّ لعَضُد الدولة، فاجتمع بقايماز ويَزْدَن، فاتفقوا على قتله، فدخل إليه يَزْدَن وآخر، فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث، وأغلقاه عليه.

قلت: أول من بايع المستنجد عمُّه أبو طالب، ثم أخوه أبو جعفر، ثم ابن هُبيرة، وقاضي القضاة الدامغاني.

وقيل: إن المستنجد كان فيه عدلٌ ورِفق، بطَّل مكوساً كثيرة.

قال ابنُ النجار: كان موصوفاً بالفهم الثاقب، والرأي الصائب، والذكاء الغالب، والفضل الباهر، له نظمٌ ونثرٌ، ومعرفةٌ بالأسْطُرلاب، توفي في ثامن ربيع الآخر سنة ستٍّ وستين وخمس مئة، وقام بعده ابنه المستضيء.

[من فقه الذهبي]

قلت: الإمام إذا كان له عقل جيد ودين متينٌ، صَلُحَ به أمرُ الممالك فإن ضَعُفَ عقلُه، وحسُنَت ديانتُه، حمله الدين على مشاورة أهل الحَزْم، فتسدَّدت أمورُه، ومَشَت الأحوال، وإن قلَّ دينه، ونَبُلَ رأيُه، تعبت به البلاد والعباد، وقد يَحْمِلُهُ نُبْلُ رأيِهِ على إصلاح مُلكه ورعيَّته للدنيا لا للتقوى، فإن نَقَصَ رأيُه، وقلَّ دينه وعقلُه، كَثُرَ الفساد، وضاعت الرعيةُ وتَعِبُوا به، إلا أن يكون فيه شجاعةٌ وله سطوةٌ وهيبةٌ في النفوس، فينجبر الحال، فإن كان جَباناً قليل الدين، عديم الرأي، كثير العَسْف، فقد تعرض لبلاءٍ عاجل، وربما عُزِلَ وسُجِنَ إن لم يُقتل، وذهبت عنه الدنيا، وأحاطت به خطاياه وندم -والله- حيثُ لا يُغني الندمُ، ونحن آيسون اليوم من وجود إمام راشدٍ من سائر الوجوه، فإن يسَّر اللهُ للأمة بإمامٍ فيه كثرة محاسن وفيه مساوئ قليلة، فمن لنابه، اللهم فأصلِح الراعي والرعية، وارحم عبادَك، ووفِّقْهم، وأيِّد سلطانهم، وأعنهُ بتوفيقِكَ.

العثماني[1]

العلاّمة المُفتي، أبو عبدالله، محمد بن أحمد بن يحيى، العثماني المقدسي الشافعي الأشعري، نزيل بغداد، من ذرية محمد بن عبدالله الدِّيباج.

مولده سنة اثنتين ستين وأربع مئة ببيروت.

ودرَّس وأقرأ، ووعظ، وحج مرات.

قال ابن كامل لم أرَ في زماني مثلَه، جمع العلمَ والعمل والزُّهدَ والوَرَع والمروءة وحُسنَ الخُلُق، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً.

قال أبو الفرج بن الجوزي: رأيتهُ يَعِظُ بجامع القصر، وكان غالياً في مذهب الأشعري.

وقال ابن عساكر: كان يُفتي ويُناظر ويُذكِّر، وكانت مجالس تذكيره قليلة الحشو، على طريقة المُتَقدِّمين، مات في سابع عشر صفر سنة سبع وعشرين وخمس مئة.

[من فقه الذهبي]

قلت -القائل هو الذهبي-: غُلاةُ المعتزلة، وغُلاةُ الشيعة، وغُلاة الحنابلة، وغُلاةُ الأشاعرة، وغُلاةُ المرجِئة، وغُلاةُ الجهمية، وغُلاةُ الكَرّامية، قد ماجت بهم الدنيا، وكثروا، وفيهم أذكياء وعُبّادٌ وعلماء، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرَأُ إلى الله من الهوى والبِدَعِ، ونُحِبُّ السُّنَّة وأهلَها، ونُحِبُّ العالِمَ على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نُحِبُّ ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العِبْرَةُ بكثرة المحاسن.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٤.

ومن حوادث ٥٩١[(١)]

وفي سنة إحدى وتسعين وخمس مئة: استولى ابن القَصّاب على همذان فضرِبت الطبول ببغداد، وعَظُم ابن القَصّاب ونَفَّذَ إليه خُوارزم شاه يتوعده لما عاث بأطراف بلاده، ثم مات ابن القَصّاب، وأقبل خوارزم شاه فهزم جيش الخليفة، ونبشَ الوزير موهِماً أنه قُتِل في المصاف.

وفيها جدد العزيز هُدنة مع كُنْدهري[(٢)] طاغية الفرنج فما لبث الكلب أن سَقَط من موضع بعَكّا فمات، واختلت أحوال الفرنج قليلاً، وأقبل الأفضل على التعبد ودَبَّرَ مُلْكَهُ ابنُ الأمير ضياء الدين[(٣)]، فاختلت به الأحوال[(٤)].

[وقعة الزلاقة]

وكانت بالأندلس المَلْحَمة العظمى، وقعة الزلاقة بين يعقوب وبين الفُنْش الذي استولى على بلاد الأندلس، فأقبل اللعين في مئتي ألف، وعرض يعقوب جُنده فكانوا مئة ألف مرتزقة، ومئة ألف مُطَّوِّعة، عدوا البحر إلى الأندلس فنزل النصرُ ونجا قليل من العدو؛ قال أبو شامة: عدة القَتْلَى مئة ألف وستة وأربعون ألفاً، وأُسِر ثلاثون ألفاً، وأُخِذَ من خيامهم مئة ألاف خيمة وخمسون ألفاً، ومن الخيل ثمانون ألف رأس، ومن البغال مئة ألف، من الحَمير التي لأثقالهم أربع مئة ألف، وبيع الأسير بدِرهم، والحِصان بخمسة، وقسم السلطان الغنيمة على الشريعة، واستغنوا. وكانت الملحمة يوم تاسع شعبان.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢١٦.

(٢) يعني: الكونت هنري.

(٣) ضياء الدين نصر الدين محمد المتوفى سنة ٦٣٧.

(٤) إشارة من الذهبي إلى أن سيرته لم تُحمد في وزارته للأفضل وقد خرج متخفياً.

[من حوادث ٥٩٢]

وفي سنة اثنتين وتسعين وخمس مئة: فيها أُطلق طاشتكين أمير الحاج وأعطي خوزستان.

وفيها حاصر العزيز دمشق ثالثاً، ومعه عمه فتملكها وذلَّ الأفضل. وأقبل خوارزم شاه ليتملك بغداد.

وفيها التقى الفُونش، ويعقوب ثانياً فانكسر الفُنش، وساق يعقوب خلفه إلى طُلَيطلة ونازلها وضربَه بالمَنْجنيق، ولم يبقَ إلا أخذها، فخرج إليه أُمُّ الفُنش وبناتُه يبكين فرقّ لهن ومَنَّ عليهن وهادن الفُنش،لأن ابن غانية غلب على أطراف المغرب فتَفَرَّغ يعقوب له.

وفيها كتب الفاضل إلى القاضي محيي الدين ابن الزكي:

[الصواعق والرياح]

ومما جرى بأسٌ من الله طرق ونحنُ نِيام، وظُنَّ أنه الساعة، ولا يحسب المَجْلِس أني أرسلت القلم مُحَرّفاً، والقول مُجَزَّفاً، فالأمر أعظمُ، أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، قوي أُلْهُوْبُها، واشتد هُبوبُها، وارتفعت لها صعقاتٌ، ورَجَفَت الجُدُر، واصطفقت وتلاقت واعتنقت، وثارَ عجاجٌ فقيل: لعل هذه على هذه قد انطبقت، فَفَرّ الخَلْق من دُورِهم يستغيثون، قد انقطعت عُلقهم، وعَميت عن النجاة طرقهم، فدامت إلى الثلث الأخير وتكسّرت عدة مراكب. إلى أن قال: والخطب أشق، وما قضيتُ بغير الحق.

وفيها أخذت الفرنج بيروت، وهرب متوليها سامة.

وفي سنة ٥٩٤: تملك خوارزم شاه بُخارى أخذها من صاحب الخطا بعد حروب عظيمة.

وفي سنة ٥٩٥: حاصر خوارزم شاه الري، وكان عصى عليه نائبه بها فظفر به، ونفذ إليه الناصر تقليداً بالسلطنة، فلبس الخِلْعَة، وحاصر أَلُمُوْتَ فوثب باطني على وزيره فقتله، وقتلوا رئيس الشافعية صدر الدين ابن الوَزَّان.

ومات سلطان المغرب يعقوب، فتملك ولده محمد.

ومات صاحب مصر الملك العزيز صلاح الدين، وأقبل الأفضل من صرخد إلى مصر فدَبَّر دولة عليّ ابن العزيز، ثم سار بالجيش، ونازل عَمَّهُ العادل بدمشق، وأحرقَ الحواضر، وكاد أنْ يملك، وضايق البلد أشهُراً وجاءت النجدةُ العادلَ فكبسوا المصريين، وضعف أمر الأفضل.

سنة ٥٩٦: مات السلطان علاء الدين تُكُش بن آتْسِز خوارزمشاه وتسلطن بعده ابنه محمد.

واشتد الحصار على دمشق وتَمَحَّقت خزائن العادل على العسكر، واستدان، واشتد الغلاء والبلاء وبدمشق، وأقبل الشتاء فتَرَحَّل الأفضلُ والظاهرُ، فبادر العادل وقصد الأفضلَ فأدركه بالغُرابيّ، ودخل القاهرة وتمكَّن وردَّ الأفضل منحوساً إلى صَرْخَد بعد مصاف بينه وبين عمِّه، ثم استناب العادل بمصر ولده الكامل، وعزل المنصور عليّ ابن العزيز، وقال: هذا صَبيّ يريد المَكْتَب.

ونقص النيل ووقع القحط، وهلك أهل مصر، وكان ذلك من الآيات الكبار فإن النيل كسر من ثلاثة عشر ذراعاً سوى ثلاثة أصابع.

ودخلت سنة سبع وتسعين وخمس مئة؛ والبلاءُ شديد، وأكلوا الجِيَف، ولحوم الآدميين، وجرى ما لا يُعبَّر عنه.

قال الموفق عبداللطيف: وعدم البيض ولما وجد بيعت البيضة بدرهم، وبيع فروج بمئة، وبيع مُديدة بدينار، والذي دخل تحت قلم الحشرية من الموتى في اثنين وعشرين شهراً مئة ألف وأحد عشر ألفاً إلا شيئاً يسيراً وهو نَزْر في جنب ما هلك

بمصر والحواضر، وكله نَزْر في جنب ما هلك بالإقليم، وسمعنا من ثقات عن الإسكندرية أن الإمام صلى يوم جمعة على سبع مئة جنازة. ثم ساق عدة حكايات في أكل لحم بني آدم. وتمت زلزلة فكانت حركتها كالغربلة في جوف الليل، قال: فصح عندي أنها حرَّكت من قُوص إلى الشام، وتعَفَّت بلاد كثيرة، وهلك أمم لا تحصى، وأنْكَت في بلاد الفرنج أكثر، وسمعنا أنها وصلت إلى خِلاط، وجاءني كتاب من الشام فيه: «كادت لها الأرض تسير سيراً والجبال تمور موراً، وما ظننا إلا أنها زلزلة الساعة، وأتت دفعتين الأولى مقدار ساعة أو أزيد، والثانية دون ذلك لكن أشد». وفي كتاب آخر: «دامت بقدر ما قرأ سورة الكهف، وأن صَفَد لم يسلم بها سوى ولد صاحبها...»

قلت: في هذا الكتاب خسف وإفك. وفيه أن عِرقة وصافيثا خُسِفَ بهما.

وقال أبو شامة: وفي شعبان جاءت زلزلة عَمَّت الدنيا في ساعة واحدة، فهدمت نابلس، فمات تحت الهَدْم ثلاثون ألفاً، وهُدِمت عكّا وصور وجميع قلاع الساحل.

قلت: وهذه مجازفة ظاهرة.

قال: ورمت بعض المنارة الشرقية وأكثر الكلاّسة والمارستان وعامة دور دمشق، وهرب الناس إلى الميادين، وسقط من الجامع ستة عشر شُرفة، وتشَقّقت قُبّة النسر. إلى أن قال -والعُهدةُ عليه-: وأُحْصِيَ من هَلك في هذه السنة فكان ألف ألف ومئة ألف إنسان. ثم قال: نقلت ذلك من تاريخ أبي المظفر سبط ابن الجوزي.

وكانت خراسان في هيج وحروب على المُلْك، والتقى جيش السلطان غياث الدين الغوري كفار الهند فانهزم الكفار.

وأنبأني ابن البُزُوري في تاريخه، قال: زُلْزِلت الجزيرة والشام ومصر، فتخرّبت أماكن كثيرة جداً بدمشق وحمص وحماة، واستولى الخراب على صُور وعكا ونابلس وطرابلس، وانخسفت قرية، وخربت عدة قلاع.

وحارب المعز بن إسماعيل بن سيف الإسلام صاحب اليمن عَلَوياً خرج عليه فهزم العلوي وقتل من جنده ستة آلاف، وقهر الرعية، وادعى أنه أُموي، وتسمَّى بأمير المؤمنين.

وقَدِمَ مدرس النظامية، وكان قد بُعث رسولاً من الناصر إلى الغوري.

ونُدب طاشتكين للحج، ولمحاربة المعز باليمن، فبعث إلى أمراء ينذرهم ويحضُّهم على طاعة الإمام، فشدوا على المُعزّ فقتلوه.

سنة ثمان وتسعين وخمس مئة: تناقص الفناء بمصر لقِلّة من بقيَ، فكم من قرية كبيرة لم يبقَ بها بشر، حتى لَنَقَلَ بعضهم أن بَلَداً كان بها أربع مئة نول للنساجة لم يبقَ بها أحد.

من حوادث سنة ٥٤٦[١]

وفي سنة ٥٤٦ عاود نور الدين محاصرة دمشق، وراسلهم نور الدين: إني أوثِرُ إصلاحَ الرعية وجهاد الفِرنج، فإن أعانني عسكركُم على الغزو، فهو المُراد. فنفروا، وامتنعوا، وخَرِبَتِ الغوطة، وعاث العسكر، وتحركت الفرنج إنجاداً لملكِ دمشق، فضاقت صدور الأخيار، وجُرِحَ خلق، ثم تحوَّل نور الدين إلى البِقاع لما جاءت جيوش الفرنج نجدةً، فطلبوا من دمشق مالَ القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين، ثم عاد نور الدين إلى داريا، وبرز عسكر البلد، ووقعت المناوشة، وتصالحوا، ثم سار ملكُ دمشق مجير الدين إلى خدمة نور الدين إلى حلب، فأكرمه، وبقي كنائبٍ لنور الدين بدمشق، وافتتح نور الدين أنطرطوس وتل باشِر وعدةَ مَعاقل للفرنج، ونازلت أربعون ألفاً من الفرنج قرطبة ثلاثة أشهر، حتى كادوا أن يأخذوها، فكشف عنها جيش عبد المؤمن، وكانوا اثني عشر ألفاً، وقَدِم السلطان مسعودٌ بغداد.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٠٨.

وفي سنة ٥٤٧ مات مسعود، وقام بعده أخوه محمد، وعظُم شأن المقتفي، وسار إلى واسطٍ، فمهَّدها، وعطف إلى الكوفة، ثم عاد مؤيداً منصوراً، فعُمِلَتْ له قِباب الزينة.

وفي سنة ٥٤٨ أخذت الفرنج عَسْقلان، واشتدَّ الغلاء بدمشق، ومات الفقراء، فطَمِع نور الدين في أخذِها، ففي أول سنة تسع قدم شيركوه رسولاً، فنزل في ألف فارس، فلم يخرجوا لتلقِّيه، وقويت الوحشة، وأقبَلَ نور الدين، فنزل ببيت الأبّار، وزَحَفَ على البلد مرتين، وأقبَلَ عسكرُهُ إلى باب كيسان، فإذا ليس على السور كبير أحدٍ، فتقدَّم راجلٌ، فرأته يهوديةٌ، فدلَّت له حبلاً، فصار على السور، وتبعه جماعةٌ، فنصبوا سَنْجَقاً، وصاحوا: نور الدين يا منصور. وفتر القتالُ، وبادر قَطَّاعُ خشب بفأسِه، فكسر قُفْل باب شرقي، ودخل نور الدين، وفرحت به الرعية، فتحصَّن الملك مُجير الدين بالقلعة طالباً للأمان، ثم نزل، فطيَّبَ نور الدين قلبَه، وخرج بأمواله إلى الدار الأتابكية، ثم ذهب إلى حمص، وكُتِبَ له بها منشور.

وأقبلت الغزُّ التركمان، فنهبوا نيسابور، وعذَّبوا وقتلوا بها ألوفاً، وخدموا السلطان سَنْجَر، وأخذوه معهم، فصار في حال زَرِيَّة بعد العِزّ والمُلك، يركب أكدُشاً، وربما جاع.

[صاعقة عظيمة]

وفيها يوم الجمعة ثاني شوال وقعت صاعقةٌ عظيمة في التاج الذي بدار الخلافة، فتأجَّجت فيه وفي القُبَّة والدار، فبقيت النار تعمل فيه تسعة أيام، حتى أُطفئت بعد أن صيَرتهُ كالحُمَمَة، وكانت آيةً هائلةً وكائنةً مدهشة، وكان هذا التاج من محاسن الدُّنيا، أنشأهُ المكتفي في دولته، وكان شاهقاً بديع البناء، ثم رُمَّ شَعْثُه وطُرِّي.

وفي سنة خمسين وخمس مئة سار المقتفي إلى الكوفة، واجتاز بسوقها، وقُتِلَ في العام الماضي الظافر بمصر، وقدِمَ طَلائِع بن زُرِّيك من الصعيد للأخذ بثأر الظافر

من قاتله عباسٍ، ففر عباسٌ نحوَ الشام بأمواله، فأخذتْهُ فِرَنجُ عسقلان، فقتلوه، وباعوا ابنه نصراً للمصريين، واضطرب أمرُ مصر، وعزمت الفرنج على أخذها، وأرست مراكب جاءت من صقلية على تِنِّيس، فهجموها، وقتلوا، وسبَوْا، وافتتح نور الدين قِلاعاً للفرنج وبعض بلاد الروم بالأمان، واتسع ملكُه، فبعث إليه المقتفي تقليداً، ولقَّبه بالملك العادل، وأمره بقصد مصر.

سليمان بن داود[1]

ابن آخر الفاطمية العاضد بالله عبدالله ابن الأمير يوسف بن الحافظ العُبَيْديِّ.

كانت الدعوة بين الإسماعيلية له، وكان معتقلاً بقلعة الجَبَل، ولهم فيه مع فرط جَهْلِهِ وغباوَتِهِ اعتقادٌ زائدٌ، ولما هَلَكَ العاضد خلّف صبيّاً حبسه السلطان صلاح الدين، ثم كبر وتحيّلوا فأدخلوا إليه سرَيَّةً بهيئة غلام فأحبلها، وأُخرجت فولدته بالصَّعيد، أعني: سليمان بن داود، وأُخفي ولقّب الحامد لله، فوقع به الملك الكامل فاعتقله حتى ماتَ في الحبس بلا عقبٍ، وتقول الجَهَلَةُ: له ولد مخفيٌّ.

مات سليمان في شوال سنة خمسٍ وأربعين وستِّ مئةٍ، وبقي بعدَهُ شيخٌ من بني عمِّه اسمُهُ قاسمٌ، وهو محبوسٌ، ونسبُهُ مطعونٌ فيه. وأما داودُ فمات في أيام العادل.

كبير الإسماعيلية

سنان[2]

راشد الدين، كبير الإسماعيلية وطاغوتهم، أبو الحسن سنان بن سَلْمان بن محمد البصري الباطني، صاحب الدعوة النِّزارية.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٧١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٨٢.

كان ذا أدبٍ وفضيلة، ونظرٍ في الفلسفة وأيام الناس، وفيه شهامةٌ ودهاء ومكر وغور، فذكر رسولٌ له هو سعد الدين عبدالكريم، قال: حكى الشيخ سِنان: قال: وردتُ الشام، فاجتزتُ بحلب، فصلَّيتُ العصرَ بمشهدٍ على ظاهر باب الجنان، وثَمَّ شيخٌ مُسِنٌّ، فقلتُ: مِنْ أينَ الشيخُ؟ قال: مِنْ صبيانِ حلب.

[الدعوة النزارية]

قلتُ: الدعوةُ النِّزارية نسبةٌ إلى نِزار ابن خليفة العُبَيْدِيَّة المستنصر[1]، صيَّره أبوه وليَّ عهده، وبثَّ له الدُّعاةَ، فمنهم صَبَّاح جدُّ أصحاب الألموت، أحد شياطين الإنس، ذو سَمْتٍ، وذلقٍ، وتخشُّعٍ، وتَنَمُّسٍ، وله أتباعٌ. دخل الشام والسواحل في حدود ثمانين وأربع مئة، فلم يتمَّ له مرامُهُ، فسار إلى العجم، وخاطب الغُتْمَ[2] الصمَّ، فاستجاب له خلقٌ وسَلَخَهم، وحلَّهم، وكَثُروا، وأظهروا شغلَ السكين والوثوبَ على الكبار، ثم قَصَدَ قلعة الألموتِ بقزوين، وهي منيعةٌ بأيدي قوم شجعان، لكنَّهم جَهَلَةٌ فقراء، فقال لهم: نحن قومٌ عُبَّادٌ مساكين، فأقاموا مُدَّةً، فمالوا إليهم، ثم قال: بِيْعُونا نصف قلعتِكم بسبعة آلاف دينار، ففعلوا، فدخلوها، وكثروا، واستولى صبَّاح على القلعة، ومعه نحو الثلاث مئة، واشتهر بأنه يُفْسِدُ الدين، ويحلُّ من الإيمان، فنهد له ملكُ تلك الناحية، وحاصر القلعة مع اشتغاله بلعبه وسكره، فقال عليٌّ اليعقوبي من خواصِّ صبَّاح: أيش يكون لي عليكم إن قتلتُه؟ قالوا: يكون لك ذُكْران في تسابيحنا، قال: رضيتُ، فأمرهم بالنزول ليلاً، وقسَّمهم أرباعاً في نواحي ذلك الجيش، ورتَّب مع كل فرقةٍ طبولاً، وقال: إذا سمعْتُم الصيحة، فاضربوا الطبول، فاختبط الجيش، فانتهز الفرصة، وهجم على الملك فقتَله وقُتل،

(١) مات المستنصر العبيدي سنة ٤٨٧ كما هو مذكور مشهور في تواريخ عصره.

(٢) الغُتم: جمع أغْتَم، وهو الذي لا يُفصح شيئاً. وفي «تاريخ الإسلام»: وتكلم مع أهل الجبال والغتم الجهلة من تلك الأراضي.

وهرب العسكر، فحَوَتْ الصبَّاحيَّةُ الخيام بما حَوَتْ، واستغنوا، وعظُمَ البلاء بهم، ودامت الألموتُ لهم مئةً وستين عاماً، فكان سنان من نوابهم.

فأما نِزارٌ، فإنَّ عمَّتَهُ عَمِلَتْ عليه[1]، وعاهدت الأمراء أن تقيمَ أخاه صبيّاً، فخاف نِزارٌ، فهرب إلى الإسكندرية، وجَرَتْ له أمورٌ وحروب، ثم قُتِل، وصار صبَّاح يقول: لم يَمُتْ، بل اختفى، وسيظهر، ثم أحبلَ جاريةً، وقال لهم: سيظهرُ من بَطْنِها، فأذعنوا له، واغتالوا أمراء وعلماء[2] خبطوا عليهم، وخافتْهم الملوك، وصانعوهم بالأموال.

وبعث صبَّاحٌ الداعي أبا محمدٍ إلى الشام، ومعه جماعةٌ، فقَوِيَ أمرُهُ، واستجاب له الجبليةُ الجاهلية، واستولوا على قلعةٍ من جبل السماق.

ثم هَلَكَ هذا الداعي، وجاء بعدَهُ سِنان، فكان سخطةً وبلاءً، مُتَنسِّكاً، مُتَخشعاً واعظاً، كان يجلس على صخرةٍ كأنه صخرةٌ لا يتحرك منه سوى لسانِهِ، فرَبَطهم، وغَلَوا فيه، واعتقد منهم به الإلهية، فتبَّاً له ولجهلهم، فاستغواهم بسحرٍ وسيمياء، وكان له كتبٌ كثيرةٌ ومطالعةٌ، وطالت أيامُهُ.

وأما الأَلْمُوت[3] فوليها بعد صَبَّاحٍ ابنُه محمدٌ، ثم بعده حفيده الحسن بن محمد الذي أظهر شعار الإسلام، ونبذ الانحلال تَقِيَّةً، وزَعَمَ أنه رأى الإمام عليّاً، فأمره بإعادة رسوم الدين، وقال لخواصِّه: أليس الدينُ لي؟ قالوا: بلى، قال: فتارةً أَضَعُ عليكم التكاليف، وتارةً أرفضُها، قالوا: سمعنا وأطعنا، واستحضر فقهاء وقرَّاء ليُعلموهم[4]. وتخلَّصوا بهذا من صَوْلة خوارزمشاه.

---

(١) يعني عملت ضده، وفي «تاريخ الإسلام»: خافت منه.

(٢) ذكر الذهبي في «تاريخ الإسلام» أن الاغتيال بالسكاكين سنَّةٌ سنَّها لهم علي اليعقوبي.

(٣) انظر عن هذه القلعة وتاريخها دائرة المعارف الإسلامة: ٤/ ٣٧١ (ط. الجديدة).

(٤) في الأصل: «يعلموهم».

نعم، وكان سنان قد عَرِجَ من حجرٍ وقع عليه في الزلزلة الكبيرة زمن نور الدين، فاجتمع إليه مُحِبُّوه على ما حكى الموفَّقُ عبداللطيف ليقتلوه، فقال: ولِمَ تقتلوني؟ قالوا: لتعود إلينا صحيحاً، فشكر لهم، ودعا[1]، وقال: اصبروا عليَّ، يعني ثم قتلهم بحيلةٍ. ولما أرادأن يحلِّهم من الإسلام، نَزَلَ في رمضان إلى مَقْثَاةٍ[2]، فأكل منها، فأكلوا معه.

قال ابنُ العديم في «تاريخه»: أخبرني شيخٌ أدرك سناناً أنه كان بصرياً يُعلِّم الصبيان، وأنه مرَّ وهو طالعٌ إلى الحصون على حمارٍ، فأراد أهل إقميناس[3] أخذ حماره، فبعد جهدٍ تركوه، ثم آلَ أمرُهُ إلى أن تملَّك عدة قلاعٍ. أوصى يوماً أتباعَهُ، فقال: عليكم بالصفاء بعضُكم لبعضٍ، لا يمنعنَّ أحدكم أخاه شيئاً له، فأخذ هذا بنتَ هذا، وأخذ هذا أختَ هذا سفاحاً، وسموا نفوسهم الصُّفاة، فاستدعاهم سنان مرةً، وقتل خلقاً منهم.

قال ابنُ العديم: تمكّن في الحصون، وانقادوا له. وأخبرني عليُّ ابنُ الهواري أن صلاح الدين سيَّر رسولاً إلى سنان يتهدَّده، فقال للرسول: سأُريك الرجال الذين ألقاه بهم، فأشار إلى جماعةٍ أنْ يَرْموا أنفسَهُمْ من أهل الحصنِ من أعلاه، فألقوا نفوسهم، فهلكوا.

قال: وبلغني أنه أحلّ لهم وطءَ أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم وأسقط عنهم صوم رمضان.

قال: وقرأتُ بخطِّ أبي غالب بن الحُصَيْنِ أنَّ في محرم سنة تسع وثمانين وخمس مئة هلك سنان صاحب الدعوة بحصن الكهف، وكان رجلاً عظيماً خفيَّ الكَيْدِ، بعيد الهمَّة، عظيم المخاريق، ذا قدرةٍ على الإغواء، وخديعة القلوب، وكتمان السر،

---

(١) يعني: «ودعا لهم» كما في «تاريخ الإسلام».

(٢) المقثأة: الموضع الذي يزرع فيه القثاء.

(٣) قرية كبيرة من أعمال حلب في جبل السماق ذكر ياقوت أن أهلها إسماعيلية.

واستخدام الطَّغام والغفلة في أغراضه الفاسدة. وأصله من قرى البصرة، خَدَمَ رؤساء الإسماعيلية بألَموت، وراضَ نفسه بعلوم الفلاسفة، وقرأ كثيراً من كتب الجدل والمغالطة ورسائل إخوان الصفاء، والفلسفة الإقناعية المشوَّقة لا المُبَرْهَنَة، وبنى بالشام حُصوناً، وتوثَّب على حصونٍ، ووعَّر مسالكها، وسالمَتْهُ الأنام، وخافته الملوك من أجل هجوم أتباعه بالسكين. دام له الأمر نيِّفاً وثلاثين سنة، وقد سيَّر إليه داعي الدعاة من قلعة ألَمُوتَ جماعةً غير مرَّةٍ ليقتلوه لاستبداده بالرئاسة، فكان سنان يقتُهلم، وبعضهم يخدعه، فيصيرُ من أتباعه.

قال: وقرأتُ على حسينٍ الرازي في «تاريخه» قال: حدثني معين الدين مودود الحاجب أنه حضر عند الإسماعيلية في سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة، فخلا بسِنان، وسأله فقال: نشأت بالبصرة، وكان أبي من مقدَّميها، فوقع هذا الأمر في قلبي، فجرى لي مع إخوتي أمرٌ، فخرجتُ بغير زادٍ ولا ركوب، فتوصّلْتُ إلى الألَمُوتِ، وبها الكيا[1] محمد بن صَبَّاح، وله ابنان حسنٌ وحسين، فأَقْعَدَني معهما في المكتب، وكان يَبُرُّني بِرَّهما، ويساويني بهما، ثم مات، وولي حسن بن محمد، فنفَّذني إلى الشام، فخرجتُ مثل خروجي من البصرة، وكان قد أمرني بأوامر، وحمَّلني رسائل، فدخلتُ مسجد التمارين بالموصل، ثم سرتُ إلى الرقة، فأدَّيتُ رسالتَه إلى رجل، فزوَّدني، واكتَرَى لي بهيمةً إلى حلب، ولقيتُ آخر برسالته، فزوَّدني إلى الكهف، وكان الأمرُ أن أُقيم هنا، فأقمتُ حتى مات الشيخ أبو محمد صاحب الأمر، فولي بعده خواجا علي بغير نصٍّ، بل باتفاق جماعةٍ، ثم اتفق الرئيس أبو منصور ابنُ الشيخ أبي محمد والرئيس فَهَدٌ، فبعثوا من قتل خواجا، وبقي الأمرُ شورى، فجاء الأمر من الألَموتِ بقتل قاتله وإطلاق فهد، وقُرئت الوصية على الجماعة، وهي:

هذا عهدٌ عهِدْناه إلى الرئيس ناصر الدين سنان، وأمَرْناه بقراءته على الرِّفاق والإخوان، أعاذكم الله من الاختلاف واتباع الأهواء، إذ ذاك فتنةُ الأوّلين، وبلاءُ

---

(١) الكيا: الرئيس.

الآخرين، وعبرةٌ للمعتبرين، من تبرّأ من أعداء الله وأعداء وليِّه ودينه، عليه موالاةُ أولياء الله، والاتحاد بالوحدة سُنّة جوامع الكَلِم، كلمة الله والتوحيد والإخلاص. لا إله إلا الله عروة الله الوثقى، وحبلُهُ المتين، ألا فتمسَّكوا به، واعتصموا به، فبه صلاح الأولين، وفلاح الآخرين، أجمِعوا آراءَكم لتعليم شخص معين بنصٍّ من الله ووليِّه، فتلقُّوا ما يُلقيه إليكم من أوامره ونواهيه بقبولٍ، فلا وربِّك لا تؤمنون حتى تُحكِّموه فيما شجر بينكم ثم لا تجدوا في أنفسكم حرجاً مما قضى وتسلِّموا تسليماً[1]، فذلك الاتحاد بالوحدة التي هي آية الحق المنجية من المهالك، المؤدية إلى السعادة، إذ الكثرة علامة الباطل المؤدية إلى الشقاوة المخزية، فنعوذ بالله من زواله، وبالواحد مِن آلهةٍ شتى، وبالوحدة من الكثرة، وبالنص والتعليم من الأدواء والأهواء، وبالحق من الباطل، وبالآخرة الباقية من الدنيا الملعونة، إلا ما أُريد به وجه الله، فتزوَّدوا منها للأخرى، وخيرُ الزاد التقوى، أطيعوا أميرَكُمْ ولو كان عَبْداً حَبَشِيّاً.

قال ابنُ العديم: كتب سنان إلى صاحب شَيْزر يُعزِّيه بأخيه:

إنَّ المنايـــا لا تَطَـــا بمنســـمٍ ... إلاّ عـــلى أكتـــاف أهـــلِ السُّـــؤْدُدِ

فَلَـئِنْ صَـبَرتْ فأنْـتَ سـيدُ مَعْشَـرٍ ... صَـبَروا وإنْ تجْـزَعْ فغـيرُ مُفَنَّـدِ

هــذا التَّنـاصُرُ باللسـانِ ولــو أتــى ... غــيرُ الحِـمام أتـاكَ نصـري باليـدِ

وهي لأبي تمام.

وكتب سنانُ إلى صلاح الدين:

يــا للرجــالِ لأمــرٍ هــالَ مقطعُــهُ ... مــا مــرَّ قــطُّ عــلى سَــمْعي توقُّعُــهُ

فــإذا الــذي بقــراعِ السـيفِ هــدَّدَنا ... لا قامَ مَصْــرَعُ جَنْبِي حين تَصْــرَعهُ

---

(١) مأخوذ من الآية ٦٥ من سورة النساء: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

قـــام الحَـــمامُ إلى البـــازي يُهـــدِّدُهُ   واســـتيقظَتْ لأُسُـــودِ الـــبَرِّ أضـــبُعُهُ

وقفتُ على تفصيل كتابكم وجُمله، وعلمنا ما هدَّدنا به من قوله وعمله، فيا لله العجبُ من ذبابةٍ تطنُّ في أُذُن فيلٍ، وبعوضة تعدُّ في التماثيل، ولقد قالها من قبْلِكَ قومٌ، فدمَّرْنا عليهم، وما كان لهم من ناصرين. أللحق تدحضون، وللباطل تنصرون؟! وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ مُنقلبٍ ينقلبون. ولئن صدر قولك في قطع رأسي، وقلعِكَ لقلاعي من الجبال الرواسي، فتلك أمانيُّ كاذبةٌ، وخيالاتٌ غير صائبةٍ، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض، كما أن الأرواح لا تضمحلُّ بالأمراض. وإن عدنا إلى الظاهر وعدلنا عن الباطن فلنا في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ: «ما أوذِيَ نبيٌّ ما أوذِيْت»[(١)] وقد علمت ما جرى على عترتِه وشيعَتِه، فالحالُ ما حال، والأمر ما زال، وقد علمتُم ظاهر حالنا، وكيفية رجالِنا، وما يتمنَّونَهُ من الفوتِ، ويتقربون به من حياض الموت، وفي المَثَل: أو للبطِّ تُهدِّدُ بالشطِّ؟، فهيِّئ للبلايا أسباباً، وتدرَّعْ للرَّزايا جلباباً، فلأظْهَرَنَّ عليكَ منك، وتكونُ كالباحث عن حتفه بظلفه، وما ذلك على الله بعزيزٍ، فكنْ لأمرِنا بالمرصاد، واقرأْ أوَّل النَّحْلِ[(٢)] وآخر ص[(٣)].

قال النجم ابن إسرائيل: أخبرني المنتَجبُ بن دفترخوان، قال: أرسلني صلاح الدين إلى سنان حين قفزوا على صلاح الدين المرة الثالثة، ومعي القطب النيسابوري يُهدِّده، فكتب على طرّة كتابِهِ: جاء الغُراب إلى البازي يهدده... وذكر الأبيات، وقال: هذا جوابه، إنَّ صاحبَك يحكُمُ على ظاهر جُنْدِ، وأنا أحْكُمُ على باطن جندي، وسترى دليلَهُ، فدعا عشرةً من صبيان القاعة، فألقى سكِّيناً في الخندق، وقال: مَنْ أراد هذه، فليقع خلْفَها، فتبادروا جميعاً خلفها وَثْباً، فتقطعوا، فعُدنا، فصالحه صلاح الدين.

---

(١) روي بأسانيد ضعيفة من حديث أنس وبريدة وجابر، انظر «الجامع الصغير» وشرحه ٥/ ٤٣٠-٤٣١

(٢) ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ...﴾.

(٣) ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾.

وذكر قطب الدين في «تاريخه»: أنَّ سناناً سيَّر رسولاً إلى صلاح الدين، فلم يجد معه ما يخافه، فأخْلى له المجلس سوى نَفَرٍ، فامتنع من أداء الرسالة حتى يخرجوا، فأخرجهم كُلَّهم سوى مملوكين فقال: أُمِرْتُ أنْ لا أؤدِّيَ إلا خَلْوةً، قال: هذان ما يخرجان، فإنْ أدَّيتَ، وإلاَّ فقُمْ، فهما مثل أولادي، فالتفت إليهما، وقال: إذا أمرتُكما عن مخدومي بقتل هذا السلطان، أتقتلانِه؟ قالا: نعم، وجذبا سيفَهما، فبُهتَ السلطان، وخرج أحدُهما مع الرسول، فدخل السلطان في مرضاة سنان، ومن شعره:

ما أكثَرَ الناسَ وما أقلَّهم ... وما أقَلَّ في القليلِ النُّجَبا

ليتَهُم إذْ لم يكونوا خُلقوا ... مُهَذَّبين صَحِبُوا مُهَذَّبا

مات سنان كما قلنا في سنة تسع وثمانين وخمس مئة.

من حوادث سنة ٥٥١[١]

وفي سنة ٥٥١ سار المقتفي والسلطان سليمان بن محمد بن مَلِكشاه إلى حلوان، ثم نفَّذ المقتفي العساكر مع السلطان، وفي رمضانها هرب سَنْجَر من الغُزِّ في خواصِّه إلى تِرمذ، وتمنَّع بها.

وكان أتْسِز خوارزمشاه وابن أخت سَنْجَر الخاقان محمود يُحاربان الغُزَّ، والحرب بينهم سِجالٌ، وذلَّت الغُزُّ بموت علي بك، وأتتِ الأتراك الفارغلية إلى خدمة سَنْجَر، وعَظُمَ حالُهُ، ورجع إلى دار ملكه مَرْو.

وفيها جاءت الزلزلةُ العظمى بالشام.

وفي سنة ٥٥٢ ورد كتاب السلطان سَنْجَر إلى الملك نور الدين يتودَّدُ فيه، وأنه انتصر على الغُزِّ بحيلة، ويَعِدُهُ بنصره على الفرنج، فزُيِّنت دمشق والقلعة بالمغاني،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١٠.

وكسر عسكرُ نور الدين الفِرَنج، وأخذ نور الدين بانياس بالسيف، ثم التقى نور الدين، ونُصر عليهم، ولله الحمد.

وفيها نازل محمد شاه بن محمود وعلي كوجك بغداد في ثلاثين ألفاً، واقتتلوا أياماً، وعظُمَ الخطبُ، وقُتِلَ خلقٌ كثير، وبذل المقتفي الأموال والغِلال، ثم ترحَّلوا، وسار المقتفي إلى أوانا[1]، وتصيَّد، ومات سَنْجرُ السلطان، وهَزَمَ نورُ الدين الفرنجَ على صفد، وأُخِذَتْ غَزّةُ من الفرنج.

وفي سنة ٥٥٣ سار المقتفي إلى واسط، وزار مشهد الحسين، ورد، ثم سار إلى المدائن، وشهد العيد في تجمُّل باهرٍ.

قال ابن الأثير[2]: كان مصرع الإسماعيلية الخراسانيين، نزلوا وكانوا ألفاً وسبع مئة، فأخذوا زوق تركمان[3]، فتناخت التركمانُ، وكرُّوا عليهم، ووضعوا فيهم السيف، فما نجا منهم إلا تسعةُ أنفس.

وكانت ملحمةٌ كبرى بين الغُزِّ وبين أمراء خراسان، ودام المصافُّ يومين، وانتصرت الغُزُّ، واستغنَوْا، وشرعوا في العَدْل قليلاً.

وفيها التقى المصريون والفرنج بفلسطين، فاستُبيحت الفرنجُ.

وفيها التقى نور الدين والفرنج، فانهزم عسكرُه، ونجا نورُ الدين، وانهزم العدو أيضاً.

---

(١) بلدة كثيرة البساتين والشجر، من نواحي دُجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، وكثيراً ما يذكرها الشعراء الخلعاء في أشعارهم. «معجم البلدان» ١/ ٢٧٤.

(٢) في «الكامل» ١١/ ٢٣٨.

(٣) في «الكامل»: فأوقعوا بالتركمان، فلم يجدوا الرجال، وكانوا قد فارقوا بيوتهم، فنهبوا الأموال، وأخذوا النساء والأطفال، وأحرقوا ما لم يقدروا على حمله.

وفيها أقبل صاحب قسطنطينية في جيوش الروم، وأغار أوائلهم على بلاد أنطاكية[1].

وفي سنة ٥٥٤ مرض نور الدين، وعَهِدَ بالمُلك بعده لأخيه مودود، وصالحَ صاحبَ القسطنطينية، وأطلق له مُقَدَّمين من أسرى الفرنج، فبعث هو إلى نور الدين هدايا وتُحفاً، وسار نورُ الدين، فتملَّك حرَّان، ومد سِماطاً لأخيه مودود لم يُسمَع بمثله.

وفي سنة ٥٥٤ كان الفساد بالغُزِّ عَمّالاً، وسار الخليفة إلى واسط، وسار عبدُالمؤمن سلطانُ المغرب، فحاصر المهدية سبع أشهر، وأخذها بالأمان، وبها خلقٌ من النصارى، وكانت بأيديهم من اثنتي عشرة سنة، وافتتح أيضاً قبلَها تونس.

من حوادث سنة ٥٨٥ [2]

وفي سنة خمس وثمانين وخمس مئة: نفذ طغرل تحفاً وهدايا، واعتذر واستغفر.

وظهر ابن يونس، فولي نظر المخزن، ثم عزل بعد أشهر.

[حصار عكا]

وفيها وفي المقبلة: كان الحصار الذي لم يُسمع بمثله أبداً على عكا، كان السلطان قد افتتحها وأسكنها المسلمين، فأقبلت الفرنج براً وبحراً من كل فج عميق، فأحاطوا بها، وسار صلاح الدين فيدفعهم فما تزعزعوا ولا فكّروا بل أنشؤوا سوراً وخندقاً على معسكرهم، وجرت غير وقعة، وقتل خلق كثير يحتاج بسط ذلك إلى جزء، وامتدت المنازلة والمطاولة والمقاتلة نَيّفاً وعشرين شهراً، وكانت الأمداد تأتي العدو من أقصى البحار، واستنجد صلاح الدين بالخليفة وغيره حتى

---

(١) هي باللام، بلد كبير في تركيا اليوم.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٠٩.

إنه نفذ رسولاً إلى صاحب المغرب يعقوب المؤمني يستجيشه فما نفع، وكل بلاء النصارى ذهاب بيت المقدس منهم.

قال ابن الأثير: لبس القسوس السواد حزناً على القدس، وأخذهم بترك[1] القدس وركب بهم البحر يستنفرون الفرنج، وصوروا المسيح وقد ضربه النبي ﷺ وجرحه، فعظم هذا المنظر على النصارى، وحشدوا وجمعوا من الرجال والأموال ما لا يحصى، فحدثني كرديٌّ كان يغير مع الفرنج بحصن الأكراد أنهم أخذوه معهم في البحر، قال: فانتهى بنا الطواف إلى رومية فخرجنا منها وقد ملأنا الشواني الأربعة فضة.

قال ابن الأثير: فخرجوا على الصعب والذلول برّاً وبحراً، ولولا لطف الله بإهلاك ملك الألمان وإلا لكان يقال: إن الشام ومصر كانتا للمسلمين.

قلتُ: كانت عساكر العدو فوق المئتي ألف، ولكن هلكوا جوعاً ووباء وهلكت دوابُّهم، وجافت الأرض بهم، وكانوا قد ساروا فمروا على جهة القسطنطينية ثم على ممالك الروم تقتل وتَسبي، والتقاه سلطان الروم فكسره ملك الألمان، وهجم قونية فاستباحها، ثم هادنه ابن قلج رسلان ومروا على بلاد سيس ووقع فيهم الفناء فمات الملك وقام ابنه.

قلت: قتل من العدو في بعض المصافات الكبيرة التي جرت في حصار عكا في يوم اثنا عشر ألفاً وخمس مئة، والتقوا مرة أخرى فقُتِل منهم ستة آلاف، وعمَّروا على عكا بُرجين من أخشاب عاتية، البرج سبع طبقات فيها مسامير كبار يكون المسمار نصف قنطار، وصفَّحوا البرج بالحديد، فبقي منظراً مهولاً ودفعوا البرج ببكر تحته حتى ألصقوه بسور عكا وبقي أعلى منها بكثير فسلط عليه أهل عكا المجانيق حتى

---

(١) يعني: البطريرك.

خلخلوه، ثم رموه بقدرة نفط فاشتعل[1] مع أنه كان عليه لبود منقوعة بالخَل تمنع عمل النفط فأوقد وجعل الملاعين يرمون نفوسهم منه وكان يوماً مشهوداً، ثم عملوا كبشاً عظيماً رأسه قناطير مقنطرة من حديد ليدفعوه على السور فيخرقه فلما دحرجوه وقارب السور ساخ في الرمل لعظمه، وهدَّ الكلابُ بدنةً وبرجاً فسدّ المسلمون ذلك وأحكموه في ليلة، وكان السلطان يكون أول راكب وآخر نازل في هذين العامين، ومرض وأشرف على التَّلَف ثم عوفي[2].

قال العماد: حُزِر ما قُتِل من العدو فكان أكثر من مئة ألف.

وخرج جيش الخليفة عليهم نجاح إلى دقوقا لحرب طُغرل فقدم بعد أيام ولد طغرل صبي مميز يطلب العفو عن أبيه.

سنة سبع وثمانين وخمس مئة اشتدت مضايقة العدو عكا وأمدادهم متواترة، فوصل ملك الإنكيتر[3] وقد مَرَّ بقبرص[4] وغدر بصاحبها، وتملكها كلها، ثم سار إلى عكا في خمس وعشرين قطعة، وكان ماكراً داهية شجاعاً، فخارت قوى من بها من المسلمين وضعفوا بخروج أميرين منها في شيني[5]، وقلقوا فبعث إليهم السلطان: أن اخرجوا كلكم من البلد على حمية وسيروا مع البحر واحملوا عليهم وأنا أجيئهم من ورائهم وأكشف عنكم، فشرعوا في هذا فما تهيأ ثم خرج أمير عكا

---

(١) لم يكن هذا في أول الأمر لأن النفاطين عجزوا عن إحراقه، ثم هيأ الله سبحانه أحد الكيماويين فابتدع نوعاً من العقاقير تقوي عمل النار، فاستخدمت ونجحت نجاحاً باهراً وفرح بها المسلمون، ولم يقبل هذا العالم الفاضل مكافأة من السلطان، وقال: إنما عملته لله تعالى، ولا أريد الجزاء إلا منه (انظر التفاصيل في كامل ابن الأثير: ١٢/ ٤٥-٤٧، والفتح القسي: ٣٧٠-٣٧٣).

(٢) قال الإمام الذهبي في «تاريخ الإسلام» بعد ذكره لحصار عكا وبلاء السلطان صلاح الدين رضي الله عنه فيه: «ولعله وجبت له الجنة برباطه هذين العامين» الورقة: ٢٢٣ (حلب).

(٣) وتكتب: «الأنكلتير»، وهو ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد.

(٤) هكذا بالصاد، والمشهور: «قبرس» بالسين المهملة.

(٥) نوع من السفن الصغيرة.

ابن المشطوب إلى ملك الفرنج وطلب الأمان فأبى، قال[1]: فنحن لا نُسلِّم عكا حتى نُقتل جميعاً ورجع، فزحف العدو عليها، وأشرفوا على أخذها فطلب المسلمون الأمان على أن يسلموا عكا ومئتي ألف دينار وخمس مئة أسير وصليب الصلبوت فأجيبوا، وتملك العدو عكا في رجب ووقع البكاء والأسف على المسلمين، ثم سارت الفرنج تقصد عسقلان، فسار السلطان في عراضهم، وبقي اليَزَك[2] يقتتلون كل وقت، ثم كانت وقعة نهر القصب، ثم وقعة أرسوف فانتصر المسلمون[3] وأتى صلاح الدين عسقلان فأخلاها، وشرع في هدمها[4]، وهدم الرملة ولُدّ، وشرعت الفرنج في عمارة يافا، وطلبوا الهدنة، ثم جرت وقعات صغار، وقصدت الملاعين بيت المقدس وبها السلطان، فبالغ في تحصينها.

وفيها ولِّي الأستاذ دارية ابنُ يونس الذي كان وزيراً.

وفيها ظَهَر السُّهروردي الساحر بحلب، وأفتى الفقهاء بقتله فقُتِلَ بالجوع وأُحرقت جثته، وكان سيماوياً فيلسوفاً مُنحلاً[5].

وفي سنة ثمانٍ وثمانين وخمس مئة شرعت الفرنج في بناء عسقلان.

والتقى شهاب الدين الغوري عساكر الهند فهزمهم وقتل ملكهم في الوقعة.

وكبسَ الإنكيتر في الرمل عسكراً من المصريين، وقفلا فاستباحهم فلله الأمر، ثم انعقدت الهدنة ثلاث سنين وثمانية أشهر، ودخل فيها السلطان وهو يَعَضُّ يده

---

(١) يعني ابن المشطوب.

(٢) في الأصل: «الترك» والتصحيح من النوادر السلطانية (ص ١٧٢ ط. الشيال) وغيرها. وهو لفظ فارسي معناه: طلائع الجيش، كما في معجم دوزي وغيره.

(٣) انظر مسير صلاح الدين في النوادر السلطانية: ١٧٥ فما بعدها.

(٤) النوادر السلطانية: ١٨٧-١٨٩.

(٥) انظر تاريخ الإسلام، في وفيات سنة ٥٨٧ وغيره، وهي حادثة مشهورة.

حنقاً، ولكن كثرت عليه الفرنج وملّ جنده وحلف على الصلح عدة من ملوك المسلمين مع السلطان، وعدة من ملوك الفرنج[(١)].

وفيها[(٢)] قتل صاحب الروم قِلج أرسلان السلجوقي، وقتل بكتمر صاحب خِلاط على يد الإسماعيلية.

وسار السلطان طغرل فبدَّع في الري وقَتَلَ بها خلقاً من المسلمين وعاد إلى همذان فبطل نصفه.

وفيها افتتح سلطان غزنة شهاب الدين في بلاد الهند.

قال ابن الأثير: انقضَّ كوكبان عظيمان اضطرما، وسُمِعَ صوت هدّة عظيمة وغلب ضؤوهما ضوء القمر والنهار، وذلك بعد طلوع الفجر.

وفيها -أي سنة ٥٨٩- توفي السلطان صلاح الدين، وكانت دولته أزيد من عشرين.

من حوادث سنة ٥٣٣[(٣)]

وفي سنة ٥٣٣ زُلزلت جَنْزَة. قال ابن الجوزي: فأهلكت مئتي ألف وثلاثين ألفاً، فسمعتُ شيخَنا ابن ناصر يقول: جاء الخبرُ أنه خُسِفت جَنْزَة، وصار مكان البلد ماءٌ أسودُ. وكذا عدَّهم ابن الأثير في «كامله» لكن أرَّخها في سنة أربع.

وفيها حاصر زنكيّ دمشق غير مرة، وعُزِلَ ابنُ طِراد من الوزارة، ووليها أستاذ الدار أبو نصر بن جَهير، وعَظُمَ الخطبُ بالعيَّارين، وأخذوا الدور بالشموع والثياب من الحمامات، وأعانهم وزيرُ السلطان، فتحَزَّب الناس لهم، وأذِنَ في ذلك السلطان، وتتبَّعوهم.

---

(١) انظر النوادر السلطانية: ٢٣٤، والكامل: ١٢/ ٨٥-٨٧.

(٢) الكامل: ١٢/ ٨٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٠٣.

وفيها كانت وقعةٌ عظمى بين سَنْجَر السلطان وبين كافر ترك بما وراء النهر، فانكسر المسلمون، ونجا سَنْجر في طائفة، فتوصّل إلى بَلْخ في ستة نفر، وقُتل خلقٌ كثيرٌ من الجيش حتى قيل: قُتل مئة ألف، وسار اللعين في ثلاث مئة ألف فارس، وأحاطوا بسَنْجَر في سنة ستٍّ وثلاثين وخمس مئة.

وفي سنة تسعٍ وثلاثين وخمس مئة حاصر زنكيُّ الفرنج بالرُّها، وافتتحها، ثم بعد سنوات أخذتها الفرنج.

وفيها افتتح عبد المؤمن مدينة تِلِمْسان، ثم فاس.

وفي سنة إحدى وأربعين وخمس مئة حاصر زنكي قلعة جَعْبَر، فوثب عليه ثلاثةٌ من غلمانه، فقتلوه، وعارض شِحْنَةُ[1] مسعودٍ المقتفي في دار الضرب، فأمر بحبسه، وعظُم المقتفي، وأخذت الفرنج طرابلس المغرب، واستفحل أمرُ الملك عبدالمؤمن، وغلب على ممالك المغرب.

وفي سنة اثنتين ولي ابنُ هُبيرة ديوان الزمام، وعُزل من ابنِ جَهير، ووزر أبو القاسم عليُّ بن صدقة.

وفي سنة ٥٤٣ جاءت ثلاثةُ ملوك من الفرنج إلى القدس، منهم طاغية الألمان، وصلوا صلاة الموت، وفرَّقوا على جُندهم سبع مئة ألف دينار، فلم يشعر بهم أهل دمشق إلا وقد صبَّحوهم في عشر آلاف فارس وستين ألف رجل، فخرج المسلمون فارسُهُم وراجُلُهم، والْتَقَوا، فاستُشْهِدَ نحو المئتين، منهم الفَنْدَلاويُّ، وعبدالرحمن الحَلْحوليُّ، ثم اقتتلوا من الغد، وقُتل خلقٌ من الفرنج، فلما كان خامس يومٍ وصل من الجزيرة غازي ابنُ زنكي في عشرين ألفاً، وتبعه أخوه نور الدين، وكان الضجيج والدعاء والتضرع بدمشق لا يُعبَّر عنه، ووضعوا المصحف العثماني في صحن الجامع، وكان قِسِّيسُ العدو قال: وعدني المسيح بأخذ دمشق، فحفُّوا به،

(١) الشحنة أعوان الأمير الذين يضبطون أمور الدولة.

وركب حمارَهُ وفي يده الصليب، فشدَّ عليه الدماشقةُ، فقتلوه، وقلتوا حمارَه، وجاءت النَّجَداتُ، فانهزم الفرنج.

وقال ابن الأثير: سار ملكُ الألمان من بلاده لقصد المسلمين، وانضمَّ إليه فرنج الشام، فنازل دمشقَ، وبها الملك مجير الدين أَبَق وأتابكُهُ معينُ الدين أُنُر، فنَجَدَهُ أولادُ زنكي، ونزل ملك الألمان بالميدان الأخضر، وأيس أهل دمشق، ووصل صاحب الموصل إلى حمص، فراسل أُنُر ملوكَ فرنج الساحل يقول: بأيِّ عقلٍ تساعدون الألمان علينا؟! وإن ملكوا أخذوا منكم السواحل، وأنا إذا عجزتُ سلَّمتُ دمشق إلى ابن زنكي، فلا تقومون به، فتخاذلوا، وبذل له بانياس، فخوّفوا ملك الألمان من عساكر الشرق، فرد إلى بلاده، وهي وراء قسطنطينية.

وفيها ظهور الدولة الغُوريَّة، فقصد سوري بن حسين مدينة غَزْنَة، واستولى عليها، فجرت بينَه وبين بَهرام شاه وقعةٌ، فقُتِل سوري، فغضبت الغُورُ لقتله، وحشدوا، فكان خروجهم في سنة سبع وأربعين وخمس مئة، والملك في بقاياهم إلى اليوم، وافتتحوا إقليم الهند.

واشتد بإفريقية القحطُ، لا بل كان القحطُ عامّاً، فقال المؤيد عماد الدين: فيها كان الغلاءُ العامُّ من خُراسان إلى العراق إلى الشام إلى بلاد المغرب.

وفي سنة ٥٤٤ كسر نور الدين محمود صاحب حلب الفرنج، وقتل صاحب أنطاكية في ألفٍ وخمسمئة منهم، وأسر مثلهم، ثم أخذ منهم حصن فامية. وكان جُوسلين طاغية تل باشِر قد ألهبَ المسلمين بالغارات، واستولى على إلبيرة وبَهَسْنا ومَرْعَش والراوندان وعين تاب وعَزاز، فحاربه سلحدار نور الدين، فأسرهُ جُوسلين، فدسّ نور الدين جماعةً من التركمان، وقال: من جاءني بجوسلين فله ما طلب. فنزلوا بناحية عين تاب، وأغار عليهم جوسلين، وأخذ منهم امرأةً مليحةً، وافتضّها تحت شجرةٍ، فكمن له التُّركمان، وأسروه، فأعطاهم نور الدين عشرة آلاف دينار، واستولى نور الدين على بلاده، واشتد القحطُ بالعراق عام أول، وزالَ

في العام، ووزر ابنُ هُبَيرة، ونكثتْ فرنجُ السواحل، فشنَّ أُنُر الغارات عليهم، وفعل مثلَه العربُ والتركمان، حتى طلبوا تجديد الهدنة، وأن يترُكُوا بعض القطيعة. والتقى نور الدين الفرنج، فهزمَهم، وقتل قائدهم البرنس أحد الأبطال، ومرض أُنُر بحُوران ومات، ثم دُفن بالمعينية.

ومات الحافظ صاحب مصر، وقام ولدُهُ الظافر، ووزر له ابنُ مصال، ثم اختلف المصريون، وقُتل خلق.

وفي سنة ٥٤٥ ضايق نور الدين دمشق، فأذعنوا، وخطبوا له بها بعد ملكها، فخلع على ملكها، وطوَّقه، وردَّه إلى البلد، واستدعى الرئيس مؤيَّد الدين إلى مُخيَّمه، وخلع عليه، وردَّ إلى حلب.

وفيها أُخِذَ ركبُ العراق، وقلَّ من نجا، وقُتِل ابن مصال الوزير، وغلبَ ابنُ السَّلار.

قال ابن الجوزي: جاء باليمن مطرٌ كلُّه دم.

ابن قائد[1]

القدوة العارف، أبو عبدالله محمد بن أبي المعالي بن قايدٍ[2] الأوانيُّ.

زاهدٌ، خاشع، ذو كرامات، وتألُّهٍ، وأورادٍ، أُقْعِدَ مدةً.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٩٥.

(٢) ترجم له ابن الدبيثي في تاريخه، الورقة ١٥٤ (شهيد علي)، والمنذري في التكملة: ١/ الترجمة: ٥٢، وابن الساعي في أخبار الزهاد، الورقة: ٣، والذهبي في تاريخ الإسلام، الورقة ١١٦ (أحمد الثالث ٢٩١٧/ ١٤)، والمشتبه: ٥١٦، وابن ناصر الدين في توضيح المشتبه، الورقة: ٣٤ (سوهاج)، والصفدي في الوافي: ٤/ ٣٥٢، والعيني في عقد الجمان: ١٧/ الورقة ٦٣.

قَدِمَ أوانا[1] واعظٌ باطنيٌّ، فنالَ من الصحابة، فحُمِلَ هذا في مِحَفَّتِه، وصاحَ به: يا كلبُ انزِلْ، ورجَمَتْهُ العامة، فهرب، وحدَّثَ سناناً[2] بما تمَّ عليه، فنَدَبَ له اثنين فأتياه، وتعبَّدا معه أشهراً، ثم قتلاه[3]، وقتلا خادمه، وهربا في البساتين، فنكرهما فلاحٌ، فقتلهما بمرِّهِ، ثم نَدِمَ لما رآهما بزيق الفقر، ثم تيقَّن أنهما اللذان قتلا الشيخ بصفتهما، ثم أُحرقا، فقيل: إن الشيخ عبدالله الأُرمَوِيّ[4] شاهدَ ذلك.

علي بن مهدي[5]

كان أبوه من قريةٍ بزَبيد من الصُّلحاء، فنشأ عليٌّ في تزهُّد، وحجَّ، ولقي العلماء، وحصَّل، ثم وعظ، وذمَّ الجند.

وكان فصيحاً صبيحاً طويلاً، أخضر اللون، طيب الصوت، غزير المحفوظ، متصوفاً، خبيث السريرة، داهيةً، يتكلم على الخواطر، فربط الخلق، وكان يَعظُ وينتحبُ.

قال عمارة اليمني: لازمتُهُ سنةً، وتركتُ التفقُّه، ونَسَكْتُ، فأعادني أبي إلى المدرسة، فكنتُ أزورُهُ في الشهر، فلما استفحل أمرُهُ تركتُهُ، ولم يزل من سنة ٥٣٠ يَعِظُ ويخَوِّفُ في القرى، ويحجُّ على نجيب، وأطلقتْ له السيدة أمُّ فاتك ولأقاربه خَراج أملاكهم، فتموَّلوا إلى أن صار جمعُهُ نحو أربعين ألف مقاتل، وحارب، وكان يقولُ: دنا الوقتُ، أزِفَ الأمرُ، كأنكم بما أقول لكم عياناً، ثم ثار ببلاد خولان،

---

(١) بفتح الهمزة وتخفيف الواو وبعد الألف نون قرية من نواحي دجيل شمالي بغداد مما يلي الموصل («تاريخ ابن الدبيثي»، الورقة ١٥٤ شهيد علي، و«معجم البلدان» لياقوت: ١/ ٣٩٥).

(٢) يعني راشد الدين سنان بن سلمان كبير الإسماعيلية.

(٣) كان ذلك في يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٨٤ كما ذكر ابن الدبيثي في «تاريخه» والمنذري في «التكملة»، وكأنه فات المؤلف أن يذكر التاريخ.

(٤) الشيخ عبدالله بن يونس الأرموي الزاهد، كان من زهاد دمشق المشهورين وله زاوية معروفة بجبل قاسيون، توفي كهلاً في شوال سنة ٦٣١ كما ذكر الذهبي وغيره.

(٥) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٢١.

وعاث وسبى، وأهلك الناس، ثم لقيتُهُ عند الداعي بجبْلة سنة تسعٍ وأربعين يستنجِدُ به، فأبى، ثم دَبَر على قتل وزير آل فاتِك، ثم زحف إلى زبيد، فقاتله أهلُها نيفاً وسبعين زحفاً، وقُتِلَ خلائقُ من الفريقين، ثم قُتل فاتكٌ متولِّي زَبيد، وأخذها ابنُ مهدي في رجب سنة أربعٍ وخمسين وخمس مئة، فما مُتِّع، وهلك بعد ثلاثة أشهر، وقام بعدَهُ ابنُهُ عبدالنبي، وعظُم، حتى استولى على سائر اليمن، وجمع أموالاً لا تُحصى، وكان حنفيَّ المذهب -أعني الأبَ- يرى التكفير بالمعاصي، ويستحلُّ وطءَ سبايا من خالَفَه، ويعتقدُ فيه قومُهُ فوق اعتقاد الخلق في نبيِّهم.

قال: وحُكي لي عنه أنه لم يَثِق بيمين من يصحبه حتى يذْبَحَ ولَدَه أو أخاه، وكان يقتل بالتعذيب في الشمس، ولا يشفع أحدٌ عندَهُ، وليس لأحدٍ من عسكرِهِ فرسٌ يملِكُهُ ولا سلاحٌ، بل الكُلُّ عندَهُ إلى وقت الحرب، والمنهزِمُ منهم يُقتل جزماً، والسكرانُ يُقتل، ومن زنى أو سمع غناءً يُقتل، ومن تأخَّر عن صلاة الجماعة قُتِلَ.

ابن حَمْدِين[1]

من أكابر أهل قرطبة، تسمى بأمير المسلمين بعد هلاك ابن تاشفين، وشنَّ الغارات على بلاد عبدالله بن عياض، وترك الجهادَ لسوء رأي وزرائه، فاشتعلت الفتنةُ، والمرابطون بغرناطة في ألف فارس، ثم إن ابنَ حَمْدين التقى هو ويحيى بن غانية، فانتصر ابنُ غانية، وانهزم ابنُ حمدين إلى قرطبة، وخذله أصحابُه، فاتبعه ابنُ غانية، وأحسَّ ابن حَمْدين بالعجز، ففرَّ إلى فرنجواش، واستنجد بالسُّليطين طاغية الروم، واشترط له أموالاً، وابنُ غانية مضايقٌ لابن حَمْدين، فجاء الطاغية في مئة ألف، ففرَّ ابنُ غانية، ودخل قرطبة، فنازل اللعين وابنُ حَمدين قرطبةَ، فتقدم ابنُ حَمدين إلى أهلها، فمالَ إليه خلقٌ، ودخلتها الروم لعظم شوارِعها، فقتلوا من وجدوه، وتفرقت الكلمة مع أن أهلها يُنيفون على أربع مئة ألف مقاتل.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٤٣.

قال ابنُ اليسع الغافِيُّ: سمعتُ أبا مروان بنَ مَسرّة وقد سأله عبدالمؤمن عن عدة مقاتلة أهل قرطبة، فقال: أحصَينا فيها ممن يحضُر المساجد أربع مئة ألف مقاتل، ولما تمكَّن العدوُّ منها زحف إلى القصر، فقاتل ابنُ غانية بقية يومه، وكان عنده نَمَطٌ من الروم، فأخرجه إلى ملك الروم طالباً عهدَهُ على مالٍ جعلهُ له، فحلَّ عن قتالِه، وخرج إليه بمالِه، وذكَّر الملك بأحوال المصامدة، وخوَّفه من عبد المؤمن بن علي، وقال له: إني خادمُك في هذا البلد، وحائل بينك وبين عبد المؤمن، وكان للمصامدة إذ ذاك وقعٌ في النفوس، فاستنابه عليها، وخرج السُّليطين بجملته عنها، وخرج عنها أيضاً ابنُ غانية يريد إشبيلية، فدخل قرطبة أبو الغمر نائباً عن عبدالمؤمن، وهو أبو الغمر بنُ غَلْبُون أحد الأبطال وصاحب رُنْده، وثار بإشبيلية وبلادها أبو الحسن عليُّ بن ميمون، وثار بكل ناحيةٍ رئيسٌ، ثم اتفق رأيُ الجميع على تجويز المصامدة الذين تلقَّبوا بالموحِّدين من سَبْتَة إلى الجزيرة الخضراء، وجرت فتنٌ كبار، وزالت دولة المرابطين، وأقبلت دولة الموحِّدين.

ولد ابنُ حَمْدين قبل الخمس مئة بقرطبة.

وهو القاضي أبو جعفر حمدينُ بنُ محمد بن علي بن محمد بن عبدالعزيز بن حَمدين الثعلبيُّ، قاضي الجماعة بقرطبة.

ولي القضاء سنة تسعٍ وعشرين وخمس مئة بعد مقتل الشهيد القاضي أبي عبدالله بن الحاج.

وكان من بيت حشمةٍ وجلالة، صارت إليه رئاسةُ قرطبة عند اختلال أمر المُلثَّمين وقيام ابن قسي عليهم بقُرب الأندلس، فلُقب ابنُ حَمْدين بأمير المسلمين المنصور بالله في رمضان سنة تسع وثلاثين وخمس مئة، ودعي له في الخطبة على أكثر منابر الأندلس، ولكن لم يطُل ذلك، ثم تعاورته المحن في قصص يطول شرحُها، ثم تحوَّل إلى مالقة، وأقام بها خاملاً إلى أن توفي سنة ثمان وأربعين وخمس مئة.

عماد الدين بن هود[1]

كان أحد ملوك الأندلس في حدود الخمس مئة، وهو من بيت مملكة تملَّكوا شرق الأندلس، فلما استولى الملثَّمون على الأندلس، أبقى يوسف ابنُ تاشفين على ابن هود، فلما تملّك عليُّ بن يوسف بعد أبيه كان فيه سلامةُ باطن، فحسَّنَ له وزراؤُه أخذ المُلك من ابن هود، حتى قالوا له: إنَّ أموال المُسْتنصر العُبيدي صارت في غلاء مصر المُفْرِط تحوَّلت كُلُّها إلى بني هود، وقالوا: الشرع يأمُرك أن تسعى في خلعهم لكونهم مسالمين الروم، فجهَّز لهم الأمير أبا بكر بن تيفلوت، فتحصَن عمادُ الدولة برُوْطَة، وكتب إلى عليِّ بن تاشفين يستعطفه في المسالمة، ويقول: لكم فيما فعله أبوكم أُسْوَةٌ حسنةٌ، وسيعلم مُبرِمُ هذا الرأي عندكم سوء مغبَّته، والله حسيبُ من معي، وحسبُنا اللهُ وكفى. فأمر عليُّ بن يوسف بالكفِّ، وأنى ذلك وقد أدخلته الرعية سَرَقُسْطة، وكان ابنُ رُذمير اللعين صاحب مملكة أرَغونة من شرق الأندلس قِسيساً مُجرباً داهيةً مُترهِّباً، فقويَ على بلاد ابنِ هود، وطواها، وقنع عمادُ الدولة بنُ هود بدار سُكناه، وكان ابن رُذمير لا يتجهَّزُ إلا في عسكرٍ قليل كامل العُدة، فيلقى بالألف آلافاً.

قال اليسعُ بن حزم: حدثني عنه أبو القاسم هلالٌ أحد وجوه العرب قال: كان بيني وبين المراطبين أمرٌ ألجأني إلى الوفود على ابن رُذمير، فرحَّب بي، وأمر لي براتبٍ كبير، فحضرتُ معه حرباً طُعن عنه حِصانه، فوقفتُ عليه ذابّاً عن حوزته، فلما انصرفنا إلى رشقة، أمر الصوّاغين بعمل كأس من ذهبٍ رصَعَهُ بالدُّرّ، وكتب عليه: «لا يشربُ منه إلا من وقف على سُلطانه». فحضرتُ يوماً، فأخرج الكأس، وملأهُ شراباً، وناولني بحضرة ألف فارسٍ، ورأيت أعناقَهم قد استودَّت من صدأ الدروع. قال: فناديتُ، وقلتُ: غيري أحقُّ به، فقال: لا يشربُ هذا إلا من عَمِلَ عَمَلَك. وكان هلالٌ هذا من قرية هلال بن عامر، تاب بعدُ، وغزا معنا، فكان إذا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٧.

حضر في الصف جبلاً راسياً يمنع تهائم الجيوش أن تميد، وقلباً في البسالة قاسياً، يقول في مقارعة الأبطال: هل من مزيد. أبصرته رحمه الله أُمّةً وحدَه، يتحاماه الفوارس، فحدثني عن ابن رُذمير وإنصافه قال: كنتُ معه بظاهر رُوْطَة وقد وجَّه إليه عماد الدولة وزيره أبا محمد عبدالله بنَ هَمُشْك الأمير رسولاً، فطلب فارسٌ من ابن رُذمير أن يُمكَّن من مبارزة ابنِ هَمُشْك، فقال: لا، هو عندنا ضيفٌ. فسمع بذلك ابنُ هَمُشْك، وأمضى ابنُ رُذمير حاجتَه، وصرفه، فقال: لا بد لي من مبارزة هذا، فأمر الملك ذاك الفارس بالمبارزة، وقال: هذا أشجع الروم في زمانه، فانصرف عبدالله يريد رُوطة، وخرج وراءه الروميُّ شاكّاً في سلاحه، وما مع ابن هَمُشْك درعٌ ولا بيضةٌ، فأخذ رُمحه وطارقتَه من غُلامه، وقصد الروميّ، فحمل كُلٌّ منهما على الآخر حملاتٍ، ثم ضربه ابنُ هَمُشْك في الطارقة، فأعانه الله، فانقطع حِزام الفارس، فوقع بسرجه إلى الأرض، فطعنه ابنُ هَمُشْك، فقتَلَه، والملك يشاهده على بُعد، فهمَّت الروم بالحملة على ابن هَمُشْك، فمنعهم الملك، ونزل غلامُ ابن هَمُشْك، فجرّد الفارس، وسَلَبَه، وأخذ فرسَه، وذهب لم يلتفت إلى ناحيتنا، فما أدري مم أعجبُ، من إنصاف الملك، أو من ابنِ هَمُشْك كيف مضى ولم يُعَرِّج إلينا!

وأقام ابن رُذمير محاصراً سَرَقُسْطة زماناً، وأخذ كثيراً من حُصونها، فلما رأى أبو عبدالله محمد بن غَلْبون القائد ما حلَّ بتلك البلاد من الروم، ثار بدورقة وقلعة أيوب وملينة، وجمع وحشد، وكافح ابن رُذمير، واستولى أبو بكر بن تيفلوت على سرقُسْطَة، وأقام بقصرها في لذّاته، وأما ابنُ غَلْبون، فأحسن السيرة، وعدل، وجاهد، ورُزِقَ الجند، رأيتُهُ رَجُلاً طوالاً جداً، واجتمعتُ به، أقام مثاغراً لابن رُذمير شجىً في حلقِهِ، التقى مرةً في ألف فارس لابن رذمير، والآخر في ألف، فاشتدَّ بينهما القتال، وطالَ، ثم حمل ابنُ غَلْبون على ابن رُذمير، فصرعه عن حصانه، فدفع عنه أصحابُهُ، فسَلِمَ، ثم انهزموا، ونجا اللعين في نحو المئتين فقط، وأما ابنُ تيفلوت، فإنه راسل ابنَ غَلْبون، وخدعَه، حتى حَسَّن له زيارة أمير المسلمين عليّ بن يوسف، فاستخلَفَ على بلاده ولدَه أبا المُطرف، وكان من الأبطال الموصوفين أيضاً،

فقدم محمدٌ مراكش، فأُمسِكَ، وأُلزم بأن يخاطب بنيه في إخلاء بلاده للمرابطين، فأخلوها طاعةً لأبيهم، وترحَّلوا إلى غرب الأندلس، ففرح بذلك ابنُ رُذمير، وحصر سَرَقُسطة، وصنع عليها برجين عظيمين من خشب، وإنَّ أهلها لما يئسوا من الغِياث، خرجوا، وأحرقوا البُرجين، واقتتلوا أشد قتال، وكتبوا إلى ابن تاشفين يستصرخون به، ومات ابن تيفلوت، وذلك في سنة إحدى عشرة وخمس مئة، فأنْجَدَهُم بأخيه تميم بن يوسف، فقَدِمَ في جيش كبير، وعنَّى ابنُ رُذمير جيوشَه، ففرح أهلُ سَرَقُسطة بتميم، فكان عليهم لا لهم، جاء مُواجِهَ المدينة، ثم نَكَّبَ عنها، وكان طائفةٌ من خيلها ورَجِلِها قد تَلَقُّوه، فحمل عليهم حملةً قتل منهم جماعةً كثيرة، ثم نكب عن لقاء العدو، وانصرف إلى جهات المورالة، واشتد البلاءُ على البلدن ثم سلَّموه بالأمان، على أن من شاء أقام به، وكان ابنُ رُذمير معروفاً بالوفاء، حدثني من أثقُ به أنَّ رجلاً كانت له بنتٌ من أجمل النساء، ففقدها، فأُخْبِرَ أن كبيراً من رؤوس الروم خرج بها إلى سَرَقُسْطَة، فتبعه أبواها وأقاربُها، فشكوه إلى ابنِ رُذمير، فأحضره، وقال: عليَّ بالنار، كيف تفعلُ هذا بمن هو في جواري؟ فقال الرومي: لا تعجل عليَّ، فإنها فرَّت إلى ديننا، فجيء بها، فأنكرت أبويها، وارتدَّت. ولما دخل سَرَقُسْطة، أقرَّهم على الصلاة في جامعها سبعة أعوام، وبعد ذلك يعمل ما يرى، وحاصر قُتُنْدَة[1] بعد سَرَقُسْطَة سنتين، فلما كان في آخر سنة أربع عشرة، قصده عبدالله بن حيونة في جيش فيهم قاضي المرِيَّة أبو عبدالله بن الفراء، وأبو علي بنُ سُكَّرة، فبرز لهم اللعينُ، فقتل خلقاً، وأُسِرَ آخرون، واستُشهِدَ المذكوران، فبنى عليهم ابنُ رُذمير قبوراً، ثم سُلِّمَ البلدُ إليه، وأخذ في تلك المدة دورقة، وقلعة أيوب، وطَرَسُونة، وأكثر من مئتي مُسَوّر، ولم يبقَ أكثرُ من ثلاثة مدائن لم يأخذها، وبقي من أعمال بني هود لارِدَة[2]، وإفراغة، وطُرْطوشَة، وغير ذلك معاملة عشرة أيام لم

(١) وهي ثغر سرقسطة من قرى مرسية: انظر «معجم البلدان» ٤/ ٣١٠، و«المغرب» ٢/ ٢٦٤.

(٢) بالراء المكسورة والدال المهملة: مدينة مشهورة من مدن الثغر على نهر سيقر شرقي قرطبة. انظر «معجم البلدان» ٥/ ٧، و«المغرب» ٢/ ٤٥٩.

يظفر اللعين بها، فقام بلارِدةَ الهُمامُ البَطَلُ أبو محمد[1]، وقام بإفراغةَ الزاهدُ المجاهدُ محمد مَردنيش الجُذامي جَدُّ الأمير محمد بن سَعْد.

[من الأبطال الشجعان]

١ - أبو محمد ابن عياض المجاهد[2]

عبدالله، وقيل: عبدالرحمن، المجاهد في سبيل الله، فارس الأندلس، وبطلُها المشهور، اتفق عليه أهلُ شرق الأندلس.

قال عبدالواحد بنُ علي المراكشي: كان من الصالحين الكبار، بلغني عن غير واحدٍ أنه كان مُجاب الدعوة، سريع الدمعة، رقيقاً، فإذا ركب الخيل لا يقومُ له أحد، كان النصارى يعُدُّونه بمئة فارس، فحمى اللهُ به الناحية مدةً إلى أن توفي رحمةُ الله عليه، ولا أتحققُ تاريخَ موته.

وقال اليسع بن حزم في «أخبار المغرب»: حدثني الأمير الملك المجاهد في سبيل الله أبو محمد عبدالله بن عياض أشجع من ركب الخيل، وأفرسُ من سام الرُّومَ الويل، قال: نزلتْ محلة الفرنج علينا، فكانوا إذا رمونا بالنبل صار حائلاً بيننا وبين الشمس كالجراد، والذي صحَّ عندنا أنَّ عدد خيلهم مئةُ ألف فارس، ومن الرَّجْل مئتا ألف أو أزيد، وكنا نعدُّ على مقربة من سورنا أربع مئة خيمة ديباج أو نحوها نحقق هذا، فاشتد علينا الحصارُ، فخرجنا في مئتي فارس، فشققنا الروم نقتلُ فيهم، ولجأنا إلى حصن الزيتونة قاصدين بَلَنْسية.

قال اليسع: قال لي مسعودُ بنُ عز الناس: أبصرتُ ابنَ عياض وهو شابٌّ حَدَثٌ، وقد صارع رومياً غلبَ جميع من في بلاد الأندلس، فجاءه الروميُّ، فدفعه

---

(١) هو الأمير المجاهد أبو محمد عبدالله بن عياض.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٣٧.

ابنُ عياض عن نفسه دفعةً حسبتُ أن الروميَّ انتفضت أوصالُه، ثم أمسك بخاصرة الرومي حتى رأيتُ الدم تحت أصابع ابن عياض، ثم رفعه، وألقى به الأرضَ، فطار دماغه.

وله قصةٌ أخرى: وذلك أنه وقف فارسٌ من جملة خيَّالة الروم على لارِدَة، وطلب المبارزة، فخرج ابنُ عياض عليه قميصٌ طويل الكُمِّ قد أدخل فيه حجراً مُدحرجاً، وربط رأسَ الكُمِّ، وتقلَّد سيفَه، والروميُّ شاكٍ في سلاحه، فحمل عليه ابنُ عياض، فطعنه الروميُّ في الطارقة، فنشب الرمحُ، فأطلقها ابنُ عياض من يده، وبادر فضرب الرومي بكُمِّه، فنثر دماغه، فعجبْنا، وكبَّرنا، فاشتهر ذكرُه على صِغَر سِنِّه، وأما أنا فحضرتُ معه أيام مملكته حروباً، كان حجر لا يؤثر فيه، وكان في هيئته كأنه برجٌ غريبُ الخلقة.

قال مسعود: ولما وصلنا الزيتونة بعد قضاء حوائجنا، جئنا لارِدة في السَّحَر، فوقعنا في خيام العدوِّ المحيط بالبلد، فجعلنا نضربُ على الطوارق، ونصيح، فنفرت الخيل، ونحن نقتُل من لقيناه، فدخلنا البلد سالمين.

قلتُ: ولابن عياض مواقفُ مشهودة، وكان فارس الإسلام في زمانه، لعله بقي إلى بعد الأربعين وخمس مئة، وقام بعده خادمُه محمدُ بنُ سعد بن مَردنيش، استخلفه عند موتِه على الناس، فدامت أيامه إلى سنة ثمان وستين وخمس مئة.

قال اليسعُ في «تاريخ المغرب» -وقد خدم ابنَ عياض، وصار كاتباً له- فذكر أنَّ ابنَ عياض التقى البرشلوني، وانتصر المسلمون، لما انفصل المصافُّ، قصد المسلمون الماء ليشربوا، وتجرَّد ابنُ عياض من درعه، ونحو الخمسمئة من الروم في غابةٍ عند الماء، فالتفت ابنُ عياض إلى أصحابه أن ارمُوا الرومَ بالنبل، فجاءه سَهمٌ في فقار ظهره، فأُخرج منه بعد قتل أولئك الخمس مئة، وإذا بالسهم قد أصاب النُّخاع، فوصل مُرسية، وتوفي بعد ولايته إياها أربع سنين، ووجد المسلمون لفقده.

٢- محمد بن سعد(١)

ابن محمد بن مَرْدَنيش الجُذاميُّ الأندلسي، الملك أبو عبدالله، صاحب مُرْسية وبَلَنْسِية.

كان صِهراً للملك المجاهد الورع أبي محمد عبدالله بن عياض، فلما توفي ابنُ عياض، اتفق رأيُ أجناده على تقديم ابن مَرْدَنيش هذا عليهم، وكان صغير السنِّ شاباً، لكنه كان ممن يُضرب بشجاعته المثُل، وابتُلي بجيش عبد المؤمن يحاربونه، فاضطر إلى الاستعانة بالفرنج، فلما توفي الخليفة عبد المؤمن تمكَّن ابنُ مردنيش، وقوي سلطانه، وجرت له حروبٌ وخطوب.

ذكره اليسع في «تاريخه»، وقال: نازَلت الروم المريّة عند علمهم بموت ابنِ عياض، ولكون ابن مَرْدنيش شاباً، ولكن عنده من الإقدام ما لا يوجد في أحدٍ حتى أضرَّ به في مواضع شاهدناها معه، والرأيُ قبل الشجاعة، وإلا فهو في القوة والشجاعة في محلٍّ لا يتمكَّن منه أحدٌ في عصره، ما استتم خمسة عشر عاماً حتى ظهرت شجاعته، فإنَّ العدو نازل إفراغة، فقرُب فارسٌ منهم إلى السور، فخرج محمدٌ، وأبوه سعدٌ لا يَعرف، فالتقيا على حافة النهر، فضربه محمدٌ ألقاه مع حصانه في الماء، فلما كان الغد طلب فارسٌ من الروم مبارزته، وقال: أين قاتلُ فارسِنا بالأمس؟ فامتنع والدُه من إخراجه له، فلما كان وقتُ القائلة وقد نام أبوه، ركب حصانَه، وخرج حتى وصل إلى خيام العدو، فقيل للملك: هذا ابنُ سعد. فأحضره مجلسه، وأكرمه، وقال: ما تريدُ؟ قال: منعني أبي من المُبارزة، فأين الذي يبارز؟ فقال: لا تعصِ أباك. فقال له: لا بد. فحضر المبارِز، فالتقيا، فضرب العلجُ محمداً في طارقتِه وضرب هو العلجَ ألقاه، ثم أومأ إليه بالرمح ليقتُله، فحالت الروم بينهما، وأعطاه الملك جائزة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٤٠.

ومن شجاعته يوم نِوَلَه: كان في مئة فارس، والروم في ألفٍ، فحمل بنفسه، فاجتمعت فيه أكثر من عشرين رمحاً، فما قلبوه، ولولا حَصَانَةُ عُدّته لهلك، فكشف عنه أصحابه، وانهزم الروم، فاتَّبعهم من الظهر إلى الليل، ثم هادن الرومَ عشر سنين.

قلت: ولليسع بن حزم في ابنِ مَرْدَنيش عدة تواريخ، وقال: له في المملكة خمسةٌ وعشرون عاماً إلى تاريخنا هذا.

قلت: أحسبه تملَّك بُعَيد الأربعين وخمس مئة.

قال: ولم تزل الأيام تخدمُه، وقد اهتم بجمع الصُّناع لآلات الحروب وللبناء والترخيم، واشتغل ببناء القصور العجيبة والنزه والبساتين العظيمة، وصاهر الرئيس القائد أبا إسحاق بنَ هَمُشْك.

قلت: هذا كان في أيام الملك نور الدين، ولا أذكر متى توفي، فلعله بعد الستين وخمس مئة.

نعم قد مرَّ في ترجمة ابن عياض أنَّ ابن مَرْدنيش بقي إلى سنة ثمان وستين.

ياقوت[1]

الأديب الأوحد شهاب الدين الرومي مولى عَسْكر الحموي، السفّار النحوي الأخباري المؤرخ.

أعتقه مولاه فنسخ بالأُجرة، وكان ذكياً، ثم سافر مضاربة إلى كيش، وكان من المطالعة قد عرف أشياء، وتكلَّم في بعض الصحابة فأُهين، وهَرَبَ إلى حلب، ثم إلى إرْبل وخراسان، وتجر بمرو وبخوارزم، فابتلي بخروج التتار فنجا برقبته، وتوصَّل فقيراً إلى حلب، وقاسَى شدائد، وله كتاب «الأدباء» في أربعة أسفار وكتاب

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣١٢.

«الشعراء المتأخرين والقدماء»، وكتاب «معجم البلدان»، وكتاب «المشترك وضعاً والمختلف صقعاً» كبير مفيد، وكتاب «المبدأ والمآل في التاريخ» وكتاب «الدول»، وكتاب «الأنساب». وكان شاعراً متفنناً جيد الإنشاء: يقول في خراسان:

وكانت لعَمْرُ الله ذات رياض أريضة، وأهوية صحيحة مريضة، غَنَّت أطيارُها، وتمايلت أشجارها، وبكت أنهارها، وضحكت أزهارها، وطاب نَسيمُها فَصَحَّ مزاج إقليمها؛ أطفالهم رجال، وشبابهم أبطال، وشيوخهم أبدال، فهان على ملكهم ترك تلك الممالك.

وقال: يا نفس الهَوَا لَكِ، إلا فأنت في الهوالِك.

إلى أن قال: فمررت بين سيوف مسلولة، وعساكر مغلولة، ونظام عقود محلولة، ودماء مسكوبة مطلولة، ولولا الأجل لأُلحقت بالألف ألف أو يزيدون.

توفي في العشرين من رمضان سنة ست وعشرين وست مئة، عن نَيِّف وخمسين سنة، ووقف كتبه ببغداد على مشهَد الزَّيْدي. وتواليفه حاكمة له بالبلاغة. والتبحّر في العلم، استوفى ابن خلِّكان ترجمته وفضائله.

ابن المُنَجَّى[1]

الشيخ الإمام العلاَّمة شيخ الحنابلة وجيه الدين أبو المعالي أسعد بن المُنَجَّى ابن أبي المُنَجَّى بركات بن المُؤَمَّل التَّنُوخِيُّ المَعَرِّيُّ ثم الدمشقيُّ الحنبلي.

وُلد سنة تسع عشرة وخمس مئة.

وارتحل إلى بغداد بعد أن تفقه على شرف الإسلام عبدالوهاب ابن الحنبلي، فتفقه أيضاً على الشيخ عبدالقادر، والشيخ أحمد الحَرْبِيّ.

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٣٦.

ولأجله بَنى الرئيس مِسْمار مدرسته[1] ووقفها عليه وعلى ذريته.

وله شعرٌ جيد، ومعرفةٌ تامة، وجَلالة وافرة.

ألّف كتاب «النهاية في شرح الهداية» في عدة مجلدات، وكتاب «الخُلاصة في المذهب» وغير ذلك.

وفي أولاده عُلماء وكبراء.

توفي في جمادى الآخرة سنة ست وست مئة، وله سبع وثمانون سنة.

وقد ولي قضاء حرّان في دولة الملك نور الدين.

ومات أخوه أبو محمد عبدالوهاب عن غير عقب سنة خمس عشرة وست مئة.

ابن الشَّهْرُزُورِيّ[2]

الإمام قاضي القضاة، كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبدالله بن القاسم بن مُظفَّر بن عليٍّ، ابن الشَّهْرُزُوريّ الموصلي الشافعي، بقيةُ الأعلام.

مولدُهُ سنة إحدى وتسعين وأربع مئةٍ.

وكان والدُه أحد علماء زمانِهِ يلقَّبُ بالمُرتَضى، تفقَّه ببغداد، وعظ وله نظمٌ فائقٌ، وفضائلٌ، ولِيَ قضاء الموصل، وهو القائل:

يا ليلَ ما جئْتُكمُ زائراً … إلاّ وَجَدْتُ الأرْضَ تُطْوَى لي

ولا ثَنَيْتُ العَزْمَ عن بابِكم … إلاّ تعثَّرْتُ بأذيالي

مات سنة إحدى عشرة وخمس مئةٍ كَهْلاً.

---

(١) وهي المدرسة المسمارية بدمشق.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٧.

وَلِيَ قضاء بلدِهِ، وذهب في الرُّسْليّة[1] من صاحب الموصل زنكي الأتابك، ثم وَفَدَ على وَلَد زنكي نور الدين، فبالغ في احترامه بحلب، ونَفَّذَهُ رسولاً إلى المقتفي.

[بناء المدارس والأوقاف]

وقد أنشأ بالموصل مدرسةً وبِطَيْبَةَ رِباطاً.

ثم إنَّه وليَ قضاء دمشق لنور الدين، ونظر الأوقاف، ونظر الخزانة، وأشياء، فاستناب ابنه أبا حامدٍ بحلب، وابن أخيه أبا القاسم بحماة، وابنَه الآخَرَ في قضاء حمص.

وقال ابنُ عساكر: ولي قضاء دمشق سنة ٥٥٥ وكان أديباً، شاعراً، فَكِهَ المجلس، يتكلَّم في الأصول كلاماً حَسَناً، ووقف وقوفاً كثيرة، وكان خبيراً بالسياسة وتدبير المُلْكِ.

وقال أبو الفرج ابنُ الجوزي: كان رئيس أهل بيته، بنى مدرسةً بالموصل، ومدرسةً بنصيبين، وولاّهُ نور الدين القضاء، ثم استوزه. وَرَدَ رسولاً، فقيل إنه كتب قصةً عليها محمد بن عبدالله الرسول، فكتب المقتفي: ﷺ .

وقال سبطُ ابن الجوزي: لما جاء الشيخ أحمد بن قدامة والد الشيخ أبي عمر إلى دمشق، خرج إليه أبو الفضل، ومعه ألفُ دينارٍ، فعرضها عليه، فأبى، فاشترى بها الهامة[2]، ووقفها على المقادسة.

قال: وقدِمَ السلطان صلاح الدين سنة سبعين، فأخذ دمشق، ونزل بدار العقيقي، ثم إنه مشى إلى دار القاضي كمال الدين، فانزعج، وأسرع لتلقيه، فدخل السلطان، وباسطَه، وقال: طِبْ نفساً، فالأمرُ أمْرُكَ، والبلدُ بلدُك.

---

(١) أي السفارة.

(٢) القرية المشهورة بالغوطة الغربية من دمشق.

ولما توفي كمال الدين، رثاه ولده محيي الدين بقصيدة أولُها -وكان بحلب-.

أَلِمُّوا بِسَفْحَيْ قاسِيُونَ وَسَلِّمُوا على جَدَثٍ بادي السَّنا وتَرَحَّمُوا

وأدُّوا إليهِ عن كئيبٍ تحيَّةً مُكلِّفُكُمْ إهداءَها القلبُ والفَمُ

قلت: توفي في سادس المحرم سنةَ اثنتين وسبعين وخمس مئةٍ.

ابن المَنِّيّ[1]

المفتي المعمَّر المسنِد سيف الدين أبو المظفر محمد بن مقبل بن فِتيان ابن مطرٍ النهروانيُّ، ابن المَنِّيِّ الحنبليُّ.

وُلد سنة سبعٍ وستين وخمس مئة.

وسمِعَ من شُهْدَةَ الكاتبةِ «مشيختَها»، وأبي الحسين عبدالحق، وأسْعَد بن يلدَرك، والحَيْصَ بَيْصَ الشاعر وتلا بالعشر على ابن الباقلانيّ.

وأجاز لخلقٍ، وكان عَدْلاً، رئيساً، إماماً، فقيهاً، بصيراً بالاختلاف، أعاد بالمستنصرية، وخضب مدةً بالسواد ثم ترك.

وكان من جِلّةِ العلماء، خدمَ في ديوان التشريفات، وأمَّ بمسجد المأمونية، وعُمِّرَ دهراً.

مات في سابع جمادى الآخرة سنةَ تسعٍ وأربعين.

ابن الشيرازي[2]

الشيخ الإمام العالِم المُفتي المسند الكبير جمال الإسلام القاضي شمس الدين أبو نصر محمد ابن العَدْل الإمام هبة الله بن محمد بن هبة الله ابن يحيى بن بُنْدار بن مَمِيْل الشيرازي ثم الدمشقي الشافعي.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٥٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣١.

وُلد في ذي القعدة سنة تسع وأربعين وخمس مئة.

قال المنذري: وَلِيَ القضاء ببيت المقدس وغيره، ودرَّس وأفْتَى، وهو آخر مَن حَدَّث عن أبي البركات والصائن والحصْني، وانفرد برواية أكثر من مئتي جزء من «تاريخ دمشق». وتَمِيْل: بالفارسية هو محمد.

وقال ابن الحاجب: هو أحد قضاة الشام استقلالاً بعد نيابة.

قلت: استقل بالقضاء مع مشاركة غيره له مُدَيْدَة، ثم لمّا استقلَّ بالقضاء الشمسان ابن سنيّ الدولة والخُوَيِيّ عُرِضَت عليه النيابةُ فامتنع، ثم عُزِلا في سنة تسع وعشرين بالعِماد ابن الحرستاني، ثم عُزل العماد وأُعيد ابن سَنِيّ الدولة.

درَّس أبو نصر بمدرسة العِماد الكاتب ثم تركَها، ثم درَّس بالشامية الكبرى. وكان رحمه الله رئيساً جليلاً، ماضي الأحكام، عديم المحاباة، ساكناً وقوراً، مليحَ الشكل، مُنَوَّر الوجه، أكثر وقته في نشر العلم والرواية والتدريس. تفقه بالقطب النيسابوري، وأبي سعد بن أبي عَصْرون وغيرهما، وفي ذريته كبراء وعُدول.

توفي في ثاني جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وست مئة.

ومات ولده تاج الدين أبو المعالي أحمد سنة اثنتين وأربعين وست مئة. وسمع من الفضل ابن البانياسي وعبدالرزاق.

ابن شَدَّاد(١)

الشيخ الإمام العلاّمة قاضي القضاة بقية الأعلام بهاءُ الدين أبو العِزّ وأبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عُتْبَة بن محمد بن عَتّاب الأسَدِيُّ الحلبي الأصل والدار الموصلي المولد والمنشأ الفقيه الشافعي المقرئ المشهور بابن شَدّاد، وهو جدّه لأمه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٨٣.

وُلد سنة تسع وثلاثين وخمس مئة.

ولازَمَ يحيى بن سعدون القرطبي، فأخذ عنه القراءات والنحو والحديث، وارتحل إلى بغداد فسمع من شُهْدَة الكاتبة، وجماعة، وتفقَّه، وبرع، وتفنَّن، وصنَّف، ورأس، وسادَ.

حَدَّث بمصر، ودمشق، وحلب.

قال عمر بن الحاجب: كان ثقةً حجَّةً، عارفاً بأمور الدين، اشتهر اسمه، وسار ذكره، وكان ذا صلاح وعبادة، كان في زمانه كالقاضي أبي يوسف في زمانه، دَبَّر أمور المُلْك بحلب، واجتمعت الألْسُن على مَدْحِهِ، أنشأ دار حديثٍ بحلب، وصنَّف كتاب «دلائل الأحكام» في أربع مجلدات.

وقال ابنُ خلِّكان: انحدر ابن شَداد إلى بغداد، وأعاد بها، ثم مضى إلى الموصل، فدرَس بالكمالية، وانتفع به جماعة، ثم حج سنة ٥٨٣ وزار الشام فاستحضره السلطان صلاح الدين وأكرمه، وسأله عن جزء حديث ليسمع منه، فأخرج له جزءاً فيه أذكار من البخاري، فقرأ عليه بنفسه، ثم جمع كتاباً مجلداً في فضائل الجهاد وقدَّمَه له ولازمه فولاه قضاء العسكر، ثم خدم بعده ولده الملك الظاهر غازياً، فولاّه قضاء مملكته ونظر الأوقاف سنة نيّف وتسعين. ولم يُرزق ابناً، ولا كان له أقارب، واتفق أن الملك الظاهر أقطعه إقطاعاً يحصُل له منه جملة كثيرة، فتَصَمَّدَ له مال كثير فعمَّر منه مدرسةً سنة إحدى وست مئة ودار حديث وتُربة. قصده الطلبة واشتغلوا عليه للعلم وللدنيا، وصار المشار إليه في تدبير الدولة بحلب، إلى أن استولت عليه البرودات والضعف فكان يتمثَّل:

مَنْ يَتَمَنَّ العُمْرَ فَلْيَدَّرِع ... صبْرا عَلَى فَقْدِ أحْبابِهِ

وَمَنْ يُعَمَّر يَلْقَ في نَفْسِهِ ... مَا قَدْ تَمَنَّاهُ لأعْدائِهِ

قال الأبَرقُوهيّ: قَدِمَ مصر رسولاً غير مرة، آخرها القدْمة التي سَمِعت منه فيها.

قال ابن خلّكان: كان يُكْنَى أولاً بأبي العز، ثم غيّرها بأبي المحاسن. قال: وقال في بعض تواليفه: أول من أخذت عنه شيخي صائن الدين القرطبي، لازمتُ القراءة عليه إحدى عشرة سنة، وقرأت عليه مُعْظَم ما رواه من كتب القراءات والحديث وشروحه والتفسير. ومن شيوخي سراج الدين الجَيّاني، قرأتُ عليه «صحيح مسلم» كله، و«الوسيط» للواحدي سنة تسع وخمسين بالموصل. ومنهم فخر الدين أبو الرضا ابن الشَّهْرُزوري سمعت عليه «مسند أبي عوانة» و«مسند أبي داود»، و«مسند الشافعي»، و«جامع الترمذي». إلى أن قال ابن خلّكان: أخذت عنه كثيراً وكتب إليه صاحب إرْبِل في حقي وحق أخي، فتفضل وتلقّانا بالقبول والإكرام ولم يكن لأحد معه كلام، ولا يعمل الطواشي طغريل شيئاً إلا بمشورته. وكان للفقهاء به حرمة تامة. إلى أن قال: أثَّر الهَرَم فيه، إلى أن صار كالفَرْخ. وكان يسلك طريق البغاددة في أوضاعهم، ويلبس زيّهم، والرؤساء ينزلون عن دوابهم إليه. وقد سار إلى مصر لإحضار بنت السلطان الكامل إلى زوجها الملك العزيز، ثم استقل العزيز بنفسه، فلازم القاضي بيته، وأسمع الحديث إلى أن مات وهو على القضاء. قال: وظهر عليه الخرف، وعاد لا يعرف من كان يعرفه، ويسأله عن اسمه ومن هو، ثم تمرّض ومات يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وثلاثين وست مئة، وله ثلاث وتسعون سنة.

الرَّحبيّ(١)

البارع العلاّمة إمام الطب رضي الدين يوسف بن حيدرة بن حسن الرحبي الحكيم.

كان أبوه كحّالاً من أهل الرَّحبة، فولِدَ له يوسف بالجزيرة العُمَرِيّة، وأقام بنصيبين مدة وبالرَّحبة، ثم قَدِما دمشق في سنة خمس وخمسين وخمس مئة، ثم أقبل

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٧١.

يوسف على الدرس النسخ ومعالجة المرضى، ولازم المهذَّب ابن النقاش، وبَرَعَ، فنوَّهَ المهذَّب باسمه، وحَسُنَ موقعُه عند السلطان صلاح الدين، وقرَّر له ثلاثين ديناراً على القلعة والبيمارستان واستمرت عليه حتى نقَّصَها المعظَّم، ولم يزل مُبَجّلاً في الدولة. وكان رئيساً عالي الهمة، كثير التحقيق، فيه خير وعدم شر، تصَدَّر للإفادة، وخَرَّج له عدة أطباء كبار.

وممن أخذ عنه المهذَّب الدّخوار.

قال ابن أبي أصيبعة في «تاريخه»: حدثني رضي الدين الرحبي قال: جميع من قرأ عليّ سُعِدوا وانتفع الناس بهم وكان لا يقرئ أحداً من أهل الذِّمة. بلى، قرأ عليه منهم عِمران اليهودي، وإبراهيم السامريّ تَشَفَّعا إليه، وكل منهما برع.

قال ابن أبي أُصيبعة: قرأت عليه في سنة اثنتين وثلاث وعشرين كتباً وانفعت به، وكان محباً للتجارة مُغْرىً بها، ويُراعي مزاجه، ولا يصعد في سلَّم، وله بستان، وكان الوزيرُ ابن شُكر يلزم أكلَ الدجاج حتى شحب لونه، فقال له الرضي: الزم لحم الضأن، ففعل فظهر دمه.

مات يوم عاشوراء سنة إحدى وثلاثين وست مئة، وله سبع وتسعون سنة، وخلف ابنين طبيبين شرف الدين علياً، وجمال الدين عثمان

الرافعي[1]

شيخ الشافعية عالمُ العَجَم والعرب إمام الدين أبو القاسم عبدالكريم ابن العلاّمة أبي الفضل محمد بن عبدالكريم بن الفضل بن الحسين الرافعي القَزْويني.

مولده سنة خمس وخمسين وخمس مئة.

وقرأ على أبيه في سنة تسع وستين.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٥٢.

وكان من العلماء العاملين، يُذكر عنه تعبُّد ونُسْك وأحوال وتواضع، انتهت إليه معرفة المذهب، له «الفتح العزيز في شرح الوجيز» وشرح آخر صغير، وله «شرح مسند الشافعي» في مجلدين تعب عليه، و«أربعون حديثاً» مروية، وله «أمالي» على ثلاثين حديثاً، وكتاب «التذنيب» فوائد على الوجيز.

قال ابن الصلاح: أظن أني لم أرَ في بلاد العَجَم مثله؛ كان ذا فنون، حَسَن السيرة، جميل الأمر.

وقال أبو عبدالله محمد بن محمد الإسفراييني الصّفار: هو شيخنا إمام الدين ناصر السنّة صِدْقاً، أبو القاسم، كان أوحد عصره في الأصول والفروع، ومجتهد زمانه، وفريد وقته في تفسير القرآن والمذهب، كان له مجلس للتفسير، وتسميع الحديث بجامع قزوين، صنَّف كثيراً وكان زاهداً ورعاً سمع الكثير.

قال الإمام النواوي: هو من الصالحين المتمكنين، كانت له كرامات كثيرة ظاهرة.

وقال ابن خلِّكان: توفي في ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وست مئة.

وقال الرافعي: سمعت من أبي حضوراً في الثالثة سنة ثمانٍ وخمسين وخمس مئة.

وقال الشيخ تاج الدين الفَزارِيُّ: حدَّثنا ابنُ خلِّكان، أن خوارزم شاه غزا الكُرْج، وقتل بسيفه حتى جَمَد الدم على يده، فزاره الرافعي وقال: هات يدك التي جمد عليها دم الكُرْج حتى أُقبلها، قال: لا بل أنا أقبل يدك، وقَبَّل يد الشيخ.

قلت: ولوالد الرافعي رحلة لقي فيها عبدالخالق ابن الشّحاميّ، وطبقته، وبقي إلى سنة نَيِّف وثمانين وخمس مئة.

وقال مظفر الدين قاضي قَزْوين: عندي بخط الرافعي في كتاب «التدوين في تواريخ قزوين» له أنه منسوب إلى رافع بن خَديج الأنصاري رضي الله عنه.

[من ذرية الإمام أبي حنيفة]

ابن القارِص[1]

الشيخ المُعَمَّرُ العالمُ المُقرئُ المُسْنِدُ أبو عبدالله الحسين بن أبي نصر بن حسن بن هبة الله بن أبي حنيفة الحَريميُّ الضرير المعروف بابن القارِص.

قال ابن الدُّبَيْثِيّ: هو آخر من روى عن هبة الله بن الحُصَيْن شيئاً من «المسند» وبلغني أنه من ذرية أبي حنيفة الإمام. وسمع أيضاً من أبي منصور القَزَّاز وأبي عليّ الخَزّاز وأضَرَّ بأخَرَةٍ.

قلتُ: حَدَّثَ عنه ابنُ الدُّبيثيِّ، وابنُ النجار، وابنُ خليل، والشيخ الضياء. وأجاز للفخر ابن البُخاري

قال ابنُ النجار: قرأ بالروايات على المبارك بن أحمد بن الناعورة، وسمع أكثر «المُسْنَد» من ابن الحُصَين، وكان صالحاً، حَسَن الأخلاق.

توفي في التاسع والعشرين من شعبان سنة خمس وست مئة وله تسعون سنة.

صاحب الغرب[2]

السلطان أبو عبدالله الملك الناصر محمد ابن السلطان يعقوب ابن السلطان يوسف بن عبدالمؤمن بن علي القيسي، وأمّه رومية اسمها زهر.

تملَّكَ البلاد بعَهْدٍ من أبيه متقدِّم. وكان أشقر أشهل، أسيل الخد، مليح الشكل، كثير الصمت والإطراق، شجاعاً مهيباً، بعيد الغور، حليماً، عفيفاً عن الدماء، وفي لسانه لثغة، وكان يُبخَّل، وله عدة أولاد. استوزر أبا زيد بن يُوجَّان، ثم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٣٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٣٧.

عزله واستوزر الأمير إبراهيم أخاه، وكتب سرّه ابن عيّاش، وابن يَخْلَفتن الفازازي، وولي قضاءه غير واحد. حاربه ابن غانية، واستولى على فاس. وخَرَجَ عليه بالسُّوس الأقصى يحيى بن الجزّارة، واستفحل أمره، وهَزَم الموحّدين مرات وكاد أن يملك المغرب، ثم قتل. ويُقلب بأبي قصبة.

وفي سنة إحدى وست مئة سار السلطان وحاصر المهديّة أشهُراً، وأخذها بالأمان من نواب ابن غانية، وانحازَ إلى السلطان أخو ابن غانية سِيْر فاحترمه.

قال عبدالواحد بن عليّ في تاريخه: بلغني أن جملة ما أنفقه أبو عبدالله في هذه السَّفرة مئة وعشرون حِمْلاً من الذهب، وردّ إلى مراكش سنة أربع وست مئة، وفرغت هدنة الفرنج، فعبر السلطان بجيوشه إلى إشبيلية.

ثم تحرَّك في سنة ثمانٍ وست مئة لجهاد العدو، فنازل حصناً لهم فأخذه، فسار الفُنش في أقاصي الممالك يستنفر عُبّاد الصليب، فاجتمعت له جيوش ما سُمع بمثلها، ونجدته فرنج الشام، وعساكر قسطنطينية، وملك أرغُن البَرْشلوني، واستنفر السلطان أيضاً الناس، والتقى الجَمْعان، وتعرف بوقعة العِقاب، فتحمَّل الفنش حملة شديدة، فهزم المسلمين، واستشهد خلق كثير. وكان أكبر أسباب الكسرة غَضَب الجُند من تأخر عطائهم وثبت السلطان ثباتاً كُليّاً لولاه لاستؤصل جيشه، وكانت الملحمة في صفر سنة تسع وست مئة، ورجع العدو بغنائم لا توصف، وأخذوا بيّاسة عنوة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

مرض السلطان أياماً بالسكتة، ومات في شعبان سنة عشر وست مئة، وكانت أيامه خمسة عشر عاماً، وقام بعده ابنه المستنصر يوسف عشرة أعوام، ويقال: تَنَكَّر محمد ليلاً فوقع به العَسَسُ فانتظموه برماحهم، وهو يصيح: أنا الخليفة، أنا الخليفة.

فهرس

العلماء

الحكام

الإسراف والترف الذي بلغته الأمة

القصص والطرائف

الأطفال وما يتعلق بهم

التأليف وما يتعلق به